غاوكسينغجيان

جائزة نوبل للآداب لعام ٢٠٠٠

جبل الروح

ترجمة

د.غسان السيد

د. وائل بركات

مراجعة الفنان: فائق دحدوح

رواية



جبل الروح

غاو كسينغجيان

جبل الرّوح

رواية

ترجمة

د. غسان السيد

د. وائل بركات

مراجعة

الفنان فائق دحدوح

اسم الكتاب: جبل الروح
اسم المؤلف: غاو كسينغجيان
ترجـمــة: د. غسان السيد
د. وائل بركات
مراجـعــة: الفنان فائق دحدوح

الطبعة الأولى ١٠٠٠/٢٠٠١

دار نينوى

للدراسات والنشر والتوزيع

سوريا – دمشق – ص.ب ٧٩١٧ تلفاكس: ٥١٣٦٥٢٦

موافقة مديرية الرقابة بوزارة الإعلام رقم / ٥٠٦٤٤/

تاريخ ٢٢/ ٢ / ٢٠٠١م

التنضيد والإخراج الفني: دار نينوى
إخراج الغلاف: دار نينوى

استهلال

عندما لاحت، في نهاية السبعينات، تباشير تحرر سياسي خجول، وأتاح هذا التحرر للكتاب الصينيين استئناف كتاباتهم، لا خدمةً للحزب وإنما للتعبير عن أنفسهم بوصفهم بشراً، أنشئت عشرات المجلات الأدبية وظهرت أعداد لا تحصى من النصوص بمختلف الأصناف والأحجام، واستخدمت التحقيقات الصحفية، والقصص، والقصائد، والروايات، والنصوص المسرحية والسينمائية لإطلاق صرخة بعينها ضد محاولة تدمير الإنسان والثقافة المطبق الذي اختبرته الصين إبان «الثورة» الثقافية المزعومة... ومن الطبيعي أن يتصدى عدد من هؤلاء الكتاب لأسباب الكارثة فأثارت استنتاجاتهم ردّات فعل عنيفة شنها عليهم نقاد الحزب الرسميين الذين ثابروا على مراقبة كل إبداع عن كثب. ومن بين جموع الكتاب انشقت جماعة نالت بعض الشهرة، وأصبح الكتاب: أشينغ، وموبان، وكان كسو، ولو ونفو و توبينيان وزهانغ وكسينكسين وروانغ ومينغ وشوغونغ وغيرهم مشهورين في الصين ويعرفهم هواة الأدب الشرقي خارجها. إن إمعان النظر في المعنى لا بد من أن يقودنا إلى إمعان النظر في المبنى. بقيت الصين ولحقبة طويلة معزولة عن العالم حتى في ميدان الإبداع الأدبي، وعليه فإن أعمال غارسيا ماركيز وسارتر وجويس وكافكا وكونديرا وكثيرين غيرهم لم تَحدث في الكتاب الصينيين،

بدءاً من نهاية السبعينات تلك الصدمة العنيفة. كان دور المترجمين في بدايته ولكن لما كان هؤلاء المترجمون والباحثون كتاباً أيضاً، فإن إسهامهم في المناقشات الأدبية كان أكبر وأعظم، تلك هي حال غاو كسينغجيان

المولود في عام ١٩٤٠ في جيانغسكي، والحائز على دبلوم في اللغة الفرنسية من معهد اللغات الأجنبية ببكين، والعاشق للمسرح منذ حداثته. راح غاو منذ نهاية «الثورة الثقافية» يعبر عن مفاهيمه الإبداعية في المجالين المسرحي والأدبي على السواء. وما أن امتلك ناصية القراءة باللغة الأصل: بريفيرPrevert وبيكت أوايونسكو الذي ترجم غاو مؤلفاته للقراء الصينين، قدم لمعاصريه بدراية العالم الخبير الكتاب الغربيين المعاصرين وتقنياتهم في الإبداع في كتابه: محاولة أولى حول فن الرواية الحديثة. وكان لحدة الحرب الكلامية التي أثيرت حول «الحداثة» بعيد صدورهذه المحاولة في عام ١٩٨١ وقع عظيم... وغالباً ما عَدّ العام ١٩٨٥ ذروة الإبداع الفني الصيني. وهذا صحيح ولكن ما كان له أن يبلغ تلك الدرجة من الحسم لو لم تسبقه تلك الحرب الكلامية التي أثيرت حول «الحداثة».

حرّض غاو، وهو المدافع الصلب عن «الحداثة» في الأدب، على تطور الأشكال الجديدة: تيار الوعي. والتخلي عن الحبكة المرسومة بدقة، واعتماد لغة و«أسلوب» متحررين من نفوذ السياسة. وبعد أن اضطر إلى إتلاف ماكان قد دوّنه إبان الثورة الثقافية من مخطوطات ونصوص مسرحية وروايات، نشر بدءا من عام ١٩٨٢ مسرحيات جديدة: إشارة خطر، موقف باص، الإنسان المتوحش.. وفيها حاول منح اللغة و«المسرحة» مكان الصدارة لبلوغ التخيلي. وسرعان ما مَنع عرض مسرحياته على مسرح الفن ببكين، فآثر عندئذ مغادرة العاصمة للقيام بجولة واسعة في مناطق الجنوب والجنوب الغربي، فتهيأت له في آن معاً فرص البحث عن آثار الصين قبل الكونفوشيوسية والكشف عن المناظر الطبيعية العذراء، وهكذا يكون غاو قد عزّز بحثه التصويري (الرسم بالألوان) وعمله الأدبي من جهة أولى وبحوثه في السلالات والتاريخ من جهة ثانية. وفي الواقع أن غاو كسينغجيان دونما ريب واحد من كتاب زماننا الأكثر انتقائية وغزارة

في الإنتاج. لقد كان مترجماً، ومنظّراً، وكاتب مسرح، وروائياً وشاعراً، ومصوراً أيضاً. وكان غاو، المتشرب بتراث التصوير الصيني بالحبر، يستخدم الفرشاة للتعبير عن مشاعره الداخلية، مستسلماً لغريلة الورقة، واندفاعة حركة يده، وسيلان الماء وانسيابه.

وبعد أن قام برحلات عديدة إلى الخارج، استقر غاوكسينغجيان في فرنسا بدءاً من عام ١٩٨٨، وأخرج مسرحياته بنجاح في كل من النمسا وإيطاليا، وفي جو من الحرية أوسع مما هي عليه في الصين القارية، على الرغم من الصعوبات المالية التي واجهته وتواجه كتاب المسرح في الغرب. ودفعته أحداث عام ١٩٨٩ إلى قطع علاقته نهائياً مع الحزب والنظام الحاكم في الصين. وفي السنة نفسها أنجز روايته «جبل الروح» التي بدأها عام ١٩٨٦ إبان تجواله في الصين البعيدة الغور، وأعلن إنه، بفضل هذه الرواية قد «سوّى حساباته مع حنينه للوطن الأم»، وإن المنفى لا يؤلمه بل، على العكس من ذلك أتاح له الاتصال مباشرة بالعالم الثقافي الغربي الذي كان قد قدّم في الصين أهم اتجاهاته.

رفض غاوكسينغجيان انتظار أيام أفضل لبلاده، وآثر الهروب المثمر ليتابع عمله الإبداعي في جميع اتجاهاته. وعلى أثر ترجمة أعماله وتقديرها في السويد أقدم على الكتابة مباشرة باللغة الفرنسية، حتى إن مسرحيته، (على حافة الحياة)، التي أخرجها (ألان تيمار) في مهرجان أفينيون axignon، قد استحوذت على إعجاب عدد من المطلعين.

تشكل رواية «جبل الروح» عملاً فريداً في المشهد الأدبي المعاصر. إنها في آن معاً؛ رحلة إلى داخل الذات، وحوار يدور بين شخصيات مُعرّفة بالضمائر الشخصية حصراً «أنا je» «أنت tu» «هو أو هي il ou elle»، (وأبعد الضمير الشخصي «نحن - nous» الذي يدل على جمهور أو جماهير، لأنه لا ريب يحيي ذكريات أليمة..)، والرواية استحضار لمناظر

وغابات لا تزال عذراء في الصين، وعرض لتمزقات عشقية أو وصف بسيط لهنيهة من السعادة مردها الصداقة أو إمعان النظر في نهر، وحكاية كلاسيكية تشردية (picaresque)* ساحرة، واستحضار لواقع عبثي أو كافكي معاصر، وتأمل في الفن الروائي، وربما ما كان لهذا الأثر القيمة ذاتها لولا اللغة التي كتب بها، إنها لغة حديثة، وموسيقية، لا تكلف فيها ولا غموض، وتفهم بتمامها إذا ماقرئت بصوت مرتفع، إن التجربة المسرحية أساسية في كتابات غاو كسينغجيان: لقد أوجد بشكل منهجي مسافة ما بين الراوي والقارئ باستعانته بـ «هي تقول ـ elle dit» عبارة تتكرر إلى ما لا نهاية، ونعثر عليها أيضاً في مؤلفاته المسرحية، فإذا كان ضمير «أنا je» هو آخر، فإن الضمير الشخصي «أنا» يصبح عند غاو كسينغجيان «أنت ـ tu» وشكلاً من أشكال الصوت الداخلي الخالص) وشاملاً على الرغم من تفرده، وعندما تسعى «الأنا ـ je» إلى تحقيق بَدَواتها، فإن الضمير الشخصي «أنت ـ tu» هو الذي يربط الراوي.

ورواية «جبل الروح» هذه التي تؤكدها الكتابات الصينية الأسطورية والتي تحمل اسماً لمكان مشكوك في وجوده على الخارطة الصينية، هل هي سعي وراء الجمال، والمعرفة المطلقة، أو هي اعتراف ذاتي، أو أن الرواية نفسها رواية مستحيلة ما دامت بعيدة عن المألوف في الشرق كما في الغرب؟

وتدل الجملة الأخيرة من الرواية بوضوح على أن الإجابة القاطعة بعيدة المنال: «في الواقع، أنا لا أفهم شيئاً، لا شيء البتة، الأمر هكذا».

---

* picareque: صفة تطلق على القصص والروايات التي شاعت بإسبانيا في أواخر القرن السادس عشر، وتميزت هذه القصص بوصفها الدقيق الواقعي لحياة الطبقات الدنيا وأنواع الظلم التي عانى منها المجتمع ـ المراجع.

استقليتَ حافلة المسافات الطويلة. فمنذ الصباح، أمضت الحافلة القديمة التي أُعيد إصلاحها من أجل المدينة، اثنتي عشرة ساعة تهتز بلا توقف. على طرق الجبل، المهملة، والكثيرة الحفر والمطبات، قبل الوصول إلى هذه البلدة في الجنوب.

الحقيبة على الظهر، والمحفظة في اليد. رحتَ تمشط بنظراتك محطة الاستراحة المقرونة بالأوراق، والعيدان المصقولة، وبقايا قصب السكر. رجال يحملون حقائب مختلفة الأحجام، ونساء يحملن أطفالاً. ينزلن من الحافلة أو يقطعون المحطة، في حين أن مجموعة من الشبان، دون حقائب أو سلال، تُخرج من كيس بذور عباد الشمس. ترسلها إلى الفم واحدة بعد أخرى قبل أن تلفظ قشورها مباشرةً. إنهم يأكلون بلباقة، وهم يرسلون نوعاً من الصفير. برشاقة وببشاشة وجه نموذجية خاصين بالأسلوب المحلي. هنا موطنهم الأصلي. ولا شيء يمنعهم من العيش بحرية كاملة، جذورهم تضرب في أعماق هذه الأرض. جيلاً بعد جيل. من غير المفيد أن تأتي من مكان بعيد لتبحث فيه عن جذورهم بدلاً منهم. ولكن. من الواضح أنه لا وجود لهذه المحطة الطرقية، أو لهذه الحافلات بالنسبة إلى أولئك الذين هجروا هذا المكان منذ وقت طويل.. كان يجب استخدام زورق مغطى بحصيرة من الخيزران لقطع النهر، واستئجار عربة يد بدولاب واحد للتنقل على البر. وإذا كنت لا تملك ما يكفي من النقود. فإنه لا يمكنك إلا الاعتماد على قدميك، حالياً، يتنافس كل أولئك الذين ما زالوا على قيد الحياة. حتى أولئك القاطنون في الضفة الأخرى من المحيط للعودة، سواء أكان ذلك بسيارة صغيرة خاصة أم بسيارة كبيرة مكيّفة، بعضهم جمع ثروة كبيرة، وبعضهم الآخر أصبح مشهوراً، وآخرون لا قيمة لهم البتة. جميعهم جاؤوا إلى هنا بسبب تقدمهم في السن. مَنْ يستطيع التخلص من هذا الحنين الجارف، وقد شارفت حياته على الانتهاء؟ أما أولئك الذين لم يفكروا قط بمغادرة هذا المكان، فإنهم يتجولون بسجيةٍ أوفر، وهم يؤرجحون سواعدهم، ويضحكون، ويتحدثون بصوت مرتفع من دون أيّ عائق. نبرتهم لطيفة ومألوفة، وتكاد تكون مؤثرة. إذا ما التقت شخصيتان متعارفتان، فإنهما لا تتبادلان كما في المدن الأحاديث الفارغة المجاملة عبر هز الرأس أو المصافحة، وإنما تتناديان بأسمائها تارة، وتتبادلان دفعة شديدة على الكتف تارة أخرى، وتعشقان ضم الصدرين المتبادل، وهذا لا يحصل بين النساء

فقط، ولكن ربما أكثر بين الرجال أيضاً. إلى جانب حوض إسمنتي لغسيل السيارات مباشرة، تقف فتاتان شابتان. إنهما تثرثران باستمرار، واليد في اليد. إن للغة النساء في هذا البلد قيمة خاصة، إلى حد أنك لا تستطيع أن تمنع نفسك من إلقاء نظرة سريعة عليهما. إذا نظرنا من الخلف إلى عمامتهما المصنوعة من نسيج أزرق ورسوم تنتقل من جيل إلى جيل، والطريقة التي عُلِقت بها، فإنها تبدو ذات أصالة متميزة. وتقترب عن غير عمد. العَمامة مربوطة تحت الذقن، بعقدة ثلاثية، فتبرز وجوهاً جميلة، بقسماتها اللطيفة، المنسجمة مع قوامهما الجميل، تمر على مقربة منها. إن لأيديهما المتشابكة على الدوام اللون الأحمر نفسه، والخشونة أيضاً، مع مفاصل قوية. مما لا شك فيه أنهما عروسان، تزوران بعض الأصدقاء، أو عائدتان إلى أهلهما. ومع ذلك، فإن تعبير 'العروس' هنا لا يعني إلا امرأة ابنها هي. وإذا ما استخدمنا هذا التعبير بطريقة غليظي الطباع في الشمال للدلالة على شابة متزوجة حديثاً أياً كانت هذه الشابة فإننا سنمطر على الفور بوابل من الشتائم. وما إن تتزوج الفتاة حتى تدعو الزوج (بالعجوز، Le Vieuk)، والحال نفسه إذا ما أرادت أن تقول (زوجي) أو (زوجك). إن للناس هنا مفرداتهم الخاصة، على الرغم من أنهم جميعاً صينيون، متحدرون من سلالة الأباطرة المؤسسين، وينتمون إلى العرق نفسه، ويحملون الثقافة نفسها. أنت نفسك، لا تعرف بوضوح لماذا جئت إلى هنا. لقد سمعت أحدهم مصادفة في القطار يتكلم عن هذا المكان المسمى (لينغشان Lingshan)، جبل الروح. كان هذا الرجل يقابلك جالساً، وكان فنجان شايك إلى جانب فنجانه، واهتزازات القطار تتسبب باصطدام غطائي الفنجانين ببعضهما، فيصدران رنيناً كانت الأمور ستبقى عند هذا الحد لو أنهما استمرا في إصدار الأصوات، أو أنهما توقفا بعد لحظة، ولكن شاءت الصدفة أنه في الوقت الذي اصطدم فيه الغطاءان، عزم كل منكما على نقل فنجانه، وفي اللحظة عينها توقف الفنجانان عن إصدار الصوت. ولكن ما إن حولتما نظركما حتى استأنفا الرنين. مددتما إصبعيكما معاً، فتوقفا. ودون أن تتبادلا كلمة واحدة، ضحكتما. عندها وبكل بساطة أزحتما الغطائين قليلاً، وبدأتما الحديث. وسألته إلى أين يتوجه:

- إلى لينغشتان.
- ماذا؟
- لينغشتان، جبل الروح
- أنت أيضاً جلت في الصين كلها من الشمال إلى الجنوب، وذهبت إلى العديد من الجبال ذائعة الصيت، مع أنك لم تسمع أحداً يتحدث عن هذا المكان قط.

رفيقك، أمامك، يغمض عينيه قليلاً، ويركن للراحة.

يدفعك فضول يمكن فهمه، ترغب في معرفة الثغرات الموجودة في معرفتك للمواقع الشهيرة. بسبب غرورك، لا تستطيع أن تحتمل أن ثمة مكاناً لم تسمع عنه مطلقاً. عند ذلك سألته عن مكان وجود لينغشان ، فأجابك، وهو يفتح عينيه.

عند نبع يو You.

أين يوجد هذا النهر يو، لا تعرف عنه شيئاً، ولكنك لا تجرؤ أن تطلب إليه ذلك. اكتفيت بهز رأسك، وهذا ما يمكن فهمه بطريقتين: 'نعم شكراً'، أو 'آه نعم. أعرفه'. أُشبع غرورك، ولكن لم يشبع فضولك بالتأكيد. بعد لحظة، سألته عن كيفية الوصول إلى المكان، وطريق النفاذ إليه عبر هذا الجبل.

- يمكن أخذ الحافلة حتى البلدة الصغيرة ووبي Wuye، ثم تصعد إلى يو بالقارب.
- ماذا يوجد هناك؟ أيمكن رؤية مناظر طبيعية، ومعابد؟ وآثار؟ سألته ذلك وأنت تتظاهر بعدم الاكتراث.
- كل شيء هناك على حالته الأصلية.
- هل يوجد غابات عذراء؟
- بالتأكيد
- ولكن ليس هذا فقط.
- وهل يوجد بشر بدائيون أيضاً؟ قلت هذا مازحاً.

ضحك، ولكن دون سخرية، وهذا ما أزعجك أكثر أيضاً. يجب أن تعرف مَن يكون هذا الصديق الجالس أمامك.

هل تدرس علم البيئة؟ هل أنت عالم أحياء؟ أم عالم إحاثة؟ لعلك عالم آثار؟

- قال وهو يشير برأسه مجيباً على كل سؤال من أسئلتك، إنني أهتم بالأحياء أكثر.
- هل تقوم ببحوث عن التقاليد الشعبية؟ عالم اجتماع؟ اختصاصي بالفولكلور ؟ عالم سلالات؟ صحفي؟ أم مغامر؟
- أنا هذا كله، كهاو.

ضحكتما معاً. هذا لا يحول دون التسلية!

واستمريت في الضحك بطلاقة. أشعل لفافة تبغ، وبدأ حديثه المطول، فروى كل ما يدور حول لينغشان من عجائب. ثم، وبناءً على طلبك، مزق علبة تبغ فارغة، ورسم مخططاً يحدد طريق الوصول إلى الموقع.

في الشمال حلَّ فصل الخريف.و هنا لم تخف حرارة الصيف على الإطلاق. والشمس، قبل غروبها وراء الجبال لا تزال تحتفظ بكامل قوتها، وعندما تضرب الجسد، يسيل العرق على طول الظهر. تخرج من محطة الطرق، وتتفحص المناطق القريبة. في الجهة المقابلة، فندق صغير لا غير، بطابق واحد، على الطراز القديم، واجهته من الخشب. وإذا ما مشيت في الطابق، تصر ألواح الخشب، ولكن الوسائد والحصر الضارية إلى السواد الشحمي أشد شناعة. من أجل الاستحمام، يجب انتظار الليل لخلع البنطال، ولرش الماء بوعاء في الممر الضيق والرطب. وهذه نقطة توقف بالنسبة إلى أولئك الذين يجولون في الريف من التجار والحرفيين.

ما زال الوقت مبكراً قبل حلول الليل، أمامك متسع من الوقت للعثور على فندق أنظف. أنت تطوف في الشوارع والحقيبة على ظهرك، وتعتقد أنك ستكتشف في هذه البلدة، علامة أو دليلاً، ولن يكون هذا إلا اسماً مؤلفاً من حرفين من لينغشان، يؤكدان لك أنك لم تخدع، وأنك لم تقطع هذه المسافة من أجل لا شيء. لقد أنعمت النظر في كل اتجاه، ولم تجد فيها أي أثر. ليس لأحد ممن نزلوا من الحافلة مظهر سائح أياً كان، حتى أنت، بالتأكيد، ولكن ما من أحد منهم له مظهرك: حذاء للجبل خفيف ولكنه متين، حقيبة ظهر. من المؤكد أن المكان هنا ليس من نوع الطرز السياحية المعروفة التي يتوجه إليها العرس والمتقاعدون حيث أعد كل شيء للسياحة، وحيث تتوزع الحافلات في كل مكان، وحيث بمستطاعك شراء خرائط سياحية لكل زاوية من زوايا الشوارع، وحيث تعرض في جميع حوانيتها القلنسوات، وألبسة البحر وقمصان داخلية لامتصاص العرق، والمناديل التي تحمل اسم المكان، إضافة إلى فنادق ينزل فيها الأجانب الذين يدفعون بالعملات الأجنبية، ومراكز استقبال، أو استراحة لا يمكن الدخول إليها إلا مع رسالة توصية، دون نسيان الفنادق الصغيرة الخاصة التي تتنافس لجذب السياح، والتي تحمل كلها اسم المنطقة المقدس كشعار لها. و أنت لم تأتِ مع جماعة إلى مكان من هذا النوع لكي تروح عن نفسك برفقتهم على طريق رابية حيث الناس يراقب بعضهم بعضاً، ويتدافعون ويسرعون الخطا، ويرمون أرضاً بقشور البطيخ، والعلب الفارغة وقوارير المياه الغازية، وأوراقاً وسخة، وأعقاب لفافات التبغ. وسيصبح هذا المكان أيضاً، في يوم من الأيام، على هذه الحال. إنك تعتقد أنك جئت إلى المكان قبل أن تبنى هذه الأبنية الرائعة، والأكشاك، والأرصفة أو الأبراج الدوارة، لتتدفع أمام كتابة منقوشة لشخص شهير، أو أمام آلة تصوير صحفي ما.

وأنت نفسك تبتهج، في دخيلتك في حين كانت تراودك بعض الشكوك. لا وجود

في هذا الشارع لأي إشارة لجذب السياح، فهل خدعت؟

لا يمكنك الإتكال إلا على مخطط كتب على عجل على علبة سجائر مخبأة في سترتك، وعلى هذا الرفيق الذي ألتقيته مصادفة في القطار. لا ولا شيء يثبت لك أن ما قاله صحيحا. لم تر قصة رحلة حقيقية. وحتى المجلد الكبير للمواقع الأثرية. المنشور حديثا، لا يأتي على ذكر هذا الاسم. صحيح أننا نعثر بسهولة على مواقع تحمل اسم لينغتي Lingtai، ولينغيان Lingyan، وحتى لينغشان Lingshan. إذا استعرضنا أطلس الصين تبعا للمناطق. لا يخفي عليكم أنه في الكثرة الكثيرة من الكتب والنصوص التاريخية القديمة، بدءا من (كتاب البحار والجبال) المؤلف الذي يدور حول التنبؤ والسحر القديم وانتهاء بالدراسة الجغرافية القديمة المعنونة (تعليقات على كتاب الأنهار النموذجي) ، يذكر موقع لينغشان، وفيه أيقظ فيه بوذا. ماها كاسيابا Maha Kasyapa المبجل. أنت لست بأحمق، عليك أن تستخدم ذكاءك، وتبحث أولا عن هذه البلدة ذات الاسم وويي Wuyi، المذكورة على علبة السجائر، وعن الطريق الذي يصل إلى لينغشان، جبل الروح.

تعود إلى محطة الحافلات. وتدخل صالة الانتظار. المكان الأكثر نشاطا في هذه المدينة الجبلية الصغيرة، فتجدها في تلك الساعة فارغة بصورة كاملة. إن نوافذ بيع البطاقات، وأماكن حفظ الأمانات مغلقة بألواح خشبية. تطرق عليها، دون الحصول على أي نتيجة. لا يبقى أمامك إلا رفع رأسك لتحصي أسماء المحطات الجميلة. الموضوعة فوق نافذة البيع: مثل قرية زهانغ Zhang، بويتك سابل Sable. مصنع الاسمنت، الفرن القديم، الحصان الذهبي، عام سعيد، فيضان، خليج دراغون، حوض أزهار الصيد.. ولكن لا يتطابق أي من هذه المحطات مع المكان الذي تبحث عنه. على الرغم من صغر هذه البلدة، فإنها تعج بالحافلات وخطوط المواصلات. فينطلق منها، في يوم واحد، خمس أو ست حافلات، ولكن طريق معمل الإسمنت ليس طريقا سياحيا بالطبع. وأما الخط الأقل استخداما، فلا يسير عليه إلا حافلة واحدة في اليوم. وعليه فإن هذا المكان هو الأكثر غموضا، ولكن وويي Wuyi موجودة حتما في الطرف الأقصى، إنها لا تلفت النظر، وتشبه جميع أسماء المناطق الأخرى، دون 'روح' خاصة. أما أنت فإنك كمن وجد أخيرا نهاية خيط كبة من الصوف المتشابك لم تكن تأمل تخليص خيوطها فإن لم يستخفك الفرح، فإنك على الأقل مطمئن البال. يجب أن تشتري بطاقة سفرك قبل ساعة من انطلاق الحافلة. تعلمك التجربة أن على المرء في هذه الخطوط الجبلية ذات الحافلة الواحدة في اليوم، أن يصارع لكي يصعد الحافلة، وإذا لم تكن مستعدا لذلك مسبقا، فسوف

يترتب عليك الوقوف في الصف في وقت مبكر، أمامك في هذه اللحظة متسع من الوقت، ولكن حقيبة السفر بدأت تثقل كاهلك. أنت تضيّع وقتك، وسيارات الشحن المحملة بالأخشاب تمر بمحاذاتك، وهي تزعق بأبواقها المزعجة. إنك تلاحظ أنه على الطريق الضيّقة التي تقطع القرية، لا تتوقف الشاحنات، من جميع أصناف الحمولات، عن إطلاق أبواقها. يُخرج ركاب الحافلات أيديهم من النافذة، ويضربون باستمرار على هيكل السيارة، محدثين بذلك ضجة كبيرة في الطريق. وهذه هي الطريقة الوحيدة لجعل المشاة يبتعدون عن الطريق.

تعرّض جميع البيوت القديمة المصطفة على جانبي الطريق واجهات من الخشب. في الطابق الأرضي، للمتاجرة، وفي الطابق الأعلى تُجفف الملابس: من حفاضات الأطفال إلى حمالات الصدر النسائية، ومن سراويل النساء القصيرة إلى الشراشف المزينة بالورود ، وهي ترفرف بين الغبار وضجيج السيارات، مثل بيارق بلدان العالم أجمع. على جانب الطريق، وعلى مستوى النظر ألصقت إعلانات لجميع أنواع الدعايات على أعمدة من الإسمنت. إحدى هذه الدعايات المروجة لمنتوج يزيل روائح الإبط الكريهة تلفت نظرك بصورة خاصة، ليس لأنك تعاني من هذا المرض، وإنما انجذبت لأصالة الخط فيها. يظهر بعد عبارة 'Bromidrose' إيضاح بين قوسين: [la bromidrose- (التي تسمى أيضاً رائحة الخالدين) – مرض كريه، يصدر رائحة كريهة. وبسببه، اضطر الكثيرون إلى تأجيل زواجهم، أو أنهم واجهوا صعوبات جمة لكسب الأصدقاء. وغالباً ما كان الفتيان والفتيات الممنوعون من إيجاد عمل أو من الالتحاق بالجيش بسبب هذا المرض يكابدون أشد الآلام، من دون أن يستطيعوا التخلص من اضطراباتهم. أما الآن، وبفضل عملية تركيبية جديدة، يمكن التخلص، نهائياً، من الرائحة الكريهة. وهذا التركيب فعّال بنسبة ٥ ,٩٧٪ من اجل متعتك في الحياة، وسعادتك في المستقبل، تعال، اعتنِ بصحتك عندنا..].

ثم تصل إلى جسر من الحجر. ليس هناك أي رائحة كريهة. نسمة منعشة تنسم بلطف. الجسر الحجري يقطع نهراً عريضاً. وعلى الرغم من أن الشارع مغطى بالإسفلت، فإننا نستطيع أن نرى بغير وضوح، أسوداً منحوتة على أعمدة محزوزة. من المؤكد أن هذا الجسر يعود إلى عهود مغرقة في القدم. فهو يستند إلى درابزون من الحجر، مدعّم بالإسمنت، إنك تنعم النظر بهذين القسمين من البلدة، المتواصلين عبر هذا الجسر. من كل جانب، سقوف عديدة من القرميد الأسود المصفوف بصفوف متلاصقة وهي تمتد على مدى النظر. ينفتح بين الجبال وادٍ

حيث حقول الأرز الأصفر الذهبي المرصعة بغابات الخيزران الخضراء. تجري مياه النهر الزرقاء الصافية، بهدوء بين شطآن مجراه الرملية. وعند وصولها إلى ركائز الجسر الحجرية المنحوتة، تصبح أكثر عمقاً، وتتحول إلى اللون الأخضر الغامق. وما أن تجتاز قوس الجسر حتى تصدر هديراً، ويتشكل زبد أبيض فوق تياراتها الجارفة. وعلى مستويات مختلفة رسمت المياه بميسهما سداً حجرياً يزيد ارتفاعه على عشرة أمتار، تعود أحداث تلك الآثار ذي اللون الأصفر المشرب بالرمادي إلى الفيضان الصيفي الأخير، هل هو نهر يو؟ وهل ينبع من لينغشان؟

ستغيب الشمس عمّا قريب. نصف دائرتها يشبه غطاء برتقالي اللون ما برحت ساطعة، ولكنها لم تعد تجهد. توجه نظرك نحو نقطة التقاء سفحي الوادي، حيث تتعانق القمم خلال الضباب والغيوم. ورويداً ورويداً وبدءاً من الأسفل راح هذا المشهد الخلاب المفعم بالحيوية و المكلل بالسواد يقضم الشمس الساطعة التي تبدو وكأنها تدور وتجول. وكلما إزداد اصطباغ الشمس الغاربة باللون الأحمر ازداد خفوتها. إنها ترسل أشعتها الذهبية إلى مياه النهر و يختلط اللون الأزرق الغامق بالأشعة الذهبية في أمواج المياه وتدفقها. تبعث الكرة الأرجوانية مزيداً من الهدوء والسكينة، ولكنها وهي تغيب في جوف الوادي، تحمل في جاذبيتها شيئاً من الإغراء. ثم أن هناك أصواتاً. يطرق سمعك واحد منها،عصي على الانتباه يشرع في الترجع في صميم فؤادك، وينتشر رويداً رويداً، فيرتعش قليلاً،وما أن يبلغ رؤوس الأصابع حتى ينطلق هارباً ليتوارى خلف مشهد الجبل الأسود، فيملأ السموات بضباب الزوال. تصفر ريح المساء في أذنيك، وكذلك صوت أبواق السيارات المتواصل وعند اجتيازك الجسر تكتشف في نهايته لوحة نقشت عليها حديثاً حروف مزخرفة بالأحمر : بني جسر يونغنينغ Yongning، في السنة الثالثة من عهد كيوان دي سونغ Kaiyuan des Song، ورُمم في عام ١٩٦٢. وضعتْ اللوحة عام ١٩٨٢. هذه إشارة تدل على أزوف السياحة.

في نهاية الجسر، صفان من المطاعم المتواضعة. في الصف الأيسر، يمكنك أن تأكل قطعة من جبنة الصوجة المجمد(*)، هذا النوع من جبن الصوجة طري ولذيذ ومتبّل جيداً بالتوابل، ويباع في الشوارع والحارات، فُقد من الأسواق ذات فترة، ولكنه اليوم يصنع من جديد بفعل وصفة يورّثها الآباء للأبناء. ومن ثم تأكل في

---

* الصوجة Soja، نبات عشبي زراعي صناعي من فصيلة القرنيات الفراشية يشبه الفاصولياء، حبوبه غذائية تحوي نسبة مرتفعة من المواد الدهنية والآزوتية.

الصف الأيمن رقائق عجين بالسمسم والبصل خارجة من الفرن ساخنة وطيبة الرائحة؛ إنك لا تتذكر ذلك قط. من المؤكد أنك لست متحذلقاً مثل السيد ما Ma الرحالة الثاني إلى بحيرة الغرب، ولكن لديك شهية للطعام جيدة، إنك تصغي ، وأنت تتذوق أكل أسلافنا هذه، إلى أحاديث الزبائن وأرباب العمل الذين يعرفون المكان جيداً. ترغب في الاقتراب منهم والاختلاط بهم مستخدماً لغتهم الجميلة ذات النبرة الريفية. لقد عشتَ طويلاً في المدينة، وتحتاج إلى أن تحتفظ في دخيلتك بحنين حميم للبلد الأم، وترغب في أن يمنحك قليلاً من السلوى لكي تستطيع العودة إلى عهد طفولتك، واستعادة ذكرياتك الضائعة.

وانتهى بي المطاف بالعثور على هذا الفندق في هذه الجهة من الجسر، في شارع قديم مرصوف بالحجارة. لقد غُسلت الأرضيات إلى حد ما. في الغرفة البسيطة التي استأجرتها، يمتد لوح خشب مغطى بحصيرة من الخيزران، وغطاء من القطن الرمادي لا نعرف أوسخاً هو أم أن لونه الأصلي هو هكذا. وتدس الغطاء تحت الحصيرة، وتنحي جانباً الوسادة الملطخة بالشحم. من حسن الحظ أن الطقس حار، ومستلزمات السرير غير مفيدة. في هذه اللحظة، تشعر بالحاجة إلى نزع حقيبة الظهر التي أصبحت ثقيلة جداً، وإلى التخلص من الغبار والعرق الملتصق بجسدك. تمددت على السرير عاري الصدر، ومتباعد الساقين. في الغرفة المجاورة، ينادي لاعبو الورق بعضهم بعضاً، يتصايحون، ويلعبون بورق اللعب، وبوسعك أن تسمع بجلاء خشخشة الأوراق التي يكشفونها على الطاولة، لا يفصلك عن الغرفة المجاورة إلا لوح من الخشب فقط، ويمكنك أن تلحظ، بإيهام عبر فتحات الستارة الممزقة، بعض الجذوع العارية الممتلئة عافية. لستَ تَعِباً إلى درجة الغرق في النعاس فوراً، فتطرق على الحاجز الفاصل. ينطلق صوت صاخب بالقرب منك. غير موّجه ضدك، ولكنهم كانوا يتبادلون الزمجرة فيما بينهم، فثمة رابحون وثمة خاسرون. في هذا الفندق، يلعبون القمار علناً، على الرغم من تحذير بوليس المقاطعة المعلّق في الغرف، والذي ينص على منع اللعب والدعارة. يقيناً إنك ترغب في رؤية مدى الالتزام بهذا القانون؟. ترتدي ملابسك وتخرج إلى الممر، تقرع على باب الغرفة المفتوح قليلاً. يستمر الضجيج عالياً، ولا أحد يعيرك انتباهه.

تدفع الباب وتدخل بحزم، والرجال الأربعة الأصحاء البنية المتحلقون حول سرير يتوسط الغرفة يستديرون لينظروا إليك. لم يدهشوا البتة، بل على العكس أنت الذي فوجئت أكثر.

أربعة وجوه غريبة مع قصاصات من ورق ملصقة على الحواجب، والشفاه،

والأنوف، والوجنات. وكانوا مخيفين ومضحكين على السواء. ولكنهم لم يضحكوا، واكتفوا بالنظر إليك. من الواضح أنك أزعجتهم، وهم غاضبون.

– آه، أنتم تلعبون الورق.. لا يمكنك إلا الاعتذار. استمروا في كشف أوراقهم. وهذه الأوراق مصفوفة، مع رسومات حمراء أو سوداء، كما لو انهم يلعبون لعبة (المهجونغ) (لعبة صينية تشبه الدومينو). وهي تنطوي أيضاً على الباب السماوي، والسجن الأرضي. الخاسر يُعاقبه الرابح بإلصاق قطعة من ورق صحيفة على مكان معين. فهل هذه دعابة ثقيلة، أو نوع من التفريغ للمكبوتات، أو علامة مثبتة من المراهنين تسمح للخاسرين والرابحين في بإعادة حساباتهم. من المستحيل معرفة ذلك من الخارج.

تخرج مسرعاً وتعود إلى غرفتك. تتمدد من جديد على سريرك، تتأمل في السقف البقع المتراصة حول المصباح الكهربائي، والتي هي، في الواقع، بعوضات كثيرة تنتظر انطفاء الضوء، لتأتي إليك وتلسعك. أنزلت الناموسية، بسرعة. النسيج الرقيق يملأ هذا الفضاء الأسطواني، ومثبت في السقف بقطعة من الخيزران تشكل دائرة. وهذا يعود إلى أنك لم تنم تحت هذا النوع من الناموسيات منذ زمن طويل، وأمضيت عمرك ضائعاً بين أحلام يقظتك، العيون مفتوحة ومثبتة على قمة النسيج الرقيق. أنت لا تعرف اليوم ما الذي يبعث فيك النشاط غداً، أنت الذي تعلمت كل ما يجب أن تتعلمه، فما الذي تبحث عنه؟ وصلتَ إلى سن النضج، ألا يجب عليك أن تعيش بهدوء، وتتفرغ بعيداً عن السعي إلى عمل عال جداً، أو متواضع جداً، وأن تقوم بدورك كزوج وأب، وتؤسس مسكناً دافئاً، مع احتفاظك بنقود في البنك تُستثمر عبر الشهور، وتترك لك قليلاً من المال عندما تسحب الفوائد للتقاعد؟

- ٢ -

في منتصف الطريق بين أعالي الهضاب التيبتية، وحوض سيشوان Sichuan، في بلد سلالة كيانغ qiang، في القسم الأوسط من جبال كيونغلي Quongli، شاهدت عبادة النار، والحفاظ على الحضارة الأصلية للإنسانية. لقد عظّم أجداد كل سلالة النار التي منحتهم بدايات الحضارة، إنها إله.

إنه يشرب الكحول وهو جالس أمام النار، ولكن قبل أن يتذوقها، يضع إصبعه في قصعته، ويحركها فوق الجمر تبدأ في الصفير، مصدرة دخاناً أزرق. في هذه اللحظة، أتأكد من أنني موجود فعلاً؟.

– أقوم بهذا القربان لإله النار لأننا بفضله نمتلك ما نشربه ونأكله.

إن نور النار تضيء خديه المقعرين، وأنفه الطويل، ووجنتيه النافرتين. يقول لي إنه ينتمي إلى سلالة كيانغ، ويعود في أصله إلى قرية جينغدا Gengda. أزعجه أن اطرح عليه مباشرة أسئلة عن الآلهة والشياطين، فقلت له ببساطة إنني جئت لدراسة الأغاني الشعبية في هذه الجبال، وسألته ما إذا كان السكان فيها ما زالوا يمارسون الرقص المسمى جيزهوانغ Gezhuang. فأعلن أنه هو نفسه قادر على الرقص، وان الرجال والنساء كانوا، قديماً، يرقصون حول النار إلى ساعات الصباح الأولى، ولكن ذلك مُنع في مرحلة لاحقة.

– لماذا؟ إنني أعرف تماماً الجواب، ومع ذلك اطرح السؤال.

– بسبب الثورة الثقافية. لقد قيل إن كلمات الأغنيات مُفسدة، واستبدلت بأقوال ماو.

– وبعد ذلك؟ طرحت السؤال عمداً، أصبح ذلك عادة قديمة.

– بعد ذلك. لم ينشدها أحد. حالياً، استأنف الناس الرقص، ولكن الكثيرين من الشباب لا يتقنونه. فبدأت بتدريبهم؟.

رجوته أن يقدم عرضاً. فنهض فوراً، ودون تردد، وبدأ الرقص وهو يغني. صوته دافئ وقوي، إنه صوت طبيعي جميل. لقد اقتنعت أنه من سلالة كيانغ، ولكن رجال البوليس الذين يهتمون بالأحوال المدنية يشككون بهذا.

إنهم يعتقدون بأن كل الذين يعلنون انتماءهم إلى القبائل التيبتية، أو إلى قبيلة كيانغ، لا يفعلون ذلك إلا للهروب من تحديد النسل، وبالتالي يكون باستطاعتهم إنجاب المزيد من الأطفال.

يغني أغنية، ثم أغنية أخرى. يقول لي إنه يحب التسلية كثيراً، وهذا ما أعتقد به أيضاً. تخلى عن عبء زعامة القرية، وعاد من جديد ليشبه رجلاً جبلياً، رجلاً جبلياً كهلاً مفعماً بالنشاط والحيوية. ولسوء الحظ، أنه تجاوز عمر المغامرات العاطفية.

إنه قادر أيضاً، على استذكار عدد من التعويذات، التي هي أشياء سحرية يستخدمها الصيادون عند ذهابهم إلى الجبل، وتسمى (طريقة الجبل الأسود)، أو (سحراً)، وهو لا ينفي هذه الحقيقة. ويعتقد جازماً أن هذه التعويذات بإمكانها أن تدفع الطريدة إلى الحفر، أو تشجعها على الوقوع في الفخ. لا يُستخدم السحر ضد الحيوانات فقط، ولكنه يستخدم أيضاً بين الناس بهدف الثأر. إذا استخدمت (طريقة الجبل الأسود) ضد الإنسان، فما عليه إلا أن يسلم بعدم القدرة على الخروج ثانية من الجبل أبداً. هذا يشبه قصة كنت قد سمعتها عندما كنت طفلاً: وهي قصة الشبح الذي ينصب حائطاً. ويسير رجل ليلاً على طريق جبلية، فيمشي، ويمشي، وفجأة يظهر له جدار، وهو سور شديد الانحدار، أو يظهر له نهر عميق لا يستطيع تجاوزه. وإذا لم يستطع فك السحر، فإنه لن يستطيع التقدم خطوة واحدة إلى الأمام، ويعود دائماً إلى نقطة انطلاقه الأولى. وهكذا، عندما يلوح الصباح، يدرك أنه لم يفعل شيئاً وعاد إلى مكانه. والأخطر من ذلك أن السحر يمكن أن يقود إلى طريق مسدود، وعندها يكون الموت.

يلقي تعويذة بعد تعويذة، أغنيات ليست بالحزينة ولا بالهادئة، كالأغنيات، ولكنها على العكس، سريعة جداً كاللهاث. لم أستطع فهم كل ما يقوله، ولكن سحر هذه اللغة، والنفس المتسلط للمسوخ والشياطين الذين يتضرع إليهم، يملآن المكان المدلهم بالدخان. اللهب يلامس الوعاء الذي يُطبخ فيه لحم الخروف على نار خفيفة، ويجعل عينيه تشعان: هذا هو المسرح الحقيقي. أما أنت، فإنك تبحث عن طريق يؤدي إلى لينغشان، وأنا ابحث عن الحقيقة عند تجوالي على طول يانغزي Yangzi. لقد واجهت مشكلة خطيرة. شخّص الأطباء خطأً مرض سرطان الرئة. اقترب مني الموت وداعبني، واستطعت أخيراً تجاوز العقبة التي وضعها أمامي. كنت سعيداً في دخيلتي. أعطتني الحياة من جديد متعة كبيرة. كان علي، منذ وقت طويل، ترك محيطي الملوث، والعودة إلى الطبيعة بحثاً عن حياة صادقة.

لقد تعلمت في بيئتي أن الحياة كانت مصدر الأدب، وأنه على الأدب أن يكون وفياً للحياة. وكان خطأي بالضبط أنني ابتعدت عن الحياة، وسعيت ضد حقيقتها. حقيقة الحياة لا تشبه صورتها الخارجية. يجب أن تكون حقيقة الحياة، أي طبيعة

الحياة، كما هي وليس أي شيء آخر. وإذا كنتُ قد ابتعدت عن هذه الحقيقة، فذلك لأني لم اعرض إلا سلسلة من حوادث الحياة التي لا يمكن أن تعكسها حقيقة. وكانت النتيجة أنني سلكت طريقاً مضللة فشوهت الواقع.

لا أعرف حقيقة إذا كنت أسير، الآن، على الطريق الجيد، في كل حال، أريد ترك العالم الأدبي في ذروة نشاطي، والهروب من غرفتي المشحونة دائماً بدخان التبغ. الكتب المكدسة فيها ترهقني إلى درجة أنها تمنعني من التنفس. إنها تعرض أشكال الحقائق كلها، بدءاً من الحقيقة التاريخية إلى حقيقة السلوك الإنساني، ولم أعد أعرف ما فائدتها. مع ذلك، إنها تبقيني، ،أصارع للتخلص من حبائلها، أعيش كحشرة وقعت في فخ بيت العنكبوت. لحسن الحظ أن الطبيب الذي أخطأ في تشخيصه، أنقذ حياتي كان رجلاً صادقاً. أعطاني صورتي الصدر الشعاعيتين اللتين صورهما لكي أقارن بينهما. على طرف الرئة اليسرى، يمتد ظل بحدود غير واضحة تماماً، إلى مجرى التنفس. وحتى لو استؤصلت الرئة اليسرى كاملة، فإن ذلك لن يفيد شيئاً. تبدو هذه النتيجة بديهية. لقد مات أبي بمرض سرطان الرئة، وكانت ثلاثة اشهر فقط تفصل بين اكتشاف المرض ووفاته. وكان الطبيب نفسه هو الذي تولى علاجي. كنت واثقاً منه، وكان هو واثقاً من العلم. كانت صور الأشعة التي صورت بمشفيين مختلفين. متشابهة في كل شيء، والطبيب لا يستطيع أن يرى فيها خطأ تقنياً. فزودني أيضاً بوصفة طبية لكي يجري لي فحصاً نسيجياً بعد خمسة عشر يوماً. لم أكن مستعجلاً، لأنه سيؤكد، دون شك، حجم هذا السرطان. قبل وفاة والدي، أُجريت له الفحوصات نفسها، وأنا أسير على خطاه، فليس في ذلك من جديد. ومع ذلك، لقد تخلصت من براثن الموت، ولا أستطيع أن أنكر أنني محظوظ. إنني أؤمن بالعلم، والقدر أيضاً.

رأيت قطعة من الخشب طولها ثلاثة عشر سنتمتراً، عثر عليه عالم سلالات في الثلاثينات في منطقة قبيلة سلالة كيانغ، نُحت عليها رجل رأسه إلى الأسفل، ويستند إلى يديه، خطوط وجهه مرسومة بالأسود. نقش على جسده حرفان: (حياة مديدة). ويسمى (ووشانغ Wuchang، الرأس إلى الأسفل). إن في ذلك بالطبع تأثير سيء. سألت زعيم القرية المتقاعد هذا إذا كانوا لا يزالون يعثرون على مثل هذا النوع من الآلهة الحارسة من الشر. فقال لي إنه يسمى (لاوجين Laogen): (الجذور القديمة). يجب أن يبقى هذا التمثال الصغير مع المولود الجديد طيلة حياته إلى وفاته. ويحمل التمثال مع الجثة، وعندما يوارى الميت الثرى، يوضع التمثال في عمق الجبل لمساعدة روح الميت في العودة إلى الطبيعة. وعندما طلبت منه

إذا كان يستطيع أن يجد لي تمثالا أحمله معي، أجابني ضاحكا إن الصيادين هم الذين كانوا يخفونه في ملابسهم للتخلص من سوء الطالع، وليس له أي فائدة بالنسبة إلى بعض الناس مثلي.

- هل يمكننا أن نجد صيادا مسنا يعرف السحر، أستطيع الذهاب معه إلى الصيد؟ فأجاب بعد إمعان الفكر لفترة من الوقت:

- إن الأب الكهل شي shi هو الأكثر موهبة في هذا المجال.
- هل يمكننا مقابلته؟
- إنه في بيت الأب شي [1] الحجري.
- وأين يوجد هذا البيت.
- إذا تجاوزت عشر نبتات زنابق بدءا من هنا، تصل إلى وادي منجم الفضة، عندئذ تتابع سيرك إلى نهاية السيل الذي يجري في الوادي، فترى بيتا من الحجر.
- هل هذا هو اسم مكان، أم أنه بيت الأب شي الحجري حقا؟

أوضح لي أن هذا اسم المكان، ولكن ثمة بيت من الحجر حقا يسكن فيه الأب شي.

وسألته إذا كان يستطيع مرافقتي إلى هذا المكان.

- لقد مات. لقد مات في أثناء نومه في سريره، كان طاعنا في السن، فعمره تجاوز التسعين سنة، ويقال أكثر من مئة سنة. في الواقع، لا أحد يعرف عمره الحقيقي.
- لم أستطع إلا أن أسأله:
- هل أحفاده لا يزالون أحياء؟
- كان من جيل جدي.. لقد كان يقول لي دائما إنه عاش وحيدا.
- ألم يكن له امرأة؟.
- عاش وحيدا في وادي منجم الفضة، دون عائلة، أو سكن، باستثناء بيت صغير له لوحده. أوه، لا تزال بندقيته معلقة في بيته.
- سألته ما الذي يقصده بكلامه. فشرح لي أنه كان صيادا ماهرا، وكان شغوفا جدا بالسحر. ولا يوجد له مثيل في أيامنا الحاضرة. الناس جميعا يعرفون

---

(١) يعني اسم شي في اللغة الصينية الحجر.

أن بندقيته معلقة دائماً على الحائط في بيته، وهو سلاح لم يخطئ هدفه قط، ولا يجرؤ أحد على أخذه. لا أعرف لماذا.

- الطريق الذي يؤدي إلى وادي منجم الفضة قُطع.
- ألا نستطيع عبوره؟
- لا. قديماً فتح أحدهم منجم الفضة في هذا المكان، ثم تولت شركة من شينغدو Chengdu، تشغيل العمال هنا. بعد ذلك، سُرقت الشركة، ورحل العمال. والممر المؤدي إلى المنجم عبر الوادي انهار في بعض الأماكن أو أنه خُرِّب.
- هذا يعود إلى أي تاريخ؟
- كان جدي ما زال حياً، وعليه فإن هذا يعود إلى خمسين سنة مضت. وليس في تقاعده الآن ما يثير الدهشة. إنه ينتمي إلى التاريخ، التاريخ الحقيقي.
- ألم يدخل أحد إلى ذلك المكان من جديد؟

بدأت رغبتي في معرفة مفتاح السر تزداد شيئاً فشيئاً.

- ليس أكيداً، ولكن على كل حال، ليس من السهل الذهاب إليه.
- هل اتلف هذا البيت أيضاً؟.
- كيف يمكن أن يتلف بيت من الحجر؟
- إنني أتحدث عن العوارض الخشبية.
- آه نعم، بالتأكيد.
- إنه يحاول، برأيي، إخافتي لأنه لا يرغب في إرشادي إلى هناك، أو تعريفي بأحد الصيادين. فسألته من جديد:
- ولكن كيف تعرف أن البندقية ما زالت معلقة على الحائط؟
- هذا ما يقال، لا بد أن أحدهم قد رآها. ويقال أيضاً إن الأب الكهل شي كان غريب الأطوار. فجسده لم يتفسخ، ولم تجرؤ الحيوانات المفترسة على الاقتراب منه ولمسه. إنه ممدد باستقامة على سريره، نحيفاً جداً، وهزيلاً جداً، وبندقيته معلقة على الحائط.
- هذا مستحيل، فالرطوبة عالية جداً في الجبل، ومن المؤكد أن الجثة قد تفسخت، والبندقية تحولت إلى كتلة من المعدن الصدئ.
- لا أعرف، هذا ما يقال منذ زمن بعيد.

- استمر بقول ما يريد دون أي اعتبار لرأيي. يلمع وهج النار في عينيه. وأجدهما تشعان خبثاً.
- أعود إلى السحر: لم تره، أليس كذلك؟
- بعضهم رآه، نحيفاً، هزيلاً، بندقيته معلقة على الحائط، هكذا استمر في متابعة حديثه بالنبرة نفسها.

كان يعرف السحر. وليس الرجال وحدهم لم يجرؤوا على أخذ بندقيته، ولكن الحيوانات أيضاً لم تجرؤ على لمس جسده،

كان هذا الصياد قد قُدِّس من قبل. اختلط التاريخ والشائعات. فولدت أسطورة شعبية. الحقيقة لا توجد إلا في التجربة، في تجربة كل شخص حصراً، وحتى في هذه الحالة، ما أن تتكرر حتى تصبح تاريخاً. من المستحيل إظهار حقيقة الأحداث، وعلينا أن لا نفعل ذلك. لنترك أهل الجدال يتجادلون حول حقيقة الحياة. المهم هو الحياة نفسها. إن ما هو حقيقي، هو أنني جالس بجانب هذه النار، في هذه البقعة التي اسودت بفعل دخان الزيت، وأنني أرى لهيبها يتراقص في عينيه، إن ما هو حقيقي هو أنا نفسي، هذا هو الإحساس الهارب الذي أحسست به منذ قليل ومن المستحيل نقله إلى الآخرين. في الخارج، حل الضباب، والجبال الداكنة تلاشت، وصوت النهر السريع يترجع داخلك وهذا يكفي.

ها أنت قد وصلت إلى بلدة ووبي Wuyi، ضمن هذا الممر المرصوف بالحجارة التي تركت عليها عجلات العربات آثارها العميقة، فجأة تعود إلى طفولتك دفعة واحدة، إلى هذه القرية الجبلية الصغيرة التي أمضيت فيها شبابك كله تقريباً. ولكنك لم تعد ترى عربات تجرها الأيدي. وحل رنين أجراس الدراجات محل صرير العجلات المصنوعة من شجر العُنَّاب المدهونة بزيت الصوجة. لكي تقود دراجة هنا، يجب امتلاك مهارات بهلوانية، فهناك حقيبة كبيرة معلقة على مقعد دراجتك، وعليك أن تنساب بين عدد كبير من المشاة، والحمالات الخشبية، والعربات اليدوية، وبسطات المحلات التجارية. من الصعب تجنب الشتائم، ولكن في خضم هذه الجلبة من الضحك، وصراخ التجار المزهوين بمنتجاتهم، والزبائن المتسوقين، يبدو هؤلاء مفعمين بالنشاط وحب الحياة. تستنشق الروائح المختلطة للخضار المجففة، وأحشاء الخنزير، والجلد الطري، والتربنتين terebenthine (زيت راتينجي)، وقشر الرز، والكلس. ينتقل نظرك بين جانبي الشارع و بين محلات الثمار المجففة، والصوجة، والزيت، والرز، والصيدلية التي تبيع أدوية صينية وغربية، ومحل الأنسجة والحرير، وبسطة الأحذية وبائع الشاي وبسطة اللحام وفرن غلي الماء، ومحل الفخار والحبال، وأسواق البخور، والعملة المصنوعة من الورق. تلاصق الدكاكين بعضها بعضاً، دون تغيّر يذكر منذ عهد كينج Qing. إن المطعم القديم (النجاح الحقيقي) الذي تتقادم فيه بلا انقطاع القدور الكبيرة الممتلئة بالمعجنات المحشوة باللحم والتوابل، والبطاطا المقلية، أعاد لافتته التي كانت قد كسرت، ورايته التي تشير إلى مطعم من (الدرجة الأولى) ترفرف في الهواء. من الواضح أن المتجر الكبير الذي تديره الدولة هو الأكثر شهرة.

كان البناء الاسمنتي المؤلف من طابقين قد جُدد، وحلت واجهة زجاجية محل الواجهة القديمة، ولكن الغبار الذي غشيها يبدو أنه لم ينظف قط. كما أن واجهات المصورين الضوئيين جذابة للغاية. فهي تغص بصور فتيات شابات مغناجات، أو متكرات ومتجملات. ويبدو أن الجمال المحلي هو الأقرب للجمهور، من مشاهير إعلانات السينما. لقد شهد هذا المكان، بالفعل، ولادة جمال أجمل من اليشب (حجر كريم قريب من الزبرجد لكنه أكثر صفاء منه)، الوجنات معطرة، والحواجب مرسومة وفق تنسيق دقيق للمصوّر، مع ألوان حمراء وخضراء فاقعة. ويُعرض

أيضاً صور مكبرة ملونة. هناك إعلان يشير إلى أنه يمكننا الحصول على الصور خلال عشرين يوماً، ولكنه لا يصرح بوجوب الذهاب إلى العاصمة الإدارية من اجل تحميضها. لو لم يحالفك الحظ، لكنت ولدت في هذه البلدة، وكبرت فيها، وأسست بيتاً بزواجك بجميلة من جميلاتها ممن يمنحنك منذ زمن بعيد صبياناً وبنات. أنت تضحك من هذه الفكرة، وتبعدها عنك بسرعة لكي تتجنب ظنونهم إنك تولي اهتماماً بواحدة منهن، فيتعللن بأوهام زائدة. تشرد بتفكيرك، وأنت تنظر إلى السقيفات فوق الواجهات. والستائر معلقة على النوافذ، والزهور مصفوفه على الأطراف. لا تستطيع أن تمنع نفسك من التساؤل كيف يعيش الناس المقيمون في هذه البيوت. هناك دائرة عالية على الباب المقفل. إن دعائم البيوت المائلة، ونهاياتها الداعمة للسقوف، والدرابزين من الخشب المحفور المهترئ، كل هذا يبين بوضوح القوة التي كان يتمتع بها سكانها قديماً: إن مصير صاحب هذا البيت وذريته يشغل الفكر. في المقابل، يباع في الدكان الملاصق الجينز والقمصان من صنع هونغ كونغ، وكذلك جوارب النايلون. تُظهر بعض الدعايات نساءً أجنبيات وهن يعرضن سيقانهن الملتصقة بها والمنسجمة معها ووضع فوق الباب لافتة بحروف مذهبة: شركة جديدة للاستثمار التقني، من دون أن نعرف التقنية المقصودة. أبعد من ذلك بقليل، هناك واجهة مملوءة بكمية من الكلس الحي. هنا نهاية الشارع، وبعيداً عنه ثمة مصنع لصناعة شعيرية الرز، وثمة فراغ مزروع بأعمدة تمتد بينها أسلاك معدنية تتدلى عليها خيوط الشعيرية. تدير رأسك، وتدخل الممر الصغير الذي ينكشف بجانب بائع الشاي و تضيع من جديد بين ذكرياتك.

وراء مدخل مخفي جزئياً، ثمة فناء رطب، وحديقة صغيرة مهملة، ومهجورة. وفي زاوية من الزوايا، كمية من الأنقاض، أنت تتذكر هذا الفناء الموجود بالقرب من بيتك، والذي كان جدار سوره قد انهار. إنه يخيفك ويجذبك في الوقت نفسه. إنك تعتقد أن الثعالب التي يتحدثون عنها في الحكايات قد خرجت من هنا. بعد المدرسة، لم تكن تستطيع أن تمسك نفسك عن القدوم إليه وحيداً، بسبب توترك وقلقك. لم ترَ فيه الثعالب إطلاقاً، ولكن هذا الإحساس الغامض رافق، دائماً، ذكريات طفولتك. هناك كان يوجد مقعد حجر محطم وبئر جفت الآن دون شك. كانت الريح، في عز الخريف، تصفر فوق السقف الذي كانت تنبت فوقه أعشاب صفراء ذهبية، والشمس ترسل أشعتها. إن لهذه المنازل التي بقيت أبوابها مغلقة، تاريخها الخاص. وهو يشبه، في كل شيء، تاريخاً قديماً. في الشتاء كانت الريح تصفر في الأزقة. كنت تنتعل حذاءً جديداً محشواً بالقطن، وتأتي مع الأطفال

الآخرين تضرب الأرض بنعليك في زاوية هذا الجدار، وأنت، دون شك، تتذكر هذه العدية❖:

في ليلة قمراء، وأنا على ظهر حصاني أحرق البخور، الأخت الكبرى لوو Luo تفلت آنسة بسلى ... أضعفتُ وقطفت البسلىً، ولكن قرن البسلى كان فارغاً وبالأب جي Ji اقترنت، والأب جي قصير جداً، وبالسرطان تزوجت، جاز السرطان الحفرة والبزاقة تململت، والبزاقة بذلك وشت وإلى الراهب رفع شكواه والراهب تلا التعاويذ وإلى غوانين Lo Guanyin تضرّعَ، والغوانين بالت، شيطاناً صغيراً بالت فآلم ذلك كرشها، فاستجرُت بقديس الثراء، والقديس دخل في غيبوبة، لقد فشلت، ومئتي قطعة نقدية بدّدت.

على السطح، تتمايل الأعشاب اليابسة أو الحية، البيضاء أو الخضراء، مع الريح. منذ كم من السنين لم تر هذه الأعشاب على السطوح؟ كنت بقدميك العاريتين تصفق بلاطاً حجرياً طبعت عليها عجلات العربات آثاراً عميقة، فتخرج من طفولتك، لتعود إلى الحاضر. إن أخمص قدميك العاريتين والقذرتين، يصفق أمامك. أن تصفق بقدميك على الأرض حقاً ليس هو المهم. إن ما تحتاجه، هي هذه الصورة الداخلية.

وانتهيت بالخروج من متاهة الأزقة هذه، ووصلت إلى الطريق الرئيسية. هنا تقوم الحافلة القادمة من عاصمة الإقليم بنصف دورة وتغادر على الفور. على طرف الطريق، ثمة محطة للحافلات. وفي الداخل، نافذة لبيع بطاقات السفر، بالإضافة إلى مقاعد طويلة، هناك نزلت من الحافلة منذ قليل. وفي الجهة المقابلة، تقريباً، بيت منخفض، وفندق جدرانه مطلية بالكلس مع كتابة محفورة: غرف جميلة في الداخل. سترى ذلك وهذا بدا لك نظيفاً. على كل حال، عليك أن تعثر على مأوى. تدخل. ستجد خادمة متقدمة في السن تكنس الممر. تسألها إذا كان ثمة غرفة فارغة. تكتفي بالإجابة: (نعم). فتسألها عن المسافة التي تفصلك عن لينغشان. نظرت إليك شزراً، وهذا ما يدل على انك في فندق شعبي. تتقاضى راتباً شهرياً، وليس عندها ما تضيفه.

ثانياً- وبمقبض مكنستها، تدلك، على باب مفتوح.

تدخل، حقيبتك في يدك. في الداخل سريران. يتمدد رجل على أحدهما، ساقاه مطويتان، وبين يديه كتاب. العنوان (سيرة غير رسمية للثعلب) مسجل على ورقة

❖ مقطوعة يرددها الصغار لتعيين من يقع عليه الدور في اللعب.

خارجية تحمي الغلاف. ومن الواضح، أن الكتاب مُستأجر من محل تجاري. توجه إشارة إلى هذا الرجل. يضع كتابه، ويبادلك بدوره التحية بحركة من رأسه.

- صباح الخير
- وصلت؟
- نعم
- أتدخن؟ ورمى إليك بلفافة.
- شكراً. وتجلس على السرير مقابله. إنه بحاجة إلى شخص يثرثر معه.
- كم من الوقت ستمكث هنا؟
- نحو عشرة أيام. يجلس ويشعل لفافة تبغه.
- وسألته عرضاً:
- هل أتيت لتشتري بعض الأغراض؟.
- إنني أهتم بالأخشاب.
- أهذا سهل هنا؟ فأجاب باهتمام بالغ:
- هل تعرف القوانين؟
- أي قوانين؟
- قوانين الخطة الوطنية.
- لا
- إذن، هذا صعب. يتمدد من جديد.
- هل تشكو هذه المناطق الحراجية من نقصان الخشب أيضاً؟
- الخشب موجود هنا، ولكن الأمر مختلف بالنسبة للأسعار. لاحظ أنك غير خبير، فأجاب بعدم اكتراث.
- تبحث عن ثمن زهيد، أليس كذلك؟
- هم... وافق بتردد، ثم تناول كتابه من جديد.

عليك أن تتوجه إليه بالثناء أكثر من مرة لكي يجيبك على استفساراتك:

- هل لديك معلومات عن ذلك، أنت الذي جلت في كل مكان لكي تشتري بعض المواد؟
- أجاب بتواضع، بتاتاً.

- كيف نستطيع الذهاب إلى لينغشان؟

لم يجب، ليس لك إلا أن تشرح له أنك جئت لتتأمل المناظر، وتسأله عن مكان وجود المواقع الجميلة.

- على ضفة النهر، هناك سرادق. عندما تجلس هناك وتتأمل الجبل أمامك ترى مشهداً لا يخلوا من الجمال.

- سأتركك لترتاح، قلت هذا بلهجة مسالمة.

تضع حقيبة سفرك، وتسجل اسمك عند الخادمة قبل الخروج. في نهاية الطريق الرئيس، ثمة رصيف للركوب ودرجات من الحجارة شديدة الانحدار، تنحدر أكثر من عشرة أمتار . هنا رست مراكب مغطاة بحصر سوداء مزودة بعقافات من الخيزران. خيط ضعيف من ماء النهر يسيل ضمن مجرى عريض واسع جداً. من الواضح أن الفصل ليس فصل الكروم. هناك في الطرف المقابل من الضفة مركب للعبور يتدافع الناس عليه.. الناس الجالسون على الأدراج من جهتك ينتظرونه جميعاً.

ينتصب فوق الرصيف، على السد، سرادق سقفه مقوس. وفي الجوار لا يوجد إلا سلال من الخيزران المجدول. وفي داخل السرادق، يجلس فلاحو الضفة الأخرى من النهر، والذين أنهوا بيع منتوجاتهم. ومن خلال ثرثرتهم، ينتابك إحساس بمعرفة لغة حكايات السونغيين. كان السرادق قد أعيد دهنه حديثاً. تحت مقدمة السقف رسومات لتنينات مختلفة، وطيور العنقاء، ذات الألوان الزاهية، وعلى عامودي الواجهة يواجهك قولان مأثوران متوازيان:

- أجلس أنت تعرف عيوب الآخرين دون أن تقول ذلك.

- في الطريق، تتذوق مياهاً نقية من أنهار عجيبة.

تعبر من خلف العامودين. فتجد قولين مأثورين آخرين:

عندما تغادر، لا تنسى الأمنيات التي نسمعك إياها.

استدرْ، وتأملْ موطن طائر العنقاء، في جبل الروح.

وتستخفك الحماسة على الفور. كان لا بد أن يكون مركب العبور قد وصل: الرجال الذين تقاضوا أجرتهم رحلوا، غادروا، وهم يضعون الحمالة المزدوجة على أكتافهم، باستثناء رجل مسن بقي وحيداً. .

- أيها العجوز من فضلك، هاتان العبارتان..

- فرد الرجل المسن على الفور: تريد أن تتحدث عن هذه الأقوال المأثورة.

- فسألت بمزيد من الإقدام: نعم أيها الشيخ، من الذي خط هذا الحكم إذا

سمحت؟

فأجاب باجتهاد وبنبرة عتاب واضح:

- المعلم العظيم المجاز شين كسيانينغ!
- وفغر فاه كاشفاً عن بعض أسنانه النادرة والضاربة إلى السواد.
- لم اسمع به من قبل قط. لا يسعك إلا أن تعترف له بجهلك صراحة. في أي جامعة يدّرس هذا الأستاذ؟
- فرد بنبرة استخفاف بالغ: من الطبيعي ألا تعرفه، لقد عاش منذ أكثر من ألف عام.
- فقلت محاولاً تبرير نفسك، قلت: لا تسخر مني أيها الشيخ.
- فأجاب مشيراً إلى العارضة البارزة، ألا تحمل نظارتيك، أم ماذا؟

رفعت رأسك نحو عارضة أفقية، لم يُعَد طلاؤها. في الواقع يمكن أن نقرأ عليها كتابة بحبر قرمزي: شيد في الشهر الأول من ربيع سنة جينجيا Gengjia، في السنة العاشرة من عهد شاوكسينغ دي سونغ Shaloxing des song، ورُمم في التاسع والعشرين من الشهر الثالث من سنة جياكسو Jiaxu، في السنة التاسعة عشرة من حكم كيانلونغ دي كينغ.

خرجت من مركز استقبال المحمية الطبيعية، وعدت إلى بيت زعيم القرية المتقاعد، من قبيلة كيانغ. على الباب قفل كبير. ذهبت إلى هناك سابقا ثلاث مرات، من دون أن أستطيع العثور عليه. فاعتقدت أن هذا الباب الذي يمكنه أن يفتح أمامي عالما غريبا قد أقفل بصورة نهائية.

غادرت متسكعا تحت مطر خفيف. لم امش تحت هذا المنظر من المطر والضباب منذ سنوات عديدة. مررت بالقرب من المركز الصحي المركزي لمقاطعة (وولونغ Wolong)، والذي بدا مهجورا ؛ يخيم على الغابة هدوء كامل، لا يعكر صفوه إلا هدير سيل جارف صادر من بعيد. لم اشعر بمثل هذه اللامبالاة منذ زمن بعيد. لم اعد أشعر بالحاجة إلى التفكير على الإطلاق، فتركت روحي تهيم. لا اثر لظل إنسان أو سيارة على الطريق الرئيس، كل شيء أخضر، هذا أوان الربيع.

على جانب الطريق، بيت كبير معزول ومهجور. أيكون هذا مأوى زعيم قطاع الطرق سونغ غوتي Song Guota، الذي حدثني عنه مساء البارحة مسؤول التوجيه السياسي في المحمية الطبيعية؟ منذ أربعين عاما، كان هناك طريق جبلي واحد، تسلكه القوافل، ويعبر من هنا نحو الشمال، كان يتجاوز جبال بالانغ Balang، على ارتفاع تنوف عن خمسة آلاف متر، ويتوغل في مناطق القبائل التيبتية في أعالي هضاب كينغي Qinghai، والتيبت Tibet، ويحاذي نحو الجنوب مينجيانغ لكي يدخل بعد ذلك حوض سيشوان Sichuan. وعلى المهربين المحملين بالأفيون القادمين من الجنوب، وأولئك الذي يأتون من الشمال محملين بالملح، أن يدفعوا بحصافة ما عليهم من أتاوة، ويعد هذا إكراما، لأن من يتمرد على ذلك سيجد نفسه ممزق الوجه. وستكون تلك الرحلة على ملك الجحيم التي لا عودة منها.

هذا بيت قديم كله من الخشب بصورة كاملة؛ مصراعي الباب الثقيلين يطلان على ساحة واسعة مهملة محاطة بمجموعة من المباني التي تتسع لقافلة كاملة من عشرات الخيول.إنني أعتقد، أنه في ذلك العصر، كان يكفي أن يغلق الباب الكبير ويقف قطاع الطرق، وهم مسلحون بالبنادق، على الشرفات الخشبية التي تحيط بأعلى المباني، لتجد القوافل التي تمر من هنا ليلا ، أنها وقعت في الفخ. وحتى إن حصل تبادل لإطلاق النار فإن الساحة لا تحتوي أي زاوية صغيرة ميتة لا تصلها الطلقات.

في الساحة، درجان. صعدت، مصدرا صريرا بخطواتي. تقدمت بخطى ثقيلة، لكي أعلن عن وصولي، ولكن الطابق مهجور أيضا. دفعت أبواب الغرف الخالية،

واحداً بعد الآخر، فلم اعثر إلا على الغبار ورائحة العفونة. ما خلا عمامة رمادية مزخرفة معلقة على سلك من الحديد، وحذاء تالف يدل على أن هذا البيت كان مسكوناً، فمنذ إحداث المحمية الطبيعية نقلوا جميع المؤسسات والإداريين الذين يشغلون هذا البناء الكبير إلى شارع صغير طوله مئة متر أنشأه مكتب إدارة الأعمال: مؤسسة بيع السلع التموينية، ومحطة بيع المنتوجات المحلية، ومخزن الزيت والحبوب، والمركز البيطري، أما بالنسبة إلى الرجال المئة، الذين يجتمعون في الطابق الأول من هذا البناء تحت أوامر سوناغ غوتي Song Guotai، فلم يبقَ من آثارهم الشيء الكثير، لا منهم شخصياً، ولا من بنادقهم. وكانوا في ذلك العصر، يتمددون على حصيرة من القش، ويدخنون الأفيون، وهم يعذبون النساء اللواتي خطفوهن. وكان على هؤلاء النساء ، إعداد وجباتهم خلال النهار، مضاجعتهم بالتناوب في الليل بالتناوب ويحصل أحياناً، عند اقتسام الغنائم بشكل غير عادل، أو الحصول على امرأة شابة، أن يندلع شجار، ليحسم بإطلاق النار. إنني أفكر بتلك الحيوية التي كانت تسود هذه الأمكنة.

وحده الزعيم سونغ غوتي استطاع السيطرة عليهم. كان مشهوراً بشراسته ومكره.

إن الموجه السياسي الذي يقول ذلك مقتنع جداً عندما يتكلم. ويقول إن بوسعه، خلال التدريبات، أن يستدر دموع الطالبات عند أحاديثه عن حماية حيوانات البندا[٢]، أو حتى عن الوطنية.

ويقول أيضاً إن إحدى النساء ممن خطفهن من قطاع الطرق ما زالت على قيد الحياة، وهي مقاتلة في الجيش الأحمر.

عندما عبرت المسيرة الكبرى عام ١٩٣٦، سهل ماو يرغي Maoergai، وقعت وحدة من الجيش الأحمر في كمين نصبه اللصوص. وخطفوا نحو عشر عاملات تنظيف، واغتصبن ولم تكن أصغرهن تتجاوز السبعة عشر أو الثمانية عشر عاماً، وهي الوحيدة التي ما زالت على قيد الحياة. وتناقلتها أيد عديدة قبل أن يشتريها جبلي معمر من قبيلة كيانغ، ويتخذها زوجة له. تعيش حالياً في واد قريب من هنا. وهي ما زالت قادرة على تذكر صحبتها، ووحدتها، وحتى اسم مدربها، الذي أصبح حالياً موظفاً كبيراً. وأضاف الموجه السياسي، وهو يتنفس من الأعماق؛ من المؤكد أنني لا أستطيع رواية هذا إلى الطلاب، ثم عاد إلى زعيم قطاع الطرق سونغ غوتي. ويتابع، في الأصل، لم يكن سونغ غوني إلا موظفاً صغيراً، استسلم لتهريب الأفيون مع تاجر، قُتله فيما بعد زعيم اللصوص المقيم هنا. فركن سونغ غوتي إلى هذا

---

(٢) حيوانات البندا Pandas، حيوانات لبونة لاحمة قريبة الشبه من الدب، وتعيش في غابات جبال هيمالايا. (م)

الزعيم الجديد، وتعاون معه.

وبعد حوادث كثيرة، أصبح رجل ثقة الزعيم، وعاش في حوش صغير خلف البيت. بعد ذلك، دُمر الحوش بقذيفة من جيش التحرير، وقد اجتاحته الأشجار حالياً.

وكان في ذلك العصر مدينة صغيرة حقيقية تسمى Chongqing [٣] انغمس الكهل شين Chen، زعيم اللصوص، في ملذاته ليلاً نهاراً، في خلوة زاخرة بالخليلات. وكان سونغ غوتي الشخص الوحيد المسموح له بخدمته في البيت. وذات يوم، وصلت قافلة من ماير كانغ Maerksang، لقد كانت، في الواقع، مجموعة من قطاع الطرق، الذين وقع اختيارهم على ذلك المأوى المهيأ للسكن. تصارعت العصابتان ليومين كاملين، ووقع قتلى وجرحى من الطرفين من دون أن ينتصر أحدهما فأجريت المفاوضات وتمت المصالحة، وختم بفرك الفم بدم حيوان. عند ذلك فُتح الباب الكبير لاستقبال الأعداء. اختلط قطاع الطرق، بعضهم ببعض، في كل أرجاء البيت وهم يلعبون ويشربون. وقد كان هذا في الواقع، دهاءً من الزعيم الكهل الذي كان يرغب في أن يُثمل أعداؤه. وأمر أيضاً، نساءه الشابات بالكشف عن أثدائهن، وأن يحومن ، كالفراشات، حول الطاولات. من كان يستطيع القضاء على هذه المجموعة من قطاع الطرق؟ وشرب الجميع حتى الثمالة. وحدهما الزعيمان بقيا جالسين إلى المائدة. وبناء على إشارة متفق عليها مع الكهل شين، كان سونتغ غوتي يملأ الأقداح بالشراب. ولكنه أمسك لحظة صب الشراب بمسدس كان الزعيم المعادي قد وضعه إلى جانبه، وبسرعة، أطلق طلقتين على شين الكهل، وعلى عدوه، فأرداهما قتيلين، ثم سأل قطاع الطرق الآخرين: «من يرفض الاذعان؟»

وتبادل الرجال النظرات دون أن يجرؤ أحدهم أن ينبس ببنت شفة.

بعد هذه الأحداث، أقام سونغ غوتي في حوش الكهل شين، وامتلك النساء كلهن.

قص علي هذه القصة بتأثر شديد ليس في زعمه أنه يستدر دموع طالباته أثناء دروسه. مدعاة للفخر أو المباهاة قال بعد ذلك، إنه في عام ١٩٥٠، حاصر جنود الوحدتين المبنى ليلاً، والحوش الصغير، وعند الفجر، وجهوا إنذاراً إلى قطاع الطرق بضرورة تسليم أسلحتهم، والخروج من الطريق المستقيم. سُدَّ الباب الكبير بنيران رشاشات عديدة ، ولم يكن باستطاعة أي شخص الهروب، يقال إنه شارك شخصياً في المعركة.

- وبعد ذلك؟

---

(٣) أكبر مدن أقليم سيشوان Sichuan، وكانت رمز للمتعة والترف.

- في البداية، قاوموا، بالتأكيد، ودُمر الحوش بقذيفة مدفع. ألقى الأحياء أسلحتهم، واستسلموا، باستثناء سونغ غونتي. ودخل الآخرون لتفتيش الحوش، ولكنهم لم يجدوا فيه غير عدد من النساء الحزونات. يقال إن في غرفته ممراً سرياً يؤدي إلى الجبل، ولم يكتشف مكانه أحد. لقد مر الآن أربعون عاماً. بعضهم يقول إنه ما زال حياً، وآخرون يقولون إنه مات، دون أي دليل. وهذا كله ليس إلاّ افتراضات.

استند على كرسي من الخيزران، واستأنف، وهو يحصي بأصابعه:

- هناك ثلاث فرضيات، حول مصيره: تشير إحداها على أنه هرب إلى منطقة أخرى، وأصبح منسياً، وأقام فيها كأي فلاح آخر. تقول الفرضية الثانية إنه قُتِلَ خلال المعركة، ولكن رجاله لم يفصحوا عنه، فلهم قوانينهم الخاصة. إنهم قادرون على الاقتتال بضراوة ، ولكنهم لا يركنون إلى الآذين أبداً، تلك هي أخلاقياتهم الخاصة إنها الروح الفروسية للخارجين على القانون، مع احتفاظهم بوحشية فظيعة. وإن لقطاع الطرق أيضاً شخصية مزدوجة. أما النساء فإنهن ينتسبن إلى العصابة فور وقوعهن في قبضتها على الرغم من اختطافهن، ولا يخونّ رجالها حتى وإن تعرضنّ لإهاناتهم.

هز رأسه، ليس من باب عدم الفهم، ولكن ربما بسبب التفكير في تركيب الكائنات الإنسانية.

- من المؤكد أنه لا يمكن استبعاد الإمكانية الثالثة وهي انه هرب إلى الجبل، دون أن يستطيع الخروج منه، فمات جوعاً.

- هل حدث من قبل أن أحداً ما ضاع في الجبل، ومات فيه؟

- وكيف لا: ليس الفلاحون القادمون من مناطق أخرى ليجمعوا منه النباتات الطبية وحسب، بل الصيادون من المنطقة الذين ماتوا من التعب والإرهاق أيضاً.

- أهكذا؟ لقد أبديتُ اهتماماً كبيراً بهذه المعلومة الأخيرة.

- العام الماضي، أمضى أحدهم عشرة أيام في الجبل دون أن يعود. أخبر أهله بلدية مركز المنطقة التي أعلمتنا بدورها. اتصلنا بمركز البوليس في المنطقة الحراجية الذي أطلق كلباً بوليسيا ليقتفي أثره. جعلناه يشم ملابس الرجل، واقتفى أثره. أخيراً، وجدناه ميتاً محصوراً في شق صخري.

- كيف يمكن أن يحدث هذا؟

- كل شيء ممكن. الخوف ومخالفة قانون الصيد.. الصيد ممنوع منعاً باتاً

في المنطقة المحمية. حدث أيضاً أن رجلاً قتل أخاه الأصغر.

- ولماذا؟

- لقد خاله دباً. كان الأخوان ينصبان الأفخاخ في الجبل لجني المسك*. وهذا يدر مالاً وفيراً حالياً، تطورت الأفخاخ؟. إذا فككنا أسلاك ورشات التحريج، فإننا نحصل على أسلاك من الحديد تسمح لنا بوضع مئات من الأفخاخ في الجبل، في يوم واحد. المنطقة فسيحة جداً إلى حد أننا لا نستطيع مراقبتها كلها، وأمام طمعهما لا يمكن فعل شيء. وضع الأخوان في الجبل الفخ جانب الفخ، ثم تفرقا. فمن الممكن أن يكونا قد وقعا ضحية السحر إن أخذنا بالخرافات السائدة في هذا الجبل وصدقناها. لقد التقا حول قمة جبل وجمعتهما المصادفة وجهاً لوجه. ومن خلال الضباب الكثيف، رأى الأخ الأكبر خيال الأخ الأصغر فظنه دباً، وأرداه قتيلاً. عاد إلى بيته منتصف الليل حاملاً بندقية أخيه. ووضع البندقيتين، قرب باب سياج حظيرة الخنازير في بيته، لكي تراهما والدته عندما تأتي لإطعام الحيوانات عند الفجر. ودون أن يمر على بيته، عاد إلى الجبل ليجد المكان الذي قتل أخاه فيه، وقطع رقبته.

نزلت من المبنى الخاوي، ومكثت لحظة في هذا الحوش الذي كان يستوعب قافلة كاملة، ثم توجهت نحو الشارع الكبير. لما يزل الشارع خاوياً م المشاة والعربات بعد وأمعنت النظر في الجبل الأخضر المختفي وراء الضباب، أمامي. أرى سفحاً منحدراً عليه خشب يميل لونه إلى الرمادي. إن الغطاء النباتي قد دُمر بصورة كاملة. قديماً، وقبل أن يصل الطريق إلى هذا المكان، كان السفحان مكسوين تماماً بالغابات الكثيفة. كان لدي رغبة دائمة في الذهاب إلى الغابة البكر، دون أن أستطيع أن أعبّر، لماذا هذا الأمر يجذبني كثيراً.

ما انفك الرذاذ يتساقط ويزداد كثافة شيئاً فشيئاً ليشكل حجاباً رقيقاً يغطي الذرى الجبلية، ويرسم الظلال على الوهاد، والوديان. رعد مبهم مكتوم يقصف خلف القمم الجبلية. اكتشفت فجأة، أن الضوضاء التي أسمعها دون غيرها، هي ضوضاء النهر في أسفل الطريق. إنه لم يتوقف عن الهدير، مع التدفق نفسه. إن النهر الذي يهبط من الجبال المغطاة بالثلوج ليصب في مينجيانغ Minjiang، يجري باندفاع شديد، وقوة خطرة شديدة الوطأة، إلى درجة لا نراها في مجاري المياه في السهول أبداً.

---

* مادة دهنية عطرية فاخرة سمراء اللون يفرزها أيِّل المسك (م)

لقد ألتقيتَه بالقرب من هذا السرادق. كان انتظاراً طويلاً، وأملاً غامضاً، ولقاءً عابراً غير متوقع. وعند أفول الشمس، عدتَ أدراجك إلى ضفة النهر. في أسفل الدرجات الحجرية المنحوتة، يتردد صوت واضح لمضارب الغسيل الطافي على سطح الماء. امرأة واقفة بالقرب من السرادق. إنها، مثلك، تسرح ببصرها نحو الجبال التي تمتد على مدى النظر، على الضفة الأخرى، وأنت لا تستطيع أن تمنع نفسك من النظر إليها. إنها غير عادية في مثل هذه القرية الصغيرة: إن قوامها، ووقفتها، ومظهرها التائه، هذا كله لا يدل على أنها لا تنتسب إلى هذه المنطقة؟.

إنك تبتعد، ولكنك في دخيلتك تفكر فيها، وعندما عدت إلى أمام السرادق، لم تجدها. وكان الظلام قد حلّ، وتلمع نقطتان حمراوان للفافتي تبغ. في الداخل، وذلك بصورة متقطعة، حيث بعض الأشخاص يتكلمون ويضحكون بهدوء. لم تتبين وجوههم، ولكنك يمكن أن تعرف من نبرة أصواتهم أنهم شابان وفتاتان. ولا يبدو أنهم من المنطقة. لهجتهم حازمة، وأصواتهم جهورية، وكأنهم يتمازحون أو يتجادلون. سمعت، وأنت تسترق السمع، أن الزوجين يشرحان لبعضهما الطرق التي استخدماها لخداع أهلهما، ورؤسائهما في العمل، والحجج التي وجداها للهرب بحرية كاملة. لم يتوقف هذان الزوجان عن الضحك بصوت عالٍ.

أما بالنسبة إليك، فقد تجاوزت هذا العمر، لم تعد تتحمل هذا النوع من القيود، ولم تعد تعرف السعادة نفسها التي يشعرون بها. ربما وصلوا بالحافلة التي وصلت بعد الظهر، ولكنك تتذكر أنه لم يكن هناك إلا حافلة واحدة في الصباح، قادمة من مركز المنطقة. يمكن أن يكونوا قد وصلوا، بوسائلهم الخاصة. ومما لا شك فيه أنها ليست منهم، لأنها لا تبدو سعيدة مثلهم.

تترك السرادق - وتحاذي النهر- وتنظر مباشرة على الأمام. أنت تعرف الأماكن من قبل: ومن بين عشرات مداخل البيوت القائمة على ضفة النهر، وحده المدخل الأخير فيه محل لبيع الكحول، والتبغ، والمناديل الصحية، ثم يتجه الشارع المرصوف نحو البلدة. بعد ذلك، تسير بمحاذاة الجدران العالية المحيطة بساحات البيت، وإلى اليمين، تحت المنارة التي ترسل ضوءاً ضارباً إلى اللون الأصفر، يوجد باب أسود: وهو مدخل بلدية مركز محافظة كانتون. لا بد من أن يكون هذا منزلاً قديماً لأغنياء نظراً لمساحة الفناء، وعلو المباني المحمية من أبراج المراقبة. وأبعد من ذلك بقليل، حديقة مزروعة بالخضار محاطة بسور من القرميد المكسور، وأمامها المستشفى.

بعد ممر ضيق، بُنيت صالة احتفالات حديثاً، يعرض فيها فيلم كونغ – فو Kung-Fu . لقد تجولت في هذه البلدة مرات عديدة من دون أن تقترب من هذه الصالة، وأنت تعرف ساعات العروض السينمائية في المساء. إذا سلكنا الممر المحاذي للمستشفى، فإننا نصل مباشرة إلى الشارع الرئيسي. في مقابل المخزن التجاري الكبير كل شيء واضح في رأسك، كما لو أنك قاطن قديم في هذه البلدة. ويمكنك أن تقوم بدور الدليل السياحي، إذا احتاجك أحد في ذلك. وأنت تشعر حقيقة، بالحاجة إلى التواصل مع الناس .

ولكن ما لم تكن تتوقعه، هو أن يكون هذا الشارع الصغير. مكتظاً مساء بهذا الشكل، وحده المخزن الكبير أسدل ستارته الحديدية، وأُقفلت شباك الواجهات. وبقيت المحلات الأخرى مفتوحة أما بسطات البضائع التي تعرض نهاراً أمام أبوابها فقد تنحت جانباً. وحل محلها بعض الطاولات والمقاعد، وأسرة من الخيزران. الناس تأكل، وتثرثر في الشارع، أو تنظر إلى التلفزيون الموجود داخل المحلات.

وفي الطابق الأول، تظهر ظلال متحركة لسكان البيت. بعضهم يعزف على المزمار، وأطفال يبكون. فمن منهم يتسبب بضوضاء أكثر من غيره؟ ترسل مكبرات الصوت الأغاني المشهورة في المدينة منذ سنوات عديدة. وهي تُغني بطريقة هادئة ومؤثرة، ومع ذلك تنسجم مع الإيقاع السريع للموسيقى الإلكترونية. رجل جالس على درج بابه، يحاكي نفسه. خرجت في هذه اللحظة امرأة متزوجة تلبس ثوباً شفافاً. وسروالاً قصيراً، منتعلة صندلاً من البلاستيك على عجل، وهي تحمل وعاءً من الماء الوسخ الذي أفرغته وسط الشارع. يمر صبيان ضمن مجموعات. وفتيات يتسكعن يداً بيد، وكتفاً إلى كتف. وعلى حين غرة يراها ثانية أمام دكان فواكه، فتسرع الخطى. وهي تشتري ليموناً هندياً، وكان هذا الليمون قد وصل إلى السوق طازجاً، أنت تقترب، وتطلب أيضاً ثمنه. تتلمس ليمونة مستديرة، خضراء زاهية، ثم تغادر. وأنت تقول أيضاً إن هذا صحيح، إن الليمون الأخضر كثير. فلحقت بها. هل أنتِ في إجازة؟ ويبدو أنك سمعتها تقول بصوت منخفض (نعم)، وهزت رأسها محركة شعرها. أنت قلق قليلاً، وتخشى أن توبخك. لم تكن تتوقع أن تجيب بمثل هذه العفوية. ولهذا خف قلقك، وتبعتها.

– هل أتيتِ أيضاً من اجل لينغشان؟ عليك أن تبرهن على موهبة أكبر. فحركت شعرها أيضاً وهكذا أصبحت لغتاكما مشتركة

- أأنت وحدك؟

لم تجب. وأمام محل تصفيف شعر مزود بمصباح إشعاع، رأيت وجهها، إنها شابة، ولكن أثر التعب واضح عليها. وهذا لم يزدها إلا إثارة. نظرت إلى امرأة تضع قبعة كهربائية لتجعيد شعرها، فقلت إن المدنية تدخل بسرعة إلى هنا. تحركت عيناها قليلا، ثم ضحكت. فقلدتها. أرخت شعرها الأسود اللامع على كتفيها. تتملكك رغبة في أن تقول لها إن شعرها رائع، ولكنك تظن أن هذا فيه مبالغة قليلا، فلم تقله. سرت معها، دون أن تقول شيئا، ولكنك ترغب في الاقتراب منها، وتعبر لها عن ذلك، وفجأة لم تعد تجد الكلمات. أزعجك هذا الواقع قليلا، فأردت الانسحاب منه بسرعة.

- أيمكنني مرافقتك قليلا؟ إنها جملة حمقاء أيضا.

- أي نوع من الرجال.

يبدو لك أنك سمعتها تتمتم: وقد يبدو هذا موافقة أو العكس. ولكنك تحس أنها تظهر الفرح عن قصد، فتبعتها في خطواتها الهادئة. في الواقع، إنها ليست طفلة، وأنت لم تعد شابا. تنتابك رغبة في محاولة إغرائها.

- تقول لها: إنني أستطيع أن أخدمك كدليل. هذا بناء يعود إلى عهد مينغ Ming، منذ خمسمائة سنة على الأقل. إن ما يلفت نظركم هو هذا الجدار من السور وراء الصيدلية التقليدية، الذي كانت ترتكز أعمدة سقفه على أقواس، وتضاء في الظلام من نور النجوم. لم يظهر القمر هذا المساء. ومنذ خمسمائة سنة، في عصر مينغ، لا، منذ عشرات السنين فقط، كان يجب التزود بمصباح للخروج ليلا في هذا الشارع، إذا لم تكوني تصدقينني، ليس عليك إلا ترك الشارع والدخول في الأزقة المظلمة والمعزولة، ويمكنك العودة إلى الوراء في الزمن على بعد خطوات قليلة من هنا فقط.

وأنتما تتحدثان وصلتما أمام صالة الشاي المسماة (عطر فاخر) أمام بابها، وفي زاوية الجدار، نرى عددا من الأشخاص، الأطفال والراشدين، وهم يستعجلون الخطى. عندما نظرتما إلى الداخل، توقفتما. في الصالة الطويلة قليلة العرض، رتبت الطاولات. تصطف الرؤوس بانتظام فوق المقاعد الموضوعة في العرض، وفي الوسط، وضعت طاولة مستديرة، مغطاة بقماش احمر موشى بأشكال زخرفية صفراء، وفي الخلف، يجلس راو على مقعد عال، ويضع عليه ثوبا بأكمام طويلة.

«تغرب الشمس من الغرب، والغيوم الكثيفة تحجب القمر، وفي مقدمة

الشياطين، الأب والأم الأفعوانان ذهبا كالعادة إلى معبد اللانهاية اللازوردي العظيم. وعند رؤيتهما للأولاد الصغار، والفتيات الصغيرات، السّمان ذوي البشرة الفضة، وعند رؤيتهما للخنازير، والثيران والخراف المعروضة في كل جهة، كان سعادتهما الغامرة.. الأب الأفعوان قال للأم الأفعى: حمداً أنك وصلت، أوه يا زوجتي، حبذا لو كانت اليوم هدايا عيد الميلاد هذه وافرة. أجابت الأم الأفعى: اليوم عيد ميلاد السيدة والدتك، وعلينا أن نحرص على توفير الآلات الموسيقية.» بان! (Pan!) ولكي يستثير الحضور، ضرب الراوي على الطاولة بالمصفقة التي يحملها يده: «هذا جيد!»

ثم وضع مصفقته، وأخذ عوداً يضرب به باستمرار على الطبل ذي الجلد المشدود قليلاً، مصدراً صوتاً رتيباً، وفي اليد الأخرى، تناول حلقة من الأجراس، أُدخل فيها حلقات معدنية. ليحركها بهدوء، لتصدر الأجراس رنينها، ثم يستأنف بصوته المبحوح: «ومباشرة، أعطى الأب الأفعوان أوامره، فانشغل الجميع. وفي لحظة زُيّن المعبد. وبدأت الآلات العزف». ورفع صوته بخشونة: «وغنت الضفدع بصوت عال، والبومة حركت عصاها.» وأخذ عن قصد النبرة الفخمة لممثلي التلفزيون، مثيراً عاصفة من الضحك بين الجمهور.

تنظر إليها، وتضحكان معاً. وأنت لا تنتظر إلا هذه الضحكة.

- أندخل؟ وجدت شيئاً تقوله. أخذتها وأنت تتجنب الطاولات والمقاعد، وأقدام الناس. اخترت مقعداً بقي عليه مكان، وتقاربتما لكي يمكنكما الجلوس. لاحظتما أن الراوي أثار الصالة بصورة كاملة، وأشعلها. نهض، ليضرب، من جديد، بعصاه على الطاولة ضمن صخب عنيف.

((بدأ عيد الميلاد! الشياطين..)). ويصرخ أف، أف، أف، أي ، أي، أي، ويستدير إلى الشمال رافعاً قبضة مغطاة بيده الأخرى إشارة للتهنئة، ثم يستدير إلى اليمين محركاً يديه الاثنتين، وهو يقلد شيطاناً معمراً: (أرجوكم، أرجوكم!)

- همست لها: يقال إنه روى هذه القصة خلال ألف عام.
- فردت بصوت منخفض: ويمكنه أن يستمر أيضاً.
- ألف عام أيضاً؟
- هم... وافقت على كلامك، وزمت فمها كأنها طفل عفريت.

كنت تحس حقيقة بالسعادة.

((ثم قطع شين فاتونغ Chenm Fatong الرحلة بثلاثة أيام، والتي تستغرق

عادة تسعة وأربعين يوماً حتى بداية جبال دونغونغ Dong gong. التقى هناك بوانغ Wang الطاوي* . سجد فاتونغ أمامه: سلاماً عليك، أيها السيد المعظّم. رد الطاوي سلاماً عليك أيها الزائر المبجل. من فضلك أين يوجد المعبد ذو اللون الأزرق السماوي اللامتناهي؟ ولماذا هذا؟ هناك ظهرت شياطين شرسة، إنها مرعبة، مَنْ يجرؤ على الذهاب إلى هناك؟

خادمك المسمى شين، والمسمى سابقاً فاتونغ، جاء خصيصاً لاعتقال هذه الشياطين. قال الطاوي وهو يطلق تنهيدة: للأسف، لقد ذهب الشباب والشابات اليوم إلى المكان، مَنْ يعرف إن لم يكونوا قد افترسوا؟ فرد فاتونغ على هذه الكلمات صارخاً: أف! يجب الإسراع في الذهاب لإنقاذهم).

بان Pan! تناول الراوي عصا الطبل بيده اليمنى، وفي اليسرى حرك الأجراس.

قلب عينيه البيضاويتين وهو يتمتم، وبدا جسده كله يرتعش، تشم عطراً لطيفاً وسط روائح التبغ القوية والعرق. وتتبعث رائحة العطر من شعرها، ومنها. وتسمع أيضاً فرقعة بذور البطيخ التي يقضمها جارك الذي لا تترك عيناه الراوي اللابس ثوباً احتفالياً. في يده اليمنى، يُمسك سكيناً مقدساً، ويمسك بيده اليسرى قرن تنين. وبدأ يسرع في حديثه بالتدريج، كما لو انه يُخرج من بين شفتيه حبات من اللؤلؤ:

((وفي ثلاث مرات، بان، بان، بان، أرسل ثلاثة أوامر للمسير، من اجل تجميع الجنود والقادة الإلهيين في جبال لوشان Lushan، وماوشان Maoshan، ولونفهوشان Longhushan، ويو – وي yo–Oye ، وهاهاتا Haha ta، وكولونغ تونغتشيانغ Kulong tongtchiang، أيها السيد السماوي، والإمبراطور الأرضي، أنا تلميذ زهينجون Zhenjun الذي أرسلني لقتل هذه الشياطين. إنني أطير، والسيف في يدي، في كل مكان، بعجلاتي التي هي من النار والريح..)).

استدارتْ، ونهضتْ. لحقتها، وأنت تفشخ فوق أرجل المشاهدين الذين رمقوك بنظرات غاضبة.

- إنهما مستعجلان بأمر إمبراطوري! واندلعت عاصفة من الضحك وراءكما.
- ما الذي حصل؟ لا شيء؟

---

* من أتباع الطاوية، وهي ديانة صينية شعبية تجمع بين عبادة السلف والطبيعة، والأرواح، فيها قدر من تعاليم لاوتسي، ومن معتقدات أخرى. ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد، وعارضت السيطرة والاضطهاد، وحبذت العودة إلى حياة الفطرة. (مم)

- لماذا لم تمكثي؟ لقد شعرت بقليل من الغثيان.
- هل تشعرين بالتعب؟
- لا، الآن أفضل و لقد شعرت بنقص الهواء في الداخل.

سرتما في الشارع، والناس الذين يثرثرون، والجالسون على طرفي الشارع ينظرون إليكما.

لنبحث عن مكان هادئ، موافقة؟ نعم؟.

أدخلتها ضمن زقاق، تاركان وراءكما الضوضاء والمصابيح.

لا وجود في الزقاق لأي مصباح، فقط هناك ضوء أصفر ينبعث عبر نوافذ البيوت. أبطأت خطوتها. وما زال المشهد الذي رأيته تسترجعه ذاكرتك.

ألا تجدين أننا، أنا وأنتِ، نشبه الشياطين التي يُراد طردها؟ فانفجرت ضاحكة. لم يعد بإمكانكما الامتناع عن الضحك الشديد وكان حذاؤها الجلدي يصدر صوتاً خاصاً على أحجار الرصيف. وفي نهاية الزقاق، طاحونة رز. وعبر ضوء خافت نميز بصعوبة من بعيد بعض السكان. أنت تعرف أنه توجد هنا مدرسة ثانوية وحيدة في هذه البلدة. وتنتصب الجبال، على مسافة أبعد، في ليل رمادي – اسود، تحت ضوء النجوم خافت ازدادت شدة الريح، وبدأ هواء لطيف ينسم ثم اختفى بفعل الرائحة القوية اللطيفة لقش الرز. تستند إلى كتفها، ولم تبتعد، صمتَ، وتقدمتما على طول الأطراف البيضاء لطواحين الرز. هل يعجبك هذا؟ نعم.

ألا تجدين هذا رائعاً؟ لا أعرف، لا أستطيع قوله. لا تطلب هذا مني. تلتصق بيدها، وتقترب هي منك. تخفض رأسك للنظر إليها. لا تتبين ملامحها وعينيها، وتجد فقط أن انفها ذَلِق. تستنشق نَفَسَها الدافئ، الذي اصبح مألوفاً بالنسبة لك. وفجأة توقفت. وهمست، لنعد. إلى أين؟ عليّ أن أرتاح. أرغب في مرافقتك. لا أريد أن يرافقني أحد. لقد أصبحت عنيدة.

ألديك أصدقاء أو أقارب هنا؟ أم أنك أتيتِ للترفيه فقط؟ لم تجب. أنت لا تعرف من أين أتت، ولا إلى أين هي ذاهبة. ولا تستطيع مرافقتها إلى الشارع. رحلت فجأة، واختفت. كحكاية أو حلم؟.

إن مركز مراقبة حيوانات البندا، الواقع على ارتفاع ألفين وخمسمائة متر، بلله الماء من الجهات كلها؟. وأصبحت لوازم السرير رطبة جداً. لقد أمضيت هناك ليلتين؟. إنني أضع، خلال النهار، سترة من الريش قدمها لي المركز؟. جسدي تبلل من الرطوبة.

كانت اللحظة الجميلة الوحيدة هي عندما نأكل أمام النار، ونتناول الشورية الساخنة. عُلق قدر كبير من الألمنيوم بسلك من الحديد على عارضة المخبأ الذي يُستخدم كمطبخ. وتحت القدر، أخشاب لم تُنشر بعد، توضع بالتدريج. فوق الرماد و ينبعث منها لهب عال، يضيء المكان. وفي كل مرة، نجلس فيها حول النار للأكل، يأتي سنجاب إلى جانب المطبخ، ويدير عينيه الدائريتين تماماً. ولا يمكن للرجال أن يجتمعوا، إلا في وقت وجبة المساء فقط. فيتمازحون. في نهاية الوجبة، كانت السماء مظلمة بالكامل، والمركز محاط بالغابة الكثيفة المظلمة، وانسل الرجال إلى مخابئهم، ليتفرغوا إلى اهتماماتهم على ضوء مصابيحهم البترولية.

إنهم منذ سنوات بعيدة، في أعالي الجبال. وقالوا كل ما عندهم. ولا يأتيهم أي خبر جديد من الخارج. وحده الرجل الجبلي كينغ الذي يستخدمونه يجلب لهم في سلته التي يحملها على ظهره خضراوات طازجة، وقطعاً من لحم الخنزير أو الغنم، من اقرب قرية في الجبل، عبر ممر وولونغ Wolong القائم على ارتفاع ألفي متر.

إن مركز إدارة المحمية الطبيعية أبعد من القرية. ولا يذهب الرجال إليه، بالدور، إلا مرة في الشهر، أو حتى أقل، لكي يستريحوا فيه ليوم أو يومين. وهم يذهبون إلى هناك من أجل قص شعرهم، والاستحمام، أو من أجل تناول وجبة دسمة. وعندما يُجمعون أيام راحتهم، يستقلون سيارة المحمية الطبيعية للذهاب إلى شينغدو Chengdu، لرؤية صديقاتهم، أو عائلاتهم المقيمة في مدن أخرى.

الحياة لا تبدأ، بالنسبة إليهم، إلا في هذه اللحظة. ففي مركز المراقبة لا يوجد صحف، ولا يسمعون المذياع. إن ريغان، وإصلاح النظام الاقتصادي، والتضخم، والقضاء على التلوث الروحي، وتكلفة التصوير السيمائي لفيلم «مئة وردة»، الخ.. هذا العالم المضطرب البعيد عنهم كثيراً يبقى في المدن. وحده حامل الشهادة الجامعية الذي عُيّن هنا العام الفائت، يضع دائماً سماعتين على أذنيه. عندما اقتربت منه، اتضح لي أنه يتعلم الإنكليزية، وهناك شاب آخر يدرس على ضوء مصباحه البترولي. كلاهما يستعدان للدخول في مسابقة ليصبحا باحثين مبتدئين، من اجل مغادرة هذا المكان. وشخص آخر يسجل على خريطة طبغرافية جوية كل

الإشارات اللاسلكية التي يتلقاها خلال النهار. تُستقبل هذه الإشارات التي ترسلها أجهزة إرسال، موضوعة حول أعناق حيوانات البندا، التي يُقبض عليها ثم يُطلق سراحها في الغابة الواسعة.

إن عالم النبات الكهل والذي جال معي هذه الجبال لمدة يومين استلقى على الفراش. ولا اعرف إذا كان قد نام. أما أنا فقد نمت بملابسي، تحت هذه الأغطية الرطبة، ولكنني لم أستطع أن اشعر بالدفء. وأشعر أيضاً أن عقلي قد تجمد مع ذلك، فإن شهر أيار الربيعي كان قد بدأ خارج الجبال. شعرت أن قُرادة❖، تريد أن تلسعني في فخذي داخل ملابسي. كان عليها خلال النهار أن تصعد على بنطلوني عندما كنّا نسير على الأعشاب. إنها كبيرة كظفر الإصبع الكبير، وقاسية كندبة قديمة. حاولت إزالتها بقوة، لكنني لم أستطع اقتلاعها. إنني أدرك أن شدها بقوة قد يؤدي إلى شطرها على نصفين، لأن فمها داخل بقوة في لحمي. فطلبت من عامل في المركز، والمستلقي إلى جانبي على السرير الصغير، أن يساعدني. خلع عني أولاً ملابسي، وضربني بقوة على فخذي وهو يسحب مصاصة الدماء هذه. ورماها على المصباح الذي أطلق عندئذ، رائحة معجنات محشوة باللحم. وفي اليوم التالي، وعدني بأن يضع لي الضمادات اللازمة.

يسود هدوء تام في المأوى، ما عدا صوت الماء الذي يسيل خارجاً في الغابة. وفي الأفق البعيد، تدنو كالريح، ولكنها لا تصل إلى هنا، وابتعدت وهي تهدر في الوديان البعيدة والعميقة. ثم بدأ الماء يرشح على جدار الأرضية فوق رأسي، وصولاً إلى غطائي.

فتساءلت بيني وبين نفسي، هل تمطر؟ كل شيء رطب في الخارج والداخل، والماء يرشح قطرة قطرة.. بعد ذلك بقليل، سمعت قرقعة واضحة وقوية يتجاوب صداها في الوادي.

- قال أحدهم: يأتي هذا من الجرف الصخري الأبيض.
- اللعنة، يقسم أحدهم، أن هناك من يصيد.
- استفاق الرجال جميعهم، ما عدا أولئك الذين غطوا في نومهم.
- ما الساعة؟
- الثانية عشرة إلا خمس دقائق.
- ولم ينبس أحد بكلمة، كما لو أنهم ينتظرون طلقة جديدة.
- ولكنهم لم يسمعوا شيئاً من جديد.

❖ قراده: حشرة متطفلة تعيش على الدواب والكلاب، وتمتص دمها.

وضمن هذا الصمت المطبق الذي يبقى معلقاً، تصدر من خارج المأوى أصوات قطرات الماء، والتيارات التي تتلاشى في الوادي. وفجأة تراءى إلينا أننا نسمع خطوات حيوان مفترس. المنطقة هنا هي عالم الحيوانات المفترسة، ومع ذلك، لا يتركها الإنسان تعيش بسلام. وفي الظلام، نسمع ضجة وحركة، من الجهات كلها.

يبدو الليل هنا أكثر خطراً، ويوقظ فيك هذا الخوف الدائم بأن تكون مُراقباً، أو ملاحقاً، أو ستقع قريباً في فخ. من المستحيل أن تستعيد هدوءك الذي تتميز به دائماً.

– إنه هنا! مَنْ؟ بيبي Beibei هنا! صرخ الطالب.

فتحدث جلبة كبيرة في المأوى. واختبأ الجميع تحت السرير. في الخارج، همهمة حيوان. إن البندا التي وقعت مريضة بعد الولادة، والتي أنقذها الرجال، عادت وهي جائعة، تبحث عن الطعام! كانوا ينتظرون عودتها. وكانوا واثقين من ذلك. فمنذ عشرة أيام، وهم يعدون الأيام، مؤكدين أنها ستأتي. وعليها أن تعود قبل ظهور براعم الخيزران، وهذا هو ما حدث. وهي تحك الآن صفائح الحائط بأظافرها.

أحد الرجال فتح الباب أولاً، واختفى، وكان في يده دلو ممتلئ بطعام من الذرة الصفراء. فتبعه الجميع. وتحت هذا الظلام الذي يخفي الأشكال والألوان، تتقدم كتلة كبيرة سوداء وهي تتمايل. سكب الرجل دلوه مباشرة في وعاء، وتقدمت البندا، وهي تدمدم بقوة، سُلطت جميع المصابيح على الحيوان المفترس، جسده رمادي – أبيض، قوامه أسود، وعيناه يظللهما السواد. لم يعر اهتماماً لأحد، ولم يفكر إلا في الأكل، دون أن يرفع رأسه. أراد أحدهم تصويره: خرق ضوء الفلاش الظلمة. اقترب الجميع منه، كل بدوره، وهم ينادونه، ويلمسونه، ويداعبون فروته الجافة مثل فروة الخنزير.. رفع رأسه، فابتعد الرجال عنه بسرعة كي يعودوا إلى المأوى. لقد كان حيواناً مفترساً: إنه حيوان البندا الضخم القادر على مقارعة النمر. في المرة الأولى التي جاء فيها ليأكل من وعاء الألمنيوم الممتلئ بالطعام، كان قد التهم، في الوقت نفسه، الوعاء الذي لفظه بعد ذلك بعد أن مزقه إلى قطع صغيرة. عندئذ تابع الرجال آثار فضلاته المطروحة. وفي مزرعة تربية البندا الموجودة في مركز الإدارة، في أسفل الجبل، حاول صحفي أراد أن يُظهر أن حيوانات البندا أليفة مثل قطة صغيرة، التقاط صورة مع إحداها، وحضنه بين ذراعيه، وفجأة اقتلع بأظافره، أعضاءه التناسلية، وكان عليهم إرسال هذا الشخص الساذج إلى شينغدو لكي ينقذوا حياته.

عندما انتهى من الأكل، عض على قضيب من قصب السكر، وبدأ يحرك ذيله، واختفى في غابات الخيزران القريبة من المعسكر.

- لقد قلت بوضوح إن بيبي ستأتي اليوم.
- إنها، بصورة عامة، تأتي في مثل هذا الوقت، بين الساعة الثانية والثالثة.
- لقد سمعت همهمتها عندما حكّت على الباب.
- إنها تعرف كيف تستجدي الأمان!
- إنها منهكة من الجوع، لقد أكلت كل الموجود في الدلو.
- لقد لمستها، إنها كبرت.

تحاور الرجال بحماس، وعادوا إلى كل تفصيل دقيق: من الذي سمعها أولاً، مَنْ أول من فتح الباب، كيف بدت من فتحة الباب، وكيف تبعت الرجال، ووضعت رأسها في الدلو، وكيف جلست إلى جانب الوعاء، وكيف أكلت بنهم. شرح أحدهم أيضاً أنه وضع سكراً في الأكل المصنوع من الذرة الصفراء والمخصص للبندا. فهي أيضاً تحب أن تأكل الأشياء الحلوة! يبدو هؤلاء الرجال الذين لا يتواصلون كثيراً بالحالات العادية، وكأنهم يتحدثون عن عشيقاتهم وهم يتحدثون عن بيبي.

نظرت إلى ساعتي، لم يستغرق هذا كله أكثر من عشر دقائق، ولكن الرجال يتحدثون عنه دون توقف. أُشعلت المصابيح البترولية، وجلس بعضهم على الأسرة، من المؤكد أن هذه الحادثة تشكل تسلية بالمقارنة مع حياتهم الرتيبة والمعزولة في الجبل. ثم أخذوا في الحديث عن هانهان Hanhan، وهو حيوان آخر من حيوانات البندا . لقد أقلقهم الطلق الناري الذي دوّى منذ قليل. قُتل هانهان في الجبل من قبل فلاح يدعى لينغ زهيزهونغ Leng zhizhong.

في ذلك الوقت، كانوا قد تلقوا إشارات من هانهان، تدل على أنه في المكان نفسه دائماً، لا يتحرك. فانطلقوا للبحث عنه، لاعتقادهم بأنه ربما يكون مريضاً، وربما يكون الموقف خطيراً. استخرجوا جثة هانهان من الغابة، والمدفونة تحت تراب رطب، وكذلك الحلقة التي وضع عليها جهاز الإرسال اللاسلكي. ثم تابعوا بحثهم عن بيت لينغ زهيزهونغ بمساعدة كلب صيد، حيث عثروا على جلد الحيوان ملفوفاً، ومعلقاً تحت عتبة السقف. كما أن الإشارات التي كان يرسلها بندا آخر اسمه ليلي Lili، وكان قد أُسر وأطلق سراحه بعد وضع حلقة في رقبته فيها جهاز إرسال تلاشت وسط هذه الغابة الواسعة. هل يمكن أن يكون نمر قد حطم الحلقة وهو يفترسه، أم أنه وقع في يد صياد أكثر ذكاءً ، حطم الحلقة بمقبض بندقيته، من المستحيل معرفة الحقيقة. وعند بزوغ ضوء النهار، أطلقت طلقتان فوق المخيم، تردد صداهما المزعج، طويلاً، في الوادي، مثل دخان المدفع الذي يندفع لحظة نزع الحشوة، ولا يريد أن يتبدد.

تأسف أنك لم تأخذ منها موعدا، وأنك لم تتبعها، وتأسف أنك لم تمتلك الشجاعة لإسماعها كلاما لطيفا، وعاطفة رومانسية، جياشة، والتي بدونها لا يمكن للمغامرة أن تنجح. باختصار، إنك تأسف لفشلك معها. أنت الذي قلما تعاني من السهاد، لم تستطع النوم ليلا. وفي الصباح، أحسست بالعبث، ولكن لحسن الحظ، لم تكن متهورا. لقد جرحت هذه المفاجأة حبك الخالص، ولكنك تحزن على إحساسك المفرط بالأشياء. لم تعرف أن تحب، وأنت ضعيف جدا، إلى حد أنك فقدت شجاعتك، وفقدت القدرة على التحرك. ومع ذلك، قررت أخيرا، الذهاب إلى ضفة النهر تجرب حظك. أنت جالس في السرادق تتأمل المنظر أمامك. مثلما نصحك خبير شراء المواد الخشبية. كان رصيف الشحن، في الصباح، في أوج حركته ونشاطه. ويتكدس الناس في مركب عبور النهر، والذي يصل مستوى ماء الأمواج إلى حافته. لقد دخل منذ قليل الميناء، وما زالت حباله غير مربوطة، ومع ذلك فإن الركاب يتدافعون للنزول إلى الرصيف. سلال الخيزران معلقة على الحمالات الخشبية المزدوجة، والدراجات التي تدفع باليد تتصادم، والناس تتدافع نحو البلدة وهي تضرب المواعيد. ويمر المركب محاولا تحاشي أولئك الذين ينتظرون على الضفة الأخرى. أخيرا ، تتم عملية الرسو بهدوء. أنت وحيد في السرادق، كأحمق يوحي وكأنه ينتظر موعدا، لم يحصل قط، أو امرأة اختفت دون أن تترك أي أثر، كحلم في وضح النهار. في العمق، أنت تعيش بطريقة مملة، لا شيء يحدث يعكر صفو حياتك التافهة، ولا أي علاقة عاطفية، وأنت تغرق نفسك في الرتابة المملة. هل تملك الرغبة في أن تبدأ حياتك من جديد، وأن تتعرف، وتجرب؟

فجأة، دب النشاط من جديد في الضفة، ولكن النساء هن اللواتي أثرن النشاط، هذه المرة. كانت الواحدة إلى جانب الأخرى، على الأرصفة الحجرية المحاذية للماء، وهن يغسلن الغسيل أو ينظفن الخضار أو الرز. ويتقدم قارب صغير مفروش بحصر من الخيزران، ويصرخ الرجل الذي يدير دفة القيادة في المقدمة، في اتجاههن وبدأن يصرخن دون أن يتركن له المكان. لم تستطع أن تتبين إذا كان هذا نوعا من الغزل، أو أنهم يتشاجرون حقيقة. وأخيرا، ترى ظلها ثانية. وقلت لها إنك كنت تعتقد أنها ستعود، أنها ستعود لتقف بالقرب من هذا السرادق الذي ترغب في أن تروي قصته لها. قلت إنك شبهتها لرجل كهل، كان جالسا هنا أيضا، نحيلا كعود من الخشب،

محركا شفتيه الجافتين بفعل الريح، ويدمدم كشبح. قالت إنها تخاف من الأشباح، ففضلت، إذن أن تؤكد أن هذه الهمهمات تشبه صفير الريح على خط توتر عال. قلت عن هذه البلدة كانت قد ذكرت من قبل في (مذكرات تاريخية) لسيما كيان[٤] Sima Qian، وإن رصيف الركوب كان يسمى من قبل (ممر يو Yu)، لأنه يقال إن يو العظيم كان قد سيطر هنا على المياه. على الضفة، صخرة مستديرة محفورة، نقرأ عليها بصعوبة سبعة عشر حرفا قديما وبأشكال شجرية قطعت فروعها. ولم يستطع أحد فك رموزها، فحاولوا الإفادة منها في بناء الجسر الذي لم يكتمل بناؤه، لأن الأعماق لم تكن كافية لذلك. أشرت لها لتنظر نحو الهضاب حيث الأقوال المأثورة المتوازية، والتي كانت قد نحتت باليد من قبل معلم من حقبة آل سونغ Song. جبل الروح هذا الذي جئت تبحث عنه ذكره القدماء منذ وقت طويل. إن الفلاحين الذين يقطنون هنا، جيلا بعد جيل، لا يعرفون تاريخ هذا المكان، ولا يعرفون أيضا تاريخهم الخاص، إذا دون التاريخ المجهول للناس الذين يعيشون في أقبية هذه البلدة وغرفها العلوية، دون اختراع شيء، فإن الروائيين يبقون بعيدين عن هذا التاريخ.

سألتها إذا كانت تعتقد بذلك أم لا. مثلا، هذه المرأة المسنة التي لا أسنان لها، وجلدها جاف كلفت محفوظ بالملح، أو مومياء حية، والتي تنظر إلى البعيد جالسة على حافة بابها، لا يتحرك فيها إلا حدقتا عينيها الخامدتين، داخل محجريهما العميقين. لقد عرفت أيام عز، في حياتها، وفي مناسبات احتفالية عديدة، كانت تعد واحدة من أجمل جميلات المنطقة. من كان يستطيع ألا يعجب بها؟ ومن يستطيع، حاليا، تخيل مجدها التليد؟ خاصة عندما كانت زوجة قاطع طرق. كان زعيم قطاع الطرق، هو السيد الثاني لهذه البلدة. وفي هذا الوقت كان الجميع شبابا وشيبا، يسمونه السيد الثاني، من باب التملق، والاحترام بصورة خاصة، وكان ثانيا أيضا في ترتيبه ضمن العائلة، كما كان (أخا بالعهد) ضمن مجموعة من قطاع الطرق. حتى ولو كان الفناء الذي تجلس أمامه صغيرا، فإننا نشاهد عندما ندخل إلى الداخل، أن الفناءات تتابع بعضها بعضا، وكان قطاع الطرق، قديما يفرغون فيها سلالا كاملة من الفضة.

في هذه اللحظة كان نظرها مثبتا على القوارب المفروشة بحصر من الخيزران. ذلك أنها كانت قد خطفت على قارب من هذا النوع وكانت في ذلك الوقت تشبه

---

(٤) مؤرخ صيني معروف عاش بين عامي ١٤٥ – ٨٦ قبل الميلاد.

هؤلاء الفتيات الشابات طويلات القامة واللواتي يضربن الغسيل على أدراج من الحجر. مع وجود اختلاف واحد، ففي اليوم الذي نزلت فيه إلى النهر لتنظيف الخضار، وهي حاملة سلة من الخيزران على يدها، كانت ترتدي خفا من الخشب وليس حذاء من البلاستيك. رسا إلى جانبها قارب مفروش بحصر. وقبل أن تعرف ما الذي حدث له، خرج رجلان وقيدا يديها، ودفعاها إلى القارب، وضاجعاها عنوة دون ان تستطع طلب النجدة. ولم يقطع القارب الخمس عقد بحرية حتى كانت قد اضطرت إلى مضاجعة مجموعة من قطاع الطرق.

في هذا القارب الذي يشبه كل القوارب التي تقطع النهر منذ ألف سنة، تحت حصيرة الخيزران، وقعت مثل هذه الجرائم في وضح النهار. في الليلة الأولى، بقيت مستلقية عارية تماما على الجسر، ولكن بدءا من الليلة الثانية، أشعلت النار في مقدمة القارب واعدت الوجبات..

قل أيضا، قل كيف..؟ قل كيف استطاعت أن تصبح زوجة السيد الثاني. هل تبقى دائما هكذا جالسة على حافة بابها؟ جيد، في هذه الحقبة، لم يكن عندها تلك النظرة الميتة. كانت تحمل دائما إطارا من الخيزران، وتقوم بحياكة الصوف. وكانت بيديها البيضاويتين المكتنزتين تطرز «بطا يسبح على الماء» أو «طاووسا مختالا». واستبدلت غطاءها الأسود بدبوس يحمل شبكا من الفضة، والمرصع بالأحجار الكريمة، وكان حاجباها المذججان يزينان وجهها، وعلى الرغم من مظهرها المغري، فإن شخصا لم يجرؤ على توجيه كلمة لها. كنا نعرف جيدا أنه يوجد في إطارها من الخيزران، خيوط من الحرير متعددة الألوان، وفوقها مسدسان ملقمان دائما. وكان يكفي إذا نزل جنود نظاميون من قارب دخل الميناء أن تحرك يديها المتعودتين على التطريز، فترديهم واحدا، واحدا، في حين أن السيد الثاني، القادر على الاختفاء والظهور كالشبح، كان غارقا في نومه. إذا كانت هذه المرأة قد استطاعت أن تبقى عند السيد الثاني، فذلك لأنها كانت تحترم الحكمة التي تنظم شرط المرأة: «إذا تزوجت ديكا عليها أن تتبع الديك، وإذا تزوجت كلبا عليها أن تتبع الكلب.»

ألم يستنكر أحد في البلدة هذا الأمر؟ حتى الأرنب يعرف أنه يجب ألا يأكل العشب على جانب جحره. لقد استمرت، إذن، في الحياة، وعاشت كمعجزة. وطالما بقي زعيم قطاع الطرق المشهور والكريم، السيد الثاني، على قيد الحياة، فإن أحدا من أصدقائه الذين يأتون لرؤيته عبر الطريق، أو عبر النهر أو أي وسيلة أخرى، لم يحاول قط نيل إعجابها، لأنه سيواجه الموت مباشرة بين يدي المرأة. ولماذا؟ لقد كان

السيد الثاني، قاسيا، ولكن المرأة كانت أقسى منه أيضا. في هذا المجال، تتفوق النساء على الرجال. وإذا لم تصدقيني، تستطيعين الذهاب والأستفسار من الأستاذ (وو Wu) الذي يدرس في ثانوية هذه البلدة. وهو يحضر الآن مجموعة من النوادر التاريخية المحلية. وهي مطلوبة من مكتب السياحة الذي تأسس حديثا في المركز الإداري للمنطقة. إن رئيس هذا المكتب هو خال امرأة ابن أخ الأستاذ وو. وإلا لم يكلف في هذه المهمة. يعرف المتجذرون في هذه الأرض كثيرا من النوادر التاريخية التي ينقلونها إليه، وهو ليس الوحيد القادر على الكتابة، ولكن من يرغب في ترك لقب مؤرخ؟. خاصة عندما يسمح هذا باستلام أجر، وليس مقدما عن حقوق المؤلف، ولكن كمكافأة عن ساعات إضافية. وبالإضافة إلى ذلك، ينتسب الأستاذ وو، إلى عائلة عريقة من الموظفين المحليين، وخلال الثورة الثقافية، أحرقت السجلات المغطاة بالحرير الأصفر والتي عثر عليها عنده. أمام الجمهور، وكانت تمتد على طول أربعة أمتار. وقد سجل فيها أسلافه من حارس البلاط الإمبراطوري للإمبراطور ويندي Wendi، إلى الأكاديمي خلال عهد غوانغ كسوGuangxu، ولكن الخلافات بدأ منذ عقود عديدة، في عصر والده، عند توزيع الأراضي خلال الإصلاح الزراعي، عندما اعتبروا من ملاك الأراضي. لقد وصل حاليا، إلى عمر التقاعد تقريبا. أما أخوه البكر الذي رحل للإقامة في الخارج، والذي أصبح أستاذا، وانقطعت أخباره، عاد في زيارة إلى الوطن بسيارة صغيرة برفقة المدير المساعد للمنطقة. ولقد جلب له جهاز تلفزيون ملون؛ ينظر إليه كوادر البلدة الآن نظرة أخرى. لنوقف الحديث في هذا الأمر. جيد، في ليلة من الليالي، سيطر الفلاحون الثائرون على المشاعل، وأحرقوا الشارع كله. كان الشارع الرئيسي للبلدة، قديما، هو الرصيف المحاذي للنهر، وكانت محطة النقل الحالية موجودة في موقع معبد الملك دراغون، في نهاية هذا الشارع، وفي الحقبة التي لم يكن فيها المعبد بعد كتلة من أحجار القرميد، كان اليوم الخامس عشر من الشهر القمري الأول، كان من الرائع أن يجد الإنسان مكانا لرؤية الخيالة القادمين من القرى القائمة على الضفتين. يرفع كل فريق علما بلون موحد، احمر، أصفر، أزرق، أبيض أو أسود. بشكل يتناسب مع تنينه، الفولغ والطبول تقرع بصورة موزونة، تتراص الرؤوس، في الشارع، إلى جانب بعضها بعضا. وعلى طول الضفة، تعلق المحلات التجارية في رأس عصا طويلة من الخيزران، كيسا أحمر ممتلئا بكمية من النقود الكبيرة إلى حد ما، وكل محل يريد جذب الازدهار إلى تجارته عبر تقديم هذه الهدية.

وبصورة عامة، كان الكيس الأحمر لصاحب محل الرز، الموجود مقابل معبد الملك

دراغون تقريبا، هو الأكثر امتلاء، وكانت سلسلات من المفرقعات المزدوجة ذات الخمسمئة طلقة تتدلى من قمة سقفه إلى الأرض. وبفعل دوي المفرقعات، والحماس الذي يولده، يبذل الشباب أقصى طاقتهم لتحريك التروس، وهم يشكلون رقصة تنتهي دوامة من الراقصين. وعلى ذاك الذي يحمل رأس تنين، ويلعب بكرة مطرزة متعدد ة الألوان، أن يضاعف جهوده. وعندما يصل تنينان، أحدهما من قرية غولي Gulai، أحمر، والآخر أزرق، قادم من البلدة نفسها، يقوده ووغويزي Wu Guizi.. قف لا تتكلم البتة، نعم اكمل. هل تريدين أن أحدثك عن هذا التنين الأزرق؟ هل تريدين أن أقول لك إن ووغويزي هذا كان بطلا مشهورا في البلدة؟ لا تستطيع أي شابة أن تمنع عينيها من البريق عند رؤيته.

ويناديه لتناول قليل من الشاي، أو يقدمن له كأسا من كحول الرز. اسمع! كيف؟ أكمل ما تريد قوله. كان ووغويزي يراقص التنين الأزرق على طول الشارع. وكان بخار ساخن يتصاعد من جسده كله. وعندما يصل إلى أمام معبد الملك دراغون، يفك أزرار سترته بصورة كاملة، ويرميها على الذين يحضرون الاحتفال كاشفا عن صدره الموشوم بتنين أزرق. ويقوم الشباب المحيطون به مباشرة بتتويجه بصيحات مدوية. في هذه اللحظة، يصل التنين الأحمر لقرية غولي من الطرف الآخر من الشارع. ويستولي عشرون شابا من العمر نفسه، والمفعمون بالحيوية، على الكيس الأحمر لصاحب محل الرز. بعدها مباشرة، يبدأ التنينان بالحركة، ولا يريد أي منهما ترك المكان للآخر.

وضمن الفوانيس التي تشكل التنينين، يشعل التنين الأحمر والتنين الأزرق الشمعات. عندها لا نرى إلا تنينين من النار يدومان وسط الحشد. وهما يرفعان رأسيهما، ويحركان ذيليهما ويلعب ووغويزي بخفة بكرة النار، وهو يدور عاري الساعدين على بلاط الطريق الحجرية، ويسحب التنين الأزرق في دائرة من النار الملتهبة. ولم يكن التنين الأحمر ينام على الضيم. ومن دون أن تترك عيناه كرته من النسيج المطرز، يدب على الأرض ويتماوج، وكأنه يطحن في فمه فريسة حية، وعندما تنفجر المفرقعات المزدوجة، يطلق الشباب مفرقعات أخرى. بذل الفريقان جهدا كبيرا، ويسيل العرق على أجسادهم، بحيث يبدون وكأنهم أسماك أخرجت من بركة ماء للتو.

ويتدافعون نحو أبواب التجار يتنافسون للحصول على الكيس الأحمر المعلق في نهاية عصا طويلة. والتي استطاع شاب من قرية غولي الوصول إليه أخيرا. لم يستطع فريق ووغويزي تحمل هذه الإهانة وقد طغت الشتائم التي انطلقت من

الجانبين على أصوات المفرقعات، واشتبك التنينان بطريقة عنيفة. لم يستطع المشاهدون قول من الذي بدا المعركة، ولكن على كل حال، لقد بدؤوا تبادل اللكمات.

وغالبا ما تبدأ المشاجرات بهذا الشكل. وتعالت صيحات الخوف التي تطلقها النساء والأطفال، والنساء اللواتي كن جالسات على المقاعد أمام بيوتهن، حملن أطفالهن، ودخلن إلى بيوتهن، تاركين المقاعد أسلحة للمتقاتلين. كان يوجد في البلدة مركز للبوليس، ولكنه في هذه اللحظة، إما أن يكون مدعوا إلى جلسة شرب، وإما أن يتفرج على لعب الورق، ليحصل على نسبة من المبالغ المدفوعة في اللعب، لأنه لا يحافظ على النظام مجانا. أما هذا النوع من النزاع بين الجمهور فلا يستوجب المحاكمة. وكانت نتيجة المعركة قتيلا ضمن فريق التنين الأزرق، وقتيلين ضمن فريق التنين الأحمر، دون حساب أخ زياو ينغزي Xiao Yingzi، الذي أوقعه الحشد دون سبب، وضرب، وترك بعد كسر ثلاثة أضلاع. لحسن الحظ، أعيد إلى الحياة بفضل لزقة من (جلد كلب)، والتي انتقلت من أجداد تانغ **Tang**، المجدور الذي يدير محلا تجاريا إلى جانب منزل الربيع السعيد الذي يشتعل فيه منذ الأزل مصباح أحمر.

هذا كله ثرثرة، ولكننا يمكن أن نعتبره تاريخا، يمكن أن تستمر في سرد أحداثه، ولكنها لم تعد تريد سماعك.

— ٨ —

في أسفل المعسكر، في غابة القيقف والزيزفون، اكتشف عالم النبات الكهل الذي رافقني إلى الجبل، قطعة من خشب الزان ضخمة، يصل ارتفاعها إلى اكثر من أربعين متراً، وهي القطعة الأثرية النباتية الوحيدة التي تعود إلى العصر الجليدي، الذي كان موجوداً، منذ مليون سنة.

يجب رفع الرأس لكي نلاحظ في نهاية فروعها الجرداء، أوراقاً صغيرة فتية. يوجد على الجذع ثقب كبير يمكن أن يكون قد استخدم كجحر لأحد الدببة. أدخلني عالم النبات في هذا الثقب مؤكداً لي أنه إذا استخدمه أحد الدببة، فلا يمكن أن يحدث ذلك إلا في الشتاء. انزلقت فيه: الجدران مغطاة بالطحلب. وفي الخارج أيضاً، كانت الشجرة الكبيرة مغطاة بالطحالب المخملية تتغلغل الجذور والفروع المتشابكة وكأنها تنانين، أو ثعابين في الأدغال أو في الأعشاب الطويلة.

– قال لي وهو يضرب الجذع بعكازه؛ أيها الشاب، هذه هي الطبيعة في حالتها البكر بصورة حقيقية. كان يسمي كل أعضاء المحمية (شباباً). وهو يحافظ على صحة جيدة على الرغم من سنواته الستين تقريباً. وهو لا يتوقف عن التجول في الجبال مستخدماً معوله كعكاز.

– إنهم يقطعون الأشجار الثمينة ليصنعوا منها أدوات. ولو لم يكن هذا الثقب موجوداً، لكانت هذه الشجرة قد تحولت إلى أدوات أيضاً. لم تعد الغابة هنا غابة بكراً بالمعنى الدقيق للكلمة. وبتنهيدة طويلة قال، ومع ذلك فهذه الغابة هي غابة بكر من (الدرجة الثانية).

لقد جاء يجمع عينات من شجر الخيزران السهمي، طعام حيوانات البندا. رافقته منسلاً بين أدغال الخيزران اليابسة، التي تعلو قامة الإنسان. لم نعثر على أي خيزران حي. شرح لي أن ستين عاماً تمضي بين لحظة الإنبات ولحظة يباس هذه الأشجار. ثم تفرع من جديد قبل أن تعود إلى الحياة. وهذا الزمن هو زمن الكالبا kalpa، وهو تتابع الكائنات، والانبعاث في الديانة البوذية.

الإنسان يتبع طرق الأرض، والأرض تتبع طرق السماء، والسماء تتبع طرق الطريق، والتاو يتبع طرقه الخاصة[٥]، يذكر هذا بصوت مرتفع، ويتابع، يجب عدم

---

(٥) مقبوس من (كتاب التاو والفضيلة)، وتعود الترجمة هنا على فرانسوا، وبيير ليريس، دار سوي،١٩٧٩.

ارتكاب أفعال مناقضة للطبيعة، يجب عدم فعل المستحيل.

أي قيمة علمية تحملها حماية حيوانات البندا وإنقاذها؟

هذا ليس إلا رمزاً، ومصالحة، الإنسان يحتاج إلى أن يخدع نفسه. فهو، من جهة، ينقذ نوعاً فقد القدرة على الاستمرار في الحياة، ومن الجهة الأخرى، يسرّع من تدمير البيئة التي تسمح له بالبقاء انظر إلى ضفتي مينج يانغ Minj iang، لقد قطعت الأشجار فيهما بصورة كاملة، وحتى مجرى النهر لم يعد إلا مجرى من الطين الأسود. ولن نتكلم عن يانغزي Yangr zi. إنهم يريدون بناء بحيرة اصطناعية عبر بناء سد على مستوى تروا جورج Trois Gorges! من المؤكد أن وجود مشروعات خيالية مسألة رومانسية جداً. يبين التاريخ أنه حدث انهيارات عديدة في هذه المنطقة بسبب خلل جيولوجي، وسيؤدي بناء السد إلى تدمير كل التوازن البيئي في حوض يانغزي. إذا حدثت هزة أرضية قوية، فإن مئات الملايين من السكان الذي يعيشون على ضفاف المجرى الأدنى والأوسط للنهر، سيتحولون إلى سلاحف! يقيناً أن أحداً لن يجرؤ على الاستماع إلى كلام كهل مثلي. الإنسان يخرب الطبيعة، ولكن الطبيعة ما تلبث أن تنتقم!

تبعته في الغابة وسط نباتات السرخس التي تصل إلى طول قاماتنا، والتي تبدو أوراقها الملتفة كأقماع ضخم.

الجو مشبع بالرطوبة، في كل مكان. ولا أستطيع أن أمنع نفسي من طرح السؤال:

- أيوجد ثعابين في هذه الأدغال؟

- ليس الآن فصلها، ولكن في بداية الصيف، عندما يصبح الطقس جافاً، تصبح خطرة.

- وهل يوجد حيوانات مفترسة؟

- يجب ألا تخشى منها، ولكن يجب أن تخاف الإنسان! وشرح لي أنه في شبابه، صادف يوماً ثلاثة نمور مرت الأم وصغيرها بقربه. أما الثالث وهو الذكر، فقد رفع الرأس واقترب. نظر بعضهم إلى بعض، ثم أدار الذكر نظره وابتعد بدوره.

- لا يهاجم النمر، بصورة عامة، الإنسان، في حين أن الإنسان يلاحقه في كل مكان للقضاء عليه. لم نعد نجد أثراً للنمور في الصين الجنوبية. ويجب أن تكون محظوظاً لكي تصادفها الآن. قال هذا بسخرية.

- وماذا عن شراب عظم النمور الذي يباع في كل مكان؟

- هذه نكتة؟ حتى المتاحف لم تستطع الحصول على عينات. في السنوات

العشر الأخيرة، لم يُبع إلا جلد نمر واحد في كل المنطقة، ذهب شخص إلى قرية فوجيان Fujian، لكي يشتري هيكلاً عظمياً لنمر، ولكن عند فحصه تبين أنه عظم خنزير أو كلب! وانفجر ضاحكاً، ثم ضاق صدره، فارتاح قليلاً وهو يستند على عكازه:

– لقد نجوت من الموت مرات عديدة في حياتي، ولكن ذلك لم يكن بسبب مخالب حيوانات مفترسة. مرة خطفني لصوص أرادوا مبادلتي بسبيكة ذهب، لأنهم اعتقدوا أنني من عائلة غنية. لم يتخيلوا أن طالباً فقيراً مثلي، يبحث في الجبال، لا يملك إلا ساعة استعارها من صديق له، وفي مرة ثانية، كانت خلال القصف الياباني. وقعت القذيفة على جسر سقف البيت الذي اقطنه. وكانت المرة الثالثة عندما اتهموني بأنني (يميني)، وأرسلوني إلى مزرعة لإعادة تأهيلي. وفي أوقات الكوارث الطبيعية، لم يكن هناك شيء يؤكل، وكان جسدي مغطى بالبثور، وكنت مهدداً بالموت. أيها الشاب، إن الطبيعة ليست مخيفة، الإنسان هو المخيف! يكفيك أن تتآلف مع الطبيعة لكي تقترب منك. من المؤكد أن الإنسان ذكي وقادر على اختراع كل شيء، بدءاً من النميمة وحتى أطفال الأنابيب، ولكنه، في الوقت نفسه، يقضي، كل يوم، على نوعين أو ثلاثة أنواع في العالم.

هذا هو الخداع الإنساني.

لم يكن عندي في المخيم غيره أتحدث معه، وربما يعود هذا إلى أنه الوحيد القادم من عالم حي، أما الآخرون الذي يعملون سنة بعد سنة في هذه الجبال، فقد كانوا بخلاء في الكلام كهذه الأشجار. وبعد أيام عديدة، سافر هو بدوره.

كنت قلقاً، قليلاً، من فكرة أنني قد لا أستطيع التواصل مع الآخرين. كنت اعرف أنني، من وجهة نظرهم، لست إلا سائحاً دفعه الفضول للمجيء. في العمق، لماذا جئت إلى هذه الجبال؟ أمن أجل اختبار الحياة في مراكز البحوث العلمية هذه؟

ما معنى هذا النوع من التجربة. وإذا كان ذلك من أجل الهروب من المصاعب التي واجهتها، فقد كان هناك وسيلة أسهل.

ربما اعتقدت أنني سأكتشف حياة أخرى؟. لقد ابتعدت عن العالم الممل للناس بأقصى ما يمكن. ولأنني هربت من العالم، لماذا أتواصل مع الناس؟ جاء القلق الحقيقي من أنني لا اعرف عمَّ ابحث. أأبحث عن مزيد من التأمل، وما المنطق، والمعنى! الحياة نفسها لا تخضع لأي منطق فلماذا نريد حصر دلالاتها في المنطق؟ ثم ما المنطق؟ إنني أعتقد أنه يجب أن أتجرد عن التفكير، لأن قلقي يأتي من هنا.

– سألت من لاو وو Lao Wu، الرجل الذي ساعدني على التخلص من مصاصة دماء، إذا ما كان يوجد غابات بكر أخرى في هذه المنطقة. فأجابني بأن

المناطق المحيطة كلها كانت قديماً تمتلئ بالغابات البكر. فقلت له بأن هذا واضح، ولكنني أريد الآن أن أعرف أين يمكنني العثور عليها.

- آه، حسناً، اذهب إلى الجرف الأبيض Roc Blac. لقد عبّدنا طريقاً،

سألته إذا كان الأمر يتعلق بصخرة بيضاء انبثقت وسط بحر من الغابات، في ذروة منحدر صخري يمكن الوصول إليه عبر طريق يقطع وادياً، أسفل المخيم. فأجاب برأسه نعم. لقد ذهبت، سابقاً، إلى هناك، الغابة كثيفة جداً. ولكن في الوديان، تتكدس جذوع أشجار سوداء كثيرة لم تجرفها مياه فيضانات الأنهار.

- قلت، وهناك أيضاً قطعوا الأشجار.

- كان ذلك قبل إنشاء المحمية الطبيعية.

- في نهاية الأمر، هل ما زال يوجد ضمن هذه المحمية الطبيعية غابة بكر، لم تتعرض لآثار العمل الإنساني.

- طبعاً، يجب الذهاب إلى نهر زهينغ Zheng

- أهذا ممكن؟.

- حتى نحن، مع عدتنا وفريقنا، لم نستطع الوصول إلى المنطقة المركزية. فهناك شعاب ضيقة ذات نتوءات صعبة محاطة بجبال عالية مغطاة بالثلوج، ترتفع إلى اكثر من خمسة أو ستة آلاف متر.

- كيف يمكنك الوصول لرؤية غابة بكر حقيقية؟

إن أقرب نقطة يجب الذهاب إليها، هي ١١ م، M11، و١٢ م، M12. إنه يتحدث عن نقاط في خرائط مساحية، ظاهرة عليها، وتستخدم في المسح الجوي.

ولكن ألا يمكنك أنت أن تذهب وحيداً إلى هناك.

وشرح لي أنه في العام الفائت، جاء شابان جامعيان للعمل في المخيم، وذهبا ومعهما بوصلة وعلبة من البسكويت، وكانا على قناعة تامة بأنه لن يحصل لهما شيء، ولكنهما لم يعودا في المساء. وفي نهاية اليوم الرابع، نجح أحدهما في الوصول إلى الطريق، ورأته قافلة كانت تتجه إلى كينغ هي Qing hai. فذهب الجميع للبحث عن صديقه، الذي كان قد أغمي عليه جوعاً قبل الوصول إليه، وطلب مني ألا أبتعد أبداً لوحدي، وحذرني من انه إذا أردت حقيقة الذهاب لرؤية هذه الغابة البكر، يجب أن أنتظر أحدهم عندما يقوم بعملية في النقطة م١١، م١٢، من اجل استقبال إشارات نشاط حيوانات البندا.

أَلديكِ همومِ؟

تريد إزعاجها ....

لماذا ترينه؟

واضح أنها فتاة شابة هربت إلى هذا المكان.

هل أنت وحيد أيضاً،

أليس كذلك؟

هذه عادتي. أحب التنزه وحيداً، لأنه يمكننا الاستغراق في التأمل.. ولكن فتاة شابة مثلك..

- هذا يكفي! ليس الرجال فقط هم من لديهم الأفكار.
- لم اقل قط إنك لا تملكين الأفكار.
- وهناك رجال ليس لديهم أي فكر!
- لقد واجهتك بعض الصعوبات.
- كل شخص لديه أفكاره الخاصة، ليس فقط. عندما يكون لديه مشكلات.
- لا أريد الاختلاف معكِ
- ولا أنا أيضاً.
- آمل أن أستطيع مساعدتك.
- عندما احتاج لمساعدتك.
- ألستِ بحاجة الآن؟
- شكراً، لا. أنا احتاج فقط لأن أكون وحيدة، وأن لا يأتي أحد لإزعاجي.
- هذا يثبت جيداً أن لديك مشكلات.
- نعم، أنت قلت.
- أتعانين من الكآبة.
- إنه اقل خطراً من هذا.
- أنتِ تعترفين، إذن، بوجود هموم لديك؟
- كل البشر لديهم هموم.

- ولكن، أنتِ، أتبحثين عن هموم.
- لماذا؟
- من غير المفيد أن نعرف كثيراً.
- أنت ماكر حقاً.
- ولكن هذا لا يصل إلى حد الإزعاج.
- وهذا ليس مثل الحب.
- ولكنك لا ترفضين القيام بجولة على طول النهر؟

إنك تحتاج لأن تثبت أمام ذاتك أنك ما زلت قادراً على إثارة اهتمام الفتيات الشابات، انتهت إلى اللحاق بك.

سرتما بمحاذاة السد القائم على النهر. إنك محتاج لأن تبحث عن السعادة، وهي محتاجة للبحث عن الألم.

تقول إنها لا تجرؤ على النظر إلى أسفل، وتقول إنك تعلم جيداً إنها خائفة.

خائفة من ماذا؟

خائفة من الماء.

ضحكتْ، ولكنك لاحظت أن ضحكها مصطنع قليلاً.

قلتَ وأنت تسير قصداً قريباً من الحد، لا تجرؤين على القفز. في أسفل السد، ماء النهر يزيد.

و قالت، وإذا قفزت؟. سأغوص لإنقاذك.

أنت تعلم أنك بحديثك هذا، تحظى بإعجابها. تقول إنها تشعر بالدوار قليلاً، وتضيف أنه من السهل القفز، ويكفي إغماض العينين، وأن طريقة الموت هي الأقل إيلاماً، بالإضافة إلى أن هذا مثير. وتقول إن فتاة مثلها كانت قد قفزت في هذا النهر سابقاً، وقد جاءت أيضاً من المدينة، وكانت أكثر شباباً، وأكثر بساطة. لا تريد أن تقول إنها معقدة. ولكن تريد أن تقول إن شباب اليوم ليسوا أذكى ولا أغبى من شباب الأمس، هذا الأمس غير البعيد. وتقول إن هذا حدث في ليلة غير قمراء، وكان النهر يبدو أكثر عمقاً. أعلنت زوجة صاحب الزورق وانغ، Wang، بوسو ، Bossu، بعد ذلك، أنها في هذا الوقت كانت قد أيقظت زوجها الغارق في نومه، قائلة إنها سمعت صوت السلاسل التي تربط السفينة، أرادت النهوض لرؤية ما الذي حدث، ثم سمعت زعيقاً اعتقدت أنه الريح. وكانت قد ظنت أنه لا يمكن أن يكون رجلاً يريد سرقة الزورق، ولأن الزعيق كان قوياً، ولم تنبح الكلاب في هذه

الليلة الهادئة. ولهذا عادت إلى النوم من جديد. وخلال نومها، عاد الصراخ مرة أخرى. فاستفاقت وأصاخت السمع وقالت إنه لو سارع أحدهم، لما استطاعت تلك الفتاة الانتحار. ويقع هذا الخطأ كله على هذا الشيطان الكهل الذي ينام متبلد الإحساس.

يحصل غالباً أن يضرب أحدهم على النافذة، أو ينادي عندما يريد قطع النهر ليلاً لأمر عاجل. ولكن ما لم تستطع فهمه هو لماذا نقلت الفتاة السلاسل من أجل الانتحار، وهل كان ذلك من أجل أخذ الزورق للذهاب إلى المركز الإداري للمنطقة، ومن هناك تذهب إلى المدينة للقاء أهلها؟ كان يمكنها أن تأخذ ظهراً حافلة المنطقة، إلا إذا كانت تخشى أن يراها أحدهم. ليس هناك مَنْ يمكنه التكهن بما كانت تفكر به قبل الموت. في الواقع، كانت هذه الفتاة الشابة اللطيفة جداً قد جاءت، من دون سبب ظاهر، لتعمل في الأرض في هذه القرية التي لم تكن تعرف فيها أقارب أو أصدقاء. وكانت قد اغتُصبت من قبل سكرتير الحزب، أي خطيئة! وفي صباح اليوم التالي وجدها سكان طوافة عائمة على مقعد من الرمل على بعد ثلاثين عقدة من هنا. كانت عارية الصدر، وكانت ملابسها معلقة على أغصان شجرة قرب عطفة نهر مع ذلك رُتبَ حذاؤها الرياضي على صخرة كتب عليها حروف موشاة برسم احمر (ممريو). وفي وقت لاحق عندما كان السواح يصعدون فوق الصخرة لأخذ الصور، كانوا يحتفظون بذكرى هذين الحرفين، وأرواح الفتاة الضحية، والتي لا يمكن نسيانها.

سألتها، هل تسمعينني؟ فأجابتك بصوت منخفض: أكملْ. في الماضي، كان هناك دائماً أموات من الأطفال والشابات هنا. يقفز الأطفال من فوق الصخرة. فإذا لم يخرجوا، يسمى هذا «البحث عن الموت»، ويقال إنهم احتجزوا بأقاربهم من الحيوات السابقة. إن ضحايا الظلم دائماً من النساء. إذا كان الأمر لا يتعلق بشابات مثقفات طردن من المدينة. فإنهن من الشابات المتزوجات اللواتي يتعرضن لمعاملات سيئة من حمواتهن أو أزواجهن. أو من الجميلات اللواتي ينتحرن بسبب حب فاشل. ولهذا فإن الفلاحين يسمون ممريو هذا (جرف الأشباح القلقة)، حتى قبل أبحاث الأستاذ يو عن البلدة، وعندما يذهب الأطفال للسباحة هناك، لم يكن البالغون يشعرون بالراحة. يروى أيضاً انه في منتصف الليل، تظهر هنا امرأة شبح تلبس ملابس بيضاء، وتشدو بأغنية لا تميز كلماتها بوضوح. ويقولون أيضاً إنها أغنية طفولية ريفية أكثر منها أغنية حزينة لمتسول. من المؤكد أن هذا كله ليس إلا

خرافات، وغالباً؟ مـا تخـوف النـاس بعضـها بعضـاً. ولكـن في هـذا المكـان يعيـش، حقيقة، طير مائي، يسميه الناس في المنطقة (الرأس الأزرق)، ويقول الناس المثقفون عنه بأنه طائر أزرق ذُكِرَ في شعرٍ تانغ Tang. الفلاحون هـم من يطلقـون عليه اسـم (الـرأس الأزرق)، بسـبب ريشـه الأزرق الطويـل. هـل رأيـت مـن قبـل هـذا الطـائر، بـالطبع، فهو صغير، جسـمه أزرق غـامق، وعلـى رأسـه ريشـتان زمردتيـان، ويتمـيز بالذكاء والخفة، وله شكل جميل. ويقف دائماً في الأماكن الرطبـة والظليلة في أسفل السد، أو على أطراف غابة الخيزران الكثيفـة. قريبـاً مـن المـاء، وهـو يرقـب يمنـة ويسرة، براحة كاملة. يمكنك تثبيت نظرك عليه من اجل الإعجاب بـه، ولكنـه، عند اقل حركة، يعاود الطيران مباشرة، إن الطائر الأزرق الذي يجمع الطعام لملكة الغرب الأم، مذكور في (كلاسيكيات البحار والجبال) وهو نوع من الطيور الرائعة. وليس هو نفسه (الرأس الأزرق) عند الفلاحين، ولكنه يمتلك السمة السحرية نفسها.

قُلتَ لها إن هـذا الطـائر الأزرق يشـبه امـرأة، يقينـاً أنـه يوجـد نسـاء حمقـاوات، ولكن هنا، أنت تتحدث عن نساء أكثر صفـاء، وأكثر عاطفيـة. ونـادراً مـا تعـرف هـذه النساء حياة سعيدة، لأن الرجال يريدون امرأة لمتعتهم الخاصة، ويريد الأزواج زوجـة تهتم بأمور البيت، وتحضر الوجبات، ويريد الرجال المسنون زوجة ابن (كنة)، لتـأمين استمرار الذرية.

لا أحد يبحث عن الحب، ثم، عندما حدثتها عن فتاة أخـرى، وهـي فلاحـة شـابة، استمعت إليك باهتمام شديد. وعندما قلت إنها مـاتت، ضحيـة ظلـم. في هـذا النـهر، وعندما شرحت لها ما يقوله الناس، هزت رأسها تستمع إليك وهي مذهولة. وجعلها هذا الذهول أكثر جمالاً في نظرك.

قلتَ إن هذه الشابة الفلاحة نُذرت لرجل، ولكن عندمـا جـاء موفـد عائلـة زوجـها المستقبلي ليأخذها، اختفت. لقـد رحلـت مـع حبيبـها، وهـو شـاب جميـل مـن الريـف. فسألتك: هل كان يحمل أيضـاً التنـين المضـيء؟ إن مجموعـة الشباب التـي تـأتي إلـى البلدة من أجل معركـة التنـانين المضيئـة كانت مـن قريـة غولـي. وتوجـد عائلـة هـذا الشاب الصغير في وانغنيان Wangnian، على بعد خمسـين عقـدة مـن هنـا، وحـدث هذا في زمن أقدم. لقد كان فتى رائعاً لا يملك مـالاً، ولا جاهـاً. كـانت عائلتـه تمتلـك فقط بعض الآرات من الأراضـي، وأقـل مـن ذلـك مـن طاحونـة الـرز. مَنْ يعمـل بجـد هنـاك لا يخـاف الموت جوعـاً. ولكـن بشـرط ألا تحـدث كـوارث طبيعيـة، ولا حـروب

وتطحن القرية، مثلما حدث من قبل. وكان هذا الفتى، حبيب الفتاة، لا يملك ما يكفيه من الأموال لكي يتزوج فتاة بمثل هذا الذكاء وهذا الجمال. مثل هذه الخطيبة تستحق ثمناً محدداً: زوج أساور من الفضة كمهر مقدم، وثمان عبوات من قطع الحلوى كهدية للخطوبة، بالإضافة إلى صندوقين وخزانتين من الملابس المذهبة كجهاز للعروس، وهذا كله على نفقة الرجل الموعود (الشاري) .

والرجل الذي اشترى الفتاة يسكن في شارع صغير يقع خلف المكان الحالي لمحلات التصوير. وقد تغير صاحب البيت منذ زمن بعيد.

لم تضع زوجة المالك، في ذلك الوقت، إلا الفتيات. ولكنه أراد أن يكون له صبي، فقرر أن يتخذ عشيقة له.

وهنا اعتقدت والدة الفتاة، التي هي أرملة حكيمة، أنه من الأفضل لهذه الفتاة أن تصبح عشيقة رجل غني بدلاً من الذهاب مع شاب فقير مضطر للعمل في الأرض كل حياته.

وتمت العملية بمساعدة وسيط. واتفق على الإسراع بالزواج، وحُجزت الملابس الداخلية والخارجية، ولكن الفتاة هربت في ليلة عرسها، حاملة معها فقط بعض قطع الثياب. وفي منتصف الليل ذهبت لتقرع نافذة صديقها، واستدعته إلى الخارج. وبسبب تأجج عاطفتها، سلمته نفسها في المكان عينه. وبعد أن حفظا دموعهما، أقسما يمين الوفاء الأبدي، وقررا الهرب إلى الجبال، واستصلاح أرض للعيش منها. عندما وصلا إلى رصيف الركوب، وتأملا في مياه النهر الهائجة، تردد الشاب، قائلاً إنه يرغب في العودة إلى بيته لكي يأخذ فأساً. وفاجأه والداه وهو يسرق بعض الأغراض التي يحتاجها في حياته. فضرب هذا الولد العائق، أما الأم فقد تمزق قلبها. ولكنها لم تستطع أن تتركه يرحل. واستمر الأب بالضرب، واستمرت الأم بالبكاء حتى الصباح. وقال الرجال الذين استقلوا العَبَّارة صباحاً إنهم شاهدوا امرأة تحمل كيس ملابس، قبل أن ينتشر الضباب الكثيف. ومع تقدم النهار، ازدادت كثافة الضباب فوق النهر. حتى الشمس أصبحت كقطعة من الفحم الأحمر الداكن. زاد صاحب الزورق من يقظته: ليس هناك خطر كبير إذا اصطدم بزورق آخر. ولكنه إذا اصطدم بقطار عائم من الخشب فإنه قد تحدث كارثة. على الضفة كانت تحتشد الجموع الذاهبة إلى السوق، مثلما تفعل عادة منذ ثلاثة آلاف سنة على الأقل. ومن المؤكد أن شخصاً من بين هذه الجموع سمع صرخة اخترقت الضباب،

وتجاوب صداها في البعيد، ثم سمع جلبة جسد يسقط في الماء. ولكن أحدهم بدأ الكلام، مما حال دون تمييز أي صوت. لقد كان رصيف الركاب مزدحماً كثيراً، وإلا لما كان يو العظيم قد مر من هنا.

كان القارب محملاً بالخشب، والفحم الخشبي، والذرة البيضاء، والبطاطا الحلوة، والشاي، والبيض، والفطر المعطر والورد والزنبق المجفف، والناس، والخنازير، وتحت ثقل حمل الخيزران انحنت المجاديف، واندفع الماء حتى وصل إلى حافة الزورق، ولم نعد نرى على سطح الماء الأبيض إلا الظل الداكن لصخرة جرف الأشباح.

يمكن للنساء الثرثارات أن يقلن إنه في هذا الصباح، سمعن باكراً، صوت غراب، وهذا نذير شؤم.

حلق الغراب في السماء، وهو ينعق. من المؤكد أنه أحس برائحة الموت. ولكن قبل الاختفاء تماماً، يصدر الإنسان رائحة معينة، وفي هذا سوء طالع، ألا ترين ذلك، إنها مسألة إحساس.

وسألتِ: هل أحمل سوء طالع؟

طبعاً، ولكنك تريدينه لنفسك. لديك رغبة في أذية نفسك.

- إنك تتعمد إزعاجها- ليس تماماً، الحياة ممتلئة بالآلام! هكذا سمعتها تصرخ بوجهك.

الماء يرشح في كل مكان. على طحالب جذوع الأشجار، وعلى الأغصان الصغيرة فوق رأسي، وعلى الأشنة التي تتدلى كخصلات شعر طويلة، وحتى في الهواء، من دون أن نعرف من أين يأتي. تسيل نقاط كبيرة وهي تتلألأ، على وجهي، واحدة بعد أخرى، ثم تنزلق على رقبتي متجلدة. وفي كل خطوة، أطأ الطحالب المخملية الكثيفة، واللدنة، التي تجمعت طبقة فوق طبقة. وهي تعيش متطفلة على جذوع الأشجار الضخمة المرمية على الأرض، والتي تموت وتنبعث باستمرار. وكان حذائي الممتلئ بالماء يغوص فيها في كل خطوة، ويصدر صوتاً متواتراً. لقد تبللت قلنسوتي، وشعري، وسترتي الشمعية، وسروالي، وكذلك ملابسي الداخلية، والتصقت بجلدي. أحسست بحرارة بأسفل بطني.

توقف فوقي دون أن يدير رأسه. ويقع خلف عنقه الهوائي المصنوع من ثلاثة قضبان معدنية، ومازال يهتز. وعندما وصلت إلى مستواه، بعد أن فشخت على جذوع الأشجار الملقاة على الأرض، كان قد غادر المكان قبل أن أتمكن حتى من أخذ نفس. كان الرجل صغيراً، ونحيفاً مما جعله يشبه قرداً رشيقاً؛ كان يخاف أن يُتعب نفسه إذا أخذ الطرق المتعرجة، ودون أن يتردد سار في منحدر مستقيم. لقد رحلنا صباحاً من المخيم، وسرنا لمدة ساعتين بلا توقف، ولم يوجه لي، خلالهما، أي كلمة. اعتقدت أنه ربما يستخدم هذه الوسيلة لكي يتخلص مني، ولكي اتراجع . عملت بجد على اللحاق به، ولكن المسافة التي تفصلنا بدأت بازدياد شيئاً فشيئاً. عندها توقف للحظات ينتظرني، وأفاد من الوقت الذي ألتقط فيه أنفاسي، لكي ينصب الهوائي، ويضع سماعتيه، ويبحث عن الإشارات، ثم كتب بسرعة على مفكرته.

وفي فسحة في الغابة لا أشجار فيها، وضعت أدوات خاصة بالأرصاد الجوية. فنظر فيها، وسجل بعض الملاحظات، وأخبرني أن درجة الرطوبة عالية جداً. كانت هذه أول كلمة وجهها لي، وأنا اعتبرت هذا دليل ود. وبعد أن أخذنا الطريق مباشرة، أشار لي بأن أتبعه ضمن غابة صغيرة من الخيزران اليابس، والتي نصب فيها قفص كبير مصنوع بعناية كبيرة، ويصل ارتفاعه إلى ارتفاع رجل. كان الباب مفتوحاً. لم يكن المزلاج في الداخل مغلقاً.

تُجذب حيوانات البندا إلى داخل القفص، ثم تخدّر بحقنة مخدر. ونضع عليها حلقة فيها جهاز إرسال قبل أن يعاد إطلاقها في الغابة. أشار إلى آلة التصوير التي

أعلقها على صدري. فناولته إياها، ثم أخذ لي صورة أمام القفص. وليس داخله، من حسن الحظ.

دخلنا ضمن غابة مظلمة من الزيزفون والقَيْقَب. إن الزقزقة المستمرة لطيور القُرْقُف* ضمن الغابة تنفي أي إحساس بالوحدة. على ارتفاع ٢٧٠٠- ٢٨٠٠ م، تبدأ منطقة غابات الصنوبريات، المتناثرة. تنتصب أمامك أشجار ضخمة لونها أسود حديدي، مع أغصانها الكبيرة المواجهة للشمس. وتتجاوزها أشجار التَّنُّوب** الرمادية الداكنة، بثلاثين أو أربعين متراً، وقد يتجاوزها بعضها بخمسين أو ستين متراً. وتعطيها قمتها الحادة التي تنبت عليها فروع صغيرة خضراء رمادية، مزيداً من الجمال. لقد غابت الأدغال من الغابة، ويستطيع النظر أن يمتد إلى البعيد. وبين جذوع شجر التنوب الضخمة، بعض نباتات الأزالية (من فصيلة الخلنجيات)، التي ترتفع إلى أربعة أمتار، ومغطاة بأزهار حمراء نضرة، تبدو الجذوع المنحنية وكأنها لم تعد تستطيع تحمّل هذا الجمال المفرط. وتوزع تويجاتها الضخمة في أسفل الشجرة، عارضة بوضوح بهاء لونها اللامتناهي. إن هذه الطبيعة الرائعة في حالتها البكر أرسلت في من جديد حسرة غير محددة. ولكن من الواضح أن هذه الحسرة لا تمس إلا شخصي أنا، ولا علاقة لها بالطبيعة نفسها. وتتناثر.

في كل مكان، أشجار ضخمة ميتة أو مكسورة في منتصفها بسبب الريح والثلج. عبرت هذه الجذوع الضخمة الواقفة التي أجبرتني على الصمت. انتابتني رغبة شديدة في الحديث، ولكنني أضعت كلماتي أمام هذه المهابة.

وهناك وقواق يغرد، متخفي، في الأعلى، في الأسفل، على اليسار، على اليمين، وكأنه يدور باستمرار ليضيعني. يروى أنه يقول (انتظرني يا أخي الكبير! انتظرني يا أخي الكبير!).

وهنا لا أستطيع إلا أن أفكر بقصة الأخوين اللذين ذهبا إلى الغابة لنثر بذور السمسم.

وتروي هذه القصة أن امرأة أب أرادت التخلص من ابن زوجها، من زواجه الأول، ولكن القدر انتقم من ابنها نفسه.

وتذكرت أيضاً الطالبين اللذين ضاعا في هذه الغابة، وشعرت بقلق جارف.

توقف فجأة ورفع يده ليشير لي. فلحقته بسرعة، وهنا شدني بقوة ليجبرني

---

* جنس طير من فصيلة القرقفيات، أنواعه كثيرة العدد (م)

** جنس شجر من فصيلة الصنوبريات.

على النزول إلى الأرض، ثم نهض مباشرة. كان بين جذوع الأشجار طيران كبيران، لونهما أبيض داكن، وأرجلهما حمراء يتنقلان بسرعة وسط المنحدر، تقدمت بهدوء، وفجأة قطع اصطفاق الأجنحة الصمت.

- قال إنهما من طيور تُدْرُج الثلوج.

- وفي لحظة، عاد الوجه إلى التجهم من جديد؛ ويبدو أن زوج تُدْرُج الثلوج، الأبيض الداكن بأرجله الحمراء، المفعم بالحيوية، لم يوجد من قبل قط، إنه نوع من الهلوسة.

- لا وجود إلا للغابة الكبيرة الساكنة التي لا حدود لها، بدا لي وجودي حقيقة عابراً ولم يعد له معنى.

- أصبح أكثر حميمية معي، ولم يعد يتركني خلفه. تقدم، ثم توقف ينتظرني ومن اجل اللحاق به. وتقلصت المسافة بيني وبينه، ولكن من دون أن نتكلم مع بعضنا. ثم توقف لينظر إلى ساعته، ورفع نظره إلى السماء التي انقشعت بالتدريج. يقال إنه كان يشعر بشيء ما. وبدأ يتسلق المنحدر وهو يشدني بيده من جديد. وصلت، منهكاً، إلى قمة فسيحة. تمتد أمامي غابة من شجر التنوب فقط، وهي جميعها من الصنف نفسه.

- نحن على ارتفاع ثلاثة آلاف متر، أليس كذلك؟

أجاب بالموافقة من خلال تحريك رأسه، وركض نحو شجرة تقع في المكان الأعلى من القمة. دار حولها، وسماعاته على أذنيه، بعد أن أدار الهوائي نحو الاتجاهات الأربعة. وأنا أيضاً نظرت حولي. لقد كنا محاطين بجذوع أشجار من الحجم نفسه، وتتموضع على مسافة واحدة، وكلها أيضاً مرتفعة ومستقيمة إلى جانب بعضها بعضاً، مع أغصان لها الارتفاع نفسه. هنا لا يوجد جذوع مكسورة، أما الجذوع التالفة الملقاة على الأرض، فهي جميعها ودون استثناء، ضحية الاصطفاء الصارم للطبيعة.

لا وجود هنا للأشنيات، ولا لغيضات الخيزران السهمي، ولا الأدغال، والمسافات الواسعة بين الأشجار تجعل الغابة أكثر إضاءة، والنظر يمتد لمسافة بعيدة. وعلى مسافة أبعد هناك نبتة أضالية ناصعة البياض، ومرتفعة وكلها سحر، تثير إحساساً رائعاً بصفائها الغريب. وبدأت تكبر مع اقترابي منها تحمل باقات كبيرة من الزهور بتويجات أكثر كثافة من تويجات الأضالية الحمراء التي رأيتها في الأسفل. وهي تويجات ناصعة البياض لم تذبل بعد، وتغطي الأرض في أسفل الشجرة.

إن القوة الحيوية للجمال الطبيعي في حالته البكر، كبيرة جداً، وهو يعبر عن رغبة لا تقاوم في الظهور، من دون مقابل، ولا هدف، ومن دون العودة إلى الرمز أو على المجاز، أو القيام بمقاربة تعسفية، أو اشتراك في الأفكار.

إن نباتات الأضالية بيضاء كالثلج، براقة كالحجر الكريم، وتتابعت على مدى المنظر، وحيدة، منسجمة في غابة التنوب الطويلة، كهذه الطيور المخفية التي لا تتعب، والتي تجعل روح الناس تهيم في البعيد. استنشقت بعمق هواء الغابة النقي لقد ضاق نفسي، ولكنني لا اصرف طاقة. يبدو أن رئتيّ قد نظفتا، ودخل الهواء إلى أسفل قدمي. وجسدي وروحي دخلا في دائرة الطبيعة الكبرى، إنني في حالة من النشوة التي لم اشعر بها من قبل.

الضباب يسبح على ارتفاع متر من الأرض، وينقشع أمامي. كنت أحركه بيدي، وأنا أتراجع كما لو أنه دخان. ركضت قليلاً وراءه، لكنني لم أستطع الإمساك به، بل لامسني فقط. المنظر الطبيعي أمامي تلاشى. وغابت الألوان، لقد صعد الضباب. إنني أراه بوضوح يتحرك بشكل دائري، وعند وصولي إلى المنحدر تخلصت منه، ولكنني رأيت فجأة أخدوداً عميقاً تحت قدمي.

وتنتصب أمامي سلسلة من الجبال الساحرة، الزرقاء الباهتة، والمكللة بالثلوج البيضاء. تتحرك طبقة كثيفة من الغيوم في كل الاتجاهات، ولكننا لا نرى في الأخدود إلا بعض الضباب وهو يتطاير، ولكنه، سرعان ما يتلاشى، وهذا الخيط الأبيض كالثلج، هو سيل جارف يقطع الغابة في وسط الأخدود. ومن المؤكد أنه ليس الوادي الصغير الذي تبعته لأستطيع الدخول إلى الجبل منذ أيام عديدة، وكان يوجد فيه، على الأقل، قرية، وبعض الحقول المزروعة، مع جسر من السلاسل المعلقة الدقيقة جداً، وهذا الجسر يصل بين الضفتين. ضمن هذا الوادي المظلم، لا أرى إلا الغيضان الكثيفة، وبعض الصخور الغريبة شديدة الانحدار، وليس هناك أي اثر إنساني. إن منظر هذا الوادي لوحده.

يدب القشعريرة في الظهر ستظهر الشمس عما قريب، وتضيء سلسلة الجبال المقابلة لي. الهواء نقي جداً، وغابة الراتنجيات تحت طبقة الغيوم تقدم في هذه اللحظة شكلاً أخضر داكناً، واضحاً على حد أنها تجبرني على الإحساس بالنشوة.

إنها كأغنية هادئة تصعد من تعمق الرئتين وتنتشر بحسب الظلمات والأنوار، وتغيّر النبرة برمشة عين إنني أركض، وأقفز، وألاحق الظل المتغير للغيوم، وآخذ الصورة تلو الصورة.

عاد الضباب الداكن ورائي، دون اهتمام بالحفر، وتعرجات الأرض، وجذوع

الأشجار الملقاة على الأرض. لا املك أي وسيلة للهرب أمامه، فلحقني بلا عجلة. اختفيت ضمن الضباب. اختفى المنظر من أمامي، وكل شيء غير واضح.

وبقي في رأسي فقط الأحاسيس التي شعرت بها ولأنني بقيت متردداً، اخترقت أشعة الشمس الضباب، ووصلتاني وأضاءت الطحلب الذي يغطي الأرض. عندها اكتشفت تحت قدمي عالماً نباتياً غريباً، مع هذه السلاسل الجبلية، والمروج والغيضات ذات اللون الأخضر اللامع. وبينما أنا جالس على الأرض، عاد الضباب، وانتشر في كل مكان، كأنه خارج، من يد ساحر. نهضت، ونظرت حولي، فأحسست بأنني ضائع. ناديت، دون جواب. ناديت مرة ثانية، ولكنني لم أسمع سوى صدى صوتي الحزين والمرتعش، والذي اختفى. ودائماً دون جواب و عندها انتابني خوف شديد، صعد من أسفل قدمي، وتجمد دمي. ناديت مرة جديدة، ولكن دائماً دون جواب، ومن حولي يلف ظلام شجر التنوب الأسود. بدأت أركض الكل متشابه. أخذت أركض، أصرخ، واندفع نحو اليمين، نحو اليسار، فقدت رشدي. عليّ أن أهدأ، وأن أعود إلى نقطة انطلاقي، لا، عليّ أولاً أن أحاول تحديد وجهتي، ولكن ظلمة شجر التنوب الأسود تملأ المكان حولي. ليس هناك أي نقطة علاّم، لقد رأيت كل شيء سابقاً ولكنني الآن أشعر وكأني لم أر شيئاً. وبدأت أوداجي تخفق بقوة؟. استوعبت أن الطبيعة تحايلت عليّ أنا الرجل الصغير غير المؤمن، والذي لا يخشى شيئاً، ويوحي بهيبة كبيرة.

- هي – هو! هي!

صرخت، لم أسأل الرجل الذي رافقني عن اسمه، وليس هناك ما افعله سوى الصراخ، بطريقة هستيرية، كحيوان متوحش. وكانت أصواتي توقف شعر رأسي. كنت أعتقد أنه، في الجبال، هناك دائماً صدى للصوت. وحتى الصدى الأكثر حزناً، والأكثر وحدانية سيكون أفضل من هذا الصمت المخيف. الصوت يتلاشى هنا في هذا الجو الممتلئ بالرطوبة، والضباب الكثيف. عرفت عندها أنني لن أستطيع حتى إطلاق صوتي، ووقعت في يأس كامل.

وفي السماء الداكنة يرتسم ظل خاص لإحدى الشجرات المائلة والتي ينقسم جذعها إلى قسمين متشابهين في الحجم، ويرتفع في السماء، بلا أغصان، ولا أوراق. إنها معراة تماماً، ولهذا كان يمكن أن تموت؛ إنها تشبه عملاقاً ضخماً ومخيفاً يشير إلى السماء. سرت نحوها. في الحقيقة، إنها تقع على طرف الغابة، وفي الأسفل يوجد الأخدود المظلم والذي يخفيه الضباب؛ هذا الاتجاه يقود مباشرة، إذن، إلى الموت. ولكنني لم اعد أستطيع ترك هذه الشجرة، والتي هي مَعلَمي الوحيد. بذلت

جهدي لجمع ذاكرتي للمشاهد التي رأيتها على طول الطريق كان علي، في البداية، أن استرجع الصور الثابتة، مثل هذه الشجرة، وليس الانطباعات العابرة، كل شيء حاضر في ذهني، وحاولت أن أرتب فيه الأشياء لكي استخدم هذه الذكريات كنقاط دليل من اجل العودة.

ولكن ذاكرتي غير قادرة على القيام بذلك، وكأنها ورق لعب ممسوح، وكلما حاولت أن أرتب هذه الصور، ازداد اختلاطها في رأسي. تركت نفسي أخيراً تقع على الطحالب الرطبة بسبب الإرهاق الشديد.

وهكذا، فقدت الاتصال مع دليلي، وتهت في غابة بدائية في منطقة نقطة الطيران (١٢م)، على ارتفاع أكثر من ثلاثة آلاف متر. فأولاً أنا لا احمل معي الخريطة المساحية. ثانياً، ليس معي بوصلة. ولم اعثر في جيبي إلا على عدد من حبات (السكاكر) التي تركها لي عالم النبات العجوز، لحالة طارئة، إذا تهت في الغابة. وبرأس أصابعي أحصيت عدد الحبات في جيبي: وكانت كلها سبع حبات. ليس أمامي إلا الجلوس، وانتظار أن يأتي دليلي للبحث عني.

كل القصص عن الأشخاص الذين ماتوا بعد ضياعهم في الغابة والذين سمعت أحاديثاً عنهم في هذه الأيام الأخيرة، عادت على ذاكرتي، وأرعبتني. لقد شعرت أنني وقعت في فخ. في هذه اللحظة، ظهرت كسمكة وقعت في حبال الخوف، فقاومت من دون أن تستطيع تغيير قدرها، إلا بمعجزة. ولكنني لم انتظر في حياتي قط معجزة.

— ١١ —

لقد قالته، قالته لاحقاً؟. إنها ترغب حقيقة في الموت، هذا سهل. إذا وقفت على أعالي السد فوق النهر، فإنه يكفيها أن تغلق عينيها وترمي بنفسها في الفراغ! ولكن فكرة أنها يمكن أن تقع على الجرف الصخري جمدتها من الخوف. لم تجرؤ على تخيل المشهد المرعب لنخاعها وهو خارج جمجمتها المهشمة. سيكون هذا مثيراً للاشمئزاز. إذا ماتت، تريده أن يكون موتاً جميلاً. لتكسب الشفقة والتعاطف. تقول إنه كان عليها صعود المجرى عبر الضفة. وعندما تجد مساحة فسيحة على الضفة، تنزل إليها وتغوص في الماء المظلم تحت جنح الظلام، دون أن تترك حتى نعليها، لم تكن تريد أن تترك آثاراً. تقدمت، إذن، وهي تنتعل حذاءها. وخطوة خطوة، دخلت في المياه، وعندما وصلت إلى عمق معين، وقبل أن يصل مستوى الماء إلى مستوى الصدر ويمنعها من التنفس، أصبح التيار جارفاً، فجرفها فجأة إلى وسط المجرى. لم يعد باستطاعتها العودة إلى البر، لكنها قاومت على الرغم منها إن هذه الرغبة القوية في الاستمرار في الحياة لم تفدها في شيء. بالإضافة إلى أنها صارعت وهي خائرة القوى. جرى كل شيء بسرعة، وانتهى الأمر دون أن تمتلك الوقت حتى للتنفس. لم يكن باستطاعتها الصراخ. فزال أي أمل بالنجاة، وحتى لو صرخت، فإن صراخها سيتلاشى مع الماء مباشرة. لا يستطيع أي شخص سماعها، وليس هناك أي وسيلة لإنقاذها. واختفت هذه الحياة العابرة من العالم دون أن تترك أي أثر. وعندما تنعدم الوسيلة للتخلص من هذا الألم، من الأفضل الاستسلام لراحة الموت، وبهذا نجتث الشر من جذوره. ويجب أن يكون الموت نقياً أيضاً. وإذا استطاعت أن تموت بصفاء، فسيكون ذلك جيداً، ولكن إذا جرف التيار الجسد المنتفخ من الماء إلى الضفة، والقي على الرمال، فإنه سيجف بفعل الشمس، ويبدأ بالتحلل، وسيكون فريسة لأعداد كبيرة من الذباب. وبصورة لا إرادية، انتابها إحساس بالتقزز من جديد. لا شيء مثير للاشمئزاز كالموت. ولا يمكننا القيام بأي شيء للتخلص من هذا التقزز.

قالت إن أي شخص لا يمكنه التعرف عليها، أو يعرف اسمها أو كنيتها. إن المعلومات التي قدمتها عندما ملأت بطاقة الفندق غير صحيحة. وقالت إن أي شخص من عائلتها لن يستطيع العثور عليها، أو أن يتخيل أنها هربت إلى هذه البلدة الجبلية الصغيرة. في المقابل، لقد تخيلت تماماً موقف أهلها.

كان على زوجة أبيها أن تهاتف المشفى الذي تعمل فيه، بصوتها الأجش، وكأنها مصابة بالزكام، وقامت بهذا، دون شك، بإلحاح من والدها. لقد كانت تعرف جيداً أن زوجة أبيها لن تبكي عليها حقيقة. لأنها تعدها عبئاً على عائلتها. وزوجة الأب عندها ابنها الخاص، وقد اصبح الآن يافعاً. وعندما كانت تريد العودة إلى منزلها لقضاء الليل، كان أخوها الصغير ينام على سرير مطوي في المر. كانوا ينتظرون غرفتها، ويتمنون زواجها بأسرع وقت ممكن. ولكنها لم تكن تريد العيش في المشفى. كانت تنبعث من غرف استراحة المرضات المناوبات دائماً رائحة مادة مطهرة. وضمن هذا الجو من الأغطية، والصدريات، والناموسيات، والأقنعة البيضاء، يبدو أنها لم تكن تمتلك دائماً إلا عينيها، وحاجبيها. لقد أضاعت لون الدم بين الكحول، والملاقط الجراحية، وأصوات المقصات والمشارط، والغسيل الدائم للأيدي، والأذرع الغائصة دائماً بالكحول المطهرة، إلى درجة أن الجلد أصبح أبيض شاحباً. ومع تقدم العاملين في قسم الجراحة بالسن، يأخذ جلد أياديهم لون فأر بيضاء. ولم يبق لها، هي أيضاً، أي يوم قبل أن تفقد يديها لونهما بصورة كاملة. ستُلقى هاتان اليدان على الضفة الرملية، وسيغطيهما الذباب. عاودها التقزز من جديد. إنها تكره عملها، وعائلتها، وحتى والدها العاجز الذي ليس له أي رأي إذا ما رفعت زوجته نبرتها قليلاً. وحتى لو أراد معارضتها، فإنه لم يكن يريد الإفصاح عن ذلك. قل لي أين أنفقت نقودك؟ أنت حيوان غير بالغ، كيف يمكن ترك النقود لك؟ وهكذا تجر جملة عشر جمل أخرى، وصوت زوجة الأب يلعلع دائماً بقوة. وهو لا يقول كلمة واحدة، لمس قدمها تحت الطاولة، بحذر، عندما كانت زوجة الأب، وابنها غائبين عن البيت، وكانا لوحدهما، لقد شرب كثيراً سامحته، ولكنها في الوقت نفسه، لم تكن قادرة على ذلك. هو لا ينفع في شيء، إنها تكره ضعفه. إنه ليس أباً ينال الإعجاب، أو رجلاً حقيقياً، يمكن أن تعتمد عليه، وتكون فخورة به. وأرادت ترك عائلتها منذ وقت طويل، وكانت تتمنى دائماً أن يكون لديها عائلتها الصغيرة الخاصة. ولكن هذا هو الواقع، وعاودها أيضاً التقزز.

وجدت في جيبه واقياً من الحمل. وكانت هي تتناول الحبوب، ولم تكن قلقة قط من هذا الموضوع. لا يمكنها أن تقول إنها وقعت بحبه من النظرة الأولى. ولكنه كان الرجل الأول الذي صادفته، والذي تجرأ على مغازلتها. قبلها، وبدأت تفكر فيه. اجتمعا ثانية، وحددا موعداً. إنه يريدها، وهي استسلمت له. وانتظرا بعضهما بشوق جارف وكانا مضطربين. كانت قلقة، والقلب يضرب بقوة من الخوف، ولكنها كانت راضية. كل شيء كان طبيعياً، سعادة غامرة، وجمال، وحياء كامل، من دون فظاظة. وقالت لأنها تعرف، فإنها ترغب أولاً أن تحبه، ثم أن تصبح محبوبة،

وتصبح بعد ذلك زوجته، وأماً شابة، ولكنها تقيأت. ولم يكن هذا بسبب حملها كما تقول. ولكنها شعرت مباشرة بعد أن مارس الجنس معها بشيء في الجيب الخلفي للبنطال الذي كان قد خلعه. لم تكن تريد أن تفتش ولكنها فتشت وتقيأت. في هذا اليوم، لم تعد من عملها إلى مأواها، ولم تأكل شيئاً، بسبب سرعتها في الذهاب إليه. وعندما دخلت إليه قبلها مباشرة، ومارس معها الحب، قبل أن تستريح قليلاً. كان يقول إنه يجب التمتع بالشباب، والتمتع بالحب من كل قلبه. اندست في حضنه، براحة تامة. لم يكن يريد في المرحلة الأول إنجاب أطفال، لكي يتمتعا بالحياة سنوات عديدة. واقتصدا في مصروفهما من أجل القيام برحلات. كما انهما لم يعدا منزلاً في البداية. كان يكفيهما امتلاك غرفة صغيرة، وكانا يملكانها من قبل، وهي لا تفكر إلا في امتلاكه هو. لقد كانا مجنونين، لا شيء يوقف جنونهما. لم يكن لديها الوقت للتمتع بهذا كله، ولم يبقَ لها إلا التقزز. وهو تقزز لا يمكن إيقافه، ويثير الغثيان. وبدأت، لاحقاً، في البكاء، وشتم الرجل بطريقة مجنونة لقد انتهى حبها له. كانت تحب رائحة تعرق سرواله الداخلي كثيراً. وحتى عندما كان نظيفاً، كانت تستطيع التوصل لتمييز هذه الرائحة. ومع ذلك، فهو لم يكن يستحق هذا الحب كله، وكان بإمكانه أن يفعل هذه الأشياء في أي وقت ومع أي امرأة. الرجال قذرون جداً إن الحياة التي بدأتها كانت قذرة، مثل أغطية هذا الفندق الصغير الذي يأتي إليه كل الناس للنوم. فهم لم يتغيروا قط وتفوح منهم رائحة الرجال!

إنها لن تعود إلى مثل هذا النوع من الأماكن فتساءلتَ، أين ذهبتِ إذن؟ قالت إنها لا تعرف، ولا تفهم كيف استطاعتْ أن تأتي إلى هنا وهي وحيدة. وقالت أيضاً إنها تبحث عن مكان مثل هذا المكان هنا الذي لا يستطع فيه أي شخص التعرف إليها، وإنها سارت مع النهر وحيدة دون أن تفكر بشيء، واستمرت كذلك إلى أن تعبت، ووقعت فجأة على الطريق ميتة..

- إنك تقول إنها كانت طفلة متقلبة الأطوار.
- لا قالت إن أي شخص لن يفهمها، ولا حتى أنت.

سألتَها إذا كانت تستطيع عبور النهر معك. توجد على الضفة الأخرى لينغشان، جبل الروح، حيث يمكننا أن نرى العجائب التي تساعدنا على نسيان آلامنا، وعلى الشعور بالراحة والخلاص. بذلت جهدك لإغوئها.

قالت إنها شرحت لعائلتها أن المشفى نظم رحلة، وادّعت في المشفى أن أباها مريض. وطلبت إجازة من العمل عدة أيام لكي تهتم به.

قلت أنها ماكرة حقاً.

وهي قالت إنها ليست حمقاء.

قبل الشروع بهذه الرحلة الطويلة، وخلال هذه الأيام التي شخص فيها الطبيب سرطان الرئة، كان الشيء الوحيد الذي يمكنني القيام به هو التجول بين حدائق الضاحية. كان الناس كلهم يقولون إنه في هذه المدينة الملوثة، لا يوجد هواء نقي إلا في الحدائق، خاصة حدائق الضاحية. وكانت الهضاب الصغيرة التي ترتفع قرب سور المدينة قديماً، هي مواقع حرق الجثث، والمدافن، ولم تتحول إلى حدائق إلا منذ وقت قريب. وعندما وصل تنظيم المدينة، في هذه السنوات الأخيرة. إلى المقابر المهملة، شيّد الأحياء المنازل على سفوح الهضاب، ونزعوا الأرض من الأموات.

بقي حالياً القمة مهجورة؛ وجُمع فيها الأحجار غير المستخدمة والتي كان يجب أن تستخدم كنصب تذكارية للأموات. يأتي كبار السن من المناطق القريبة كل صباح إلى هذا المكان، لكي يقوموا برياضتهم التقليدية. ولكي يقوموا بجولة مع طيورهم. في الساعة التاسعة، وعندما تضرب الشمس قمة الهضبة، يعودون كلهم إلى بيوتهم، وهم يحملون أقفاصهم. أخيراً، بقيت وحيداً، وعم الهدوء، فأخرجت من جيبي نسخة من (كتاب التحولات) قرأت، وقرأت، تحت دفء شمس الخريف، شعرت أن النعاس سيأخذني. استلقيت على مقعد من الحجر، ووضعت رأسي على الكتاب كأنه وسادة.

استعرضت بعقلي صفات الصيغ السداسية Hexagrammes[٦] التي قرأتها، وصورتها الزرقاء المشرقة ترفرف فوق وجهي المحمر من حرارة الشمس. لم يكن لدي، في الأصل، أي رغبة في القراءة. وسواء قرأت أم لم أقرأ، فإن هذا لن يؤخر ساعة حرقي. وإذا كنت قد قرأت التحولات، فإن هذه مصادفة محضة. أحد أصدقاء الطفولة الذي يعرف وضعي جاء خصيصاً لرؤيتي ليعرض علي مساعدته. حدثني عن الممارسات التنفسية لكيغونغ Qigoing. لقد سمع من يقول إن بعضهم استخدمها للشفاء من السرطان ويعرف رجلاً يمارس فناً له علاقة بثمانية صيغ ثلاثية. نصحني بأن أحاول أنا أيضاً، وفهمت مقاصده الطيبة.

إن إنساناً يصل إلى هذا الوضع مستعد لفعل أي شيء من اجل الخروج منه. سألته إذا كان يستطيع إعارتي نسخة من (كتاب التحولات) الذي لم اكن قد قرأته

---

(٦) الصيغ الثلاثية trigrammes، والصيغ السداسية hexagrammes، هي رموز يجينغ Yijing، كتاب التحولات، المستخدمة في التنبؤات.

من قبل. فجلبه لي في اليوم التالي. اعترفت له، وأنا متأثر جداً، أنني عندما كنت صغيراً، شككت في أنه سرق آلة موسيقية 'هارمونيكا كنت قد اشتريتها. لقد اتهمته ظلماً، لأنني عثرت عليها بعد ذلك. أيتذكر هذا كله؟. فأضاءت ضحكة وجهه المستدير الناعم، وقال لي بأنه منزعج قليلاً. لماذا الحديث عن هذا، وماذا يفيد؟ وفي نهاية الأمر إنه هو الذي انزعج وليس أنا. من الواضح أنه لم ينسَ. ولكنه حافظ على صداقته معي. عرفت عندها، أنني ارتكبت أخطاء، وليس الآخرون فقط هم من يتهمونني خطأ. هل هذه توبة من قبلي؟ هل تسبق هذه الحالة الروحية للموت. لم أكن اعرف إذا كنت أنا، خلال حياتي، ناكراً للجميل تجاه الآخرين، أم كان الآخرون هم من ينكر الجميل تجاهي. إنني أعرف أن بعضهم احبني حقيقة، مثل أمي التي ماتت، وبعضهم كرهني، مثل زوجتي، التي انفصلت عنها، ولكن ما فائدة هذا الكلام الآن، ولم يتبقَ لي إلا وقت قصير في هذه الحياة؟ سيكون موتي بالنسبة إلى الذين لم اكن وفياً معهم، عقوبة، أما الآخرون، فلا أستطيع أن افعل لهم شيئاً. في النهاية، الحياة ليست إلا عقدة من الأحقاد لا خلاص منها، فهل لها دلالة أخرى مصادفة؟ ولكن من المبكر أن تنتهي بهذا الشكل. أدركت أنني لم أعش قط بالشكل اللائق، وأني إذا أمكنني العودة إلى حياة جديدة، سأغير طريقتي في الحياة، بصورة كاملة، شرط أن تحصل معجزة.

لم اكن أؤمن بالمعجزات، كما أنني لم اكن أعتقد، جزئياً، بالقدر، ولكن عندما يُفرض علينا موقف يائس، لا يبقى إلا المعجزات التي يمكننا أن نتعلق بها؟

وفي الموعد المحدد، بعد خمسة عشر يوماً، ذهبت إلى المشفى، لأجري فيه فحصاً نسيجياً كما هو متوقع. أصرّ شقيقي القلق على مرافقتي دون رغبتي. لم اكن أريد أن أبدي مشاعري أمام أقربائي. أستطيع أن أراقب نفسي بصورة اسهل عندما أكون وحيداً، ولكنني لم استطع إقناعه. كان يعمل في المشفى أيضاً صديق قديم من أيام المدرسة. اصطحبني مباشرة إلى لمسؤول عن الصور الشعاعية.

كان يضع نظارته، ويجلس على كرسي دوار وأعلن بعد قراءة التشخيص المسجل على بطاقتي الصحية، وفحص الصور الإشعاعية لصدري، أنه يجب أن أجري صوراً إشعاعية جانبية. وقام مباشرة بتحرير رسالة لكي اعمل هذه الصورة في قسم آخر، محدداً أنه سيستخلص النتائج منها قبل أن تُجفف.

كانت شمس الخريف الجميلة تسطع. أما في الداخل، فقد كان الجو رطباً. جلست في هذه الغرفة وأنا انظر من النافذة إلى الحديقة الخضراء التي تغمرها الشمس، كان لدي إحساس بسعادة لا متناهية. لم انظر إلى الشمس من قبل قط

بهذه الطريقة، تأملت الشمس عبر النافذة، بانتظار الانتهاء من تحميض الصورة الشعاعية الجانبية في الغرفة المظلمة، مع ذلك، كانت الشمس حقيقة، بعيدة جداً، وكان عليّ أن أفكر فيما سيحصل الآن. ولكن أيتطلب هذا تفكيراً أيضاً كان وضعي مثل وضع محكوم بالإعدام كانت الحجج ضده دامغة، وينتظر أن يصدر القاضي حكم الإعدام عليه. ليس أمامه إلا أن يأمل بحدوث معجزة. ألا تشكل الصورتان الشعاعيتان اللتان أجريتهما في مشفيين مختلفين، الدليل على الحكم عليَّ بالموت.؟

لا أعرف متى سمعت في داخلي أنني اردد اسم بوذا أميثابا Bouddha Amithaba، دون أن أدرك ذلك، ربما من الوقت الذي كنت أتأمل فيه الشمس عبر النافذة. كنت أردد بعض الصلوات بعد أن ارتديت ملابسي، وخرجت من غرفة الآلات التي كان يصعد إليها المرضى، ويستلقون، مثل معمل يراد إتلافه.

لو كنت أفكر، قبل هذه اللحظة، بأنني سأردد أنا نفسي صلوات، فإني كنت سأعتبر هذا مضحكاً بصورة كاملة. عندما كنت أرى، في المعابد، العجائز من الرجال والنساء وهم يشعلون البخور، ويسجدون، وهم يهمهمون باسم بوذا أميثابا، أحس بالشفقة نحوهم.

يجب القول إن هذه الشفقة كانت بعيدة عن أي نوع من التعاطف. إذا كان يجب التعبير عن هذا الإحساس بالكلمات، فإنني أقول بوضوح: (آه! إن هؤلاء الناس الفقراء يثيرون الشفقة، إنهم ضعفاء. عندما يضعف أملهم في تحقيق ما يريدون، لا يعرفون إلا الصلاة من أجل تحقيق رغبتهم.) لم اكن أستطيع أن أتصور أن رجلاً في مقتبل العمر وبكامل قوته، أو امرأة جميلة، يمكنهما أن يصليا. كان يحدث أحياناً أن أسمع من فم بعض المؤمنين اسم بوذا، وكانت تنتابني رغبة في الضحك، وأظهر خبثاً واضحاً. لم اكن أستطيع أن أفهم أن رجلاً في كامل صحته، يمكنه أن يستسلم لمثل هذا النوع من الحماقات، ومع ذلك، فأنا اليوم صليت أيضاً، بورع شديد، ومن كل قلبي.

القدر قاس حقيقة، والإنسان مخلوق في غاية الضعف.

أمام المحن، الإنسان ليس شيئاً.

وبانتظار حكم الموت، وجدت نفسي ضمن هذا الموقف الذي لم أكن فيه شيئاً، وتأملت شمس الخريف عبر النافذة، وصليت بصمت من أجل بوذا. لم يعد صديقي القديم يستطيع الانتظار أكثر من هذا. ودخل إلى الغرفة المظلمة، فتبعه شقيقي، الذي طُلب منه الخروج، ولم يستطع إلا المراقبة من نافذة غرفة التصوير. بعد لحظة، خرج صديقي بدوره ليراقب من الغرفة نفسها. لقد نقلا اهتمامهما من

المحكوم إلى وقف موته. هذا المجاز لم يكن دقيقاً تماماً. نظرت إليهما وهما يدخلان ويخرجان، وكأنني مراقب خارجي تماماً، مهتم فقط بترديد اسم بوذا باستمرار في داخله.

فجأة سمعتهما يصرخان

- ماذا؟ ليس هناك شيء؟ تأكدوا أيضاً

- بعد ظهر هذا اليوم، لم يكن مخططاً إلا هذه الصور الشعاعية الجانبية للصدر، هذا ما أجابوك به بانزعاج في الغرفة المظلمة.

رفع كلاهما الصورة الشعاعية بملاقط من اجل فحصها. خرج التقني أيضاً من الغرفة المظلمة، وألقى نظرة، ثم لفظ بعض الكلمات المبهمة، ثم لم يعد يعيرهما اهتمامه.

الفضل يعود إلى بوذا. هذه الكلمات التي حلت أولاً محل التضرع إلى بوذا أميثابا، أصبحت التعبير الأكثر ابتذالاً عن السعادة. كان هذا هو موقفي الروحي الأولي بعد أن نجوت من هذا الموقف اليائس. لقد اهتم بوذا بي، واكتملت المعجزة. ولكنني كنت سعيداً في دخيلتي، ولم اجرؤ على الإفصاح عن مشاعري بهذه السهولة. لم اكن مطمئناً تماماً. أخذت الصورة الشعاعية التي كانت ما تزال رطبة بأصابعي، وذهبت للتأكد منها عند المسؤول واضع النظارات.

قال وهو يبعد الذراعين، وبحركة مسرحية:

- هذا رائع، أليس كذلك؟ فاستفسرت منه عن موضوع الفحص النسيجي: هل يجب فعل أي شيء آخر؟

فرد علي بنبرة توبيخية، فعل ماذا؟ إنه يملك الحق في ذلك، فهو ينقذ حيوات إنسانية.

ثم أوقفني أمام آلة الأشعة X أكس، وطلب مني التنفس بعمق، ثم السعال، وأدارني إلى الشمال، ثم إلى اليمين.

- يمكنك أن ترى بنفسك، هذا ما قاله لي وهو يشير إلى شاشة المراقبة. انظر، انظر.

في الواقع، لم أكن أرى شيئاً بصورة واضحة، في عقلي كانت (العصيدة) (نوع من الأكل)، وعلى الشاشة السوداء والبيضاء الهيكل العظمي الصدري.

وأعاد الحديث بنبرته التوبيخية، كما لو أنني كنت أتعمد إزعاجه: لا يوجد شيء، أليس كذلك؟

ولكنني لم استطع أن أمنع نفسي من طرح سؤال عليه:

كيف تفسر ما يظهر على هذه الصور الشعاعية للصدر.

إذا كان لا يوجد شيء، فمعنى ذلك انه لا يوجد شيء. هذا اختفى. كيف يُفسّر؟ يمكن للأنفلونزا، أو التهاب الرئة أن يظهر ظلاً على الرئة. واختفى عند الشفاء. أيمكنهما أن يظهرا ظلاً؟ لم اطلب شيئاً حول موضوع أوضاع الروح.

- عش في سلام، أيها الشاب وأدار مقعده، ولم يعد يعيرني أي انتباه.

هذا صحيح، لقد عشته، إنني أشعر بأنني أكثر شباباً حتى من مولود جديد.

غادر شقيقي بسرعة على دراجته. لأنه كان لديه اجتماع أيضاً.

عادت أشعة الشمس إليّ من جديد. وعليّ أن أتمتع بها.

بدا صديقي في الصف الحديث عن القدر بفصاحة، وهو جالس على مقعد، على أطراف المرج الأخضر. إننا لا نتحدث عن القدر إلا عندما يكون ذلك ضرورياً.

- لقد أعلن أن الحياة شيء رائع، إنها حتماً ظاهرة استثنائية.

يمكننا إحصاء عدد الاحتمالات الموجودة في نظام الصبغيات الوراثية، ولكن هل يمكن التنبؤ بالحظوظ التي تقدم للمولود الجديد؟

كان صاحب مخيّلة خصبة، كان يدرس الهندسة الوراثية. عندما كتب أطروحته في نهاية دراسته، لم تكن تتطابق النتيجة التي توصل إليها بعد تجاربه، مع رأي أستاذه المشرف، وخلال محادثة بينه وبين مسؤول الحزب الشيوعي في القسم، عارضه. بعد حصوله على الدبلوم، أرسل للعمل في مزرعة في جبال داكسينغ Daxing لتربية الوعول. لم يستطع بعد ذلك أن يعيّن في جامعة فتحت حديثاً في تانغشان Tangshan، إلا بعد تعقيدات كثيرة. لم يكن يتوقع أن يُطرد منها، ويدان بوصفه (تابعاً للزمرة الظلامية المعادية للثورة). لقد تعرض لصعوبات عديدة خلال عشر سنوات تقريباً. قبل أن يحكم عليه: (عدم ثبات الأدلة). مَنْ كان يستطيع أن يفكر انه كان قد نُقل قبل عشرة أيام من الهزة الأرضية العنيفة في تانغشان، في حين أن أولئك الذين عذبوه هلكوا جميعاً تحت أنقاض بيوتهم؟ حدث ذلك ليلاً، ولم يستطع أي شخص الهرب من الهزة.

- قال: في الملمات، كل له قدره!

وأنا، عليّ أن أفكر بطريقتي في الحياة، الآن وقد مُنحت حياة جديدة.

- ١٣ -

أمامك قرية صغيرة، بيوتها المتشابهة، ذات القوالب القرميدية السوداء، وزجاجها الأزرق، والمتناثرة على طول مجرى النهر، في أسفل الحقول المسطحة، والهضاب. في مدخل القرية، تمر ساقية مغطاة بأرصفة طويلة من الحجر. وهنا ترى أيضاً طريقاً يقود إلى القرية، ومرصوفاً بأحجار رمادية زرقاء، حفرت فيها دواليب العربات. وتسمع أيضاً صوت قدميك العاريتين على الحجر، وهما تتركان أثراً رطباً. شجعك على الدخول. إنه شارع صغير يشبه شارع طفولتك، مع آثار طين على الحجار، وأخيراً، تكتشف بين الفتحات، الساقية الصغيرة التي تعبر القرية تحت الطريق. وعلى باب كل بيت، يوجد حجر بارز يسمح بسحب الماء وغسل الملابس. تطفو على الموجات الصغيرة المتلألئة بقايا أوراق الملفوف. وتسمع أيضاً، وراء أبواب البيوت، نقنقة الدجاج وهو يتصارع على التقاط الطعام. وبين الأزقة، لا ترى كائناً يتحرك، لا من الأطفال، ولا من الكلاب، المكان هادئ ومعزول. تضرب الشمس الساطعة، في زاوية البيت، الجدار المواجه والمطلي بالكلس الأبيض.

تلمع، فوق عتبة الباب، مرآة مزينة بثمانية أشكال مثلثية، تكتشف وأنت واقف على العتبة الأمامية المرتفعة أن هذه المرآة المخصصة لطرد التأثيرات السيئة، تتجه نحو زاوية الجدار الحاجز، التي ترد نحوها النسمات الكريهة القادمة من الجهة المقابلة إذا أخذت صورة من هنا، فإن الدرجات اللونية المتناقضة للجدار الحاجز الغارق تحت ضوء الشمس الأصفر، والظل الأزرق الغامق للزقاق وأرصفة الحجر الضاربة إلى الرمادي، تعطي إحساساً بالسكينة والسعادة.

إن قوالب القرميد المكسرة لمقدمات السطوح المائلة، وفتحات الجدران، توقظ أيضاً نوعاً من الحنين. وإذا اخذت صورة من زاوية أخرى لباب هذا البيت الكبير، مع الضوء الذي تعكسه المرآة ذات الثمانية أشكال المثلثية، والعتبة الحجرية التي أصبحت مصقولة بسبب جلوس الأطفال الدائم عليها، فإنك ستحصل على صورة حية يختفي منها كل اثر للحقد الذي حملته هاتان العائلتان من جيل إلى جيل.

قالت: إنك لا تروي لي إلا القصص الفظيعة والمرعبة، لم اعد أريد سماعها.

- ما الذي تريدين سماعه، إذن؟

- احكِ لي قصصاً جميلة، مع شخصيات جميلة.

- أتريدين أن أحدثك عن النساء بزهر الكاميليا؟

- لا أريد سماع حديث الساحرات.

- إنهن لسن ساحرات. إن الساحرات نساء عجائز طيبات مكروهات، أما النساء بزهـر الكاميليـا فـهن دائمـاً شـابات وجميـلات. مثـل امـرأة قـاطع الطريـق السـيد الثاني؟- لا أريد سماع هذا النوع من القصص الفظيعة.

إن نساء الكاميليا ساحرات ولطيفات أيضاً.

إذا صعدنا مجرى الساقية، على مدخل القرية، تصبح الصخور الضخمة زلقة، ومصقولة بأثير المياه.

تقدمت بحذائيها الجلديين نحو الصخور الرطبة المغطاة بالطحلب. قلت لها بـألا تقترب أكثر، فطلبتْ منك أن تمسك يدها.

حذرتها، ولكنها، مع ذلك، انزلقت. جذبتها نحوك، وأنت تقول بأنك لم تفعل هذا عمداً، ولكنها قـالت بـأنك سيئ، وقطبت حاجبيها. مـع ذلـك، ارتسمت على وجهها بسمة. وزمّت بقوة شفتيها. فانتابتك رغبة بتقبيلهما. فسلمتهما بسهولة، وأدهشتك طراوتهما. واستمتعت بنفسها اللذيذ. قلت عن مثل هـذه الأشياء يحصل غالباً في الجبل. إنكما مغريان. استندت إليك وأغمضت عينيها.

- حدثني.

- عن ماذا؟

- حدثني عن النساء بزهـر الكاميليا.

- إنـهن يغريـن الرجـال، في الجبـال، علـى الـدروب النـائيـة، وفي مفترقـات الطـرق، وفي أعلى السرادق..

- هل رأيتهن؟

- بـالطبع. كـانت جالسـة باستقامة على المقعـد الحجـري أمـام سـرادق مشـاد في وسط الطريق. من المستحيل تجنبها. كانت شابة من سكان الجبل، تلبس قميصاً من قمـاش الكتـان الأزرق الفـاتح، والأزرار منسـقة علـى الطـرف، القبـة والأكمـام موشـاة بالبياض، وتضع عمامة منسوجة بدقة. وبشكل لا شعوري، أبطأت الخطى، وتعمدت الذهـاب للجلوس على المقعـد الحجـري، في مواجهتها. رأتك لكنـها لـم تـدر رأسـها، وزمت شـفتيها النـاعمتين المطليتـين بـأحمر الشفاه الفـاقع. كان حاجباهـا، وعيناهـا السوداوان مخططين بقطعة من خشب الصفصـاف المحـروق، إنـها تعـرف تمامـاً قـوة جاذبيتها، وترمـي بنظراتها السـاحرة، دون أن يخفـى شـيء في العـالم علـى عينيـها اللامعتـين. إن الرجـل هـو الـذي يشـعر بـالاضطراب في مواجهتـها. أنـت ذاتـك كنـت متوتـراً، ونـهضت لتغـادر وعلـى هـذا الطريـق المظلـل والنـائي، كـانت قـد أفقدتـك كـل

قدراتك. كنت تعلم جيداً، أن حظوظك في الالتقاء بمثل هذا النوع من النساء كانت قليلة. وأنت لا تستطيع إلا انتظارها، ولم تجرؤ على استباق الأمور. وصرحت بان نحاتي الحجارة هم الذين نبهوك. قضيت الليل في مأواهم. إنهم يقتلعون الحجارة من الجبل، وأنت أمضيت المساء كله في شرب الكحول، والحديث عن النساء معهم. قُلتَ لها إنك لا تستطيع اصطحابها إلى هذا المكان خوفاً على سلامتها. وحدها المرأة بزهر الكاميليا التي يمكنها أن تسيطر على هؤلاء النحاتين. قالوا إنهن جميعاً قادرات على الوخز بالإبر بأيد عارية. ورثن هذا الفن عن أسلافهن، وبإمكان أياديهن الرشيقة أن تشفي الأمراض الخطيرة التي لا يستطيع الرجال الاهتمام بها، بدءاً من الاختلاجات الباطنية عند الأطفال على الفالج النصفي. أما بالنسبة إلى مراسيم الزواج، والوفيات، والأسرار بين الرجال والنساء، فإن هناك اتفاقاً على دعوتهن إلى التوسط وترتيب الأمور. عندما يجد أحدهم مثل هذه الزهرة البرية، في الجبل، فإن عليه تأملها دون أن يقتلعها. يقول نحاتو الحجارة إن ثلاثة أخوة أقسموا على ذلك، لكنهم لم يصدقوا، لقد صادفوا امرأة الكاميليا، على دربهم وجاءتهم الأفكار السيئة. ألم يستطع ثلاثتهم السيطرة على هذه المرأة؟ بعد أن تشاوروا، هاجموها، وخطفوها بقوة نحو مغارة، إنها امرأة لا تستطيع مقاومة هؤلاء الرجال الأقوياء. عندما انتهى منها الرجلان الأولان، توسلت إلى الرجل الثالث: (يكافأ الخير بالخير، والشر بالشر. ما زلت شاباً، لا تفعل مثلهما. أتوسل إليك أن تتركني، وسأعلمك وصفة سرية، ستفيدك في مرحلة لاحقة. يمكنك أن تتزوج وتعيش بسعادة). شكك الرجل في هذا الكلام، ولكنه، مع ذلك، أشفق عليها وتركها ترحل.

وسألته، وأنت هل هاجمتها أم تركتها ترحل؟

تقول إنك نهضت لترحل ولكنك لم تستطع أن تمنع نفسك من الاستدارة، وإلقاء نظرة عليها، عندها رأيت خديها، وزهرة حمراء من الكاميليا معلقة على صدغها. إن دقة حاجبيها، وجاذبية شفتيها تلمعان كالبرق، وأضاءتا فجأة الوادي المظلم. واشتعل قلبك. فهمت مباشرة أنك لم تصادف امرأة الكاميليا. كانت جالسة هنا، نشيطة، وصدرها يرفع قميص الكتان الأزرق الفاتح. كانت تحمل في يدها سلة من الخيزران، مغطاة بمنشفة جديدة ومطرزة. كانت تنتعل حذاءً جديداً أيضاً، وتضع وشاحاً أزرق مزيناً بالزهور. لقد انفصلت كورقة مقطوعة على نافذة. أشارت إليك بأن تقترب منها.

وهي جالسة على حجرة. خلعت بيدها نعليها ذوي الكعبين العاليين، وتتحسس

بقدميها العاريتين الحصى بحذر وتتموج أصابع قدميها البيضاء في الماء الصافي، كأنها ديدان لحمية. لا تعرف كيف بدأت الأمور. قلبَتَ فجأة رأسها نحو الخيزران البري الأخضر على ضفة الماء. نهضت، بحثت بأصابعك عن وثاق رافعات نهودها، وحررت ثدييها المستديرين، تحت أشعة شمس الظهيرة. ورأيت كيف تبرز حلمة حمراء من نهديها، وتتميز بسواد حولها، وبعض العروق الدقيقة المائلة إلى الزرقة. أطلقت صرخة قصيرة، وانزلقت قدماها في الماء. حط طائر اسود بأقدام بيضاء على صخرة رمادية، وأنت تعرف أن هذا الطائر يسمى (الصُرَد* pie- Greche) وهو مستدير كنهد في وسط غدير. ويشع حوله ضوء الموجة الصافي. أنزلقتما معاً في الماء، وأسفت على تبلل ثوبها بالماء. تشبه عيناها المخضلتان، والمتلألئتان، أشعة الشمس التي تتكسر على سطح ماء الساقية. استحوذتَ عليها أخيراً. هذا الحيوان المتوحش الصغير الذي يقاتل بعناد، اصبح فجأة مطواعاً بين ذراعيك، وبدأت تبكي دون ضجيج.

تلفت طائر الصرد يميناً وشمالاً، ورفع ذيله، ونصب منقاره الشمعي الأحمر ثم خفضه، لم تكد تقترب منه حتى طار فوق سطح الماء، وسيحط قريباً من هنا على صخرة، ويستمر في حركته. استدار نحوك، ورفع رأسه وذيله. تركك تقترب، ثم طار. ثم انتظرك وهو يصدر زقزقات قصيرة. هذه الروح الشريرة، المتشحة بالسواد، إنها هي.

مَنْ؟ روحها. ومَنْ هي؟و أنت تقول إنها ماتت من قبل. أولاد الزنا هؤلاء أخذوها خلال الليل للسباحة على ضفة النهر. وعندما عادوا، قالوا إنهم لم يلاحظوا غيابها إلا مرة واحدة على الضفة من المؤكد انهم كذابون، ولكن هذا ما يقولونه.

وقالوا أيضاً، إذا لم نصدقهم، ما علينا إلا الذهاب للبحث عن طبيب شرعي، والقيام بتشريح الجثة. لم يحسم والداها أمرهما. وعندما ماتت هذه الشابة لم يكن عمرها يتجاوز السادسة عشر بعد. وفي هذا الوقت، كنتَ أصغر منها سناً أيضاً، ولكنك تعرف أن هذه جريمة مدبرة. إنك تعلم أنهم أعطوها مواعيد عديدة في الليل، وأنهم تخفوا تحت ركيزة الجسر، وأنهم مروا على جسدها بالدور قبل الاجتماع من جديد والحديث عن تجاربهم. لقد سخروا منك، لأنك كنت بنظرهم غبياً عندما لم تلمسها، ولم تتمتع بها، لقد سمعت، في مناسبات عديدة، أحاديثهم المثيرة للاشمئزاز، والتي يذكرون فيها اسمها دائماً.

---

* طائر الصُرديات أبقع ، أبيض البطن، أخضر الظهرن ضخم الرأس والمنقار (م).

لقد حذرتها سراً بعدم الذهاب معهم ليلاً. قالت لك إنها خائفة منهم، ولكنها لا تجرؤ على الرفض، استمرت في السير وراءهم. لقد كانت خائفة منهم، وبمقدار ما كنت أنت أيضاً خائفاً منهم. ياللجبن؟ لقد قتلوها أولاد الزانية، ورفضوا الاعتراف بجريمتهم. وأنت لم تجرؤ على كشف سرهم. ومنذ سنوات عديدة، وهي تُثقل على قلبك، ككابوس، روحها الجريحة تعذبك، وتتبدى لك بأشكال مختلفة، ووحدها الصورة الأخيرة التي رأيتها فيها عندما خرجت من تحت ركيزة الجسر لم تتغير قط. وإنها أمامك دائماً، تشي، تشي.. هذه الروح الشريرة الصغيرة. وهذا الطائر برجليه البيضاويتين، ومنقاره الأحمر، اقتلعت قطعة من الصفصاف، وامسكت بجذر نبتة البَقس buis من بين شقوق صخرة، وأخذت الدرب الذي يسير على ضفة النهر.

طلبت منها، وأنت تمسك بيدها، وضع قدميها على حجر. فأطلقت صرخة.

- ما الذي حدث؟
- لقد لويت قدمي.
- لا يمكن السير في الجبل، مع هذه الأحذية العالية الكعب..
- لكن لم اعد نفسي للسير في الجبل.
- ولكن، حضري نفسك للمعاناة، لأنك في الجبل!

إذا نظرنا عبر نافذة طابق منزل قديم، في هذا الزقاق المتعرج، يمكننا أن نرى، على مدى البصر، سقوفاً مائلة بقوالبها القرميدية. نلاحظ أيضاً كوة سقيفة محصورة بين سطحين. أمام الكوة، وعلى القرميد تجفف الأحذية. ويوجد داخل السقيفة سرير بمظلة من الخشب الصلب المحفور تحميه ناموسية. ويوجد كذلك خزانة ثياب، من خشب الباليساندر* palissander، تزينها مرآة مستديرة، وأمام النافذة، كنبة من خشب الأسل الهندي. وبالقرب من الباب، مقعد صغير تجلس عليه. من المستحيل الحركة هنا. تعرفت عليها في السهرة، عند صديق صحفي. دخنا معاً، وشربنا الكحول، وثرثرنا، وتحدثنا عن الجنس دون أن تحاول تجنب الموضوع، وهذا غير مألوف كثيراً في هذه البلدة الجبلية.

ثم تحدثنا عن مشكلتي، وقال صديقي إنه يلزمني امرأة لتخدمني كدليل. فقبلت، دون تردد، أن تأتي معي إلى هذا المكان.

همست في أذني بعض التعليمات الضرورية، باللهجة المحلية: ((عندما تصل، عليك أن تقدم لها التحية والبخور، ثم تركع، وتسجد ثلاث مرات. عليك أن تتقيد حتماً بهذه القواعد)).إن لهجتها، وتصرفها متطابقان تماماً مع لهجة نساء هذه المنطقة وتصرفهن. كنت أتوجس وأنا أقترب منها على هذا المقعد الضيق والقصير، بارتكاب خطأ ما، وكأنني أحاول استمالة هذه المرأة لعلاقة زنا، في هذه البلدة الصغيرة، التي يعرف الناس فيها بعضهم بعضاً، ولهذا يأتون إلى هذا المكان في مواعيدهم الغرامية.

شعرت، فجأة، بانتشار رائحة كريهة منبعثة من الخضار المحفوظة. مع ذلك، لا يوجد في هذه السقيفة، أي ذرة غبار، وكانت الأرضية ممسوحة في مركزها إلى حد أنه يمكن أن نرى لون الخشب الأصلي. والباب مغطى بسجادة نظيفة جداً. ولا وجود هنا لأي مكان لوضع الخضار المملحة.

مس شعرها وجهي مساً خفياً. واقتربت من أذني.

– هذه هي!

---

* الباليساندر: خشب ذكي الرائحة، لونه ضارب إلى البنفسجي، مُدرّج بالأسود والأصفر. يستعمل في صناعة الأثاث الفاخر.

تدخل امرأة ضخمة متقدمة في السن، تتبعها امرأة أخرى أكبر منها سناً. خلعت المرأة الضخمة مئزرها، ونفضت ثيابها ذات الألوان الناصلة، ولكنها كانت نظيفة تماماً.

وكانت قد حضرت وجبتها منذ قليل. أرسلت لي المرأة العجوز النحيفة والقصيرة إشارة برأسها.

- نبهتني صديقتي، وقالت: اتبعها.

نهضت، وتبعتها على الدرج حيث فتحت باباً جانبياً. وفي الداخل، غرفة صغيرة ليس فيها سوى، طاولة، ومذبح لحرق البخور، وألواح، تمجد السيد العجوز، الإمبراطور العظيم، إله النور والظلمة غوان ين Guan yin. وضع أمام المذبح، قرابين من قطع الحلوى، والفواكه، والماء النقي، والكحول. وتتدلّى على الجدران الخشبية سلال حمراء محاطة بشريط أسود، أو بأوراق مسننة صفراء، وبكتابات دينية استغفارية. تنعكس أشعة الشمس على قوالب قرميد السقف، ويرتفع دخان عيدان البخور التي تحترق، بين أشعة ضوء الكوة، مما يخلق جواً من الخشوع. فهمت لماذا همست صديقتي عندما دخلت هي إلى الغرفة. أخرجت المرأة العجوز من أدراج الطاولة حزمة من أعواد البخور الملفوفة بورقة صفراء. قدمت لها مباشرة المساعدة، تبعاً لنصائح صديقتي. أخذت البخور الذي أشعلته بلفافات ورق الرز الذي أشعلته بأعواد الكبريت، وركعت على وسادة أمام المذبح، وأنا أضم يديّ. ثم سجدت ثلاث مرات. أرسلت المرأة العجوز إشارة، لتظهر رضاها على هذا النوع من الخشوع. أخذت البخور ثانية، وقسمته على ثلاث حزم غرزتها في مجمرة العطر.

عندما عدنا إلى الغرفة، كانت المرأة الضخمة قد وضعت كل شيء في مكانه. وجلست باستقامة على كنبة الأسل الهندي، خافضة جفنيها. من الواضح أنها هي الوسيط الروحي الذي تتواصل مع الأرواح. جلست المرأة العجوز على حرف السرير وهمست لها ببضع كلمات، ثم التفتت نحو صديقتي وسألتها عن ساعة ولادتي ومكانه. أعطيتها التاريخ وفق التقويم الشمسي. لم اكن اذكر جيداً التاريخ وفق التقويم القمري، ولكن كان يمكن حساب ذلك. استفسرت مني العجوز بعد ذلك عن ساعة ولادتي. فأجبت بأنني لا أعرف، لأن والدي ماتا. بدت متوترة جداً، وبدأت الحديث، بصوت منخفض، مع الوسيط الروحي الذي همس بشيء معين. فهمت أنها قالت إن هذا ليس خطيراً. بعد ذلك، احتفظت بوضعة يديها على ركبتيها، وبقيت جالسة بهدوء، مغمضة عينيها. وحطت، خلفها، حمامة على قرميد السقف وهي تهدهد، وتنفش ريشها الذي يرسل إلى عنقها أشعة ضاربة إلى اللون البنفسجي على عنقها. فهمت، بصورة طبيعية أن الطائر ذكر يقوم باستعراض

جنسي. فجأة، أطلقت المرأة الوسيط الروحي نفساً فهربت الحمامة.

نظرت إلى قرميد السقف الباعث للأسى. المتراص كحراشف السمك، وفأيقظ في نفسي ذكريات الطفولة. تذكرت أيام المطر، عندما كانت قطرات الماء تبلل بيوت العنكبوت في زاوية البيت، والتي تهتز بفعل الريح.

ثم فكرت بأنني لا اعرف لماذا جئت إلى هذا العالم، إن أحجار القرميد تحمل قوة جاذة، تضعف وتشل. كنت أرغب، قليلاً، في البكاء، ولكنني لم أعد أبداً.

أصيب الوسيط الروحي بالحازوقة. مما لا شك فيه أن روح إنسان دخلت جسدها. لم تتوقف عن الحازوقة لكي تطرد الهواء الموجود في معدتها. لقد طرحت كمية كبيرة منه إلى درجة أنني رغبت في أن أفعل مثلها. ولكنني لم اجرؤ، واكتفيت بغصة داخلية. خشيت أن أضيع عليها ترتيباتها، وأن تعتقد أنني جئت لمضايقتها، والسخرية منها. إنني ذو نية طيبة، وإن كنت لا أومن بذلك تماماً. وازداد تواتر الحازوقة، وبدا جسدها يرتعش ولكن يبدو أنها تقوم بذلك عمداً. إنني أظن أن هذه الاختلاجات التلقائية نتيجة نشاطات روحانية. وبدأ جسدها كله يختلج. فجأة، رفعت إصبعاً في الهواء تجاهي، ولكنها أبقت على عينيها مغمضتين، ووجهت سبابتها نحوي. ورائي حاجز من الألواح الخشبية، لا أستطيع التراجع، فاكتفيت بالوقوف، ولم اجرؤ على النظر إلى صديقتي. من المؤكد أنها أبدت ورعاً أكثر مني، وحتى إن لم تفعل شيئاً غير مرافقتي. وكنبة الأسل الهندي تصر باستمرار تحت اهتزازات جسد المرأة الضخمة. رددت بعض الأدعية غير المفهومة، من مثل:

((أيتها الأم ملكة الغرب، يا آلهة السماء والأرض، داست صنوبرة في بيت الأرواح، العجلات الأرضية والسماوية، في حين أن الشياطين والمسوخ حطموا كل المحرمات)).

أسرعت في حديثها. عليها أن تتمتع بمهارات خاصة، وتتدرب جيداً. إنني على يقين من جاهزيتها الآن.

اقتربت العجوز من أذنها، وأخبرتني بوجهها العابس:

- أنت، حظك ليس جيداًن عليك أن تنتبه!

استمرت المرأة الوسيط الروحي بالتمتمة، وأصبحت كلماتها غير مفهومة تماماً. شرحت لي العجوز:

- إنها تقول إنك صادفت نجمة حيوان الببر الأبيض!

إنني أعرف أن البير الأبيض يرمز إلى المرأة المثيرة جداً، والتي لا يمكننا التخلص منها بسهولة إذا وقعنا في حبائلها.

في الواقع، إنني أتمنى بقوة أن أسقط في شباكها، ولكنني أريد أيضاً أن أعرف

إذا كنت أستطيع الفرار من سوء حظي. فقالت العجوز. وهي تهز رأسها، لا، سيصيبك الشر.

من الواضح أنني لست إنساناً. محظوظاً، وقلما حالفني الحظ في حياتي. ما تمنيته لم يتحقق قط، وما خشيته يحدث دائماً. تتابعت المصائب في حياتي، وتعددت، ولم اكن محظوظاً مع النساء، ولكن التهديدات التي واجهتها، لم تكن بالضرورة بسببهن. في الحقيقة، لم أواجه نزاعاً خطيراً من أي نوع كان، ولم اعرف الشخص الذي يمكن أن أضايقه، وأرغب فقط في أن لا يضايقني أحد. تابعت العجوز:

- إنك تواجه اليوم مشكلات كبيرة، إنك محاط بمجموعة من الرجال الصغار.

إنني أعرف جيداً هؤلاء الرجال الصغار. إننا نسميهم في القانون الطاوي سانشي Sanshi (الجثث الثلاث)، إنهم يعيشون عراة، ويسكنون غالباً أجساد الناس، ويختبئون في حلوقهم، ويتغذون على لعابهم. وينتظرون حتى يناموا ليصعدوا إلى الساحة السماوية ليحملوا إلى إله السماء ما ارتكبوه من آثام. قالت العجوز أيضاً إن رجلاً شريراً ذا عينين محتقنتين بالدماء أراد ان يعاقبني، وتخلصت منه بصعوبة بعد أن نذرت نذراً، وأشعلت الشموع.

نزلت المرأة الضخمة من الكنبة إلى الأرض، وتدحرجت على الأرضية الخشبية. وهذا ليس مدهشاً وخاصة إن الأرضية نظيفة. عرفتُ مباشرة أن أفكاري فاسدة، وبدأتْ بأدعية دينية ضدي. وطمأنتني بأن عدد حيوانات الببر البيضاء التي تحيط بي تسعة.

- قلت وأنا انظر إليها: هل ما زلت قادراً على إنقاذ نفسي؟

خرج من فمها زبد أبيض، وعيناها تدوران في محجريهما، ويتطاير منهما الشرر. غُشي عليها، ودخلت في حالة من الهستيريا.

لم تعد الغرفة تتسع لمزيد من حركاتها على الأرض، وصدم جسدها قدميّ. فسحبتهما ونهضت، وأنا انظر إلى جسدها البدين الذي يتدحرج على الأرض بجنون.

انتابني الخوف. ولا أعرف إذا كان هذا الخوف هو الخوف من قدري الخاص، أو الخوف من أدعيتها. أنفقت النقود لأستميلها، وعليّ أن أواجه عقوبتي بطريقة أو بأخرى. تثير العلاقات الإنسانية أحياناً الرعب.

لم تتوقف المرأة الوسيط الروحي عن التمتمة، ونظرت نحو العجوز لكي أفهم معنى كلماتها.

اكتفت بان هزت رأسها، دون أي تفسير. عندها رأيت، عند قدمي، الجسد البدين، الذي أرهقته الاختلاجات، وهو ينحني رويداً رويداً، ثم ينكمش بهدوء عند أقدام كنبة الأسل الهندي، كحيوان جريح. في الواقع، ينتمي الإنسان إلى هذه الأصناف من الحيوانات، التي يمكن أن تصبح، شرسة إذا ما خرجت.

إن ما يخيفه حقيقة، هو جنونه الشخصي، وان يصبح مجنوناً، وأن يعذب حتى الموت، هذا ما أفكر به.

تنهده بعمق تنهيدة صامتة، حبست في حنجرتها صرخة حيوان مفترس. نهضت بحذر، وعيناها مغمضتان. اقتربت العجوز منها بسرعة لمساندتها ومساعدتها على الجلوس على الكنبة.

إنني على يقين من أن أزمة هستيرية قد انتابتها.

لم يكن إحساسها كاذباً ولأنني جئت للبحث عن التسلية، لا تستطيع إلا أن تنتقم من قدري وتلعنه. ولكن الصديقة التي رافقتني كانت قلقة جداً، وتباحثت مع العجوز من اجل ترتيب جلسة جديدة لحرق البخور وتقديم نذر لي. استفسرت العجوز من المرأة الأخرى التي تتمتم ببعض الكلمات، مبقية عينيها مغمضتين على الدوام.

- تقول إن جلسة أخرى لا تفيد شيئاً.
- هل يجب عليّ أن أشتري كمية أكبر من البخور؟

عندها سألت صديقتي العجوز، عن مقدار النقود التي علي أن أدفعها. قالت: عشرين يواناً. حسبت لوحدي أن هذا المبلغ يساوي المبلغ الذي يمكن أن ادفعه إذا دعوت صديقاً إلى المطعم. قبلت بأكثر من هذا، وهذا ما بقي لي.

استأنفت العجوز حديثها مع الوسيطة الروحية، وأجابت:

- حتى وإن فعلت هذا، لن ينجح.
- لا أستطيع، إذن، الهروب من مصيري المشؤوم؟

نقلت العجوز السؤال أيضاً. تمتمت المرأة الوسيط الروحي، وأضافت العجوز:

- هذا يعتمد.
- يعتمد على ماذا؟ أيعتمد على ورعي؟

استأنف ذكر الحمام هديله وراء كوة السقيفة.

من المؤكد، برأيي أن ذكر الحمام هذا التقى بأنثاه.

ومرة أخرى، لن أنال الغفران.

عند مدخل القرية، تحولت ورقة شجرة من اللون الشحمي الاسود إلى الأحمر الداكن، بفعل الصقيع. يقف رجل تحت الشجرة، ويستند إلى معوله، بوجهه المكفهر، الشاحب كالموت. سألته عن اسم هذه القرية. رمقك بنظرة ثاقبة، دون أن يجيبك. استدرت نحوها لتقول لها إن هذا الفتى لص قبور. لم تستطع أن تمنع نفسها من الضحك، وعندما تجاوزتها، همستْ في أذنك لا بد من أنه سمم نفسه بالزئبق. قلت إنه بقي لفترة طويلة في حفرة القبر الذي كان يريد أن يسرقه، وإن شريكه قد مات. وحده هو بقي حياً.

قلت إن جدك فعل هذا طيلة حياته، وجد جده أيضاً.

إذا كان أحد أسلافنا قد انخرط في استغلال على هذه الشاكلة، فمن الصعب أن نكون نحن نظيفي الأيدي. ولكن هذا ليس مثل تدخين الأفيون الذي يؤدي إلى تبديد الثروة، تحطيم العائلة. أما لصوص القبور، فإنهم يحصلون على مبالغ طائلة دون موهبة خاصة. يكفيهم للبدء بالعمل. وإذا ما اختبروه مرة فإننا انصرفوا له جيلاً بعد جيل. لقد اسعدتها، وأنت تحدثها بهذه الطريقة. أمسكت يدك، وهي مستعدة للحاق بك أينما حللت.

قلت إن الإمبراطور كيا نلونغ كان قد قام في زمن جد جد جد هذا الرجل، بجولة تفتيشية. من بين الموظفين المحليين كان يرغب في التزلف إلى السلطان؟ كانت كل الوسائل مواتية من أجل اختيار أجمل نساء المنطقة والحصول على ثروات سلالات الماضي الحاكمة. لم يكن والد جد جد جده يمتلك من الثروات إلا قطعة صغيرة من أرض قاحلة.

كان يزرع في المواسم الخصبة، الأرض، ولكنه في مواسم اليباب، كان يجول القرى والبلدات، حاملاً على كتفيه الحمالة المزدوجة، ويبيع التماثيل الصغيرة التي يصنعها يحرق بضعة أرطال من السكر الممزوج بطروب من الألوان كافة.

أيستطيع حقيقة أن يجمع ثروة طائلة من صناعة صفارات للأطفال بأشخاص على شاكلة الداعر الشهير الذي يحمل فتاة على ظهره؟ إن لقب جد جد جده هو لي الثالث نا. لقد أمضى أيامه متسكعاً دون ميلاً يذكر لتعلّم صناعة التماثيل الصغيرة من السكر، ولكنه بدأ يفكر هو ايضاً في حمل فتاة على ظهره. عندما كان يرى امرأة، شرع في الحديث معها، وكان القرويون ينعتونه بالداعر التافه. ذات يوم من الأيام وصل إلى القرية طبيب دجال يشفي الناس من لدغات الأفاعي.

كان زاده قضيبا من الخيزران ومحركا للنار وخطافا من المعدن، وعلى ظهره حقيبة من الكتان طافحة بالأفاعي وكان يتسلل إلى القبور

وجد لي الثالث أن هذا مسل، فتبعه وأصبح مساعده. أعطاه المشعوذ دواء معتادا لسموم الأفاعي شبيه بقطعة صغيرة من الطين الاسود، وطلب منه أن يحتفظ بها في فمه.

كان لا بد لهذا الشيء الشديد الحلاوة من أن يجلو صوته. بعد أن أمضى معه خمسة عشر يوما، اكتشف لي الثالث احتياله. لقد كانت الثعابين ذريعة، أما عمله الحقيقي فهو سرقة القبور. ولأن مربي الحيوانات يحتاج إلى المساعدة، حقا، فإن لي الثالث بدأ عمله، بهذا الشكل.

عندما عاد لي إلى القرية، كان يضع على رأسه قبعة من القماش المضلع من الحرير الأسود، يعلوها زر من الحجر الكريم. إنها قبعة قديمة حصل عليها بثمن بخس من حانوت يقرض برهن حيازي مضمون لصاحبه المجدور شين لو عزيلي Chen le grele، في شارع بلدة ووي Wuyi، وهو شارع قديم لـا يحرقه بعد من قبل المتمردين التيبينغيين. كان مظهره فخما، مثلما يقول القرويون، مهيب الطلعة والمظهر، مظهر من "جمع ثروة".

بعضهم تجاوز عتبة بيته لكي يقدموا لوالده خطيبات لابنه. وفي آخر المطاف تزوج من فتاة أيم دون أن يعرف بوضوح فيما إذا كانت هي التي حاولت إغوائه، أم أنه هو الذي ذهب للبحث عنها. قال وهو يرفع سبابته، على كل حال إن لي الثالث كان يتردد على (بيت الربيع السعيد)، بفانوسه الأحمراء، في الشارع الوضيع في بلدة ووي، حيث أنفق سبيكة من الفضة المتلألئة. من المؤكد أنه لم يكن يستطيع أن يشرح أن هذه الفضة تعرضت، في القبور لفترة طويلة، لتأثير الكلس والزرنيخ. ومن حسن حظه أنه حفها مرارا وتكرارا وعلى وجه حذاءه بخاصة. كان هذا القبر على جبل من الحجارة على بعد عقدتين من هضبة طائر الفينيق *Phenix*. اكتشف معلمه، بعد المطر، ينبوعا يتدفق مباشرة من حفرة كانت تزداد اتساعا كلما أمعن في سيرها بعصاه فراح يحفر منذ بداية ما بعد الظهيرة حتى هبوط الليل، لتبلغ حفرته حدا بوسع إنسان أن يندس فيها بطبيعة الحال، كان هو من دخل أولا. ويراح يزحف ويزحف وفجأة "ويالعجب" أحس بشيء من الدوار.

وعثر، أخيرا، وهو يتلمس الطين، على المزهريات التي حطمها فورا. وعثر أيضا على مرآة استخرجها من ألواح نعش تالف، هش كفضلات من جبن الصوجة. كانت هذه المرآة لا تزال سوداء لامعة أيضا، لا يشوبها أي أثر للصدأ؛ لقد كانت مرآة

مثالية للفتيات! ((قال: قسماً بلي الثالث، وإن كنت كاذباً، فلست إلا ابن كلب!)).

لسوء الحظ، أخذ سيده المرآة، ولم يترك له إلا كيساً مملوءاً بالنقود. لقد تعلم من هذه المغامرة، وأدرك أنه يستطيع أن يطير من تلقاء نفسه.

? ذهبتَ إلى معبد أسلاف عائلة لي، في وسط القرية، وضع على العتبة العليا للباب المرمم، حجر مهشم، محفور عليه طيور الكركي، والوعول، وأشجار الصنوبر، وأزاهير اللوز، دفعتَ الباب الكبير المنفرج قليلاً. وفي الحال أتاك صوتٌ صادر من غابر الأزمان يسألك: ما الذي تفعله قلت: قلت إنك جئت تلقي نظرة. خرج عجوز صغير الحجم، نصف كسيح، من غرفة تلوز بالرواق. من الواضح أن الحفاظ على معبد الأسلاف هو أيضاً واجب مجيد. قال وهو يدفعك:

((لا يحق للأجانب التجول هنا))، قلت له إنك تدعى أيضاً لي، وإنك سليل هذه العائلة، وإنك هاجرت إلى منطقة بعيدة لفترة طويلة، وإنك عدت لرؤية بلدك الأم. قطّب حاجبيه البيضاويين الطويلين، ونظر إليك من قدميك إلى رأسك. وسألته إذا كان يعرف لص قبور كان يعيش في هذه القرية في العهود القديمة. ازدادت تجاعيد وجهه تغضناً. على العموم لا تخلو الذكريات من الألم قطعاً.

إنك تجهل ما إذا كان مستغرقاً في استرجاع ذكرياته وتمحيصها، أو أنه كان يجهد في الكشف عن هويتك. على كل حال تشعر بالضيق من الاستمرار في تحديد هذا الوجه الهرم الذي تتبدل تعابيره من حال إلى حال. تمتم للحظة طويلة، ولم يجرؤ على تصديق هذا السليل الذي ينتعل حذاء مسافر وليس حذاءً من ليف القنّب. وأطلق أخيراً عبارته: ((ألم تمت؟)) ((ولكن مَنْ الذي مات؟ إن العجائز هم الذين يموتون دائماً، وليس الأطفال.)).

عندما قال إن أحفاد أسرة لي جمعوا ثروة في الخارج، ففر فاه، ثم تركك تمر، وهو يحني ظهره ليحيك، ويُرشدك إلى مرقد الأسلاف، كقيِّم قديم. انتعل حذاء أسود، ويحمل بيده مفتاحاً. تحدث عن العصر الذي لم يكن فيه هذا المعبد قد تحول إلى مدرسة بعد، ثم تحدث كيف استعاد وظيفته ثانية، لأن المدرسة أخلت المكان.

أطلعك على اللوح الأفقي من البرنيق الصيني المقشور، الشبيه بذخيرة أثرية، ولكن الكتابة المنقوشَة عليه بالأسلوب العادي ((تمجيداً لذكرى الأسلاف))، لم تُمحَ كلية. في أسفل اللوح خطاف من الحديد الذي يُستخدم لتعليق سجلات الأسلاف. في الأوقات العادية، لا تُعرض هذه السجلات، لأن على زعيم القرية العجوز أن يحتفظ بها.

قلت له إنها لفيفة عامودية ملصقة على حرير أصفر. فصَرَخَ: ((هذا صحيح، هذا صحيح)). وكانت قد حرقت في زمن الإصلاح الزراعي، وإعادة توزيع الأراضي، ولكن في وقت لاحق، أعيد تشكيلها ثانية سراً، واحتفظ بها في مخزن الغلال، وفي زمن ((إيضاح أصل الطبقات))، نُزعت صفائح المخزن، واكتُشفت ثانية، ثم أُحرقت من جديد. أما السجلات الموجودة حالياً فقد أعيد تأليفها من الذاكرة من ثلاثة أخوة من عائلة لي، ورممها الأب ماوار Maowar، معلم القرية.

إن لي ماوار فتاة عمرها ثمانية أعوام، ولكنه يريد صبياً أيضاً. ((أليست الولادات مراقبة حالياً؟)) ((لا ولكن يجب دفع غرامة أنجب الأب ولداً ثانياً ولكن لا تعطى موافقة على الإقامة!)) وافقت، وأضفت أنك تريد هذا السجل.

((من المؤكد أنك مسجل فيه، من المؤكد، إن الشباب الذين يحملون اسم لي في هذه القرية مسجلون فيه.)).

وقال أيضاً إنه لا يوجد إلا أسماء ثلاثة أجنبية، وهي أسماء رجال تزوجوا من فتيات العائلة لي؛ وإلاّ لما كان باستطاعتهم البقاء في القرية. ولكن الأشخاص الذي يحملون أسماء أجنبية، يحتفظون باسمهم الأجنبي، ولا تستطيع النساء، عادة، الوصول إلى هذا السجل بوجه عام.

أنت تقول إنك تتفهم هذا، وتتفهم أيضاً أن يكون اسم أمبراطور التانغيين، لي شيمين Li Shimin، كان يدعى لي قبل أن يصبح امبراطوراً، ولكن من يسمون بهذا الاسم (لي) في القرية لم يذهبوا حد الإدعاء بانتسابهم إلى أسرة الأمبراطور.

مع ذلك، كثرٌ هم الأسلاف الذين كانوا قادة أو وزراء ومع ذلك ليس هنا إلاّ لصوص قبور.

عند خروجك من المعبد، حلق لك عدد من الأطفال، لا تعرف من أين أتوا، وكانوا يزدادون باستمرار، ويتبعونك إلى كل مكان. قلت لهم إنهم كالحشرات التي تلتصق بالمؤخرات، ولكنهم استمروا في ملاحقتك وهم يضحكون ببلاهة. عندما رفع آلة التصوير، هربوا وهم يصرخون. واحد منهم فقط انتصب، وأكد أنه لا يوجد فيلم في الآلة، ويمكنك التحقق من ذلك. لقد كان صبياً صغيراً ذكياً، مندفعاً، نشيطاً، كسمكة البرعان التي تقود جماعتها في النهر.

سألته: هل يوجد ما يجذب النظر هنا؟

مدرج المسرح الكبير.

أي مدرّج؟

عندها ركضوا باتجاه شارع صغير، ودخلوا فيه، فتبعتهم، على زاوية أحد المنازل

وعلى حجر منصوب عند مدخل الشارع نقشت الأحرف: جدير بحجر من جبل تيشان Taishan.

لن تستطيع أبداً فهم المعنى الحقيقي لهذه الكتابة، ولا يستطيع أحد اليوم أن يفسرها لك بوضوح. إن هذا، باختصار، يرتبط بذكريات طفولتك. وفي هذا الشارع الصغير الخالي من المارة، والذي يتسع لأكثر من شخص يحمل دلاء الماء على الحمالة المزدوجة، ما زلت تسمع وقع خطواتك الجافة على بلاط الرصيف الخضراء التي تحمل آثار ماء جف بأشعة الشمس.

تخرج من الشارع، ويواجهك فجأة ساحة مخصصة لتجفيف قش الرز. وتعبق في الهواء رائحة جميلة للقشور التي حصدت حديثاً. يوجد في نهاية ساحة التجفيف منصة مسرح مبنية بصورة كاملة من الخشب. ارتفاع المنصة يوازي طول الإنسان. وعليها حزم مكدسة من القش متراصة بعضها إلى بعض. يتسلق عليها عدد من القرود، ويصعدون إلى تلة صغيرة ثم يقعون على ساحة التجفيف. ويقومون ببعض الحركات البهلوانية فوق حزم القش. وعلى المنصة المفتوحة للريح، تسند أعمدة أربعة سقفاً واسعاً ذا زوايا مائلة. وهناك، تحت السقف، بعض الجسور الأفقية التي كانت تستخدم قديماً في تعليق السلال، وحبال المصابيح، وحبال الألعاب البهلوانية. كانت الجسور الأفقية والعامودية مدهونة، ولكن البرنق الصيني كان مقشوراً.

عُرضت هنا الكوميديا، وسقطت رؤوس، وعقدت اجتماعات، واحتُفل بمناسبات، وهنا أيضاً ركع رجال وسجدوا، وفي وقت الحصاد، يُكدس القش، ويتسلق الأطفال إلى الأعلى ويتسابقون مَنْ يكون الأفضل. بعض الذين كانوا يتسلقون، وينزلون، وصل إلى سن الكهولة، وبعضهم الآخر مات، ولا نعرف جيداً مَنْ منهم سُجّل في السجلات العائلية. لا يوجد في النهاية، اختلاف كبير بين أولئك الذين يمتلكون سجلات، وأولئك الذين لا يمتلكونها. فإن لم يهاجروا، أو يرتقوا إلى طبقة أعلى، كان عليهم أن يعملوا في زراعة الأرض لكي يعيشوا، كل ما بقي لهم هو الأطفال والقش.

يوجد، في مواجهة منصة المسرح، معبد أُعيدَ بناؤه على أنقاض المعبد القديم، وهو معبد رائع بألوانه الزاهية.

وعلى الباب الرئيسي صور ملاكان حارسان، أحدهما أسود والآخر أحمر، يستلان سيفاً ومعولاً، وعيناهما كجلاجل من نحاس. خُطّ بالريشة على الجدران المبيضة بالكلس معبد هوغوانغ رُمم بفضل إسهام يونتيل Untel مئة يوان Yuans،

يونتيل مئة وعشرون يواناً، يونتيل مئة وخمسة وعشرون يواناً، يونتيل خمسون يواناً، يونتيل ستون يواناً، يونتيل مئتا يوان، ثم توقيع كاتب الكلمات التذكارية: كُتبت بحضور ممثلي الشباب، والفتيان، والكهول في لينغيان، صخرة الروح.

تدخل إلى المعبد، وتجد في أسفل النصب التذكاري لأمبراطور الضياء، صفاً من النساء العجائز، يرتدين سترة وبنطلوناً سوداوين، وجميعهن بلا أسنان، ويركعن، وينهضن بالدور، ثم يسجدن أمام المذبح، ويحرقن البخور. لأمبراطور الضوء وجه واسع ساطع، ووجنتان دائريتان، وهذا رمز للسعادة جعله تلافيف دخان البخور أكثر بشاشة، ووُضع على امتداد الطاولة الموضوعة مقابله، ريش الرسم، وأحجار الحبر الصيني، مثلما يوضع على مكتب موظف مدني عادة.

أمام طاولات القرابين التي يوضع عليها الشمعدان، ومحرق البخور يتدلى نسيج أحمر عليه كتابة مطرزة بالحرير متعددة الألوان: احمِ الوطن، وساعد الشعب. فوق الستائر والمظلات، رفٌّ أفقي يحمل كتابة سوداء: وحي إلهي، وعلى الأطراف صف من الكلمات الصغيرة: مقدم من مثقفي لينغيان، صخرة الروح، وسكانها، دون أن نعرف بدقة إلى أي تاريخ يعود.

عَرفْتَ أن هذا المكان يسمى لينغيان، صخرة الروح. يمكن أن يوجد إذن، اتجاهات أخرى تحمل اسم لينغ ling، الروح. أنت لم تخطئ عندما سلكت هذا الطريق للذهاب إلى لينغشان، جبل الروح. سألت النساء العجائز اللواتي أجابوك بأفواههن الخالية من الأسنان، ويرسلن صفيراً أثناء الكلام.

لم تشر أي واحدة منهن بوضوح إلى طريق لينغيان.

- أهي قريبة من هذه القرية؟
- نعم، نعم، هذا هو...
- أليست بعيدة عن القرية.
- نعم، نعم، هذا هو ...
- يجب العودة، أليس كذلك؟
- نعم، نعم، هذا هو ...
- أما زال يوجد ليان اثنان (لي وحدة قياس مسافة)
- هذا هو، نعم، نعم ...
- خمسة لي lis؟

- نعم، نعم، هذا هو ...
- خمسة أو سبعة؟
- خمسة أو سبعة أو سبعة أو خمسة ...
- أيوجد جسر من الحجر؟ ألا يوجد جسر من الحجر؟ أنذهب إلى هناك

ونحن نتبع مجرى النهر؟ أهذا أبعد، ولكنه أكثر وضوحاً؟ إذا كان أكثر وضوحاً، فهل نجد منفذاً؟ المهم هو الإخلاص؟ والإخلاص يؤدي إلى الدقة؟ والدقة تقود إلى صخرة الروح! دقة أو غيرها، كل شيء يعتمد على الحظ بصورة كاملة، لا يجب البحث عن أولئك الذين يعرفون السعادة. يمكننا أيضاً استخدام نعال من الحديد، وإلا يمكن أن نسقط أرضاً مصادفة! أليست صخرة الروح هذه هي قطعة من الصخر الصلب؟ إذا لم يكن الحديث بهذا الشكل مناسباً، فكيف يجب الحديث؟ هل الحديث بهذه الطريقة أمر غير مقبول، أم مسألة مستحيلة؟ هذا يعتمد عليك بصورة كلية، وسيكون كما تراه، إذا اعتقدت بأن امرأة معينة جميلة، فهي ستكون جميلة، وإذا غذيت في نفسك الأفكار الشريرة، فلن ترى إلا المسوخ.

- ١٦ -

عندما وصلتُ إلى دالينغيان، Dalingyan، صخرة الروح الكبيرة، لم يكن الليل قد هبط بعد بصورة كاملة. لقد سرتُ النهار كله على طريق جبلي، متبعاً شعباً جبلياً ضيقاً، وعميقاً، ومحاطاً بجروف صخرية شديدة الإنحدار ومظلمة، ومغطاة بطحالب خضراء. في نهاية الوادي، تظهر الأضواء الأخيرة لأشعة الشمس المائلة إلى الغروب، حمراء كألسنة لهب، وتتلألأ على قمة الجبال.

في أسفل الجرف، ووراء غابة الصنوبريات، وتحت أشجار الجينكو ginkgos المعمّرة*، ينتصب معبد تحول إلى مركز استقبال للرحالة، وفيما وراء الباب الكبير، تمتلئ الأرض بأوراق الجينكو الذابلة الصفراء. لاوجود لأي صوت إنساني. اتجهت إلى الفناء الخلفي، على يسار البناء، حيث وجدت، أخيراً، طباخاً ينظف القدور. رجوته أن يحضر لي وجبة، ولكنه أجاب، دون أن يلتفت إليّ، بأن وقت الطعام قد انتهى.

- في أي ساعة ينتهي تقديم الطعام هنا، بصورة عامة؟
- في الساعة السادسة.
- دعوتك للنظر إلى ساعته، الساعة الآن السادسة إلا ثلث.

قال وهو يتابع غسيل القدور: لن يفيد الجدال في شيء.

إذهب إلى المدير. لا أقدم الطعام إلا عند تقديم البطاقات.

من جديد، قطعت الممرات المتعرجة، في البناء الكبير الخالي، دون أن أجد شخصاً. أخيراً قررتُ المناداة:

- هي، ألا يوجد حارس هنا؟

وبعد نداءات عديدة، أجابني صوت ذو نبرة حادة، وأُثيرت ضجة منبعثة من أسفل، فظهرت خادمة تلبس سترة بيضاء في الممر. إنها تحصّل نقود الغرف، وتأمين المفتاح. فتحت لي غرفة وابتعدت. لا تتضمن الوجبة إلا صحناً من الفضلات، وشوربة بالبيض باردة، ولا تتصاعد منها أية أبخرة. أسفتُ لأنني لم أنم عندها.

لقد التقيتها على الطريق الجبلي،عند الخروج من لونغتان Longtan، هوة

---

* الجينكو: شجرة ضخمة تنبت في الصين واليابان، ذات أوراق مروحية الشكل، أزهارها نوريّة التجميع، ثمارها لوزية صفراء اللون، دهنية اللباب مأكولة، أخشابها صناعية خفيفة بيضاء اللون. (م)

التين. كانت تسير بهدوء أمامي، وهي تلبس بنطلوناً من القماش المشجّر، وتضع في حمالتها المزدوجة حزمتين كبيرتين من نباتات السرخس. وكانت الشمس في الساعة الثانية أو الثالثة بعد الظهر تحتفظ بكامل قوتها في فصل الخريف. ظهرها بلله العرق، وتلتصق ملابسها على طرفي ظهرها حول العامود الفقري. كانت تحافظ على ظهرها مستقيماً، ولا تحني إلا قامتها. تبعتها عن قرب. من الواضح أنها كانت قد سمعت وقع خطواتي. أدارت حمالتها المزدوجة، المزودة برأس حاد من الحديد، لكي تتركني أمر، ولكن حزم السرخسيات كانت ما تزال تسد الطريق الضيق.

- قلت: لا تخافي. تابعي سيرك، ولا تهتمي بي.

كان عليها، بعد ذلك، أن تضع الحمالة على الأرض لكي تستطيع عبور الساقية، مما أتاح لي رؤية خصلات شعرها الملتصقة على خديها بسبب العرق، وشفتيها المكتنزتين، ووجهها الطفولي على الرغم من صدرها الناضج.

سألتها عن عمرها. فردتْ إن عمرها ستة عشر عاماً. مع ذلك. لم يظهر عليها هذا النوع من الخجل الذي تشعر به فتيات الجبل عادة عندما يلتقين بشخص غريب.

قلت لها: ألست خائفة من السير وحدك على هذا الطريق ؟

لا يوجد شخص هنا. ولانرى أي قرية.

ألقت نظرة على حمالتها المختفية تحت حزم السرخسيات:

- عندمانسير وحيدين على الطريق. يكفي أن نحمل عصى لإبعاد الذئاب.

قالت لي أيضاً إنها تسكن بالقرب من هنا، وتحديداً في سفوح الجبل.

سألتها: أمازلت تذهبين إلى المدرسة؟

قالت إنها كانت تذهب، ولكن الآن هو دور أخيها الأصغر.

قلت لها: لماذا لم يتركك والدك تتابعين دراستك؟

قالت إن أباها قد مات.

سألتها: مَنْ بقي من عائلتك؟

قالت إن أمها ما زالت حية.

سألتها: تزن هذه الحمالة أكثر من مئة رطل، أليس كذلك؟

قالت: إننا نعتمد على السرخس لإشعال النار عندما ينفذ خشب التدفئة.

تركتني أمر أمامها. وبعد أن تجاوزنا القمة تماماً، رأيت منزلاً معزولاً من

القرميد، يخفيه بياض الجبل.

- انظر! البيت وأمامه شجرة خوخ، إنه بيتي.

كان ورق الشجرة قد تساقط تماماً على الأرض وبقيت بعض الأوراق الحمراء البرتقالية، وهي مازالت تتحرك على أغصان صغيرة بنفسجية اللون فاتحة.

- إن شجرة الخوخ أمام البيت غريبة جداً. لقد أزهرت مرة واحدة في الربيع، ثم أزهرت ثانية في الخريف، ولم تسقط أزهارها البيضاء كالثلج إلا في هذه الأيام الأخيرة.

مع ذلك، لم يكن إزهارها مثل إزهار الربيع، إذ لم تثمر أي خوخة.

عندما مررت بالقرب من بيتها، رغبت في أن أدخل لشرب الشاي عندها. صعدت درجات الحجر، وجلست على حجر أمام الباب. وضعت حزم السرخسيات وراء المنزل.

بعد برهة من الزمن، خرجت ثانية ومعها إبريق شاي من الخزف، وملأت فنجاناً كبيراً مزين باللون الأزرق، ثم أعادت إبريق الشاي إلى مجمّر ليحافظ على حرارته، لأن الماء كان ما زال يغلي. شعرت البرد وأنا أستند إلى سرير من ألياف النخيل في غرفة مركز الاستقبال. كانت النافذة مغلقة، ولكن الجدران الخشبية، في الطابق الأول، كانت تسمح بمرور هواء بارد جداً فهذه الأمسية، هي في نهاية الأمر، امسية خريفية في وادٍ في الجبل. مازلت أذكر كيف ضحكت مني عندما صبّت الشاي، ورأتني أحمل الفنجان بيدي الاثنتين، وأقربه من فمي.

كانت شفتاها مفتوحتين قليلاً، فبدت شفتها السفلى ضخمة جداً كأنها متورمة. وبقيت ترتدي سترتها القصيرة المبللة بالعرق. قلت لها: بهذا الشكل ستأخذين برداً.

- قالت لك: أنتم الآخرون، أنتم من المدينة. إنني استحم بالماء البارد حتى في فصل الشتاء. ألا تريد النوم هنا؟

وأضافت مباشرة، عندما رأت دهشتي؟

- عندما يزداد عدد الرحالة في المصيف، فإننا نسكنهم عندنا.

ودخلت إلى البيت، وهي ترمقني بنظراتها، كانت الجدران الخشبية مغطاة، نصفياً، بالصور الملونة التي تروي قصة فان ليهوا Fan Lihua، وهي امرأة قائدة من العصور القديمة لقد سمعت حديثاً عن هذه البطلة في طفولتي، ولكن نسيتها.

- سألتها وأنا أشير إلى هذه الصور، أتحبين قراءة الروايات؟

- إنني أفضّل المسرح الغنائي.

فهمت أنها تتحدث عن برامج الأوبرا المنقولة على الراديو.

- قالت لي: ألا تريد أن تمسح وجهك؟ هل أجلب لك وعاءً فيه ماء ساخن؟

قلت إن هذا غير مهم، وإنني أستطيع الذهاب إلى المطبخ.

فأخذتني مباشرة، وتناولت وعاء، وبحركة سريعة، غسلته بماء الجرة. ملأته بماء ساخن، وقدمته لي وقالت وهي تنظر إليّ:

- اذهب وانظر داخل الغرف، إنها نظيفة جداً.

لم أستطع مقاومة نظرتها الحنونة. وكنت قد قررت من قبل البقاء عندها.

- مَنْ؟

ارتفع صوت منخفض لامرأة وراء حاجز الألواح الخشبية.

- ماما، إنه ضيف، قالت هذا قبل أن تتوجه إليّ. إنها مريضة، وطريحة الفراش منذ سنة.

أخذت المنشفة الساخنة التي قدمتها لي، ودخلَتْ إلى الغرفة. سمعتهما تتهامسان. مسحتُ وجهي، واستعدتُ نشاطي جمعت حقيبتي، وذهبت للجلوس على حجر الفناء. وعندما خرجتْ سألتُها: كم المبلغ الذي تريدينه مقابل الماء؟

- لا شيء.

أخرجت من جيبي مبلغاً بسيطاً ودسسته في يدها.

نظرت إليّ وهي تقطب حاجبيها. نزلت إلى الطريق، ولم استدر إلا بعد وقت. كانت تقف دائماً أمام الحجر. وهي تقبض على النقود بيدها.

إنني أحتاج إلى شخص أفتح له قلبي. نزلت من سريري، وتمشيت في الغرفة. وكانت الأرضية إلى جانبي تصدر صوتاً. قرعت على الحاجز الخشبي:

- هل يوجد أحد؟
- فرد صوت رصين رجولي: مَنْ؟
- جئت أنت أيضاً لتجوال في الجبل؟
- فرد الصوت بعد وقت من التردد، لا، لقد جئت للعمل.
- هل يمكنني أن أزعجك قليلاً؟
- كما تريد.

خرجت وقرعت على بابه، وعندما فتحه، اكتشفت رسومات زيتية عديدة، ومخططات موضوعة على الطاولة، وطرف النافذة. يبدو أنه لم يمس ذقنه وشعره منذ زمن بعيد. ومما لا شك فيه أن هذا مقصود. قلت: هناك برد شديد!

- إذا وجدنا كحولاً، سنكون بوضع أفضل، ولكن المخزن مقفل.

فعبرت عن انزعاجي وقلت: أي منطقة سيئة هذه!

ولكن الفتيات هنا ... وأظهر لي صورة فتاة شابة بشفتين ضخمتين ـ أي إثارة!

- أتتحدث عن شفتيها؟
- إنه ميل شهواني دون انحراف.
- أتعتقد بالميل الشهواني دون انحراف؟ قال:
- كل النساء شهوانيات، ولكنهن يعطونك الانطباع دائماً بالجمال، والفن يحتاج هذا.
- ولكن ألا تعتقد بوجود الجمال الخالص من الانحراف والفساد؟
- قال دون التفاتة: سيكون هذا خداعاً للذات!
- ألا تريد الخروج للقيام بجولة، ورؤية الجبل في الليل؟

قال: بالتأكيد، بالتأكيد. ولكننا لانرى شيئاً الآن في الخارج.

لقد ذهبت منذ قليل للقيام بجولة. وتأمل في الشفتين الغليظتين.

خرجت إلى الفناء. تغطي شجرات الجينكو الضخمة التي ترتفع من الساقية المصابيح التي يعطي ضوؤها إلى الأوراق لوناً شاحباً.

عدتُ: اختفى الجبل والسماء وراء الغيوم الداكنة في الليل، وتضيء المصابيح بصورة خفيفة. ولا يظهر إلا مقدمة سقف البناء. شعرت بدوار، وأنا واقع تحت تأثير هذا الضوء الغريب.

كان الباب الرئيسي قد أُقفل. وبتلمس سحبت المزلاج.

اجتزت العتبة، ودخلت الظلمات. على يساري، سمعت صوت نبع ماء. وبعد بعض خطوات، استدرت. في أسفل الجرف، اختفت المصابيح، ويلتف الضباب الكثيف حول قمة الجبال. ويرسل صَرّار الليل، من أسفل الوادي، صريره المتهدج. ويرتفع ترنيم المنبع على الرغم من الريح الذي يندفع فوق الساقية.

يغزو ضباب رطب الوادي، وفي البعيد، تذوب ظلال شجرات الجينكو الضخمة التي تضيئها المصابيح، في الضباب.

ينتشر ظلام الجبل شيئاً فشيئاً نزلت إلى الشعب بجروفه الشديدة الانحدار. ينتشر، وراء ظلام الجبل، ضوء خفيف، ولكنني كنت محاطاً بظلام دامس.

نظرت إلى الجو، وإذا بشكل أسود ضخم ينتصب في السموات؛ فارتعدت فرائصي خوفاً. يوجد، في وسطه، رأس عقاب ضخم، جناحاه مضمومان، وكأنه

يستعد للطيران.

وتحت وطأة الأفكار المرعبة التي تثيرها الروح الموحشة في الجبل، افتقدت القدرة على التنفس.

وفي غابة الصنوبريات المنتصبة على ارتفاع بسبب الدوار، كان الظلام شاملاً، ودامساً إلى حد أنه يشكل جداراً صلباً نخاطر بالاصطدام به إذا تقدمنا خطوة واحدة.

وبشكل غريزي استدرت فجأة، خلفي وعبر ظلال الأشجار، ينبعث ضوء خفيف من مصباح، كجزء من وعي غير واضح تماماً، وكذكرى قديمة من الصعب استعادتها ثانية. كما لو أنني أراقب المكان الذي جئت منه، من مكان غير محدد، دون أن يكون هناك طريق، إن هذا الشعور الذي ما زال ماثلاً، يتردد أمام ناظريّ.

رفعت يدي لأتأكد من أنني ما زلت موجوداً، ولكنني لم أرَ شيئاً. أشعلت قداحتي، وتبينت ساعدي المرفوع، كما لو أنه يرفع شعلة. ولكن الشعلة انطفأت سريعاً، على الرغم من عدم وجود ريح. أصبحت الظلمة المحيطة بي أكثر كثافة أيضاً، ولا يحدها حد. وحتى الصرير المتواصل لصَرَّار الليل اختفى. امتلأت أذناي بالظلام، إنه ظلام بدائي. إذ كان الإنسان قديماً قد عبد النار، فذلك من أجل التغلب على الخوف الداخلي، الذي ينتابه من الظلمات.

أشعلت قداحتي ثانية. ولكن شعلتها الضعيفة المرتجفة سرعان ما انطفأت بفعل ريح عاصف غير متوقع. في هذه الظلمة الموحشة، انتابني خوف شديد، وأفقدني الثقة بنفسي، وأنساني الاتجاه الذي عليّ أن آخذه. لقد خفت أن أقع في هاوية إذا استمريت في السير بشكل مستقيم. وعندما رجعت، وجدت نفسي أنني قد أضعت الطريق. ترددت، خطوت بعض الخطوات. في الغابة، ينبعث نحوي صف من الأضواء الضعيفة كأنها سياج، ثم انطفأت.

أدركت أنني وسط الاشجار، خارج الطريق الذي يجب أن يكون على يميني. وحاولت، بتلمس، أن أصحح اتجاهي؛ عليّ قبل كل شيء العثور على صخرة العقاب المظلمة، شديدة الانحدار، والمتوحدة. ضمن الضباب الذي ينتشر كالدخان، ويأخذ شكلاً عند اتصاله بالأرض، تتلألأ على الأرض بعض الأشعة. عدت، أخيراً، تحت صخرة العقاب التي كان لونها الاسود يرهقني.

اكتشفت فجأة، بين جناحيه الممتدين، صدراً ضارباً إلى اللون الرمادي، على شكل امرأة عجوز، ومعطفاً عملاقاً مرمياً على الأكتاف. لا يبدو عليها اللطف،

وشكلها غالباً شكل ساحرة. كان الرأس منخفضاً، والجسد جافاً. وتحت المعطف امرأة عارية وهي تركع. كانت ملامح فقرات ظهرها لا تُرى بشكل واضح. ووجهها متجه نحو هذا الكائن الشيطاني، ويبدو أنها تشتكي، واليدان مضمومتان، والمرفقان بعيدان عن الجذع، كاشفة قامتها العارية. يبقى وجهها غير واضح، وتقاطيع وجنتيها جميلة ومغرية.

ينسدل شعرها الطويل والكثيف على كتفيها، وذراعيها، ويدل على طولها. كانت راكعة على عقبيها، ورأسها منخفض، إنها فتاة شابة. كانت تصلي وتتضرع، وتغيّر أحياناً من وضعها، ولكنها سرعان ما تعيد أخذ مظهرها كفتاة شابة، وامرأة متضرعة، ويديها المضمومتين. ويكفي أن تستدير لكي تعود ثانية فتاة بتقاطيعها الجميلة. وكان محيط نهدها الأيسر يبدو، لبرهة، صعب المنال.

بعد تجاوزي باب المعبد، تلاشت العتمة تماماً، لقد وجدت الأضواء الباهتة للمصابيح. وتلاشت الأوراق الأخيرة لأشجار الكينغو التي ترتفع من السافية، تحت عتمة الليل.

الشيء الحقيقي فقط هو هذه المعارض، وواجهات السقوف المضيئة.

عندما وصلتَ إلى قرب القرية، وجدت امرأة؛ بمئزرها المربوط فوق ثوبها، وهي تجلس القرفصاء على ضفة النهر الذي يجري أمام بابها وكانت تحمل سكيناً في يدها، وتحضر سمكاً أطول قليلاً من إصبع اليد. وهنا ترتفع ألسنة لهب خشب شجر الصنوبر التي كان ضوؤها المنقطع ينعكس على نصل السكين. وفي البعيد كان الجبل يضيع في الظلام. وتتحرك بعض الغيوم الأرجوانية فوق الذرى. لا وجود لأي كائن إنساني. تعود على عقبيك. مما لا نشك فيه أن اشتعال الصنوبر يجذبك. تتوجه إلى العجوز لتسألها إذا كنتَ تستطيع أن تقيم عندها.

- يأتي الناس غالباً ليرتاحوا عندي. لقد فَهِمتْ نواياك. وضعت سكينها، ومسحت يديها بمئزرها، ورمقتك بنظرها، وقادتك دون أن تتفوه بكلمة واحدة. دخلتْ البيت، وأشعلت مصباحاً بترولياً، تبعتها، وكانت الأرضية الخشبية تصر تحت خطواتك. وفي الطابق، تنتشر رائحة قوية، لقشور الرز التي قُطفتْ حديثاً.

- كل غرف الطابق خالية. سأذهب لأجلب غطاء. الجو بارد جداً ليلاً في جبالنا.

وضعت العجوز المصباح البترولي على طرف النافذة، ونزلت. قالت إنها لا تريد قضاء الليل في الأسفل، وإنها خائفة، ولا تريد كذلك النوم معك في غرفة واحدة، لأنها خائفة أيضاً. تركتَ لها المصباح، وفرشتَ بقدمك قش الرز على الأرضية، وذهبتَ إلى الغرفة المجاورة. قلت إنك لا ترغب في النوم على سرير خشبي، وتفضل التقلب ضمن القش.

قالت إنها ستنام وتضع رأسها من جهتك، وتستطيع الحديث عبر الحاجز. فالألواح الخشبية لا تصل إلى السقف. كانت دائرة المصباح تضيء السقف.

قلتَ: هذا مُبتكر.

العجوز جلبت الأغطية.

إنها تريد الماء أيضاً.

عادت العجوز مع وعاء صغير من الماء الساخن. ثم سمعتها تدفع مزلاج باب غرفتها نزلتَ عاري الصدر، والمنشفة على الكتفين. لا يوجد ضوء والمصباح البترولي الوحيد في المنزل بقي في غرفة الطابق. وكانت خادمة الغرف أمام فرن المطبخ. ووجهها غير المعبّر يضيئه اللهب قليلاً. وتزفر النار وتصعد رائحة الرز المطبوخ.

أخذت دلاء ونزلت نحو الساقية، على الذرى، اختفت أواخر الغيوم المتحركة، وحل ظلام الزوال في كل مكان. وتتلألأت الأضواء على تموجات الماء النقي. وتظهر بعض النجوم في السماء، وينبعث نقيق الضفادع من كل مكان.

وفي الطرف المقابل، تخرق ضحكات الأطفال ظلام الجبل الدامس. وتنتشر فيماوراء النهر معامل الأرز، ويظهر بيدر ضمن الظلام. ربما كان الأطفال يلعبون عليه الغميضة (لعبة يحاول فيها لاعب معصوب العينين أن يمسك بلاعب آخر ويعلن مَنْ هو).

ويفصله شريط من الظلام عن معامل الرز، ولعلعت ضحكة فتاة شابة، إنها هي بالتأكيد. في مواجهة العتمة الخفيفة التي تنتصب أمامك، عاد شبابك المنسي سريعاً، وفي يوم من الأيام، سيتذكر أحد هؤلاء الأطفال طفولته أيضاً. وفي يوم من الأيام، سيصبح الصوت الحاد لهؤلاء الشياطين الصغار أكثر حدة. وأكثر تشنجاً، وأكثر خطورة. تضرب قدمـاه عاريتان الأرضية الحجرية لبيدر القش. وتتركان أثرهما الرطب فوقه، وتخرجان الشياطين من الطفولة، وتفتحان لهم العالم الواسع. عندها سمعت وقع أقدام عارية على الأحجار. وهناك طفل على الضفة يلعب بالزورق بآلة تطريز جدته، نادته، التفت، ثم أطلق ساقيه للريح.

وكان وقع الأقدام العارية على أحجار الرصيف واضحة وقوية. وفي زقاق ضيق، رأيت ظلها، وغطاءها الأسود اللامع. وكان هواء الشتاء، في أزقة بلدة ووي، بارداً جداً.

إنها تضع على الكتف حمالة مزدوجة محملة بالماء، وتمشي ببطء على الأرصفة الحجرية. وكانت الدلاء تثقل على كتفيها الضعيفتين كفتاة صغيرة. وتعاني من آلام في خاصرتيها. وعندما ناديتها توقفت. وفي الدلاء، كان الماء يهتز فيسيل على أحجار الرصيف أدارت رأسها، وضحكت وهي تنظر إليك. ثم عادت لسيرها البطيء وهي تنتعل حذاء من القماش البنفسجي. وفي الظلام يطلق الأطفال صرخات حادة، ولكنك لا تفهم معناها. وما تلتقطه أذناك ليس إلا صدى لصرخات، يا ... يا ...

وفي لحظة، انبعثت ذكريات طفولتك من جديد.

تهدر الطائرات وهي تنقض وفي ومضة، تلامس أجنحتها السوداء رأسك. وتندس في حضن والدتك تحت شجرة عُنّاب برية صغيرة مزقت أشواكها السترة القطنية، وكشفت عن السواعد المستديرة ثم تأخذك مربيتك بين ذراعيها، وكنت تحب الاندساس في حضنها. أضافت لك وهي تهز ثدييها الكبيرتين، قليلاً من الملح فوق قشور الرز الصفراء الداكنة، ذات الرائحة الطيبة، والتي تُجفف على موقد النار: أنت تحب أن تلجأ إلى مطبخها. وفي الظلام تبرق العينان الحمراويتان لزوج

الأرانب البيضاء الذي تربيه. مات أحدها في قفصه، بلدغة عرسوب، واختفى الآخر. ووجدته بعد ذلك، متسخ الوبر، يطفو فوق ماء المراحيض.وتنبت وراء البيت، في الفناء، شجرة بين قطع القرميد المكسّرة، وحطام الآجر المكسو بالطحالب. لم يتجاوز نظرك قط مفرق الأغصان، على مستوى قمة الجدار. وإذا امتد أبعد من ذلك، فإنك تجهل ما الذي سيكتشفه، يمكنك فقط أن تقف على رأس أصابعك لكي تصل إلى ارتفاع ثقب في جذع الشجرة. رميت فيه بعض الأحجار. يقال إن الأشجار يمكنها أن تغيّر أرواحها بأرواح تشبه أرواح الناس؛ إنها تخشى الإثارة. إذا أدخلت عوداً في هذا الثقب، فإن الشجرة ستنفجر ضاحكة، مثلما يحصل عندما تدغدغها تحت إبطيها؛ عندها تضم الساعدين، وتضحك حتى يضيق نفسها. وتتذكر أيضاً أنها كانت قد فقدت إحدى أسنانها. ((لقد فقدتُ سناً! لقد فقدت سناً! ونسميها يايا Yaya!)). وكانت تثور، عندما تطلق على هذا الكلام. وتبتعد وهي تدير لك ظهرها. وأخرجت الارض نوعاً من الدخان الأسود، الذي غطى الرؤوس. والأجساد. والوجوه، نهضت والدتك، ونفضت عنك ذلك، لكنها لم تجد شيئاً.وسمعت صيحة حادة طويلة أطلقتها امرأة أخرى، وكأنها صيحة غير إنسانية، ثم تشردت، دون نهاية، على الطرق الجبلية، وأنت جالس في سيارة شحن مغطاة، ومحصور بين أرجل أشخاص كبار، وسط الحقائب، والصناديق. وكانت قطرات المطر تسيل على طول أنفك.

أولاد الزانية! انزلوا كلكم لكي تعملوا ! كانت عجلات الشحن تدور في الطين، وتقذف الرجال بالوحل. ابن الزانية! أن تستخدم شتائم السائق، وهذه أول شتيمة لك. وتشتم الطين الذي اقتلع حذاءك! يا .. يا ... مازالت صرخات الأطفال ترن في بيدر القش.

إنهم يضحكون، ويصرخون، ويتراكضون. اختفت الطفولة من أمامك. وبقي فقط الظل الأسود للجبل. عندما عدت أمام بابها، توسلت إليها لكي تفتح طلبت منك أن لا ترتكب حماقات، إنها بحالة جيدة الآن.إنها بحاجة إلى الهدوء، ليس لديها رغبة، إنها تحتاج إلى الوقت، والنسيان، وتحتاج لأن تكون مفهومة وليس للحب، ما تريده حقيقة شخصاً يفتح قلبها. وهي تأمل بأن لا تفسد علاقاتك، لقد منحتك ثقتها. وقالت بأنها تريد الاستمرار في السفر معك، والدخول إلى جبل الروح. وستمضي وقتاً معك. ولكن ليس الآن. إنها ترجوك أن تسامحها، إنها لا تريد ... إنها لا تستطيع.

أنت تقول بأنك لا تريد شيئاً، فقط لاحظت ضوءاً خفيفاً في الجوار من خلال

الشق في الحاجز. لم تكونا وحيدين، إذن، هناك شخص آخر يسكن الطابق. طلبت منه أنه يأتي ليرى.

- لا ! لا تروي لي قصصاً، لا تخيفني.

أنت تقول بأنك لاحظت ضوءاً يلمع عبر فتحة الحاجز الخشبي، يمكنك التأكد أنه يوجد غرفة أخرى في الخلف.

تخرج من غرفتك، ينتشر القش على الأرضية، ويعيق حركتك. تستطيع، إذا رفعت يدك، أن تلمس من الداخل، قرميد السقف.

إذا أردنا التقدم مسافة أبعد، علينا أن نحني هاماتنا.

قلت وأنت تتلمس: ثمة باب صغير. سألتْ من غرفتها:

- ماذا ترى؟
- لا شيء. لا يوجد فتحة في الباب. آه! لقد تم وضع المزلاج.
- هذا مرعب.

سمعتها تتحدث من وراء الحاجز.

عدت إلى غرفتك. وجدت سلة كبيرة من الخيزران، قلبتها على قمة كومة القش. صعدت فوقها وأنت تمسك بالعارضة الأفقية.

- ألحّتْ وهي في غرفتها المجاورة: قل لي سريعاً، ما الذي رأيته؟
- رأيت مصباحاً بترولياً، وفي داخله فتيلة تشتعل، وهو موضوع ضمن كوة في الحائط، وهناك لوحة للأسلاف معلقة في الصدر.

من المؤكد أن سيدة هذه الأماكن ساحرة يمكنها أن تستدعي أرواح الأموات، وتسجن الأرواح الإنسانية. وكان عليها أن تنوّم الأحياء مغناطيسياً لكي تستطيع الأشباح الدخول إلى أجسادهم، والتحدث بلسانهم.

- توسلتْ إليك أن تسكت ! وأنت سمعت انزلاق جسدها المستند إلى الحاجز الخشبي.

أنت تقول إن هذه المرأة عندما كانت شابة لم يكن لها علاقة بالسحر. وكانت طبيعية بصورة كاملة، مثل كل النساء من بنات جيلها. وفي سن العشرين، وهو السن الذي كانت تحتاج فيه إلى حب كبير، مات زوجها.

وسألتكَ بصوت منخفض: كيف ماتْ؟

قل إنه ذهب ليلاً مع ابن عمه لسرقة الكافور من غابة قرية مجاورة.

وفي لحظة سقوط شجرة، علقت قدمه بجذر في الأرض.

وعندما سمع الشجرة وهي تتكسر، أراد الهروب، فأخطأ في الاتجاه، وذهب نحو المكان الذي سيسقط فيه جذع الشجرة وقبل أن يستطيع الصراخ، كان الجذع قد

سحقه على الأرض.

- وسألتَ: هل تسمعين؟
- ردت: نعم إنني أسمع.
- أنت تقول إن ابن عم زوجها كان خائفاً جداً، وهرب دون أن يجرؤ الإخبار عن وفاته. ثم التق المرأة الشابة في الجبل بناقل فحم خشبي يعلق في طرف حمالته المزدوجة حذاءً من ليف القنب، ويطلب من الناس في طريقه الذهاب من أجل التعرف على الجثة. لقد صنعت هي، بنفسها، هذا الحذاء المطرّز بخيط أحمر من الأعلى ومن الاسفل. فكيف لا يمكن التعرف عليه؟ أصيبت، في هذه اللحظة بالدوار، وضربت الأرض بمؤخرة رأسها. وخرج من فمها زبد أبيض، وتدحرجت على الأرض وهي تصرخ: أيها الشياطين، أيها الأشباح، أعيدوهم جميعاً، أعيدوهم جميعاً.
- قالت لك: إنني أرغب أيضاً في الصراخ.
- اصرخي، إذن.
- مستحيل.

كان صوتها الأجش مثيراً للشفقة، ناديتَها من جديد لتأتي إليك، ولكنها كانت تفرض دائماً عبر الحاجز. ومع ذلك كانت تريد أن تستمر في الحكي.

- أحكي ماذا؟
- حدثنِي عنها، حدثني عن هذه المجنونة.
- رويتَ كيف أن نساء القرية لم يستطعن السيطرة عليها، وكيف أن الأمر تطلب تدخل عدة رجال للسيطرة عليها، والإمساك بيديها من أجل توثيقها.

وبدءاً من هذا اليوم أصبحت مجنونة، وتكهنت بالمصائب والتغيرات التي أصابت القرية. لقد أعلنت مثلاً أن أم كسيماو Ximao، ستصبح أرملة، وحصل هذا.

- كنت أود الانتقام أيضاً.
- تنتقمين ممن؟ من صديقك؟ أم من الفتاة التي أقامت علاقة معه؟ أتريدين أن يتخلى عنها بعد أن أمضى وقتاً ممتعاً معها؟ مثلما فعل معك؟
- لقد قال إنه كان يحبني. أما معها فقد تسلى قليلاً.
- أهي شابة؟ وأكثر جمالاً منك؟
- إن وجهها مغطى بالنمش، وفمها واسع جداً!
- أهي أكثر إغواءً منك؟
- قال إنها تركض وراء الرجال، وإنها تستطيع أن تفعل كل شيء، وأراد أن أفعل مثلها.
- تفعلين ماذا، مثلها؟

- لا تطلب هذا مني!
- أنتِ تعرفين، إذن، ما كان يفعلانه معاً؟
- نعم.
- وهي، أكانت تعلم ما تفعلانه أنتما معاً؟
- أوه، أرجو أن توقف الحديث عن هذا.
- نتحدث فيماذا، إذن؟ عن امرأة الكاميليا؟
- إنني أريد الانتقام، حقاً!
- مثل هذه الساحرة؟
- ماذا فعلتْ؟

كانت النسوة يخشين لعناتها، ولكن الرجال كلهم كانوا يأتون إليها ليثرثروا معها. كانت تجذبهم، ثم تتخلى عنهم. كانت تبالغ في رش المساحيق على وجهها، وأقامت مذبحا لتتصرف إلى كل أنواع الحركات المخيفة لكي تتوسل إلى الآلهة والأشباح.

- لماذا كانت تفعل هذا؟.

- يجب أن نعرف أنها خطبت في سن السادسة لطفل لم يكن قد ولد بعد. وفي الثانية عشرة كانت تعيش مع عائلة زوجها المستقبلي، عندما كان هذا الزوج مازال المخاط على أنفه. وفي يوم من الأيام، وفي هذا الطابق نفسه وعلى كومة القش هذه، اعتدى والد زوجها عليها، عندما كان عمرها أربعة عشر عاما. بعد ذلك كانت ترتعد فزعا عندما تكون لوحدها معه في المنزل. وكان عليها، لاحقا، أيضا، أن تهدهد زوجها الصغير الذي لم يكن يتوقف عن عض ثديها بقوة. وكان عليها أن تتحمله، شاءت أم أبت، حتى وإن كانت تحمل حمالتها المزدوجة على كتفيها. وتقطع الأشجار، وتوجه المحراث. وعندما وصل أخيرا إلى سن الرشاد السن الذي يستطيع أن يحبها فيه، مات سحقا تحت جذع شجرة. وكان والداه قد وصلا إلى سن الكهولة، فألقيت مسؤولية العمل في الحقول والبيت على كاهلها، بصورة كاملة. ولم يكونا يجرؤان على إزعاجها خوفا من أن تتركهما لكي تتزوج. لقد ماتا الآن. إنها تعتقد، حقيقة، بأنها تتصل مع الأرواح، وأنها تستطيع أن تجلب السعادة أو الشر عبر دعواتها. من الطبيعي أنها كانت تأخذ النقود من أولئك الذين يأتون لإحراق فتاة صغيرة في الثانية عشرة من عمرها، في المكان، وأن تجعلها تتحدث بلسان الحماة، وصوتها الأصلي، علما بأن هذه الحماة كانت قد توفيت منذ وقت طويل، ولم ترها الفتاة الصغيرة قط. من المؤكد أن هذا هو الذي يبعث القشعريرة عند الحاضرين.

- عندها توسلت إلي وقالت : تعال، إنني خائفة جدا.

عندما وصلتُ إلى ضفة بحيرة كاو Cao، ومنابع ووجيانغ Wujiang، النهر الأسود، كان الجو مكفهراً وبارداً، بني على ضفة البحيرة بناء صغير وجديد. وهو مركز إدارة المحمية الطبيعية التي فتحت حديثاً. إنه ينتصب وحيداً وسط هذا الحوض الواسع، ويجثم على أساسات عالية مبنية من الحجار. ونصل إلى هذا المبنى عبر طريق موحل وإسفنجي، أما البحيرة، فقد تراجعت كثيراً، ولكن مازال ينبت، على الضفة القديمة بعض الأعشاب المائية النادرة. إذ أخذنا الدرج الجانبي للبيت، نصل إلى غرف مضاءة تماماً بفضل نوافذها الكبيرة. نجد في هذه الغرف نماذج كثيرة من الطيور، والأسماك، والزواحف.

إن مسؤول مركز الإدارة ضخم، ويوحي محياه بالشهامة. كان يوصل سخانا كهربائيا ليملأ الشاي في فنجان كبير مزخرف. وأشار لي بأن اقترب من النار لأشرب الفنجان الساخن. وهو يقول إن الجبال حول البحيرة كانت مغطاة، قبل عشر سنوات، بالأشجار، على امتداد مئات الكيلومترات حولها. ومنذ أقل من عشرين سنة، كانت توجد غابة كثيفة ومظلمة وتمتد حتى الضفة، وكنا نرى فيها أحيانا بعض حيوانات الببر.

أما حاليا، فقد اختفت الأدغال من هذه الجبال، والهضاب كان الخشب يستخدم لطهي الطعام، والتدفئة خاصة. وكان الربيع والشتاء، في العشر سنوات الأخيرة هذه، باردين جدا، وجاء الصقيع مبكرا. وكان الجفاف في الربيع قاسيا.

أرادت اللجنة الثورية الجديدة، خلال الثورة الثقافية التجديد عبر تنظيم جريان المياه من أجل إرواء حقول المنطقة كلها.

لقد جندت مئة الف عامل من أجل فتح عشرات قنوات الصرف، وحبس مياه البحيرة، وذلك من خلال استخدام المتفجرات. ولكن تجفيف البحيرة من الرواسب القديمة التي تشكلت عبر ملايين السنين، لم يكن سهلا. ضرب إعصار في هذه السنة، المنطقة، وأكد الفلاحون أن التنين الأسود لبحيرة كاو لم يكن مرتاحا، فهرب. ولم يبق حاليا إلا ثلث كمية المياه. وأصبحت الأطراف مستنقعات. ولم يتوصل إلى تجفيف هذه الأراضي، ولا إلى إرجاعها إلى وضعها الأصلي. ويمكننا أن نرى عبر النافذة منظرا ممتدا إلى مسافة بعيدة، وهناك مشروع يهدف إلى تحويل المياه الممتدة على مسافة عدة كيلومترات إلى سطح أبيض واسع يبهر البصر. يميز بالعين

المجردة نقطة سوداء صغيرة، هي عبارة عن زورق يظهر في مقدمته ظل رجلين غير مرئيين بصورة جيدة.

وفي المؤخرة، رجل يتحرك كما لو أنه ينصب شبكة صيد.

- لا يمكننا في مثل هذه المساحة، أن نراقبهم. وأتبع قائلا، عندما نصل إليهم، سيكونون قد لاذوا بالفرار.

- هل الأسماك كثيرة في هذه البحيرة؟

- من المألوف أن يتم صيد مئات أو حتى آلاف الأرطان من الأسماك. المشكلة أنهم مازالوا يستخدمون المتفجرات. إن الرجال جشعون ولا يمكن فعل أي شيء معهم.

- هز رأسه، لأنه هو المسؤول عن مركز إدارة منطقة المحمية الطبيعية.

- قال لي أنه في بداية الخمسينيات عين شخص يحمل شهادة الدكتوراه هنا، بعد عودته من الخارج. يعود أصله إلى شنغهاي Shanghai، وبناء على طلبه، أقام هنا، وكله حماس، على رأس فريق من أربعة طلاب يدرسون علم الأحياء، والصيد المائي، وذلك من أجل تأسيس محطة لتربية الحيوانات البرية. نجح في تربية حيوانات القندس، والثعالب الفضية، والوز ابقع الرأس، بالإضافة إلى مجموعة من الطيور المائية، والاسماك.

مع ذلك، دخل سريعا، في نزاع مع الفلاحين الذين يخالفون تعليمات الصيد. وعندما كان يمر، في يوم من الأيام، ضمن حقل من الذرة الصفراء، نصب فلاح له كمينا وضربه من الخلف، ووضع حول عنقه سلة من الذرة المقطوفة حديثا لكي يتهم بالسرقة. وبقي الفلاح يضربه حتى أبصقه الدم.

لم يجرؤ أحد من كوادر المنطقة بالدفاع عن مثقف، ومات. واختفت محطة التربية لوحدها، ووزعت حيوانات الفندس على مختلف محطات المنطقة لإطعامها.

- هل كان عنده عائلة؟!

- لم يقل أحد ذلك. والطلاب الذين كانوا برفقته وجدوا وظائف في الجامعات في شونغ كينغ Chongqing، أو غويانغ Guiyang.

- ولم يأت أي شخص ليسأل عن موضوعه؟

- يقول إنه تم اكتشاف نحو عشرة دفاتر من دفاتره التي دون عليها معلومات عديدة حول بيئة هذه البحيرة، وذلك بمناسبة فرز المصنفات المتعلقة بقضايا المنطقة القديمة. لقد فحصهم عن كثب، ولاحظ أنها كانت مكتوبة بشكل جيد. ولو كان لي اهتمام بها، لأطلعني عليها.

تتصاعد ضجة، لا أعرف مصدرها، وكأنها سعلة قوية لعجوز

- ماهذه الضجة؟
- قال : إنه طائر الكركي.

علي أن أهبط إلى الطابق الأرضي، يوجد في صالة تربية الحيوانات المغلقة بحاجز معدني، طائر كركي برقبته السوداء ورأسه الأحمر، ويصل ارتفاعه إلى أكثر من متر، بالإضافة إلى طيور أخرى من النوع نفسه، ورمادية، وتصدر أصوات بين وقت وآخر. وقال لي إن الكركي ذا الرقبة السوداء قد جرح في قائمته، وأسر من أجل إطعامه، في حين أن الطيور الرمادية الأخرى ولدت في هذا العام، وحجزت في القفص قبل أن تتعلم الطيران. كانت طيور الكركي قديما تأتي في فصل الخريف لقضاء الشتاء هنا. وكنا نراها في كل مكان بين غابات القصب على ضفة البحيرة، ولكنها بعد ذلك اختفت تماما بسبب الصيد. بعد إقامة المحمية الطبيعية، منذ سنتين، عاد نحو ستين طائرا منها، ووصل العدد، في السنة الأخيرة إلى أكثر من ثلاثمئة طير برقبات سوداء، وتبقى الطيور الرمادية هي الأكثر عددا، ولكننا لم نر حتى الآن طيورا برؤوس حمراء.

سألته إن كان بإمكاني الذهاب إلى ضفة البحيرة. فقال إنه في اليوم التالي ستظهر الشمس، وسننفخ القارب المطاطي، وسيرافقني من أجل القيام بجولة. أما اليوم فإن الريح قوية جدا، والجو بارد.

اعتذرت منه وذهبت للتنزه باتجاه البحيرة. أخذت طريقا ضيقا جانب الجبل، أوصلني إلى قرية صغيرة يقطنها سبع أو ثمان عائلات كانت جسور المنازل ودعاماتها كلها مصنوعة من الحجارة زرعت أشجار فتية أمام المساكن، وفي الساحات. ومنذ عقود قليلة، كان هناك غابة سوداء كثيفة تحيط بهذه القرية. نزلت إلى البحيرة، مستعينا بالمناطق الطينية المرتفعة فوق الأرض، والطرق الترابية بينالحقول. ومع ذلك تجمع فوق حذائي طبقة كبيرة من الطين. وهناك قارب وطفل أمامي، في نهاية الحقل.

ويحمل دلوا، وعصاة صيد. رغبت في الاقتراب، ودفع القارب إلى الماء. سألته: هل يمكننا دفع القارب إلى الماء؟

كانت قدماه حافيتين، وبنطاله ملفوفا فوق الركبتين. وعمره لا يتجاوز الثلاثة عشر أو أربعة عشر عاما. نظره تجاوزني، وسرح في البعيد ورائي. أدرت رأسي، فوجدت خيالا يناديه على أطراف القرية. ويبدو الخيال، من بعيد، وكأنه يضع سترة بألوان صارخة، إنها فتاة صغيرة، دون شك. خطوت خطوة نحو الصبي. غاص

حذائي تماما في الطين.

- أي... ي... يا... يو..!

- لم افهم تماما معنى هذه الصرخات البعيدة، ولكن الصوت واضح وعذب، إنها، دون شك، تناد الولد. حمل عصاة الصيد على كتفه، وابتعد وهو يمر بجانبي. وبدأ تقدمي يصبح صعبا بالتدريج، ولكن بما أنني أصبحت قريبا من البحيرة، فإنني أريد الذهاب لإلقاء نظرة عليها. وكان القارب على بعد عشر خطوات مني وللوصول إليه، كان يكفيني أن أقفز إلى المكان الذي كان فيه الولد منذ قليل، وهو مكان مغلق تماما. وتنتصب في مقدمة القارب عصاة من الخيزران. وكنت قد لاحظت من قبل طيورا تطير على سطح الماء بين المستنقعات ربما تكون بطا بريا. ومما لا شك فيه أنها كانت تصرخ باستمرار ولكنني لم أكن أسمعها بالقرب مني، بسبب الريح التي تهب من الضفة، في حين أنني كنت أميز نداءات الطفلين من بعيد. قلت في دخليتي إنه ليس علي إلا دفع القارب خارج غيضات القصب لأصل إلى الفضاء الفسيح.

ليس علي أن أكلم شخصاً، وأنا أطفو وحيدا وسط هذه البحيرة، وضمن هذه الهضاب المرتفعة المعزولة والوادعة. إنني أحب ان أتوحد مع الطبيعة، وأندمج في النور، والسماء، وألوان الجبال.

رفعت قدمي لكي اتقدم خطوة، ولكنني غصت إلى ركبتي في الوحل. لم أجرؤ ترك ثقلي نحو الأمام، لأنني أدرك أنه إذا غاصت رجلي في الوحل، فإنني لن أجد أي وسيلة تساعدني على الخروج. ولم أجرؤ ايضا على نقل قدمي الأخيرة. لم أكن قادرا على التقدم أو التراجع، فحرت في أمري ماذا أفعل. من المؤكد أن الموقف مضحك، ولكن أحدا لا يستطيع الضحك، لأنني لوحدي وسط هذا الموقف، كما لا يستطيع أحد مساعدتي، إنه وضع محرج. ربما يراني أحد بفضل المنظار البعيد الموجود في مركز الإدارة، وذلك بالطريقة نفسها التي رأيت فيها الرجال في قاربهم. ولكن لا يمكن أن أظهر، عبر المنظار، إلا كظل عابر، غير واضح المعالم. وحتى وإن وجه نحوي، فإنهم سيعتقدون بأنني مجرد فلاح يستعد للذهاب إلى البحيرة لجمع بعض المحاصيل من أجل تحسين دخله، ولن يعيره شخص أي اهتمام. اختفت الطيور المائية من على سطح الماء الهادئ لقد بدأت المياه المتلألئة، شيئا فشيئا، بالاختفاء تحت عتمة الليل. وتنتشر انطلاقا من غيضات القصب ألوان الشفق وينبعث هواء ندي من تحت قدمي. ارتجفت من الخوف. لا صرير صرار الليل، ولا نقيق الضفادع، ربما تكون هذه الوحدة البدائية الخالية من المعنى هي التي أبحث عنها، في النهاية.

إنـه مسـاء بـارد جـدا، في قلب الخريـف. والظـلام الكثيـف والدامـس يلـف هـذا المدى العمائي والبدائـي، وتتعانق السـماء والأرض، والأشـجار والصخـور. والطريـق غير مرئي وأنت مجبر على البقاء في مكانك إذا لم تستطع تخليص قدميك، الجـذع ينحني إلى الماء، والساعدان ممدودان لأتحسس المنطقة المحيطة بـي هـذه الليلـة المظلمة، وأنت تفكر في الحركة، ولكن الريح ليست هي التي تعيق الآن، ولكن الظـلام حيث لا يوجد فوق أو تحت، لا شـمال ولا يمـين، لا بعيـد ولا قريـب، ولا يوجـد أي نقطة محـددة، لقد ذبت تماماً في هـذا العمـاء، ومـا تعرفـه فقـط هـو أن لجسـدك حدوداً ولكن حتى هـذه الحـدود بدأت تتلاشـى مـن ذهنـك بـالتدريج، وتتبعـث مـن داخلك نقطة ضوء، مثل ضوء شمعة وحيدة ضمن الظـلام، وهـي تنير دون أن تبعث الحـرارة، إنـه ضـوء بـارد يلـف جسـدك، ويتجـاوز حـدوده هـذه الحـدود التـي مـازلت تختزنها في ذاكرتك، تضم ساعديك إلى جسدك لكي تحافظ على هـذه النـار. وهـذا الإحسـاس، وتبـذل جـهدك لكـي تحـافظ عليـه. ويظـهر أمـامك سـطح المـاء الـهادئ، وتنتصب أمامك، في الطرف الثاني من الضفة، غابات الأشجار التي فقد قسـم منهـا أوراقها، والقسم الآخر مازال يحتفظ ببعض الأوراق وتبقى اشجار الحـور المرتفعـة محافظة على بعض الأوراق الصفـراء، وعلـى أشـجار العنـاب السـوداء المعدنيـة تبقـى ورقة أو ورقتان صفراويتان شاحبتان تهتزان مع الريـح، وبعـض الأشـجار الأرجوانيـة المتناثرة، والتي تشبه حركات الضبـاب الحلزونيـة، ولا يوجـد علـى سـطح البحـيرة أي موجة، ويوجد فقط بعض الارتدادات الظاهرة والمتلألئة، وبـألوان براقـة مـن الأحمـر الغامق إلى الأرجواني، والبرتقالي، والأصفـر الخفيـف، والأخضـر الغـامق، والرمـادي الداكن، وبياض القمـر، علـى مسـتويات عديـدة، وأنـت تفكـر بعمـق، فجـأة اختفـت الألوان لتذوب في درجات عديدة من الرمادي، والأسـود، والأبيض الغـامق أو الفـاتح، كصـورة قديمـة باهتـة، مـا بقـي واضحـا هـو الظلمـات، وبـدلا مـن أن تقـول إنـك علـى الأرض، ربما يكون من الأفضل أن تقول إنك موجود في فضاء آخر، لاحظت الصـورة النقية لقلبك وأنت تحبس نفسك، ولكنك هـادئ جـدا، وهـذا الـهدوء يعطيـك الأمـان. لديك إحساس بأنك في حلم، ولا يجب القلق، ولكنك لا تستطيع أن تمنـع نفسـك مـن القلق، لأن الهدوء شامل، وهو هدوء استثنائي.

سـألتها إذا رأت هـذا الظـل. فأجـابت بأنـها رأتـه. وسـألتها إذا كـانت قـد رأت

القارب الصغير. فقالت بأن هذا القارب هو الذي يمنح هذا الهدوء على سطح البحيرة. فجأة سمعت تنفسها مددت يدك لتلمسها، ترددت يدك فوق جسدها، أوقفتك، تشد على زندها، جذبتها نحوك، استدارت وألقت نفسها على صدرك، تشم رائحة العطر الجميلة التي يرسلها شعرها، وبحثت عن شفتيها، تجنبتك واستدارت، بدأ جسدها الدافئ يتنفس بعمق، وقلبها يدق بسرعة تحت راحة يديك. أنت تقول إنك تريد أن يغرق هذا القارب. وهي تقول إن القارب قد امتلأ بالماء. أبعدتها، ودخلت إلى جسدها المبلل. وهي كانت تعرف أن ذلك سيحصل، تنهدت، واسترخى جسدها، ولم تعد إلا قطعة من اللحم.

أنت تريد أن تقول هي إنها سمكة ! لا !

أنت تريد أن تقول إنها حرة. آه ! لا.

أنت تريد أن تختفي، وأن تنسى كل شيء. قالت إنها تخاف.

فسألتها عن سبب خوفها. فقالت إنها لا تستطيع التعبير عن ذلك، وقالت أيضا إنها تخاف من الظلمة، وتخاف من التلاشي. بعد ذلك، تلاشت الوجنات المضطرمة، وألسنة النار المتصاعدة في غياهب الظلمات، وكذلك الأجساد التي تتلوى، وقالت لك بهدوء، وصرخت إنها تتألم! مانعت، ونعتتك بالحيوان المتوحش ! إنها محاصرة، ومطاردة، وممزقة، ومضطهدة. آه.. هذه الظلمة شاملة، ومحسوسة، وهذا السديم المغلق، لا عدم ولا وجود، ولا وجود للعدم، ولا وجود للوجود، والنار تحرق الفحم الخشبي، والعينان غارقتان بالدموع، والكهف مفتوح، وتلافيف الدخان، والشفاه المضطرمة، والصرخات المخنوقة، والإنسان والحيوان، والدعوة إلى الظلمة البدائية، وقلق النمر المتوحش في الغابة، وحالة التوق، تصاعدت ألسنة اللهب، بكت وهي تطلق صرخات حادة، والحيوان المتوحش يعض ويزأر، لقد أصابه مس من الجنون، إنه يقفز إلى الأعلى، ويدور حول النار، والضوء بدأ ينتشر بالتدريج، وألسنة اللهب تتقلب، وفي المغارة التي تتصاعد منها تلافيف الدخان، تنشب معركة حتى الموت، والحيوان مطروح على الأرض، ويطلق صرخات حادة، ومازال يقفز ويزأر ويختنق، وينهش.. هرب سارق النار، وفي البعيد تختفي الشعلة في السواد، وتخف.. ولم يعد اللهب إلا نقطة متذبذبة في مهب الريح. ثم انطفأت.

قالت : إنني خائفة. خائفة لماذا؟

لست خائفة من شيء، ولكنني أريد القول إنني خائفة.

طفل أخرق،

الضفة الأخرى،

الضفة الأخرى،

ماذا قلت؟

لن تفهم. أتحبينني؟ لا أعرف ألم تحبي من قبل؟

إنني أعرف فقط أن هذا اليوم سيأتي مهما تأخر.

ألنت سعيدة؟ أنا لك الآن، قل لي أشياء لطيفة، حدثني عن الظلمات، رفع بانغو Panggu (٧) معوله ليفتح السماء، لا تحدثني عن بانغو، أحدثك عماذا؟ حدثني عن هذا القارب، القارب الصغير الذي سيغرق. كان يعتقد بأنه سيغرق، ولكنه لم يغرق. هل غرق أخيرا؟ لا أعرف.

إنك طفل حقاً. إحكِ لي حكاية.

بعد الطوفان الكبير، بين السماء والأرض، ولم يبق إلا قارب صغير. وكان في هذا القارب أخ وأخته فقط، فلم يستطيعا تحمل الوحدة، وبقيا مع بعضهما، وحده لحم الآخر هو الذي يوكد وجوده الخاص.

أتحبني.

الفتاة أغوتها الأفعى.

الأفعى هي أخي.

(٧) شخصية أسطورية شكل العالم.

- ٢٠ -

اصطحبني مغن من قبيلة يي Yi إلى الجبل، وراء بحيرة كاو، حيث قرى قبيلته. وكلما تقدمنا، كانت تبدو الذرى مستديرة أكثر، والأشجار متلاصقة وكثيفة، وينتشر نوع من الرائحة النسائية البدائية.

إن نساء قبيلة يي Yi رائعات، البشرة سمراء، والأنف مستقيم، والعينان ثاقبتان، وقلما ينظرن إلى شخص غريب يواجهنه. وإن حدث أن رفعن وجههن نحوه على طريق جبلي، فإنهن يحتفظن بعيونهن في الأرض، ويتوقفن لإفساح الطريق دون أن ينطقن بكلمة واحدة.

دندن لي دليلي ببعض الأغنيات الشعبية لقبيلة Yi ، وبعض الأغنيات الحزينة، وحتى بعض الأغنيات الغزلية.

إذا خرجت في مساء مقمر

لا تشعل النار في الطريق

فإذا أشعلت النار في الطريق

سيصبح القمر حزينا

وفي فصل إزهار اللفت لا تحمل سلة لكي تجمع الأزهار، فإذا حملت السلة لجمع الأزهار، سيصبح اللفت حزينا

إذا أحببت فتاة جادة، لا تتردد

فإذا ترددت، ستصبح الفتاة حزينة

أخبرني أن الزواج بين الفتيات والفتيان في قبيلة يي مازال إلى اليوم، ينظم من قبل الأهل. أما الشبان الذين يريدون أن يحبوا بعضهم بعضا بحرية يتخفون لكي يلتقوا في الجبل. وإذا تم اكتشافهم، يوقفون وتعاقبهم عائلاتهم بالموت.

اليمامة والدجاجة ينقران معا،

للدجاجة مالك، أما اليمامة فليس لها مالك

جاء مالك الدجاجة يبحث عنها

وبقيت اليمامة وحدها

الفتاة الشابة والفتى الصغير يلهوان معا

للفتاة سيد، وليس للفتى سيد

جاء سيد الفتاة يبحث عنها

وبقي الفتى لوحده

لا يستطيع أن يغني لي هذه الأغنيات الغزلية في بيته أمام امرأته وأولاده. جاء إلى مركز سكني وغناها، والباب مغلق، بصوت عذب بلغة يي ، ثم كان يترجمها مقطعا مقطعا. كان يرتدي ثوبا طويلا، ويربط حزاما حول خاصرته، وكانت عيناه حزينتين، ووجنتاه هزيلتين. ترجم هو نفسه هذه الأغنيات إلى الصينية ضمن لغة مليئة بالعفوية، والتي تخرج بتلقائية من قلبه. إنه شاعر مفطور.

عمره ليس بعيدا عن عمري ولكنه يقول إنه أصبح كهلا، وإنه لم يعد صالحا لشيء الآن، على الرغم من أن لديه ولدين، فتاة عمرها اثنتا عشرة سنة، وفتى عمره سبعة عشر عاما، ويتوجب عليه العمل بجد من أجلهما، وعندما ذهبت، بعد ذلك، إلى موطنه الأصلي، وهي قرية جبلية، لاحظت أنه يربي خنزيرين ضمن الحظيرة التي تتاخم بيته. كانت الأرضية في داخل المسكن من التراب المسوى، ولم يكن يوجد على السرير إلا غطاء رقيق بال من القطن الضارب إلى السواد. زوجته مريضة من الواضح أن الحياة بالنسبة إليه كابوس ثقيل.

وهو الذي قادني أيضا لرؤية كاهن قبيلته. دخلنا إلى بيت عميق جدا، وقطعنا ممرات ضيقة ومظلمة قبل أن نصل إلى فناء جانبي صغير يحتل فيه الكاهن غرفة بسيطة بمدخل واحد. دفع باب الفناء ونادى: وأجابه مباشرة صوت رجل طلب مني أن أدخل. وفي الداخل، كان رجل جالسا أمام طاولة قريبة من النافذة، ويرتدي ثوبا أزرق طويلا. نهض، وكان يربط حول خصره حزاما، ويضع على رأسه عمامة سوداء.

قدمني المغني بلغة قبيلة يي، ثم شرح لي أن الرجل ينتمي إلى منطقة كيل Kele، وهو ينتسب إلى عائلة كبيرة، واستدعي من قريته لكي يقوم بالطقوس الدينية لناس هذه القبيلة في مركز المنطقة. عمره ثلاثة وخمسون عاما. تفحصني بعينيه الواضحتين والثاقبتين دون أن ترمشان. من المستحيل مواجهة نظره. وعلى الرغم من أنه كان يرمقني، إلا أنه كان يتأمل في منطقة أخرى، وعالم آخر، دون شك، عالم الغابات، والجبال، والأرواح، والأشباح.

جلست على الطاولة في مواجهته. شرح المغني سبب مجيئي. إنه في سبيل نسخ نص مقدس بلغة يي، وبالريشة، مثل هان Han عندما انتهى من السماع إلى المغني، هز رأسه، ووضع ريشته في إناء صغير، وأغلق المحبرة. بعد ذلك، وضع أمامه النص المقدس، المكتوب على ورق سميك وعريض، وفتحه في بداية فصل وبدأ فجأة بالترتيل بصوت قوي.

كان صوته حادا جدا بالنسبة إلى مثل هذه الغرفة. ويخرج بإيقاع موزون، ثم يرتفع بشدة، وينتقل بين أربع أو خمس نبرات، فينقلك فجأة إلى البعيد، إلى أعالي الهضاب المرتفعة. تبدو أشعة الشمس.

في من هذه الغرفة المظلمة عبر النافذة خلفه، قوية، كما تبدو الأرض الموحلة في الفناء مبهرة. يرفع ديك رأسه، كما لو أنه يريد أن يستمع إليه، ثم بدأ يلتقط طعامه، ورأسه منخفض، وقد تعود على هذا الصوت، وأصبح ترتيل النصوص المقدسة شيئا عاديا بالنسبة إليه. سألت دليلي: ما الذي ينشده؟

قال لي إنها نصوص مقدسة مخصصة للعزلة الكبيرة بعد وفاة رجل. ولكنها مؤلفة بلغة يي القديمة، وهو لا يفهم منها الشيء الكثير. استفسرت منه عن عادات قبيلة يي في موضوعي الزواج والحزن، وسألته بصورة خاصة إذا كان بإمكاني حضور جنازات مثلما رواها لي سابقا. هذا مشهد نادر غالبا في أيامنا هذه. إن هذا الصوت الرجولي، المستمر والمتغير الطبقات، والذي يصعد من حلق الكاهن، ويصدي في منخريه، ويخرج من قناعه، والمفعم بالحياة، بث في داخلي صورة المركب الجنائزي حيث بعض الأشخاص يضربون الطبل، ويلعبون على المزامير، ويرفعون الرايات، ويحملون تماثيلَ الحداد الصغيرة من الورق. الشابات يمتطين الأحصنة، ويحمل الفتيان على الكتف الأسلحة النارية التي كان دويها يسمع على طول الطريق.

رأيت أيضا بيت روح المتوفى. وهو منصوب على النعش، ومصنوع من الخيزران المجدول ومغطى بأوراق ملونة. يحيط به جدار من الأغصان المتشابكة. وفي مكان الجنازات، تستهلك كمية كبيرة من الخشب. يجلس أقرباء الميت على شكل دائرة حول واحد منهم، ويتصاعد اللهب إلى الأعلى بالتدريج، في حين تتردد تراتيل النصوص المقدسة في الليل، كانت المجنونة تركض وتقفز، وتقرع الطبول والصنوج، وتطلق الطلقات النارية.

يأتي الإنسان إلى العالم مع الدموع والصراخ، ويتركه مع الضوضاء. هذه هي الطبيعة الإنسانية.

هذه العادة ليست خاصة بقرى الجبل لقبيلة يي. إننا نجدها في كل حوض يانغزي Yangzi، ولكنها غالبا فقدت دلالتها الأصلية بسبب ما أصابها من أشياء مبتذلة. في فينغدو Fengdu، التابعة لسيشوان Sichuan، مدينة تدعى مدينة الأشباح، وهي الموطن القديم لرجال با Ba، حضرت جنازة والد مدير محل تجاري كبير في المركز الإداري للمنطقة. وضع على نعشه بيت من ورق من أجل روح المتوفى.

وأمام باب بيته صفت الدراجات الهوائية العديدة للرجال الذين جاؤوا ليقدموا تعازيهم، وكانت تتكدس، في الجهة الأخرى أكاليل الورد، ورجال وأحصنة من ورق. وفي نهاية الطريق ثلاث مجموعات من البواقين يلعبون على آلاتهم بالدور من الصباح إلى المساء، ولكن لم يأت أحد من أقارب الميت أو معارفه ليبكي عليه أو ينشد أناشيد البر، أو يرقص رقصات الحداد. لقد بقوا جميعا في الساحة يلعبون الورق، ويلتفون حول الطاولة. أردت أخذ صورة لهذه العادات الحديثة، ولكن المدير أمسك آلة التصوير، وطلب رؤية أوراقي.

من المؤكد أنه مازال يوجد رجال يعرفون أناشيد بر الوالدين. وفي منطقة جينغزهو Jingzhou، في جيانغلينغ Jiangling، مهد سكان منطقة شو Chu، مازالوا مستمرين إلى الوقت الحالي. لقد غنوا خلال احتفال سحري نظمه كاهن القرية الطاوي. يسمى هذا (ضرب الإناء مع الغناء)، ونجد أثرا مكتوبا عن هذا الغناء في زهوا نجزي Zhuangzi (٨): عندما فقد زهوا نجزي زوجته، بدأ الغناء وهو يضرب على إناء، وحوّل الجنازة إلى حدث سعيد بفضل هذا الغناء الزجلي. أظهر بعض المختصين الحاليين بسلالة يي أن الأب المؤسس لأسرة هان Han، وهو فوكسي Fuxi، له علاقة بطوطم الببر(*) عند قبيلة يي، والذي نجد أثرا له في كل مكان من بلاد با، وشو. Ba, chu. على آجر سلالة هان التي اكتشفت في سيشوان، قدمت ملكة الغرب الأم على شكل أنثى الببر بوجه بشري. عندما كنت في قرية المغني يي Yi، رأيت طفلين يلعبان على الأرض أمام سياج أشجار صفصاف متداخلة. كانا يضعان على رأسهما قلنسوة على شكل رأس نمر، مطرزة بخيط أحمر، وهي تشبه ما يضعه الأطفال على رؤوسهم في مناطق جنوب جيانغكسي، وجنوب أنهوي. وفي المواقع القديمة لوو Wu، ويو Yue، على المجرى الأدنى لنهر يانغزي Yangzi، حافظ رجال جيانغ سو Jiangsu، وزهيجيانغ Zhejiang، المعروفون بذكائهم، على نوع من الخوف من أنثى الببر. هل هذه ذكرى باقية في لاوعي الناس الذين يعبدون طوطم أنثى الببر في حقبة المجتمع الأمومي؟

لا أحد يعرف ذلك. التاريخ، في النهاية، ليس إلا ضبابا كثيفا. هنا، وحده صوت الكاهن هو الواضح والقاطع بصورة كاملة. طلبت من دليلي إذا كان يستطيع أن يترجم لي المعنى العام لهذه النصوص المقدسة. فقال إنهم يهدون الميت إلى الطريق

---

(٨) هو عمل لزهوانغ زهو Zhuang Zhou، وهو فيلسوف طاوي من القرن الرابع قبل الميلاد.

* الببر: نمر.

في دياجير الظلمات. إنها موجهة إلى إله السماء، وآلهة الإتجاهات الأربعة، وآلهة الجبل والماء، وهي تكشف أصل أسلاف الميت. عندها تستطيع روح الميت أن تدخل إلى موطنها الأصلي عبر الطريق الذي توضح أمامها.

سألت، بعد ذلك، الكاهن عن عدد الأسلحة النارية التي كانت موجودة في أكبر احتفال نظم. فكر لحظة ثم أجاب بوساطة المغني أنه كان يوجد أكثر من مئة سلاح. ولكن في جنازة زعيم العشيرة، نظمت احتفالات مع ألف ومئتي سلاح ناري. وكان ذلك منذ خمسة عشر عاما، وكان والده حاضرا، لأن وظيفة الكاهن تنتقل من الأب إلى الإبن.

وضع مثقف من قبيلة يي Yi في المنطقة تحت تصرفي، وبحماس، سيارة جيب صغيرة لكي يأخذني إلى يانكانغ لزيارة المدفن الضخم المتجه نحو السماء، لملك قبيلة يي القديم. وهو عبارة عن تلة مستديرة، مقعرة القمة يصل ارتفاعها إلى خمسين مترا. أصبح الناس في زمن 'تقويم الأراضي من أجل الثورة' مجانين. فمن أجل صناعة الكلس، أخذوا ثلاثة صفوف من أحجار الضريح المحيطة بالتلة، وسحبوا المرامد*، وحطموها، ثم زرعوا الذرة الصفراء فوق هذه البقعة الجرداء. نبتت حاليا فوقها بعض الأعشاب البرية الهزيلة التي تنحني مع الريح. ووفق رأي باحثي قبيلة يي، فإن مصاطب الأموات في موطن قبيلة با Ba القديم، التي كشفت عنها الوثائق الصينية في (حوليات موطن هوايانغ Huayng)، تشبه كثيرا هذا المدفن المتجه نحو السماء. إنها مخصصة لعبادة الأسلاف، ومراقبة السماء.

إنه يؤكد أن اسلاف يي يعودون في أصولهم إلى منطقة أبا Aba، في شمال غرب سيشوان، وكانوا أسلافا مشتركين مع قدماء كيانغ Qiang. وهذا هو بالتحديد مكان ولادة يو الكبير Yu le grand، الذي ينتمي إلى كيانغ. أخذت، إذن، بوجهة نظره، إن أفراد قبيلة كيانغ، وأفراد قبيلة يي قريبون جدا بعضهم من بعض، من خلال لون بشرتهم، ووجههم، وتركيبهم البدني، ويمكنني أن أؤكد ذلك، لأنني عدت من هذه المناطق. ضربني على كتفي ليدعوني إلى الشرب في بيته. لقد أصبحنا صديقين. فسألته إذا كان يجب، عند أفراد قبيلة يي، أن نشرب دائما الكحول الممزوج بالدم من أجل توحيد الصداقة. فأجاب بنعم، وأضاف : يجب قتل ديك وخلط دمه بالكحول. أما هو فقد وضعه من قبل في القدر، وسنشرب ونحن نأكل. وكان قد أرسل ابنته إلى بكين لمتابعة دراستها. فرجاني أن أهتم بها. وكان، أيضا، قد كتب سيناريو فيلم. وإذا كان بإمكاني أن أساعده في إيجاد مكان لتصويره، فإنه سيبذل جهده من أجل نقل فرقة خيالة من قبيلة يي لكي تشارك في التصوير.

---

* المرمدة: إناء كان القدامى يضعون فيه رماد الموتى بعد حرقهم (م).

تكهنت بأنه ينتمي إلى طبقة الملاكة الأرستقراطيين للعبيد السود من قبيلة يي.
لم يخالف توقعي.

روى أنه ذهب، في السنة الماضية، إلى جبال داليانغ. ووصل إلى الجبل العاشر، أو أكثر، لم أعد أذكر، من أسلاف الفرع الذي يشترك فيه مع موظف إداري محلي كبير من قبيلة ي.

سألته إذا كانت تراتبية العشائر شائعة في مجتمع هذه القبيلة قديما. هل كان يحكم على فتى وفتاة من القبيلة نفسها ويرغبان في الزواج، أو أقاما علاقات جنسية، بالموت؟ مثلما يحصل مع أولاد العم الجرمانيين؟ إذا أقام عبد أبيض من يي علاقات جنسية مع أرستقراطية سوداء من يي، هل كان يحكم على الفتى بالموت، وتجبر الفتاة على الانتحار؟

- قال: هذا صحيح، ولكن ألا يحصل الشيء نفسه عندكم أفراد سلالة هان Han.

أدركت بعد زمن من التفكير بأن ما يقوله صحيح.

أردت أن أقول إن الإدانات بالانتحار يمكن أن تنفذ بواسطة الشنق، أو التسمم، أو الغرق، أو القفز في الفراغ. أن عقوبات الموت كانت الخنق، والضرب، والغرق مع حجر مربوط إلى الجسد، والسقوط من فوق صخرة عالية، والموت بالسكين أو بالسلاح الناري، سألته إذا كان يؤكد هذا.

- فأجاب : تقريبا، ولكن ألا يحدث الشيء نفسه عندكم. أنتم الآخرون. أفراد سلالة هان؟

- اعترفت ، بعد تفكير، بأنه على حق.

أردت أن أعرف إذا كانت أساليب التعذيب الوحشية مازالت مستخدمة مثل قطع الرجلين، أو قطع الأصابع أو الأذنين، أو اقتلاع العينين، أو فقأ بؤبؤ العين، أو ثقب الأنف.

- نعم، كان يوجد هذا في القديم، بالتأكيد، مثلما حصل خلال الثورة الثقافية تقريبا.

معه حق، فلماذا الدهشة؟

وروى أيضا كيف التقى، في جبال داليانغ، بضابط قديم من غومين وانغ Guomindang، والذي مازال مستمرا في تقديم نفسه كحاصل على دبلوم، بدرجة معينة، وبسنة محددة من الأكاديمية العسكرية في هوانغبو، وكقائد عسكري من الأكاديمية العسكرية في هوانغبو، وكقائد عسكري لإحدى وحدات الجيش الوطني. أسر، ثم أصبح خادما عند زعيم إحدى العشائر، وهرب، لكنه لم ينجح في هروبه فأعادوا القبض عليه. فسحبوه على الأرض وهو مربوط بالسلاسل من رقبته، قبل

أن يباع إلى سيد آخر بأربعين كيسا من النقود. وعند وصول الحزب الشيوعي، أنقذه وضعه القديم كعبد من الإنتقامات، لأن أي شخص لا يعرف تاريخه. أما اليوم فإنه يجرؤ على رواية هذا بسبب ما يقال عن التحالف الجديد بين الحزب الشيوعي، والغوميدانغ. ولهذا أرادوا تعيينه عضوا في المجلس التشريعي للشعب الصيني، ولكنه رفض العرض. بلغ عمره سبعين سنة، وعنده خمسة أطفال، ولدوا عندما كان عبدا. أعطاه سيده امرأتين، وأنجب منهما تسعة أطفال، مات أربعة منهم. مازال يعيش في الجبال، وليس لديه أية رغبة في معرفة ما حدث لزوجته الأولى، وأطفاله. سألني الموظف الإداري الكبير إذا كنت أكتب رواية. إنه مستعد أن يقدم لي هذه القصة مجانا !

عندما خرجت من بيته، بعد الوجبة، كان الشارع قد غرق في الظلام، وبرزت السماء بين صنفين من السقوف كمستطيل طويل رمادي داكن. وفي يوم من أيام التسوق، امتلأ الشارع بأفراد من قبيلة يي معممي الرأس، ومن قبيلة مياو Miao، وهم يضعون المناديل المعقودة حول شعورهم، ولكن هذا الشارع لا يختلف كثيرا عن أي شارع داخل البلد.

وفي طريق مركز الاستقبال الذي أنزل فيه، مررت أمام دار سينما. ولا أعرف إذا كانت تقدم عرضا. وهناك إعلان مثير مضاء بإضاءة قوية، ويعرض امرأة مشرقة بصدرها البارز. يجب أن يظهر في عنوان الفيلم اسم امرأة أو كلمة الحب. مازال الوقت مبكرا، ولا أرغب في العودة إلى غرفتي بأسرتها الأربعة الخالية. عدت من حيث أتيت من أجل الذهاب إلى صديق تعرفت عليه منذ وقت قريب. كان قد درس علم الآثار في الجامعة.

تعيش قبيلة يي، من وجهة نظره، في حوض جينشاجيانغ Jinshajiang، وراقده ياغونغجيانغ Yagongjiang، بصورة أساسية. أسلافهم هم الكيانغيون الذين هاجروا بالتدريج إلى هنا عندما ألغي نظام العبودية في السهل الأوسط في عصر شانغ Shang، وزهو Zhou.

وفي عصر الممالك المتصارعة، عندما تحاربت مملكة كين Qin، ومملكة شو Chu، في غيزهو Guizhou الحالية، تابع أسلافهم البحيرة نحو يونان Yunnan .

وهذا حدث مثبت بطريقة أكيدة في النصوص القديمة المكتوبة بلغة يي (حوليات يي الجنوب غرب).

مع ذلك، اكتشف، في السنة الماضية، على ضفة بحيرة كاو Cao، أكثر من مئة أداة من الحجر تعود إلى العصر الحجري القديم، ثم اكتشف في الموقع نفسه أدوات تعود إلى العصر الحجري الحديث والتي يشبه صنعها كثيرا صنع أدوات موقع هيمودو Hemudu، على المجرى الأدنى لنهر يانغزي Yangzi . وهناك آثار مشيدة

تشبه البيوت على أعمدة، اكتشفت في المنطقة القريبة من هيزهانغ Hewhang.

إنه يعتقد، إذن، أنه كان يوجد في العصر الحجري الحديث، علاقة بين المكان الذي توجد فيه وثقافة قدماء قبائل يو Yue.

عندما رآني أصل، أخرج من تحت سرير طفل سلة من الأحجار، معتقدا أنني سأرى الأدوات التي كان قد عثر عليها. نظرنا إلى بعضنا ونحن نضحك. قلت له:

- لم آتي من أجل الأحجار
- صحيح، الأحجار ليست هي الشيء الأكثر أهمية، تعال.

وضع السلة مباشرة خلف الباب ونادى زوجته:

- اجلبي لنا شيئا نشربه.
- قلت إنني شربت منذ قليل
- لا تقلق، إذا سكرت تمضي الليل هنا!

أيجب أن يكون من سيشوان. وأنا أسمع طريقته في الكلام، شعرت بالقرب منه، وتبينت لهجته، بدأت زوجته مباشرة بإعداد أطباق تقدم مع الكحول بنكهة سائغة.

وبدأ صديقي، الذي أخذه الحماس، أحاديث طويلة: حول أجزاء الحفريات التي تمثل نماذج عن آثار مستنقعات بحيرة كاو، التي كان تجار الأسماك يبيعونها، وحول الموظفين الإداريين المحليين القادرين على الاجتماع لصباح كامل من أجل أخذ قرار بشراء شبكة صيد. "قبل شرائها، يجب تعريضها قليلا للنار لرؤية إذا كانت الخيوط من قرن عجل أو من الخشب المدهون".

"هل هذه صحيحة أو مزيفة؟".

ضحكنا نحن الاثنان حتى ضاق نفسنا. وأصابنا ألم في البطن، وغرقنا في نشوة غامرة.

عندما خرجت من بيته بدت قدماي خفيفتين بصورة غير عادية، وهذا الأمر خاص بأعالي الهضاب.

عرفت أنني شربت تماما ما يجب أن أشربه، دون تجاوز حدودي. بعد ذلك تذكرت أنني نسيت أن آخذ من سلته معولا من الحجر والذي كان قد استخدمه سليلو إنسان يوانمو Yuanmou[٩]. وراح يصرخ وهو يدلني على حجارة السلة الموضوعة خلف الباب.

- خذ قدر ما تشاء إنها طلاسم منقولة من جيل إلى جيل.

---

(٩) موقع أثري يعود إلى العصر الحجري القديم في منطقة يونان Yunnan.

تقول إنها تخاف الفئران والضجة التي تحدثها عندما تركض في أرض البيت. كما أنها تخاف الأفاعي التي توجد بكثرة في أنحاء تلك الجبال. إنها تخاف الأفاعي الملونة التي تتدلى من أعمدة البيت وتندسّ بين الأغطية. وهي تريدك أن تضمها بقوة إلى صدرك لأنها تخاف وحشة العزلة.

إنها تريد سماع صوتك لتشعر بالطمأنينة. كما تريد أن تلقي برأسها على كتفك. تريد سماع صوتك تتكلم، وألا تكف عن الكلام، عندها لن تشعر بالوحدة.

تقول إنها ترغب في سماعك وأنت تروي لها حكايات، وترغب بمعرفة كيف أنقذ السيد الثاني Deuxieme Seignew الفتاة من اللصوص الذين اختطفوها من أمام منزلها، وكيف استسلمت إليه وصارت سيدة البيت، وكيف تمكنت بعد ذلك من القضاء على السيد الثاني بيديها.

تقول إنها لا ترغب في سماع حكاية تلك الفتاة التي حضرت من المدينة وألقت بنفسها في النهر، ولا ترغب وصف جثتها المنتفخة التي أُخرجت عارية تماماً من النهر، فهي لم تعد تريد الانتحار؛ كما أنها لا ترغب في سماع حكاية أولئك الرجال الذين تحطمت ضلوعهم وهم يقودون التنانين المصابيح. إنها الدماء، ولشدّ ما رأتها في غرفة العمليات بالمشفى. إنها تشتهي سماع حكايات مسلّية، مثل حكاية فتاة الكاميليا، فقد كرهت حكايات العنف.

تسألك إن كنت تعامل الفتيات الأخريات المعاملة نفسها. ولا يهمها أن تعرف ما تفعل معهن. فهي تريد أن تعرف ما إذا كانت الفتاة الأولى التي تجذبها بهذه الطريقة إلى الجبل. وإن سألتها عن رأيها في ذلك لأجابتك: 'لا أدري . ولو جعلتها تستشف ذلك، لأجابت إنها لا تريد أن تستشف شيئاً ولا أن تقول شيئاً، حتى لو حصل: فهي لاتريد معرفته. فهي تعرف فقط أنها أتت بمحض إرادتها، وإن خدعت فإن السبب يعود إليها وحدها؛ أما الآن، فلا تطلب سوى أن تفهمها وتحميها وتهتم بها وتسهر على راحتها.

تقول، تقول إن أول رجل ضاجعها كان عنيفاً معها. لا تقصدك بذلك، بل تتحدث عن ذلك الصديق الذي ما كان يراعي شأنها. ففي ذلك الوقت كانت تستسلم تماماً وماكانت تحس بأدنى رغبة، وما كانت تحس بأي انفعال. لأنه سرعان ما رفع لها تنورتها بينما تركت إحدى قدميها تستند إلى الأرض جانب السرير. لقد كان في

غاية الأنانية، كان خنزيراً لا يفكر سوى باغتصابها. طبعاً، تم ذلك بموافقتها، لكنها أحست بألم شديد، لقد ذاقت العذاب معه.

كانت تدرك عذابها، لكنها فعلت ذلك لتأدية إلتزام ما ولتحثه على أن يحبها ويتزوج بها.

تقول إنها لم تشعر بأي لذة معه، وأنها تقيأت عندما رأت سائله المنوي يسيل على فخذها. وصارت هذه الرائحة تشعرها بالغثيان على الدوام. تقول إنها لم تكن بالنسبة له سوى أداة لإشباع شهوته. فقد كانت تشعر بالاشمئزاز من جسدها عندما يتبلل بسببه.

تقول إنها المرة الأولى التي تتساق فيها، إنها المرة الأولى التي تستخدم فيها جسدها كي تحب رجلاً. إنها لم تتقيأ، وهي تقر بجميلك لمنحك لها تلك اللذة. تقول إنها كانت تريد فقط الانتقام منه بتلك الطريقة. أن تنتقم من صديقها. فهي ستقول له إنها، هي أيضاً، ضاجعت رجلاً آخر يكبرها بالسن كثيراً، لكنه رجل يعرف كيف يجد متعته معها وكيف يجعلها تستمتع معه.

تقول إنها تدرك ما سيؤول الحال إليه، وأنها ستدخلك بيتها، وأن جميع تلك الاحتياطات لم تكن سوى طريقة لخداع نفسها، لكن، لماذا كانت تريد معاقبة نفسها؟ لماذا أخفقت في التمتع على هواها؟ تقول إنك منحتها الحياة والأمل، وهي تريد الاستمرار في الحياة، وقد تجددت الرغبة لديها.

وتتابع قائلة: لقد كان لديها كلب عندما كانت صغيرة، وكان هذا الكلب يحب إيقاظها بفمه الرطب، وأحياناً يقفز على سريرها. كانت تحب كثيراً أن تضم ذلك الكلب بذراعيها، كانت أمها تقول، أمها الحقيقية، وهي ما تزال على قيد الحياة، تقول لها إن الكلاب تحمل حشرات القمل التي تعض. وفيما بعد، حُظِّرت تربية الكلاب في بيوت المدينة، وذات يوم كانت خارج البيت، حضرت مجموعة التقاط الحيوانات الأليفة وأخذوا الكلب وقتلوه، بكت عليه ورفضت تناول الطعام مساء ذلك اليوم. تقول إنها في تلك الفترة ما كانت تعرف غير الرأفة. وماكانت تدرك شدة العنف في عالم الرجال، وغياب الرحمة عن العلاقات بين البشر. تقول إنها لم تعد تتذكر لماذا تقول هذا.

تطلب منها الاستمرار في كلامها.

تقول إنها تشعر كما لو أنها فتحت صندوقاً للكلام، فهي لا تنفك تتكلم وتتكلم.

قلتَ إنها تجيد الكلام.

تقول إن رغبة تتملكها في أن تبقى صغيرة وأن تكبر في آن واحد، كانت تتمنى أن

تكون محبوبة، تتمنى أن تكون موضع اهتمام الجميع وتخشى من نظراتهم، كانت ترى دائماً القذارة في نظرات الرجال، فهم لا ينظرون أبداً إلى جمال وجه المرأة، بل يتوجه نظرهم دائماً نحو شيء آخر.

أنت تقول إنك أنت أيضاً من بين الرجال.

إنك تستثنى منهم، تقول إنك هدأت من روعها، وأرادت البقاء بين ذراعيك.

تسألها إن كانت ترى القذارة فيك أيضاً.

تقول: لا تتكلم هكذا. فهي لا ترى ذلك. إنها تحبك. فهي تجد الحنان في كل أنحائك. تقول إنها الآن فقط عرفت معنى الحياة. لكنها تقول أحياناً إنها تشعر بخوف شديد وترى الحياة أشبه بهوة لا نهاية لها.

تقول إنها لم تجد الحب الحقيقي عند أي شخص، وتتساءل ما معنى الحياة إذا لم تجد شخصاً يحبها في هذا العالم. تقول إنها تخاف من هذا.

إن الرجال يحبون بأنانية كبيرة، فهم لايفكرون سوى بالامتلاك؛ فماذا يقدمون بالمقابل؟

تقول أنت إنهم يعطون، هم أيضاً.

يعطون فقط عندما يرغبون في ذلك.

لكن النساء غير قادرات على الاستغناء عن الرجال، أليس كذلك؟

تقول إنها مشيئة السماء أن يجتمع في القالب نفسه حجران مصقولان، هما ينْ ويانغْ، إن هذا من طبيعة البشر ولا يجب أن تخافي من ذلك.

تقول إنكَ أنتَ من دفعها إلى ذلك.

تسألها إذا كان ذلك لايروق لها.

تجيب أن لا، بشرط أن يتم كل شيء بشكل طبيعي.

أجل، إنك تثيرها، تثير جسدها كما تثير روحها.

آه، تقول إنها ترغب بالغناء.

وتسألها: ماذا ستغنين؟

تقول إنها ستغني لأنها معك.

غنّي كما يحلو لك. وأنت تشجعها على الغناء بصوت مرتفع.

تريد أن تداعبها.

تقول إنك تريد منها أن تسترخي.

ترغب في تقبيل حلمتيها...

فتقبلها.

تقول إنها تحب جسدك أيضاً، فهي لم تعد تشعر بالخوف من أي قطعة في جسدك، وستفعل كما تشتهي أنت، آه، تقول إنها تريد أن ترى جسدك يدخل فيها.

أنت تقول إنها صارت امرأة بحق.

تقول: أجل، امرأة يمتلكها رجل، تقول إنها لم تعد تدري ما تقول.

تقول إنها لم تجد أبداً مثل هذه المتعة،تقول إنها تطوف فوق قارب ولا تدري أين يعوم بها، إنها لم تعد تسيطر على جسدها، إنها تتهادى على سطح البحر، هي وأنت، لا، بل هي وحدها، إنها لا تشعر بالخوف، فقط تحس بالفراغ، ترغب بالموت فهو يغويها أيضاً، ترغب في السقوط في البحر لتبتلعها الأمواج السوداء. إنها تحتاج إليك، لحرارة جسدك، لتضم جسدها، هل هذا يريحها، تسألك إذا كنت تعرف ذلك؟ فهي فعلاً بحاجة إلى ذلك.

هل تحتاج إلى رجل؟ إنك تغويها

أجل، إنها بحاجة إلى رجل يحبها، بحاجة إلى المضاجعة. فتوافقك ذلك، إنها تريد المضاجعة، تريد الاستلقاء، ونسيان كل شيء، آه، إنها ممتنة لك، تقول أحست بشيء من الخوف أول مرة، أجل، تقول إنها كانت تريد ذلك، وتعلم أنها كانت تريده، لكنهاكانت شديدة الخوف، ما كانت تدري ما تفعل، كانت ترغب بالبكاء، بالصراخ، كانت ترغب في أن تقذفها العاصفة إلى الريف القاحل، أن تعرّيها تماماً وأن تسلخ أغصان الأشجار جلدها، أن تتألم دون قدرة على الخلاص، أن تمزقها وحوش البرية! تقول إنها رأتها، هي، تلك المرأة الفاسقة التي تلبس السواد وتداعب نهديها بيديها، ذات مظهر ساخر تمشي وهي تتمايل بردفيها، إنها امرأة ماجنة، تقول إنك لاتفهم هذا، لن تفهمه حتماً، إنك لاتفهم شيئاً،أي غبي أنت!

غادر منطقة 'يي' بالحافلة، وهي من ضواحي 'يونان' و'غيزهو'.

وعندما وصلت إلى 'شويشنغ'، انتظرت القطار لفترة طويلة. والمسافة بين المحطة ومركز المدينة ليست بالقريبة. لم أعد أعرف نفسي في هذه المنطقة، فهي ليست الريف، وليست المدينة، لا سيما عندما أرى عند طرف ما يشبه الشارع ورقتي حكم متوازيتين وملصقتين على شبك نافذة بيت قديم ذي أعمدة سوداء: 'الأطفال يلعبون خارجاً، والرجال آمنون في كل مكان'. ما عدت أشعر بتقدم خطاي، بل أحسست بالعودة إلى طفولتي، وكأنني ما شهدت حرباً، أو ثورة، أو صراعات متتالية، أو انتقادات وانتقادات مضادة، ولا، الآن حتى، عودة إلى الإصلاحات التي لم تكن تماماً عودةإلى الإصلاحات، وكأن أبي وأمي لم يقتلا، وكأنني، أنا نفسي، ما عانيت، وكأنني ما كبرت؛ وكدت أفيض بالدموع من شدة تأثري.

رحت أجلس على كومة من الخشب أنزلت بجانب سكة الحديد، لعلّي أفكر قليلاً بوضعي، اقتربت مني امراة في الثلاثين من عمرها، وجهها بائس. طلبت مساعدتي لشراء تذكرة القطار. لا بد أنها سمعت قبل لحظات عند كوة التذاكر أن لهجتي غريبة عن المنطقة. قالت إنها تريد الذهاب إلى بكين لتتقدم بشكوى، وليس معها النقود لشراء التذاكر.

سألتها: ضد من ستقدمين الشكوى. وشرحت لي مطولاً وبشكل غامض أن زوجها قد مات ضحية ظلم، وحتى الآن، لا أحد يعترف بحقها ولم تتقاض أي تعويضات. أعطيتها 'يان' لأتلخص من حديثها، وذهبت بعيداً وجلست علىحافة النهر. وبقيت ساعات عديدة أتأمل المنظر أمامي.

في المساء، وبعد مضي ثماني ساعات،وصلت أخيراً إلى أنشون'. في البداية، وضعت حقيبتي في الأمانات، فقد ازداد حملها، وضعت فيها قطعة قرميد مزخرفة أحضرتها من 'هزهانغ' حيث يستخدم الفلاحون قطع القرميد الموجودة في قبور 'هان' لبناء حظائر للخنازير، اللمبة مضاءة في كوة الأمانات، لكن ليس فيها أحد. طرقت الكوة عدة مرات فحرضت موظفة تناولت النقود مني وألصقت بطاقة على حقيبتي ووضعتها فوق رف فارغ ثم عادت أدراجها مسرعة، كانت قاعة الانتظار خالية، ولا شيء فيها يشبه قاعات الانتظار التي تكون عادة مكتظة بالناس ويسمع الضجيج فيها ويقرفص الناس على حافات النوافذ أو يتمددون على المقاعد أو يجلسون فوق حقائبهم ويملؤون المكان جيئة وذهاباً ويبيعون أشياء شتى، عندما

غادرت هذه المحطة الخالية، كنت أسمع وقع خطواتي.

غيوم سوداء تمر مسرعة فوق رأسي، لكن الليل يشع ضياءً. يعلو ضباب الغروب عالياً في السماء ويمتزج مع الغيوم فتزداد كثافة الألوان روعة، وفي عمق الساحة الممتدة أمامي، ترتفع بعض التلال المستديرة تماماً، تنتشر في الهضاب العالية بشكل يشبه ثديي امرأة سمينة، لكن، عندما نقترب منها، تبدو ضخامتها وجبروتها، لا أدري إذا كان هذا الإحساس يعود إلى الغيوم السوداء التي تعدو فوق رأسي، لكنني أحسست أن سطح الأرض ينحني أيضاً ومشيت بتمايل وكأنما قصرت إحدى ساقي عن الأخرى. إنني لم أتناول شراباً. لقد تركت تلك الأمسية في "أنشون" انطباعاً غريباً لدي.

يوجد أمام المحطة نزل صغير لا يمكن تمييز بنائه بسبب الضوء الخافت. الغرف صغيرة جداً تشبه أقفاص الحمام وقد يصطدم الرأس بالسقف. لا يمكن للمرء البقاء فيها إلا مستلقياً.

وفي الشارع، نجد مجموعة من المطاعم الصغيرة، أخرجت طاولاتها وأضاءتها بمصابيح كهربائية تبهر النظر، والغريب في الأمر هو عدم وجود أي زبون. كل شيء مريب، ذلك المساء، وأحسست بغريزتي عدم الثقة في تلك المحلات. بعد حوالى عشرة أمتار، توجد طاولة مربعة يجلس عليها زبونان. سوف أجلس أمامهما وأطلب رز مع الشعيرية ذي الطعم الحاد مع لحم البقر.

إنهما شابان نحيلان وضامران. أحدهما وضع أمامه قارورة من القصدير مملوءة بالكحول، والآخر يرفع قدمه على المقعد. وكل منهما يحمل في يده كوباً فخارياً، ويبدو أنها لا يريدان الطعام. تناولا قصبات الطعام وقابلوها مع بعضها، وفي وقت واحد قال أحدهما: "قريدس" والآخر "حمالة خشب"، تباعدت القصبات ولا أدري من كسب اللعبة. كان ذلك في الحقيقة إشارة لبدء الشراب. وثم ركزا انتباههما ووضعا القصبات متقابلة، قال أحدهما: "حمالة خشب"، وقال الآخر: "كلب"، وطبعاً الحمالة تضرب الكلب، إذن، من قال: "كلب" خسر. عندها يفتح الرابح القارورة ويسكب الكحول في كوب خصمه. يشرب الخاسر كوبه دفعة واحدة، ثم يضعان القصبات متقابلة من جديد. إن الهدوء والتهذيب الظاهرين عليهما يوحيان دون شك بأنهما من الخالدين، لكن، عندما أمعنت النظر بهما، وجدت وجهيهما مثل وجوه البشر العاديين تماماً، لكنني تخيلت أن الخالدين يشربون بهذه الطريقة.

بعد أن أنهيت طبقي من الشعيرية ولحم البقر نهضت ومشيت. وما زلت أسمعهما يتبادلان الشتائم بصوت له وقع متميز في ذلك الشارع الخالي.

وصلت إلى شارع قديم. وعلى جانبيه تبدو بيوتاً مثل الخرائب تمتد سقوفها حتى منتصف الطريق. ويضيق الشارع كلما تقدمت فيه. وتكاد السقوف تتلاصق وتبدو أنهاتوشك على السقوط. أمام كل باب توجد بضائع معروضة للبيع. بعض زجاجات الكحول، كريفون، فواكه مجففة، توجد أيضاً بعض الثياب تتأرجح مع الهواء وكأنها أشباح لمشنوقين. إن هذا الشارع لا ينتهي، ويمتد حتى نهاية العالم. لابد أنني أتيت مع جدتي - والدة أمي وهي ميتة الآن، إلى هذا الشارع واشترينا لعبة دوامة. فقد رأيت ابن الجيران يدورها ورغبت فيها، لكن ما كنا نشتري هذه الألعاب إلا في عيد الربيع، لأنه في الأوقات العادية، لا توجد هذه الألعاب وتقدم عروض لقرود مدربة وتعرض أغراض فنية عسكرية وتباع لصاقات من جلد الكلاب. أذكر أنني حضرت مرة واحدة إلى هنا لشراء تلك اللعبة. أما الآن، فقد مضى زمن طويل لم ألعب بتلك اللعبة التي تدور وتزداد سرعة دورانها حسب قوة الضربة. لكن لا أحد يبيع تلك اللعبة في هذا الشارع. البضائع المعروضة هي ذاتها دائماً. وكلها بضائع تافهة، وأتساءل: من يشتري من هذه المحلات؟ هل هم حقاً يمارسون التجارة؟ أليست لديهم أعمال أخرى أكثر احتراماً؟ إن هذا شبيه بما كان يجري منذ عدة سنوات خلت عندما كان الناس يلصقون على أبواب منازلهم مقتطفات من أقوال 'ماو' العجوز لتزيين الواجهات، بينما الآن، إنهم يعرضون البضائع أمام منازلهم.

لا أدري كم سرت وانعطفت حتى وصلت إلى شارع كبير، في هذه المرة، إنها محلات رسمية وحكومية، وجميعها مغلقة. البائعون الحقيقيون أنزلوا الستائر أمام المحلات والناس ما زالوا يجرون في الشارع. واعتدنا أن نرى الفتيات خصوصاً يسرن في الشارع بشفاه حمر وأحذية عالية تدق على الرصيف. يرتدين ثياباً مشدودة، ومبرقشة تكشف عن الكتفين والرقبة. هذه الثياب مستوردة من هونغ كونغ بواسطة التهريب. لا يبدو أنهن جميعاً سيذهبن إلى مرقص ليلي، لكن يبدو عليهن دائماً أنهن ذاهبات للقاء أحد ما.

عند التقاطع يزداد عدد الناس. ويبدو أن المدينة بكاملها قد انسكبت فيه، وهم يتوجهون فوراً إلى وسط ذلك الشارع الخالي بسبب السيارات وكأنما هذه الحارة قد بنيت خصيصاً لهم. عندما رأيت هذا التقاطع ومظهر البيوت، رحت أتساءل: هل وصلت إلى 'المنعطف الكبير' إنه مركز المدينة ذو الهضاب العالية، هكذا يسمى دائماً. لكن بينما نرى الشارع التجاري مضاءً بكامله، يخيم هنا الظلام. هل بسبب نقص الكهرباء، أم أن الموظف قد نسي الإنارة أثناء تبديل نوبته؟ تستحيل معرفة

ذلك. كنت أضطر للاقتراب من منزل مضاء حتى أستطيع قراءة اللوحة التي تحمل اسم الشارع.

إنه فعلاً "المنعطف الكبير"، مركز المدينة، حيث تجري الاحتفالات الرسمية والتظاهرات.

على الرصيف، كنت أسمع أصوات رجال في الظلام أثارت فضولي. اقتربت لأرى فوجدت بعض الناس يجلسون عند أسفل الجدار، متلاصقين مع بعضهم. انحنيت لأراهم عن كثب فوجدتهم مجموعة من الأشخاص المسنين فقط. كان عددهم حوالى المائة ولا يبدو أنهم في حالة مظاهرة، كانوا يضحكون ويغنون. كان أحدهم يضع فوق رجليه المغطاتين بقطعة قماش آلة كمان ذات وترين دون إيقاع مضبوط تصدر صوتاً مبحوحاً. كان هذا العازف العجوز أشبه بإسكافي يقوم بتثبيت نعل حذاء بالمسامير. وإلى جانبه ثمة عجوز آخر يستند إلى الجدار لا يكف عن ترديد لحن "عجائز النهار الخمس". ينشد حكاية امرأة شغوف تتلهف لحضور حبيبها الجاحد. وثمة صفان من بقية المسنين يصغون إليهم مسحورين. لا يوجد غير المسنين، ومن بينهم نساء عجائز متقوقعات على أنفسهن مثل الظلال. وكان صوت سعالهم يزداد قوة. بعض منهم كان يتحدث بصوت هادئ وكأنه يهذي أو كأنه يتحدث إلى نفسه. بينما كان صدى بعض الضحكات يدوّي عالياً، وعندما أصغيت جيداً، فهمت أن أحد الرجال المسنين يغازل إحدى العجائز. كانوا يتساءلون ويجيبون عن الأسئلة: كم جمعت من الحطب في الجبال يا أخي؟، كم زوجاً من الأحذية طرّزت يا أختي؟. كما يحدث في أغاني أهل الجبال عندما يغنون بشكل ثنائي لا شك أنهم يستغلون الظلام المخيم ليحولوا هذا المنعطف الكبير إلى مكان للغناء يشبه الأمكنة التي كانوا يرتادونها في شبابهم.

هل كانوا يحضرون إلى هذا المكان في الماضي من أجل الغزل. هنا زوج منهم ينشدان أغاني الحب، وهناك زوج آخر يثرثران ويقهقهان.

لم أفهم ما يقولونه ولم أفهم لماذا يضحكون، كانت أصوات صفير تسمع من أسنانهم الاصطناعية فلا أحد يفهم كلامهم غيرهم. ظننت نفسي في حلم، لكنني أنظر إلى ما حولي فأرى الناس المحيطين بي أحياء حقاً. وخزت نفسي فأحسست بألمي المعتاد، كل شيء حقيقي، أنا موجود فعلاً في تلك الهضاب العالية، أتيت من الشمال، وأنا الآن في الجنوب وغداً سأتسلم أول بريد في الصباح لأتابع صوب الجنوب إلى "هوانغ غوس هو". هناك سوف أغتسل تحت الشلالات وأنظف نفسي من هذا الانطباع الغريب، ولن يراودني الشك في حقيقة بيئتي أو في نفسي.

في الطريق إلى شلالات هوانغ غوس هو لا بد من المرور أولاً بـ 'لونغ وان'. وهو قارب للنزهة ملون يطفو فوق ماء راكد يُشبه مرآة عميقة، كان الركاب يتدافعون للصعود على القارب دون تفكير، ولم يلاحظوا المغارة الموجودة إلى جانب الجرف الوعر. عندما اقترب موعد الإقلاع بدأ الماء بالهدير لينساب باتجاه المركب. ومن المعلوم خطر الاقتراب من الشلالات عندما يكون الجبل ملتوياً. وقد يقترب القارب لمسافة ثلاثة أو أربعة أمتار من المغارة وكأنه يلهو لآخر مرة قبل أن يغوص في شقاء لا نهاية له. كل شيء يجري تحت ضوء الشمس. وعندما جلست في القارب لم أستطع أن أبعد الشكوك التي ساورتني حول الحقيقة.

على طول الطريق، يجري السيل الفائض مندفعاً يجر مياهه المزبدة، الجبال مستديرة والسماء الساطعة يخلبان الألباب، وتتلألأ سطوح المنازل بحجارتها المسطحة تحت الشمس، وتبدو الضواحي واضحة، وكأننا أمام رسومات ملونة ذات معالم واضحة، جلست في الحافلة التي ترتج على الطريق، وأحسست بانعدام الجاذبية، وشعرت بأني أحلّق بكامل جسدي دون أن أعرف إلى أين أطير. ولا أدري عماذا أبحث.

تقول إنك كنت تحلم وأنت تنام فوقها. قالت إن هذا صحيح. فمنذ لحظة كانت تتحدث إليك، لم تكن نائماً. قالت إنها كانت تداعبك وأثناء حلمك جسّت نبضك ربما لدقيقة واحدة، تقول إن هذا صحيح. فقد كنت تميز كل شيء، كنت تشعر بنعومة نهديها وتنفس بطنها. قالت إنها كانت تضمك إليها وجسّت نبضك. تقول إنك رأيت السطح الأسود للبحر يرتفع، السطح المستوي تماماً يهيج ببطء وبلا رحمة. انضغط الخط الفاصل بين السماء والبحر وتلاشى وغطى السطح الأسود المكان كله. تقول إنك نمت ملتصقاً على صدرها. تقول إنك أحسست بنهديها يرتفعان مثل موجة سوداء وأن المدّ أشبه برغبة تنتفخ، وتزداد انتفاخاً، وقلت إنك شعرت بشيء من القلق عندما كانت ستغمرك.

قالت: لقد كنت فوق صدري مثل طفل هادئ. كان نبضك هو وحده يتسارع.

قلت إنك أحسست بشيء من الانضغاط، وأن تلك الموجة التي كانت تعلو وتتمدد بشكل لايمكن ردّه صارت سطحاً مستوياً وواسعاً يتدفق نحوك دون أي موج، ناعمة وملساء مثل حرير أسود ينتشر إلى ما لا نهاية، كان الموج يتدفق ولا رادّ له، حتى تحول إلى شلال ماء أسود يخرج من نقطة غير مرئية توجد في الأعالي عند منارة لا يمكن دخولها، ولم يصادف في طريقه أية وعورة، قالت: كفاك حماقة! دعني أداعبك.

قلت إنك رأيت ذلك المحيط الأسود وأمواجه المتدفقة. ذلك السطح الذي ارتفع ليغطي المكان كله بلا رحمة. قالت إنك كنت فوق صدري. وأنا من أضمك بين ذراعي، وشممت عطري العذب وكنت تعرف أنهما نهداي، إنهما نهداي اللذين ينتفخان، قلت: أن لا . قالت: بلى، أنا التي ضممتك وأحسست بنبضك الذي يزداد قوة. قلت إنه في تلك الأمواج السوداء المتدفقة كان يسبح إنقليس رطب ولزج يشبه السهم لكنه غار فوراً في الموجة السوداء. قالت إنها رأته وأحست به. وبعد مرور الموج، لم يبق سوى سواقي لا نهاية لها تمتد لمسافة واسعة تطفو فيها حبات الرمل الدقيقة. وبعد انحسار المد فوراً لم تبق سوى فقاعات الزبد، عندها رأيتَ أجساداً بشرية سوداء، منهم من يجلس على ركبتيه، ومنهم من يتسلق، ومنهم يتلوى، جميعهم يلتفون، يتدافعون ثم يتشابكون من جديد، ثم يخيم صمت مطلق على السواقي الواسعة على حافة البحر، لا ضجة للرياح، يتشابكون مع بعضهم، ينهضون، يعاودون السقوط، وتمتزج بغموض الرؤوس والأرجل والأيدي والأقدام، يظنهم المرء فيلة البحر، لكنهم لا يشبهونها كثيراً، كانوا يتدحرجون وينهضون ويسقطون ثم يتدحرجون وينهضون ويسقطون. قالت إنها أحست بذلك فيك، كانت اختلاجاتك

عنيفة فهدأ نبضك، ثم تقطع النبض وعاودت الاختلاجات ثم هدأت. لقد أحسست بكل ذلك، قلت إنك رأيت أجسام حيوانات بحرية ذات مظهر بشري أو أجساد بشر ذات هيئة حيوانية، أجساداً سوداء وناعمة، تلمع قليلاً مثل حرير أسود، مثل فراء براق. كانوا يتلوون ويسقطون حالما ينهضون، كانوا يتدحرجون دون توقف متشابكين بشكل غامض لا ندري إن كانوا يتحاربون أو يتقاتلون، دون ضجة، لقد رأيتَ بوضوح فوق تلك البقعة السوداء القاحلة في البعيد حيث خمدت الريح تماماً، رأيتَ تلك الأجساد التي تتدحرج وتتمايل في صمت مطبق. قالت إنها كانت نبضاتك التي هدأت بعد اختلاجات عنيفة، ثم عاودت الخفقان ثم هدأت. قلت إنك رأيت تلك الأجسام الناعمة السوداء لحيوانات بحرية ذات مظهر بشري أو أجساد بشر ذات هيئة حيوانية يلمع فيها ضوء صغير مثل حرير أسود، مثل فراء براق، وكانوا يتلوون ويتدحرجون متشابكين بشكل غامض ولا يكفون عن ذلك يتضاربون أو يتقاتلون ببطء، بهدوء. لقد رأيتهم بوضوح، رأيتهم يتدحرجون متميزين من بعضهم، قالت إنك وضعت رأسك على جسدها ملاصقاً لنهديها مثل طفل وادع، كان جسدك مغطى بالعرق. قلت إنك كنت تحلم وأنت نائم فوقها. قالت إنهاكانت تسمع أنفاسك منذ هنيهة، قلت إنك رأيت كل شيء متميز وأنك رأيت أيضاً البقعة السوداء في البحر ترتفع وتسيل ببطء، ودون مقاومة، إنك شعرت بشيء من القلق، قالت إنك طفل أحمق وإنك لا تفهم أي شيء. بينما أنت تقول إنك رأيت كل شيء واضحاً ومتميزاً، كانت تتدفق هكذا، غطّت كل المكان، تلك الموجة السوداء التي لا حدود لها تتدفق بلا رحمة، دون ضجة، ناعمة مثل حرير أسود منشور، كانت تسيل مثل شلال ماء، أسود أيضاً، دون وعورة، دون زبد، لتغور مُسرعة في مغارة بلا قرار، لقد رأيتَ كل شيء، قالت إنها كانت تضمك إلى صدرها، كان ظهرك مغطى بالعرق. لقد شعرتَ بالقلق من ذلك الجدار الأسود العمودي واللزج الذي كان يسيل، شعرتَ بالقلق رغماً عنك وأنت تغمض عينيك، لم تكف عن الإحساس بوجوده لكنك تركته يسيل غير قادر على احتباسه، لقد رأيتَ كل شيء، ولم ترَ شيئاً، ذلك البحر المنحني، لقد سال منك شيء، ثم نهضت واقفاً، الحيوانات السوداء التي تتضارب أو تتقاتل كانت تتمايل دون توقف على المساحة القاحلة دون رياح. وضعت رأسك على صدرها. وأنت تحتفظ بذاكرتك بأدق التفاصيل المحفورة فيها، لكنك لم تتمكن من تكرارها. قالت إنها ترغب في جس نبضك مرة ثانية، إنها ترغب بذلك، تريد أيضاً تلك الحيوانات البرية ذات المظهر البشري الذين يتقاتلون، تلك المعركة الصامتة، مثل مذبحة، هذه الحيوانات الممتزج بعضها ببعضها الآخر بشكل غامض، والتي تتنقل على المساحة الراكدة ذات حبات الرمل الدقيقة، لم يبق سوى فقاعات. إنها ترغب في ذلك، ترغب فيه كثيراً. عندما تنحسر تلك الموجة السوداء. ماذا سيبقى على تلك المساحة؟

إنه قناع حيواني لوجه بشري منحوت من الخشب، له قرنان في أعلى الرأس، وقرنان آخران أصغر حجماً على جنبيه. ولا يدل القناع على شكل بقرة أو شكل خروف أليف. لا بد أنه لوحش مفترس، لأن هكذا وجه غريب وشيطاني لا يدل على رقة غزال. في مكان العينين، توجد حفرتان مستديرتان كبيرتان يحيط بهما انتفاخ. وتوجد فرضة عميقة تحت كل حاجب. الجبهة مدببة والأشكال المنقوشة فوق الحاجبين تبرز مكان العين، نظرة العينين فيها تترصد مثل عيني وحش بري يتربص بكائن بشري. وفي الحفرتين السوداوين لمكان العين البارز، يبدو بؤبؤ العين لمن يرتدي القناع وكأنه يرسل الشرر مثل نظرة حيوان مفترس، ويوجد هلالان في النهايتين المدببتين تم تفريغهما تحت العينين، وهما يزيدان في وحشية النظرة. أما الأنف والفم والوجنتان والفك السفلي فقد رسمت باتقان. ولا ننسى الفم، فهو فم عجوز أدرد حفرت جورته في وسط الذقن. الجلد جاف، والوجنتان بارزتان، وتبدو معالم الوجه واضحة وشديدة. إنه وجه رجل عجوز لكنه مفعم بالقوة. وعند تلاقي الشفتين، رسمت سنان معقوفتان بلون فولاذي تصعدان على جانبي الأنف. فتحتا المنخرين الفطساوان تعطي انطباعاً بالسخرية والازدراء. بعض الأسنان سقطت، ليس بسبب الشيخوخة، بل وضع مكانها أسناناً معقوفة. وعلى جانبي الشفتين المضمومتين، توجد حفرتان لاشك أنهما لإبراز الشارب مثل شارب النمر. إنه وجه بشري ينم عن ذكاء لكنه في الوقت نفسه مطبوع بوحشية الحيوان.

إذا نظرنا إلى أرنبتي الأنف وأطراف الفم والشفتين والخدين والجبهة وفرقة الحاجبين، يبدو لنا أن الرسام يعرف معرفة تامة تشريح هيكل الوجه البشري وعضلاته. وتظهر المبالغة في قرني الرأس فقط، بينما تدل عضلات الوجه المرسومة على شيء من التوتر. ولولا وجود شاربي النمر، لقلنا إنه وجه رجل بدائي عليه وشم يتضمن معرفة الذات ومعرفة الطبيعة معرفة كاملة في الفتحتين السوداوين لموضع العينين المستدير. إن وجود ثقبين عند ملتقى الشفتين يعبر في آن معاً عن خشية الطبيعة من الإنسان وعن احترام الإنسان للطبيعة. كما يعكس هذا الوجه بشكل تام خشية الإنسان من وحشية أقرانه ومن وحشيته الذاتية.

لا يستطيع الإنسان التخلص من هذا القناع، لأن في ذلك إسقاط لجسده وروحه. إنه يلتصق بجلده ولا يستطيع أبداً الاستغناء عنه، لكنه يقف أمامه مندهشاً أشد الإندهاش وكأنه لا يستطيع الاعتقاد أنه هو المقصود بالذات. إن استحالة

التخلي عن هذا القناع تسبب له أنواع العذاب. لأنه عندما يضعه يستحيل عليه نزعه لارتباطه، ولأنه فاقد إرادته الشخصية، حتى لو امتلكها، ليست لديه الوسائل للتعبير عنها، فيفضل عدم الإفصاح عنها. فالقناع يبقي هكذا على صورة رجل يتأمل نفسه حتى الأزل تأملاً في منتهى الدهشة.

حقاً! إنه تحفة فنية، وقد رأيته في أحد متاحف 'غي يانغ'. في ذلك الوقت كان المتحف مغلقاً بسبب أعمال تجديده. لكنني استطعت رؤيته بفضل رسائل توصية من أصدقاء لي وأشخاص آخرين أجروا إتصالاتهم وقدموا الذرائع حتى تكلّف معاون مدير المتحف عناء ذلك، وهو موظف لطيف جداً، سمين، يحمل في دائماً كوباً من الشاي. أعتقد أنه أحيل على التقاعد حالياً. فقد فتح لي مستودعين اثنين وسمح لي بالتجول بين الرفوف المليئة بالأشكال البرونزية والأسلحة ومختلف صنوف الفخاريات. كان ذلك رائعاً دون شك، لكنني لم أجد أي شيء يحفر في ذاكرتي إلى الأبد. طمعت في كرمه وكررت الزيارة. وأسرّ لي أن المستودعات كانت تعج بالمعروضات ولا يعرف ماذا أردت أن أرى. وفضل أن يترك لي الدليل حيث توجد صورة لكل غرفة.

وأخيراً وجدت ذلك القناع. قناع 'نيو'. مصنفاً بين الأغراض الدينية والخرافية، وبيّن لي أن تلك الأغراض ليست للعرض وأنني إذا رغبت برؤيتها يجب القيام ببعض الإجراءات. وعندما عدت لزيارة المتحف للمرة الثالثة، أخرج لي هذا الرجل اللطيف حقيبة معدنية كبيرة. وبدأ بإخراج الأقنعة واحداً تلو الآخر وأنا أمامه مشدوهاً.

يوجد حوالى عشرين قناعاً تمت مصادرتها في الخمسينيات لأنها أغراض خرافية. وأتساءل من قام بهذا العمل الجيد، لأنه لولا ذلك لحرقت تلك الأقنعة مثل حطب المدافئ ونجت بذلك من الثورة الفكرية، وحسب تقديرات أحد علماء الآثار في هذا المتحف، إنها قطع تعود إلى نهاية عهد 'الكينغ'. لكن، تلاشت جميع الألوان عنها، واسودت آثار البرنيق الصيني وفقدت لمعانها، على بطاقاتها كان يذكر مصدرها: مقاطعتي 'هوانغ بينغ' و 'تيان زهو' الموجودتين على المجرى العلوي لنهري 'وشوي' وكينغ شوي'، وهي منطقة سكانها من شعوب 'الهان' و'مياو' و'تونغ' و'توجيا'.

فعزمت على الذهاب إلى تلك المناطق.

في ضوء الصباح البرتقالي، وألوان الجبال الصافية والرطبة، والهواء النقي والواضح، لا يبدو عليك أنك أمضيت الليل سهراناً، إنك تضم كتفاً حلواً، رأسها مستند إليك. أنت لا تعرف إن كانت هذه هي الفتاة التي رأيتها في حلمك هذه الليلة ولم تعد تميز أيهما الحقيقية أكثر بين الاثنتين. كل ماتعرفه في هذه اللحظة هو أنها تتبعك بهدوء دونما اكتراث إلى وجهتك النهائية.

إنك لا تفكر، وأنت تسلك هذا الطريق الجبلي بعد أن ارتقيت منحدراً بالوصول إلى سهل فسيح مغطىً بشكل نهائي بحقول على هيئة مساكب. تنتصب فيه دعامتان لا بد أنهما شكلتا في الماضي باباً.

وعلى كل جانب ترقد بقايا أسود وطبول من الحجر. تقول إنه في الماضي كانت تعيش عائلة ذات شهرة كبيرة، تعبر ذات مرة الرواق فتصل إلى باحات، لا بد من أن هذا المسكن تبلغ مساحته واحد "لي"* طولاً لكنه الآن ليس سوى حقول رز.

كل شيء قد أُحرق عندما ثار التيبتيون وجاؤوا من مقاطعة Wuyi - ووبي، أليس كذلك؟ طرح هذا السؤال أثار ملابسة.

تقول أنت إن الحريق حدث في وقت لاحق. في الماضي كان السيد الثاني، حفيد ابن العائلة البكر، موظفاً كبيراً في بلاط الامبراطور. اشترك في أعمال تجارة الملح عندما سمي رئيساً لوزارة القصاص، (العقوبة). في الواقع، يجدر بنا القول، زيادة على مخالفته للقانون من أجل زجاجة خمر، كان الامبراطور بغبائه قد أسند اتهامات خائطة للطواشي (الخصيين). وكان ذلك الوزير قد خدعه بانغماسه في مؤامرة مدبرة مع عائلة الامبراطورة لاغتصاب العرش؛ أعقبها حجز على كل أمواله وإعدام كل أفراد أسرته. ففي مكان الإقامة، والذي تعداده ثلاثمائة نسمة، أبيد الرجال جميعاً حتى الأطفال دون السنة أيضاً، وأخذت النسوة للعمل خادمات. هذا تماماً ما نسميه إبادة السلالة. كيف قُدر لهذا البيت ألا يُدمَّر؟

بإمكانك أن تروي تلك الحكاية بشكل آخر. بحيث تأخذ في الاعتبار مجموع الأشكال الهندسية التي تشكل تلك السلحفاة من الحجارة السوداء لتصف المكسورة والتي تخرج من التراب وهذه الأبواب والطبول والأسود الحجرية. لعل هذا المكان كان في الماضي قبراً بدل أن يكون سكناً لعائلة. ولا بد من أنه كان لهذا القبر، في

---

* لي: مقياس صيني يساوي ٥٧٦م.

الماضي، ولمره البالغ ٥٧٦ متراً، مظهر مهيب أما الآن فإنه يتعذر علينا إثبات وجوده.

قام أحد الفلاحين في عهد الإصلاح الزراعي بنقل المسلة التي كانت منصوبة على ظهر السلحفاة وحوّلها إلى رحى بينما طمرت قواعد الأعمدة في مكانها لأن وزنها الكبير كان يمنع إعادة استعمالها أو نقلها من مكانها. إلا أنه بالتأكيد أن المدفون هنا ليس رجلاً من عامة الشعب ولا يجرؤ نبيل ريفي على مثل هذا البذخ حتى لو امتلك كثيراً من الأراضي. الأمراء والوزراء هم وحدهم يستطيعون ذلك.

إن من تتحدث عنه هو، والحق يقال مؤسس دولة. قام بعد تمرد زو يونز هانغ، بطرد التاتار؛ لقد ناضل لدرجة أن أحداً من رجاله لم يمت حقاً ميتة أجمل من ميتته. وحدهم الذين أظهروا مواهب متميزة يمكن لهم التمتع بجنازة لائقة إذا ما ماتوا فوق سريرهم. بالفعل كان الساكن القادم لهذا القبر يرى كيف أن الضباط المقربين للأمبراطور يختفون الواحد تلو الآخر. فانتهى به الأمر بعد أن تملكه الخوف أن يتجؤ على تقديم استقالته للامبراطور فكتب يقول: "يعم البلد الآن الأمن والشعب هادئ. إن رحمة الامبراطور واسعة جداً. يتسابق الوزراء والضباط إلى البلاط، أما أنا فلست سوى وزير صغير عديم الموهبة وعمري خمسون عاماً ولي أم عجوز أرملة أفنت نفسها في أداء الواجب، تعيش وحيدة في المنزل، لم يتبق من عمري مزيد من السنوات وأرغب في العودة إلى موطني لأخدم والدتي قليلاً". عندما وصلت الرسالة بين يدي الامبراطور كان كاتب الرسالة قد غادر عاصمة الامبراطورية. ولكن جلالة ابن السماء لم يستطع منع نفسه من الأسف وأمر بإعطائه هبة قيمة إضافة لذلك، وافق الامبراطور ووقع بخط يده أمراً يقضي بأن يدفن في قبر كبير بعد وفاته لكي تذكر فضيلته على مر الأجيال.

إن لهذه الطرفة رواية أخرى تبتعد كثيراً عما كان قد ذُكر في كتب التاريخ لكنها قريبة جداً من ((كتابة بخط الريشة)) عندما رأى ساكن القبر أن الامبراطور ألغى قدماء المحاربين بحجة ((تصحيح برنامج البلاط)) زعم أنه يتوجب عليه المغادرة للمشاركة بجنازة والده وترك منصبه ليلتجئ إلى الجبل. بعد ذلك اصطنع الجنون ولم يعد يرى أحداً. راودت الامبراطور بعض الشكوك، ولم يكن واثقاً، فأرسل موفداً عَبر الجبال والوديان ليصل إليه، لكنه وجد الباب مغلقاً، فدخل بالقوة لأنه مزود بأمر أمبراطوري. من يصدق أن رجلنا خرج على قوائمه الأربع وهو ينبح بقوة؟ بقي المفتش متشككاً فأمره باسم الامبراطور أن يبدل ملابسه ليعود إلى العاصمة. فبدأ رجلنا يستنشق براز الكلاب في زاوية الجدار ثم يبتلعها وهو يهز رأسه. لم يستطع

المفتش إلا أن يعود إلى البلاط ويقدم تقريره للامبراطور الذي غمرته الشكوك.

أمر الأمبراطور بعد موت الرجل بإقامة جنازة لائقة له. في الحقيقة، لم يكن براز الكلب سوى معجون من مسحوق السمسم والسكر كانت خادمته المفضلة قد أعدته له، ولكن كيف للأمبراطور أن يشك بذلك؟

عاش هنا أيضاً مثقف من القرية كان يبحث عن الشهرة والمجد. كان قد حاول اجتياز الامتحانات في الوقت الذي بلغ فيه سن النضج ثم انتهى به الأمر بعد الثانية والخمسين من عمره أن حصل على مكان آخر على لائحة الاستقبال. وكان ينتظر كل يوم بفارغ الصبر أن يعين في وظيفة. من يصدق أن ابنته التي ما تزال عزباء، قد غازلت شقيق زوجته ثم حملت منه؟ اعتقدت هذه الطفلة الخرقاء أن ترياق الثور يمكن أن يسبب الإجهاض فحصل لها مغص وإسهال استمر شهرين كل يوم كانت تزداد نحولاً بينما بطنها ينتفخ. اكتشف أهلها أخيراً وضعها فانقلب البيت في الحال. ولإنقاذ سمعتهم قام الرجل العجوز بتقليد الطريقة التي كان الأمبراطور يستخدمها بحق الوزراء والأبناء المتمردين وهي تنفيذ الإعدام. فلم يتردد بوضع ابنته المتسربلة بالعار في نعش خشبي. أثار الأمر ضجة سريعة بلغت حاكم المقاطعة الذي خاف أن يفقد منصبه الرفيع الذي بذل دمه لأجله بسبب الممارسات غير المستقيمة لهذه المنطقة، فأراد أن يكون قدوة حيث نقل الخبر إلى الولاية التي نقلته بدورها إلى البلاط الأمبراطوري.

نسي الأمبراطور الذي كان يهتم بأشيائه المفضلة، منذ زمن طويل شؤون البلاط، لكنه أحس ذات يوم بدنو الأجل، فأراد أن يشارك شعبه بمشاعره، فأحضر له الوزير هذه الحكاية مثالاً يمكن أن يجعله يتأوه لأنه رجل حساس. فقال الأمبراطور: ((هذه عائلة تعرف جيداً ممارسة الشعائر)). هذه الكلمات أصبحت في الحال توجيهاً امبراطورياً. ونُقلت إلى الولاية حيث أضاف الحاكم عليها هذه الملاحظة: يجب أن تنقش تلك التوجيهات حالاً على لوحة وتذاع على كل السكان دون أي تأخير. ثم وصلت إلى حاكم المقاطعة بالبريد السريع الذي لم يتردد في ركوب هودج مصحوباً برجاله الذين يقرعون الصنج طول الطريق. ثم جثا على ركبتيه ليتلقى التوجيهات الصادرة عن الأمبراطور. كيف لهذا العجوز المثقف الفاسد أن يستحوذ على دموع العرفان؟ فأبلغه الحاكم أوامر صارمة: ((إن التوجيهات الصادرة عن ابن السماء تساوي أكثر من ألف أونصة ذهبية، هيا بسرعة لتبني رواقاً للشرف وانقش العبارة عليه كي لاتُنسى أبداً. إن هذا الحدث المشرف سيجلب الشرف لأجدادك وسيحرك السماء والأرض!)) استقرض العجوز عشرات الآلاف من مكاييل الرز،

واستأجر نقاشي حجارة، وراقب عملهم نهاراً وليلاً. بعد ستة أعوام نُقش الرواق بشكل دقيق وأنجز قبل الانقلاب الشتوي. ومن أجل تدشينه أقام العجوز وليمة كبرى لكل جيرانه وأجرى في نهاية العام حساباته. لقد كان مديناً بأربعين أونصة فضية وبمئة وستين قطعة ذهبية. انتهى به الأمر أن أصابه البرد فسقط مريضاً، لم ينهض من المرض إلى أن مات قبل مواسم الربيع.

ينتصب الرواق التذكاري دائماً عند مدخل القرية ويقوم الرعاة الصغار الكسولون بربط ثيرانهم به. مع ذلك، لم تكن النقوش الأفقية ما بين الدعامتين تبدو ملائمة لرئيس اللجنة الثورية حين أتى ليفتش في هذه الجبال فأمر رئيس مجلس القرية أن يستبدلها بأحد الشعارات: ((لتأخذ الزراعة مثالاً لهامن دازهاي))[1]. واستبدلت الحكمتان المكتوبتان علىجانبي الدعامة واللتان تقولان: ((منذ الأزل، ينتقل الإخلاص وبر الوالدين من الآباء إلى الأبناء)) ((ستنتشر إلى الأبد الشيجينغ والشوجينغ في العالم.)) لتكونان: ((لنزرع الأرض من أجل الثورة بلا أنانية ومن أجل خير الجميع)) من كان يعرف آنذاك أن نموذج دازهاي سيكون موضع تهمة وأن الأرض ستعود للفلاحين؟ حالياً، كثيراً مايعملون وكثيراً ما يريحون. ولا أحد عاد يفهم معنى تلك الشعارات.

إضافة إلى ذلك، كونت سلالة تلك العائلة جميعها ثروة من التجارة؛ من منهم سيكون لديه الوقت ليعود من أجل تغيير هذه الشعارات؟

خلف الرواق، وعند باب المنزل الأول جلست امرأة عجوز. إنها تسحق شيئاً ما في هاون خشبي. بجانبها كلب أصفر يشم بكل حواسه. تلوح العجوز بحدقتها وتشبع الحيوان شتيمة: ((اذهب من هنا، هيا اذهب!)) أنت على أية حال، لست كلباً. ستتابع تقدمك لتخاطبها:

- إذن، أيتها العجوز، هل تصنعين فطيرة محشوة بالجبنة الحارة؟

دون أن تجيب، تلقي عليك نظرة وتعاود هرس فلفلها الطازج.

- اعذريني، أيوجد بالتأكيد مكان هنا اسمه صخرة الروح؟

أنت تعرف تماماً أنه من العبث سؤالها عن مكان بعيد مثل جبل الروح، أنت ستشرح لها أنك أتيت من قرية موجودة في الأسفل، قرية عائلة مينغ وأن أحداً ما قد كلمك عن صخرة الروح هذه.

---

(١) منذ عام ١٩٦٤ حتى ١٩٧٧. كان نموذج التطور الزراعي لفرقة إنتاج دازهاي في شانكسي يعد مثالاً لكل البلد من خلال الفلاحين الذي يقدمون أقصى مالديهم. تم التخلي عن ذلك عندما أقام دينغ زياو بينغ منذ عام ١٩٧٨ سياسة مناقضة تماماً.

إنها ستترك عملها وتتفرس بك، بالواقع إن صديقك يمتحنك ثم تدير رأسها وتسألك بلهجة شديدة الغموض:

- أنت تبحث عن الحصول على طفل، أليس كذلك:

تسحبك خفية من يدك، لكنك تسألها دون أن تفهم:

- أية علاقة توجد بين تلك الصخرة وبين الحصول على طفل؟

- أية علاقة؟ تصرخ هي بصوت ثاقب. النساء هن اللواتي يذهبن إليها دائماً. يذهبن لإحراق البخور عليها عندما لا يستطعن الحصول على صبي!

ثم تبدأ بالقهقهة كما لو أن أحداً ما يدغدغها.

- وهذه المرأة الشابة هل تريد الحصول على صبي؟

تتجه العجوز نحوها بهيئة عدائية.

أنتِ تشرحين له.

- نحن نسافر، نذهب إلى كل مكان تقريباً.

- لكن ماهو المهم هنا؟ الايام الماضية تلك كانت متشابهة. كثير من الأزواج أتوا من المدينة فقلبوا القرية رأساً على عقب.

لا تستطيع أن تمنع نفسك عن السؤال:

- ماذا جاؤوا يفعلون؟

- كانوا يحملون علبة كهربائية كانت تضيء هناك في الداخل ويرن صوتها في أرجاء الجبل كله. وعلى اللحن الصاخب كانوا يضمون بعضهم بعضاً ويتنافسون على التمايل بأردافهم. شيء مخجل!.

- حسناً، هل كانوا يبحثون أيضاً عن جبل الروح؟

أنت تبدو مهتماً أكثر فأكثر.

- جبلك جبل المصيبة! لقد قلت لك سابقاً، تذهب إلى هناك النسوة الراغبات في الولد ويحرقن البخور.

- لماذا لا يستطيع الرجال الذهاب إليه؟

- إن كنت لا تخشى النحس، تستطيع الذهاب إليه.

هل هي تمنعك من ذلك؟

لا تزال تشدك، لكنك تقول أنك لا تفهم شيئاً أبداً.

- ستكون ملطخاً بلون الدم!

أنت لا تعرف إن كانت العجوز تحميك أم تلعنك.

- هي تقول أن ذلك محرم على الرجال.

هي تريد تبرير ما تقوله العجوز.

أنت تقول أنه لا توجد محرمات.

- هي تريد الكلام عن دم النساء الطمثي، تهمس في أذنك وكأنها تريد أن تحرضك على المغادرة.

- حسناً،ماذا يوجد مع دم النساء الطمثي؟

أنت تقول أنك تسخر من هذا الدم.

- هيا لنرى ماذا تكون صخرة الروح هذه.

تقول هي أن هذا يكفي وأنها غير راغبة في الذهاب إليها. تسألها أنت مم تخاف، فتقول لك أنها خائفة من كلام المرأة العجوز.

- كيف يمكن أن توجد ممارسات كهذه؟

هيا! تقول لها أنت.

وتسأل العجوز عن الطريق.

- هذا شر، إنك ستجلب الشياطين.

المرأة العجوز خلف ظهرك. لا بد أنها اللعنات هذه المرة.

تقول هي أنها خائفة، وأن لديها مايشبه الإحساس المسبق. تسألها أنت إن كانت خائفة أن تصادف ساحرة. وتضيف أنه في هذه القرى الجبلية، كل النساء العجائز ساحرات والشابات إناث ثعالب.

- وأنا أيضاً؟ تسألك.

- لماذا؟ أنت ألست امرأة؟

- وأنت، أنتَ شيطان، قالتِ هي كي تنتقم لنفسها.

- في أعين النساء، كل الرجال شياطين.

- إذن، أنامع شيطان؟ تسألك وهي ترفع رأسها نحوك.

- الشيطان يصطحب أنثى ثعلب. تقول أنت.

تضحك هي ضحكة فرحة. لكنها ترجوك من جديد أن لاتذهب. هناك.

- ماذا سيحصل لو ذهبنا؟ تسأل وأنت تقف.هل سنجلب المصيبة؟

هل سنسبب كارثة؟ ماذا يوجد لنخشاه؟

قالت وهي تلوذ بك إنها تشعر بالاطمئنان عندما نكون معك. لكنك تلاحظ أن ظلاً يمر في داخلها. وأنت تحاول جاهداً أن تزيله حين تتكلم بشكل قوي جداً.

لا أعرف إن كنت قد فكرت بهذا الشيء الغريب الذي هو الأنا. إنه يتغير أولاً بأول بصورة ملحوظة كما هو الحال عندما تثبت نظرك على الغيوم في السماء وأنت مضطجع فوق العشب، فهي تشبه في البداية جملاً ثم امرأة لتتحول في النهاية إلى عجوز ذي لحية طويلة.

إذن لاشيء ثابت ما دام شكله يتغير في لمحة عين أيضاً.

والأمر هو نفسه عندما تذهب إلى أماكن الغسيل في منزل عتيق وتلاحظ الجدران الملطخة. أنت تذهب إليه كل يوم، لكن الآثار تتغير رغم قدمها في كل مرة. ففي المرة الأولى، تميز وجهاً إنسانياً، ثم كلباً ميتاً وأحشاؤه خارجاً. وفي المرة التالية، تتحول الآثار إلى شجرة تحتها بنت صغيرة تمتطي حصاناً هزيلاً. وبعد عشرة أو خمسة عشر يوماً أو ربما عدة أشهر، تكتشف فجأة في صباح جميل وأنت حائر أن آثار الماء أخذت شكل وجه إنسان.

تنظر إلى السقف وأنت مضطجع فوق سريرك، فترى أن ظل المصباح يغير السقف الأبيض أيضاً. ستلاحظ إذا ما ركزت انتباهك على ((أناك)) أنه يبتعد شيئاً فشيئاً عن الصورة المألوفة لديك، وأنه صار خفيفاً ويرتدي وجوهاً تدهشك. من أجل ذلك، سأعيش رعباً لا حدود له لو اضطررت للتعبير عن طبيعة جوهر ((أناي)). إني لن أعرف بأي وجه من وجوهي العديدة سأقدم نفسي بأفضل ما يمكن. كثيراً ما ألاحظها وكثيراً ما تبدو لي تغيراتها جلية. ولا تبقى في النهاية إلا المفاجأة.

بإمكانك الانتظار أيضاً، انتظار عودة آثار الماء إلى شكلها الأصلي لتصبح وجه إنسان، تستطيع أيضاً أن تتوقع، تتوقع أن تأخذ صورتُك شكلاً ما. ولكن تجربتي تؤكد لي أنه كلما نفذ الوقت أكثر، قَلَّ تغير هذه الصورة وفق رغباتك بل الأمر على العكس من ذلك تماماً، فغالباً ما تصبح الصورة مخفية، ولن تستطيع بعد ذلك قبولها وسوف تنفصل عن آناك. لكنك بالنهاية مرغم عليها.

ذات يوم، راقبت صورتي الملصقة على بطاقة الحافلة الموضوعة فوق الطاولة. وجدتها في أول الأمر تحمل ابتسامة محبوبة، ثم وجدتها أكثر سخرية، متعالية وباردة قليلاً. وتدل على حب صاف يمتزج برضىً عن النفس لا بأس به. مما يدل على أنني اعتبرت نفسي شخصاً متميزاً. في الواقع، أدركت فيها نوعاً من التصنع المترافق بتعبير عن العزلة البالغة والرعب المنتشر؛ لم يكن ذلك الوجه مطلقاً وجهاً

رابحاً. لقد قرأت فيه المرارة. لا يمكنه بالتأكيد أن يجد فيها الابتسامة الغامضة المعتادة التي وليدة السعادة اللاإرادية. كان بالأحرى تعبيراً عن الشك بالنسبة للسعادة. وأصبح ذلك مرعباً إلى حد ما، وعبثي. إنه شعور بالسقوط دون هدف. ماعدت أرغب أن أرى ثانية تلك الصورة.

راقبت، بعد ذلك، وجوه الآخرين، لكنني اكتشفت عندها أن هذه ((الأنا)) المكروهة والحاضرة في كل مكان.

لا تحتمل إلا أن تتدخل في إحساس وجوه الآخر. كان ذلك مؤسفاً: لما راقبت شخص آخر، استمريت في مراقبة نفسي. ورحت أبحث من جديد عن وجوه كنت أحبها، أو عن تعبير كنت أستطيع قبوله. فإن لم تستطع أحد الوجوه إثارة مشاعري، وإن لم أستطع إيجاد أشخاص أو أناس أتوحد معهم بين أولئك الذين يمرون أمامي، كنت أراقبهم دون أن أراهم. راقبتهم في عربة قطار أو فوق مركب أو في مطعم حقيراً أو في حديقة عامة، أو حتى في نزهة في الشارع، كنت لم أجد منهم إلا تلك الوجوه أو الأشباح القريبة من أولئك الذين اعتدت عليهم والذين كنت أبحث فيهم عن شيء يستطيع أن يبعث من جديد ذكرى نائمة. عندما أراقب الآخرين آراهم مثل المرايا التي تعكس لي صورتي الخاصة بي وتعتمد هذه المراقبة حتى عندما أنظر إلى فتاة شابة أبحث عن امتلاكها بحواسي الخاصة، أتخيلها بتجربتي الخاصة قبل أن أصيغ حكماً عليها. إن فهمي للآخرين بما فيهم النساء، هو في الواقع سطحي واعتباطي، في نظري، ليست النساء سوى أوهام اخترعتها بنفسي وأستخدمها لأخدع نفسي بها. وهذا ما يشقيني. لهذا السبب، تنتهي علاقاتي بالنساء دائماً إلى الفشل. وبالمقابل، لو كنت امرأة لوجدت مشقة كبيرة في الاتصال مع الرجال. إن المشكلة تكمن في استعادة الوعي الداخلي ل((أناي)) هذا الوحش الذي يعذبني بلا توقف. إن الحب النظيف، والتدمير الذاتي والتحفظ والكبرياء فالأنا والرضا والحزن والغيرة والكراهية تصدر عنه، هو في الواقع منبع شقاء الإنسانية. فهل يجب أن يكون حل تلك المصيبة عبر خنق ((الأنا)) الواعية؟

لأجل ذلك علَّمَ بوذا التنبه: إن كل الصور أكاذيب، وغياب الصورة أكذوبة أيضاً.

تقول أنها بالفعل ترغب بأن تعود إلى طفولتها، ذلك الزمان الذي كانت فيه لا تعرف صعوبات ولا هموم. فعندما كانت تذهب إلى المدرسة كل يوم كأن جدة لأمها تصنع ضفيرتيها الطويلتين الذهبيتين لا متراصتين ولا رخوتين كثيراً. الكل كان يقول أنها كانتا جميلتين جداً. بعد وفاة جدتها، قصت شعرها قصيراً جداً وبإرادتها، تعبيراً عن احتجاج الحراس الحمر. في ذلك الوقت، كان والدها رهن التحقيق، انفصل عنها وعن والدتها وحبس في بناء كبير مكان عمله. ولم يكن يملك الحق في العودة إلى المنزل، أمها كانت تحضر لها كل أسبوعين ملابسها الداخلية للتبديل. ولا تسمح مطلقاً أن تذهب لتراه. ثم طردت هي ووالدتها إلى الريف ولم تكن حينذاك مؤهلة لتكون من الحرس الأحمر. تقول أن الزمن الذي كانت فيه ذات ضفائر طويلة هو أسعد الأزمنة لديها. جدتها كانت تشبه قطاً عجوزاً ينام دائما إلى جانبها وتشعر بالأمان قربها. وتقول أيضاً أنها الآن عجوز وقلبها عجوز ولم تعد تشعر بكل بساطة بأي نوع من الاضطراب للأشياء الصغيرة. كانت في الماضي قادرة على البكاء دون أي سبب. دموعها كانت غزيرة ونابعة مباشرة من القلب من غير جهد، لقد كانت تشعر بأنها أفضل بكثير من الآن. تقول أنه كانت لديها صديقة منذ نعومة أظافرها اسمها لينغ لينغ. صديقة محبوبة جداً لها غمازتان في وجنتيها المدورتين تراهما حين تنظر إليك. أما الآن، فقد أصبحت أماً تعاني. وأصبحت لهجتها بطيئة ومملة كمن يتحدث وهو نائم. في حين كانت لا تهدأ عن الثرثرة في شبابها، كانت مثل عصفور الدوري. كانت تقول أي كلام دون أن تتوقف للحظة، كانت تقول أنها تريد الخروج ولكنها حزينة بسبب المطر، كانت تجعلك تشعر بالآختناق وبالفعل، قد تشعر بألم شديد في الرقبة وتسعل دون أن تعرف هي لماذا.

ذات مساء صيفي، جلستا معاً على ضفة بحيرة وبدأتا تتأملان الليل. قالت أنها ترغب أن تنام على صدرها فأجابتها أنها ترغب في أن تمثل لينغ لينغ التي تمثل دور الأم الصغيرة، وقبل أن يبزغ القمر، بدأتا تثيران ضجيجاً وتنفجران بالضحك. الليل كان رمادياً - أزرقاً، طلع القمر، ما أجمل الضياء الذي كان ينسكب منه. لقد سألتك إن كنت قد رأيت هذا النوع من المناظر وهذا النور المنسكب بشكل حلزوني لينتشر على الأرض وكأنك تواجه ضباباً يدور. تقول أنهما سمعتا أيضاً ضجيج ضوء القمر عندما مر من خلال أغصان الأشجار والذي يشبه أعشاباً مائية تتموج مع جريان

الماء. لقد بدأتا بالبكاء. جرت دموعهما مثل ماء النبع وضوء القمر كانت الفتاتان سعيدتين، لقد أحست جيداً بشعر لينغ لينغ تحيك في وجهها. كان وجهاهما ملتصقين ببعضهما، لذلك أحست بوجه لينغ لينغ الحار. يوجد نوع من أزهار اللوتس العادي وأكبر بقليل من النيلوفر، له مدقات صفراء ذهبية تضيء في الظلام. بتلاته وردية تشبه الودك (شحم الأمعاء) أي مثل أذني لينغ لينغ الورديتين عندما كانت صغيرة ولكن مع قليل من الزغب. تلمع مثل ظفر إصبعها الصغير، أه، في ذلك الوقت كانت ترسل ظفر إصبعها الصغير مثل محارة، ولكن لا، هذه القبلات الوردية لم تكن تلمع أبداً، إنها سميكة مثل أذن وتتفتح ببطء وهي ترتعش.

قلتُ أنك رأيت من ذلك أيضاً، أنك رأيت هذه التبلات تتفتح مرتعشة وفي وسطها مدقات وبرية صفراء ذهبية تهتز. هو ذلك، قالت هي. لقد أمسكتُ يدها، أوه قالت: لا يجب ذلك، هي تريدك أن تستمر بالإصغاء إليها. تقول أنها كانت جادة وأنت لم تعمل حساباً لذلك. هل تريد أن تعمل حساباً لذلك؟ أنت لا تريد أن تفهمها؟ هي تقول أن تلك الخطورة مثل الموسيقا المقدسة.

هي تقدس العذراء، صورة العذراء مع طفلها، الجفنين المنخفضين، اليدين الملتئتين حناناً ذوات الأصابع الدقيقة. هي تقول أنها تأمل أيضاً أن تصبح أماً وتمسك بين ذراعيها كنزها الصغير، هذا اللحم الحي والطري الذي يرضع الحليب من صدرها. إنه إحساس صاف، هل تفهمه أنت؟ أنت تقول أعتقد أني أفهم. حسناً، إن كنت لا تفهم ذلك أبداً يعني فعلاً أنك غبي!، كما قالت هي.

تقول أنه توجد طنافس سميكة معلقة الواحدة تلو الأخرى، وعندما نتقدم خلالها، يراودنا انطباع أننا ننزلق. لدى الابتعاد برفق عنها نرى مخملاً أخضر غامقاً، عندما نسير خلالها، لا نرى أحداً ولا نسمع ضجة، القماش يمتص الأصوات، لا توجد هناك إلا موسيقا قادمة من نبع رقراق مليء بالعذوبة؛ هناك تمر وتظهر مثل ضوء خافت.

تقول أنه كان لديها عمة جميلة جداً تتنقل أمامها دائماً داخل البيت وهي ترتدي فقط حاملة نهدين صغيرة وسروال داخلي صغير جداً. كانت ترغب دائماً بأن تلمس فخذيها اللامعين لكنها لا تزال صغيرة وهزيلة. وكان لها أصدقاء كثر وكانت تتلقى دائماً رسائل حب كثيرة في وقت واحد. إنها كانت ممثلة وكثير من الرجال كانوا يلاحقونها بملاطفاتهم ويزيد من إلحاحهم عليها بشكل عنيف لكنها بالحقيقة كانت تحب ذلك. تزوجت فيما بعد بضابط كان يراقبها بدقة، فإذا عادت متأخرة قليلاً كان يسألها وأحياناً يضربها. تقول أنها في ذلك الزمن لم تكن تفهم لماذا لم تترك

عمتها ذلك الضابط ولا كيف كانت عمتها تحتمل هذا الذل.

وتقول أيضاً، أنها أحبت مدرساً، إنه مدرس الرياضيات، أوه، إن ذلك لا يتعدى كونه إحساس بنت صغيرة. لقد أحبت صوته في الدرس، بالرغم من أن مادة الرياضيات منفرة وبلا طعم. فقد أحبت صوته وكانت تحل وظائفها بعناية فائقة. ذات يوم، لم تحصل إلا على تسع وعشرين درجة من مئة درجة في الامتحان، مما جعلها تغرق بالدموع وتصرخ في منتصف الدرس أثناء توزيع الأوراق بصوت مخنوق عندما رأت ورقتها. استعاد المدرس ورقتها وهو يقول أنه سيعيد النظر فيها، ثم أضاف لها بضعة علامات، فقالت أنها لا تريدها، كلا إنها لا تريدها ورمت ورقتها على الأرض. وأمام رفاق صفها جميعاً لم تستطيع أن تمنع نفسها من البكاء بمرارة. لقد كانت بالطبع في موقف مخجل جداً وتبع هذا الأمر، لم تعد تعره انتباهها ولم تعد تدعوه استاذها. وبعد انتهاء عطلة الصيف لم يعد ذلك المدرس إلى صفها، ولكنها لا تزال تفكر، فهي أحبت صوته، ذلك الصوت المليء بالشرف والبساطة.

- ٢٨ -

ما بين شيغان وجيان كو، كان ينتصب على الطريق حاجز من الحبال الحمر. حافلة صغيرة تقف في وجه ناقلة البريد الطويلة التي أسافر فيها. يصعد رجل وامرأة يرتديان شريطة ساعد حمراء إلى الحافلة. إن من يضع تلك الشريطة الحمراء، يصبح في موقع خاص يتباهى به بشكل مرعب. اعتقدت أنهم يبحثون عن أحد ما ولكن لحسن الحظ، كان الأمر يتعلق بمراقبة التذاكر التي ينجزها المفتشون المكلفون بمراقبة الطرق العامة.

كان السائق قد فتش على التذاكر بعد قليل من انطلاقه من الموقف الأول. أراد أحد الفلاحين أن يتسلل، لكن سلته علقت في الباب الذي أغلقه سائق الحافلة في الزمن المحدد. فكان مرغماً على دفع عشرة يوان للسائق بدوره بالتشائم، داس السائق بملء قوته على دواسة الوقود ثم انطلق مجبراً إياه على القفز في الحفرة. في تلك المناطق الجبلية حيث السيارات قليلة، يضيع إمساك مقود السيارة السائق أحياناً ضمن لائحة الأموات ويجعل المسافرين ينظرون إليه نظرة اشمئزاز واضحة.

عاد الرجل والمرأة للتأكد من البطاقات.

انتزع الرجل تذكرة من أحد المسافرين وأمر السائق مهدداً بإصبعه:

- انزل، انزل!

نفذ السائق الأمر بلا تردد. قدمت له المرأة مخالفة بقيمة ثلاثمائة يوان تعادل ثلاثة أضعاف التذكرة التي لم تنتزع أرومتها. إن أي شيء يخضع لإرادة شيء آخر، هذه القاعدة لا تطبق إلا في الطبيعة ، ويوجد منها أيضاً عند الإنسان.

في أول الأمر، يبرر السائق موقفه وهو واقف قرب الحافلة قائلاً أنه لا يعرف هذا الراكب وأنه لا يستطيع أن يبيع بطاقته ثانية. ثم ارتفع الصوت. لم يقبل المفتشان تبريره ورفضوا أقل تنازل، قد يكون السبب هو أن أجرة السائق مرتفعة أكثر من مكانتهم التي يحتلونها بفضل وضعهم بهذا المنصب أو بسبب الأبهة التي تمنحهم إياها تلك الشريطة. حاول السائق بشتى الطرق ثم اتخذ هيئة مثيرة للشفقة ورجاهم بشكل مؤثر. مضت ساعة على هذا النحو دون أن تنطلق الحافلة. نسي السائق المخالف والمفتشون أن الركاب المحجوزين في الحافلة محكوم عليهم أن يحترقوا تحت شمس ساطعة. تحول الاشمئزاز العام من السائق شيئاً فشيئاً إلى حقد على ذوي الشريطات الحمر. أصبح الركاب ينقرون على النوافذ معلنين

احتجاجهم. أدركت المرأة ذات الشريطة الحمراء إنها هي المقصودة باحتجاج الركاب. فسارعت إلى قطع المخالفة ووضعتها في يد السائق. وحرك الرجل المفتش راية صغيرة. وصلت سيارتهم التي سرعان ماركبوا فيها واختفوا بعيداً.

لكن السائق المتربع فوق التراب. رفض أن يرفع رأسه إلى نوافذ الحافلة، فحاول الركاب مساندته. ثم بدؤوا بعد انقضاء نصف ساعة يفقدون صبرهم وأصبحوا يشتمونه. صعد عند ذلك ثانية رغماً عنه إلى حافلته.

عبرت الحافلة حتى وصلت تماماً إلى نهاية طريق عندما توقفت من دون سبب لدى عبور إحدى القرى. فتحت الأبواب الخلفية والأمامية بضوضاء وقفز السائق من مقصورته معلناً:

الكل ينزلون! سنتوقف، يجب أن نملأ خزان الوقود.

ثم ابتعد. بقي الركاب في الحافلة يرغون ويزبدون، ونزلوا بعد ذلك الواحد تلو الآخر نظراً لأن أحداً لم يهتم بهم.

على حافة الطريق، ثمة مطعم صغير ودكان للتبغ والكحول، أمامها واقية قماشية تتدلى للحماية من الشمس، يبيعون فيها الشاي.

كانت الشمس قد مالت حينذاك. لكن الحر الشديد لا يزال يسيطر تحت تلك الواقية. كان لدي الوقت لشرب قدحين من الشاي البارد.

الحافلة لم تكمل بعد ملء الوقود. اختفى السائق، وحتى الركاب الذين كانوا تحت الظل أو تحت الأشجار أو تحت الواقية اختفوا بدورهم بطريقة غريبة.

دخلت إلى المطعم الصغير للبحث عنهم لكنني لم أجد سوى طاولات مربعة ومقاعد فارغة. لم أدرك بالفعل أين ذهبوا! أخيراً وجدت السائق في المطبخ وأمامه على الطاولة طبقان كبيران من الخضار المقلية وزجاجة من الكحول. السائق يثرثر مع مالك المطعم.

اتجهت نحوه وسألته بلهجة ودية:

- متى ستنطلق الحافلة:
- غداً صباحاً، في الساعة السادسة.
- ولمَ ذلك؟
- ألا ترى أنني شربت كحولاً؟
- لست أنا من ألصق لك مخالفة. لاينبغي أن تنقم على الركاب إن كنت غاضباً. ألا تفهم ذلك؟

حاولت أن أمسك نفسي.

- عندما يقود الإنسان بعد شرب الكحول سيتعرض لمخالفة، أنت تفهم هذا، أليس كذلك؟

كانت تفوح منه بالفعل رائحة الكحول وهو يظهر بهيئة وقحة تماماً. كان يتملكني غضب ما حين أرى عينيه الصغيرتين تحت جبينه المتجعد عندما يمضغ طعامه، ورغبت لو أنني كسرت الزجاجة على رأسه. ثم خرجت بسرعة من المطعم.

عند عودتي إلى الطريق أمام الحافلة، تحققت من الفوضى الذي يعيشها هذا العالم السفلي؛ لو لم أركب تلك الحافلة لتجنبت هذه المضايقات، ولما رأيت سائقاً ولا ركاب ولا مفتشين ولا مخالفة؛ المشكلة الآن هي في إيجاد مكان من أجل النوم.

عدت إلى تحت الواقية حيث يقدمون الشاي فوجدت هناك أحد الركاب.

- هذا العاهر، سائق الحافلة، لن ينطلق ثانية.
- أعرف.
- أين ستقضي الليلة.
- أنا أبحث أيضاً.
- أين ذهب الركاب الآخرون؟

قال لي أن الكل في الركن، هم يعرفون أين يذهبون ولا يهتمون قط للزمن نقصان يوم أو زيادة يوم لا أهمية له لديهم. بينما هو قد أتى من حديقة الحيوان في غوي يانغ التي وصلها برقية من مقاطعة يين جيانغ يحذرون فيها أن سكان الجبل قد أسروا حيواناً برياً غير معروف. وينبغي عليه أن يصل هذا المساء ليلتقي حاكم تلك المقاطعة وينطلق في صباح الغد إلى الجبل. إنه يخشى إن وصل متأخراً أن يكون الحيوان قد نفق.

- دعه يتمزق، قلت له، ألا تخشى مخالفة؟
- كلا، أنت لا تفهم شيئاً في ذلك.

قلت له أنه لا توجد وسيلة في هذا العالم تجعلنا نفهم أمراً مهما يكن.

قال بأنه يتحدث عن حيوان مجهول وليس عن العالم.

سألته إن كان حقاً يوجد فرق كبير بين هذا العالم وبين حيوان مجهول.

عند ذلك أظهر لي البرقية التي نقرأ فيها: ((فلاحوا المقاطعة أسروا حيواناً غير معروف، أرسلوا بسرعة شخصاً من أجل التحقيق)).

ثم شرح لي كيف تلقت حديقة الحيوان عندهم اتصالاً يعلن عن اكتشاف سمندل

عملاق يزن حوالي خمسة وعشرين كيلو غرام قذفته مياه نهر جبلي وكيف أنه عندما أرسلوا شخصاً لم يجده ميتاً فحسب بل أن الفلاحين كانوا قد تقاسموا لحمه؛ ولم يعد بالإمكان العثور على الجثة وبات من المستحيل أن نحتفظ بعينة منه. وعليه الآن أن يتابع طريقه عن طريق إيقاف سيارة عابرة ((أوتوستوب)) من أجل الوصول.

رافقته زمناً لا بأس به. مرت عدة شاحنات، لوح ببرقيته ولكن لم يتوقف أحد. أنا لم يكن لدي أي واجب ملح كإنقاذ حيوان بري أو حتى العالم. لكي أبقى في ذلك المكان أبتلع الغبار. لذلك قررت أن أعود لآكل في المطعم.

سألت الخادمة إن كنت أستطيع النوم هنا. فرمقتني بنظرة حاقدة كما لو أنني سألتها إن كانت تستقبل زبائناً:

– ألا ترى ؟ هذا مطعم هنا!

أقسمت أني لن أركب ثانية هذه الحافلة ولكن بقي عندي مئة كيلو متر أجتازها وعلى القدمين يلزمني على الأقل يومين.

عندما عدت إلى حافة الطريق لم أجد رجل حديقة الحيوان؛ ولا أعرف إن كان قد توصل إلى تأمين سفره.

توشك الشمس أن تغيب. رُتبت المقاعد تحت الواقية حيث يشربون الشاي. في الأسفل، كانت تُسمع ضربات طبول وقد تساءلت ماذا يعني ذلك. وفي الأعلى، نرى السطوح القرميدية بشكل متسلسل.

وبين البيوت توجد الساحات المعبدة بالحجارة. وفي البعيد، تمتد مساكب قد حُصد فيها الأرز الباكوري. بعض الفلاحين كانوا قد حرثوا الأرض كما يبين الطين الأسود المقلوب.

نزلت بسرعة في منحدر باتجاه صوت الطبول. خرج فلاح من حقل الأرز، بنطاله مشمّر، ربلات ساقيه سوداء من الطين.

بعد قليل، طفل يقود جاموساً بحبل ويتجه إلى مستنقع في طرف القرية. لدى رؤيتي للدخان المتصاعد من سطوح المنازل، اجتاحني شعور بالطمأنينة.

توقفت لأسمع الطبل. لم يعد هناك سائق ولا مفتشون ذوو شريطات حمر ولا حافلة مغيظة ولا برقية تستعجل معرفة مصير حيوان مجهول. الطبيعة تستعيد حقوقها. فكرت من جديد بالسنوات التي أمضيتها في الريف مجبراً على المشاركة في العمل اليدوي. لو لم تتطور الأوضاع أما كنت مثل هؤلاء الفلاحين أحرث الأرض؟ وأنا أيضاً، ألن تلوث ربلات ساقيّ بالطين في نهاية العمل وأكون متعباً حيث

لا أمتلك الشجاعة على تنظيف نفسي أو أعيش أي همّ؟ لا شيء طبيعي مثل هذا الدخان المتصاعد من البيوت على ضوء غروب الشمس، وهذه السطوح القرميدية، وقرعات الطبول القريبة تارة والبعيدة تارة أخرى.

تبدو قرعات الطبول كأنها ترتل أسطورة بلا كلمات. وحدها تبقى سطوح المنازل التي يلفها الظلام بمقدار ما يتغير لون الماء وضوء السماء، والبلاطات الحجرية المائلة للرمادي والتي لا يمكن تمييزها بسهولة بين باحات المنازل، والطين الذي احتفظ بحرارة الشمس والنفحات المتصاعدة من خطوم الجواميس وفتات من أحاديث تتصاعد من البيوت وكأنها شجار وكذلك نسمات الليل واهتزاز أوراق الشجر فوق رأسي، ورائحة التبن والاصطبل وهدير الماء الذي يتحرك وصرير باب أو ربما جنزير رافعة بئر، وزقزقة عصافير الدوري وهديل زوج من الترغل في عشه بمكان ما.

وأصوات النساء والأطفال الحادة ورائحة نبات العطر وطنين الحشرات الطائرة والطين الجاف تحت القدمين الطري من الأسفل والرغبة الكامنة والتعطش للسعادة والاهتزازات التي تولدها في القلب قرعات الطبول، والرغبة في المسير عاري القدمين والجلوس على عتبة باب جعله مرور الناس لامعاً.

- ٢٩ -

جاء موفد من ساحر تيانمنغان Tianmenguan ممر الباب السماوي إلى موجيانبيغ Mujiangping شرفة النجارين، لكي يطلب من النحات العجوز رأس ربة تيانلو Tianluo.

قال إنه سيعود بنفسه ليأخذها، ويقدمها في اليوم السابع والعشرين من الشهر الثاني عشر، على مذبح الأسلاف. قدم الموفد وزة حية كسلفة، ووعد بتقديم جرة من كحول الرز، ونصف رأس خنزير، إذا أنجز العمل في الوقت المحدد، ويستطيع العجوز، بهذا، أن يحتفل برأس السنة.

وعندما عرف النحات العجوز أن أيامه كانت محسوبة، أصيب بالهلع. إن الإلهة غوانين Guanyin، هي سيدة حياتنا، والإلهة تيانلو Tianluo، هي سيدة موتنا، وقد استعجلتاه للانتهاء من العمل.

لقد صنع النجار، في هذه السنوات الأخيرة، وخارج عمله كنجار، عددا جيدا من التماثيل، ونحت أشكالا عديدة لإلهة الخصب، والراهب المتصوف، ومأمور سجل الأحياء والأموات، وكان قد فصل أيضا سلسلات كاملة من الأقنعة من أجل فرق مسرح نو Nuo: مثل أقنعة زهانغ كيشان، Zhang Kaishan، نصف بشري، ونصف إلهي، وماسشوي Mashuai نصف بشري ونصف حيواني، وشياطين نصف بشري، ونصف شيطاني، كما فصل أيضا أشكالا هزلية لكينتونغ Qntong، بوجوه مقطبة. ونحت كذلك أشكالا لغوانين، Guanyin، بناء على طلب من ناس قدموا من ما وراء الجبل، صحيح أن أي شخص لم يطلب منه حتى الآن الصورة القاسية للإلهة تيانلو Tianluo، التي تتحكم بحياة الكائنات، وجاء الآن من يطلب حياتها. فكيف يمكنه الآن أن يفقد وعيه إلى هذا الحد، لكي يقبل بمثل هذه السهولة؟ لقد حصل ذلك بسبب تقدمه في السن، وجشعه الكبير. يكفي أن نقدم له أي مادة ذات قيمة لكي ينحت أي شيء. والناس كلهم يتفقون على القول بأن هذه المنحوتات كانت تضج بالحياة. نتعرف من النظرة الأولى على إلهة الخصب، وعلامة الأرواح، ولوهان وهو يبتسم، والراهب المتصوف، ومأمور سجل الأحياء والأموات، والجنرال زهانغ كيشان Zhang Kaishan، وما شوي أو شيطان صغير، وغوانين Guanyin. لم ير قط (غوانين)، ولكنه يعرف فقط أنها أم كانت تحب إنجاب الأطفال. عندما جاءته امرأة من وراء الجبال وهي تحمل له نعلا من القماش الأحمر، لكي تطلب منه تمثالا لغوانين، أمضت الليل عنده.

وفي الصباح، غادرت سعيدة، وهي تحمل معها تمثال غوانين الذي كان قد خلقه بيديه الاثنتين في ليلة واحدة. ولكنه في حياته كلها لم يصنع تمثالا للإلهة تيانلو وذلك لأن أي شخص لم يطلب منه ذلك، أولا، وثانيا لأن هذه الصورة القاسية لا يمكن أن تعرض إلا على مذبح ساحر. لم يكن يستطيع أن يمنع قشعريرة.

جسده تَجمدَّ جسده، إنه يعلم أن الإلهة تيانلو جذبته نحوها، وهي تريد أن تأخذ روحه. تسلق كومة خشب ليأخذ قطعة من خشب البقس التي جفت حول جسر، وهو خشب بتلافيف دقيقة لا يمكن أن ينحني أو يتشقق. كان قد وضعها هنا منذ سنوات عديدة، لا يمكنه أن يقرر استخدامها في عمل عادي. وعندما صعد إلى كومة الخشب، ومديره لاقتلاعه القطعة، انزلقت قدمه، وانهارت الكومة بصورة كاملة.

لقد خاف بشدة، ولكنه فهم مغزى ما حدث. ذهب، وهو يمسك بالقطعة بين يديه، ليجلس على قطعة ضخمة من خشب القيقب التي استخدمها سندانا. من أجل العمل العادي، كان يقطع المادة الأولية بعدة ضربات من القطاعة، دون أن يفكر كثيرا في الأمر، ثم ينجرها بمقصى كبير، وهو ينظر إلى النشارة التي تتطاير من نصف المنشار، ثم يظهر الشكل. كان هذا عملا عاديا. ولكنه لم ينجر من قبل قط تمثالا للإلهة تيانلو، وبقي جالسا هنا بليدا، وقطعة الخشب بين يديه. وعندما شعر بالبرد ينخر عظامه، وضع الخشب على الأرض. عاد إلى البيت الذي جلس فيه على جذع من الخشب المائل إلى السواد بفعل دخان المنزل، باستثناء بعض المناطق التي بقيت نضرة لصقلها بالقطع الأخرى التي وضعت فوقها. لقد اقتربت نهايته، وتأكد من أنه لن يمضي السنة. طلب منه هذا التمثال في اليوم السابع والعشرين من الشهر الثاني عشر، قبل القربان لجني البيت تماما، من دون الانتظار إلى منتصف الشهر الأول، موعدا احتفال الفوانيس Lanternes. لن يتركونه أبدا يمضي راس السنة بسلام.

قالت: نعم، لم يكن عجوزا طيبا، لم يعرف المحافظة على قدره. هل أغوى المرأة الشابة التي جاءت تطلب طفلا إن هذه المرأة الشابة هي الوضيعة، كانت موافقة تماما.

أليس هذا خطيئة؟

ليس بالضرورة

إن أخطاءه له، وهي...

لقد استغل فتاة بكماء.

عنده؟

هذا لا يجرؤ عليه، كان في سفر في يوم من الأيام. والحرفيون مثله الذين يعملون بعيدا عن سكناهم يبقون لوحدهم زمنا طويلا. إنهم يملكون قليلا من المال وكثيرا من

المعرفة والخبرة. إن الحصول على النساء لمضاجعتهن ليس أمرا صعبا. بعضهن يفعلن هذا مقابل أجر زهيد. ولكنه لم يكن عليه أن يخدع بكماء. لقد أفقدها شرفها، وتلاعب بها، ثم تركها.

عندما جاءت الإلهة تيانلو لتأخذ روحه، هل أدرك أن هذا بسبب هذه البكماء؟ من المؤكد أنه فكر بهذا، لقد بدت له من دون أن يستطيع أن يمحيها.

كان هذا انتقاما، إذن؟

نعم، إنه الانتقام الذي ترفبه كل الفتيات اللواتي يتعرضن للإهانة! لو كانت حية الآن، وتستطيع أن تعثر عليه، لكانت اقتلعت عينيه، وانهالت عليه بالشتائم البذيئة، وطلبت من الشياطين أن يأخذوه إلى المستوى الثامن عشر من الجحيم. وأنزلت به أشد العقوبات! ولكن هذه الفتاة كانت بكماء، ولم تكن تمتلك أي وسيلة للتعبير عما تريده، وعندما ظهر الحمل عليها، طردها أهلها، فهامت على وجهها متنقلة بين الدعارة والتسول. أصبحت كتلة من اللحم الفاسد والمثير للاشمئزاز. لم يكن ينقصها الجمال، في الأصل، وكان بإمكانها بسهولة الزواج من فلاح مخلص، وتعيش حياة زوجية طبيعية.

وكانت ستمتلك بيتا يحميها، وستضع أطفالا، وعند موتها ستقام لها جنازه.

لم تفكر بكل هذا، لم تفكر إلا به.

ولكن عيني هذه الفتاة لم تتوقفا عن رصده.

عينا الإلهة تيانلو

عينا هذه الفتاة الشابة البكماء

هل كانت عيناها تمتلئان بالرعب عندما امتلكها؟

كانت عيناها تمتلئان بالعطش إلى الانتقام!

عيناها متوسلتان

لا يمكنها أن تتوسل، لقد اقتلعت شعرها وهي تبكي.

نظرت إليه، مذعورة

لا، كانت تصرخ..

ولكن أي شخص لم يفهم معنى صرخاتها الغامضة، وكان الناس كلهم يضحكون. وكان هو نفسه يضحك مع المجموع.

لا؟

نعم، لم يكن يعرف في هذا الوقت، الخوف، وكان راضيا عن نفسه. كان يعتقد أنه لا يمكن لأي شخص أن يكشفه.

القدر انتقم!

جاءت الإلهة تيانلو عندما كان يحرك الجمر، وظهرت في ألسنة اللهب والدخان. اغمض عينيه بقوة. وانهمرت دموع منهما لا تضع هذا في صالحه.

كل العالم لم يكون عندما تمتلئ عيونهم بالدخان. تمخط باصابعه الخشنة كأعواد من الخشب الجاف، ذهب إلى الفناء متباطئا، وهو يجر قدميه التعبتين، وأخذ بين يديه قطعة خشب، وقرفص بالقرب من جذع القيقب، ونجرها بالقطاعة حتى المساء. ثم عاد إلى بيته وهو يحمل دائما قطعة الخشب بين يديه.

جلس بالقرب من النار، ووضعها بين رجليه، وداعبها بيديه الصلبتين. كان يعرف أن هذا التمثال سيكون التمثال الأخير الذي يصنعه في حياته، ويخشى ألا يسعفه الوقت للانتهاء منه. إنه يريد النجاح قبل بزوغ النهار، لأنه كان يعرف أنه في هذه اللحظة ستختفي الصورة التي احتفظ بها في داخله، وفي طرف أصابعه، خيال الفتاةا لشابة، فمها، شفتيها العليا التي عصرها بقوة عندما كانت تحرك رأسها، وشحمة أذنيها الطرية جدا، والممتلئة بصورة متميزة، والتي كان عليه أن يدخل فيها حلقات كبيرة، وبشرتها المشدودة ولكنها طرية، ووجهها الناعم واللطيف، وأنفها الذليق وذقنها الرفيعة، ولكن دون تشويه. انزلقت يده على الياقة الملتفة حول العنق...

وفي الصباح، ناداه القرويون الذاهبون إلى معرض لوفينغبو Luofengpo لشراء بعض المواد للسنة الجديدة، ولكنه لم يرد. كان الباب كبيرا ومفتوحا، وتنبعث منه رائحة حريق. دخل الناس عليه، ووجدوه واقعا في موقد النار.

لقد كان ميتا، قال بعضهم إنه كان ضحية هجوم، وقال بعضهم الآخر إنه مات حرقا. وبين قدمه مسجى تمثال الإلهة تيانلو، وقد اكتمل، واعتمر تاجا من الغار. وعلى طرف العمرة، أربعة ثقوب صغيرة، تخرج من كل واحد منها سلحفاة سوداء، مشدودة الرأس، كحيوان مفترس يترصد، مستعدا في وكره. كان جفنا التمثال نازلين، كما لو أن صاحبته تنام نصف نومة. إن النتوء اللطيف في أنفها يناسب حاجبيها المقوسين واللذين يعطيان الاحساس بأنهما مقطبان قليلا، وكانت شفتاها الصغيرتان والرقيقتان مضمومتين بشدة كما لو أنها تحتقر الحياة، ومع ذلك، ترسل حدقتاها، اللتان لا تكادان تريان ضوءا باهتا. يعكس حاجباها، وعيناها وأنفها، وفمها، ووجهها، وذقنها، ورقبتها الدقيقة والطويلة، روعة فتاة شابة وسحرها، فقط شحمتا أذنيها، اللحيمتان والمغلقتان، واللتان تعلق عليهما حلقات من الجلد على شكل أسنة رماح، توحيان بالإغراء. في المقابل، كانت رقبتها مشدودة داخل قبة ثوبها المرتفعة إلى الأعلى. هكذا قدمت هذه الإلهة تيانلو على مذبح ساحر تيانمينغان، ممر الباب السماوي.

- ٣٠ -

لقد سمعت، منذ زمن بعيد، خرافات عن الثعبان الشهير كي *Qi* ، وعن سمه المرعب. يسمى في الريف غالبا **تنين الخطوات الخمس**، لأنه يقال إن لدغته تسبب موت الإنسان أو الحيوان قبل أن يكون لديهما الوقت للسير خمس خطوات.

وآخرون يقولون إنه قلما تستطيع الإفلات منه إذا مررنا على مسافة أقل من خمس خطوات منه. من المؤكد أنه هو أصل المثل القائل: إن أقوى تنين لا يستطيع القضاء على الثعبان الأرضي الأول. ويتفق الجميع على القول بأنه يختلف عن الثعابين الأخرى السامة. ويستطيع الإنسان بسهولة أن يخيف الثعبان ذا النظارتين على الرغم من خطورته الكبيرة.

عندما يهاجم، يجب المحافظة على الرأس مرفوعا إلى أعلى ما يمكن، والوقوف باستقامة مع الصراخ من أجل إخافته. عندما نلتقيه يمكننا بسهولة حماية أنفسنا منه عبر رمي أي شيء إلى جانبه. وإذا لم يكن لدينا ما نرميه، يكفي أن نرمي نعلنا، أو القلنسوة، ونهرب عندما يهاجمهما الثعبان معتقدا العثور على فريسته.

ولكن عندما نلاقي ثعبان كي، فإنه يهاجم في ثمان أو تسع حالات من عشر، قبل أن نتمكن من رؤيته.

سمعت في المناطق الجبلية جنوب أنهوي Anhui، قصصا أسطورية تقريبا عن هذا الثعبان. وهي تروي أنه قادر على ترتيب وضعه وفق المعركة، وأن يحدد أرضه بمساعدة خيط أكثر دقة من شبكة العنكبوت. وإذا لمسه حيوان فإنه يهاجمه بأسرع من البرق. ليس غريبا أن يتداول كل أنواع الكلام التعويذي في المناطق التي يعيش فيها. يقال إن هذا الكلام يحمي صاحبه إذا تلي بصمت، ولكن سكان الجبال لا ينقلونه إلى الأجانب. وإذا ذهبوا لقطع الأخشاب، فإنهم يضعون أشرطة ملفوفة، أو (جوارب) مرتفعة مصنوعة من قماش الأغطية. روى لي سكان مركز المنطقة الإداري، غير المتعودين كثيرا على الجبل، أشياء أخرى أكثر إثارة: مثل أن هذه الثعابين تعض حتى من فوق الأحذية الجلدية، وقد نصحوني بحمل دواء مضاد للسم، حتى وإن كان في الواقع، قليل التأثير ضد الثعبان كي.

وعلى الطريق المؤدي من دونكسي Dunxi إلى أنكينغ، مرورا بشيتي Shitai، التقيت بفلاح قطعت يده، في مطعم صغير متواضع، بالقرب من محطة الركاب. روى لي أنه قطع يده بنفسه بعد لدغة ثعبان كي.. مما لا شك فيه أنه كان الوحيد الناجي

من مثل هذه اللدغة. ويضع قلنسوة من القش الناعم بأطراف ضيقة، على شكل قلنسوة احتفالية، وهي نوع من العمامة التي يلبسها الفلاحون عند ذهابهم إلى رصيف الميناء، كعلامة مميزة للرجال أصحاب الخبرة. طلبت صحنا من شوربة المعكرونة في هذا المطعم المتواضع المقام تحت غطاء أبيض. كان جالسا في مواجهتي تماما، ويقطع الخبز بيده اليسرى، ويحرك باستمرار بقية القسم المبتور من ساعده الأيمن. تضايقت من هذا الوضع، وفكرت أنه من الأفضل، دون الشك، الحديث، فسألته:

أيها الأخ المسن، أيزعجك إذا قلت لي كيف جرحت نفسك؟

وسأدفع عنك ثمن صحن المعكرونة.

روى لي تجربته. كان قد ذهب إلى الجبل للبحث عن خشب نبات العرقد[1]. عما ذا؟ عن العرقد. إنه يشفي من الغيرة. إن زوجتي مزعجة. فعندما تحادثني امرأة أخرى. فإنها تريد ضربي بصحن على الوجه إنني أتمنى أن تشرب شراب العرقد.

- أهو دواء تقليدي؟

- فقال وهو يضحك، لا، وفتح فمه الواسع المزين بسن من ذهب، وظهر من تحت قبعة القش. في الواقع، إنه يمزح. شرح لي أنهم كانوا مجموعة تقطع الأشجار لصناعة الفحم الخشبي.

لم تكن شائعة تجارة الخشب، في هذا الوقت، كما هو الآن، ويقوم سكان الجبال بتصنيع الفحم الخشبي من أجل كسب قليل من النقود. ويجب أيضا معرفة الأشجار المناسبة.

وكان يبحث خاصة عن البلوط ذي القشر الأبيض، لأن لون الفحم الذي نستخلصه منه رمادي فضي، ويصدر صوتا نقيا عندما نضربه. ويمكن أن نكسب بحمل من هذه المحروقات، ما نكسبه بحملين من الفحم الطبيعي. تركته يتحدث على راحته، وعلى كل حال، لن أدفع له إلا صحنا من المعكرونة.

روى لي إنه كان يسير في المقدمة، وفأسه في يده. وكان مرافقوه يبقون في المؤخرة يثرثرون ويدخنون. خفض رأسه عندما أحس بنسمة باردة تسري في جسده من أخمص قدميه. أعتقد أن مكروها أصابه. لقد شعر بنفسه أنه كالكلب الشارد الذي ما إن شم رائحة فهد، لم يعد يجرؤ أن يتقدم خطوة، وبدأ ينبح في مكانه كالقطة. في هذه اللحظة، أصبحت ساقاه مبتلتين بصورة كاملة. إن أقوى الرجال لا يستطيع الهروب من قدره المحتوم إذا التقى ثعبان كي Qui. وهو كان قد رآه، ملتفا على حجر داخل العليق، ورأسه يرتفع فوق الجسد المتكوم ككتلة متراصة. وفي أقل من لمح البصر، رفع فأسه، لكنه شعر ببرودة كبيرة في معصمه، وانتابته قشعريرة سرت في أنحاء

(١) العرقد: جنس نباتات معمرة من الفصيلة الباذنجانية، برية وتزيينية تنبت في البلاد الحارة (م).

جسده، كأنها تيار كهربائي. ومرت من أمام ناظريه غمامة سوداء، والشمس أظلمت، وتجمد قلبه، ولم يعد يسمع صوت الريح، ولا زقزقة العصافير، ولا صرير صرار الليل. اكفهر لون السماء الحزين، ولم تعد الشمس والأشجار تبعث إلا ضوءا باهتا. تأكد من أن عقله مازال يعمل، وأن عليه التصرف بسرعة، فيجب ألا يموت، ومازال أمامه أمل، فقطع معصمه بفأسه. وبسرعة جلس القرفصاء، وشد على شرايين ساعده المبتور. ونزف الدم على الأحجار حيث يتحول لونه إلى الأصفر الشاحب بمجرد ملامستها.

بعد ذلك، نقله زملاؤه إلى القرية وهم يحملون المعصم المتبور، المائل إلى السوادَ، والمغطى ببقع مائلة إلى اللون البنفسجي. وكان لون قطعة الساعد التي بقيت أسود أيضا وبعد استخدام كل أدوية الطب الصيني ضد سم الثعبان عادت الحرارة إليه.

- أنت أيضا، ليس عندك برودة في العينين.

لو كان تردد لحظة واحدة، أو كان السم ارتفع إلى الأعلى قليلا، لكان الآن ميتا

- إن فقدان يد من أجل الاحتفاظ بالحياة، مسألة يمكن فهمها، أليس كذلك؟ حتى حصان إبليس قادر على التخلص من ساقيه عندما لا يستطيع أن يخلص نفسه.

- ولكن هذه حشرة.

- آه جيد؟ هل الرجال أقل من الحشرات؟ الثعلب أيضا يستطيع التخلص من قائمته لكي يفلت من فخ وقع فيه.

- الإنسان يتمتع بقوة الثعلب وجسارته.

- وضع قطعة نقود على الطاولة تساوي عشر (يوان)، ورفض أن أدفع ثمن صحنه من المعكرونة، وأعلن أنه يقوم الآن بالتجارة، وأن مثقفا مثلي يجب أن يكسب أقل مما يكسبه هو. وخلال رحلتي كلها، كنت أبحث عن هذا الثعبان، ورأيته أخيرا على الطريق المؤدي إلى جبال فانجينغ Fanjing.

- لقد كانت مجموعة من الثعابين الملفوفة فوق سطح محل تجاري للتجفيف في بلدة اسمها مينكسياو، أو شيشانغ Shichang

وهي تتطابق مع الوصف الذي قدمه لها الماندارين (موظف كبير) لمنطقة تانغ Tang، ليوزونغيوان Liu Zongyuan:

" إنها سوداء مرقطة بالبياض". وهي تشكل مادة ثمينة للطب الصيني، وتقدم دواء جيدا لإرخاء العضلات، وتنشيط الدورة الدموية، والتخلص من الروماتيزم، والبردية. وهي تباع بأسعار عالية، ولذلك هناك دائما رجال شجعان على استعداد للتضحية بأنفسهم من أجل إمساكها. وصف ليوزونغيوان هذا الحيوان بأنه "أكثر رعبا من النمر". بعد ذلك، هاجم الاستبداد، وقال بأنه كان أكثر وحشية من هذا الثعبان. لقد كان

محافظ منطقة، في حين أنني رجل عادي. كان (ماندارين)، وكان عليه أن يكون أول من يهتم بالشقاء على الأرض. أما أنا الذي أطوف العالم، فلا أهتم إلا بحياتي الخاصة.

إن رؤية هذه الثعابين الملفوفة للتجفيف، لم تكن تكفيني. أريد أن أراها حية لأتعرف إليها، وأتعلم كيفية الدفاع عن نفسي.

أخيرا، رأيت ثعبانين في أسفل جبال فانجيانغ، مملكة الثعابين السامة. كانا بين يدي صياد غير شرعي في نقطة مراقبة المحمية الطبيعية. كانا محتجزين ضمن قفص شبكي، ويمكنني أن أتفحصهما عن قرب. اسمها العلمي هو Agkistrodonacutus. وكان طولهما نحو متر، وثخنهما أقل من ثخن المعصم، وذنبهما رفيعان جدا. كان جسدهما مغطى بأشكال مثلثية كستنائية اللون غامقة، ورمادية بالتناوب بطريقة غير واضحة تماما. وهناك تسمية شعبية أخرى تطلق على هذا الثعبان وهي 'الثعبان مربعي الشكل'. لا شيء يدل، من الخارج، على شراسته. إن هذه الثعابين تشبه كتلة من التراب وهي ملتفة حول حجر في الجبل. عندما نفحصها عن قرب، فإننا نجد رأسها مثلثي الشكل كستنائي اللون كامد، وينتهي فمها المدبب بحر شفة على شكل صنارة، وعيناها صغيرتان كئيبتان، تعطيها شكلا مضحكا للجشع الذي تتحدث عنه باستمرار شخصية المهرج في أوبيرا بكين. في الواقع، إنها لا تعتمد تماما على بصرها لكي ترى فرائسها. وهناك بين الفم والعينين تجويف يشكل عضوا حساسا نحو الحرارة، خاصة نحو الأشعة تحت الحمراء. وبهذا الشكل تستطيع أن تقيس على بعد ثلاثة أمتار أي تغيير في الحرارة مهما كانت درجته.

ويكفي أن يظهر حيوان حرارته أعلى من حرارتها ضمن محيطها لكي تكتشفه وتهاجمه. عرفت هذه التفصيلات في مرحلة لاحقة، عندما ذهبت إلى جبال ووي Wuyi، عن طريق مختص بسموم الثعبان والذي يعمل في المحمية الطبيعية.

وعلى طريقي، في المجرى الأعلى لنهر شين Chen، وهو رافد ليوان Yuan، تبدو مياه جين Jin القوية وغير الملوثة، صافية صفاء خاصا. ويترك حراس الجاموس الصغار أنفسهم ينجرفون مع التيار وسط النهر، وهم يطلقون صرخات حادة.

وعلى بعد مئات الأمتار من الضفة يتوقف المارون عندما تصل صرخاتهم بوضوح. وفي أسفل الطريق، تستحم فتاة شابة في النهر، وعندما ترى الحافلة وهي تمر، تنتصب مثل طير أبوقردان[٢]، وتدير الرأس، وتسرح في أفكارها. وتحت شمس الظهيرة الحارقة، يصبح الضوء الذي ينعكس علىسطح الماء ساطعا.

من المؤكد أن هذا كله لا علاقة له أبدا بالثعبان كي.

---

(٢) أبو قردان: طائر أبيض من طوال الساق يأكل الحشرات. (م).

تنفجر بالضحك، فتسألها عن السبب. فتقول إنها سعيدة. ولكنها تعرف تماما، أنها في حقيقة الأمر ليست كذلك، إنها تتظاهر، وهي لا تريد أن يعرف الناس بأنها حزينة.

قالت بأنها كانت تسير في يوم من الأيام في الشارع عندما رأت رجلا يركض وراء (تراماوي) كان منطلقاً. تقدم على أخمص قدمه، وقفز وهو يصرخ بكل قوته، لأن أحد نعليه بقي محصورا في الباب عندما نزل. إنه بالتأكيد أحد الريفيين القادمين من الريف. علمها أساتذتها عندما كانت صغيرة ألا تسخر من الفلاحين، وعندما كبرت أوصتها أمها ألا تضحك ببلاهة أمام الرجال، ولكنها، هنا، لم تستطع أن تمنع نفسها من الضحك. وعندما ضحكت بهذه الطريقة، نظرا إليها الرجال. بعد ذلك، لاحظت أنها تجذبهم حقيقة عندما تضحك بهذه الطريقة. يعتقد الرجال أصحاب النوايا السيئة بأنها امرأة لعوب. يحمل الرجال، دائما، نظرة مختلفة نحو النساء، يجب ألا يختلط الأمر عليك.

قالت بأنها لم تكن تعرف أنها عذراء عندما استسلمت أول مرة لرجل، سألها عن سبب بكائها، عندما نام فوقها. فقالت بأن سبب البكاء ليس الألم، ولكن لأنها كانت تشفق على نفسها. مسح دموعها: ولكنها لم تكن تسيل من أجله. أبعدت يدها، وزررت ملابسها، وأعادت تصفيف شعرها، ولم تكن تريد أن يساعدها. وكلما حاول مساعدتها، أفسد الأمور أكثر. لقد تمتع بها مستفيدا من لحظة ضعف عابرة. لا تستطيع أن تقول إنه أجبرها، أنه دعاها لتناول وجبة الغداء في بيته فلبت الدعوة، وشربت كأسا من الكحول. كانت تبدو سعيدة، ولكنها لم تكن سعادة حقيقية، وضحكت بالطريقة نفسها التي ضحكت فيها اليوم.

قالت بأن الخطأ ليس خطأه بصورة كاملة، لقد ارادت ببساطة، في ذلك الوقت، أن تعرف كيف تجري الأمور. إنها شربت نصف الكأس من الكحول الذي سكبه لها. اصيب راسها بالدوار قليلا، ولم تكن تعرف أن هذا الكحول قوي إلى هذا الحد، وأحست بأن وجهها احمر، وبدأت بالضحك ببلاهة. عندها قبلها، وقلبها على السرير، صحيح أنها لم تقاوم عندما رفع تنورتها، لقد كانت واعية بما يحدث. كان أستاذها، وكانت تلميذته، لم يكن يجب ان يحدث هذا فيما بينهما. سمعت خارج الغرفة، في الممر، وقع خطوات تصعد وتهبط، وناسا يتحدثون باستمرار، وليس

بالضرورة أن يكون هذا الحديث ذا فائدة. كان الوقت ظهرا، وكان الذين أنهوا طعامهم في المطعم يعودون إلى بيوتهم، كانت تسمعهم تماما. ضمن هذا الإطار، كان يبدو لها هذا الفعل لا أخلاقيا، لقد كانت تشعر بالعار بشدة، قالت لنفسها: إنك حيوانة، أنت حيوانة.

بعد ذلك فتحت باب الغرفة، وخرجت، الصدر منتصب، والرأس مرتفع، وعندما وصلت إلى أعلى السلم، نادى شخص بإسمها، قالت بأنها في هذه اللحظة احمرت خجلا، كما لو أن تنورتها مازالت مرتفعة دون أن تلبس تحتها شيئا. من حسن الحظ أن مدخل السلم كان مظلما بشدة. في الواقع لقد كان الصوت صادرا عن إحدى زميلاتها في الصف التي كانت تريد منها اصطحابها إلى الأستاذ من أجل الحديث عن برنامج الدروس الاختيارية في الفصل القادم. تذرعت بأنها تريد الذهاب إلى السينما، وبأنها تأخرت عن الموعد، ثم تسللت هاربة. ولكنها لم تنس قط هذا النداء، وقالت بأن قلبها كاد يخرج من صدرها، وحتى عندما أخذها الرجل لم يضرب قلبها بهذه الشدة. الآن، ثأرت، ثأرت من نفسها، ثأرت من أجل كل الهموم والرعب في السنوات الأخيرة، لقد ثأرت من نفسها.

قالت بأن الشمس كانت ساطعة بشدة في هذا اليوم، في الملعب الرياضي، واخترق ضجيج حاد قلبك، كنصل سكين يمر على زجاج.

سألتها من هي في نهاية الأمر.

قالت بأنها هي هي، ثم انفجرت ضاحكة من جديد. بقيت حائرا. عندها طمأنتك، وقالت إنها لا تروي إلا مجرد قصة، وهي قصة أخذتها عن صديقتها. لقد كانت طالبة في معهد الطب جاءت إلى المشفى الذي تعمل فيه للقيام بتمرين عملي. صارت إحدى صديقاتها الأكثر قربا منها. لم تصدقها. لماذا لا يوجد غيرك يستطيع أن يروي قصصا؟ وعندما روت، هي، لم يرق الأمر.

طلبت منها أن تتابع. فقالت إنها انتهت. قلت إن قصتها جاءت بطريقة فجة جدا. ردت بأنها لا تعرف تغليف الأشياء بالخيال مثلك، إضافة إلى أنك أنت رويت كثيرا من القصص، في حين أنها هي لم تكد تبدأ.

قلت: آه جيد، تابعي،

قالت أنها لم تعد مستعدة، وليس لديها رغبة في الحكي.

قلت بعد تفكير قليل: إنها كانت ساحرة

لا يوجد إلا الرجال من يمتلك الرغبة.

قلت : بالطبع، الامر سواء بالنسبة إلى النساء.

لماذا هناك أشياء كثيرة مسموحة للرجال وممنوعة على النساء؟

إنها الطبيعة البشرية

قلت إنك لا تريد إدانة النساء، وقلت فقط إنها كانت ساحرة.

ليس في هذا ما يسيء

قلت بأنك لا تعترض على هذا، وما تقوم به هو القص فقط.

في هذه الحالة انتهيت. ما الذي ستروية بعد؟

قالت: إذا أردت الحديث عن هذه الساحرة، حدث، إذن.

قلت بأن زوج هذه الساحرة مات حتى قبل أن تمر فترة سبع مرات سبعة أيام.

ماذا نسمي فترة سبع مرات سبعة أيام؟

عندما كان يموت الرجل قديما، كان يجب حراسة روحه سبع مرات سبعة أيام.

هل الرقم سبعة رقم شؤم؟ الرقم سبعة هو يوم سعد بالنسبة إلى الأرواح. لا يجب الحديث عن الأرواح.

إذن لنتحدث عن هذا الشخص قبل موته، إن قطع القماش الموضوعة على وجه نعليه مازالت في أماكنها لم تنزع، إنه يشبه داعرة (بيت الربيع السعيد) في بلدة ووي، التي تستند دون حركة إلى المدخل، اليدان حول الخصر، والساق تستند باستهتار على طرف القدم. عندما ترى رجلا قادما، تقوم بحركات الإثارة، لكي تجذبه.

قالت بأنك تهين النساء، فرديت بالنفي، وقلت حتى النساء لم تعد تحتمل وجهة نظرها، ويبتعدن عنها بسرعة. وحدها الأخت الرابعة سون SUN الشرسة، تسمرت أمامها، وبصقت عليها، ولكن الرجال عندما يمرون ألا يلتهمونها بعيونهم؟

من المستحيل أن يفعلوا غير ذلك، إنهم يستديرون كلهم، حتى الأحدب الذي تجاوز الخمسين من عمره، ينظر إليها من بعيد. لا تضحكي. من يضحك؟

وتروي أنت أيضا كيف أن زوجة لو Lu العجوز، جارتها، جلست بعد الانتهاء من وجبة المساء مباشرة، أمام باب بيتها لتخيط أنعال أحذية. لقد رأت كل شيء، وصرخت: 'هيه أيها الأحدب، لقد مشيت على وسخ كلب!' وانزعج الأحدب بشدة. وفي الصيف، عندما يتناول سكان القرية كلهم وجبتهم المسائية في الشارع، كانوا يرونها وهي تحمل في حمالتها المزدوجة دلاء فارغة، وتمر أمام البيوت وهي تتمايل بردفيها.

إن أم بوالو poilu ضربت زوجها بعصيها، وهذا ما تسبب، بعد ذلك، بسرقة الخشب الأخضر. الألم جعله يصرخ الليل كله. ولم يكن لدى النساء المتزوجات إلا رغبة واحدة: توجيه الإهانات والضرب إلى هذه الفاسدة. وكان على أم بوالو تعريتها،

وربط شعرها، ووضع رأسها في سطل قذارة.

قالت: إنه شيء مثير للاشمئزاز حقيقة. قلت: هكذا سارت الأمور. أولا، فوجئت بزوجة جارها، لو العجوز. أما زهو العجوز الذي لم يجد له زوجة، فكان يتسلل دائما إلى وكرها زحفا، مدعيا أن ذلك من أجل مساعدتها على التخلص من انحطاطها، ولكنه، في حقيقة الأمر، هو الذي انحط معها.

لو لم يصل هذا كله إلى امرأة سون الرابع، لما كانت الأمور أخذت منعطفا خطيرا إلى هذا الحد. قال سون إنه سيذهب إلى الجبل لقطع الأخشاب في صباح جميل جدا، ولكنه في الواقع، قام بجولة في شوارع القرية، وهو يحمل الحمالة المزدوجة على كتفه، ثم صعد جدار فناء هذه المومس. وقبل خروجه من عندها، جاءت زوجة سون التي كانت تراقبه، وطرقت على الباب بعصاها. ففتحته كما لو أنه لا يحدث شيء، وهي تزرر سترتها. كيف تستطيع زوجة سون تركها وشأنها. وبسرعة البرق اندفعت إلى الداخل، وبدأت المرأتان بالعراك وسط الضجيج والبكاء. جاء الناس كلهم. من المؤكد أن النساء ناصرت امرأة سون، ونظر الرجال إلى المعركة دون أن يقولوا كلمة واحدة. كانت ملابسها ممزقة، ووجهها مجرحا. بعد ذلك، اعترفت زوجة سون بأنها قصدت تشويه وجهها. أخفت وجهها بيديها الاثنتين، وهي تبكي بهدوء، وتتلوى كدودة. كان شيئا محزنا، ولكن في النهاية هذه هي قصص النساء. وقف العم السادس، وزعيم القرية على الحياد، واكتفيا بالسعال الجاف.

هذه الحادثة خففت من غضب النساء اللواتي قررن معاقبتها.

بعد التشاور، قرر بعضهن اللواتي يتميزن بقوة سواعدهن، وارجلهن، أن يكمن لها على طريق الجبل الذي تذهب منه لقطع الخشب، وأن يجردنها من ملابسها بصورة كاملة، ثم تقيد وتنقل بمساعدة لوح خشبي. لم يكن أمامها إلا طلب المساعدة. ولكن حتى عشاقها الذين هرعوا لصراخها، لم يجرؤوا على الظهور عندما رؤوا شراسة زوجاتهم، المستعدات لسلخ جلدهم.

نقلوها إلى وادي زهور الخطايا. كان هذا الوادي الذي كان يعيش فيه النساء العاهرات قديما، مكانا لسكن المصابين بالبرص.

رمينها مع اللوح الخشبي الذي استخدم لنقلها، على الطريق الوحيد الخارج من الوادي، ثم ضربنها بأرجلهن، وغمرنها بالبصاق وهن يشتمنها في النهاية رجعن إلى القرية.

وبعد ذلك؟

بعد ذلك، أمطرت السماء، أمطرت لأيام وليال متواصلة. وفي يوم جميل، رآها أحدهم وهي تعود ظهرا إلى القرية، كان بنطالها ممزقا، وكان صدرها عاريا مغطى

بقطعة من القش لاتقاء المطر، وكانت شفتاها شاحبتين كشفتي ميت.

هرب الأطفال الذي كانوا يلعبون في الشوارع، وأغلقت أبواب الدخول على عجل عند مرورها. بعد ايام قليلة، عادت للخروج ثانية من منزلها، بعد أن استعادت قواها. كان مظهرها أكثر إغراء، وتصطبغ شفتاها بأحمر الشفاه الفاقع، ووجنتاها متوردتان: إنها صورة حية عن الساحرة. ولكنها لم تعد تجرؤ على التجوال في القرية. كانت تذهب إلى ضفة الساقية لتجلب الماء أو لتنظيف الغسيل قبل شروق الشمس أو خلال الليل. كانت تمر بمحاذاة الحيطان، مطأطئة الرأس. عندما كان الأطفال يرونها، كانوا يصرخون عليها من بعيد: 'المجذومة، المجذومة، سيجذم أنفك، ثم وجهك!' ثم يطلقون أرجلهم للريح. وبالتدريج نسيها القرويون، وانشغلوا بحصد الرز ودرسه. ثم تأتي الحراثة وإعادة زرع الرز، ثم جني الرز المبكر، وإعادة زرع الرز المتأخر. واكتشفوا فجأة أن الأعمال لم تتم في حقول المرأة، وأنهم لم يروها منذ وقت طويل. فقرروا إرسال واحد منهم إلى بيتها. وبعد مداولات طويلة، كلفوا جارتها زوجة لو العجوز بالذهاب لرؤية ما حدث. وعند عودتها، أعلنت: 'لقد عوقبت أخيرا هذه الساحرة. إن وجهها مغطى بالندبات، ولهذا ليس غريبا ألا تخرج من بيتها!' تنفست النساء الصعداء، لم يعد لديهن ما يخشينه على رجالهن.

وبعد ذلك؟

بعد ذلك، كان يجب حصاد الرز المتأخر. وعندما انتهوا من الحقل الأخير، حل الصقيع. وبدأ القرويون بشراء حاجاتهم تحضيرا لحفلة رأس السنة، وكان يجب تنظيف حجر الطاحون من أجل طحن الرز. اكتشفت زوجة بوالو بعض البثور على ظهر زوجها الذي يدفع حجر المطحنة وهو عاري الصدر. لم تجرؤ على الحديث عن هذا الأمر إلى أي شخص، باستثناء شقيقته.

من يستطيع القول، إن هذه الأخيرة سترى ظهور ندبات على صدر زوجها؟ انتشر المرض، ولم تعد النساء يستطعن إخفاء السر. حتى سون الرابع رأى بثورا كبيرة متقيحة على ساقيه. من الواضح أن رأس السنة الجديدة سيمر حزينا.

كانت النساء منشغلات، وأزواجهن يخفون الرأس أو الوجه. هذا الأمر ليس مزعجا في الشتاء، ولكن في وقت حراثة الأرض في بداية الربيع لم تكن رؤية الراس والوجه متخفيين أمرا عاديا.

أما الرجال الذين لم يهتموا بهذا، شاهدوا حينا جلدهم وهو يتمزق، وشاهدو حينا آخر شعرهم وهو يسقط، أو ظهور البثور على أجسادهم. حتى أن بثرة ظهرت في رأس أنف العم السادس.

كان الجميع سواسية، ولم يكن هناك ما يقولونه، والأرض كانت بحاجة إلى

التسوية. بعد إعادة زراعة الرز، يمكن الاستراحة قليلا في النهاية. وسيفكرون، إذن، في هذه الساحرة، التي لا يعرف أحد إذا كانت مازالت حية. ولكن الجميع يقولون إنه إذا حاول أحدهم النظر إلى كرسي مجذوم، فإنه سيخاطر بالإصابة بالدمامل في المؤخرة، ولذلك لا يجرؤ أحد اجتياز بابها. قالت إن هذا جيد بالنسبة إلى الرجال.

وكان المرأة الأولى التي ذهبت إلى الحقول لتعشيب الأرض، ووجهها مغطى بمنديل، هي زوجة سون الرابع. يقول كبار السن: 'من يزرع الشر يحصده'. ولكن ما العمل؟ حتى زوجة لو العجوز لم تفلت من الشر، وظهرت دمامل متقيحة في ثديها. ولم يفلت الشبان والشابات العزّاب من الكارثة إلا بصعوبة بعد أن رحلوا بعيدا إلى قرى أخرى.

سألت : هل انتهيت؟

نعم، انتهيت. قالت بأنها لا تستطيع تحمل هذه القصة. لأنها قصة الرجال. فسألت هل هناك قصص للرجال وأخرى للنساء قلت إنه من الطبيعي أن يكون هناك قصص للرجال، وقصص يرويها الرجال للنساء، وقصص للرجال تحب النساء سماعها فسألتها عن القصص التي ترغب في سماعها. قالت بأن قصصك أصبحت خبيثة شيئا فشيئا، وسوقية.

قلت بأن هذا هو تماما عالم الرجال. في هذه الحالة كيف سيكون عالم النساء؟ وحدها النساء تعرف عالم النساء. ألا يوجد وسيلة لنقلها؟ إنهما طرفان مختلفان. ولكن الحب يسمح بنقلها.

سألتها : هل تعتقدين بالحب؟ فردت عليك: إذا كنت لا تعتقد بالحب، فلماذا تحب؟

هذا يعني أنها مازالت تعتقد فيه.

إذا بقيت الرغبة دون حب، فما أهمية الحياة؟

قلت إن هذه فلسفة امرأة. توقف عن الحديث الدائم عن النساء، النساء هن أيضا كائنات بشرية.

إنها كلها مصنوعة من التراب من قبل نوغوا Nugua [٣]

هذا هو رأيك حول المرأة

قلت بأنك تعرض الأمور كما هي.

العرض هو رأي أيضا

قلت بأنك لا ترغب في المناقشة.

---

(٣) نوغوا أو نووا Nuwa هو شخصية أسطورية قدم على شكل مسخ نصفه امرأة، ونصفه سمكة. إن زوجة فوكسي أو أخته، وهو أحد الأباطرة الأسطوريين، رفعت القبة السماوية، وخلقت الرجل وشكلته من الطين.

قلت بأنك انتهيت من رواية قصتك، مثل سم الثعبان كي، بأقل ابتذال وقبح ممكنين. من الأفضل لك أن تسمعي قصص النساء، أو القصص التي ترويها النساء للرجال.

قالت بأنها لا تعرف سرد القصص، وإنها ليست مثلك أنت الذي تستطيع الحديث خطأ أو صوابا. إن ما تريده، هي الحقيقة، حقيقة من دون تكلف.

حقيقة النساء. لماذا حقيقة النساء؟ لأن حقيقة الرجال غير حقيقة النساء. أصبحت غريبا. لماذا؟

لأنك نلت ما تريده، وأنتم الرجال، لا تهتمون بكل ما تحصلون عليه. آه جيد، أنت تعرفين أنه يوجد خارج عالم الرجال، عالم النساء، لاتتحدث عن النساء معي. أتحدث عماذا إذن؟

تحدث عن طفولتك، تحدث عنك. لم تعد تريد سماع قصصك، إنها تريد معرفة ماضيك، وطفولتك، وأمك، وجدك العجوز وحتى أدق التفصيلات، وذكرياتك عندما كنت لا تزال في المهد، إنها ترغب في معرفة كل شيء عنك، وعن مشاعرك الخفية. قلت إنك نسيت كل شيء. إنها تريد مساعدتك على استعادة ذكرياتك، وتذكّر الأحداث والناس الذين نسيتهم، إنها تريد أن تطوف معك في ذاكرتك، والدخول إلى أعمق نقطة في روحك، والعيش معك في حياتك الماضية.

قلت إنها تريد امتلاك روحك. قالت هذا هو، إنها لا ترغب في امتلاك جسدك فقط، إنها تريدك كلك، ومن خلال صوتك تريد الدخول إلى ذاكرتك، وتستحوذ على ذكرياتك، وتلج إلى بواطن روحك، وتلعب بخيالك، إنها تريد أن تصبح روحك. قلت: إنك ساحرة حقيقية. قالت: هذا هو، إنها ترغب في أن تصبح نهاياتك العصبية، وتريد أن تستخدم أنت أصابعها لكي تلمس، وعينيها لكي ترى، وأن تعيد تشكيل أحلامك معها، وأن تحضرا معا جبل الروح، إنها ترغب في تأمل روحك كلها من قمة هذا الجبل، بما في ذلك الزوايا الأكثر خفية من كيانك، والأسرار الأكثر خصوصية. وقالت بقسوة حتى الأخطاء يجب ألا تخفيها عنها، إنها تريد أن ترى كل شيء بوضوح.

سألتها إذا كانت تريد منك ايضا أن تعترف؟ آه، لا يجب الحديث بمثل هذه القسوة، أنت من أراد ذلك، قالت: أليست هذه هي قوة الحب؟

قلت إنك لا تستطيع مقاومتها، وسألتها من أين البداية. قالت لك بأن تروي ما تريد شرط أن تتحدث عن نفسك.

قلت إنك عندما كنت صغيرا التقيت عرافا، ولكنك لم تعد تتذكر تماما إذا كانت

أمك أو جدتك لأمك هي التي أخذتك لرؤيته.

قالت: ليس لذلك أهمية، إن ما تتذكره بوضوح هو أن هذا العرّاف كان يمتلك أظافر طويلة وأنه كان يستخدم أحجار شطرنج من النحاس الأصفر لتشكيل الكلمات الثمانية التي تتطابق مع ميلادك، وضعها على طاولة الثمانية أشكال الثلاثية، وأدار البوصلة، سألتها إذا كانت قد سمعت شيئاً عمّا يسمى بفن الدب الأكبر، إنها تقنية خاصة بعلم الأعداد شائعة كثيراً، وتسمح بالتكهن بالمستقبل، وحياة الناس وموتهم، قلت بأنه عند وضع أحجار الشطرنج النحاسية، كان يطقطق بأظفاره فوق رقعة الشطرنج بطريقة مخيفة، وهو يتمتم ببعض التعويذات ((بابا كاكا، بابا كاكا، Papa Kaka))، ثم صرح بأن الطفل سيواجه صعوبات عديدة في حياته، وأن أبويه يريدان تذكيره بهما في حياة سابقة، وأنه سيكون من الصعب تربيته؛ لأن الديون المتراكمة أصبحت كبيرة! سألت والدتك أو جدتك لأمك كيف يمكن تلافي القدر.

قال بأنه على الطفل أن يحطم صورته لكي لا تستطيع أشباح الرجال ضحايا الظلم، التعرف عليه عندما تأتي للبحث عن روحه، استغلت جدتك غياب أمك عن البيت لكي تثقب إذنك، وتتذكر جيداً أنها هي من فعل ذلك، فركت شحمة الأذن بفاصولياء مونغو، ثم مسحتها بالملح مدعية أن هذا لا يسبب الألم، وبسبب قوة الفرك، تورمت شحمة الأذن، وبدأت شيئاً فشيئاً تؤلمك، ولكن قبل أن تثقبها بإبرة، عادت أمك، واختلفت معها.

تراجعت عن الفكرة وهي تدمدم، في حين أنه لم يكن لك رأي حول هذا الموضوع في هذا الوقت، سألتها عما تريد سماعه أيضاً، قلت بأن طفولتك لم تكن بائسة، وإنك لم تُمنَعْ من استعارة عصا جدك لكي تساعدك في تعويم وعاء على سطح المياه التي تسير في الأزقة بعد الرعد، وتتذكر أيضاً أنك في الصيف، أحصيت، وأنت ممدد على سرير من الخيزران، النجوم عبر فتحة السقف، وبحثت عن واحدة، لكي تصنع كوكبتك الخاصة، وتتذكر كذلك أن أمك، في ظهيرة يوم احتفال التنين، أمسكت بأذنيك ومسحتهما برهج الغار الممزوج بالكحول،وإنها أرادت أن تخط على رأسك كلمة Wang، الملك.

يقال إن هذا يحمي في الصيف من الجرب والدمامل، خفت أن تصبح شنيع المنظر، فرفضت وهربت قبل أن تكمل أمك كتابتها.

لقد تركت العالم منذ وقت طويل، قالت بأن أمها ماتت أيضاً ضمن مدرسة أطر السابع من أيار، كان عليها أن ترحل إلى الريف، على الرغم من مرضها،كانت المدينة كلها، في هذا الوقت، على وشك الحرب، ومستعدة لإفراغها من سكانها، كان يقال إن السوفييت سيهاجمون قريباً، قالت: آه! هي أيضاً هربت، وامتلأ رصيف المحطة

بالحراس، وليس فقط الجنود مع إشارتين حمراويتين على القبة، ولكن أيضاً رجال الميليشيات المرتدين ملابس عسكرية مع إشارة حمراء.

وعلى الرصيف كان هناك مجموعة من المعتقلين في معسكرات الاعتقال تحت الحراسة، كانوا مثل المتسولين البائسين، بعجائزهم من الرجال والنساء، وكل شخص يحمل متاعه من الأغطية، مع طاسة وكأس في اليد، وكانوا يغنون بصوت مرتفع: ((الاعتراف بالجرائم بانخفاض الرأس، هذه هي الحكمة، ورفض إصلاح النفس هو المأزق)) قالت بأن عمرها كان في هذا الوقت ثمان سنوات، وأنها انفجرت بالبكاء دون سبب، وأنها لم ترغب قط في الصعود إلى القطار، تمسكت بالأرض، وصرخت لكي تعود إلى بيتها، وبّختها والدتها، وقالت لها بأن الريف يسلي أكثر من المدينة، وإن الملاجئ المضادة للهجمات الجوية رطبة جداً، وإنها إذا استمرت في الحفر فيها، فإنها ستفسد كليتيها، وإنه من الأفضل لها الذهاب إلى الريف، حيث الهواء أكثر نقاء، ولا تعود بحاجة إلى مسح ظهرها كل مساء، صحيح أنها كانت مع أمها النهار كله في مدرسة الأطر. عندما كان يدرس الكبار السياسة عبر حفظ مقتبسات من كلام الرئيس ماو، وقراءة الإصدارات الصحفية، وكان منها الكثير في هذا الوقت، كان بإمكانها البقاء بين ذراعيها.

عندما ذهبوا إلى الحقول رافقتهم، وبقيت تلعب بقربهم.

وعندما كانوا يحصدون الرز، كانت تساعدهم في جمع السنابل.

كان كل الناس يحبون اللعب معها، لقد كانت الفترة الأجمل في حياتها، إنها تعشق مدرسة الأطر، على الرغم من أنها رأت العم ليانغ يتعرض لجلسة نقد، أُلقي به تحت مقعده، وضُرب حتى سال دمه، وفقد أسنانه،وكانوا يزرعون أيضاً البطيخ وعندما كان أحدهم يقطف واحدة، كان يناديها مباشرة،ولم تأكل منه في حياتها مثلما أكلته في هذه الحقبة. قلت بأنك أنت أيضا تتذكر سهرة رأس السنة الجديدة هذه، سنة شهادتك للبكلوريا. وكانت المرة الأولى التي تراقص فيها فتاة، ولذلك دست على قدميها كثيرا، كنت خجولا جدا، ولكنك كنت تردد بأن هذا لا أهمية له. نزل الثلج في هذه الليلة، وكانت قطع الثلج تذوب على وجهك، والطريق الذي قادك إلى بيتك بعد الأمسية اجتزته بسرعة لكي تلحق بالفتاة التي رقصت معها، والتي سبقتك...

لا تحدثني عن فتيات أخريات!

سأحدثك عن قطة كانت عندي، وكانت كسولة جدا إلى حد أنها لم تكن تمسك بالفئران.

لا تحدثني عن القطط.

أحدثك عماذا إذن؟

حدثني إذا كنت رأيتها، إذا كنت رأيت هذه الفتاة.

أي فتاة؟ الفتاة التي غرقت. الفتاة المثقفة المقيمة في الريف؟

الفتاة الشابة التي انتحرت بإلقاء نفسها في النهر؟

لا. أي واحدة إذن؟ تلك التي جذبتها عندما قلت لها إنكما ستسبحان ليلا، ثم اغتصبتها بعد ذلك!

قلت إنك لم تكن هناك. وقالت بأنها متأكدة بأنك كنت هناك. قلت إنك تستطيع أن تقسم على ذلك! آه، إذن لقد لمستها بالتأكيد. متى؟ تحت الجسر، في الظلام، أنت أيضا نلت منها، إنكم سيئون أيها الصبيان!

قالت إنك كنت صغيرا في هذا الوقت، وإنك لم تجرؤ.

أنت على الأقل نظرت إليها من المؤكد أنك نظرت إليها،

لم تكن تتمتع بالجمال العادي، إنها حقيقة جذابة وتتمتع بجمال خارق

لم تنظر إليها بطريقة دونية، لقد نظرت إلى جسدها.

قلت بأنك حلمت به فقط.

هذا غير صحيح، لقد فعلتها حقيقة. هذا مستحيل. هذا ممكن!

أنت قادرة على فعل كل شيء، كنت تذهب إلى بيتها غالبا.

آه، ماذا عندها؟ في غرفتها! قالت بأنك رفعت فقط ملابسها

كيف؟ كانت واقفة، ومستندة إلى الحائط.

إنها هي التي رفعت ملابسها بنفسها. هكذا؟ إلى الأعلى قليلا. ألم تكن تلبس شيئا تحت ملابسها؟ ولا حتى حمالة نهود؟

كان نهداها صغيرين، وفي بداية نموهما. إنهما منتصبان، بالتأكيد ولكن حلمتهما كانت ما تزال غائرة.

توقف عن الحديث عن هذا!

قلت بأنها هي التي أرادتك أن تتحدث عن هذا. لم ترد أن تتحدث عن هذا الأمر، ولم تعد تريد السماع.

ماذا تريدين أن أقول لك أيضا؟ ما تريده، ولكن لا تحدثني عن النساء. سألتها مابها. ليس هي التي تحبها. كيف يمكنك قول هذا؟ عندما مارست الحب معها، كنت تفكر بشخص آخر غيرها. هذا كذب! هذه المعلومة لا تستند إلى شيء.

قالت بأنها لم تعد تريد سماعك، وإنها لم تعد تريد معرفة شيء

قاطعتها قائلا: اعذريني. لا يجب عليك قول شيء

قلت بأنك، في هذه الحالة، ستستمع إليها.

لم تستمع إليها فقط، وسألتها قصدا إذا كانت تأكل دائما البطيخ في مدرسة الأطر

قالت بأنه لم يعد لديها شيء تقوله.

- ٣٣ -

كلما سرنا مع نهر تيبينغ Taiping، انطلاقا من مقاطعة جيانغكو Jiangkou، إلى نبع جين Jin تصبح الجبال من الطرفين بالتدريج ضخمة. بعد تجاوز القرية الصغيرة بانكسي Panxi، المسكونة بقبائل هان، وتوجيا، ومياو، ندخل إلى المحمية الطبيعية. هنا تبدأ السلاسل الجبلية الخضراء بالاقتراب بعضها من بعض، ويضيق مجرى النهر، ويتعمق إن محطة مراقبة النهر هيوان Heiwan، هي مبني صغير من الأجر ومن طابق واحد، مبني في عمق خليج صغير. ومدير المحطة رجل متوسط العمر، ضخم وأسمر وجاف. إن الثعابين الحيين اللذين رأيتهما هو الذي أخذهما إلى تاجر غريب عن المنطقة. شرح لي أن الثعابين كي هي على ضفاف النهر كثيرة جدا بين أوراق نبات Apocynum venetum .

- هنا، إنها مملكة الثعبان كي.

وبفضل هذا الثعبان تمت المحافظة على هذه الغابة المدارية الخضراء إلى يومنا هذا، وفي حالتها البكر تقريبا.

لقد سافر كثيرا، كجندي، ثم ككادر، ولكنه الآن لم يعد يريد الحركة. رفض حديثا وظيفة قائد شرطة، ومدير محطة الغرس في المحمية الطبيعية. إنه يفضل البقاء هنا وحيدا، يحرس هذا الجبل الذي يعشقه. وحسب كلامه، كانت توجد، قبل خمس سنوات، حيوانات الببر التي كانت تأتي لسرقة أبقار القرية، ولكن الآن لا يرى أحد أثرا لها. ضبط العام الماضي نمرا قتله الجبليون، وأرسله إلى مركز إدارة المنطقة. ووضعت عظامه في حمض الإمائي زرينخي من أجل حفظها كعينة، ضمن مكان محروس. ولكن لصا دخل إلى المكان بواسطة قسطل جريان المياه وسرق العظام، التي بيعت بوصفها عظام ببر لكي تخلط بالكحول، حيث يعتقد أنها تطيل العمر. شرح لي أنه ليس عالم بيئة، وليس باحثا. إنه مجرد حارس بسيط يقيم في هذا المركز منذ تأسيسه. يحتوي المبنى على غرف عديدة، وكان بإمكانه أن يستوعب المختصين الذين يأتون من كل مكان، للبحث أو لكي يجمعوا العينات. وكانت مهمة المبنى هي تسهيل إقامتهم

- ألا تحس أنك وحيد هنا، منذ وقت طويل؟

من الواضح أنه لا يوجد امرأة، ولا يوجد طفل.

- النساء مزعجات جدا.

روى لي عن الوقت الذي كان فيه جنديا خلال الثورة الثقافية، وكانت النساء أيضا منخرطات بقوة في الحركة. وأصبحت واحدة منهن، وهي شابة في الحرس الوطني وعمرها تسع عشرة سنة، بطلة رمي المنطقة. وعندما استمر الكفاح المسلح، رحلت إلى الجبل للحراسة وهناك قتلت خمسة مقاتلين كانوا قد حاصروها. أمر قائدهم المحتدم غيظا باعتقالها حية. وبعد انتهاء ذخيرتها تم إيقافها. وجردت من ملابسها، وأفرغ جندي سلاحه في مهبلها، فسحقه. عندما كان مسؤولا عن العاملين في منجم فحم صغير، تقاتل العمال بالسلاح الأبيض من أجل امرأة.

إنه تعرض إذن، لمشكلات عديدة بسبب النساء وهو نفسه كان متزوجا، ولكنه انفصل عن زوجته، ولم يعد يريد سماع الحديث عن الزواج.

- أنت تستطيع أن تأتي لتسكن هنا من أجل كتابة كتبك.

ويمكننا أن نشرب معا. إنني أشرب مع كل وجبة، ولكنني أتناول دائما قليلا من الشراب، ولا أكثر منه.

مر رجل على الجسر المصنوع من جذع شجرة موضوع فوق الماء أمام باب البيت. ويمسك في يده مجموعة من الأسماك الصغيرة.

سلم عليه مضيفي، وأشار إليه أن يقترب وشرح أن لديه ضيفاً.

- سأضع لك مقلياً حاداً بالسمسم، وهذا جيد مع الكحول، شرح لي أنه إذا أراد أن يأكل اللحم الطازج، كان يستطيع أن يطلبه من الفلاحين الذين يعودون من السوق يوجد في أقرب قرية صغيرة من هنا وهي على بعد عشرين (لي)، محل تجاري صغير يبيع الكحول ولفافات التبغ. ويتغذى غالبا على جبن الصوجا، لأنه في كل مرة يصنع فيها فلاح هذا الجبن، يضع جانبا قسما منه. ويربي كذلك بعض الدجاجات. ولذلك فهو يمتلك دائما دجاجة وبيضا.

الوقت وقت الظهيرة، وأنا أشرب الكحول معه، في أسفل الجبال الخضراء، وأتناول المقلي بالفلفل والسمسم، وطبق اللحم المملح الذي حضره.

- قلت إنها حقيقة حياة خالدين

- حياة خالدين أو غيرها، على كل حال، إن الحياة هادئة هنا.

وعلى الأقل لم ننزعج كثيرا. الأشياء بسيطة بالنسبة إلي، وهناك طريق واحد فقط يوصل إلى هذا المكان، ويمر من أمام ناظري. إن مهمتي الوحيدة هي حراسة الجبال.

سمعت في المنطقة أن المحمية الطبيعية في هذه البقعة محروسة جيدا، وأعتقد أن هذا يعود إلى نزاهة حارسها. وبحسب ما قاله، فإن له علاقات جيدة مع الفلاحين. في كل ربيع، يجلب له رجل كيسا من جذور النباتات الجافة.

- إذا مضغتها عندما تذهب إلى الجبل، تتجنبك الثعابين. إن الثعابين كي هنا خطرة جدا. نهض وهو يتحدث، وذهب إلى غرفته ليبحث عن كيس من الورق ممتلئ بالأعشاب، وأخرج منه جذر نبات الكستناء. سألته عن اسم النبتة ولكنه يجهله، ولم يسأل عنه من قبل قط. إنه دواء سري انتقل من الأجداد. لسكان الجبال استعمالاتهم الخاصة. إذا أردت الذهاب إلى قمة جيندينغ Jinding، فإنني أحتاج، بحسب رأيه، إلى ثلاثة أيام ذهابا وإيابا، وعلي أن آخذ الرز والزيت، والملح، والبيض، وقليلا من الخضار وجبن الصوجا. ويجب علي، من أجل قضاء الليل في الجبل، أن آوي إلى كهف ترك فيه بعض الباحثين الذين جاؤوا إليه من قبل، بعض الأغطية. إنها تقيني من البرد، لأن الهواء يكون شديدا في الجبل، ويمكن أن يكون الجو باردا جدا. ثم أعلن أنه سيذهب إلى القرية للبحث عن شخص لكي أستطيع أن أسلك الطريق من اليوم. ورجل عبر الجسر الخشبي.

- سأقوم بجولة في المنطقة. المياه في الأراضي العالية قوية إنها تلمع تحت أشعة الشمس، ولكنها في الزوايا البعيدة، مظلمة وهادئة، ويبدو أنها تخفي بعض المخاطر. إن الحياة البناتية على الضفة غزيرة جدا، وتميل خضرتها إلى السواد تقريبا، وتفوح منها رطوبة خانقة ومقلقة: ونفكر مباشرة بأن المكان ممتلئ بالثعابين. انتقلت إلى الضفة الأخرى متجاوزا بدوري الجسر الخشبي، تقوم وراء الغابة قرية صغيرة تتألف من خمسة أو ستة بيوت قديمة وعالية، ومصنوعة من الخشب، وقد اسودت جدرانها الخشبية وجسورها بفعل الرطوبة الشديدة العائدة إلى الأمطار الغزيرة.

- يسود هدوء كبير في القرية، فلا وجود لأي صوت بشري. أبواب البيوت كبيرة ومفتوحة، وتتكدس على الشرفات الأعشاب الجافة، والأدوات، وقطع الخشب، والخيزران. كنت أستعد للدخول إلى البيت لإلقاء نظرة عليه عندما اندفع نحوي فجأة كلب ضار شعره أسود رمادي، وبدأ ينبح بشدة. تراجعت بسرعة، وعدت إلى الضفة الأخرى. غرقت، عندئذ، في تأمل عميق في هذه الجبال الضخمة والرمادية الخضراء، المعروضة للشمس وراء مبنى مركز المراقبة الصغير.

- ينفجر ورائي صوت ضحك امرأة وصلت إلى الجسر. على كتفها العريض

حمالة مزدوجة تلف فيها ثعبانا ضخما طوله خمسة أو ستة أقدام ويحرك ذيله. من الواضح أنها تشير إلي، ولكنني لم أفهم ما قالته وأنا أقترب من النهر:

- هي! هل تشتري ثعباني مني؟

وبدأت بالضحك دون انتظار الجواب، ثم أخذت الثعبان بيدها، ورفعته نحوي بعصا. من حسن الحظ أن رئيس مركز المراقبة وصل في الوقت المناسب، وصرخ فيها بلهجة تأنيب:

- عودي إلى بيتك! هل سمعت؟ عودي بسرعة!

تراجعت المرأة، بإرادتها مكرهة، إلى الجسر ابتعدت بهدوء.

- لقد انزعجت. عندما ترى شخصا غريبا، فإنها تدبر، مباشرة، شيئا ما.

وجد فلاحا خدمني كعتال للأغراض، ودليل. مازال لديه عمل في بيته، ولكنه بعد ذلك حضر الرز والخضار لأيام عديدة. يمكنني أن أسافر أولا ثم يلحقني. الجبليون يعرفون جيدا الطريق، ولحقني دليلي بسرعة مع الزاد. ليس هناك إلا طريق واحد، لا يمكن أن أضل. على بعد سبعة أو ثمانية (لي) يوجد منجم نحاس لم يستغل كثيرا، ثم هجر منذ وقت طويل. إذا لم يصل رجلي لسبب معين، فإنني استطيع أن أرتاح فيه دائما.

نصحني مباشرة إنزال الحقيبة عن ظهري، وحملها لي الفلاح. ثم أعطاني بعد ذلك قضيبا يساعدني أثناء الصعود، وفي إبعاد الثعابين، وطلب مني أخيرا أن أمضغ قطعة من الجذر التي أعطاني إياها. سلمت عليه، لوح بيده نحوي وعاد إلى بيته.

لقد اختفى رأسه المسطح، ووجهه الأسود والنحيف، وذقنه المغطاة بلحية صغيرة.

ولا أستطيع حاليا أن أمنع نفسي من التفكير فيه، وفي موقفه اللامبالي بصورة كاملة اتجاه الحياة. وأفكر أيضا في الضفة المظلمة، من الطرف الآخر من الجسر، وفي البيوت الخشبية المائلة إلى السواد في القرية، وفي الكلب الضاري بشعره الأسود والرمادي، وفي المرأة التي كانت تلعب بثعبان في حمالتها، إن هذا كله، يبدو أنه يريد أن يعبر لي عن شيء ما، مثل الجبل الضخم وراء المبنى الصغير، إنني أجد هذا كله ذا سحر متميز، من دون أن أستطيع اختراق معناه.

- ٣٤ -

تسير في الطين تحت رذاذ مطر خفيف، الطريق هادئ وساكن، باستثناء الصوت المتعاقب لخطواتك على الأرض المبللة. نصحتها أن تسير على الأرض الأكثر صلابة، عندما سمعت صوت سقوط. استدرت فرأيتها ممدة على الطين، تستند ذراعها إلى الأرض، ويسيطر عليها الذهول. تقدمت لمساعدتها، لكنها انزلقت أكثر، ولوثت نفسها بيدها المطلخة بالطين. نصحتها أن ترفع تماما نعليها بكعبيهما العاليين، وبدأت بالبكاء على نحو يرثى لها، وجلست في وسط الطين. قلت لها بأنه ليس من أهمية أن تلوث نفسها، وهو أمر عادي، ويجب البحث عن بيت لكي تستحم ولكنها رفضت السير. قلت: هذه هي النساء، إنها تريد صعود الجبل من دون معاناة. قالت إنه لم يكن عليها أن تتبعك في هذا الطريق اللعين.

قلت لها إن الجبل لا يختزن المناظر الجميلة فقط، ولكنه يختزن أيضا المطر والريح. على كل حال ليس عندها ما تأسف عليه، لأنها موجودة هنا. قالت بأنك خدعتها، وإنه لا يوجد أي شخص في الطريق الذي يؤدي إلى جبل الروح اللعين هذا.

قلت إذا كانت تريد رؤية الناس وليس الجبال، فإنه يمكنها أن ترى كثيرا منهم في شوارع المدينة، ويكفيها أن تتجول في مخزن تجاري ضخم، في جناح الحلويات أو المنتجات التجميلية، الذي تجد فيه النساء سعادتها. عندها انفجرت بالنحيب وغطت وجهها بيديها الوسختين، كطفل حزين. صبرت عليها، وأجبرتها على النهوض، وسندتها لكي تسير.

قلت على كل حال، لا يجب البقاء هنا تحت المطر، وربما يوجد على مقربة من هنا بيت، وقد تتوافر النار فيه، وإذا توفرت النار، توجد الحرارة، وعندها لن تشعر بالضياع، وسترتاح قليلا. أنت تعرف جيدا أن وراء هذه الجدران الخربة، ستكون المساكن مهدمة بالتأكيد، وستكون القدور صدئة منذ وقت طويل.

ليس هناك أي خطورة في سماع نحيب امرأة على مقدمة الجسر هذه حيث تنبت الأعشاب الكثيفة، وراء القبور التي زرعت خلفها سلال من ورق أصفر باهت. كم تحب في هذه اللحظة ذاتها، أن تجد بيتا في الجبل كي تستطيع أن تضع ملابس جافة ونظيفة، وأن تجلس على أريكة من الصفصاف أمام النار، وأنت تحمل في يدك كأسا من الشاي، وأمامك المطر الذي يسقط من مقدمة السقف وأنت تروي لها قصة

للأطفال لا علاقة لها أبدا بعالم الرجال!

وستكون هي الفتاة الصغيرة العاقلة لجبلي وحيد، وتندس إلى جانبك، وتجلس على ركبتيك.

قلت إن عبقري النار هو صبي صغير أحمر متجرد من ثيابه تماما ويعشق القيام بمقالب سيئة. ويظهر دائما في غابات قطعت حديثا. ويقوم عن قصد بتحريك الطبقة الكثيفة من الأوراق اليابسة، ويتسلق الأغصان ويقفز بينها، ومؤخرته عارية.

حكت لك عن حبها الأول، أو بصورة أدق عن ميلها الأول نحو الحب، وهو حب فتاة شابة ساذجة. قالت إنه في ذلك الوقت كان قد عاد من مزرعة إعادة تأهيل عبر العمل. ولم يكن قد تغير، كان أسود، نحيلا، مثلما كان قديما، والوجنتان غائرتان بتجاعيد عميقة. مازال قلبها يميل نحوه. أنصتت إليه باهتمام وهو يحكي عن المتاعب والآلام التي عانى منها.

قلت إن هذه قصة قديمة جدا، وأنت تحفظها من والد جدك. قال إنه كان قد رأى بأم عينيه، الطفل الأحمر وهو يخرج من تحت الشجرة التي كان قد قطعها العام الماضي، ويتجه نحو شجرة كاميليا. هز الرأس، وهو مقتنع بأن عينيه الكهلتين كانتا قد خطفتا. جاء إلى الجبل من أجل قطع جذع شجرة زعرور طلبه منه باني سفن في كيانغشوي Xiangshui. شجرة الزعرور خفيفة، وهي مادة جيدة لبناء السفن.

قالت إن عمرها، في هذا الوقت، كان ستة عشر عاما، وكان عمره سبعة وأربعين أو ثمانية وأربعين عاما. كان يمكن أن يكون والدها. هذا بالإضافة إلى أنه كان صديق والدها في الجامعة، إنه صديق منذ فترة طويلة. بعد إعادة تأهيله، لم يعد يعرف شخصا عند عودته إلى المدينة. وكان يأتي دائما إلى بيتهم ليروي لوالدها حياته (كيميني) في معسكر إعادة التأهيل، وهو يشرب الكحول. كانت تسمع، وتسمع، والعينان مخضلتان بالدموع. لم يكن قد استعاد حيويته كاملة بعد، كان هزيلا، ومختلفا عما سيصبح عليه عندما وجد عملا كمهندس استشاري. عندها لبس الطقم على الطريقة الغربية، مع قميص بقبة بيضاء مكوية جيدا، وكانت عريضة ومفتوحة منحته وسامة حقيقية. ولكنها كانت في ذلك الوقت معجبة به،وتحبه، وأرادت أن تبكي من أجله، ولم تكن تفكر إلا بإسعاده لكي يتجاوز بطريقة سعيدة النصف الثاني من حياته. كانت تتمنى فقط أن يقبل حبها كفتاة شابة، وقالت إنها لم تهتم قط بأي شيء آخر. قلت إن والد جدك نزل، في هذا الوقت، من الجبل وهو يحمل جذع شجرة زعرور، عندما رأى جن النار يتسلق شجرة كاميليا. لم يبطئ خطوة ودون أن ينظر كثيرا عاد إلى بيته لكي يضع حمله. وقبل أن يدخل إلى بيته، صرخ : "أي شقاء!". كان

جدك في هذا الوقت مازال حيا، وسأله:"ماذا حدث يا والدي؟".

شرح والد جدك أنه رأى جن النار، زهورونغ Zhurong، وأنه بذلك أنهى أيام السعد.

ولكنها قالت إن صديق والدها، لم يكن يعرف شيئا، كان مغفلا. لم يقل لها بعد ذلك، عندما كانت في الجامعة إنه متزوج وعنده طفل. عندما رحل إلى المعسكر، انتظرته زوجته عشرين عاما، وكان ابنه أكبر منها سنا. بالإضافة إلى أن والدها كان أحد أصدقائه القدامى، فكيف يستطيع أن يعاملها هذه المعاملة؟ أي خجول؟ أي خجول؟ قالت إنه، في ذلك الوقت، أهانها عندما بكى. وقالت إن هذا الموعد هي التي ضربته. استأذنت والدها، وتذرعت بالذهاب إلى صديقة تقطن المبنى نفسه للخروج معا. تناديه عادة العم كي Cai. قالت له:"أيها العم كي، لدي ما أقوله لك" "مسموع، هيا، لنتحدث ونحن نسير". لا، لا تستطيع الحديث هكذا، في الشارع. فكر قليلا، وحدد لها موعدا في مطعم الاستراحة.

قلت إن الكوارث تتالت بعد ذلك. كنت في هذا الوقت ما تزال صغيرا، ولم يكن باستطاعتك إلا السير وراءهم، والمعول على الكتف، لكي تقتلع نباتات الخيزران. كان والد جدك أحدبا، وعلى قفاه ظهرت كتلة كبيرة من اللحم بسبب الأشجار الكثيرة التي نقلها. قال لك والدك إنه كان في شبابه صيادا ماهرا، ومع ذلك قتل بعد يومين من رؤيته للطفل الأحمر. اخترقت الرصاصة الصدغ من الخلف، وخرجت من العين اليسرى. سبح في بركة من الدم، ولكنه تمكن من الوصول إلى عتبة البيت حيث سلم الروح، ملوثا في طريقه جذور شجرة الكافور الموجودة في أرض الدار. ولم تكتشفه والدة جدتك إلا في الصباح الباكر عندما استيقظت لتقديم الطعام للخنازير. ولم تسمع خلال الليل أي صرخة. قالت إنها لم تحكي على الطاولة إلا عن مدرستها، والأشياء التي لا تهمه. اقترح عليها بعد الوجبة القيام بجولة في الحديقة العامة، وتحت ظل الأشجار تصرف كما يتصرف الرجال كلهم. أصبح ثملاً من الكحول، واراد أن يقبلها، ولكنها دفعته. قالت له إنها ماتزال تناديه عم كي، وأنها تريد تماما أن يعرف مقدار حبها له، وأنها تريد أن تسلم نفسها لشخص يحبها. لقد فقدت عقلها للحظة، إن هذا الرجل يتسلى بها، نعم هذا هو، إنها تستخدم كلمة تسلية، لقد استسلمت لنزوة. اراد وهو يسمعها تتكلم بهذه الطريقة أن يأخذها في حضنه، ولكنها هربت.

قلت إن النهار لم يكن قد طلع في هذه اللحظة. في البداية تعثرت جدتك به، ثم بدأت بالعويل. وكانت في هذا الوقت حاملا بوالدك. وكان جدك هو الذي سحب الجثة إلى البيت. قال إن والد جدك وقع في كمين، أطلق عليه من الخلف طلقة تمتلئ

ببرادة الحديد من أجل صيد الخنزير البري. قال جدك أيضا إنه بعد وفاته بوقت قصير، اندلعت النيران في الجبل، والتهم الحريق الغابة لمدة عشرة أيام متتالية. من المستحيل إطفاء مثل هذه النيران. لقد أضاء نورها السماء، وحولت جبل هوري Huri، إلى بركان حقيقي، قال جدك إن والده قتل في لحظة اندلاع النيران. أكد، بعد ذلك، أن موت والد جدك لم يكن له علاقة مع الطفل الأحمر، وأنه وقع ضحية كمين عداوة شخصية. اراد جدك بعد وفاته، العثور على قاتل والده ولكن عندما روى لك والدك هذه القصة، اكتفى بإطلاق زفير دون أن يقول أي كلمة زائدة.

قالت إنه أعلن هو أيضا أنه يحبها، ولكنها قالت: 'هذا غير صحيح'. لقد ادعى فعلا أنه يفكر فيها، ولكن الوقت كان متأخرا. سأل لماذا؟ أي سؤال ! لماذا لا يستطيع أن يقبلها ولو لمرة واحدة، قالت إنها تستطيع أن تضاجع أي رجل، ولكن ليس هو. 'صرخت، اذهب من هنا، لن تستطيع أبدا أن تفهم'. لقد كرهته، ولم تعد تريد رؤيته. ودفعته بقوة. قلت إنها ليست ممرضة أبدا، وإنها كانت تروي لك أكاذيب على طول الطريق، وهي لم تتحدث عن صديقة، بل تحدثت عن نفسها، وعن تجربتها الخاصة. وردت عليك بأنك أنت أيضاً لم تتحدث عن جدك ووالده، ووالدك، بل تحدثت عن نفسك، لقد اخترعت قصصا لإخافتها. قلت إنك حذرتها بأن الأمر يتعلق بحكاية للأطفال، ولكنها ردت بأنها ليست طفلا صغيرا، ولن تستمع ثانية لهذا لنوع من الحكايات، وأنها ترغب فقط في أن تعيش في الواقع، ولم تعد تؤمن بالحب، وأنها تعبت، وأن الرجال هم أيضا شهوانيون. وسألت: 'والنساء؟' قالت: إنهن أكثر دناءة، لقد رأت كل شيء، ولم تعد لديها شهوة الحياة، ولا ترغب في أن تتعذب ثانية، ولا تبحث إلا عن لحظة سعادة بسيطة. سألتك إذا كنت مازلت ترغب فيها.

هنا، على هذه الأرض المبللة؟

إن هذا أكثر إثارة، أليس كذلك؟

قلت إنها رذيلة حقا! فردت ولكن أليس هذا هو ما يحبه الرجال بدقة؟

هذا بسيط، سهل، بالإضافة إلى أنه مثير، عندما ينتهي، ينتهي

سألتها: كم رجلا ضاجعت؟ أكثر من مئة على الأقل.

لم تصدقها. ما الذي يصدق وما الذي لا يصدق؟ في الواقع، هذا بسيط، يكفي أحيانا، بعض الدقائق.

ضمن المصعد؟ لماذا ضمن المصعد؟ لقد رأيت هذا في الأفلام الغربية. يمكننا أن نعمل هذا في كل مكان، تحت شجرة، في زاوية جدار. أنقوم بهذا مع رجل لا نعرفه تماما؟ هذا أفضل، إذ يكون الإزعاج أقل إذا التقينا ثانية.

سألتها إذ كانت تفعل هذا غالبا.

فأجابت، فقط عندما يكون لدي رغبة لذلك. وعندما لا تجدين الرجال؟ ليس من الصعب إيجادهم. إنهم يلاحقون المرأة بمجرد نظرة بسيطة. قلت إنك غير واثق من أنك ستتبعها، بمجرد نظرة من قبلها.

قالت إنك ربما لا تجرؤ، ولكن غيرك يجرؤ. أليس هذا هو ما يريده الرجال؟ آه جيد، أتتسلين مع الرجال.

لماذا، ألا يوجد غير الرجال الذين يتسلون بالنساء؟ فما المدهش في الأمر؟ هذا يعني أنها تتسلى بنفسها.

ولماذا لا؟ في هذا الطين! ثم قالت وهي تضحك بهدوء، إنها تقدرك، ولكن هذا ليس الحب. وقالت أيضا إنه ينبغي أن تأخذ حذرك إذا بدأت تحبك حقيقة...

سيكون هذا مصيبة بالنسبة إليك، أم بالنسبة إليها. بالنسبة إليك وإليها.

إنك ذكي فعلا. وقالت إنها تحب فيك هذا الذكاء.

قلت إنه من المؤسف ألا تحب جسدك. فقالت إن الرجال كلهم يملكون جسداً. أضافت بعد ذلك إنها لم تعد ترغب في إتعاب نفسها في الحياة، وأطلقت نفسا طويلا قبل أن تطلب منك أن تحكي لها قصة فرحة.

هل أروي ايضا عن النار؟ أو عن الطفل الأحمر. بمؤخرته العارية؟ ما تريده. قلت عندها إن جن النار زهورونغ، طفل النار هو إله هذا الجبل الضخم. في أسفل جبل هورين هجر معبد جن النار، ونسي الناس أن يقدموا أضحيات فيه، ويستخدمون الكحول واللحم في حياتهم الشخصية. غضب الإله الذي نسيه الجميع، وعندما والد جدك..

لماذا لا تكمل؟

في الليلة التي مات فيها، وعندما كان الجميع يغطون في نوم عميق، أنار ضوء ساطع الجبل المظلم، وعندما دفعت الريح هبات من رائحة الحريق، بدأ الناس يختنقون في نومهم، ونهضوا بسرعة. وبسبب منظر النيران، مكثوا في أماكنهم. وفي الصباح، كان الدخان قد ملأ المكان، وكان الوقت متأخرا للرحيل. هربت الحيوانات البرية من أمام النيران، بسبب الخوف الشديد، ولجأت حيوانات الببر، والنمر، والخنازير البرية، والأرانب بسرعة إلى السيل. إن المياه الجارفة هي وحدها التي منعت تقدم النيران. رأى الحشد الكبير الذي وقف على الضفة لينظر إلى الحريق فجأة طيرا أحمر ضخما يطير وله تسعة رؤوس. كان يبصق النار، وذيله الطويل مذهب ومفرود، ويطلق صرخة تشبه صراخ الوليد الجديد، واختفى في السموات. تطايرت أشجار قديمة العهد وضخمة في الهواء كما يتطاير الريش، ثم سقطت في سعير النار مسببة جلبة كبيرة..

رأيت، في الحلم، الجرف الصخري ينفتح ورائي، ويطلق صوتا حادا، وتتبعث من بين الصخور سماء رمادية صافية، وتحت السماء، ممر ضيق، مهجور وهادئ، وعلى الجانب باب معبد، إنني أعرف أنه يؤدي إلى معبد ضخم ولم يفتح من قبل قط، ووضع على المدخل حبل من النايلون تجفف عليه ملابس أطفال، إنني أعرف هذا المكان، لقد جئت إليه سابقا، إنه معبد ملكي منطقة غوان Guan، تنزهت على السد الذي يفصل مياه النهر التي تتدفع تحت أقدامي، وعلى الضفة المقابلة توجد أنقاض معبد آخر لم يعد مستخدما، أردت الدخول إليهن، رأيت فقط الثعابين المائية التي تتسلق على الشرفات السوداء المنحنية المتجاوزة كثيرا لجدران فناء البيت، تقدمت قليلا وأنا أمسك بسلك معدني، على الضفة البيضاء للنهر، هناك رجل يصيد أردت الذهاب نحوه، بدأ الماء يرتفع، فاضطررت إلى الرجوع، حاصرتني المياه من الجهات كلها، وفي وسطها عدت طفلا أنا، في هذه اللحظة واقف أمام هذا المدخل، نظرت إلى نفسي كطفل، كنت أنتعل حذاء من القماش، لم أعد أستطيع التقدم أو التراجع، وعلى مقدمة حذائي يوجد أزرار من القماش، كان زملائي في المدرسة الابتدائية يقولون أنني كنت ألبس حذاء فتاة، وكانوا يزعجونني، ومن فم هؤلاء الصبية المعودين على الشارع فهمت معنى هذه الإهانة، وكانوا يقولون أيضا إن النساء بضاعة سيئة، وإن المرأة الضخمة التي تبيع الفطائر في طرف الشارع تغري الرجال، كنت أعلم أن هذا كلام بذيء له علاقة بالطبيعة البشرية للرجال والنساء، ولكن طبيعة هذه العلاقات بقيت غير واضحة تماما في رأسي، وقالوا إنني أحببت الفتاة الصغيرة النحيفة السوداء التي كانت في صفي، والتي أعطتني منديلاً معطراً، لقد احمررت خجلا، والتقيت في يوم من الأيام بعد دخولي المدرسة الإعدادية، في العطلة، هؤلاء الصبيان خلال عرض سينمائي خاص بطلاب المرحلة الثانوية، لقد قالوا لي إنها ازدادت جمالا وإنها فتاة مثيرة جدا، وإنها استفسرت عني، سألوني لماذا لا أضرب لها موعدا، بعد ذلك، وقعت في حب النساء، لقد تخبطت، مددت اليد للمس أسفل الجسد المبلل لامرأة، لم أكن جريئا هكذا قديما، كنت أعلم أنني سأصاب بالخيبة، ولكنني كنت أحب هذا في السر، وكنت أعلم، ربما، أنها كانت امرأة كنت أرغب في رؤيتها دون أن أستطيع ذلك، لم أكن أستطيع رؤية وجهها الجميل، أريد أن أقبلها بفمي الذي قبلته من قبل امرأة أخرى، لم أكن أحبها، في قرارة نفسي، ولكنني كنت أستمتع بهذا، رأيت

ايضا عيني والدي الحزينتين والصامتتين، إنني أعرف أنه ميت الآن، ولكن هذا غير صحيح في حلمي، حاولت جاهدا أن أترك نفسي تذهب، ثم سمعت قرقعة الباب في الريح، تذكرت أنني نائم في كهف في الجبل، السقف فوق رأسي غريب يصعد ويهبط، وينيره ضوء البرق، نمت بكامل ملابسي في الأغطية المبللة تماما، وتبللت ملابسي كذلك، تجمدت قدماي، ولا أستطيع إعادة الدفء إليهما، الريح قوية، ويصفر مع كل فتحة للباب، كحيوان مفترس مضرج بالدماء كنت أستمع بانتباه، وأنا ممدد في كهف في الجبل مغلق بلوح خشبي بسيط، إلى صوت الريح النازلة من قمة الجبال والمندفعة إلى الحقول والغابات.

استعجلت النهوض لأتبول على ضوء مصباح أحمله بيدي، وخلعت حذائي. سحبت اللوح الخشبي الذي يثبت الباب المصنوع من قشور الخشب. يصفق الباب بشدة عندما يدفعه الريح. المصباح لا يضيء إلا دائرة ضيقة بين قدمي في ظلمة هذا الليل الدامس. تقدمت خطوتين، وفككت أزرار بنطلوني، عندما رأيت فجأة وأنا أرفع رأسي، ظلا ارتفاعه أكثر من عشرة أمتار ينتصب أمامي، أطلقت صرخة وأوقعت المصباح. تخيلت أن الأمر يتعلق بظل الشيطان الذي أشير إليه في (دراسة في جبل فانجينغ Fanjing). حركت مصباحي، فتحرك الظل أيضا. لقد كان في الواقع ظلي الذي ظهر في الليل. خرج الفلاح الذي ساعدني كدليل عندما سمع ضجيجا، ويحمل معوله في يده. لم أكن قد استعدت وعي بعد، ولم أستطع التكلم معه. حركت المصباح، وأنا أهمهم، لكي يرى. وهو أيضا أطلق صرخة وابتعد عن المصباح. عندها ظهر ظلان كبيران في عتمة الليل، وكانا يهتزان مع إيقاع صرخاتنا. أي ذهول أن يخاف الإنسان من نفسه، فكيف إذا كان من خياله. وكطفلين، بولنا على أنفسنا ونحن نرقص لكي نتخلص من الخيال الشيطاني. وكذلك من أجل أن نهدأ، ونريح أعصابنا المتوترة. بعد أن دخلت إلى الكهف، منعني التوتر من النوم ثانية. عاد مرافقي أيضا إلى فراشه. طلبت منه أن يروي لي حكايات عن الجبل. بدأ يتلعثم، ولكنه تحدث باللهجة العامية فلم أكن أفهم إلا كلمتين من كل عشر كلمات. بدا لي أنه يحكي حكاية ابن عم بعيد، يقوم بعمل معين، وفقد إحدى عينيه بعد أن اقتلعها دب بري لأنه لم يكرم إله الجبال قبل أن يذهب إليه. من المستحيل معرفة فيما إذا كانت هذه طريقة لتوجيه انتقادات لي استيقظت مبكرا، لأنني كنت أريد الذهاب إلى جيولونغشي، Jiulongchi بحيرة التنانين التسعة. هبط ضباب كثيف. سار دليلي أمامي، ولا يمكن تمييز الخيال أبعد من ثلاث خطوات مني، وعلى بعد أكثر من خمس خطوات لم يعد يسمعني، حتى وإن

ناديته بصوت عال. لا شيء مستغرب إذا كان المصباح، في الليلة الماضية، يستطيع أن يعكس الخيالات على ضباب كثيف إلى هذا الحد. كانت هذه تجربة جديدة بالنسبة إلي، مع كل زفير، يأتي بخار أبيض ليملأ الفضاء الحر من الفم. توقف على بعد أقل من مئة خطوة من الكهف، واستدار وهو يقول من المستحيل الاستمرار.. لماذا؟

- فهمهم، في السنة الماضية رحل ستة أشخاص، في مثل هذا المناخ، إلى الجبل ليجمعوا سرا نباتات طبية، ولم يعد منهم إلا ثلاثة فقط.

- أتريد أن تخيفني، أليس كذلك؟

- إذا أردت الذهاب إلى هناك، اذهب لوحدك من دوني

- ولكنك دليلي! من المؤكد أنني منزعج قليلا

- لم أقل له إنني أنا الذي أدفع له راتبه.

- إذا حصل لك شيء، فسيكون عندي حسابات أصفيها مع مدير المركز.

- لن يكون عندك أي حساب تصفيه معه. هو ليس رئيسي وليس مسؤولا عني.

أريد فقط أن أذهب لرؤية بحيرة التنانين التسعة. قال بأنها ليست بحيرة، إنها فقط مجموعة مستنقعات مياهها عميقة.

- الأمر سيان عندي إذا كانت كبيرة أو مستنقعات، أريد أن أرى الزبد الأبيض الذي يغطي السد، أتيت إلى الجبل لأرى هذا الزبد الكثيف، أريد أن أذهب لأتقلب داخل هذا الزبد. قال لي إنه لايمكن التمدد فوقه، إنها أعشاب تنبت في الماء. رغبت في أن أروي له أن مدير المركز هو الذي قال لي إن التقلب على هذا الزبد أكثر روعة من النوم على سجادة، ولكنني لا أريد أن أشرح له ماهي السجادة.

- سكت، وسار أمامي، مطأطئ الرأس. استأنفت السير. هذا نصري: لقد فرضت إرادتي على دليل أدفع له. أردت أن أثبت أن لي إرادة، وهذا هو معنى مجيئي إلى هذا المكان، الذي لا تجرؤ الشياطين بالدخول إليه.

- عاد إلى الاختفاء ثانية، أبطأت سيري قليلا، واختفى ضمن بياض الضباب. أسرعت الألحق به، ولكنني اصطدمت بشجرة كبيرة. إذا أردت أن أجد طريقي لوحدي، بين هذه الأشجار والحقول، فلن أصل إلى ذلك أبدا. ليس لدي أي فكرة عن وجهتي، وبدأت أنادي بصوت مرتفع.

- أخيرا عاد إلى الظهور ضمن الضباب، ويشير نحوي بطريقة غريبة. ولم أسمعه يصرخ إلا عندما أصبحت أمامه، ودائما ضمن هذا الضباب المشؤوم.

- هل أنت منزعج مني؟ حاولت الاعتذار.

- أنا لست منزعجا، وليس ضدك على كل حال، أنت من يجب أن يزعل مني!

استمر في التأشير وهو يصرخ، ولكن الأصوات تصل بطريقة مخنوقة عبر الضباب. أخذت بعين الاعتبار أنني لست بكامل عقلي. تعقبت خطاه، وسرت على آثاره. من المؤكد أن هذا الأمر غير اعتيادي، ولم نعد نستطيع الذهاب مسافة أبعد.

لم آتي إلى هذا الجبل لكي أتتبع آثار هذا الرجل. لماذا جئت إذن؟ مما لا شك فيه أن لدي هاجسا سيئا بسبب الحلم والخيال الشيطاني لهذه الليلة وملابسي الرطبة، والليلة البيضاء التي أمضيتها، وتعبي. حاولت أن أتناول من جيب قميصي الذي يلتصق بجلدي، جذر العشب الطبي المضاد لسم الثعبان، ولكنني لم أعثر عليه.

- من الأفضل أن نعود

- لم يسمعني علي أن أصرخ:

- نعود !

اصبح الموقف مضحكا، ولكنه لم يضحك. اكتفى بالهمس:

- كان يجب أن نعود منذ وقت طويل.

انتهيت، إذن، إلى الانصياع له. وفي الكهف أشعل مباشرة، النار، ولكن الضغط الجوي منخفض جدا، لايمكن للدخان أن يتبدد، ولذلك ملأ المكان، ومنعنا من فتح عيوننا. تمتم وهو يجلس بالقرب من الموقف.

- ماالذي قلته في النار؟

- قلت له إننا لسنا عصاة. ثم صعد إلى سريره. بعد وقت قصير سمعت شخيره. إنه كائن بسيط، إحساسه هادئ، في حين أنني كائن أناني، أبحث دائما عن روحانية ربما لن أكون قادرا على إيقاظها في نفسي عندما تظهر. وأجهل إلى أين سيقودني هذا كله. أصبت بالكآبة في هذا الكهف الرطب، مع هذه الملابس المبللة والباردة التي تلتصق بجلدي. إن أكثر ما أرغبه في هذا الوقت هو نافذة، نافذة مضيئة، مع بعض الدفء وراءها، وشخص يحبني وأحبه، هذا كل شيء. وأي شيء آخر سيكون لا معنى له. ولكن هذه النافذة مازالت حلما زائلا.

إنني أحلم غالبا بأنني أبحث عن بيت طفولتي، وعن أعذب ذكرياتي رأيت في الحلم تتابع الفناءات كأنها تيه بممرات مظلمة وضيقة ومتعرجة، لا أستطيع أبدا أن أجد مخرجا فيه. في كل مرة أرى فيها هذا الحلم، تكون الطرق مختلفة، أحيانا يكون الفناء الداخلي الذي تسكن فيه عائلتي ممرا للجيران، ولا أستطيع أن أفعل شيئا لمنعهم من رؤيته، ولا أستطيع التمتع بإحساس الحميمية الممتع حتى وإن كنت داخل

المنزل، والحواجز لا تصل إلى السقف، أو أن الأوراق الملصقة على الجدران ممزقة، أو أن حائطا مهدم بصورة كاملة، أخذت درجا يصعد إلى الطابق الأعلى ونظرت إلى الأسفل، داخل الغرفة، كل شيء خراب، وفي الخارج كان حقل اليقطين الذي تمددت تحته لأمسك صرار الليل، ويثير وبر ساق اليقطين المختلط بعرق رقبتي وذراعي حكة في كل أنحاء جسدي، وأحيانا تحت الشمس الساطعة، وأحيانا أخرى تحت المطر البادر، وداخل هذا الفناء الممتلئ بالأنقاض، بنيت بيوت جديدة، لا أعرف تاريخها، وكانت نوافذها دائما مغلقة، وتحت هذا السرادق الذي لا جدران له تقريبا، كانت جدتي لأمي تستعد لنقل صندوق ملابس من خشب الباليساندر، العتيق مثلها، وكان غطاؤه مفتوحا، لقد ماتت منذ وقت بعيد، ولكنني مع ذلك يجب أن أستعيد ذكرياتي الجميلة، وأحلام طفولتي، أريد ان أجد أصدقاء طفولتي، وزملائي الصغار الذي نسيت اسمهم، كان هناك صبي على شفته السفلى ندبة، كان مظهره جدياً وكان لديه إناء من الخزف النفسجي، وكان يقول إن جده هو الذي أعطاه إياه، أحببت أيضا أخته، وكانت فتاة طويلة لطيفة جدا، ولكنني لم أكلمها قط، عرفت أخيرا أنها تزوجت، لا فائدة من الذهاب إليها، ولن أجد كذلك زميلي الصغير في الطفولة ذا الندبة على شفته، قطعت الزقاق الذي تتجاوز فيه أبواب بيوتهم، وشرفاتهم التي تتقدم حتى منتصف الشارع، استعجلت العودة إلى بيتي، كانت جدتي تنتظرني على الطعام منذ أن حلت ساعة الطعام، نادتني بصوت عال، وعندما سمعت نداءها اعتقدت أنها تجادل شخصا ما، وهي تتجادل غالبا مع أمي، وتحتد بسرعة وسهولة، وكلما تقدمت بالسن، كلما ازداد طبعها حدة وأصبح غريبا، وهي لا تتفاهم بسهولة مع ابنتها، كان عليها أن تعود إلى الوطن لتعيش مع عائلتها، بعد ذلك قالوا إنها ماتت في المأوى، علي أن أجد هذا المكان لكي أكون مخلصا لوالدتي التي ماتت، في هذه اللحظة أفكر كثيرا بأولئك الذين رحلوا، وربما يعود هذا إلى أنني في الوقت الطبيعي، لا أفعل هذا كثيرا، مع ذلك كانوا الأشخاص الأقرب لي، في هذا الكهف أمام النار، وتستدعي النيران المتصاعدة الذكريات، فركت عيني اللتين لم أعد أستطيع فتحهما بسبب الدخان.

نهضت لأخرج، تبدد الضباب قليلا، ويمكننا أن نرى على بعد أكثر من عشر خطوات. نزل مطر خفيف. اكتشفت في شقوق الصخور بعض أعواد البخور المزروعة، وغصن شجرة علق عليه قماش أحمر. هل هذه هي صخرة الروح التي تأتي إليها النساء لتطلب إنجاب ذكر؟ وفي الأعلى، دعائم ضخمة من الأحجار تغيب ضمن الضباب. لم أفكر باكتشاف مدينة ميتة على هذه القمة.

- ٣٦ -

هل هناك شيء آخر يقال؟ حدثته عن هذه الأنقاض التي يغزوها القصب، والتي تضربها الرياح القوية في الذرا، والأحجار المحطمة، المغطاة بالطحالب والأشنة، وحيوان الوزغة* Gecho الذي يتسلق على بلاطة محطمة.

حدثته كيف كان الجرس هنا يقرع، قديما، في الصباح، والطبل في المساء، وكيف ينتشر دخان البخور، وكيف كان يسكن تسعمئة وتسعة وتسعون راهبا في الغرف الألف التي يملكها المعبد، وكيف كانت تقام الاجتماعات الدينية الفخمة أيام النيرفانا** .

قلت إنه عندما ينبعث دخان البخور من مجمرات العطور العديدة، يقوم الأتباع بقطع مسافة مئة لي في المكان لكي يروا بأعينهم الراهب العجوز يدخل في السعادة الأبدية. يتدافع الحجاج في الطرق التي تجتاز الغابة.

قلت إن ترتيل المزامير يصل صداه إلى ما وراء الباب الكبير للباغورا (معبد برجي). ليس هناك أي حصيرة صالحة في المعبد. إن الواصلين الأخيرين جلسوا على ركبهم فوق الأرض والذين جاؤوا بعدهم، انتظروا في الخارج. ووراء حشد الأتباع الذين لم يستطيعوا الدخول، ليتدافع حشد كبير من الناس. إنه اجتماع استثنائي.

قلت إن جميع المؤمنين يرغبون في الحصول على بركة الراهب العجوز. وكل مؤمن يتمنى استقبال رسالته لأن الأستاذ الكبير يعلم، قبل دخوله في السعادة الأبدية، الدهارما Dharma.

إن حالة القداس الديني موجودة في الطابق الأرضي من سرادق الأعمال التشريعية، على يسار معبد التريزور الكبير.

قلت إن شجرتي قرنفل مزهرتين غرستا في الفناء أمام الصالة، إحداها حمراء، والأخرى بيضاء، وإن الأرض كانت مغطاة بالحصر من الصالة إلى الفناء. تحت أشعة شمس الخريف اللطيفة، كان الكهنة البوذيون ينتظرون وهم جالسون، القلب طاهر، والذين علمهم الراهب العجوز في المرة الأخيرة الدهارما.

قلت إنه بقي جالسا بلباسه الذي يشبه لباس النساء، على منصة من خشب الصندل الأسود، التي حفرت عليها زهور اللوتس، ويقوم بالتطهير والصيام الكامل منذ سبعة أيام وسبع ليال من دون أكل ولا شراب، ويحافظ على عينيه مغلقتين،

* الوزغة: جنس حيوان من الفصيلة الوزغية. (م).

** النيرفانا: تلاشي الذات أو الفناء النير، عند البوذية هي وقف حد نمو الحياة وقفا تاما وذلك بإنضاج البذور التي تعيد غرسنا بالإنقطاع في التناسخ، وهي عند شوبنهور إنكار إرادة الحياة إنكارا تاما، أي محو الميل إلى بقاء الذات والنوع، في مقابل الفناء لدى متصو في الإسلام. (م).

ويضع ثوبا مرقعا طويلا على كتفيه. وأمام المذبح، تستخدم قطع صغيرة من خشب الصندل الأبيض في مجمرات العطور البرونزية المنحوتة، وتنتشر رائحة هذا الخشب في الصالة كلها.

كان تلميذان من تلامذته جالسين إلى جانبه، وكان نحو عشرة كهنة من الذين كللوا بيديه ينتظرون بخشوع في أسفل المنصة. يحرك بيده اليسرى المسبحة، ويمسك بيده اليمنى الجرس الذي يضربه بهدوء بقضب رفيع من المعدن يشد عليه بين أصابعه وكالحرير الناعم، يتصاعد صوت الجرس، وينتشر بين السلال المعلقة في الصالة.

قلت إن الكهنة كان يستمتعون عندئذ إلى صوته الرخيم: 'يعلمنا بوذا أنه من أجل رؤية البعث لا يجب النظر إلى بوذا من خلال صورته الجسدية، إن ما يسمى صورة بوذا الجسدية، ليست إلا الصور الفانية من جسده، إن الصور التي نراها ليست هي صورته، إنها نفي لصورته. إن ما أنقله إليكم، وحتى ما قاله بوذا لا يمكن قبوله إذا لم يكن يحكي نقله، إن ما لا يمكن نقله أو قبوله هو ما أنقله إليكم، هذا هو القانون الذي يعملكم إياه بوذا، هل هناك سؤال؟'.

قلت إن أي شخص من أتباعه لم يفهم معنى كلماته، ولم يجرؤ على طرح سؤال. وهذا الأمر أصعب بالنسبة إلى التلميذين اللذين يحرسانه على يساره وعلى يمينه فلا يجرؤان منذ سبعة أيام على السهوللحظة واحدة، وينتظران دون أي كلمة حتى يفصح المعلم عن غاياته وتعليماته. وفي مجمرة العطر احترق العود الأخير من البخور. أخيرا تشجع التلميذ الأول. تقدم خطوة، ثم ركع على ركبتيه، ثم سجد ويداه مضمومتان : 'تلميذك لديه سؤال، ولكنه لا يعرف إذا كان عليه طرحه'.

فتح الراهب العجوز عينيه قليلان وسأل ماهو السؤال. رفع التلميذ راسه، وألقى نظرة دائرية وسأل: 'هل نقل المعلم تعليماته إلى أحد أتباعه قبل الدخول في النيرفانا؟' الجميع فهم: يجب حتما أن يحدد خليفة ليهتم بدير الرهبان الواسع مع عدد كبير من الرهبان والشموع والبخور. كيف يمكن ألا يحل خليفة محل معلم كبير مثله؟

هز الراهب العجوز رأسه، وقرب إلى صدره طاسة القرابين وقال : 'خذ هذه الطاسة'. احترق البخور بصورة كاملة تقريبا، وارتفعت تلافيف الدخان في الهواء مشكلة دوائر ناقصة قبل أن تتبدد.

بدأ الجرس الحديدي الثقيل الذي يزن اثني عشر ألف طن في معبد التريزور الكبير والذي تأسس في عصر زهينيوان Zhenyuan للتانغيين بالضرب، تبعه صوت الطبول. وفي صالة القداديس، سارع الرهبان إلى ضرب سمكاتهم الخشبية، وأحجارهم الطنانة. فهم الحشد أن المعلم العجوز نقل تعاليمه وعين خليفته، فبدأ بترتيل المزامير وذكر اسم بوذا أمثيابا. ولكن التلميذين الأولين بقيا مأخوذين قليلا، فلم يسمعا إلا بعد كلمات: 'خذ هذه الطاسة'، وأضاف :'اذهب لتستعطي' لقد رايا

فقط شفتي المعلم تتمتمان، ولكن لم يستطع أي منهما التقاط تعليماته. مدا اليد في وقت واحد لتناول طاسة القرابين، ولا يريد أي منهما تركها. وأخيرا تحطمت الطاسة. أصيب الرجلان بالذهول. لقد فهما قصد المعلم، ولكنهما لم يجرؤا على التكلم معه. وحده الراهب العجوز فهم أن المعبد سيسقط أنقاضا في يوم من الأيام. لم يعد يستطيع تحمل الوضع أكثر، فأغلق عينيه، وجلس، منكفئا على نفسه فوق مقعده من زهر اللوتس، كانت اليدان متصالبتين، وركز اهتمامه على نقطة 'بوابة الحياة'، وبإرادته وضع حدا لحياته.

قلت كيف يقرع الجرس والطبل في صالة القداديس وخارجها. وفي الداخل كان الرهبان يرددون مجتمعين الصلوات التي تصل إلى الفناء. هنا يردد حشد الرهبان الصلوات ضمن جوقة، على امتداد الصالات الثلاث، والأجنحة الجانبية، وحتى خارج المعبد حيث يتجمع الأتباع بهوادجهم، وحميرهم، وخيولهم. لا يريد الأتباع الذي لا يستطيعون الدخول إلى المبنى أن يبقوا منعزلين، ويصرخون بأعلى صوتهم اسم بوذا أميتابا، إلى درجة أنهم يسمعون داخل المعبد!

رفع الرهبان الجرة الكبيرة حيث وضع الراهب العجوز بسعادة أبدية، مصحوبا بسلال مقدسة من الحرير المقصب، فتح الطريق من قبل التلميذين الأولين ويحركان صائدة الحشرات وبرشان الكحول ليطهران الأرواح والأجساد، ويتدافع الأتباع بسرعة إلى داخل المعبد للحصول على السعادة من رؤية الصورة الميتة للمعلم الأكبر. يصرخ أولئك الذين يستطيعون رؤيته 'الرحمة!'.

أما أولئك الذين لا يصلون إلى ذلك فإنهم يكونون في منتهى التعاسة، ويخفضون رؤوسهم، ويستعجلون السير على كعب اقدامهم، ويضيعون قلنسوتهم وأحذيتهم، ويقلبون مجمرات العطور دون الاهتمام بقدسية المكان.

عندما يثبت غطاء الجرة، الموضوعة على حطب أمام معبد التريزور الكبير، وقبل إشعال النار، تبدأ جلسة قراءة المزامير من أجل تحرير الروح، ولايمكن لأي خطأ أن يحدث في القداس الاحتفالي، ولكن أي معبد لا يمكنه أن يستوعب عشرات الآلاف من الأشخاص الذي يستعجلون ويتدافعون، ولا يستطيع حتى من يتمتع ببنية قوية أن يقاوم سيل البشر، ويطلق الناس الذين يتدافعون ويدوسون بعضهم على بعض صرخات استغاثة حادة ! لا يستطيع أي شخص أن يقول أين بدأت النار، وكم عدد الضحايا الذي هلكوا حرقا أو دعسا، وإذا كان عدد الأموات خنقا أكثر من عدد الأموات حرقا أو العكس، على كل حال، استمرت النار ثلاثة أيام بلياليها قبل أن تأخذ الرحمة الإله في الأعلى فيرسل أخيرا مطرا منقذا لم يترك إلا كمية من الرماد الذي ينبعث الدخان منه. وبعد الكارثة، لم يبق إلا الأنقاض، والتماثيل المحطمة، وموضوعات للدراسة بالنسبة إلى الأجيال المستقبلية.

- ٣٧ -

وراء الجدار المتهدم، جلس إلى الطاولة والدي ووالدتي، وجدتي لوالدتي، وكلهم ماتوا، إنهم ينتظرونني من أجل الطعام. لقد تجولت بما فيه الكفاية الآن، ولم أجتمع بالعائلة منذ فترة طويلة. لدي رغبة في الجلوس على الطاولة نفسها التي يجلسون عليها من أجل الحكي عن المطر والطقس الجميل، مثلما حدث عندما كنت عند شقيقي الأصغر، عندما شخص الطبيب السرطان، ونتحدث عن أشياء لا يمكن الحديث عنها إلا ضمن العائلة. في هذا الوقت كانت ابنة أخي الصغير تريد دائما مشاهدة التلفزيون، في وقت الوجبة، ولكن لم يكن باستطاعتها أن تعرف أن البرامج تركز على الحملة ضد التلوث الروحي الذي يفسر للجميع من قبل شخصيات مشهورة من الوسط الثقافي الذين يتخذون مواقف معينة ويستخدمون لغة المصادر الرسمية.

لم تكن هذه البرامج مخصصة للأطفال، ومن المؤكد أنها لم تكن تناسب كثيرا وقت الوجبات. وعندي الكثير من الأخبار التي أذاعها المذياع أو كتبتها الصحافة المكتوبة، أو نشرها التلفزيون، وأنا لا أطمح إلا في العودة إلى حياتي الخاصة، والحديث عن ماضي عائلتي الذي نسيناه، مثل والد جدي هذا المجنون الذي لم يكن لديه إلا رغبة واحدة: وهي أن يصبح موظفا كبيرا، ولهذا قدم أعطيات كثيرة من ممتلكاته، وقدم شارعا كاملا، دون فائدة، لأنه لم يحصل حتى على نصف وظيفة، وأصبح مجنوناً عندما فهم أنه خدع. عندها أشعل النيران في البيت الأخير، وهو البيت الذي كان يسكن فيه، ومات في الثلاثين من عمره، وكان أصغر مني في هذا الوقت.

تبقى هذه السنوات الثلاثين التي يقول عنها المعلم العجوز كونفو شيوس إنها الزمن الذي تشكلت فيه شخصيته، عمراً هشاً يكون من السهل فيه الوقوع بالفصام.

لم نشاهد أنا وأخي الصغير قط صورة لوالد جدي هذا، وربما كان التصوير في زمنه غير معروف في الصين، أو أنه كان حكرا على العائلة الامبراطورية. كنا أنا وأخي الصغير نأكل من الأطباق اللذيذة التي كانت تعدها جدتنا، وأفضل الأطباق والذي لا ننساه هو طبق القريدس بالكحول والذي كان لحمه يرتجف عندما يصبح في الفم وقبل أن نأكل واحدا منه كان علينا أن نشجع أنفسنا ونمسكه بيدينا الاثنتين.

وأتذكر أيضا أن جدي الذي أصيب بالشلل بعد أزمة قلبية، استأجر في الريف بيتا قديما من فلاح لكي يهرب من قصف الطائرات اليابانية. بقي ممددا في الغرفة

الرئيسية على مقعد طويل من الخيزران، الوجه متوج بشعره المذهب الذي تطيره الريح التي تتدفع من الباب الكبير المفتوح. كان يصاب بالهلع عندما يسمع صوت الإنذار من الغارات الجوية. كانت أمي تقول إنها كانت تردد على مسامعه باستمرار بأن اليابانيين لا يملكون كثيرا من القنابل وأنهم يحتفظون بها للمدن. كنت، في ذلك الوقت، أصغر من ابنة أخي الصغيرة حاليا، وكنت قد بدأت السير منذ وقت قصير. وأذكر أنه من أجل الذهاب إلى الفناء الخلفي كنا نجتاز عتبة عالية جدا، ثم كان علينا بعدها أن ننزل درجة. لم أكن أستطيع تجاوزها لوحدي، وكان هذا الفناء يشكل بالنسبة إلي دائما مكاناً غريباً. تمتد أمام باب المدخل ساحة لدرس الحبوب، وأتذكر كيف كنت مع أطفال الفلاحين، نتدحرج على القش اليابس.

غرق كلب صغير في مياه النهر الصافية التي تحاذي البيدر. لا أعرف إذا كان أحد القذرين هو الذي رماه في الماء، أو أنه غرق لوحده، ولكن جثته بقيت فترة طويلة على الضفة.

كانت أمي تمنعني تماما من اللعب على ضفة النهر، ولم أكن أستطيع الذهاب للحفر في الرمل إلا عند لحاقي بالراشدين الذي كانوا يذهبون ليملؤوا الماء من النهر. كانوا يضعون ثقوبا في الضفة ليجمعوا الماء المصفاة بواسطة الرمل.

فهمت في هذا اللحظة أنني محاط بعالم الأموات، وأن وراء هذا الجدار المهدم يوجد أهلي الذين رحلوا عن الدنيا. أرغب في العودة بينهم، والجلوس على الطاولة نفسها، وسماع الأحاديث التافهة، لدي رغبة في سماع أصواتهم، ورؤية نظراتهم، والجلوس بهدوء معهم، حتى وإن لم آكل. إنني أعلم أن لوجبات العالم الآخر قيمة رمزية، إنها نوع من الاحتفالية التي لا يتستطيع الأحياء المشاركة فيها، إن الجلوس إلى طاولتهم بدا لي فجأة أنه يشكل السعادة الكاملة. اقتربت منهم بحذر، إذن، ولكن بعد أن تجاوزت الجدار المهدم، نهضوا واختفوا بصمت وراء جدار آخر. إنني أسمع خطواتهم التي تبتعد، وأرى الطاولة الخالية التي تركوها. وفي لحظة واحدة، غطيت الطاولة بطحلب ناعم، وتفتتت وتحولت إلى كتلة من الأحجار، ونتبت بين شقوقها أعشاب مجنونة.

إنني أعرف أيضا أنهم يتحدثون عني في بيت مهدم آخر، إنهم لا يوافقون على سلوكي، وقلقون على موضوعي. في الواقع، يجب ألا يشغلهم شيء، ولكنهم يهتمون بالأحياء. إنهم يتشاورون سرا، ولكنهم يسكتون عندما أضع أذني على حائط الأحجار الرطبة المغطى بالطحالب.

عليهم متابعة الحديث بعيونهم، وقول إنني لا استطيع متابعة هذا الطريق، وإنه يلزمني عائلة طبيعية، زوجة عاقلة فاضلة تهتم بوجباتي، وتشرف على البيت، وإنني إذا أصبت بمرض مستعص، فإن ذلك يعود إلى أكلي غير المناسب. لقد اتفقوا معا لكي يعرفوا كيف يتدخلون بحياتي، علي أن أقول لهم ألا يقلقوا، وأنني وصلت إلى سن الرشد ولي أسلوبي الخاص في الحياة، وأنا اخترته بنفسي، ولا أستطيع العودة إلى السكة التي رسموها لي. لا استطيع العيش مثلهم، بالإضافة إلى أن حياتهم لم تكن ناجحة بالضرورة، ولكنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير فيهم، أريد النظر إليهم، وسماع صوتهم، والحديث معهم عن الماضي. أريد أن أسأل أمي إذا كانت أخذتني فعلا في القارب فوق كسيانغ Xiang.

إنني أتذكر قاربا من الخشب مع شراع من الخيزران المجدول، يزدحم فوقه الناس، ومنهم من يجلس جنبا إلى جنب على المقاعد على طرفي غرفة القيادة، ونرى من خلال الشراع أن ماء النهر تهدد بالإندفاع فوق سطح القارب. توقف القارب عن التمايل، ولكن أي شخص لم يقل كملة واحدة، وكل واحد يبدي عدم اهتمامه، حتى وإن أدرك الجميع بأن هذا القارب الممتلئ بالطوافات الجانبية مهدد بالإنقلاب بين لحظة وأخرى. لا أحد يريد مواجهة الحقيقة. وأنا أيضا تظاهرت بعدم الاهتمام بشيء، فلم ابك ولم أضطرب، وحاولت جاهدا لكي لا أفكر بالكارثة التي يمكن أن تقع في أي لحظة. أريد أن أسألها إذا كانت هي أيضا خائفة. لو أني رأيت ثانية هذا النوع من القوارب في نهر كسيانغ، فإن هذه الذكرى يمكن أن تكون واقعية. أردت أن أسألها أيضا إذا كانوا نجوا من قطاع الطرق عبر اللجوء إلى حظيرة الخنازير. كان الطقس في هذا اليوم، كما هو اليوم، يهطل مطر خفيف ناعم، تعطلت الحافلة على منعطف مرتفع على الضفة، ولم يتوقف السائق عن التفجع وهو يقول إن عليه أن يمسك المقود جيدا، لكي لا تتجه عجلات السيارة نحو الوادي وتحدث الكارثة. إنني أذكر أن العجلات هي عجلات الجهة اليمنى، لأنه بعد ذلك، نزل الركاب جميعا، ونقلوا أمتعتهم إلى الجهة اليسرى من الشارع، إلى جانب الجبل، ثم عادوا ليدفعوا الحافلة، ولكن العجلات كانت ماتزال غارقة في الطين، فلم تنجح محاولتهم. كانت الحافلة مزودة بمحرك على الفحم الخشبي، لأن الحرب كانت ما تزال مندلعة، ولم تكن السيارات المدنية تسير على البنزين.

ولكي تقلع، كان يجب أولا استخدام ذراع تدوير يدوي، حتى يصدر المحرك صوت الإقلاع. كانت السيارات في هذا الزمن كالرجال، لا تحس بالراحة إلا بعد التخلص من

الغاز الذي يملأ جوفها، ولكن الحافلة في هذه المرة حتى بعد أن فرقعت، لم تكن قادرة على الخروج، وكانت عجلاتها تنزلق وترش الطين على وجه الرجال الذين كانوا يدفعونها حاول السائق أن يؤشر للسيارات العابرة، ولكن أيا منهما لم يتوقف من أجل قطره. كانت السماء في مثل هذا الطقس سوداء بشدة، وكان الرجال لا يفكرون إلا في الهرب. مرت السيارة الأخيرة وكادت تلامس الحافة كان أضواؤها الصفراء الساطعة مثل عيني حيوان مفترس. بعد ذلك، كان المشاة يتسلقون الضفة بحذر ضمن الظلام، متحدين المطر، وينزلقون باستمرار على طريق الجبل الطيني وكل شخص يتمسك بملابس الشخص الذي يسبقه. كانوا مجموعة من كبار السن، والنساء والأطفال. وصلت الجماعة أخيرا وبعد جهد كبير إلى بيت فلاح لا ضوء فيه، ولم يرد أي شخص فتح الباب. كان عليهم أن يتزاحموا ضمن حظيرة الخنازير لكي يحتموا من المطر، وكان طلقات نارية تسمع باستمرار في الجبل. لمعت بعض المشاعل. إنهم، دون شك، قطاع طرق. ومنع الخوف أيا منهم من التلفظ بأي كلمة.

تجاوزت الجدار المهدم، ولا يوجد خلفه إلا نبتة بقس ذات أوراق صغيرة، بثخن الأصبع الصغير، وكانت تهتز مع الريح وسط البيوت المهدومة، دون سقوف. وفي الواجهة، ينتصب نصف نافذة يمكن الاستناد إليها للنظر إلى الخارج. وتتبثق من بين باقات الأضالية والخيزران السهمي بلاطات من الأحجار المكسوة بالطحالب التي تبدو ناعمة جدا وترى من مسافة بعيدة. ويقال كأنها جسد ممدد، والركبتان مطويتان، واليدان ممدودتان. وعلى السقف المذهب للمعبد، الذي كان يضم قديماً آلاف الصالات، وصومعات الرهبان، وضع قرميد معدني لكي يقاوم ريح الجبل العاصف. إن الرهبان والراهبات الذين كانوا يرافقون الخليلة التاسعة لوالد الإمبراطور وانلي Wanli، كانوا يأتون إلى هذا المكان ليمارسوا التطهير. لم تستطع الاحتفالات الكبيرة أن تترك أثرا، وهي التي كان يجري فيها إحراق البخور، وقرع الجرس في الصباح، والطبل في المساء. إنني أريد أن أعثر على آثار من هذا العصر، ليس علي إلا أن أعيد قطعة من نصب محطم.

هل ضرب الصدأ قطع القرميد المعدنية كلها خلال الخمسمئة سنة الماضية؟

ما الذي يمكن أن يقال أيضاً؟

يقال إنه منذ خمس مائة سنة من قبل، أصبح هذا المعبد القديم مأوى لقطاع الطرق الذين كانوا ينامون في النهار، وفي الليل يشعلون المشاعل لكي ينزلوا من الجبل لسرقة القرى. وفي أسفل الجبل كانت تعيش ابنة موظف في دير بوذي. كانت تمارس فيه الشعائر البوذية ولكنها لم تكن راهبة. إنها تسهر علىالمصابيح البترولية لكي تكفر عن ذنوبها الماضية. ولكنها ضربت عين زعيم قطاع الطرق، الذي خطفها وأجبرها على الزواج منه. اغتصبت ثم قطع راسها لأنها فضلت الموت على أن تصبح زوجته وتخضع له.

وماذا أيضا؟

العودة خمسة آلاف سنة إلى الماضي، إلى العصر الذي لم يكن فيه من أثر لهذا المعبد. كان يوجد كوخ من القش يقطنه مثقف مشهور هجر الحياة العامة لكي يعيش كمتنسك. كان في كل يوم، وفي لحظة حلول الفجر يتوجه نحو الشرق لكي يقوم ببعض الطقوس الروحانية. كان يستنشق هواء الصباح النقي، ويخرجه من صدره ببطء، وتكون رقبته مشدودة. وصوت أناشيده النقي يصدي في الوادي المهجور، وكانت السعادين التي تتسلق الشقوق شديدة الانحدار تجيبه. إذا صادف أن زاره شخص يعرفه، كان يقدم له الشاي عوضا عن الكحول، ويخرج لعبة الشطرنج، أو يتحدث معه عن ضوء القمر. لم يكن يهتم بالكهولة. وكان الحطابون الذي يمرون من هنا ينظرون إليه من بعيد، وأصبح شخصية أسطورية. هكذا احتفظ هذا المكان باسم جرف الخلود.

وماذا أيضا؟

يقال إنه منذ ألف وخمس مائة وسبع وأربعين سنة، كان يوجد قائد حربي خصص حياته كلها تقريبا لقواته، وعندما أصبح جنرالا عاد إلى الوطن ليقدم أضحية لأسلافه.

رأى خادمة والدته العجوز، فاختار يوم سعد لكي يتزوجها لتصبح الزوجة السابعة. أراد إظهار قدرته للناس في الوطن والتباهي بها، فأعد مأدبة من مئة طاولة وطاولة، كان الناس يتدافعون حول الطاولات، ومن الواضح أنهم يبجلونه، ويقدمون له الهدايا:

كان يجب شكره على الكحول الذي يشربونه.

وعندما كان الجميع يباركون له، حضر رجل إلى الباب اسمه ميندیان Mendiant، ويرتدي ملابس رثة وتغطي رأسه بثور الجرب. قدم له الحرس صحنا من الرز ومنعه من الدخول، ولكنه أراد بأي ثمن تهنئة الزوج الجديد شخصيا. أمر الجنرال الذي خرج عن طوره، مساعده في المعسكر بطرد المتطفل بضربات من أخمص البارودة. وفي منتصف الليل وعندما كان الجميع يرتاحون، والزوج الجديد يحلم بأجمل الأحلام، من كان يعتقد أن النار التي اندلعت في جميع أرجاء المنزل، ستقضي تماما على منزل أجداده؟ قال بعضهم إن قدرا أنزل من خلال تناسخ المعلم جي Ji، يهدف إلى تنفيذ رغبة السماء في معاقبة الناس السيئين. وقال بعضهم الآخر إن ميندیان ارتكب هذه الجريمة على رأس عصابة من المتشردين من المنطقة المحيطة. ولأن الجنرال لم يحترمه، أمر رجاله، في منتصف الليل، برمي أعواد البخور المشتعلة، من فوق جدران الفناء العالية، لكي تقع على كومات الأعشاب والخشب. كان الجنرال على رأس آلاف من الجنود والخيول، عاجزا عن الدفاع عن نفسه أمام هذا الرجل الوضيع. هذا ما تظهره الحكمة القديمة: 'لا يستطيع التنين القوي أن ينتصر على طاغية محلي'.

وماذا أيضا؟

بعد نصف قرن من هذا التاريخ، لم يعرف هذا المكان الهدوء، على الرغم من عزلة هذه الجبال وفقرها بالموارد، وذلك بسبب الفوضى التي يسببها الرجال. وقع اختيار ابنة المسؤول الجديد عن لجنة المنطقة الثورية، وهي فتاة قبيحة، على الابن الأصغر لأحد ملاكي الأراضي القدماء. رفضت الانصياع لوالدها، وأصرت على هذا الاتحاد المعد سلفا، دون شك، وسرقت من درج والدها فواتير حبوب بقيمة ثمانية وثلاثين جنيها، ومئة وسبعة (يوان) نقدا. وهرب الاثنان معا إلى الجبل وهما يعتقدان أن بإمكانهما تأمين عيشهما من زراعة الأرض. كان الأب الذي يحاضر باستمرار عن صراع الطبقات، يرى ابنته تتحداه مع شخص تافه، ابن أحد ملاكي الأراضي، كان غضبه شديدا. وأعطى مباشرة الأمر إلى البوليس لنشر صورة الزوج، وتوجيه مذكرة توقيف إلى كل مراكز المنطقة. كيف يستطيع شابان عاشقان أن يهربا من ميليشيات مسلحة تجوب الريف؟ حوصر كهفهما.

فقد الشاب وعيه وقتل أولا خطيبته بمعول سرقه، ثم انتحر هو به.

قالت إنها هي تريد أيضا رؤية الدم. وتريد أن تثقب أصبعها الوسطى بأبرة، وتجهد قلبها مباشرة. إنها تريد رؤية انبثاق الدم، وسيلانه بغزارة، وأن تصبغ أصابعها

كلها باللون الأحمر، وأن يسيل بين الفتحات بينها، ويصل على طول خطوط يدها إلى قلبها، ثم يقطر من راحة يدها...

سألتها لماذا؟ قالت إن هذا بسبب الضغط الذي تمارسه عليها. قلت إن هذا الضغط لا يأتي إلا من قلبها هي.

ولكنه بسببك. أنت قلت إنك تكتفي بالحكي، ولا تفعل شيئا آخر.

قالت إن ما ترويه يجعلها حزينة، ويمنعها من التنفس.

سألتها إذا كانت تحس بأنها مريضة.

هذه الحالة من المرض، أنت خلقتها!

قلت إنك لم تفهم ما فعلته. قالت : أي غوغائية. ثم انفجرت بضحك مجنون. لايمكنك إلا أن تخاف وأنت تنظر إليها، أنت تعرف أنك تريد إثارة رغبتها قليلا، ولكن دم امرأة يثير التقزز في نفسك. قالت إنها تريد فقد أن تريك الدم، وأن تجعله يسيل حول معصمها، ثم حول يديها، وإبطيها، وصدرها، إنها تريد أن يسيل دم نقي عبر صدرها الأبيض، دم داكن يميل إلى اللون البنفسجي والأسود، وتغرق في هذا اليوم الأسود البنفسجي. عندها ستجبرك إلى النظر إليها...

عارية تماما؟

عارية تماما، وستكون جالسة ضمن بركة من الدماء، أسفل جسدها بين ساقيها، وستكون ساقاها مغطيتين بالدم، بالدم، بالدم!

قالت إنها تريد أن تغرق، وتغوص في الأعماق، لا تعرف لماذا لديها رغبة قوية إلى هذا الحد، إنها تريد أن ترى نفسها وقد غمرتها الأمواج، وهي مستلقية على شط الأمواج تغمرها، ومازال الشط الرملي غير قادر على ابتلاعها تماما، تأتي موجة جديدة قوية لتصعد فوقها، وهي تريد أن تدخل إلى جسدها، أن تعجنها، وتمزقها، يجب ألا تصيبك الشفقة، وهي تقول إنه ليس لديها خجل، ولم تعد خائفة، كانت تشعر بالخوف، ولكنها في الواقع كانت تدعي بأنها خائفة، ولكنها حقيقة لم تكن خائفة، كانت تخشى أن تقع في هذه الهوة المظلمة، وأن تسبح فيها باستمرار، إنها تريد أن تغرق، قالت إنها ترى سيلا أسود يصعد بهدوء من حفر سحيقة، الزبد الأسود يبتلعها بصورة كاملة، قالت إنه يأتي ببطء شديد، ولكنه عندما يأتي، لايمكن إيقافه، لا تعرف كيف تستطيع أن تصبح نهمة إلى هذا الحد، آه، إنها تريد أن تقول لها إنها فاسقة، إنها تريد أن تقول لها إنها ليست فاسقة، وهي لا تفعل هذا إلا من أجلك، ولا تشعر بهذه الحالة إلا معك، تقول إنها تحبك، وهي تريد أن تقول لها أيضا إنك تحبها،

ولكنك لا تقول هذا أبدا، أنت بارد حقا، ما تريده فقط هو امرأة، ولكن ما تريده هي الحب، إنها بحاجة لأن تتحسسه بكل جسدها، حتى وإن ذهبت إلى الجحيم معك، تتوسل إليك ألا تهجرها وألا تتركها تسقط أبدا، إنها خائفة من الوحدة، والفراغ، إنها تعلم أن هذا زائل، وتريد فقط أن تكون مخطئة، ألا تستطيع أن تحدثها أشياء تجلعها سعيدة؟ وتبتكر لها قصة تفرحها؟

آه، إنهم سعداء جدا، يجلسون، مقابل بعضهم بعضا، بملابسهم على حصيرتهم. وأمامهم أطباق مصفوفة بعناية شديدة، تتألف من دم خنزير أسود، وجبنة الصوجا البيضاء، وفليفلة حمراء، وفاصولياء الصوجا الخضراء، وجرار مرقة الصوجا، وضلوع اللحم المطبوخة، والطعام المطبوخ على البخار، ولحم الخنزير الدسم الساخن، ويشربون الكحول الذي يقدم بطاسات كبيرة. القرية كلها تحتفل برأس السنة الجديدة، وقتل دفعة واحدة تسعة خنازير، وثلاثة عجول، وفتحت عشر جرار من الكحول المعتق. كانت الوجوه محمرة، والأنوف تلمع. نهض عجوز مقعد، وبدأ بالصراخ بصوت أجش كالديك: 'لماذا ترك الغرباء يشعلون النار، ويزرعون الذرة الصفراء فوق جبال ماهوا Mahua، وهي التي تمدنا بخشب التدفئة، منذ أجيال؟' كانت أسنانه قد سقطت، ولهذا فهو يخرج اللعاب أثناء حديثه.

يجب عدم الاعتقاد بأنه لا يوجد في القرى إلا العجائز العاطلون عن العمل، والجافون كقش الرز، ويجب عدم الاعتقاد أيضا بأن سكان هذه القرى يتركون أنفسهم عرضة للهجمات. حتى وإن كانوا، حاليا، لا يستطيعون حمل حمالات برؤوس حديدية، ولا حمل الأسلحة النارية، إن أبناء هذه القرية ليسوا من النوع السيء!

'هي، أيتها الأم لتريزور الكبير، ألا تستطيعين سحب القوائم الخلفية لإبنك لكي تجعلينه يكبر؟'

أجابت المرأة وهي تحرك السوار الفضي الذي تضعه في يدها: 'أغلق فمك أيها العجوز، القرويون كلهم شاهدوا أن تريزوري الكبير قد كبر، إن ابني محتقر في الخارج، وهذا موضوع تندر في القرية، أليس عندكم غيره، لم تنجب بعض العائلات إلا الفتيات، ولم تنجب الفتيان!'.

أجابت النساء على هذه الكلمات: 'هي، أيتها الأم لتريزور الكبير كيف تجرئين على تغيير الحديث؟' إذا كان سكان القرية لا يستطيعون رفع رؤوسهم في الخارج، كيف يمكنهم أن يحفظوا وجوههم؟

نفخ الشباب المحمرون من الإثارة، الصدر بفتح سترتهم. إن زعيم القرية، الذي

يحمل بندقيته في يده، لا يعرف ماهو الصيام!

'تحت أوامرك أيها الزعيم، أرسلنا لوحدنا إلى الخط الأول، إذا كانت الراهبات تحجز أسلافنا في البيوت!'

أظهرت النساء الشابات غضبا شديدا نحو هذه الكلمات، وصرخن ضدهم: 'ليس له شعر فوق الشفتين ويعرف كيف يسخر! إذا كان آباؤكم مستعدين للتضحية بكم، فلما ليس نحن أيضا؟'

نهض رجل فجأة، وعيناها تدوران. 'هي، أيها الصغير، إن الوقت مبكر لكي تتحدث أنت في القرية! هل مازلت تسمعني؟

تابع، قالت إنها تريد فقط سماع صوتك. استعدت نشاطك، ورويت كيف بدأ الحشد بالتصفيق، وأمسك الشخص الذي أذهله هذا الكلام، ديكا وقطع رأسه. كان جناحاه مازالا يرفرفان. خلط الدم الحار بنبيذ في طاسة. وصرخ: 'أولئك الذين لا يشربون هم الذين جاؤوا من الكلاب!

' وحدهم الذين جاؤوا من الكلاب لا يشربون!'

أدار الرجال عصيهم، وبصقوا على الأرض. وأقسموا على جعل السماء تشهد. استداروا لكي يأخذوا أدواتهم، وكانت عيونهم حمراء. بعضهم يسن السكاكين، وآخرون ينظفون أسلحتهم. علق الأباء العجائز لكل عائلة فوانيسها، وبدؤوا بحفر خندق إلى جانب قبر الأسلاف. بقيت النساء في البيوت، وبمساعدة المقصات التي ساعدتهم في تصفيف شعرهن يوم زواجهن، وفي قطع حبل السرة عند ولادة أطفالهن، قصوا رايات الورق التي ستعلق فوق القبور.

وعند الفجر، عندما ظهر الضباب الصباحي، قرع العجوز الأعرج بضربات شديدة على الطبل. خرجت النساء من البيوت، وهن يمسحن دموعهن، ويراقبن مدخل القرية، وينظرن إلى الرجال وهم يضربون صرخات قوية وهم ينزلون من الجبل، من أجل الأسلاف، من أجل العشيرة، من أجل الأرض والغابات، من أجل أبنائهم، يتقاتلون بالأسلحة النارية، ثم ينقلون الجثث سرا. بعد ذلك تبدأ النساء بالصراخ من أجل التضرع إلى السماء والأرض، ثم يعود الهدوء من جديد. وتعود الحياة إلى دورتها من حراثة الأرض إلى البذار، والتشتيل والحصاد، ثم دراسة الحبوب. مضى الربيع وجاء الخريف، والشتاء تتوالى، والأرامل سرقوا الشباب، والأيتام كبروا، وأصبحوا بالغين، ونسيت المأساة، وحده مجد الأسلاف بقي في الذاكرة. وفي أمسية سهرة رأس السنة الجديدة، وقبل تقديم القرابين للأسلاف، بدأ العجوز يروي خلافات العائلة قديما،

وكان الشباب يشربون، فصعد الدم الحار من جديد إلى عروقهم..

المطر يهطل باستمرار، طيلة الليل، وبدأ اللهب يخف وأصبح يشبه حبوب البازلاء التي تلمع زهراتها مع برعم بنفسجي في وسطها. ينمو البرعم، ولكن كلما قصرت الزهرة، كلما أصبح لونها غامقا، وينتقل هذا اللون من الأصفر اللامع إلى الأحمر البرتقالي.

وفجأة انحصر الضوء في فتيلة المصباح، وبدأ الظلام يسود في المكان، مثل شمع الشمع الذي يتجمد، ويخفي النور المختلج للنار. تخلصت من الجسد المتأجج لامرأة تنام بقربك، واستمعت إلى المطر الذي يقرع على أوراق الأشجار. الريح تهدر بكآبة في الوادي عبر أغصان الصنوبر. بدأ السقف الذي علق فيه المصباح البترولي، يرشح بمياه المطر الذي يهطل، وتتساقط القطرات على وجهه.

انكمشت على نفسك في الكوخ المصنوع من قصب يابس والذي يستخدم في مراقبة الجبل. شممت رائحة عفن، وكذلك رائحة معطرة. يجب أن أترك هذا الكهف. إن قمة جبال ولينغ Wuling، المطلة على اربع مناطق هي غيزهو Guizhou، وسيشوان وهوبي Hubei، وهونان Hunan، عدائية وباردة، فهي على ارتفاع ثلاثة آلاف ومئتي متر، ويهطل فيها ثلاثة آلاف وأربعمئة ملم من المطر سنويا، ولا ترى إلا يومين يكون فيهما الطقس جميلا خلال السنة، وتعصف فيها رياح شديدة تصل سرعتها إلى أكثر من مئة متر في الثانية. علي العودة إلى بين الناس، والتمتع باشمس والدفء والسعادة، والجنون، والضوضاء من جديد، فمهما كانت العذابات التي يسببها هذا كله لي، إلا أنه النفس الحيوي للإنسانية.

عبرت تونغرين Tongren بشوارعها القديمة والضيقة والمزدحمة، وهي مغطاة حتى منتصفها بشرفات المنازل. يصطدم المشاة باستمرار بسلال الخيزران للناس العابرين. لم أتأخر فيها، وأخذت مباشرة حافلة للمسافات الطويلة. وفي المساء نفسه، وصلت إلى محطة صغيرة للركاب تسمى يوبينغ Yubing. وبالقرب منها، شيد حديثا بعض الفنادق الصغيرة الخاصة. استأجرت غرفة صغيرة جدا بسرير مفرد، وهذا كل مافيها.

البعوض عدواني جدا، ولكنني كنت أختنق عندما أنزل الناموسية. وفي الخارج تصدح صوت موسيقى قوية جدا، تختلط بأحاديث يقطعها البكاء، والعويل الذي يبعث الخوف والرعب في النفوس. يعرض فيلم في الهواء الطلق على ملعب لكرة السلة، يحكي هذا النوع من الأفلام قصصا قديمة، مأساوية أو سعيدة، وقصص لقاءات أو

فراق ، في عصور مختلفة.

وفي الثانية صباحا ركبت القطار من أجل الذهاب إلى كيلي Kaili. وعند الفجر وصلت إلى المركز الإداري للمنطقة المستقلة مياو Miao. استفسرت عن حفلة القوارب – التنانين، التي يجب أن تقام في قرية شيتونغ Shitong. شرح لي أحد كوادر لجنة الأقليات في المنطقة أن الحفلة ستقام هذا العام لأول مرة منذ عشر سنوات. وسيأتي إليها أكثر من عشرة آلاف من المياويين، ويأتون أحيانا من قرى بعيدة في الجبل. ويحضر الحفلة أيضا قادة المقاطعة والمنطقة المستقلة. سألته كيف أستطيع الذهاب إليها، فأجاب بأن الحفلة تدور على بعد أكثر من مئتي كيلومتر، ومن المستحيل الذهاب إلى المكان من دون سيارة. ظهر عليه الارتباك عندما طلبت منه أن يأخذني إلى هناك، وبعد جدال طويل استطعت إقناعه بأن يوافق على أن آتي في اليوم التالي الساعة السابعة صباحا، لأرى إذا كان قد بقي مكان لي.

وفي اليوم التالي، وصلت قبل عشر دقائق من الوقت المحدد إلى مركز اللجنة. اختفت السيارات الكبيرة التي كانت متوقفة هنا البارحة. وفي الداخل لا يوجد أي شخص. أخيرا عثرت على عامل أخبرني أن السيارات ذهبت منذ وقت طويل. عندها فهمت أنني تعرضت لخدعة، ولكن الحاجة المستعجلة أعطتني فكرة. لإخافته أخرجت بطاقة عضوية في اتحاد الكتاب والتي لم تفدني في شيء من قبل، بل بالعكس، كانت تسبب لي بعض المضايقات. وأعلنت بإلحاح شديد وصراخ أنني جئت خصيصا من بكين لكي أكتب تقريرا عن هذه الحفلة، وطلبت منه بإلحاح أن يتصل بحكومة المقاطعة المستقلة. لم يخالجه الشك بكلامي، وأجرى عدة اتصالات، ثم أخبرني أن سيارة مدير المنطقة لم تغادر بعد. جريت بلا توقف إلى مبنى الحكومة. الحظ ابتسم لي، لأن المدير سمع تفسيراتي، ودعاني، من دون طرح أسئلة، إلى حشر نفسي في حافلته الصغيرة، وعند مخرج المدينة، على الطريق المحفر الذي تنبعث منه سحابة من الغبار، يمتد خيط لا ينتهي من السيارات والشاحنات التي يتكدس فيها الناس من كل الأعمار والأجناس. إنهم كوادر المنظمات الحكومية والعاملون فيها، وحتى الطلاب، والعمال في المصانع من المقاطعة المستقلة، والذين يتوجهون لحضور الحفلة.

مما لا شك فيه أن مدير المنطقة، وهو ملك قديم للمياوين، سيرأس الحفلة، كان أحد الكوادر يجلس إلى جانب السائق، ولم يتوقف عن الصراخ من النافذة. كنا نتجاوز باستمرار السيارات الأخرى، وقطعنا قرى عديدة قبل أن نتوقف بسبب الازدحام، أمام رصيف شحن، لم تستطع إحدى الحافلات الصعود إلى العبارة وكانت عجلاتها

الأمامية تنزلق بالماء.

توقفت أيضا سيارة فولغا ضخمة، وتتميز فعلا عن السيارات الأخرى. الخبر الذي شاع هو أن السيارة لسكرتير الحزب في المنطقة، وحجز فيها حاكم المقاطعة. وعلى الرصيف يصرخ رجال البوليس، وبعد ساعة من التخبط في كل الاتجاهات لنقل السيارات، دفعوا الحافلة نصف الغارقة في الماء لكي يستطيعوا رفع الفولغا فوق العبارة. عندها تستطيع السيارة التي أستقلها أن تصطف وراء الفولغا، بعد دفعها من قبل سيارة بوليس. ألقت العبارة أخيرا مراسيها وتركت الشط.

وعند الظهيرة تماما وصلت قافلتنا إلى قرية مياو المبنية على ضفة نهر كينغشوي Qingshui. الشمس ترسل أشعتها المبهرة فوق سطح الماء. ومن كل طرف من الطريق، نشاهد حشدا لا ينقطع من المظلات الملونة، والقبعات العالية من الفضة التي تضعها النساء المياويات. ينتصب في الشارع المحاذي للنهر مبنى صغير من القرميد، ويتألف من طابق واحد تعلوه شرفة جديدة تماما: وهو مركز إدارة المقاطعة. وتتوالى، على طول الضفة، البيوت من الخشب التي تميز المياويين. نرى من شرفة مركز الإدارة على طرف المجرى العدد الأكبر من رؤوس العابرين التي تختلط بالمظلات الملونة، والقبعات ذات الحواف العريضة، وتلمع من الزيت البروتيني الموضع على الشعرن وتتحرك بين البسطات الصغيرة المفروشة فوق أغطية بيضاء. هناك عشرات من الزوارق – التنانين المزينة بشرائط حمراء، بمقدماتها المرتفعة، والتي تبحر بصمت في النهر المتألق والمساكن.

عندما دخلت المبنى بعد المدير، تمتعت بالمعاملة نفسها التي لقيتها الكوادر التي أرافقها. وحتى رجال البوليس ضربوا لي التحية الرسمية. كانت فتيات شابات من المايويين يرتدين لباس الاحتفال، وعيونهن تبرق، وأسنانهن بيضاء، ويحملن طاسات من الماء الساخن، ويعرضن على جميع الناس مناديل معطرة جديدة للانتعاش. ثم يقدمن لكل شخص الشاي المنقوع الذي ينشر رائحة نفاذة. إن المشهد يشبه، في كل شيء، المشاهد التي نراها عادة في التقارير عن زيارة يقوم بها أحد مسؤولي الدولة إلى المناطق ذات الأقليات العرقية. سألت أحد الكوادر الذي استقبلنا إذا كانت هذه الفتيات فنانات فرقة الغناء والرقص في المقاطعة. لقد شرح لي، في الواقع، أنهن تلميذات (من الصف الخامس) من ثانوية المركز الإداري للمقاطعة، واللواتي تدربن خصيصا لمدة أسبوع كامل من قبل لجنة الأقليات.

بعد ذلك، بدأت اثنتان من بينهن بغناء أغنية غزلية مياوية. تبادل المدراء كلمات

التهاني، ثم أخذونا جميعا إلى صالة أعدت فيها مأدبة. وقدمت فيها المشروبات من البيرة إلى الصودا.

قدموني إلى سكرتير الحزب، ورئيس المقاطعة اللذين يعرفان بعض الكلمات في اللغة الصينية. خلال المأدبة، مدح الجميع مهارة الطباخ الذي أحضر خصيصا من مركز المحافظة.

بعد الوجبة، قدموا لنا الشاي والمناديل من جديد. أصبحت الساعة الثانية، وسيبدأ قريبا سباق القوارب التنانين. افتتح سكرتير الحزب المسيرة، ورافقه مدير المقاطعة. كانت الشوارع تزدحم بالناس. وفي ظل البيوت المرتفعة، تتجمع مجموعة من الفتيات اللابسات لتنورات مطرزة ومثنية، وقد جئن من مناطق مختلفة، ويعددن أنفسهن للاحتفال. وعند رؤية هذه المجموعة المصحوبة برجال الشرطة، كن يتوقفن عن تصفيف شعرهن أمام المرآة لكي يراقبوا بفضول الحشد الذي يضع أيضا القبعات، والاساور، والقلادات التي يتبرجن بها أيضا، وتكون ثقيلة أحيانا ويصل وزنها إلى عدة كيلوات.

ولم نعد نعرف من يراقب من.

وضعت كراسي ومقاعد على شرفة مبنى مرتفع، مقابل النهر. وبعد أن جلس الجميع، تلقى كل شخص مظلة تشبه المظلات اللواتي تستخدمهن الفتيات المايوات، ولكنها تفقد رونقها بين أيدي الكوادر القيادية. الشمس تسطع، والناس تتعرق تحت المظلات. إنني أفضل النزول إلى ضفة النهر لأنضم إلى الموكب. وفي هذا الحرارة المرتفعة، تنتشر رائحة التبغ، والملفوف المخلل، والتعرق، والرائحة الكريهة لبسطات السمك ولحم الخنزير، والبيض. ويباع كل شيء : تباع الأنسجة وألف بضاعة أخرى، وكل أنواع الحلويات، مثل حلويات منقوع الشعير والسكر، والكاكاو، ومجمدة الصوجا، وبذور البطيخ. وصلت الحركة والنشاط إلى القمة: إنها خليط من أصوات الباعة، والضحكات، والمضايقات الغزلية، بالإضافة إلى ذهاب الأطفال وإيابهم ضمن الحشد.

تسللت بصعوبة إلى الضفة، ولكنني كنت أتعرض للدفع باستمرار، وكدت أسقط في الماء. ولم أجد راحتي إلا بعد أن قفزت إلى قارب صغير يرسو هنا. وأمامي، يطفو قارب -تنين محفور ضمن جذع شجرة ضخمة. ولكي يحافظ على توازنه، ثبت جذع شجرة أخرى من كل طرف، على مستوى خط الإبحار. واتخذ نحو ثلاثين بحارا أماكنهم فوق القارب، وهم يرتدون الملابس نفسها، تتألف من بنطال قصير مصبوغ باللون البني الفاتح، والمشغول من عظم الجواميس، ويعتمرون قبعات مجدولة بدقة من

أعواد الخيزران. ويضعون نظارات سوداء، وحول خصرهم حزام معدني يلمع.

ويجلس في وسط القارب شاب تنكر بلباس امرأة ، ويضع على رأسه حلية من الفضة، وقلنسوة فتاة. ويضرب، بين وقت وآخر، صنجا معلقا أمامه، فيصدر صوتاً نقياً. وينتصب في مقدمة القارب تمثال تنين محفور من الخشب الملون، وارتفاعه أعلى من ارتفاع رجل، ومغطى بقماش أحمر، وعلقت عليه مجموعة أعلام صغيرة، وعشرات من طيور الوز والكنار الحية التي تصدر أصواتها باستمرار.

تدوي فرقعات لسلسلات من الألعاب النارية، وتقدم القرابين كأضحية. وفي مقدمة الزورق، يضرب عجوز الطبل، ويشير إلى الشباب لكي ينهضوا. يأخذ رجل بالغ بين يديه جرة ضخمة من نبيذ الرز، ويدخل إلى الماء حتى منتصفه، من دون أن يثني بنطاله، وذلك من أجل أن يقدم طاسة من الكحول لكل شخص من هؤلاء البحارة. شرب الشباب الذي يضعون النظارات السوداء، كميات كبيرة وهم يغنون، ويطلقون صرخات الشكر، ثم يصبون في النهر ما تبقى من النبيذ في قعر الطاسة.

بعد ذلك دخل رجل مسن، يساعده رجل آخر، في الماء، وهويحمل خنزيراً حياً، ربطت أرجله، ويطلق هذا الخنزير أصواتاً حادةً. وصلت النشوة والنشاط إلى القمة. وأخيراً وضعت الجرة الكبيرة، والخنزيرة على زورق صغير يحمل القرابين، ويسير خلف الزورق التنين. عندما خرجت إلى شرفة المبنى المرتفع، كانت الساعة الخامسة تقريبا، ضربات الطبل تتتابعن بقوة أحياناً، وأحياناً أخرى يخف صوتها، وتسرع حيناً، وتبطئ حيناً آخر.

تستمر القوارب الثلاثون التي تحمل شكل التنين، في الحركة، من دون أن توحي أنها ستبدأ السباق قريباً. يبدو أحيانا أن بعض القوارب ستلتقي في نقطة واحدة، ولكنها سرعان ما تتباعد كأنها سهام.

لا أحد على الشرفة ينفد صبره. دعي عضو في لجنة الأقليات، ثم دعي كادر من لجنة الرياضة. لقد اتخذ أحد المسؤولين قرارا: وهو منح كل قارب – تنين مكافأة مقدارها مئة يوان yuans، وبطاقات للحصول على مئتي رطل من الحبوب إذا شارك في السباق. أصبح الجو لطيفا، فالشمس غابت، وخفت الحرارة، ولم تعد المظلات ضرورية، مع ذلك، بقيت القوارب متفرقة ولم يبدأ السباق. في هذه اللحظة، أعلن رجل أن السباق لن يجري اليوم، وأن على المشاهدين الراغبين في حضوره، أن ينزلوا في اليوم التالي إلى منطقة قريبة من النهر. وهو سيجري على بعد ثلاثين (لي) من هنا، في قرية مياوية أخرى. من الطبيعي أن يخيب أمل المتفرجين. وبعد وقت من

الفوضى، ترك الجميع المكان. تحرك التنين الطويل من السيارات، واختفى بعد عشر دقائق داخل سحابة من الغبار الأصفر. ولم يبق يتجول في الشوارع إلا مجموعات من الفتيات والفتيان من قبيلة مياو.

من الواضح أن القسم الأهم من الاحتفال سيجري هذه الليلة. إنني راغب في البقاء، ولكن أحد الكوادر حذرني إلى أنني لن أجد حافلة في اليوم التالي. فأجبت بأنني سأذهب على قدمي، كان لطيفا، وأوكل أمري إلى كادرين مياويين، وحذرهما بقوله: "إذا حصل له أي شيء، فأنتما مسؤولان!" هز سكرتير المقاطعة، ومديرها رأسيهما: "لا تقلق!".

عندما عدت إلى مركز المقاطعة الإداري، لم أجد أي شخص، وكان الباب مغلقا بالمفتاح. لا أعرف أين ذهب سكرتير المقاطعة ومديرها ليشربا الكحول، ولم أجد كادراً قادراً على التكلم بالصينية. فجأة، أحسست بالحرية، وقررت الذهاب إلى القرية والتجول فيها.

كانت كل عائلة تستقبل أصدقاءها، ومقربيها، في الشارع الذي يحاذي النهر، وكان عدد المدعوين عند بعض العائلات، كبيرا إلى حد أن الطاولات المغطاة بأطباق الطعام وصلت إلى منتصف الشارع. وضع على مدخل البيوت قدور فيها رز، وصحون، وخبز. ويخدم كل شخص نفسه بحريته، من دون أن يعيره أي شخص آخر اهتمامه. كنت جائعا، ولم أهتم كثيرا بالآداب العامة، بالإضافة إلى أنني لا استطيع التواصل مع الآخرين عبر اللغة، فأخذت صحنا وخبزا مثل الآخرين، شجعني الناس على أن أخدم نفسي بنفسي. وهذه عادة قديمة عند المايويين. لم أشعر بالراحة من قبل مثلما أشعر به الآن. بدأت أغنيات الغزل مع الزوال. نزلت الفتيات الشابات إلى الضفة ضمن مجموعات من خمس أوست، بعضهن يشكلن دائرة، وأخريات يتماسكن بالأيدي، ويدأن بمناداة حبيبهن. ينتشر صوت الأغاني بسرعة في هذه الليلة. تنتشر أمامي وورائي الفتيات وهن يحملن باليد منديلا، أو مروحة يدوية مع مظلاتهن، وبينهن فتيات لا يتجاوز عمرهن الثلاث عشرة أو الأربع عشرة سنة، ولم يصبحن بالغات تماما.

ضمن كل مجموعة توجد فتاة تقود الغناء، والأخريات يرافقنها كجوقة. وتكون دائما الأكثر عذوبة ولطفا. ويبدو من الطبيعي أن يتم اختيار الأجمل أولا. بدأ غناء قائدة الجوقة، تبعه غناء الفتيات الأخريات بصوت عال. إن الحديث عن الغناء، ربما لا يكون دقيقاً. تخرج الأصوات القوية والواضحة من الأعماق، ويتردد صداها في

الجسد كله؛ إنها ترتفع من أخمص القدمين إلى الرأس، قبل أن تلفظ. ولهذا تسمى هذه الأغنيات (أغنيات طائرة) إذ تخرج من أعماق الإنسان. إنها غير متصنعة، ولا قسرية. ولم يدخل عليها أي زخرفة، وتخلو من كل ما يزعج. وتبذل الفتيات جهداً كبيراً لكي يلفتن نظر عشاقهن.

كان الفتيان أكثر وقاحة، ويواجهون الفتيات مباشرة، ويختارون الفتاة التي تعجبهم كما لو أن الأمر يتعلق باختيار بطيخة. وفي هذه اللحظة، وعندما تشعر الفتيات بأنهن مثار الإعجاب يحركن المنديل أو المروحة اليدوية، ويغنين بنشوة كبيرة. إذا شعر الطرفان بالانسجام، يسحب الصبي الفتاة من يدها. ولم يعد السوق الآن إلا ساحة كبيرة للغناء وهو الذي زاره خلال النهار آلاف الأشخاص، وتجولوا بين البسطات.

فجأة غرقت داخل أغاني الحب هذه. قلت في دخيلتي إنه في أصل البشرية، كان التعارف يتم بهذه الطريقة، وتنشأ علاقات الود بعد ذلك فصلت الحضارة المزعومة بين الدافع الجنسي والحب. كما اخترعت هذه الحضارة مفهومات الزواج، والمال، والدين، والأخلاق، وما نسميه ثقل الثقافة. هذه هي حماقة النوع البشري. هبط ظلام الليل بالتدريج. وعلى النهر المظلم، سكتت قرعات الطبول، وأشعلت المشاعل على الزوارق. فجأة سمعت نداء "أخي" باللغة الصينية، وبدا لي أن هذا النداء كان قريباً مني. استدرت ورأيت أربع أو خمس فتيات يغنين بصوت واضح باتجاهي. وربما لا يعرفن إلا هذه الجملة باللغة الصينية ولكنها تكفي كنداء للحب. التقى نظري بنظر ثابت شارد في الظلام، سحرني، وبدأ قلبي يدق بسرعة، فجأة، عدت إلى سنوات طفولتي ورغباتي. لقد تأججت في داخلي عاطفة لم أحس بها منذ وقت طويل. وبصورة تلقائية، اقتربت منها، على طريقة الشباب هنا، ولكن ربما بسبب خفوت الضوء أيضاً. رايت شفتيها تتحركان بهدوء، ولم يخرج من بينهما أي صوت. انتظرت. وتوقفت زميلاتها عن الغناء أيضاً. كانت ما تزال شابة، ولها وجه طفل، وجبين مرتفع، وأنف قصير، وفم صغير.

كنت أعرف أنها ستتبعني إذا بدرت مني أي إشارة مهما كانت بسيطة، وستندس في حضني. رفعت مظلتها بلطف. لا أستطيع مواجهة هذه المقابلة التي تطول، وهزيت راسي مؤيدا، وضحكت بحماقة، استدرت، وأنا خائف جدا، وابتعدت دون القدرة على إلقاء نظرة. لم أعرف قط هذا النوع من النداء من قبل، على الرغم من أن هذا هو ما كنت أحلم به تماماً. وعندما أتت الفرصة الآن، تركتها تهرب مني. يجب أن أعترف أن النظر الثاقب الممتلئ بالحنان، لهذه الفتاة، مع أنفها القصير، وجبينها العالي، وفمها

الدقيق الصغير المشترك عند كل الفتيات المايويات، قد أيقظ فيَّ نوعاً من الحنان الأليم الذي نسيته منذ وقت طويل، وتأكدت من أنني لن أحس أبدا بمثل هذا النوع من الحب الخالص. يجب أن أعترف أنني تقدمت في السن الآن. ولا يفصل بيني وبينها العمر وأشياء أخرى فقط، ولكن حتى وإن كانت قريبة جدا مني، وأستطيع سحبها بيدي، فإن الأخطر هو أن قلبي عجوزا، ولم يعد باستطاعتي أن أحب فتاة شابة بحرارة، دون التفكير بأي شيء آخر. لقد فقدت علاقاتي بالنساء هذه الطبيعة منذ وقت طويل، وبقيت الرغبة الجسدية فقط. حتى وإن بحثت عن المتعة المؤقتة، فإنني أخاف من تحمل المسؤوليات. إنني لست ذئبا، وأريد أن أكونه فقط لكي ألجأ إلى الطبيعة، ولكنني لم أستطع التخلص من انتمائي الإنساني، إنني نوع من المسخ بجلد إنسان لا يعرف إلى أين سيذهب ارتفع صوت الأرغن الفموي. وفي اللحظة نفسها، كان الشباب والشابات في الغابات الصغيرة على الضفة، خلف كل مظلة، يحتضنون بعضهم بعضا، ويتبادلون القبل، ويفترشون الأرض تحت السماء لكي ينغمسوا في عالمهم. إن هذا العالم، الشبيه بالعالم الأسطوري بعيد جداً عن عالمي. تركت الضفة وأنا اشعر بالمرارة. وفي الساحة التي يصدح فيها صوت الأرغن الفموي، سطع ضوء أبيض كالثلج، وكان ضوء مصباح بترولي معلق على خيزرانة كبيرة.

لها راس مغطى بقماش أسود، معقود كعمامة، وترفع حلقة من الفضة شعرها حول قمة رأسها المزين بتسريحة شعر رائعة، يتصارع في وسطها التنين وطائر الفينيق، في كل طرف، ضمن ورقات من الفضة على شكل ريش طائر الفينيق، وتهتز مع كل حركة للأقدام، أو للأيدي. علق على أوراق الطرف الشمالي شريطة ملونة تصل حتى الخصر، وتدل على الأناقة مع كل حركة. بالأساور الفضية. جسدها كله مجلل بالعمامة والثوب الأسود. وما يرى فقط رقبتها، وقفنها، اللذان يزينهما عقد ثقيل. أما جذعها فتحيط به سلسلة الحياة طويلة، ذات الزخارف المنقوشة بمهارة، وكل حلقة فيها تمر أمام الصدر المرتفع قليلاً.

إنها تعي تماماً أن هذه الزينة أكثر جاذبية للعين من ملابس الفتيات الأخريات الملونة. تدل حليتها الفضية على أصلها الأرستقراطي. وقدماها العاريتان تضجان بالرشاقة أيضاً. عندما تبدأ بالرقص على صوت الأرغن الفموي، فإن خلاخلها تصدر صوتاً صافيا. لقد جاءت من بلدة صغيرة من جبل المياويين السود، وهي بيضاء تميل إلى لون زهر السخليات، وشفتاها مخضبتان باللون الأحمر كأنهما زهرة الكاميليا في فصل الربيع وتظهر من بينهما أسنان صغيرة لؤلؤية. أنفها أفطح وطفولي، وجنتاها

مستديرتان، عيناها ضاحكتان، حاجباها سوداويان فاحمان، هذا كله يجعل جمالها شيئاً غير عادي.

لا تهتم بالذهاب إلى الضفة لكي تجذب المعجبين. إن الشباب الأكثر صرامة في كل قرية يأتون ليركعوا أمامها، مع الأرغن الفموي الذي يبلغ ارتفاعه ضعف ارتفاع الرجل، والمزين بشرائط متعددة الألوان والتي تتطاير مع الريح. إنهم يجذبون النساء اللواتي يغيرن الرأي بسرعة من مسافة بعيدة، وهم ينفخون خدودهم، ويهزون أجسادهم، ويهمون بالرقص. أما هي فإنها تكتفي برفع قدميها قليلا، والاستدارة بأناقة كاملة. إنها تجبر الشباب على الركوع أمامها، واللعب على اللأرغن إلى أن تخرج فقاعات من الدم من فمهم. إنها فخورة جدا بأن ترى ميلهم الشديد نحوها.

إنها لا تفهم معنى الغيرة، و لا تعرف خبث النساء، ولا تفهم لماذا تمزج الساحرات حيوان كثير الأرجل، والدبابير، والثعابين السامة، والنمل، وخصلة من شعرهن الخاص، والدم، واللعاب، ويضعن هذا كله ضمن جرة مع قطع صغيرة من الملابس الداخلية للرجل الذي يكون عدائيا اتجاههن، ويدفن الجرة على عمق ثلاثة أقدام.

إنها تعرف فقط أنه يوجد في طرف من النهر صبي، ويوجد في الطرف الآخر فتاة، أصيبا بالكآبة عندما وصلا إلى سن العشق.

عندما التقيا في الساحة التي تعزف فيها موسيقى الأرغن الفموي، صدم جمالهما الجميع، وغرس الحب أول نبتة في قلبهما.

إنها تعرف فقط أنه عندما امتلأ الموقد بالرماد في آخر الليل، وبدأ العجائز بالشخير والأطفال بالحكي في أحلامهم، نهضت وفتحت باب البيت الخلفي لكي تذهب إلى الحديقة وهي حافية القدمين. جاء شاب يعتمر قبعة ذات قرنين من الفضة. مر من خلف السياج، وصفر بصوت منخفض. وفي الصباح نادى الأب تسع مرات: عندما ينادي كثيرا، تغضب الأم. حمل عصا، ودفع باب الغرفة، ولكنه لم يجد شخصاً على السرير.

وفي وقت متأخر من الليل، استلقيت تحت شرفة، على الضفة. غابت النجوم، وانعكاسات الأشعة على سطح الماء.

ودخل النهر الجبل في عتمة واحدة، واشتدت الريح الرطبة في الليل، وبدأ عواء الذئاب يرتفع. في الحقيقة إن هذه صرخة شاردة للدعوة إلى الحب، وهي صرخة حزينة، نصفها غناء، ونصفها عواء، ويتردد صداها بين وقت وآخر.

– ٤٠ –

قالت إنها لا تعرف ماهي السعادة، وقالت أيضاً إن ما يجب أن تحصل عليه، حصلت عليه، الزوج، والابن، وعائلة سعيدة من وجهة نظر الآخرين، زوجها مهندس إلكتروني، أنت تعرف إلى أي حد هذا الاختصاص شائع في أيامنا، إنه شاب، والمستقبل أمامه، ويقول الناس إنه يكفيه أن يقدم شهادته لكي يكون ثروة.

ومع ذلك، هي ليست سعيدة، بعد ثلاث سنوات من الزواج، انتهى حماسها للحب والزواج. أما بالنسبة إلى ابنها فإنها ترى أحيانا أنه يشكل عبئا عليها. هي نفسها أصيبت بالدهشة عندما انتابها هذا الإحساس في يوم من الأيام. ثم تعودت، ومع ذلك هي تحب، إنها تحب هذا الشيء الصغير الذي يستطيع وحده أن يجلب لها الراحة قليلا، على الرغم من أنها لم ترضعه لكي تحافظ على شكل ثدييها. عندما خلعت ثوبها الأبيض، في معهدها، لكي تستحم، فإن زميلاتها اللواتي ولدن أطفالا، اشتهينها كثيراً.

قلت: ثوباً أبيض أيضاً. قالت إنه لإحدى زميلاتها. وهي زميلة تأتي إليها لتحدثها عن يأسها. وقالت إنها لا تستطيع أن تمضي النهار وهي لا تتحدث إلاّ عن الأطفال وزملائها، وتحيك كنزات الصوف لابنها وزوجها لكل الأوقات. يجب ألا تكون المرأة عبدة لعائلتها. لقد حاكت كثيراً من كنزات الصوف، وجاءها الملل من إحدى هذه الكنزات.

كيف كانت هذه الكنزة؟

قالت إنه تريد أن تستمر في سماعها، ويجب ألا تقاطعها، أين كنت؟ تحدثني عن هذه الكنزة، وعن الضجر الذي سببته.

لا، قالت إنها لم تجد قليلاً من الهدوء إلا وهي تستمع إلى الأرغن والأغاني خلال القداس. تذهب أحيانا إلى الكنيسة يوم الأحد، وتترك زوجها يحرس ابنها. يجب عليه هو أيضاً أن يهتم بالطفل، ويجب ألا تلقى المسؤوليات عليها وحدها فقط.

إنها لا تؤمن بالله، ولكنها مرت، في يوم من الأيام، من أمام كنيسة. الكنائس مفتوحة، الآن، ويمكننا دخولها بحرية. استمعت لوقت قصير، وبعد ذلك كانت تذهب إلى الكنيسة كلما كان عندنا وقت.

وهي تحب أيضاً باخ، صحيح أنها تسمع موسيقاه الجنائزية، وتنفر من الموسيقا الدارجة، لم تعد تستطيع التخلص من ضجرها، وسألتك إذا كانت تحكي بطريقة غير منتظمة.

قالت إنها بدأت بتناول الأدوية، والحبوب المنومة. لقد راجعت طبيبا. قال لها إنها تعاني من الكآبة، وتشعر بالإرهاق الشديد، ولا تنام أبدا بصورة جيدة، ولكنها إذا لم تأخذ الحبوب المنومة، فإنها لا تستطيع أن تنام أيضاً. لم تكن باردة جنسياً، يجب ألا تحتقر نفسك، ذاقت لذة هزة الجماع مع زوجها، ولم يكن يتركها دون إشباع رغبتها، عليك ألا تتخيل هذا، لقد كان أصغر منك، ولكن لديه عملا، وتمتع بروح عملية جدا، وهو طموح قليلا، وليس هناك ما يسيء إذا كان الرجل طموحا قليلاً. إنه يعتكف غالبا في مخبره، لأنه يخشى أن يشوش ابنه عمله في المنزل. لم يكن عليها أن تنجب طفلا في وقت مبكر، لكنه هو الذي أراد ذلك، إنه يحبها، ويرغب في أن تنجب له طفلا، والمشكلة جاءت من هذا الطفل.

وإليك ما حدث، فقد حاكت كنزة صوف مع تطريزات من الزهور، لابنها، وفق نموذج اخترعته هي بنفسها، ووجدتها أكثر جمالاً من الكنزات التي تعرض في معارض الملابس الأطفال. وبفضل بطاقات مجانية مقدمة من وحدةعملها، ذهبت مع صديق جديد إلى معرض مبيعات (الموضة). لم يكن عندهما عمل في هذا اليوم، لأن مخبرهما يقوم بأعمال الصيانة على آلاته. رافقها صديقها وهو يأمل أن يجد شيئاً لزوجته، ولكنه، في الواقع، لم يشتر شيئاً. في المقابل، قال إن كنزة الصوف التي حاكتها لابنها كانت أفضل من البضاعة المعروضة، وإنها تستطيع، حقيقة، أن تصبح مصممة أزياء. بدأت، بعد هذا، في التفكير، واشترت آلة خياطة. ومن قماش من القطن الأزرق السميك الذي لم تستفد منه من قبل قط، وثوب مهمل قديم، لم تعد تلبسه، خاطت ثوباً جديدا يكشف عن الكتفين، ولبسته عند ذهابها إلى عملها. رأى الثوب قبل أن تغير ملابسها، وهنأها، مضيفا أنه يتوجب عليها دائما أن تخيط ملابسها بنفسها. بعد ذلك بيومين دعاها إلى عرض أزياء.

وكل شيء بدأ مع عارضات الأزياء.

إنها تريد أن تستمر في سماعها، لقد قال إنها إذا صعدت إلى المنصة، وهي تلبس ثوبها الذي يكشف عن كتفيها، فإنها تستطيع أن تنافس عارضات الأزياء وقال أيضاً إن جسدها جميل جدا.

لكنها كانت تعرف جيدا إنها نحيفة. ورد عليها بأن العارضات يجب ألا يكون لديهن نهود ضخمة، ويكفيهن أن يكون لديهن سيقان طويلة، وقوام جميل. وأضاف أن قوامها أهيف، خاصة عندما تكون لابسة هذا الثوب. قالت بأنها هي أيضاً تحب أن تلبس هذا الثوب لكي تذهب إلى العمل، لأنها هي التي صنعته بيديها، وفي كل مرة

كانت تلبسه، كان يأكلها بنظراته.

وعندما جاءت مرة لتبدل ملابسها، لم يتركها بنظراته، ثم دعاها إلى العشاء. رفضت، عليها أن تذهب لاصطحاب ابنها من الحضانة، ولا تستطيع تركه مساءا دون الاهتمام به. سألها إذا كان زوجها يمنعها من الخروج لوحدها مساء. لا، ولكنها عندما تخرج، ينام مبكرا، بالتأكيد، لقد تركته سابقاً في عهدة زوجها، ولكنها في هذا المساء لا تستطيع الذهاب معه للعشاء.

وفي مرة أخرى، دعاها للغداء عنده في اليوم التالي، خلال الراحة، لكي يذيقها طبق الطعام الذي ينجح كثيراً في إعداده "كريات السعادات الأربع".

ورفضت من جديد.

لا، لقد وافقت في البداية، ولكنه اضاف أنه يرجو أن تلبس ثوبها القطني الأزرق.

هل وافقت؟

لا، أضافت بأنها ليست متأكدة من تلبية الدعوة. ولكنها، مع ذلك، جاءت إلى العمل، في اليوم التالي، وهي تضع ثوبها عليها. وعند الظهيرة ذهبت إلى بيته. لم تكن تعرف ماهو الشيء المميز في هذا الثوب، فهي لم تفعل أكثر من خياطة قطعتي قماش، مع قطعة الحرير المهملة والمصبوغة، والتي إذا أخذت لوحدها فإنها لا تساوي شيئاً، وتدل على ذوق سيء. شكل المجموع شيئاً مبتكرا. لم تكن تعتقد بأن قوامها جميل إلى هذا الحد، وكان زوجها يقول، وهو يمزح، إنها هزيلة جدا، وهي غير مثيرة جنسيا كثيراً، فهل أصبحت حقا جميلة بعد أن لبست هذا الثوب؟

قلت إن المشكلة ليست في الثوب.

أين، إذن؟ إنها تعلم ما تريد قوله.

قلت إنك لا تعرف أين تكمن المشكلة، وهي على كل حال ليست في الثوب. إنها في حقيقة أن زوجها يسخر دائما من الألبسة التي تلبسها، إنه لا يكترث بها أبدا قالت إنها لا تريد إغراء أي شخص.

أسرعت في نفي أن تكون ذكرت شيئاً بهذا المعنى.

قالت إنها لن تقول شيئاً بعد الآن، سألتها إذا كانت تبحث عن شخص لتكشف له عن مكنونات قلبها. وتحدثه قليلاً عن عذاباتها، وعذابات صديقتها؟ حضيتها على الاستمرار.

لا تعرف ما الذي تفضل الحديث عنه.

أتحدث عن (كريات السعادات الأربع)، وهو الطبق الذي يبرع فيه. قالت إنه حضر

كل شيء من قبل، فزوجته كانت في مهمة. ذكرتها أنها في الأصل لم تذهب إلى بيته لترى زوجته، ولكن لنأكل، وكان عليها أن تعرف أن من واجبها الحذر لأن زوجته ليست هنا، إنها تعرف هذا، ولهذا ازداد حذرها، وازداد معه توترها.

ألم تكن قادرة على السيطرة على نفسها؟

لم يكن باستطاعتها الرفض.

متى رأى الثوب؟

لم تستطع إلا إغلاق عينيها.

لم تكن تريد أن ترى وهي على وشك أن تفقد رشدها؟

نعم، هذا هو.

ولم ترد أن ترى وهي مجنونة أيضا؟

قالت إنها كانت حمقاء، وإنها لم تفكر بفعل هذا، وإنها كانت تعرف في هذا الوقت، أنه على كل حال، لم تكن تحبه قط. كان زوجها أفضل منه.

قلت إنها لم تكن تحب أحدا، في الحقيقة.

قالت إنها لا تحب غير ابنها.

قلت إنها لا تحب إلا نفسها.

ربما نعم، ربما لا، قالت إنها غادرت بعد ذلك، ولم تعد تريد رؤيته لوحدها.

ولكنها، مع ذلك، رأته؟

نعم في بيته؟ قالت إنها كانت تريد أن تشرح له..

قلت إن هذا غير قابل للشرح.

هذا صحيح، لا، إنها تكرهه، وتكره نفسها. وأخذك الجنون من جديد؟ لنترك الحديث عن هذا ! إنها تعذبت كثيراً، لا تعرف لماذا، يجب عليها الحديث عن هذا كله، وهي تريد فقط أن ينتهي كل شيء سريعا.

سألتها كيف تريد أن تنتهي من هذا. قالت إنها لا تعرف ذلك مطلقاً.

لقد توفي قبل وصولي بسنتين إلى هنا. في هذه الفترة، كان الكاهن الأخير الحي في نحو مئة قرية لقبيلة مياو في المناطق المحيطة، ولم يُنظم، منذ عشرات السنين، قداساً كبيراً لتقديم القرابين للأسلاف. كان يعلم أنه سيرتقي إلى السماء قريبا، وأنه إذا كان قد وصل إلى هذا العمر المتقدم، فإن هذا يعود إلى القرابين العديدة التي قدمها؛ لن تجرؤ الأرواح على المجيء لتعذيبه دون سبب.

إنه يخشى عدم الاستيقاظ في صباح جميل، وعدم قضاء الشتاء.

اغتنم فرصته أن ساقيه مازالتا تستطيعان حمله، فأخرج من بيته، عشية رأس السنة، الطاولة المربعة، ونصبها أمام البيت المبني بشكل بارز فوق النهر. هجرت الضفة، وساد الصمت فيها. عاد الناس إلى بيوتهم لقضاء سهرة رأس السنة. يقوم الناس حاليا بتقديم القربان للأسلاف، ولرأس السنة، وأصبح هذا الأمر يتم، شيئاً فشيئاً ببساطة ودون تعقيد.

وجيلا بعد جيل، يضعف الرجال بصورة لا يمكن تداركها.

وضع على الطاولة طاسات عديدة طافحة بنبيذ الرز، وجبن الصوجا، وحلويات رأس السنة مع الرز الغلوتيني، وأمعاء الجاموس الذي قدمه الجيران. ووضع تحت الطاولة، حزمة من الرز، وأمامها كوم الفحم الخشبي. توقف للحظة وهو متعب جدا، ليستعيد أنفاسه. ثم، صعد السلالم، وعاد إلى المدخل ليبحث في الموقد عن قطعة فحم متوهجة، قرفص بهدوء وانحنى لكي ينفخ فيها. أسال الدخان الدموع من عينيه الجافتين. تصاعد اللهب شيئاً فشيئاً، وسعل قليلاً. ولم يخف سعاله إلا بعد أن شرب جرعة من نبيذ مقدم كأضحية.

وعلى الضفة الأخرى من النهر، اختفت الأشعة الأخيرة للشمس وراء القمم الجبلية الخضراء، وبدأت ريح المساء تصفر فوق الماء.

تعب، فجلس على المقعد المرتفع، مقابل الطاولة، ووضع رجليه على حزم الرز. استعاد هدوءه الداخلي، ورفع رأسه ليتأمل سلسلة الجبال القاتمة، وشعر ببرودة دموعه، والقطرة التي تسيل على أنفه.

عندما كان يقدم أضحية للأسلاف، قديما، كان يجتمع معه أربعة وعشرون شخصاً. كان يحضر رسولان، وخادمان، واثنان لحمل الأغراض اللازمة، ومساعدان، واثنان لحمل السكاكين، وشخصان لسكب النبيذ، وشخصان لتقديم الطعام، وفتاتان

تأخذان شكل التنين، وأشخاص لحمل الرز، لقد كانت مأثرة ضخمة!

كان يضحي بثلاثة جواميس على الأقل، وبتسعة جواميس كحد أقصى. وللتعويض عليه، كان على طالب القربان أن يقدم له سبع مرات، الرز الغلوتيني: في المرة الأولى سبع جرار لكي يذهب إلى الجبل لقطع الشجر الذي يصنع منه الطبل. وفي المرة الثانية ثماني جرار لكي ينقل الطبول إلى الكهف. وفي المرة الثالثة تسعة جرار لكي ينقلها إلى القرية. وفي المرة الرابعة، عشر جرار لكي يربط الطبول بعضهما ببعض. وفي المرة الخامسة، إحدى عشرة جرة من أجل قتل الجاموس، وتقديمه كأضحية عن الطبول. وفي المرة السادسة تقدم اثنتا عشرة جرة من أجل الرقص على الطبول. وفي المرة السابعة ثلاث عشرة جرة كقربان للطبول. هذه هي القوانين الخالدة.

عندما قام بتقديم أضحيته الأخيرة، أرسل له الممول خمسة وعشرين شخصاً وهم يحملون له الرز، والطعام، والنبيذ. أي تصرف! لقد ذهبت هذه الأيام الجميلة، للأسف! للسيطرة على هيجان الجاموس قبل ذبحه، في هذا العام، وضع في المكان عامود مزين بخمسة ألوان. كان الممول يلبس ملابس جميلة، ويرتفع صوت الأرغن الفموي والطبول. وهو نفسه كان يلبس ثوباً طويلا أرجوانيا، ويضع على رأسه قبعة من المخمل الأحمر. وغرس في قبة ثوبه ريشة من طائر الرخ. وكان يحرك بيده اليمنى الأجراس، ويمسك بيده اليسرى مروحة يدوية مصنوعة من ورقة موز كبيرة. آه...

جاموس، جاموس،
ولدتَ في الماء الهادئ
كبرتَ على الساحل الرملي
وفي أمك تبعتك داخل المياه
وتبعك أبوك إلى الجبال
ونافست طبل قربان الجراد
ونافست خيزران قربان حصان إبليس
قاتلت على ثلاثة اتجاهات
وصارعت على سبعة خلجان
انتصرت على الجراد
قتلت حصان إبليس
قطعت الخيزران
أمسكت بالطبل الكبير
ضحيت بأمك مع الخيرزان
ضحيت بأبيك مع الطبل،

أيها الجاموس، أيها الجاموس
أنت تحمل أربع سلال من الفضة
وأربع من الذهب في الوقت نفسه
ستذهب مع أمك
وتدخل الكهف
وستدوس باب الطبل
ستحرسك الوديان مع أمك
ومع أبيك، سيسهر عليك باب البلدة
لكي تمنع النفوس السيئة من إلحاق الأذى
ولمنع الشياطين من الدخول إلى بيت الأسلاف
ولكي تبقى أمك مطمئنة ألف عام ولكي يبقى أبوك هادئاً لمئة جيل.

في هذه اللحظة، ربط رجل حبلاً بأنف الجاموس، وربط قرنيه بوتد في الأرض وسحبه. انصرف الممول أمامه للقيام بثلاث ركعات وتسع سجدات. وأمسك سيد القربان بحربة ولحق بالجاموس لكي يقتله وهو يغني بصوت مرتفع. ثم يقوم الخلف، كلٌ بدوره، بطعن الحيوان بالخنجر على صوت الموسيقى والطبول. يركض الجاموس بجنون حول العمود، ودمه ينزف. وينهار أخيراً بعد أن يناله التعب، وينزف دمه. عندها يقطع الجمهور رأسه، ويتقاسمون اللحم. يبقى صدره من نصيب سيد الأضحية.

لقد انتهت هذه الأيام الجميلة إلى غير رجعة.

سقطت أسنانه كلها، حاليا، ولا يستطيع أن يأكل إلا قليلاً من الحساء. لقد عاش هذه الأيام السعيدة حقاً، ولكن اليوم لا يأتي أحد لخدمته. عندما يمتلك شباب اليوم النقود يسارعون إلى التدخين مباشرة، ويمسكون بيدهم علبة ألكترونية تصرخ في كل الاتجاهات، ويضعون نظارات سوداء تجعلهم يشبهون الشياطين. هل مازالوا يفكرون بأسلافهم؟ وكلما غنى، كلما أحس بالمرارة. تذكر أنه نسي وضع مجمرة العطر، ولكنه إذا عاد مرة ثانية للبحث عنها في المدخل، فإن عليه أن يصعد من جديد الأدراج الحجرية.

أشعل بكل بساطة أعواد البخور بالفحم الخشبي المتوهج، وزرعها في الرمل، أمام الطاولة. في الماضي كان يجب مد قماش أسود على الأرض، بطول ستة أقدام توضع عليه حزمة الرز.

داس على الحزمة وأغمض عينيه. ظهرت أمامه فتاتا التنين، ولا يتجاوز عمر كل منهما الستة عشر عاماً، وهما أجمل فتيات القرية وعيونهما صافية ونقية كماء النهر.

كان هـذا قبل فيضـان النـهر، أمـا الآن فإن النـهر يصبـح، بعـد أن يـهطل المطـر الغزيـر، معكرا، إضافة إلى أنه من المستحيل العثور على أشجار للأضاحي ضمن دائرة قطرها عشر (لي).

يلزم على الأقل وجود اثني عشـر زوجـاً مـن الأشـجار مـن أنـواع مختلفـة، ولكـن مـن القياس نفسه. مثل شجر البلوط كخشب أبيض، وشـجر القبقـب كشـجر أحمـر، يمكـن أن تستخلص من البلوط الفضة، ومن القبقب الذهب.

في الطريق ! الأب الطبل من القبقب
في الطريق ! الأم من خشب البلوط
اتبع خشب القبقب
اتبع خشب البلوط
إلى حيث يوجد ملك الزمان
إلى حيث يوجد الأسلاف
عندما سترافق الطبل، اقتلع الزاوية
يخرج سيد القربان السكين من غمده
يقتلع الزاوية لكي يرافق الطبل
دونغكا دونغ دونغ وينغ
دونغكاكا دونغ وينغ
كادونغ واوينغ وينغ وونغكا دونغ دونغكا
اشتعلت عشرات المعاول طيلة الليل. عليهم أن يكملوا مهمتهم.
أخيراً قفزت الفتاتان بشكلهما اللطيف، وقامتهما المشوقة.
الزوجات يردن أزواجاً
والرجال يردن نساءً
وفي الغرف سيضعون أطفالاً
سيصنعونهم في السر
يجب أن يستمر النسل
ويجب أن لا تنقرض الذرية
ولدت سبع فتيات بارعات
وظهر تسعة شجعان على الأرض.

احتفظت الفتاتـان بثبـات نظرهمـا. اسـتدارا بؤبـؤا عينيـه الأسـودان الغامقـان نحـو داخلـه. انتابتـه مـن جديـد رغبـة جنسية، وعـادت إليـه قوتـه، وبـدأ الغنـاء بقـوة، وارتفـع الوجه نحو السماء. انطلق صياح الديك، وأطلق له الرعد البروق، وضرب شياطين بـلا رؤوس الطبول وقفزوا على جلدهـا، كمطـر مـن حبـات الحمـص الصغيرة، آه! العمـرات العالية من الفضة، وحلقـات الأذن الثقيلـة، والحـرارة الحلزونيـة التـي ترتفـع مـن الموقـد

الممتلئ بالفحم الخشبي، غَسلَ وجهه ويديه، وملأت السعادة قلبه، الآلهة سعيدة، إنهم صعدوا السلم السماوي، ونزل الأب والأم، ضاعفت الطبول من قرعها، انفتح مخزن الغلال، تسع قدور وتسع جرار لا تكفي لاستيعاب الحب المستخرج، زاد اضطرام النار، وأصبح الفحم متوهجا، الغني هنا، لقد جاءت روح الأم السلفية أخيرا، إنه زمن الخصب، تسعة دلاء عامرة بالرز، الجميع يأتون لصنع كريات الرز، لطبولك، لطبولك ! بدأ قارعو الطبول المسير، ثم تبعهم كبار السن. أمام، وخلف، وفي كل الاتجاهات. أغلق رئيس الطبالين المسير.

اذهبوا لتستحموا في مياه الثراء!
اشربوا من مياه النجاح والازدهار
تعطيكم مياه الغنى طفلا
سيولد في مياه المطر طفل
مثل القصب الأطفال، والأطفال الصغار
ومثل الأسماك الصغيرة
يسرع الشباب إلى رئيس الطبل
ويشربون تسعة قرون من النبيذ
ويأخذون الرز من أجل القربان
ويسكبون النبيذ على الأرض
ويتضرعون إلى إله السماء أن يقبله
وإلى إله الأرض أن يأكله
ورفع رئيس الطبل معوله
استل الأسلاف سيوفهم
وتجاوزوا الأجيال
لكي يبقوا خالدين
ليتذكر أمه
لحفر قطعتي خيزران
من أجل صناعة طبلين.

إنه يغني بصوت مرتفع إلى درجة الإرهاق. يشبه صوته الأجش عود خيزران مشقوقاً يئن مع الريح. حلقه جاف. شرب بعض القطرات من النبيذ. إنه يعرف أن هذه المرة ستكون الأخيرة، إن روحه قد تركته، وتبعت صوته الذي ينطلق في الفضاء.

من كان يستطيع سماعه على ضفة هذا النهر المظلم والمهجور؟ ومن حسن الطالع أن امرأة عجوزاً فتحت بابها لترمي الماء الوسخ، ويبدو أنها سمعت صوت غناء قادماً من بعيد. لاحظت إذ ذاك ضوء النار على الضفة واعتقدت أن أحد أفراد قبيلة هان يصيد. إن أفراد هذه القبيلة يتسللون في كل مكان، في كل مكان يمكن أن يكسبوا منه نقودا. أوصدت بابها ثانية، ثم أدركت أن الهاينين، مثل المياوين، يحتفلون برأس السنة

هذا المساء، ما عدا أولئك الذين لا يملكون المال. ربما يكون متسولا. ملأت طاسة من بقايا وجبة الحفلة، واتجهت نحو مكان النار. دهشت عندما تعرفت على العجوز الواقف أمام طاولته.

نهض زوجها لإغلاق الباب المفتوح، والذي يسمح باندفاع الهواء البارد إلى داخل المنزل، ولكنه تذكر أن زوجته خرجت وهي تحمل طاسة من الطعام لمتسول. خرج هو بدوره، وأصيب بالدهشة والذهول عندما وصل إلى مكان النار. ثم جاءت الفتاة والفتى وأصيبا بالذهول بدورهما. ثم تدخّل الفتى الذي ذهب إلى مدرسة المقاطعة لعدة سنوات.

- قال وهو يتقدم، أنت مهدد بالإصابة بالبرد إذا بقيت هكذا في الخارج، سأساعدك لكي تعود إلى بيتك. لم يعره الرجل العجوز انتباهه، كان المخاط يسيل من أنفه، واستمر في الدندنة بصوت أبح يضطرب في حلقه، وعيناه مغمضتان.

- وانفتحت أبواب البيوت الأخرى تباعاً. وخرجت النساء والرجال العجائز يلحق بهم أطفالهم، ثم تجمعت القرية كلها على الضفة. بعضهم عاد إلى البيوت ليجلب طاسة من كريات الرز الغلوتيني، وجلب بعضهم الآخر طائر الكانار، وآخرون أحضروا طاسة من النبيذ، وقليلاً من لحم الجاموس وأخيرا، وُضِعَ أمامه نصف رأس لخنزير.

- كان الرجل يتمتم باستمرار، إن نسيان الأسلاف جريمة كبرى.

وركضت إحدى الفتيات التي تأثرت كثيراً إلى بيتها، وجلبت الغطاء الذي جهزته لزواجها. وغطت به الرجل العجوز، ومسحت أنفه بمنديل مطرز.

قالت: عد إلى بيتك أيها الأب العجوز.

صاح الشباب ! أيها الرجل المسكين!

أم القبقب، وأب البلوط، إذا نسيتما أسلافكما فيجب أن تدمعا!

اختنقت كلماته في حلقه، وبكى.

أيها الأب العجوز، ستفقد صوتك عما قريب.

- عد إلى بيتك.
- أراد الفتية مساعدته في النهوض.
- سأموت هنا....
- قاوم الرجل العجوز. وصرخ أخيراً كطفل مرعوب.
- قالت امرأة عجوز: اتركوه يغني. إنه شتاؤه الأخير.

إن الكتاب الذي في يدي (اغنيات التضحية)، جمع، وترجم إلى اللغة الصينية من قبل صديق من المياوين. وإذا كنت أكتب هذه القصة، فذلك نوع من العرفان والشكر.

- ٤٢ -

إنه يوم جميل جدا، فالسماء بلا غيوم. وضوء القبة السماوية وعمقها يتركانك مدهوشا من الإعجاب. وفي الأسفل، هناك قرية معزولة مع بيوتها المرتفعة المستندة إلى المنحدر الصخري، كخلية نحل معلقة على صخرة. إنه حلم، تدور دورة كاملة، في أسفل الجبل، فلا تجد أي طريق لتذهب إليها. تعتقد أنك تقترب من القرية، ولكنك، في الواقع، تبتعد عنها. هذا الذهاب والإياب يأخذ منك وقتك فتنسحب مستسلماً. تقدمت بصورة عشوائية فغابت القرية وراء الجبال. مع ذلك، أصابتك حسرة غامضة. وتجهل أين يؤدي الطريق الذي تسلكه، حتى وإن لم يكن لديك هدف محدد.

تسير بصورة مستقيمة على الطريق المتعرج. لم يكن لديك في حياتك هدف محدد، والأهداف التي وضعتها نصب عينيك تغيرت مع الزمن، وكانت تتغير باستمرار، وفي النهاية لم تحقق منها شيئاً قط. إذا تأملنا جيدا في هذا، فإن الهدف النهائي للحياة الإنسانية غير هام، إنه كخلية النحل. إن تركها يثير الحسرات، ولكن أخذها يسبب الفوضى الكبيرة عند النحلات، ومن الأفضل تركها في مكانها، ومراقبتها دون المساس بها. ولكنك، مع هذا التفكير، ستشعر بأنك أكثر نشاطا، وليس هاما إلى أين ستذهب شريطة أن يكون المشهد جميلا. الطريق يحاذي غابة من أشجار القطلب، ولكن الفصل ليس فصل الفواكه. عندما تنضج ثمرات القطلب، من المستحيل معرفة أين ستكون. هل تنتظر شجرات القطلب الناس؟ أم ينتظر الناس ثمرات القطلب؟

هذه مشكلة ميتافيزيقية يمكن أن تجد حلولا لا متناهية.

ثمرات القطلب لا تتغير أبدا والناس يبقون كما هم دائما.

يمكننا القول أيضاً إن ثمرات القطلب في سنة معينة لن تكون هي نفسها في السنة التالية، والإنسان اليوم ليس هو نفسه الذي كان في الأمس. والمسألة هي في معرفة أيهما الصحيح، إنسان البارحة أم إنسان اليوم. وكيف توضع روائز الحكم؟ أترك الميتافيزيقيين يتحدثون عن الميتافيزيقيا، واهتم أنت بطريقك فقط.

تستمر في الصعود، والجسد مبلل بالعرق، وفجأة أطللت على القرية. وعند رؤية مشارفها، انتابك إحساس عذب.

لم تفكر من قبل قط أن الرجال الجالسين سيحتلون الأرصفة الحجرية الطويلة أمام البيوت المرتفعة. لايمكنك أن تشق طريقا إلا إذا تسللت بين أقدامهم. لا أحد ينظر إليك، فرؤوسهم منخفضة، ويتمتمون بنص مقدس، ويبدو عليهم جميعا الحزن.

وتتعرج الأرصفة الحجرية على طول الطرق. وعلى الجانبين تصطف البيوت الخشبية في الاتجاهات كلها، ويستند بعضها إلى بعضها الآخر، وكأنها تتجنب السقوط. إذا حدثت هزة أرضية، أو انزلقت التربة، فإن كل شيء سينهار.

وهؤلاء العجائز الجالسون، هم أيضاً يستند بعضهم إلى بعضهم الآخر، ويشبهون البيوت. يكفي أن تدفع واحدا منهم، لكي يقع الجميع مثل أحجار الدومينو. لا تجرؤ على لمسهم، لأنك تخشى أن تتسبب بكارثة. تضع خطواتك بين أقدامهم بانتباه شديد.

تغطي جوارب من القماش أقدامهم الهزيلة، كأنها مخالب ديك. وتتردد بين شكاواهم أصوات صرير، من المستحيل معرفة فيما إذا كان يصدر عن المباني الخشبية أو عن استناد بعضهم إلى بعضهم الآخر. يسبب لهم سنهم المتقدم الرجفان، وعندما يرتلون المزامير يهتزون، ولا تتوقف رؤوسهم عن الحركة.

وعلى طول الطريق المتعرج إلى ما لا نهاية، يجلس رجال على الأرصفة الحجرية، وهم يلبسون الملابس الرمادية المتشابهة والمصنوعة من قطن قديم، أصابها التلف فرقعت. وعلى درابزين المنازل المرتفعة، تجفف الشراشف والأغطية، والناموسيات المفصلة من القنب الخشن. ويضفي حضور هؤلاء العجائز الغارقين في الألم مهابة كبيرة.

ويتردد من بين تراتيلهم صوت حاد ينفذ بك كأنه مخالب قطة، يشدك ويجذبك ويجبرك على التقدم إلى الأمام. من المستحيل القول من أين يأتي، ولكن عندما ترى مجموعات من البطاقات الورقية المعلقة أمام باب منزل، وترى دخان البخور الذي يتصاعد من تحت الستائر المغلقة، تفهم أن هذا الصوت هو صوت بكاء على ميت. يدفعك الفضول إلى التقدم. يزداد عدد الناس وازدحامهم، ولم تعد تستطيع أن تجد مكاناً لقدميك.

إنك تخاف أن تكسر عظام أحد هؤلاء الرجال إذا دست عليها. عليك الانتباه جيدا لاختيار مكان خال ضمن هذا الحشد من الأرجل والأقدام، تحبس نفسك وتتقدم خطوة خطوة. لم ينظر أحد إليك. يضع قسم منهم على رأسه العمامة، ويضع القسم الآخر منديلا من القماش. لا تستطيع أن تميز بينهم. في هذه اللحظة، بدأ الجميع بإنشاد أغنية بشكل جماعي، واستطعت أن تفهم كلماتها وأنت تستمع إليهم بانتباه شديد.

جميعاً، أتيتم
في يوم واحد، ركضتم ست مرات

في مرة واحدة، تجولتم في ستة أماكن
رشوا الرز في الجحيم
وستكونون قد أكملتم مهمتكم

إن الصوت الحاد الذي يقود الغناء صادر عن امرأة عجوز جالسة على مقدمة الباب الحجري، وهي قريبة منك. إنها تتميز من الأخريات: فالرأس والكتفان مغطاة بصورة كاملة بالسواد، وهي تضرب ركبتها بيد مرتعشة، وتحرك جسدها إلى الأمام والوراء على إيقاع الأغنية الحزينة. وهي تضع إلى جانبها طاسة من الماء البارد، ووعاء من الخيزران مملوء بالرز، وكومة من الأوراق المربعة السميكة، والمثقوبة بثقوب صغيرة منتظمة. ترطب إصبعها بوضعها في الطاسة ثم تأخذ ورقة من ورق الفضة وترميها في الهواء.

لا أعرف متى أتيت
لا أعرف متى رحلت
ستذهب إلى نهاية الأرض
وهناك، في الشرق
دودان آه! دودان أوه ! Doudan ah ! Doudan oh[4]
لقتل إنسان يكفيه نصف حبة من الرز
ولإنقاذ إنسان، يكفيه قطعة صغيرة
يجب إنقاذ أولئك الذين يتألمون. تجمعوا

أردتَ الالتفاف حولها، ولكنك تخشى أن تصطدم بكتفها، عندها ستقع بالتأكيد. فضلت تجاوزها، ولكنها بدأت بالصراخ بصوت حاد:

دودان آه ! دودان أوه !
ساقاه مثل العصا
ورأسه مثل سلة من الكانار
إذا أتى، يذهب بسرعة
إذا جاء، يمكننا أن نعد
فليأت بسرعة
قل له ألا يتأخر.

نهضت وهي تصرخ، وحركت يديها نحوك، ووجهت أظافرها التي مثل أظافر دجاجة نحو عينيك. لا تعرف أي قوة تدفعك لإبعاد يديها، ونزع القماش الأسود الذي يغطي رأسها.

---

(٤) دودان اسم شيطان عند المياويين.

عندها ظهر وجه صغير، جاف، بمحجرين دون نظر ينغرسان في داخل الجمجمة، وشفتين متباعدتين تظهران سنا واحدة، وتكشفان عن بسمة متميزة. استمرت في الصراخ وهي تقفز:

الثعابين الحمراء المبرقعة تزحف في الاتجاهات كلها
تخرج حيوانات الببر والذئاب
تفتح أبواب الجبال وهي تصدر صريرا
الجميع يعبر الباب الحجري
ويصرخ بصوت مرتفع
الجميع ينضم إلى هذا الصراخ
أسرعوا لإنقاذ هذا الرجل البائس

أردت التخلص منها، ولكن المسنين الجافين كالخشب اليابس، ينهضون بهدوء، التف الجميع حول بعضهم بعضاً، واستمروا في الصراخ بصوتهم المتهدج.

دودان آه ! دودان أوه !
افتحوا الباب بسرعة، وصلّوا في الاتجاهات الأربعة
الساعة ين yin تستدعي الساعة ماو Mao
ابتهلوا إليه للذهاب إلى أب الرعد والأم الصاعقة لنصعد على الخيول،
لنستخدم نقودهم!

اندفع الحشد نحوك، صرخت، واختنقت الكلمات في حلقك. دفعتهم، فوقعوا على الأرض الواحد تلو الآخر، كالأوراق الخفيفة المتساقطة، من دون ضجيج، وبصمت عميق تأخذ مكانها. في هذه اللحظة، عرفت أن الرجل المستلقي وراء الستارة هو أنت.

لا تريد أن تموت بهذه الطريقة، تريد العودة إلى عالم البشر.

بعد أن غادرت قرية مياو، سرت على طريق الجبل المقفر من الفجر إلى ما بعد الظهر، وعندما كنت أشير إلى سيارات البريد الكبيرة والشاحنات القاطرة المحملة بالحطب أو الخيزران لم تقف أية واحدة منها.

الشمس قبالتي، والريح الباردة هبت على الوادي الصغير. وعند منعطف الطريق العام، الخالي من السكن وعابري السبيل، استولى عليّ الحزن. ترى هل سأبلغ حاضرة إقليم المنطقة قبل المساء؟ لا أعرف أين سأمضي ليلتي إن لم تقلني عربة ما. فجأة تذكرت أنني أحمل آلة تصوير في الحقيبة على ظهري، فلماذا لا أحاول تزجية الوقت بعمل صحفي؟

أسمع هدير سيارة تقترب. أقف في وسط الطريق عنوة لأمنعها من المرور ملوحاً بآلة التصوير. تصل شاحنة مغطاة هادرة، تدنو مني ولا تفرمل صاخبة إلا في اللحظة الأخيرة.

- من ابن الزانية هذا الذي يقطع الطريق بهذا الشكل؟ هل تبحث عن الموت أم ماذا؟ أطلق السائق عباراته تلك وهو يمد رأسه من النافذة.

إنه من الهان. وأنا -على الأقل- أفهم ما يقول.

اندفعت باتجاه باب الشاحنة:

- اعذرني، إنني صحفي، جئت لإجراء تحقيق في قرية مياو، وأنا على عجلة من أمري، فعليّ أن أرسل برقية من حاضرة الإقليم قبل الليل!

من السهل إقناع رجل على شاكلة هذا السائق ذي الوجه الكبير والخدود العريضة والفم الغليظ. تفحصني عابساً من رأسي حتى قدمي:

- سيارتي تنقل الخنازير، ولا تقلّ البشر، ثم إنني لست ذاهبا إلى حاضرة الإقليم.

هذا صحيح بالفعل، لقد سمعت أصوات نخيرها في الداخل.

رسمت على وجهي ابتسامة عريضة:

- لا بأس، طالما أنك لن تأخذني إلى المسلخ.

وعلى مضض فتح الباب، فقفزت إلى المقعد شاكرا له بحرارة.

رفض السيجارة التي قدمتها له. وسرنا دون أن ننبس ببنت شفة. وما دمت أجلس الآن مرتاحاً فلست بمضطر لتقديم شروح إضافية. كان من وقت إلى آخر،

يلقي نظرة خاطفة على آلة التصوير التي علقتها متعمدا على رقبتي. أعرف أن بكين تمثل في نظر سكان هذه المنطقة مركزاً للسلطة، وأن صحفيا قادما من العاصمة يعد حتما شخصاً مهما، لكن أحدا من موظفي المقاطعة لم يرافقني، كما لم ترسل سيارة جيب لاصطحابي، كيف أفسر ذلك؟ من الصعب تبديد شكوكه.

لا ريب أنه يحسبني نصابا. فلقد سمعت عن وجود مثل هؤلاء النصابين حقيقة أولئك الذين يحملون آلة تصوير فارغة، ويتبجحون بعظمة فارغة، ويذهبون إلى الجبل وبذلك يمضون بعض الوقت، ثم يذهبون إلى المدينة لينفقوا ما جمعوه احتيالاً من نصبهم. يسليني التفكير بأنه يراني واحدا من هذه الشخصيات.

أحتاج من وقت إلى آخر إلى التمتع قليلاً وإلا فسوف يكون هذا السفر الطويل شاقا ومضنيا حقا. فجأة يرمقني بنظرة خاطفة ويطلب مني ببرود:

- أين ستذهب أخيرا؟
- سأدخل الحاضرة!
- أي حاضرة؟

بما أنني تجولت بسيارة ملك السمياو، ولم أحفظ اسم الحواضر التي مررت بها، فلم أجد جوابا.

قلت له:

- على كل حال، سأذهب إلى مركز سكن لجنة المنطقة الأقرب من هنا!.
- إذن انزل هنا.

أمامنا مفترق طرق مقفر أيضا، ولا حياة فيه. لا أعرف فيما إذا كان يحاول إخافتي أو أنه أيضاً كان يريد التحول إلى روح الدعابة. تباطأت الشاحنة ثم توقفت.

- سأنعطف من هنا، أضاف السائق.
- ولكن، إلى أين ستذهب؟
- إلى الريف لشراء خنازير حية.
- ينحني ليفتح لي الباب، إنها دعوة للنزول وليست مزحة. وما علي بالطبع، سوى النزول لأسأله:
- هل خرجنا من مقاطعة المياو؟
- فأجاب ببروده المعتاد:
- منذ وقت بعيد، إنك على بعد حوالي عشرة كيلومترات من المدينة، وستصل إليها قبل الليل.

- أغلق الباب بعنف، وعلت غيمة من الغبار، ثم اختفت الشاحنة بعيدا.

- قلت في نفسي، لو أنني كنت امرأة وحيدة، فلن يكون السائق باردا تجاهي بهذه الطريقة. من جهة أخرى، أعرف أن سائقي الشاحنات اغتصبوا نساء وحيدات منفردات على طرق كهذه، ولكني في الحقيقة، ما كنت لأركب باستخفاف دونما تروٍ شاحنة في حالة كهذه. كان أحدنا يحترس من الآخر على الدوام.

غابت الشمس، وامتد الظلام في السماء امتداد حراشف السمك. أمامي شريط رمادي باهت وطويل. ساقاي تؤلماني جراء التعب، وظهري يرشح عرقا، لم أعد أرقب السيارات، ولا أرجو سوى أن أستريح في قمة الشاطئ قبل أن أعود إلى الطريق ليلاً.

لم أكن لأفكر قط بلقاء إنسان مثلي هنا، لكنه وصل إلى القمة في الوقت الذي وصلت فيه تقريبا. شعره مشعث، ولحيته لم تحلق منذ أيام، ويحمل على ظهره حقيبة أيضاً. أنا أحمل حقيبتي على كتفي، وهو يمسكها بيده. يلبس سروالاً رمادياً باهتاً كالذي يلبسه عمال المناجم أو البناء. أما بنطالي فلم أغسله منذ بداية الأشهر التي بدأت فيها السير على الطريق.

من نظرتي الأولى إليه عرفت أن هذا اللقاء لن يكون سارا. تفحصني من رأسي حتى قدمي، وانتقلت نظراته إلى حقيبتي. أحسست أنني أمام ذئب. الفرق بينهما أن الذئب يرى فيمن يصادفه في طريقه فريسة بحد ذاتها، بينما يذهب اهتمام الإنسان إلى ما تملكه ضحيته. لم أملك إلا أن أبادله النظرات نفسها. أمعنت النظر في حقيبته، وتساءلت: هل يخفي سلاحا فيها؟ وإذا تابعت مسيري، هل سيهاجمني من الخلف؟. توقفت.

حقيبتي ليست خفيفة، وعلى الخصوص مع آلة التصوير، وإذا لوحت بها فستكون سلاحا يحميني. أنزلتها عن كتفي وأمسكتها بيدي، ثم جلست على منحدر ألتقط أنفاسي وأستعد لمواجهته. هو أيضاً تنفس بعمق وجلس على صخرة في الجهة المقابلة للطريق. لا تفصلنا إلى خطوات عشر تقريبا.

من الواضح أنه يبدو أقوى مني. لو تصارعنا فلن أكون ندا له. لكنني أملك في حقيبتي سكيني الكهربائي التي أحملها دائما في صغري، علها تكون مفيدة في حال تعرضي للهجوم. أما هو كما يبدو لا يملك شيئاً مماثلا، وإذا امتلك سكينا أصغر فلن تكون له الغلبة. هناك حل آخر وهو أن أهرب، لكن هروبي سيزيد في شكوكه ويحمله على الاعتقاد بأنني أحمل بعض النقود، وبأنني ضعيف مما سيدفعه إلى مهاجمتي. من نظرته خمنت أن طريقه مقفر مثلما هو بالنسبة لي. علي أن أظهر له

أنني واثق من نفسي وأني لا أخشاه البتة.

أشعلت سيجارة وتظاهرت بالاسترخاء. أخرج هو أيضاً سيجارة من جيب بنطاله الخلفية. كان كل منا يتجنب المواجهة ولكنه يسترق النظر إلى الآخر.

إذا تأكد له أنني لا أحمل شيئاً ثميناً امتنع الصراع. لا يوجد في حقيبتي سوى آلة تسجيل محمولة لا يُسمع صوتها، وكان من المفروض أن أتخلص منها منذ وقت طويل لو أنني حصلت على المال اللازم لشراء غيرها. في الواقع ليس في حوزتي شيء قيم ما عدا آلة التصوير اليابانية ذات المواصفات الكاملة، ولكنها بالمقابل لا تساوي مغبة فقداني حياتي. كما أنني أحمل حوالي المئة ين، وهو مبلغ تافه أيضاً لا يقدم المرء على إراقة الدماء في سبيله،. نفثت دخان سيجارتي نحو حذائي الباهت. أثناء جلوسي التصق قميصي بجلدي، وتجمد ظهري، واسمع أنين الرياح في المرتفعات.

كشر عن أنيابه ونظر إليّ باحتقار. ربما بدا علي التعبير ذاته، ولعلني كشرت عن أسناني ايضا، ولا ريب أن وجهي كان شبيهاً بوجوه قطاع الطرق.

إذا فتحت فمي وتلفظت بالكلمات البذيئة يمكن أن أصبح عنيفا وأتناول سكيني لأطعنه بها وأنجو بجلدي. ترى هل حاله كحالي ومستعد كاستعدادي لحماية نفسي إنه يمسك بعقب سيجارته بكلتا يديه. وكأنه مستعد هو أيضاً للدفاع عن نفسه.

من المستحيل أن يكتشف أن حذائي هو الشيء الوحيد ذو قيمة لهذه الرحلة الطويلة دون غيرها، لكن المطر والوحل ومياه الأنهار شوهته. إنه متسخ، ومن الصعب التعرف على رحالة من خلاله تنشقت نفسا عميقا من سيجارتي ثم سحقتها على الأرض، وفي الحال ألقى بدوره عقب سيجارته بنقفة من سبابته وكأنه يرد علي. تعبيراً عن ازدرائه ودفاعه معاً.

نهضنا معاً دون أن يسعى أحدنا إلى تجنب الآخر، تقدمنا نحو وسط الطريق، وسرنا جنبا إلى جنب وقد تلامست كتفانا. وفي كل حال لسنا بذئبين، ولكننا أقرب إلى كلبين متوحشين يبتعدان بعد أن اشتمَّ كل منهما رائحة الآخر.

أمامي منحدر طويل، انحدرت بسرعة قصوى حتى بلغت سطيحة، وعندما التفت إلى الوراء بدا لي الشريط الرمادي الذي يصعد باتجاه ذروة الجبل المقفر أنه أشد انعزالا مع حلول الشفق.

قالت عندما كانت تتجمل أمام مرآتها صباحا إنها شاخت، وترى أن المراهم ومساحيق الزينة لا تخفي تجاعيدها. وتفصح لها المرآة بوضوح أنها بددت أجمل سني حياتها، وفي كل صباح عند استيقاظها كانت تشعر أنها محطمة وخاملة، وتلزم سريرها لا تغادره إن لم يكن عليها الذهاب إلى العمل وتنأى عن الناس وترفض رؤيتهم. لكنها عندما تكون في عملها تجد نفسها مضطرة للاحتكاك بالآخرين، ولكنها سرعان ما تتكلم وتضحك فتنسى نفسها، وتتصالح معها إلى حد ما.

تقول إنك تفهم.

لا، لا يمكنك أن تفهم، إنها تقول إنك لا تدرك الإحباط الذي ينتاب المرأة عندما تكتشف في هذه السن أنها لم تعرف حتى الآن شخصاً أحبها بصدق. وما أن يأتي المساء حتى تشعر بالسخط، لكم تمنت أن تكون أمسياتها كلها مشغولة، فتخرج أو تستقبل زوارا، فليس بمقدورها احتمال الوحدة، وتريد استعجال حياتها، هل تدرك شعور انسان هو على عجلة من أمره؟ لا ، إنك لا تدرك ذلك.

تقول إنها لا تشعر بالحياة حقا إلا عندما تذهب إلى الرقص. ويلمسها شريكها وتغمض عينيها.

وتعرف أن ليس بمقدور أي رجل أن يحبها، ولا تتحمل قط النظرات التي تتفحصها وتجزع من التجاعيد في زوايا عينيها. وتعرف أنكم أنتم معشر الرجال، عندما تحتاجون امرأة تفيضون في الكلام المعسول وما أن تكتفوا وتتمتعوا تلوون عنها بحثا عن صيد جديد، وحينما تجدون صبية جميلة تعودون حالا إلى سيرتكم الأولى وإلى ريائكم. ومع ذلك، كم يدوم شباب المرأة؟ هذا هو مصيرها. إنك لا تسمعها كلاما يواسيها. إلا في الليل، وفي السرير عندما لا تستطيع رؤية تجاعيد وجهها، وعندما تمنحك اللذة، وعندما تستمع إليك وأنت تحكي! تقول إنها تعلم بأنك ستتخلص منها، وما ذلك إلا حجة، فأنت تنتظر الفرصة المناسبة لتتركها، الزم الصمت ولا تقل شيئاً

اطمئن، تقول إنها ليست من اللواتي يتعلقن بالرجال ولا يتركنهم أبدا، وهي قادرة على العثور على رجل آخر، وبإمكانها أن تتدبر أمرها وتسلي نفسها. وهي تعرف ما ستقوله لها لا تحدثها عن المشاغل، عندما يأتي اليوم الذي لن تجد فيه رجالا ستعرف جيدا كيف تجد لنفسها ما يسليها ويفرج عنها. ولكنها لا تورط نفسها وتتدخل بشؤون الآخرين، أو أن تعمل قوادة أو تستمع إلى شخص يبوح لها بآلامه. كما أنها لن تجازف أبدا لتصبح راهبة، لا تتظاهر بالضحك، فالأديرة تغص

اليوم بالشابات يتظاهرن بأنهن راهبات بوذيات لجذب انتباه الغرباء إن لهؤلاء الراهبات اللواتي يجندونهن حياة عائلية اليوم، فبإمكان الواحدة منهن أن تفكر وأن تنجب طفلا طبيعيا أو ابن زنا. إصغ لما تقوله لك.

هل أنت قادر على منحها طفلا، والسماح لها بولادته؟ إنها بحاجة إلى مساعدتك؟ فهل ستفعل لها ذلك؟ لن تجرؤ، إنك خائف، اطمئن، لن تقول لأحد إنه طفلك، ولن يكون له أب، سيكون ثمرة حياة أمه المنحلة، وسوف لن يعرف مطلقا من هو والده، أي أنت، تعرفك جيدا فأنت قادر فقط على اغتصاب الفتيات الشابات، فهل يدركن معنى الحب الحقيقي؟ وهل تحبك حقا؟ وتهتم بك اهتمام زوجة وفية؟ عند المرأة لا يوجد إلا الجنس، المرأة ليست مجرد أداة تستخدمونها لتحقيق رغباتكم الجنسية. المرأة السليمة بحاجة إلى الجنس طبعا، لكن ذلك لا يكفي فهي تحتاج أيضاً لأن تكون زوجة وأن تسعد بالحياة الأسرية. كل النساء اللواتي تلتقيهن يرغبن في الاعتماد عليك، النساء بحاجة إلى رجال يتكئن عليهم، ما العمل إذن معك؟ لست متأكدا أن بمقدور النساء أن يحببنك حبها لك الحقيقة، حب أم لصغيرها. إنك وأنت على صدرها طفل مثير للشفقة. أنت نهم جنسيا، لكن عليك ألا تظن بأنك قوي. ستشيخ بسرعة، وستنتهي قريباً اذهب وتمتع مع الأخريات من الفتيات، غير أنك ستعود إليها، وستكون لها من جديد طالما أنها ستتحملك، وستغفر لك أخطاءك، فأين باستطاعتك الفوز بامرأة مثلها؟

هاهي الآن منهكة، وتقول إنها لا تحس شيئاً، وقد انطفأت متعتها ولا تمتلك إلا جسدا خاويا وكأنها سقطت في هاوية عميقة الغور، إنها غير نادمة على شيء، فحياتها انقضت الآن وهكذا، أحبت وأُحبت، وما بقي من حياتها ليس إلا كأس من شاي ذهب طعمه ويجب رميه. الوحدة نفسها على الدوام، من دون زخم أو اندفاع، وإذا بقي شيء من توق فما هو إلا استجابة لمتطلبات الحياة. أنت الذي قطعتها أشلاء مثل قطع مدماة لأفعى. إنك غليظ القلب، وهي لا تملك ما تندم عليه، أهذه غلطتها لأنها ولدت أنثى؟ إنها لن تخسر شيئاً إذا خرجت إلى الشارع في منتصف الليل راكضة كما المجنونة وتنخرط في البكاء بغباء تحت ضوء مصابيح الشارع، ولن تخسر شيئاً إن ركضت تحت المطر وهي تصرخ بهرع، مجبرة السيارات على كبح عجلاتها في اللحظة الأخيرة، وجسدها يرشح عرقا باردا، إنها لا تهاب الموت اطلاقا وكأني بها تقف على قمة شاطئ صخري شديد الانحدار. وهاهي الآن كشبكة مثقوبة، غارقة في الماء رغما عنها، وليس بمقدور أحد انتشالها. أيامها المتبقية لا طعم لها ولا لون، إنها تعوم مستسلمة للتيار إلى أن يجرها ذات يوم نحو القاع لتموت باحتشام، إنها ليست مثلك ترتعد خوفا من الموت، ولا ينال منها الضعف مثلكم، فقلبها قد مات منذ زمن، إن ما تكابده النساء من عذاب أشد مما

يعانيه الرجال. لقد ذبل جسدها وقلبها منذ اليوم الأول لاغتصابها، فماذا تريد أكثر من ذلك؟

إذا كنت تريد تركها فاتركها! لست مضطرا لأن تقول لها كلاما معسولا! فهذا لن يواسيها، وليست هي من يرفض الحب، إنها تريد إلحاق الأذية بك، النساء أكثر سوءا من الرجال لأنهن يعانين جروحا أبلغ! لم يبق إلا الصبر، وكيف لها أن تثأر لنفسها؟

عندما تريد المرأة الانتقام... تقول إنها لا تريد الانتقام منك، بل ترغب في تحملك فقط، لأن باستطاعتها مكابدة كل عناء، فهي ليست مثلكم تصرخ عند أخف ألم، النساء أرهف حساسية من الرجال. والمرأة لا تأسف البتة لكونها امرأة، إن للنساء شعورا بكرامة المرأة دون أن تذهب بشعورها حد الغرور. وإذا قدر لها أن تخلق في عالم آخر جديد فلن ترغب إلا في أن تكون امرأة وسترضى بما تكابده النساء من صعاب ولسوف ترغب أيضاً في الشعور بآلام الولادة الأولى، وبفرح كونها أما لأول مرة، وباللطف بعد التمزق، وبالمتعة عند أول إثارة تنتاب عذراء، وبذروة الإثارة ودوامها، وبالنظرة القلقة، وبالتقاء نظرات الرجال المجنونة... ومع عذاب البعاد الذي يفجر الدموع، تريد من جديد معرفة كل شيء. وإذا كان عليها أن تعود إلى العالم ثانية فإنها تتمنى منك أن تتذكرها وتتذكر مقدار حبها لك، إنها تعرف أنك لم تحبها قط، وإنها سترحل عما قريب، وتلك هي النهاية.

تقول إنها تريد الرحيل في الصحراء وحيدة حيث تلتقي، هناك في النهاية، الغيوم السود، إلى هناك تريد الذهاب، إلى تلك الحدود القصوى اللانهائية. تمتد الطريق إلى ما لا نهاية وترتفع عند التقاء السماء بالأرض. وليس لخطواتها إلا أن تقودها على هذه الطريق المقفرة في ظلال الغيوم. وعندما ستصل إلى آخر الطريق اللامتناهية. تمتد الطريق إلى ما لانهاية وترتفع عند التقاء السماء بالأرض. وليس لخطواتها إلا أن تقودها على هذه الطريق المقفرة في ظلال الغيوم. وعندما ستصل إلى آخر الطريق اللامتناهية ستتابع سيرها دونما توقف والقلب خاو، لقد تمتلكها فكرة الموت والانتحار، ولكن الانتحار يتطلب قليلاً من الحماسة وهذه الحماسة بالذات لا تملكها عندما يضع إنسان ما حداً لحياته يكون ذلك على الدوام، من أجل شخص ما أو من أجل شيء ما، أما هي فقد بلغت الآن حد الإقدام على الانتحار دون أن يكون ذلك من أجل شخص ما، أو من أجل شيء ما، ولكن القوة تعوزها لإنهاء حياتها، لقد تحملت كل أنواع العذاب والهوان، فمن الطبيعي أن يكون قلبها الآن فاقد الشعور والإحساس.

- ٤٥ -

وتسأل:

- هل ستغادر

- ستنطلق السيارة عند الساعة السابعة أليس كذلك؟

- نعم، ما يزال لدينا بعض الوقت.

- رتبت حقيبة الظهر: طويت ثيابي الوسخة وحشرتها في الحقيبة. في البداية اعتقدت أني سأبقى ليومين آخرين في حاضرة الإقليم، لأغسل ثيابي واستعيد قواي خلالهما. أعرف أنها تقف خلفي. لم أرفع رأسي لأنني كنت أخشى ألا أقاوم نظرتها، وإذا لم أرحل فسألوم نفسي أكثر دون شك.

في الغرفة سرير مفرد وطاولة صغيرة قرب النافذة. حوائجي مبعثرة على السرير. أمضيت الليلة في غرفتها ممددا بجانبها أنظر إلى النافذة البيضاء.

وصلت هذه الحاضرة بالسيارة قبل يومين قادما من الجبل. كان الوقت مساء، التقيتها في طريق البلدة الوحيد الذي يظهر من النافذة. كانت الحوانيت قد أغلقت واجهاتها، وأصبحت الطريق شبه خالية من المارة، عندما رأيتها تمشي أمامي، حاولت اللحاق بها لأسألها عن مكان المركز الثقافي. سألتها تحسبا لكل طارئ، فأنا في الحقيقة أبحث عن مكان أمضي فيه ليلتي، أدارت رأسها، لم تكن جميلة حقا لكن إشراقة وجهها جذابة جداً، وكذلك تميز شفتيها السميكتين بحمرتهما.

قالت ما عليك سوى أن تتبعني، ثم سألتني عمن أبحث في المركز الثقافي فأجبتها أن الأمر سيان، لكن الأفضل مقابلة المدير.

- لماذا؟

شرحت لها بأنني أبحث عن وثائق.

- أي وثائق؟ ولم تبحث عنها؟

ثم سألتني من أين أنا قادم، قلت لها إن لدي أوراقا تثبت هويتي.

- هل بإمكاني رؤيتها؟ قطبت حاجبيها وكأنها تستعد لبدء تحقيق.

أخرجت لها من جيب قميصي بطاقة عضويتي في اتحاد الكتاب مغطاة بغلاف بلاستيكي أزرق. أعرف أن اسمي مسجل في الوثائق، وهذا ما يعرفه الجميع بدءا بأعضاء اللجنة المركزية ومختلف مستويات القاعدة وانتهاء بمسئولي الحزب والدولة والشؤون الثقافية، وأعرف أيضا أن هناك أناسا في كل مكان يعشقون كتابة

التقارير إلى رؤسائهم تلتزم روح الوثائق الرسمية. بعض أصدقائي الذين مارسوا هذه التجربة قبلي حذروني من هؤلاء الناس في الريف كي لا يضجروني، غير أن الطريقة التي دخلت بها إلى مياو وتؤكد أن هذه البطاقة تقدم بعض التسهيلات. أما هذه الفتاة فهي صبية ولا أخشى أن تتنبه إلى شخصيتي.

في الحقيقة، لقد حدقت في لتتأكد من صحة الصورة على البطاقة.

- أنت كاتب؟ سألتني وهي تحل تقطيب حاجبيها.
- بالأصح، باحث عن الرجال المتوحشين، قلت لها ممازحا.
- أنا من المركز الثقافي نفسه

لم أكن أتوقع ذلك

- ما اسمك، سألتها.

ردت بأن اسمها غير مهم، وأنها قرأت مؤلفاتي وأحبتها كثيرا. لا يوجد في المركز الثقافي سوى غرفة استضافة واحدة لكوادر القرى المحيطة الذين يأتون إلى المدينة. إنها أقل سعرا وأكثر نظافة من الفندق، وفي هذه الساعة تكون المكاتب مغلقة، لكنها تستطيع إيصالي إلى بيت المدير مباشرة. بدأت تهتم بي.

- المدير جاهل تماماً.

ثم أضافت :

- لكنه رجل طيب.

المدير رجل متقدم في السن، صغير القامة وسمين. في البداية طلب مني بطاقتي، تفحصها بدقة، لكن الخاتم فوق الصورة لايمكن أن يكون مزوراً. فكر مليا، ثم انفرج وجهه عن ابتسامة عريضة، وأعاد إلي بطاقتي.

- عادة يستقبل مكتب لجنة الإقليم أو قسم الدعاية الكتاب والصحفيين الذين يرسلون إلى هنا، أو يتدبر ذلك مدير مكتب الشؤون الثقافية.

- أعرف حقاً أن وظيفة مدير المركز الثقافي في المقاطعة شكلية فقط، فمن يسمى لهذه الوظيفة يعرف أنه أحيل على التقاعد. حتى لو أنه قرأ أوراقا حول قدومي إلا أنه لا يملك ذاكرة كافية ليتذكرها. أي حظ يقود إلى لقاء رجل مسن بهذه اللطافة والجهل.

- لست أكثر من كاتب صغير، بادرت مؤكداً، ومن غير المفيد إزعاج الجميع.
- هنا لا نقوم إلا بتنظيم نشاطات شعبية وبالترويج الثقافي، فمثلا سنذهب إلى الريف لجمع الأغاني الفلكلورية...
- هذا أكثر ما يستهويني، قلت له مقاطعا، لدي النية بجمع مواد في هذا المجال بالضبط.
- هل غرفة الاستضافة مشغولة؟

- لمعت نظرة ذكاء في عيني الصبية منتظرة اللحظة المناسبة للتدخل.

- ظروف الإقامة ليست جيدة، أجاب، إذ ليس لدينا مطعم وعليك أن تتناول وجباتك في الخارج.

- هذا أفضل بالنسبة إلي لأنني أريد التنقل بين القرى المحيطة.

- إذن عليك القبول بما هو موجود.

كانت نظرات احترامه لي واضحة تماما.

وهكذا استقر الأمر. قادتني إلى طابق المركز الثقافي وأدخلتني غرفة الاستضافة في أعلى الدرج. وضعت حقيبتي دلتني على غرفتها الواقعة في نهاية المشى ودعتني للذهاب إليها والجلوس لبعض الوقت.

في غرفتها الصغيرة تفوح رائحة عطر مساحيق الجمال، وقرب النافذة مرآة صغيرة مدورة موضوعة على رف وبجوارها زجاجات صغيرة. الآن، حتى فتيات هذه المقاطعات الصغيرة يستعملن مستحضرات التجميل. غطت الجدران ملصقات أفلام سينمائية لنجوم تحبهم، وصورة مقصوصة من مجلة لراقصة هندية حافية القدمين ترتدي فستانا شفافا. تحت الناموسية وعلى الأغطية المرتبة جيدا تتصدر دمية الباندا بريش أسود وأبيض، وهي موضة هذه الأيام. القطعة الفنية المحلية، الموجودة هي سطل ماء مصنوع بدقة عالية ومطلي باللون القرمزي يقبع في ركن الغرفة. لقد جبت أعالي الجبال خلال أشهر، واختلطت بالكوادر القيادية وبالفلاحين، نمت على القش والقصب وتكلمت لغة سوقية وشربت أصنافا من الكحول تقتلع الحلق، غير أن هذه الغرفة الصغيرة بروائح مستحضرات التجميل حولتني مباشرة إلى حالة مختلفة.

- بالتأكيد جسمي مغطى بالبراغيث، قلت ذلك بطريقة اعتذار ضحكت وقالت بشيء من اللوم:

- استحم إذن، فما يزال هناك بعض الماء في الزجاجات ملأتها ظهرا، ستجد كل ما يلزمك هنا.

- حقا أنا محرج. سأذهب إلى غرفتي. هل يمكنني أن أستعير طشتك؟

- هذا لا يكفي، هناك ماء بارد في السطل.

خلال حديثها أخرجت من تحت السرير وعاء خشبيا أحمر اللون فيه صابون ومنشفة.

- لا تقلق، سأذهب إلى مكتب خال لبعض الوقت. بجانبنا توجد غرفة لحفظ الأشياء القديمة، وبعدها غرفة المكتب، وفي آخر المر غرفتك.

- ما هي الآثار المحفوظة هنا؟

علي أن أجد موضوعا للحديث.

- لا أعرف جيداً. هل تريد رؤيتها؟ لدي المفتاح.
- بالطبع. رائع!

ذكرت لي وجود صالتين في القبو، واحدة لقراءة الكتب والجرائد والأخرى للإبداع الثقافي حيث يتدرب الفنانون على المشاهد الصغيرة. وسوف تأخذني إليهما فيما بعد. بعد أن اغتسلت فاحت من جسدي رائحتها نفسها. عادت إلي وحضرت كأسا من الشاي. كنت مرتاحا في غرفتها، فلم أرغب في الذهاب لرؤية الأشياء القديمة.

سألتها عن عملها، فأجابت بأنها تحمل دبلوما من المعهد التربوي في الموسيقى والرقص، وتعمل الآن مكان أمينة المكتبة في المركز الثقافي بسبب مرض هذه الأخيرة وتقوم بمراقبة صالة القراءة. إنها هنا منذ حوالي العام، وعمرها قريب من الحادية والعشرين عاماً.

- هل تستطيعين غناء الأغاني المحلية؟
- لن أجرؤ
- هل هناك مغنون قدماء؟
- بالطبع، في بلدة صغيرة على بعد أربعين ليا[1] واحد منهم وهو مشهور جدا.
- بإمكاني مقابلته؟
- يسكن في حي المحلات الستة إحدى أماكن الغناء عندنا. يمكنك الذهاب إليها والعودة منها بالسيارة خلال النهار.

لكنها أضافت بأنها لسوء الحظ لن تستطيع مرافقتي، فالمدير لن يوافق أبدا لأنه لن يجد من يحل مكانها في العمل، غير أن ذلك سيكون ممكنا في يوم أحد. مع ذلك تستطيع الاتصال ببلدية الحي المذكور فهو حيها الأصلي وتعرف كل الموظفين، وستطلب منهم أن يكلفوا هذا المغني باستقبالي. وعند العودة ستدعوني للطعام عندها فهي، على أي حال، ستحضر طعاماً.

بعدها حدثتني عن خياطة، أخت إحدى صديقاتها في المدرسة، تعيش في البلدة وهي جميلة جدا، جمالها نادر، جسمها أبيض كتمثال من الحجر الكريم.

ستذهب لرؤيتها، أؤكد لك أن...

---

(١) الـ لي : مقياس صيني يساوي ٥٧٦ م.

- تؤكدين لي ماذا؟

قالت إنها ذكرت ذلك للمزاح. تعيش هذه المرأة الشابة من محل الألبسة الجاهزة الذي فتحته في شارع فرعي في حي المحلات الستة. يمكن مشاهدتها من الطريق، لكن الجميع يقول بأن لديها الجذام.

- هذا مأساوي، إذ لا يتجرأ رجل على الزواج بها، قالت.
- إذا كانت مريضة بالجذام فعلا فمن اللازم إدخالها المشفى.
- الناس يقولون ذلك لتشويهها، أما أنا فلا أعتقد ذلك.
- بإمكانها الذهاب إلى المشفى وإجراء فحوص والحصول على شهادة طبية.

هذا ما اقترحته

- أولئك الذين يتوجهون بأنظارهم نحوها هم الذين يرددون الإشاعة، الناس سيئون

فماذا تفيد الشهادة الطبية؟.

ثم روت عن إحدى شقيقاتها التي تتفاهم معها كثيرا أنها تزوجت من عامل استقبال وكان يضربها بقسوة حتى تغطى جسمها باللون الأزرق.

سألت لماذا؟

- لأن زوجها اكتشف في ليلة العرس أنها ليست عذراء. الناس هنا أفظاظ وفارغون،
- وليسوا كما عندكم في المدينة.
- هل سبق وأحببت أحدا.؟

لم أجد حرجا في طرح السؤال.

- عرفت زميلا في الدراسة، كنت سعيدة معه، وبعد حصولنا على الدبلوم بقي اتصالنا عبر الرسائل. لكنه تزوج منذ وقت قريب، ولا أعرف ظروف ذلك. بالطبع لم يكن لي علاقة منتظمة معه، بل مشاعر متبادلة لم نعلنها صراحة، عندما استلمت رسالته التي تعلن زواجه بكيت. أتحب الاستماع إلى هذا النوع من القصص؟
- لا ، قلت، من الصعب كتابة ذلك في رواية
- لم أطلب منك ذلك، لكن لم لا وأنت كاتب؟
- إذا وجدت لدي الرغبة

لم أكن أعرف إذا كان تنهدها من أجل الخياطة أم من أجل أختها.

- هذا صحيح.

كنت مضطرا لإظهار الشفقة.

- كم من الأيام ستمكث؟
- يوماً أو اثنين. سأستريح قليلا ثم أغادر.
- هل تريد زيارة عدد كبير من الأماكن؟
- نعم، فهناك عدد غير قليل من الأماكن لم أذهب إليها بعد.
- وأنا لن أستطيع الذهاب إليها جميعا طوال حياتي.
- ألم تسنح لك فرصة الذهاب بمهمة؟ يمكنك أيضا طلب إجازة والسفر وحيداً.
- أريد زيارة شنغهاي وبكين. لو ذهبت لزيارتك هل ستعرفني ؟
- لم لا.
- ستنساني فورا
- أنت قاسية جدا معي
- أقول الحقيقة، أنت مشهور جدا، أليس كذلك؟
- في مهنتنا تكون لدينا لقاءات ومعارف كثيرة، أما المحبون فهم نادرون.
- أنتم الكتاب تعرفون كيف تتحدثون جيدا. ألا تستطيع البقاء لأيام أخرى؟

لا يوجد من يعرف الغناء الشعبي إلا في حي الحوانيت الستة.

- نعم، بالطبع يمكنني.

شعرت أنني وقعت في شباك عواطف فتاة صغيرة تمتد نحوي. أحسست بأنها غير مرتاحة.

- هل أنت تعبة؟
- قليلاً.

كان من الضروري أن أغادرها. سألتها عن ساعة انطلاق السيارة باتجاه قرية المحلات الستة في اليوم التالي.

لم أكن أتوقع أبدا أنني منذ اليوم التالي، وبناء على تعليماتها، سأستيقظ باكرا، ولن أتمكن من غسل ثيابي الوسخة، وأكثر من ذلك قضيت النهار بانتظار المساء كي أعود إليها وأراها.

عندما عدت كان الطعام جاهزاً، والموقد الكحولي مولعاً، والحساء يطبخ على نار هادئة حين رأيت هذه الأطباق التي حضرتها عرضت عليها أن أذهب لشراء الكحول.

- سأذهب.

- أتشرب الكحول؟
- قليلا فقط.
- فتحت اللحم المالح والإوزة المشوية والمغلفة بأوراق النيلوفر التي اشترتها من محل صغير قبالة المحطة. في حاضرة إقليم المقاطعة هذه يحافظ السكان على عادة تغليف اللحم بهذه الطريقة. أذكر في الصغر أننا كنا نراهم في المطاعم يغلفون اللحم بالطريقة نفسها مما يعطيه رائحة خاصة. أعادني جو العزلة الذي أوحت به الناموسية وسطل الخشب المطلي بعناية باللون القرمزي إلى أيام الطفولة.
- هل رأيت المغني العجوز؟ سألت وهي تقدم لي كأسا من الكحول الجيد.
- نعم رأيته
- هل غنى؟
- نعم ، غنى.
- هل غنى أيضاً أغانيه الخاصة؟
- أيها؟
- ألم يسمعك إياها؟ آه نعم، لا يجرؤ على غنائها أمام غريب.
- تقصدين أغاني الحب الجياشة. ضحكت خجلت.
- إنه لا يغنيها أمام النساء. أوضحت لي.
- حسب الوضع. أعرف أنه يكون أكثر رغبة في الغناء حين وجود النساء بين أناس يعرفهم. لكن لسن الصبايا الصغيرات.
- هل جمعت مواد مفيدة؟ غيرت وجهة الحديث. بعد سفرك اتصلت مباشرة من المكتب ببلدية البلدة لأطلب منهم إخبار المغني العجوز بوجود كاتب جاء من بكين خصيصا لزيارته. ألم يخبروه؟
- كان قد خرج لقضاء بعض الأمور، شاهدت زوجته.
- إذن ذهبت دون فائدة، صاحت
- لا، لم يكن سفرا عديم الجدوى. ذهبت إلى سوق شاي، جلست فيه لوقت طويل وتعرفت على أشياء كثيرة. لم أكن أعتقد أن أماكن كهذه لاتزال قائمة. امتلأ الطابق الأرضي كما الطابق العلوي بعدد كبير من الفلاحين الذين قدموا لشراء حاجياتهم من السوق
- نادرا ما أذهب إلى هذا النوع من الأماكن
- إنه ممتع، يتحدث فيه الناس عن الأعمال، ويثرثرون، فيه حركة. تحدثت معهم في كل شيء هذه هي الحياة.

- الكتاب كائنات غريبة

- قابلت رجالا من كل الأصناف. أحدهم طلب مني أن أشتري له سيارة إذا كانت لدي الإمكانيات فسألته من أي نوع؟ نوع جيفانغ أو شاحنة من طنين إلى خمسة؟

ضحكنا سوية.

- بعضهم غني فعلا، فأحدهم لا يتحدث إلا عن أعمال تتجاوز العشرة ملايين يوان. قابلت أيضا مربي حشرات ولديه منها حوالي العشر جرات مليئة باع منها الملايين وكل منها بخمسة فنات[٢] على الأقل.

- لا تحدثني عنها فلدي خوف منها.

- طيب، لنتحدث عن أشياء أخرى

حكيت لها كيف أمضيت اليوم متسكعا في سوق الشاي. كان بإمكاني العودة باكرا في الظهيرة لأغسل ثيابي الوسخة، لكنني لم أرد إحباطها لذلك فضلت العودة مساء في الساعة التي حددتها ممضيا الوقت في زيارة القرى المحيطة دون أن أخبرها بذلك.

- حاولت القيام ببعض الأعمال،

قلت لها دون تفكير.

- هل سارت الأمور على ما يرام؟

- لا، ضيعت الوقت بالثرثرة، فأنا لا أعرف أحدا للقيام بأعمال وليس لدي الكفاءة لفعل ذلك دعتني لتناول كأس.

- اشرب إذن وستنتعش

- هل تشربين عادة مثل هذه الكمية من الخمر الأبيض؟.

- لا، لقد اشتريت هذا النوع من الكحول عندما جاء أحد زملائي في الدراسة لرؤيتي منذ عدة أشهر. العادة هنا أننا نقدم الشراب لزوارنا.

- بصحتك إذن!

- إنها تمطر

ذهبت لتنظر من النافذة:

- من حسن الحظ أنك عدت وإلا كنت ستتبلل بالمطر.

- هذا رائع، غرفة صغيرة والمطر يهطل في الخارج

- ابتسمت واحمر وجهها. تتساقط قطرات المطر على سطح البيت، أو على قرميد البيت المجاور.

---

(٢) فن وحدة نقدية تعادل ١/١٠٠ من اليوان العملة الصينية.

- لماذا لا تقول شيئا؟
- أصغي لصوت المطر.
أضافت:
- هل أغلق النافذة؟
- نعم، بالطبع، سنكون بوضع أفضل.
بعد أن أغلقت النافذة أحسست فجأة بقربي منها أكثر وذلك بفضل هذا المطر الرائع.
وحين عادت نحو الطاولة لامست ذراعي، أمسكتها من خصرها وجذبتها نحوي. كان جسدها فاترا ومرنا وسلسا.
- هل تحبني حقا؟ همست.
- كنت أفكر بك طوال اليوم
هذا كل ما أستطيع قوله، وهذه هي الحقيقة.
أدارت وجهها وأرخت شفتيها المفتوحتين. رميتها على السرير، هربت بحيوية سمكة اصطدمت بضفة النهر. ما كنت قادراً على ضبط نفسي. طلبت مني أن أطفئ الضوء وأرخي الناموسية.
- لا تنظر إلي، لا تنظر... همست بأذني في الظلام.
- لا أرى شيئا! قلت وأنا أبحث متلمسا جسدها الذي لا ينفك يفلت مني فجأة نهضت وأمسكت برسغي، ثم وضعت يدي بلطف تحت قميصها الذي فككت أزراره، ثم أوصلتها إلى حمالة صدرها المشدودة. تشنجت ولم تنطق بكلمة. لقد انتظرت مثلي هذه الحرارة وهذه المداعبات المفاجئة، منحتها الخمر والمطر والعتمة والناموسية شعورا بالأمان لم يعد يلازمها الخجل، وتركت يدي تعري جسدها كاملا. قبلت رقبتها وأطراف ثدييها وكانت أطرافها الندية تتفرج رويداً رويداً.
أخبرتها متمتماً:
- سأدخل فيك!
- لا، عليك ألا تفعل ذلك. وأطلقت تنهيدة عميقة.
- وحالا نمت فوق جسدها.
- سآخذك!
لم أعرف لماذا أخبرها بذلك، ربما من أجل التهييج، أو لإخلاء مسؤوليتي.
- إنني عذراء...
سمعت نحيبها. ترددت قليلا:
- تخافين أن تندمي؟
- لن تستطيع الزواج مني. كانت واضحة تماما وهذا ما دفعها إلى البكاء.

لسوء الحظ لم أكن قادرا على خداعها، فأنا أعرف أنني بحاجة إلى امرأة فقط، وبوقاحة تامة أريد الاستمتاع بها وليس بوسعي تحمل مسؤولية كبيرة تجاهها. تمددت بجانبها خائبا، سألتها وأنا أقبلها:

- تصرين على ذلك؟

هزت رأسها نافية بصمت.

- ألا تخافي أن يضربك زوجك إذا أدرك ذلك ليلة الزواج؟

ارتجف جسدها.

- هل تقبلين بدفع ثمن غال كهذا من أجلي؟.

داعبت شفتيها اللتين كانت تعضهما، وأشارت مرات عديدة برأسها بالإيجاب لدرجة أنها أثارت شفقتي. أخذت رأسها بين يدي وقبلت وجهها ورقبتها وخديها المبللتين. كانت تبكي بصمت.

لا أستطيع أن أكون قاسيا تجاهها هكذا فأرغمها على دفع ثمن كهذا إرضاء لنزوة لحظة. مع ذلك لا يمكنني منع نفسي من حبها، أعرف أنه ليس حبا كبيرا، ولكن ماهو الحب الكبير؟ كان جسدها طريا وحساسا، ولدي رغبة عارمة تجاهها، فعلت كل ما يجب فعله لكن دون تجاوز العقبة الأخيرة. أما هي فكانت تنتظر بوضوح وبراءة أن أتمم كل شيء، وهل هناك إثارة أكثر من ذلك. سأتذكر ارتعاشات جسدها الصغيرة والكبيرة في كل أجزاء جسمها وهي لن تنساني، لا جسدا ولا روحا، فقد عملت كي لا أغيب عن ذاكرتها. تابعت الارتجاف والبكاء والدموع تغطي جسمها. أليست هذه هي القوة بذاتها. لم تهدأ إلا عندما بدأت خيوط الصباح تتسلل عبر الناموسية.

تأملت جسدها الأبيض الممتد بهدوء والمكشوف تماما، وأنا مستند إلى طرف السرير.

- لا تحبني، أليس كذلك؟

لم أرد، ولا أستطيع الرد.

نهضت واتجهت صوب النافذة واتكأت عليها. كان خيالها ووجهها الحزين يحرقان قلبي.

- لماذا لا تأخذني؟

القلق ظاهر في صوتها. تابعت التعبير عن ألمها وعذابها.

ماذا يمكنني أن أضيف؟

- بالطبع لديك تجارب كثيرة.

- لا! عدلت جلستي، وأجبت باندفاع غير مقنع.

- لاتقترب!

أوقفتني بغضب ولبست ثيابها.
تصاعد في الشارع وقع الخطوات وأصوات المارين، إنهم الفلاحون القادمون إلى السوق.
- لن أخاف الحفاظ على علاقتي بك. قالت وهي تسرح شعرها أمام المرآة.
كانت لدي الرغبة في أن أقول لها إني أخاف أن تضرب، وأنها لن تكون سعيدة إذا حملت. أعرف ما سيقوله الناس في بلدة صغيرة كهذه عن فتاة تجهض وهي غير متزوجة.
أحببت أن أقول:
- أنا...
- لا تقل شيئا، اسمعني، أعرف بماذا تفكر. سأجد رجلا أتزوجه بسرعة، لا أريدك.
- أطلقت تنهيدة عميقة.
- أظن...
- لا، لاتتحرك، تأخر الأمر.
- يجب أن أغادر اليوم.
- أعلم أنني لن أرحل معك، لكنك رجل طيب.
- هل ما حصل كان ضروريا؟
- ليس جسد النساء ما يشغلك بالدرجة الأولى.
- كانت لدي الرغبة بالقول : هذا خطأ.
- لا تقل شيئا.
كان علي في تلك اللحظة أن أتكلم لكنني لم أقل كلمة واحدة.
مشطت شعرها بعناية ثم قدمت لي الماء لأغتسل بينما كانت تنتظرني جالسة على كرسي. لقد حل النهار تماما.
عدت إلى غرفتي لأرتب أشيائي. أحسست بوجودها خلفي، لكنني لم أدر وجهي إلا بعد أن جهزت حقيبتي. وقبل أن نخرج ضممتها بين ذراعي، أمالت وجهها وأغمضت عينيها. أردت تقبيلها مرة أخرى لكنها أفلتت من بين يدي.
كان الطريق إلى المحطة طويلا، وجموع المارة لا تتوقف عن الحركة بصورة عشوائية. بقيت على مسافة مني وهي تسرع الخطى، وكأننا لا يعرف أحدنا الآخر.
رافقتني إلى المحطة، وهناك التقت أناسا تعرفهم، سلمت عليهم وتحدثت معهم. كانت طبيعية ومرتاحة، غير أنها تتجنب النظر إلي وأنا لا أجرؤ على النظر إليها. سمعتها تقدمني بوصفي كاتبا جئت لجمع الأغاني الشعبية. فقط عندما دار محرك السيارة تلاقت نظراتنا. لم أستطع احتمال صفائها ولا نقاوة رغبتها.

تقول إنها تكرهك.
لماذا؟ تمسك سكينها بيدها.
تقول إنك خربت حياتها.
ترد بأنها مازالت صغيرة.
تقول، لكنك هدمت أجمل سنوات عمرها، أنت، أنت!
تجيب: تستطيعين بدء حياة جديدة.
أنت تستطيع، أما هي فقد فات الأوان.
لن تفهم لماذا فات الأوان.
لأنني امرأة.
الأمر واحد عند الرجال والنساء.
أحقا! ضحكت ببرود.
شاهدتها تلوح بمديتها وأنت تنهض.
لايمكنها أن تسمح لك بجرها إلى مصلحتك الخاصة، تقول إنها ستقتلك!
عندما نقتل علينا أن ندفع ثمن الحياة، قلت وأنت تغير موضعك مراقبا إياها بقلق.
قالت : هذه الحياة لاتستحق العيش.
تسألها إذا كانت تعيش من قبل لأجلك. إنك تحاول تهدئة الجو.
لايستحق أحد العيش من أجله! إنها توجه المدية تجاهك..
تحذرها وتطلب منها أن تضع السكين جانبا.
أتخاف الموت؟ وضحكت ثانية ببرود
جميع الناس يخاف الموت، وأنت مستعد للاعتراف بذلك مقابل أن تتخلى عن السكين.
هي ليست خائفة، فوصولها إلى هذه الحالة يجعلها لا تهاب شيئا.
لن تتجاسر على إغضابها أكثر، لكن عليك المحافظة على مواهبك كمتحدث بارع كي لا تكتشف خوفك.
لاداعي للموت بهذه الطريقة، فهناك موت أفضل: الموت الجميل.
لن تصل إليه، ردت وحد السكين يلمع.

تبتعد قليلا وتنظر إليها من الجانب.

فجأة تنفجر ضاحكة.

تسألها هل هي مجنونة

أنت من دفعني إلى الجنون.

مدفوعة إلى ماذا؟ تقول إنكما لا تستطيعان العيش معا، وليس أمامكما سوى الافتراق.

التقيتما بظروف متشابهة لكليكما، وتفترقان بالظروف نفسها. تحاول المحافظة على القدر الأكبر من الهدوء.

الكلام سهل.

لابد من الذهاب إلى المحكمة.

أبدا.

ننفصل إذن

تقول إنه ليس بإمكانك جرها إلى صالحك، إنها تلوح بسكينها وتقترب منك. تجلس مقابلا لها.

تنهض وجذعها عار، صدرها ممتد، ونظرتها مفعمة بالغضب وبغاية الإثارة. لن تستطيع تحمل نوباتها الهستيرية ولا نزواتها. لقد صممت على فراقها، ولتجنب زيادة غضبها يستحسن الحديث عن أشياء أخرى.

- تريد الهروب؟
- الهروب من ماذا؟
- الإفلات من الموت! إنها تهزأ بك، تقلب مديتها على طريقة الجزار لكن تنقصها الخبرة، وكانت أطراف ثدييها ترتعش.
- تقول إنك تكرهني! لقد انحبست هذه الكلمات بين أسنانك المضغوطة.
- تكرهني منذ وقت طويل، لكن لماذا لم تخبرني بذلك في وقت مبكر؟ وبدأت تصرخ، لقد مسها شيء من الجنون، وأخذ جسدها يرتعد.
- لم تصل الأمور إلى هذه الدرجة. لم تعتقد أنها ستنقلب نافرة إلى هذا الحد. إنك تكرهها من أعماق القلب وتسمعها كلمات حاقدة.

كان عليك أن تقول ذلك من قبل، كان عليك أن تقول ذلك من قبل، وتخفض سكينها وهي تبكي. ترى أن موقفها نفرك تماما، فقررت جرحها في أعماقها.

رمت السكين وأطلقت صرخة قوية. كان عليك أن تقول ذلك مبكرا، لقد تأخر الوقت الآن، لماذا لم تقل لها ذلك سابقا؟ لماذا لم تقل لها ذلك مسبقا؟ تصرخ

بطريقة هستيرية وتضرب كفيها على الأرض.

تريد مواساتها غير أن محاولاتك وتصميمك لا جدوى منها، إذ يمكن أن تستأنف غضبها باستمرار، وستعاود بذل جهدك لتخلصها من حالتها المؤلمة.

إنها تتشج بصخب وتتقلب عارية على الأرض دون أن تهتم بالسكين الملقاة بجانبها. تنحني وتمد يدك لالتقاط السكين، لكنها تقبض على نصل السكين، تحاول فتح يدها، غير أنها تشدد قبضتها عليه أكثر ستجرحين نفسك، قلت لها صارخا في أذنيها وأنت تلوي ذراعها حتى تفتح أصابعها. يسيل الدم من راحة كفها. تشد على رسغها وتضغط بكل قوتك على نبضها. تأخذ السكين بيدها الأخرى. تفلتها لتصفعها على وجهها. رائع ، لقد سقطت من يدها.

تنظر إليك. غبي! فجأة أصبحت تشبه طفلا. امتلأت عيناها بالحزن وبكت بصمت.

لا يمكنك إلا أن تظهر شيئا من الشفقة تجاهها، تأخذ يدها المجروحة وتمس الدم المتدفق منها. تجذبك إليها وهي تبكي، تحاول الإفلات منها لكنها تتمسك بك بقوة وتضمك بذراعيها إلى صدرها.

ما العمل؟ إنك غاضب جدا.

تريد منك أن تضاجعها، إنها ترغب في ذلك.

تقول إنها تريد مضاجعتك فقط!

تفلت منها بعد جهد وأنت تلهث وتقول لها إنك لست حيوانا!

بلى، بالضبط أنت كذلك، تصرخ بوحشية وتلمع من صدفتي عينيها شرارة لاهبة. رجوتها التوقف والهدوء وأنت تحاول إراحتها.

تغمغم وهي تنخر وتقول إنها تحبك، ورغباتها نتيجة لهذا الحب، وتخشى أن تتركها. تقول إنك لا تستطيع الخضوع لنزوات امرأة، ولا تستطيع العيش في الظل الخانق، ولا يمكنك أن تصبح عبدا لأي كان، ولن تخضع لتأثير أي قوة مهما كانت الطريقة المتبعة، لن تركع أمام أحد ولن تكون عبدا لأي امرأة.

تقول لك إنها ستعفو عنك شريطة أن تحبها وألا تكرهها أبدا، وتبقى معها، وتستمر في إرضائها والرغبة بها على الدوام. ستلتف حول جسدك، وتقبلك بجنون، وتغطي وجهك وجسمك برضابها، ستكون معك كرة. لقد ربحتُ الرهان ولن تستطيع المقاومة، وقعتَ في الرغبة الشهوانية ولن تفلت منها.

أتقدم على ممر جبلي معتم ومقفر. راح المطر يهطل في منتصف الدرب، في البداية كان خفيفا تتساقط حباته لطيفة على وجهي، ثم أخذ ينهمر بغزارة مما اضطرني للركض وابتل شعري وثيابي. قفزت على عجل إلى مغارة لمحتها فوق الطريق يتكدس فيها حطب بصورة منظمة ويتخذ سقفها المرتفع شكل زاوية، ويخترقها شعاع من الضوء. صعدتها بخطوات واسعة بين الصخور الكبيرة. وجدت فيها قدراً موضوعاً على موقد من الحجارة. تتسلل أشعة الضوء عبر شق صخري فوق المغارة.

التفت، فوجدت خلفي رجلاً جالساً يقرأ فوجئت لكنني لم أجرؤ على مقاطعته، وبقيت أراقب المطر الرمادي من خلال شقوق ما بين الصخور. إنها تهطل بغزارة ولن أستطيع الرحيل.

- لاتقلق، استرح هنا.
- هو من بادر بالكلام أولا واضعا كتابه جانباً.
- ينسدل شعره الطويل على كتفيه، ويرتدي سترة وبنطالا رماديا طويلا. ربما يبلغ من العمر الثلاثين.
- أأنت ناسك؟
- لا ليس بعد، إنني أقطع الحطب للمعبد الطاوي[٣]. أجاب.
- رأيت على سريره عددا مفتوحا من مجلة 'شهرية الرواية'.
- هل تهتم بهذا أيضا؟
- أضيع الوقت، قالها مراوغا، لقد تبللت فجفف ثيابك.
- يفرغ وعاء من الماء الساخن في القدر ويناولني منشفة.
- شكرته ثم خلعت ثيابي. وشعرت براحة كبيرة بعد اغتسالي.
- أي مكان رائع! قلت وأنا أجلس على قرمة خشب في مواجهته. هل تسكن هذه المغارة؟
- أوضح لي أنه من قرية في أسفل الجبال، ويكره كل العالم سواء أكانوا أخاه وزوجته أم الجيران أم سكان القرية.

---

(٣) الطاوية : فلسفة دينية مبنية على تعاليم لاوتسو الصيني الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد.

- إنهم لا يفكرون إلا بالمال. إن ما يحكم علاقات الناس مقياس الربح والخسارة، ولذلك قطعت كل صلاتي بهم.
- تكسب حياتك من قطع الخشب للمعبد.
- غادرت بيتي منذ حوالي السنة ولم أعد إليه أبدا لأنهم لا يريدون استقبالي
- لماذا
- لأن عجوزنا المحترم يريد أن يعرف إذا كنت شريفا تماما
- وهل سيقبلك فيما بعد؟
- نعم
- إذاً هو مؤمن باستقامتك
- أليس محبطا العيش وحيدا في مغارة كهذه لوقت طويل؟ سألته وأنا ألقي نظرة جديدة على المجلة الأدبية.
- إنني هنا أكثر راحة من القرية، أجاب بهدوء لم أشعر معه أنني ضايقته، وأضاف: لدي دروسي اليومية.
- أي نوع من الدروس يعجبك؟
- أخرج من تحت غطائه نسخة معنونة بـ "دروس الطاوية اليومية".
- بما أنني لم أستطع في اليومين الماضيين قطع الحطب قرأت الروايات، أوضح لي وأنا أثبت نظري على المجلة المفتوحة على سريره.
- هل تشغلك هذه الروايات عن دروسك؟
- أريد إرضاء فضولي حتى النهاية.
- آه، إنهم لايقصون سوى حكايات فجة بين رجال ونساء، قال ضاحكا. ثم أخبرني أنه أنهى دراسته الثانوية ودرس الأدب، وأنه يقرأ قليلا في أوقات فراغه.
- في الواقع هذا ما يحدث في الحياة.

لم أجرؤ على سؤاله عما إذا كان متزوجا أم لا، ولا عن أموره الخاصة كراهب. مازال صوت تساقط المطر يسمع في الخارج برتابة مريحة.

علي ألا أضايقه أكثر، لذلك جلست قربه دون حركة. بقينا وقتا طويلا على هذه الحالة. يتسلل خلالها الهدوء إلى نفسينا اللتين استغرقتا في الموسيقى المطرية.

لا أعرف متى توقف المطر، وعندما تنبهت وقفت عازما على الرحيل وشكرته بحرارة.

- لا داعي لشكري، فما حدث نتيجة قدر فقط.

كان ذلك في جبال كينغ تشينغ.

بعدها، وأمام معبد من الحجارة وعلى جزيرة صغيرة في وسط نهر آو، قابلت أيضا راهباً بوذياً حليق الرأس يلبس رداءا أحمر طويلا. يشبك يديه أمام تمثال بوذا ثم يسجد وتلامس جبهته الأرض. يلتف المارة بشكل دائري حوله. وحينما أنهى صلاته خلع رداءه بهدوء ووضعه في حقيبة سوداء. تناول مظلته ذات المقبض المنحني والتي يستخدمها كعكاز، ثم غادر المكان. تبعته حتى اختفينا عن الحشد فبادرته:

- من فضلك أيها المعلم، هل بإمكاني دعوتك إلى كأس من الشاي، إنني أريد أن أسألك عن بعض القضايا الدهارما Le dharma[٤].

- وافق بعد أن أطلق تنهيدة طويلة.

- وجهه نحيف، لكنه مليء بالحيوية، ويبدو أن عمره لا يزيد على الخمسين عاما. ظهرت ساقاه من بنطاله المرفوع، يمشي بخطى رشيقة، وعلي الإسراع للحاق به:

- يقولون يا سيدي أنك ستقوم برحلة طويلة.

- سأذهب أولاً إلى جيانكسي لزيارة بعض الرهبان من البوذيين الكبار، وسأزور أيضا كثيراً من الأماكن الأخرى.

- أنا أيضا أريد العزلة عن الناس، لكنني لم أصل بعد إلى درجتك في الصلابة والصدق فأنت تحمل في قلبك هدفاً مقدساً.

- أبحث عن كلمات تستطيع ملامسة مشاعره.

- في الحقيقة ، لا يحتاج الرحالة الحقيقي إلى أي هدف، وبذلك يكون رحالة نبيلا.

- هل أنت من هذه المنطقة ياسيدي؟ وهل ستغادر ديارك نهائيا للقيام بهذه الرحلة؟

- إن عائلة من يدخل في دين موجودة في كل مكان، وأنا ليس لدي موطن أصلي.

- تركني صامتا. دعوته لتناول الشاي في حديقة. اخترت فيها ركنا هادئا وطلبت منه الجلوس.

- سألته عن اسمه الديني، ثم تعارفنا بالأسماء والألقاب. لزمت الصمت.

- بادرني بالحديث قائلا:

- اسألني عن كل ما تريد، فرجل الدين يستطيع قول كل شيء.

- إذا أصبح بإمكاني الوصول إلى هدف.

- أريد أن أعرف لماذا اخترت أن تكون كاهنا. هذا إذا لم يكن لديك يمنعك

---

(٤) كلمة سنسكريتية تعني الميل الطبيعي إلى الأشياء كلها، أو النظام ...

عن الكلام.

- ابتسم، ورشف قليلا من الشاي بعد أن أزاح بنفخة خفيفة أعواد الشاي التي تطفو على كأسه. حدق فيه وقال:

- لست سائحا عاديا، هل لديك مهمة تؤديها؟
- بالطبع لا، لا أقوم بأي تحقيق. إنني معجب بحذرك. وليس لدي هدف محدد، لكنني لا أستطيع التخلي.
- التخلي عن ماذا؟ سألني بابتسامته نفسها.
- عالم الناس.
- ضحكنا سوية.
- يكفيك أن تتمسك بذلك. قالها بصراحة.
- هذا صحيح حقاً.

قلت له وأنا أحني رأسي موافقا. مع ذلك أريد أن أعرف كيف اختاروك. روى لي قصته كاملة دون مواربة. حدثني عن مشاركته، في سن السادسة عشرة حينما كان طالبا، لمدة عام كامل كواحد من ثوار المقاومة في الجبال. ثم التحق العام التالي بالجيش النظامي في المدينة، وهناك عمل في إدارة بنك، وكان بإمكانه أن يصبح مديرا. ومع ذلك أصر على دراسة الطب، وحصل على شهادته ثم عمل في مكتب الصحة البلدية، غير أنه يطمح للعمل كطبيب فيما بعد اصطدم مع مسؤول الحزب في المشفى الذي يعمل به، فطرد من الحزب، ووصف بأنه يميني ونفي إلى الريف ليفلح الأرض. عاد ثانية للعمل كطبيب عندما فتح مشفى جديد في منطقته الريفية وكان ذلك بعد سنوات من إقامته فيها. خلال هذه السنوات تزوج من فتاة ريفية وأنجبا ثلاثة أطفال. من كان يقول بأنه سيؤمن بالله؟ سمع عن كاردينال أرسله الفاتيكان إلى منطقة كانتون فذهب إليه ليسمع منه المعنى الحقيقي للديانة الكاثوليكية. والنتيجة : لم يقف عند حدود عدم تمكنه من لقاء الكاردينال فقط، بل واتهم بأنه يريد الاتصال بشخص أجنبي، وأصبحت هذه الشبهة في رأس قائمة الاتهامات ضده، فطرد من عمله في المشفى. تابع دراسة الطب الصيني ليعيش منه، وعاشر الصعاليك والنصابين. وفي أحد الأيام قرر فجأة أن الكاثوليكية الغربية صعبة المنال لذلك لابد من العودة إلى التقاليد المتوازنة والابتعاد نهائيا عن العائلة. وبدءاً من ذلك اليوم أصبح راهباً. وختم حكايته بضحكة كبيرة.

- هل مازلت تفكر بأفراد عائلتك؟
- بإمكانهم تلبية حاجاتهم
- أليس لديك أي قلق تجاههم
- تعاليم بوذا لا تتحدث عن القلق أو الكره

- هل يكرهونك؟

يرد إنه لا يريد أن يعرف، ومنذ سنوات جاءه ابنه البكر إلى المعبد ليخبره بإعادة الاعتبار إليه، ولو عاد سيكون بإمكانه الاستفادة من العلاج بوصفه من الثوريين القدماء، والعودة إلى عمله، وأكثر من ذلك الحصول على استحقاقاته المالية عن السنوات الماضية كلها. هو لايريد أي قرش، أما هم فيطمعون بتقاسم ما سيناله من أموال، وبما أنها سبب العلة فعليهم ألا يكونوا ضحايا للظلم نفسه الذي تعرض له. بعدها لم يعد ولده إليه، وفقدت عائلته أي أثر له.

- إذن تعيش الآن على الحسنات التي تجمعها في طرقك الطويلة؟

أوضح لي أن الناس تغيروا وأصبحوا سيئين، ومردود هذه الحسنات أقل من عمل التسول. حياته قائمة بالدرجة الأولى على عمل الطب، لكنه أثناء ممارسته يرتدي لباسا عاديا كي لا يسيء إلى صورة الدين.

- هل تسمح البوذية بالجمع بين هذه الأعمال؟
- البوذية تعيش في القلوب.

إنني متأكد من أنه فرغ كل ما يخفيه من عذابات داخلية، وبدا في سكينة تامة. سيرحل بعيدا وهو مسرور.

سألته أين سينزل في الطريق، فأجاب في المعابد، ويكفي أن يبرز ما يثبت أنه راهب ليستقبل فيها، لكن الظروف سيئة في كل مكان هذه الأيام، فعدد الرهبان قليل، وكلهم يعملون ليأكلوا، ولا يسمح لهم بالمكوث وقتا طويلا إذ لا أحد يقدم للمعابد الهبات. فقط المعابد الكبيرة تتلقى بعض الإعانات المالية التي لا تكاد تذكر. من الطبيعي ألا يرغب بزيادة أعباء الرهبان الآخرين. إن لديه روح المسافر الدائم، وقد زار عددا كبيرا من الجبال المعروفة، ويتمتع بصحة جيدة تسمح له بالجري مسافة عشرة آلاف لي.

- يمكنني رؤية وثيقتك؟

انتابني إحساس بأنها أكثر فائدة من بطاقتي ككاتب.

في تعاليم بوذا، لايوجد سر ولا غموض، إنها مفتوحة للجميع.

يخرج من صدره ورقة كبيرة مطوية مطبوع عليها تمثال بوذا متأملا يجلس على أريكة من زهرة اللوتس، ورأسه مرفوع، ويدمغه ختم أحمر كبير. وعلى الورقة أيضا اسم الراهب الذي حلق له رأسه ومنحه لقب راهب، وذكر عليها كذلك دراساته الدينية ومرتبته التي تخوله أن يكون عارفا بالقانون وتؤهله لشرح المواعظ ورئاسة المراسم الدينية.

- ربما سألتحق بك يوما ما، قلت له بشيء من المزاح.
- هذا هو القدر، أجاب بكثير من الصفاء. ثم نهض وضم يديه ليصافحني.

أسرع في مشيته، تبعته قليلا، لكنه اختفى بين جموع المارة. فهمت أنني لم أقطع بعد صلاتي مع جذوري الأرضية.

فيما بعد وأمام معبد غوكينغ أسفل جبال التيانتاي، وبينما كنت أتمعن في كتابة محفورة على الأحجار الكريمة سمعت صدفة محادثة:

- عليك أن تدخل معي، لفظها صوت ذكري في الجانب الآخر من الجدار القرميدي.
- أبدا، ابتعد عني، أجاب رجل آخر بصوت أكثر وضوحا.
- إذا لم تفعل ذلك من أجلي ففكر بأمك.
- قل لها إنني في حالة جيدة.
- هي التي طلبت مني القدوم إليك، إنها مريضة.
- بماذا؟
- تعاني باستمرار من آلام المعدة

لم ينبس الابن ببنت شفة ..

- طلبت مني أمك أن أحمل إليك حذاء.
- عندي.
- إنه حذاء الرياضة الذي حلمت به دائما للعب كرة السلة.
- إنه غال جدا ! لماذا اشترته؟
- جربه.
- لا ألعب بكرة السلة هنا، لا أستطيع انتعاله، أعده، فلا أحد يلبس هذا النوع من الأحذية هنا.

في الصباح كانت العصافير تغرد في الغابة، ووسط زقزقة عصفور الدوري تهسهس سمنة لحنا جميلا وهي مختبئة خلف أوراق الشجر الكثيفة بحيث لا يعرف وراء أي غصن تختفي. وتصل طيور العقعق مصدرة أصواتها. وخلف المعبد القرميدي كان الصمت مسيطرا، اعتقدت أن الناس رحلوا فقمت بجولة شاهدت خلالها شابا رأسه حليق ومرفوع يصغي لأصوات العصافير المغردة، يلبس قميصا قصيرا للرهبان، يظهر جليلا، ووجهه وردي بعيد عن السحنة الشاحبة للرهبان الذين عاشوا حياة تقشف لزمن طويل. يبدو من هيئة أبيه أنه فلاح شديد البأس ما يزال يحمل في يده الحذاء الرياضي الجديد ذي النعل الأبيض والمخطط بالأحمر والأزرق والذي أخرجه من علبته توا. أعتقد أن هذا الأب يحاول إلزام ابنه بالزواج، فهل اختار الابن أن يكون راهبا؟

- ٤٨ -

لديك رغبة في أن تقص عليه حكاية تعود إلى حكم سلالة جين. تتحدث الحكاية عن راهبة جاءت تطلب الصدقة على باب قائد عسكري متعجرف، وحسب العادة يعلم المعتمد المالي الذي يقوم بإعطائها رزمة من ألف سبيك(٥)، ترفض الراهبة وتطلب مقابلة مديره، ينقل المعتمد طلبها إلى المدير الذي يحاول التخلص منها فيأمر خادمه بإعطائها سبيكة فضية. وتقول الحكاية أيضا إن الراهبة سوف ترفض ثانية وتطلب مقابلة القائد شخصياً، وتؤكد أنه بخطر وأنها جاءت خصيصا لتصلي من أجله. ليس بوسع المدير سوى نقل الطلب إلى القائد فيأمر هذا الأخير بإدخالها عليه.

عندما رأى القائد وجهها الرقيق، رغم ما يعلوه من غبار، استبعد أن تكون نصابة أو واحدة من اللواتي يمارسن السحر والشعوذة، وسألها عن مرادها. تقدمت الراهبة وسلمت عليه يدا بيد، ثم رجعت إلى الوراء وتحدثت مؤكدة له أنها تسمع منذ وقت طويل عن كرمه ورحمته، وأنها جاءت من بعيد إلى هذا المكان لتصوم سبع مرات في سبعة أيام من أجل روح والدته الميتة.

وفي الوقت نفسه لتناشد بوذا كي يحل السعادة على القائد ويحميه من المصائب والكوارث. وفي النهاية يأمر القائد المعتمد بتجهيز غرفة في بلاطه الداخلي، والخادم بتحضير طاولة بخور في الصالة الكبيرة.

ابتداء من ذاك اليوم أخذت تعلو أصوات الضرب على الأسماك الخشبية منذ الصباح حتى المساء في دار القائد. مع مرور الوقت شعر القائد بتزايد هدوئه وبتعاظم احترامه للراهبة. كانت تمضي ما بعد الظهيرة من كل يوم ساعة للاستحمام، وكان القائد مدهوشا: كانت صلعاء لا تحتاج، كما النساء العاديات، إلى التمشيط أو الزينة، فلماذا هذا الحمام؟ هل هو مجرد طقس لتنقية القلب قبل تغيير البخور؟ وهل يدوم كل هذا الوقت؟ خلال وجودها في الحمام لا يتوقف صب الماء، فهل تسكبه دون توقف؟ بدأ الفضول يثيره.

في أحد الأيام دلف إلى البلاط الداخلي. كانت أصوات الأسماك الخشبية صامتة. وبعد برهة سمع صوت صب الماء، وهو يعرف أن الراهبة ذهبت لإشعال

---

(٥) نقود صينية.

البخور وعادت إلى السلم، كان باب غرفة الراهبة نصف مفتوح، اقترب منه ليراها في الداخل ويكشفها. كان وجهها مقابل الباب، لونه وردي وأسنانها بيضاء، خدودها موردة ورقبتها كأنها من الحجر الكريم، صدرها ناعم ومؤخرتها دائرية، إنها حقا تمثال صغير من الحجر الكريم. ابتعد نحو الأعلى ثم عاد إلى الصالة الكبيرة ليلتقط أنفاسه.

لايزال صوت انسكاب الماء يخرج من الغرفة ويثيره رغما عنه. يلج الممر على مهل ويصل إلى أمام الغرفة. يحبس أنفاسه ويلصق عينيه على شق الباب، يلمح عشر أصابع ناعمة جدا تغطي ثديين ممتلئين أبيضين كالثلج وتداعبهما، ومزينين بزرين من الورد اللذين يوشكان على التفتح. ارتفع جسدها المبلل قليلا، وارتسم خط دقيق من السرة إلى أسفل البطن. سقط القائد على ركبتيه من وقع المفاجأة ولم يستطع النهوض.

ثم رأى كفين أبيضين يخرجان مقصاً من وعاء ويغلقان حديه ويضعانه بقوة في البطن. سال الدم الأحمر البارد والغامق وتدفق تحت السرة. روِّع القائد ولم يجرؤ على الحركة، فأغمض عينيه.

بعد وقت قصير عاد صوت الماء إلى الأسماع، فتح القائد عينيه وشاهد باندهاش الراهبة الصلعاء تسبح في الدم لكن يديها لم تتوقفا عن الحركة لإخراج أحشائها ووضعها في الوعاء!

هذا القائد الذي ينحدر من عائلة عسكرية خاض عددا كبيرا من المعارك ولم يهرب من أي منها. استنشق هواء منعشاً ملء رئتيه، وقطب حاجبيه، وقرر أن يكشف الأمور ويوضحها. في تلك الأثناء اختفى أثر الدم عن وجه الراهبة. عيناها مغمضتان ورموشها مطبقة وشفتاها زرقاوان وترتعش قليلا. تبدو متأملة دون أن يصدر عنها صوت. فقط صوت الماء يعلو.

بيديها الملطختين بالدماء تمسك أمعاءها وتدلكها بأطراف أصابعها وتغسلها بعناية، وتمضي وقتا طويلا في وضعها على ساعديها. وبعد أن انتهت من غسيلها رتبتها ورفعتها لتعيدها إلى بطنها. ثم تناولت طاسة ماء وأخذت تغسل ذراعيها ، ثم صدرها فثنايا الفخذين، فالقدمين حتى الأصابع وكأن شيئا لم يحدث. قام القائد بسرعة ودخل الصالة الكبيرة لينتظرها واقفا.

بعد لحظات انفتح الباب وظهرت الراهبة حاملة سبحتها. كانت مرتدية ثيابها كاملة، تقدمت نحو محرق البخور الذي انطفأ قبل قليل، وفوقه عود ما يزال يطلق

بقايا دخانه راحت تستبدله بهدوء.

وكمن استفاق من حلم مزعج لا يستطيع التخلص منه سأل القائد الراهبة مستفسراً، فأجابته دون أن تغير صوتها: سيدي إذا كنت تطمح إلى العرش سيكون مصيرك مثلما رأيت. ومنذ ذلك الوقت صار القائد، الذي يعد، فعلاً، لمؤامرة يستولي بها على العرش، فخيب الأمل غير قادر على مجانبة الحق، ويصون سمعته وزيراً عاماً نزيهاً، إن لهذه القصة في أصولها دلالة سياسية.

كما يمكنها أن تعد فلسفة وجود تعلم الإنسان الطيب ضرورة الخضوع يوميا لثلاثة أنواع من اختبار الضمير، أو الإشارة إلى أن الحياة البشرية لم تخلق إلا للعذاب، أو أن معاناة الحياة متعلقة بالإنسان نفسه فقط. كما يمكننا أن نستنتج منها عددا من النظريات الأخرى اللطيفة والنقية، وكل ذلك تابع للغاية النهائية التي يضفيها الراوي عليها.

إن بطل الحكاية، القائد الكبير، شخصية حقيقية يحمل اسماً ولقباً يمكن التحقق منها في كتب التاريخ والوثائق القديمة. لست مؤرخا، وليس لديك طموح سياسي. ورغبتك أقل من أن تصبح واعظا دينيا أو أن يصنع منك مثلاً يُحتذى. ما تحبه هو القصة بذاتها وبنقاوتها التامة. في الحقيقة لا يؤثر أي شرح مباشر فيها. إنك ترتاح لحكايتها مرة بعد أخرى بواسطة اللغة فقط.

- ٤٩ -

في شارع قديم من الحي، وأمام سوق صغير، وضع لوحتين تعرفانه خطاطاً، مكسوتين بأوراق مشمعة حمراء، وعليهما بقايا أمثال وحكم تجلب الحظ. 'التنانين والعنقاوات تجلب السعادة، زواج ينتظرك'، لن 'تجد السعادة في الخارج، وتجمع المال من الأرض'، 'تجارة مزدهرة في البحار الأربعة، وثروة موفقة على الأنهر الثلاثة'. هذه هي الجمل القديمة التي كانت قد استبدلت بشعارات وأقوال ثورية. وهناك منها اثنتان تقولان : 'عندما تقابل إنسانا، تساوي البسمة ثلاثة أرباع السعادة'، 'تعاسة عارضة تختفي من ذاتها'.

لا أعرف إذا كانت هذه الجمل من تأليفه أم أنه ورثها عن القدماء. إنه يكتب بأسلوب جميل، فقالب الحروف ناجح تماما بحيث يشبه إلى حد ما التعويذات الطاوية.

إنه متقدم بالعمر، يجلس وراء طاولته، ويلبس سترة من نموذج قديم بكسرتين متعارضتين، ممشط الشعر، يضع على رأسه قبعة عسكرية باهتة الألوان مما يضفي عليه طابعا كوميديا. أرى على طاولته بوصلة تعلو الأوراق وتحفظها. أقترب منه لأبدأ معه الحديث.

- هل تسير أمور التجارة جيدا؟
- لابأس.
- ما ثمن لعبة من جملتين؟
- بين اثنين أو ثلاثة يوانات، حسب عدد الأحرف.
- وكلمة السعادة فقط؟
- يوان واحد.
- وحرف واحد.
- لكنني أصنعه أمامك
- وماهو ثمن تعويذة تبعد المصائب والتعاسة؟
- هذا ليس سهل الكتابة، أجابني وهو يرفع رأسه تجاهي.
- لماذا؟
- أنت مسؤول وتعرف لماذا؟
- لست مسؤولا.

- لكنك تأكل جيدا على مائدة الدولة، أكد بصورة قطعية.
- أيها العجوز، قلت له وأنا أقترب منه، ألست راهبا طاويا؟
- تركت ذلك منذ وقت طويل
- لا أظن، غير أنني أريد أن أعرف إذا كنت ما تزال تحفظ الطقوس الطاوية.
- بالطبع، لكن الحكومة تمنع الخرافات.
- لا أحد يطلب منك أن تستسلم للخرافات. جمعت القطع الموسيقية التي ترافق الصلوات، هل يمكنك أن تغنيها لي؟ لقد استأنفت الرابطة الطاوية لجبال الكينغ شينغ نشاطاتها، فممَ تخاف؟
- إنه معبد كبير، لكنهم لا يسمحون لنا، نحن المتعبدين الطاويين في القرية، بممارسة طقوس العبادة فيه زاد اهتمامي أكثر:
- ما أبحث عنه بالضبط هو متعبد مثلك، أيمكنك أن تغني لي مقطعا أو مقطعين؟ مثلا صلوات الجنازة أو صلاة طرد النحس والأشباح.
- ليس مناسبا استحضار ذكر الشياطين والآلهة بهذا الشكل، علينا أولا مناشدتها وحرق البخور لها.
- أثناء غنائه تجمع حوله بعض الأشخاص، إحداهن قالت معنفة ومطلقة ضحكة عالية:
- هيه، العجوز يغنينا بصوت رشيق!
- سأغني لكم غناء جبليا، قال العجوز وكأنه يريد تشجيع نفسه.
- إبدأ، إبدأ! صاح الحشد.

وفجأة انطلق العجوز بصوت طويل عال:

هناك أخت في الجبل تجمع الشاي
وخطيبها من السهل يقطع القصب
والبطات السمينات تتطاير من الجانبين
وزواج سيجمع قريبا بين أخت صغيرة وخطيبها

بين المستمعين من أعجب به، وآخرون شجعوه بقوة:

- غن أغنية رشيقة.
- إبدأ أيها العجوز!

مد العجوز يده باتجاه الحشد:

- مستحيل ، مستحيل، سأرتكب خطأ فاحشا إذا فعلت ذلك.
- ليس خطيرا إلى هذه الدرجة أن تغني أغنية!

- لا تقلقوا، العجوز سيغني

غص الشارع بالناس، وأخذ الدراجات التي لا تستطيع المرور تقرع أجراسها.

- طيب. أنتم أردتم ذلك ، قال العجوز وهو يقف مدفوعا من الحشد.

- غننا أغنية القرد ذي الجلد البطيخي الذي يدخل غرفة النساء!

الجميع يؤيد هذا الاختيار. يمسح العجوز فمه، ويستعد للغناء، وفجأة يقول بصوت خفيض:

- الشرطة!

- يلتفت الحضور. إنه شرطي بعيد يقوم بدوريته ويضع قبعة عريضة بيضاء على رأسه يزينها شريط أحمر

- ماذا يمكن أن يفعل؟

- يمكننا أن نمزح قليلا، أليس كذلك؟

- الشرطة لا تهتم بمثل هذه الأشياء !

- قل ما تشاء، لكن ارحل من هنا، أعتقد أن تجارتي ستمشي بهذا الشكل؟ قال العجوز وهو يعود إلى الجلوس.

وبعد مرور الشرطي كان الناس قد تفرقوا آسفين. سألته:

- أيها الشيخ، هل بإمكاني دعوتك للغناء في غرفتي؟ عندما تجمع أشياءك سنذهب أولاً للطعام والشراب في مكان ما. هل توافق؟

شد اقتراحي الرجل العجوز:

- موافق. سأجمع بضاعتي انتظرني لأرتب لوحاتي.

- لكنني سأضيع وقتك، قلت ذلك بنوع من الاعتذار.

- غير مهم، فنحن أصدقاء. لم يكن الطعام في الحسبان. لقد جئت إلى المدينة لبيع بعض الخطوط وجمع النقود القليلة، وإذا لم أعمل سوى ذلك فإنني سأموت من الجوع.

- ذهبت قبله أطلب الطعام والشراب من مطعم متواضع على زاوية الطريق. وبعد وقت قصير وصل حاملا سلتين على حمالة مزدوجة.

نتردش أثناء الأكل، حدثني عن طفولته فقد كان في العاشرة من عمره عندما أرسله أبوه إلى معبد طاوي ليساعد في المطابخ نزولا عند رغبة جده المريض، ويستطيع الآن استظهار ما تعلمه من الكاهن الطاوي العجوز دون أن ينسى شيئا منه، وبعد وفاة سيده تسلم المعبد، وهو يعرف كل الطقوس والمراسم. ثم، ومع الإصلاح الزراعي، لم يعد بوسعه البقاء في المعبد والعمل راهباً لأن الحكومة أمرته

بالعودة إلى القرية وزراعة الأرض. وعندما سألته عن موضوع الضرب بالرمل (كشف الغيب)، وأصوات الرعد الخمسة، وآثار أقدام الدبة الكبيرة، وجس عظام الوجه، اكتشفت أنه يعرف ذلك كله، وهذا ما أسعدني.

كان المطعم مزدحما بالفلاحين الذين أنهوا أعمالهم وربحوا بعض النقود، يلعبون بالقمار وهم يصرخون بأصوات مزعجة. قلت له إن لدي مسجلا في حقيبتي، وكل ما سيخبرني به سيكون وثيقة مهمة، طلبت منه أن يرافقني إلى الفندق بعد الغداء، وهناك يمكنه أن يقص على طريقته ويغني ما يريد. مسح فمه:

- خذ الحكول، سنشربه عندنا. عندي في البيت الرداء والأدوات الضرورية.
- وهل لديك أيضا سكين الكاهن التي تطرد الأشباح؟
- بالطبع.
- وهل لديك الألواح التي يمكن أن تصمت الأرواح وتبعد الجنرالات؟
- وعندي الأجراس والطبول، وكل ما يلزم لهذه المراسم، سأريك كل شيء.
- موافق! قلت وأنا أضرب يدي على الطاولة، ثم تبعته..
- هل دارك في حاضرة الإقليم؟
- ليست بعيدة، غير بعيدة. سأضع الحمالة عند أحدهم. اسبقني وانتظرني في المحطة.

بعد خمس دقائق، وصل بخطوات سريعة، ودفعني لنتسلق سيارة تستعد للرحيل! صعدت دون تفكير. تسير العربة بلا توقف، وأرى عبر النوافذ آخر شعاعات الشمس التي تغيب وراء الجبال. وعندما وصلت السيارة إلى نهاية الرحلة دخلنا حيا صغيرا، وكنا قد قطعنا حوالي عشرين كيلو مترا. ثم تحرك الباص ثانية، فهذه هي رحلته الأخيرة اليوم.

في هذا الحي الصغير لا يوجد سوى شارع واحد لايزيد طوله على الخمسين مترا. إنني لا أعرف هل يوجد هنا نزل أم لا. طلب مني الانتظار قليلا ودخل أحد البيوت. أعتقد بأن اللقاء مع هذا الرجل الودود هنا سيكون مقدرا. يخرج من البيت حاملا بيديه وعاء فيه جبن الصوجا، ويدعوني للسير خلفه.

أثناء خروجنا من الحي الصغير، وعلى الطريق الترابي، هبط الليل.

- هل تقطن في قرية قرب الحي الصغير؟
- ليس بعيدا، غير بعيد، وردها أكثر من مرة.

لاوجود لأناس هنا، والرؤية معدومة، والليل يزداد عتمة. يسمع نقيق الضفادع في كل حقول الرز. إنني قلق بعض الشيء لكنني لا أتجاسر على إلقاء الأسئلة أو

الاستفسار. سمعت خلفي صوت فواق محرك جرار زراعي. أشار لي مرافقي وركض خلفه يتبعه، لحقت به أيضا وقفزت إلى المقطورة. مشينا على هذا الطريق حوالي العشرة ليات، وكنّا نهتز مثل حبات البازلاء في مقطورة فارغة. في هذا الظلام الدامس يشع ضوء أصفر من مصباح الجرار يمتد حوالي العشرين خطوة لينير الطريق المتعرج الذي لا توجد إشارة عليه. لم يتوقف الرجل العجوز عن محادثة السائق باللهجة المحلية وبصوت عال، وكأنهما يتخاصمان، غير أنني لم أفهم جملة واحدة من كلامهما بسبب ضجة المحرك، حتى لو قررا قتلي فلا يمكنني إلا أن أشتكيهما إلى السماء.

انتهينا بالوصول إلى نهاية الطريق وهناك منزل لا أضواء فيه، لقد وصل السائق إلى نزله، وحينما فتح الباب تقاسما قطعة من الجبن. تبعت دليلي بقلق وهو يعبر الحواجز بين الحقول.

- ما يزال بعيدا؟

- ليس بعيدا، غير بعيد، ردد.

من حسن الحظ أنه يمشي أمامي، فلو وضع وعاءه واستخدم مهارته في رياضة الكونغ فو أعرف أن كل الطاويين القدماء ماهرون في هذه الرياضة. لن يكون بإمكاني سوى الارتماء في حقل من الرز والركض في الوحل. تظهر الجبال الآن أمام حقول الأرز، ويخف نقيق الضفادع. أبحث عن طريقة لإعادة الحديث بيننا، فأسأله عن المحصول والصعوبات التي يواجهها. يرد بأننا لن نصبح أغنياء إذا اعتمدنا على الأرض فقط، هذه السنة صرف ثلاثة آلاف يوان لتحويل بضع آرات من الأرض إلى مستنقع. سألته إذا كان يربي السلاحف لأنها حاليا أكلة مهمة في المدينة، إذ يقولون إنها تقي من السرطان وغالية، وتباع بأسعار مرتفعة. أجاب لديه أفراخ سمك أكلتها السلاحف جميعا. الآن يملك النقود غير أن شراء الحطب صعب. عنده ستة أولاد بكرهم متزوج وينتظر الآخرون بناء بيوت ليغادروا منزل العائلة.

أشعر باطمئنان أكثر، أناجي النجوم وأسعد بمنظرها ليلا.

في ظل الجبل لمع أمامنا شعاع نار. لقد وصلنا.

- قلت لك ليس بعيدا.

من الطبيعي أن يكون لدى الريفيين إحساسهم الخاص بالمسافات.

بعد العاشرة مساء وصلت قرية صغيرة في الجبل، على مدخل منزله تحرق البخور بالقرب من عدد من التماثيل الخشبية أو الحجرية المكسورة، والتي كان

يجب أن تعاد إلى المعبد عندما جرت أيام مكافحة المحظورات الأربعة[٦] قبل عشر سنوات. الآن يمكن عرضها على الملأ، وتحميلها تعويذات. خرج أولاده، أكبرهم عمره ثمانية عشر عاماً وأصغرهم إحدى عشرة سنة، أما ابنه البكر فليس بينهم. زوجته قصيرة جدا، وأمها بلغت الثمانين من عمرها ومازالت مبتهجة. تحلق الأبناء وأمهم حولي، فأنا ضيف مهم في نظرهم، فلم يحضروا فقط لي الماء لغسل الوجه، بل أرادوا أيضا أن يغسلوا لي قدمي، وقدموا لي الحذاء الكتاني لسيد البيت، ثم حضروا الشاي من أجلي.

بعد استراحة حمل الأطفال الأجراس والطبول والصنوج النحاسية. جرس صغير وآخر كبير علقا على إطار خشبي. ثم علا صوت الموسيقى ونزل الرجل العجوز من الطابق العلوي بخطوة بطيئة ملكية. لقد تغير شكله تماما، إنه يلبس رداءا بنفسجيا لراهب طاوي مرسوم عليه ومزين بسمات الين واليانغ[٧] وبأشكال من ثماني كلمات ذات أحرف ثلاثة. يشعل عودا من البخور وينحني بشدة أمام مكان توضع فيه تماثيل الآلهة. استفاق أهالي القرية على صوت الجرس والطبل وتجمعوا أمام الباب، وتحول المشهد إلى جلسة طقسية نشطة. لقد كان صادقا فيما قاله لي.

يحمل بيديه الاثنتين طاسة من الماء الصافي وهو يتمتم، ثم يرش الماء رشقات في زوايا الغرفة الأربعة، وعلى أقدام الناس المتدافعين على عتبة الباب، حينها يعلو ضجيج مختلط بضحكات صاخبة. كان الوحيد الذي لم تتغير تعابيره، عيناه نصف مغمضتين، طرفا فمه ممتدان، له هيئة جدية وكأنه يتواصل مع الأرواح. مع ذلك تزايد ضحك الجمهور. وفجأة يرفع كمي ردائه ويضرب بقوة على طقطقة[٨] موضوعة على الطاولة ليوقف الضحكات. يلتفت صوبي ويسألني:

– يمكنني أن أغني سنة السفر الكبير، أغنية سوء الطالع وسعده للنجوم التسع، أغنية الخلف، أغنية التحويل، وصيغة الطالع في المصائب الأربعة، واستدعاء الأسماء السحرية للأجداد، والصلاة لإله الأرض، واستحضار روح الدب الأكبر. فأيها تحب أن تسمع؟

– طيب، نبدأ أولا باستحضار روح الدب الأكبر.

---

(٦) تمثل المحظورات الأربعة خلال الثورة الثقافية : التقاليد البالية، العادات، الأفكار والتراث.

(٧) الين واليانغ: مبدآن أساسيان في الفلسفة الطاوية الصينية يماثل الأول مفهوم السلبية والثاني مفهوم الإيجابية (م.)

(٨) أداة من الخشب مؤلفة من طبقتين تصطفقان يصدر عنهما طقطقة توقع عليها حركات الرقص، ومثلها كلاكيت التي تستخدم في السينما (م).

- الغاية منها حماية الأطفال الصغار من المرض والكوارث. أي طفل تريد حمايته؟ أعطني اسمه وساعة وتاريخ ولادته.

- احضروا كلبا صغيرا، اقترح أحد الحضور.

- لا، ليس أنا.

طفل صغير يجلس على عتبة الباب، نهض ليختفي بين الحضور. موجة ضحك جديدة تعم المنزل.

- مم تخاف؟ إذا فعل العجوز لك ذلك فلن تمرض أبدا، قالت امرأة.

- لم يرد الطفل الصغير ترك مكانه خلف الجمهور.

أوضح لي العجوز وهو يرفع كميه:

- طيب، عادة، يجب تحضير طاسة من الرز، وسلق بيضة دجاجة ووضعها على طاسة الرز وتقديمها مع حرق البخور، وعلى الطفل أن ينطرح أمام المذبح وأن نناجي ملوك الاتجاهات الأربعة، وسيد نجمة امتداد العمر في الجنوب، والأسياد التسعة للنجمة القطبية، والآلهة المقدسة التي تحمي البلاد، والآباء والأمهات الذين حرمت منهم أسرهم، سلالة العبقرية، نناجي كل هؤلاء ونطلب منهم أن يباركوا الطفل.

- وهو يتكلم، يرفع سكينه الخاصة بهذه المراسم، ويقفز في الهواء، ثم يغني بصوت مرتفع:

- أيتها الروح، عودي بسرعة! من الشرق الطفل الذي يرتدي اللون الأزرق، في الجنوب الطفل المرتدي اللون الأحمر، في الغرب الطفل الذي يرتدي اللون الأبيض الذي ويحميك، والطفل ذو الثياب السوداء في الشمال يصطحبك. روح ضائعة، تسافر، لا تسافر أبدا، الطريق طويلة ، العودة إلى البيت ليست سهلة. سأحضر مقياسا من الحجر الكريم لأقيس الطريق في حالة وصولك في العتمة. إذا وقعت في الشبكات السماوية سأقطعها بمقصي. إذا كنت جائعة أو عطشى فلدي الرز من أجلك. لا تصغي لغناء العصافير في الغابات، ولا تنظري للأسماك في البركات العميقة، لو نادوك مائة مرة لاترتدي عليهم. أيتها الروح، يا روح عودي بسرعة إلى البيت! تحفظك الأنفس، لا تتوقفي عن تجميع الفضائل! من الآن الروح السماوية ستبقى منزهة أما الروح الأرضية فستحمي نفسها. لن يستطيع الرد ولا الريح الدخول، ولن يهان الماء ولا الأرض، وسيصبح الشباب أقوياء، والكبار أشداء، ونعيش مائة عام بصحة كاملة!

- يحرك السكينة المخصصة، ويرسم دائرة كبيرة في الهواء. تنتفخ خدوده،

وينفخ ملء رئتيه في قرن. ثم يلتفت إلي:

- إذا عملت تعويذة أخرى فإن من سيحملها لن يعرف سوى الحظ.

- لم أصل إلى التأكد من إيمانه بطرقه السحرية هذه، لكن على أي حال كان يحرك يديه وقدميه باقتناع ويركز على تعبير في غاية الإرضاء. إن تنظيم هذا الطقس في منزله الخاص وتشجيع أبنائه، واحترام سكان القرية، وخاصة أمام غريب، يدفعه بالطبع إلى أعلى درجات الإثارة.

إنه يصل لعنة بأخرى، ينادي السماء والأرض، وشيئا فشيئا أخذت أصوات كلماته تختلط وإيماءاته لتصبح عبثية. حول المذبح يكشف عن مواهبه في المصارعة والمبارزة بالسيف، ويرافقه أولاده في حركاته ويتابعون خطواته في الغناء بمساعدة الأجراس والطبول ويعزفون عليها بقوة متزايدة، وخاصة أصغرهم الذي يقرع على الطبل: فقد شمر عن ذراعيه ليظهر جلده الأسود وبروز عضلات كتفيه. وخلف الباب يتزايد عدد المشاهدين أكثر فأكثر. أولئك الذين يتجمهرون في الصف الأول يدفعون لتخطي عتبة الصالة وحشر من هم في الداخل في زاوية. بعضهم يجلس على الأرض. مع نهاية كل أغنية يهتف الجمهور ورائي مبديا إعجابه، وتتعاظم سعادة العجوز، ويبدي كل الحركات الفنية القتالية التي يعرفها دون أي خوف. إنه ينادي كل الأرواح التي يعرفها واحدة واحدة وهو في حالة من السكر والجنون تقريبا. إنه لا يتوقف لالتقاط أنفاسه إلا عندما أقلب الوجه الآخر للشريط في مسجلتي. في الصالة وخارجها إثارة الجمهور وصلت أقصى غايتها. إنهم يضحكون ويثرثرون. هذه التجمعات الكبيرة للفلاحين ممنوعة.

توجه إلى فتيات صغيرات أمامه وهو يجفف نفسه بمنشفة قائلا:

- غنين، أنتن، من أجل الأستاذ.

ضحكت الفتيات وتهامسن فيما بينهن ثم تدافعن ليفسحن المجال أمام إحداهن للخروج من المجموعة، واسمها ماومي. إنها ذات هيبة تبلغ من العمر مالا يزيد عن أربعة عشر أو خمسة عشر عاما، لكن لا يبدو أنها خجولة أبدا. سألت وهي تغمز بعينيها الواسعتين:

- ماذا أغني؟
- أغنية جبلية
- سأغني 'زواج الأخوات'!
- بل غني 'أزهار الفصول الأربعة' !

قرب الباب تجلس امرأة متوسطة العمر، تقول لي:

- من الأفضل أن تغني 'زواج الأخوات' فهذه أغنية جميلة.

تنظر الصبية نحوي وتميل تجاهي ثم تلفت نظرها. صوتها العذب يقطع ضجيج الحشد ويعلو في الهواء. تنقلني فورا إلى جو الجبال، الريح والينابيع والعذاب الذي يسري في طريق الماء كلها أمور بعيدة لكنها مجسدة الآن. أتخيل أضواء المسافرين في الظلام الدامس في الجبل. ويتراءى أمامي منظر عجوز يحمل شمعداناً من السرو مضاء، ويقود فتاة صغيرة لها من العمر مثل هذه المغنية نحيفة وترتدي ثيابا ملونة. يمران أمام باب معلم المدرسة في قرية صغيرة. كنت قد توقفت في ذلك المكان لأرتاح قليلا، لم أكن أعرف من أين أتيا ولا إلى أين سيذهبان وأمامهما جبل ضخم وغابات شاسعة، نظرا إلي دون أن يتوقفا ثم دخلا في الغابة. سقطت أمام الباب شرارة وبقيت تلمع وقتا طويلا، وحينما ألتفت لأكتشف أثر الضوء رأيت شعلة صغيرة ترقص في الظلمة وراء الصخور. إنهما يعبران عتمة الليل لكن الشهب والشعلات تدل على الطريق التي يتبعانها. ثم انتهى كل شيء، الشعلة الراقصة، والشرارات النارية، انتهوا مثل أغنية أو نشيد حزين يصدح في الظلام وفي فتيل قنديل لا يزيد على حبة بازلاء. مرة، في تلك السنوات، كنت مثلهم، قدمان عاريتان في حقول الأرز تعملان في الأرض، هبط الظلام فكان الملجأ الوحيد بيت المعلم حيث بإمكاني أن أتحدث وأشرب الشاي وأجلس وأبدد وحدتي.

لامس الحزن الناس الحاضرين جميعهم، فلم يعد أحد منهم يقول كلمة. لقد توقفت الصبية عن الغناء منذ وقت عندما استندت أخرى، أكبر منها، مقابل الباب وأطلقت تنهيدة عميقة، إنها دون شك فتاة تستعد للزواج:

- أي حزن !

أخذ الجمهور يطالب من جديد :

- غننا أغنية رشيقة !
- أغنية المداعبات الثمانية عشرة !

كان الشباب خاصة هم الذين ينادون.

استعاد العجوز أنفاسه يلم رداءه وينهض ليبعد الصبية المغنية والأطفال الصغار الذين يجلسون على عتبة الباب.

- اذهبوا أيها الصغار، اذهبوا إلى النوم! انتهى الغناء، اذهبوا إلى النوم!

لا أحد يريد الذهاب. المرأة المتوسطة العمر، الواقفة قرب الباب تدعو الأطفال كل باسمه. أما الرجل العجوز فيضرب الأرض بقدمه وكأنه غاضب، ويبدأ يصرخ :

- اخرجوا جميعا! أغلقنا، أغلقنا اذهبوا للنوم!

تدخل المرأة إلى الصالة وتدفع الفتيات الصغيرات خارجا، وتصرخ بالأولاد:

- اخرجوا أنتم أيضا!

يخرج الأطفال ألسنتهم ويطلقون صرخة غريبة!

- ياي...

أخيرا تغادر الفتاتان الأكبر سنا بهدوء، ويطرد الحضور بقية الأطفال. ذهبت المرأة لتغلق الباب، يستغل الكبار الذين بقوا في الخارج الفرصة ليدلفوا إلى الداخل. وما إن أغلق الباب حتى ارتفعت الحرارة في البيت، ورائحة التعرق أيضا. يبتهج العجوز قليلا، يبصق على الأرض ويغمز باتجاه الحشد، لقد غير سيماء وجهه. وبتعبير ماكر يتقدم بخفة، ويطلب مشاركة الجمهور وهو يغني بصوت خفيض :

الرجل يحضر، ماذا يحضر؟

يحضر عصاه،

المرأة تجهز، ماذا تجهز

تجهز قناتها.

يهتف الجمهور، يمسح العجوز فمه بيده:

وقعت العصا فيها

وهزتها مثل المحراك!

وانفجر الناس بالضحك، ومنهم من انثنى ومنهم من قفز

- غننا 'الأبله الصغير يتزوج' ! ارتفع صوت.

صرخ الشباب : 'تشا !'

يدفع العجوز الطاولة ويخلي مساحة في منتصف الصالة، يجثم على الأرض، أثناء ذلك يسمع قرع على الباب. بانزعاج يقول:

- من؟

- أنا، يجيب صوت رجل من الخارج.

يفتح الباب ويدخل شاب يضع على كتفيه سترة ويفصل شعره خط، يغمغمون:

- زعيم القرية، زعيم القرية، زعيم القرية...

يقف العجوز. يبتسم للقادم جديد، لكنه يمسك ابتسامته عندما يقع نظره على آلة التسجيل الموضوعة على الطاولة، ثم يتوجه نحوي.

- إنه ضيفي.

يدنو من العجوز ليقدم لي الشاب:

- إنه ابني البكر.

مددت يدي. أنزل سترته عن كتفيه وسألني دون أن يصافحني:

- من أين أتيت؟
- إنه أستاذ من بكين، شرح العجوز موهوا
قطب الشاب حاجبيه:
- هل لديك مهمة رسمية؟
- معي وثيقة، قلت له وأنا أخرج بطاقتي كعضو في رابطة الكتاب.
تفحصها من كل الوجوه، ثم أعادها إلي.
- إذا لم يكن معك مهمة رسمية، فنحن آسفون.
- أي مهمة رسمية تريد؟
- مهمة من البلدية الناحية أو ختم بلدية الإقليم.
- لكن بطاقتي مختومة !
بقي حائرا، أخذ بطاقتي، تفحصها جيدا تحت الضوء، ثم أعادها ثانية:
- لا أرى جيدا.
- جئت من بكين خصيصا لجمع الأغاني الشعبية!
بالطبع لم أتراجع، ولم أهتم كثيرا باللباقة في الحديث معه. وأمام إصراري، التفت نحو والده وصرخ بشدة :
- بابا، تعرف جيدا أن هذا مخالف للمبادئ !
- إنه صديق تعرفت عليه مؤخرا.
أراد الأب متابعة شرحه، لكن الشجاعة نقصته أمام ابنه زعيم القرية.
- اذهبوا جميعاً إلى النوم ! هذا مخالف للأنظمة.
كرر الابن هذه الجملة على مسمع الجميع. بعضهم قد غادر، وبدأ إخوته يجمعون الأدوات الموسيقية. لم أكن الوحيد الخائب، فقد كان العجوز حزينا حقا وكأنه تلقى طاسة من الماء البارد على رأسه، لقد خمدت حيويته وغاب مرحه، وانكمش بصورة مثيرة للشفقة.
اضطررت لإيضاح الأمر:
- أبوك فنان شعبي نادر، وقد جئتِ خصيصا لأتعلم منه. أنظمتكم جيدة من حيث المبدأ، لكن هناك أنظمة أعلى تسود على أنظمتكم...
مع ذلك لم أكن قادرا في تلك اللحظة أن أبين له ماهي هذه الأنظمة.
- تذهب غدا إلى بلدية الناحية، وسيقولون لك إذا كانوا يسمحون أو لا، ثم تعود مع الختم.

يلين قليلا، يسحب أباه إلى زاوية ويهمس له ببضع كلمات، ثم يضع سترته على كتفيه ويخرج.

خرج الجميع، وأقفل العجوز الباب وتوجه نحو المطبخ، بعد لحظات تدخل الزوجة النحيفة حاملة صحنا كبيرا من جبنة الصوجة المطبوخة مع اللحم وبجانبه أنواع من الخضار المخللة. رفضت الأكل، غير أن العجوز أصر. على الطاولة لا أحد ينطق بكلمة، بعدها نقلني إلى غرفة النوم حيث سأنام معه في غرفة تطل على حظيرة الخنازير، وتجاور المطبخ. لقد تجاوزت الساعة الواحدة صباحا.

ما إن انطفأ الضوء حتى هاجمنا البعوض، لم أتوقف عن صفع وجهي ورأسي وأذني ويدي. الجو خانق وتنتشر في الغرفة رائحة مقززة. كلب المنزل في قمة هيجانه بسبب وجودي، يدخل ويخرج مثيرا نخير الخنازير التي لا تهدأ. وتحت السرير نسوا بعض الدجاجات التي لم تدخل قنها ويزعجها الكلب بحركته، وترفرف أحيانا بأجنحتها. لم أتمكن من النوم وكدت أنهار. بعدها بقليل بدأ ديك يقبع تحت السرير بالصياح وتابع العجوز شخيره. لا أعرف إذا كان البعوض يلسعه أم أنه يلسع الغريب فقط، إلا إذا كان العجوز يفقد إحساسه كاملا عندما يغرق في النوم. لا أستطيع الاحتمال أكثر، أنهض وأفتح باب الغرفة الرئيسية وأجلس على العتبة.

هبت ريح باردة جففت عرقي، لم أعد أشاهد أيا من النجوم في السماء الرمادية هذا الليل بسبب الأطراف المتشابكة لأشجار الغابة. ما يزال الناس نائمين بعمق في البيوت المبعثرة ذات الأسقف القرميدية السوداء.

لم أكن أتوقع أبدا أن أمضي سهرة رائعة بهذا الشكل في قرية جبلية صغيرة لا يزيد عدد بيوتها على الإثني عشر. تبددت طيبتي بقطع السهرة مع هبوب النسمات المنعشة. وهذا ما يقولون عنه عادة : تكمن الحياة فيما لا يمكن وصفه.

- ٥٠ -

قالت : يكفي ، كف عن الحكي!

كنت تتمشى معها على الحافة الوعرة للنهر وكانت مياهه تدور مثل الإعصار. وكنتم أمام جوف عميق عندما يصل الماء إليه يشكل قوس دائرة وكان سطحه ناعما جدا. يتحول لونه إلى أخضر غامق دون تموجات. وكانت الطريق تضيق أمامكم ولم تعد ترغب بمتابعة السير معك :

قالت إنها تريد العودة للمنزل، كانت تخاف أن تلقيها في النهر.

انفجرت غضبا وسألتها هل أنت مجنونة.

قالت لأنها مع وحش مثلك، صارت فارغة وجف قلبها حاليا، فكيف لا تصبح مجنونة ! فهي تدرك تماما أنك إذا تابعت المسير معها على حافة النهر، سوف تنتهز أول فرصة لدفعها إلى الماء، إنك تريد إغراقها دون ترك أي أثر.

إليكِ عني! ألا تكفي عن شتمها.

قالت : أرأيت ! أرأيت ! هذا حقا ما تفكر فيه يا ذا القلب المخادع، إنك ما أحببتها. سيان أن لا تحبها، لكن لماذا تريد إغواءها؟ لماذا تجرها إلى تلك المياه العميقة؟

إنك تحس بالهلع في عينيها، فاقتربت منها لطمأنتها.

صرخت : لا لا! وحذرتك من الاقتراب أكثر!

توسلت إليك أن تبتعد وتتركها حية: وقالت لك إن أوصالها تجمدت عندما نظرت إلى تلك الدوامة السحيقة. أرادت العودة سريعا، العودة لحياتها السابقة. لقد أخطأت في اتهامه وجرت وراء وحش مثلك إلى هذه الضواحي القاحلة، أرادت العودة إليه، العودة إلى غرفتها الصغيرة، عندئذ، ستغفر له كل شيء، حتى لو استمر بمضاجعتها بعنف. قالت إنها تدرك الآن أن سبب اندفاعه هو حبه لها. وأن رغبته الجامحة دليل على ولعه بها. لكنها ما عادت تحتمل برودة أعصابك، إنه أصدق منك مائة مرة، وأنت مخادع أكثر منه مائة مرة. إنك في الحقيقة قد مللت منها منذ زمن طويل، لكنك لا تجرؤ على قول ذلك، إنك ترهق فكرها بوحشية تفوق إرهاق الآخرين لجسدها.

قالت : إنها تفكر به، ومهما يكن من أمر، فقد كانت حرة، وإنها تحتاج إلى بيت تلجأ إليه، وكانت جل رغبتها أن تصبح ربة بيت، فقد قال : إنه سيتزوج بها وهي تثق

به. أما أنت، فإنك لم تكلف نفسك بنطق كلمة الزواج. عندما كان يضاجعها، كان يحدثها عن امرأة أخرى، لكن ذلك فقط لإثارة الرغبة فيها، وقد أدركت الآن أنها تحبه بصدق. وهذا هو سبب عدم سيطرتها على أعصابها وأنها ليست في حالتها الطبيعية. وقد غادرت لتتركه مع المعاناة، لكنها أشبعت الآن رغبتها بالانتقام، وربما أفرطت في انتقامها. سيجن إذا علم بذلك، لكنه يريدها دائما وسيعرف كيف يغفر لها.

قالت : إنها تفكر بعائلتها أيضا. وعلى الرغم من شر زوجة أبيها فهي من الأسرة. ولابد أن أباها يعيش في حالة قلق شديد ويبحث عنها في كل مكان، لأن هروبها خطر عليها في سنها.

كذلك تفكر برفيقاتها في العمل. كن يروين الترهات، وكن بخيلات وغيورات من بعضهن، لكن إذا اشترت إحداهن ثوبا على الموضة ماكانت تتردد بجعل صديقاتها يجربن ارتداءه. أيضا تفكر بحفلات الرقص التي تملها دائما، حيث تصنع الفتيات الأحذية الجديدة والعطور ويرقصن على أنغام موسيقى ترتج مع الأضواء.

لقد اعتادت كل ذلك وتحس به قريبا منها، حتى غرفة العمليات وروائح الأدوية ونظافة الغرفة التامة وترتيبها، فقد كانت كل علبة في مكانها المحدد وهي في متناول اليد. يجب أن تغادر هذا المكان الملعون، وجبل الروح هذا، فهما ليسا سوى تفاهات.

قالت : إنه أنت من صرح لها أن الحب ليس سوى وهم نلجأ إليه لخداع أنفسنا. وإنك لم تؤمن قط بوجود حب حقيقي، فإما أن يمتلك الرجل المرأة، أو بالعكس. وبعد ذلك، نخترع مختلف الحكايات الجميلة حتى تأنس بها العقول الضعيفة. هذه كانت كلماتك، قلتها ثم نسيتها، أنت قادر على إنكار كل شيء، لكن يستحيل عليك مسح ظل تلك الكلمات من قلبها. صاحت: إنها ما عادت تقدر على السير وراءك! وأمام تلك الفجوة الهادئة، تلك المياه العميقة والمظلمة، لن تزيد خطوة واحدة معك صوب تلك الدوامة، وأي حركة منك باتجاهها، سوف تتشبث بك ولن تفلت منها وستجرك معها عند ملك الجحيم!

قالت أيضا إنها لن تتمسك بك، واترك لها فرصة، ولن تحرجك ولن تثقل عليك، وهكذا ستذهب خفيفا إلى جبل الروح أو إلى الجحيم. لن تضطر لدفعها، سوف تغادر من تلقاء نفسها، ستذهب بعيدا عنك، ولن تراك ولن تفكر بك. وأنتَ أيضا، لن تفكر بها ولن تضطر للقلق عليها، فقد ذهبت برغبتها، وبذلك لن تقترف أي ذنب، ولن تندم ولن تكون مسؤولا، وعندما تختفي لن يؤنبك ضميرك. أرأيت. إنك

لم تتبس ببنت شفة لأنها وضعت يدها على الجرح وكشفت أفكارك التي لم تجرؤ على الإفصاح عنها، فقد كشفت هي كل شيء.

قالت : إنها ستعود لبلدها، ستعود إليه، ستعود إلى غرفتها الصغيرة، ستعود إلى غرفة العمليات، ستعود إلى عائلتها، وستبدأ علاقات جديدة مع زوجة أبيها. لقد عاشت طوال حياتها عيشة وضيعة، فسوف تعود إلى تلك الحياة، وستكون كباقي الناس الوضيعين، وستجد رجلا وضيعا تتزوج به، فهي لا تريد أكثر من عش متواضع. ومهما يكن من أمر، لن تتابع سيرها معك، فهي لن تهبط إلى الجحيم برفقة شيطان مثلك.

قالت : إنها تخاف منك، فأنت تعذبها، لقد سببت لها عذابا بالتأكيد، لكنها الآن لا تريد أي كلام، لا تريد معرفة أي شيء، فهي تعرف كل شيء الآن، بل لقد عرفت أشياء أكثر من اللازم، وأولى بها ألا تعلم شيئا، فهي تريد نسيان كل شيء، حتى ما لا تستطيع نسيانه، يجب أن تنسى، ولابد أن تنسى يوما ما. وآخر كلماتها إليك، ستكون كلمات الشكر، ستشكرك على المشوار الذي قطعته معها، تشكرك لأنك أنقذتها من العزلة، لكن وطأة الوحدة ما انفكت تثقل عليها ولن تحتمل الاستمرار بذلك.

واستقرت عزيمتها على العودة والمغادرة. وأنت رفضت النظر إليها إنك تعلم أنها تنتظر التفاتة منك، بل لمحة من عينيك حتى لا تغادر، فربما ثبتت نظرها إليك حتى تدفقت دموعها، ولو أنك لُنت ورجوتها أن تبقى عزاء في كلماتك وقبلاتك، ولربما ارتمت بين ذراعيك غارقة بدموعها تلفظ عبارات مرتبكة عن الحب والاندفاع والحزن، وربما أحاطت خصرك بذراعيها الهزيلتين مثل براعم الصفصاف لجعلك تكمل المشوار معها.

أنت مصمم على عدم النظر إليها وتابعت طريقك على حافة النهر الوعرة. وعندما وصلت إلى المنعطف لم تعد تحتمل، فالتفتّ، لكنها توارت. انتابك شعور بفراغ كبير في قلبك، إحساس بفقدان شيء ما، لكنك أحسست أيضا بالخلاص.

جلست على صخرة، وكأنك تنتظر عودَتها. وأنت تعلم علم اليقين أنها غادرت إلى غير رجعة.

إنك أنت القاسي، وليست هي. وما أردت تذكر غير شتائمها ودعواتها عليك وأذاها، كي تمحو ذكراها من قلبك إلى الأبد وكي لا تشعر بأي أسف عليها.

لقد التقيت بها صدفة في ضاحية 'فوي Wuyi'، كنت تشعر بالوحدة، وهي كانت

تشعر بالأسى.

لم تدرك أبدا ما إذا كانت حكايتها حقيقة أم كذبا، أم مزيجا من كليهما؟ فقد اخترعتما الأحاديث كليكما وامتزجت حكاياتكما بشكل رهيب. لم تكن تعرف عنك أي شيء، فلأنها مجرد امرأة، ولأنك رجل، وبسبب ضوء خافت لمصبّاح معزول، وهذه الغرفة المظلمة تحت الأنقاض، وبسبب رائحة القش، وذلك المساء كما الحلم في مكان مجهول، وبرودة مساء خريفي جاءت قبل أوانها، أثارت فيك، تلك المرأة، ذكرياتك وهواجسك، وهواجسها وشهوتك.

وأنت تصرفت مثلها تماما.

حقا، لقد أعجبتك، وأنت أيضا أعجبتها. وبماذا يفيدنا أن نبحث عن المسؤول الأول بين مكر النساء وشهوة الرجال؟

وهل يفيدنا الآن أن نبحث عن جبل الروح؟ ربما لا يكون سوى صخرة حمقاء ترتادها النساء أثناء المخاض. هل كانت فتاة الكاميليا؟ هل كانت تلك الفتاة التي يدعوها الأولاد للسباحة؟ على كل حال، لم تكن صغيرة في السن، وأنت تجاوزت سن المراهقة. كل ما تذكره منها هو علاقاتك الجنسية معها، والآن تكتشف عدم قدرتك على وصف ملامح وجهها أو التعرف إلى صوتها، وكأن الأمر تجربة عابرة عشتها أو ربما مجرد هاجس. كيف يمكن الفصل بين الذكرى والهاجس؟ وكيف نحددهما؟ أيهما أكيد وثابت، وكيف نحكم على ذلك؟

لقد التقيت صدفة مع تلك المرأة في ضاحية صغيرة، في محطة صغيرة، على رصيف المحطة، على الشارع المؤدي إلى الطريق العام، أما تحركت فيك أحلام كثيرة وبعيدة؟ وكيف ستتبع آثارها الآن.

ترسل شمس الغروب أشعتها المائلة على الحافة المنحدرة للنهر، أمام معبد الإمبراطور الأبيض. وفي الأسفل عند مسقط المياه، تهدر المياه ويسمع هديرها من بعيد. وأمام عيني يرتفع جرف يجري في ميناء كوي 'Kui'، مثل نصلة سكين. وإذا نظرنا من الأسفل ونحن متكئين على الدرابزين الحديدي نميز خطا يفصل بين مياه النهر الصافية واللامعة، وبين مياه 'يانغزي Yangzi' المندفعة والوحلة.

على حافة النهر الأخرى، تمر امرأة تحمل مظلة بنفسجية تسير على منحدر الجبل بين الأعشاب والشجيرات، في درب مغطى يصعد إلى قمة الصخرة. تمشي إلى الأمام ثم تتوارى. وهذا يؤكد وجود ساكنين في القمة.

تختفي أشعة الشمس الذهبية وراء الجبل، فتظلم حافتي الطريق الجبلي، وتضيء المصابيح الحمراء التي تستخدم كإشارات معلقة فوق الماء لإنارة المراكب. يصل من الأعلى مركب مملوء بالمسافرين يتأملون المنظر بإعجاب، وكان صوت صفارات الإنذار يرن عاليا لفترة طويلة.

يحكى أن المعسكر المثمن الذي أقامه 'زهوج ليانغ Zhuge Liang'(٩) وسط الماء يوجد عند تقاطع النهرين بعد ميناء 'كوي'. لقد عبرت هذا الميناء عدة مرات في المركب، وكان جميع الناس يشيرون بإصبعهم إلى شيء ما، وكأنما يرون شيئا ما، لكنني لم أر شيئا، ولا حتى الآن، ابتداء من مدينة الإمبراطور الأبيض القديمة التي تقع على حافة النهر. ويحكى أن ' ليوبي Liu Bei'(١٠) عهد إليه ابنه الوحيد، إمبراطور المستقبل، لكن من يدري مدى صحة الروايات التاريخية المنقولة؟

داخل معبد الإمبراطور الأبيض كانت توجد تماثيل للقديسين ترتفع على قاعدة حجرية، استبدلت هذه التماثيل بمنحوتات فخارية ملونة مستوحاة من الدراما التاريخية، تتشكل بحيث تعطي انطباعا للمشاهد كأنه في مسرح. إن هذا المعبد لايشبه المعبد القديم في شيء.

التفتُّ حول المعبد ومررت وراء فندق حديث البناء. حوله لا يوجد سوى جبال عارية ماخلا بعض الشجيرات الموزعة هنا وهناك. وعند وسط المنحدر، تبدو بقايا

---

(٩) هو جنرال ورجل دولة عاش بين ١٨١ و ٢٣٤ م، كان حكيما وعبقريا حتى صار أسطورة شعبية.

(١٠) في عام ٢٢١م، أسس 'ليوبي' سلالة 'سهو هان Shu Han' في مقاطعة 'سيشوان Sichuan'، وعين 'زهوج ليانغ ' مستشاراً له.

جدار غير واضحة، كان هذا الجدار يشكل سورا نصف دائري للمدينة القديمة في عهد سلالة 'هان Han'، لابد أنه يمتد لمسافة عدة كيلومترات. ودلني عليه مدير الشؤون الثقافية في المنطقة. وهو عالم آثار صادق الحماسة لعمله. وأوضح لي أنه طلب من الجهات الحكومية المختصة تقديم المساعدات المالية للحفاظ على تلك الآثار، والأفضل، برأيي، أن تترك هذه الآثار على حالها. ولو تم تخصيص الأموال اللازمة، من المحتمل أن يقوموا ببناء بيوتات وأبنية مبرقشة يفتحون في أعلاها مطاعم فيشوهون المنظر.

أظهر لي سكينا من الحجر قديم يعود تاريخه إلى أكثر من أربع آلاف سنة، وهو مصقول ولامع مثل حجر اليشب (الجاد). يوجد ثقب في قبضته تستخدم لتعليقه في الحزام. وعلى حافتي نهر 'يانغ زي Yangzi'، اكُتشف العديد من الأدوات الحجرية المصقولة بإتقان، وأواني من الفخار الأحمر تعود إلى أواخر العصر الحجري، كما وجدت في مغارة على حافة النهر بعض الأسلحة البرونزية. وأوضح لي أنه بالقرب من ميناء 'كوي' عثر رجلان ، أحدهما أبكم والآخر أحدب، على آخر تابوت معلق ضمن مغارة موجودة في الجرف البحري حيث يقال: إن 'زهوج ليانغ' خبأ كتابه عن فنون الحرب. انهار التابوت. فالتقطا ما بقي من العظام وباعوها على أنها عظام تنين إلى المراكز الطبية في الصين، وبعد إجراء الفحوصات عليها، أبلغت هذه المراكز أجهزة الأمن العام . تمكن رجال الشرطة من العثور على الرجل الأبكم، ولم يستطيعوا أول الأمر الحصول على أي معلومات منه، فقاموا بضربه واعترف وقادهم بواسطة قارب صغير إلى المكان المطلوب بمحاذاة الجرف، وهناك أظهر لهم براعته في التسلق، كانت توجد هناك بعض القطع من ألواح خشبية، وهي تعود دون شك إلى بقايا مدفن مقاتلي المملكة. ربما كان التابوت يحتوي على بعض القطع البرونزية، ويستحيل معرفة مصيرها الآن. في صالة العرض الموجودة داخل المركز الثقافي، تمكن مشاهدة العديد من القطع (مغازل) المزينة بأشكال دائرية سوداء وحمراء. تشبه تلك الرسومات أسماك 'ين Yin' و 'يانغ Yang'، وقد تعود إلى فترة القطع التي رأيتها في جبال كيجيا Quijia ذاتها، بالقرب من النهر بمقاطعة 'هوبي Hubei'. كان عمرها حوالي أربع آلاف سنة. كانت تلك القطع المزينة تحدث أثناء دورانها تناوبا بين الفارغ والممتلئ فتظهر صورة العظمة الطاوية السامية[11]. وهنا

(١١) هي الأساس الأزلي للكون. تتمثل هذه الصورة برسم 'ين' و 'يانغ'، إحداهما بيضاء والأخرى سوداء، وعلى كل منهما دائرة بلون الآخرى.

يدفعني الخيال إلى الاعتقاد بظهور أقدم هذه الرموز، مهد المبادئ الفلسفية عن الوجود، ابتداء 'من كتاب التحولات' حتى الفلسفة الطاوية: فهي تعنى تكامل 'ين' و'يانغ'، تلازم السعادة والشقاء لقد ولدت أولى مفاهيم البشرية من الصورة، ثم ارتبطت بالأصوات حتى آلت إلى ظهور اللغة والمعنى.

والحكاية في الأصل هي سقوط شيء غريب سهوا أثناء الطبخ على مغزل من التراب. وكانت هناك امرأة تغزل مغزلها لاحظت الشكل الناتج عن حركة المغزل. والرجل الذي أعطى معنى لذلك الشكل يسمى 'فوكسي Fuxi'. فالقضية إذن، أن المرأة هي التي أعطت الحياة والفكر إلى 'فوكسي' ، وتسمى المرأة التي خلقت الفكر لدى الرجل بـ 'نوغوا Nugua'. فالمرأة الأولى والرجل الأول يسميان' نوغوا' و'فوكسي' وهما يرمزان إلى إدراك ارتباط الرجل بالمرأة.

يتميز 'فوكسي' بأن له جسد أفعى ورأس إنسان، هكذا كانت صورته على الأواني الفخارية التي تعود لعهد سلالة 'هان'، وهكذا تظهر صورته في الأساطير وفي علاقاته مع 'نوغوا'. وهو يجسد الغريزة الجنسية للإنسان البدائي. إنهم حيوانات برية، حُوِّلت إلى وحوش، ثم ارتقت إلى مرتبة السلف الأزليين، وهم مجرد تجسيد غريزي للشهوة الجنسية ونداء الحياة.

في ذلك العصر لاوجود لمفهوم 'الفرد'، ولا تمييز بين 'أنا' و'أنت'. ظهر الـ'أنا' أولا بسبب الخوف من الموت، أما الشيء الغريب الذي ليس الـ'أنا' تحول إلى ما يسمى بـ'أنت'.

كان الإنسان حينئذ لا يحس بالخوف من نفسه، وتعرف إلى ذاته بواسطة الآخر فقط. وكان يثبت وجوده فقط بأن يأخذ أو يؤخذ، أن يَخضع أو أن يُخضِع. وكان الشخص الثالث 'هو' دون أي علاقة مباشرة مع 'أنا' و'أنت'. ولم يظهر 'هو' إلا تدريجيا مع مرور الزمن، وفيما بعد اكتشفت أن الأمر نفسه بالنسبة لـ 'هو' : إن وجود كائنات مختلفة سبب لتراجع الإحساس بـ 'الأنا' و'الأنت'، ومع مرور الزمن، نسي الإنسان 'أناه' في صراعه من أجل العيش مع الآخرين، واضطر لينغمس في عالم لا حدود له، حتى صار مجرد حبة من الرمال.

ما عساي فاعلة بما تبقى من حياتي؟ يراودني هذا السؤال وأنا أصغي إلى الصوت الغامض لمياه النهر في سكون الليل. هل أذهب لالتقاط ما تحمله شباك الصيادين على حافة مياه 'داكسي Daxi'؟

كانت عندي حصاة ملساء مثقوبة من وسطها بواسطة فأس حجري، أعطاني

إياها أحد الأصدقاء منذ يومين، أحضرها من أعلى نهر 'وانكسيان Wanxian'. وقال لي إنه بإمكاني أن أجمع منها ما أشاء أثناء الجزر. يتراكم الوحل في مجرى النهر ويرتفع كل سنة. كما يفكرون ببناء سد على مجرى النهر. وعندما ستتم إشادة هذا العائق المغرور وستغرق جدران مدينة 'هان' القديمة في المياه. فماذا يعني، إذاً، تجميع بقايا الماضي الثمينة؟

إنني ما أزال أبحث عن المعنى، لكن ماهو المعنى؟ هل بإمكاني منع الناس من بناء صرح السد وأنا أدمر ذاكرتهم الخاصة؟ ليس بوسعي غير البحث عن «ذاتي أنا»، حبة الرمل الصغيرة، كل ما أستطيع هو تأليف كتاب عن «ذاتي»، ولا يهمني إن صدر أم لا. وماذا يعني تأليف كتاب زيادة أو كتاب أقل؟ هل سينتقص هذا من الثقافة التي دمرناها؟ وماهي حاجة الإنسان للثقافة؟ وماهي الثقافة؟

أنهض منذ الفجر وآخذ القارب التجاري، وينغمر بطنه في الماء ويجري مسرعاً مع التيار. نصل ظهرا إلى جبل «فوشان Wushan»، إنه جبل الساحرات، هناك حيث حلم الملك «هواي Huai» ملك قبيلة «شو Chu»، أنه يتزوج بإحدى الآلهات. لم ألحظ أي سحر عند النساء اللواتي أراهن في شوارع المدينة. بل أرى مجموعة من الشباب والبنات، حوالي سبعة أو ثمانية أشخاص، يتحدثون بلهجة بكين، ويلبسون سراويل عريضة، يحملون غيتارات كهربائية وبطارية، يتحدثون، يضحكون ويتداعبون، ويمرحون كثيرا. وهم يكسبون عيشهم بعزف بعض الأنغام الدارجة والديسكو (في تلك الفترة كانت موسيقا الروك ممنوعة)وقد قالوا إن عددهم يزداد على جانبي نهر «يانغ زي Yangzi».

وجدت الكتابة التالية في أجزاء من حوليات مغلفة بأوراق التغليف

- في عهد الـ «تانغ ياو Tang yoo»، سمي جبل «فو» على اسم «فوكسيان Wuxian»، وقد كان من أبرع الأطباء عند الإمبراطور «ياو». ولد من أسرة وزراء راقية، وتوفي مثل الحكماء النظام، وكان يسكن في هذا الجبل الذي سُمي باسمه. (أنظر: «غوو بو Guo Pu»، مرثيات جبال فوكسيان).

- في عهد «يوشون Yu Shun»، ورد في تاريخ الإمبراطور «شون» القديم: إن جبل «فو» هو في المنطقة الممتدة بين «جينغ Jing» و«ليانغ Liang».

- في عهد الـ«إكسيا Xia»، قسم الإمبراطور 'يون' الإمبراطورية إلى تسع مناطق، وجبل 'فو' ما يزال موجودا في المنطقة بين 'جينغ و'ليانغ'.

- 'في عهد الـ'شانغ Shang'، ورد في كتاب 'مديح الـ'شانغ'تسع إقطاعات، تسع

حصارات: المناطق التي فيها جبل 'فو' لاتختلف عما كانت عليه في عهد الـ 'إكسيا'.

- 'في عهد الـ'زهو Zhau'، 'فو' هي أرض كويزي Kuizi'، تمثل الربيع والخريف في بلاد اليونغ Yong، وفي سنة ٣٦ من عهد 'إكزيغونغ Xigong'، قضى مقاتلو 'شو' على أرض كوي' وضموها إلى 'شو'، ومن ضمنها جبل 'فو'.

- 'في عهد الممالك المحاربة، كان جبل 'فو' تحت قيادة بلاد الـ'شو'. ونقرأ في حوليات الممالك المحاربة ما يلي : حذر 'سوكين Su Qin' الملك 'وي Wei' ملك الـ 'شو' بهذه العبارة : قيادة 'فو' موجودة في الجنوب. وورد في كووديزهي Kuodizhi':

توجد القيادة على مسافة ١٠٠ لي (آلي: ٥٧٦م، مقياس صيني) إلى الشرق من كوي' وسمي فيما بعد بـ('بلد قيادة الجنوب').

- حكي في المذكرات التاريخية فصل 'حوليات الـكين Qin' أنه في عهدهم، وفي السنة الثلاثين من حكم الملك 'زهاو زيانغ Zhao Ziang سيطر هذا الملك على قيادة 'فو' وحوله إلى منطقة تابعة لقيادة الجنوب'.

- 'في عهد الـ'هان'، في فترة 'جيان آن Jian An'، ضُمَّ في أول الأمر إلى قيادة ' ييدو Yidou' ثم، في سنة ٢٥، وضعه 'سون كوان Sun Quan' تحت قيادة' غيلينغ Guling و 'سون إكسيودوفو Sun Xiudewu في قيادة 'جيان بينغ Jianping'.

- 'في بداية عهد الـ'جينJin' كانت منطقة 'فو' تشكل الحدود بين بلاد 'فو' و 'شو'، وكان يحكمها 'دوي جيان بينغ Duwin De Jianping' ثم ألحقت بمنطقة 'بيجينغ Beinjing'، وفي السنة الرابعة لحكم إكسيان بينغ Xianpingن تم نقل الـ 'دوي' إلى قيادة' جيان بينغ' وظهرت منطقة 'نان لينغ Nanling'.

- لم يطرأ أي تغيير في عهود السونغ Song' وكيQi' و'ليانغ Liang'.

- 'في أواخر عهد الـ'زهو' وفي بداية عهد 'يوان هه Yuanhe' كانت منطقة 'فو' تحت قيادة' جيان بينغ'، ثم نشأت منطقة 'جيانغ لينغ Jiangling'.

- 'في عهدالـ'سوي Sui'، وفي بداية حكم كاي هوانغ Kaihuang'، تم استبدال القيادة إلى منطقة جبل 'فو' التابعة لقيادة 'بادونغ Badong'.

- 'في عهد الـ 'تانغ Tang' ولمدة خمس سلالات، كانت تتبع لمقاطعة 'كوي Kui'.

- 'لم يطرأ أي تغيير في عهد الـ'يوان Yuan'.

- في عهد الـ 'مينغ Ming'، أتبع لمقاطعة 'كوي'.

- ' في عهد الـ كينغ Quing'، وفي السنة التاسعة لحكم كانغ سي Kangxi'، تم

إلغاء 'داشانغ Dachang' وأدمجت مع منطقة 'فوشان Wushan'.

- 'توجد أنقاض مدينة على مسافة خمسين لي إلى الجنوب'.

- 'القس' فوزي Fuzi' حزمة القمح، واسمه الحقيقي ' فينكونغ Wenkong'، وهي تسمية من ' يوان يوان Yuanyuan'، أصله من 'جيانغ سي، وقد بنى كوخه على السفوح الشمالية لجبال 'زهيدونغ Zhidong'. كان يبقى جالسا في تأملاته بين الجبال. وبعد أربعين سنة، نهض وما كان يأكل غير حزمات القمح، ومن هنا جاء لقبه، وبعد غياب طويل عن كوخه، شاهد سكان الجبل المقابل نورا يشع لمدة ثلاث سنوات.

- 'يروي الحديث أن ابنة الإمبراطور الأحمر، 'ياوجي Yaoji، ماتت وهي تسير على الماء، ودفنت على سفح الجبل المشمس. وبني لها معبد، كان السحرة والساحرات يهبطون الأرواح إليه وهم يرقصون'.

- 'توجد ضاحية أن بنغ Anping على مسافة ٩٠ لي إلى جنوب شرقي المنطقة... (توجد كلمات ناقصة)، أما الضواحي المذكورة أعلاه فهي حاليا مجرد أنقاض منذ أن أحرقها جنود الـ 'مينغ'، ودمروا بيوت القرى، وجاء سكان آخرون إلى هذه المناطق وتغيرت أسماؤها'.

والآن ، هل مازالت تلك الضيعات موجودة؟.

- ٥٢ -

تعلم أنني لا أحادث غير نفسي لأواسيها في وحدتي. وتعلم أن لا مخرج من وحدتي، لا أحد يستطيع إخراجي منها، وليس من أحد غير نفسي يشاركني أحاديثي.

وفي هذا الحوار الفردي الطويل، 'أنت' هي غرض حكايتي، وهي في الواقع 'أنا'، هذه 'الأنا' التي تصغي لي بانتباه ، فهذه الـ'أنت' ليست سوى ظل لي.

وعندما كنت أصغي بانتباه إلى 'أنت' الخاصة بي، أوجدت لك 'هي'، لأنك مثلي، لا تحتمل الوحدة فتبحث أيضا عن شخص تحادثه.

فسعيتَ إلى 'هي'، كما سعيت أنا إلى 'أنت'.

'هي' تتحول من 'أنت'، وفي عودتها يتثبت الـ'أنا'.

'أنت'، يا شريك حواراتي، لقد قلبت تجربتي وخيالي إلى علاقات بين 'أنت' و'هي'، وما عاد بالإمكان تمييز ماهو خيال وماهو تجربة حقيقية.

وإذا كنت أنا نفسي غير قادر على التمييز بين ما عشته وما أحلم به في ذكرياتي وانطباعاتي، فأنّى لك، أنت، أن تميز بين تجربتي وخيالي؟ وهل أحتاج حقا لمثل هذا التمييز؟ إضافة إلى أن هذا التمييز لا يحمل أي معنى حقيقي.

إنَّ 'هي' وليدة تجربتك وخيالك، ثم تحولت إلى ضروب من الأوهام، وهي تتمختر لتجذبك إليها، لا لشيء إلا لأنك أردت إغواءها ولأنك لا تستطيع الإذعان للوحدة.

أثناء سفري، تجمعت على الطريق كل لحظات السعادة والشقاء في حياتي. كنت غارقاً في خيالي، وكان يرافقني صدى سفرك الداخلي، فأي الرحلتين هي الأهم؟ أيهما حقيقية أكثر؟ إن هذا السؤال القديم والمزعج يستحق أن يكون موضوعا لحوار أو مداولة. لكنه لا يرتبط أبدا مع السفر الروحي الذي يغوص فيه 'أنا' و'أنت'.

أنت تمضي في سفرك الروحي الخاص بك، تجوب فيه أنحاء العالم معي لأني أتبع أفكارك، ولكما مضيت أكثر ، تقترب مني أكثر لدرجة أنه يستحيل حتما فصلنا عن بعضنا. عندئذ، يتوجب عليك التراجع لخطوة واحدة، وهذه المسافة التي تتشأ تعود إلى 'هو'، و'هو' ليس سوى شبحا يلازمني عندما تتركني وتبتعد عني.

لا أنا ولا صورتي قادرتان على تمييز وجه 'هو'، فكل ما نعرفه أنه شبح.

و'أنت'، أنا من أوجدك، وأنت أوجدت 'هي' لكن صورتها تبقى طبعا مجرد وهم، فما فائدة تمثلها والتمسك بها؟ 'هي' ليسنت سوى صورة ظهرت بشكل غامض نتيجة تداعي الأفكار، تتخبط في الذاكرة، فما فائدة استرداد صورة دائمة التبدل؟.

بالنسبة لي ولك، إن ما أسميناه 'هن' ليس سوى اجتماع عدة أشكال من 'هي'، وليس شيء آخر.

كذلك 'هم'، ليسوا سوى صور متعددة عن 'هو'. وهذا الكون العملاق الذي يحتمل كل شيء موجود خارج إطار 'أنا' و'أنا'. أي أن 'هو' ليس سوى انعكاسا لشبحي أنا، ولا يسعني التخلص منه، وبما أن الأمر كذلك، لايهم، وما الفائدة؟.

لا أدري إذا لاحظت هذا إنني عندما أتحدث عن 'أنا' و'أنت' و'هي' و'هو' وحتى عن 'هم'، فإني لا أتحدث عن أحد غيري، وغيرك وغيرها وغيره وغيرهن وغيرهم، لم أتحدث أبدا عن 'نحن'. وأعتقد أن هذه الـ'نحن'، الغريبة والمخادعة، هي حقا بلا معنى.

حتى لو كانت 'أنت' و'هي' و'هو' و'هم' و'هن' صورا خرافية وهمية، فإنني أراها ذات معنى أكثر من 'نحن' المزعومة. إن الحديث عن 'نحن' يثير الشكوك، فكم من 'أنا' تتضمن؟ أو كم صورة مقابلة لـ'أنا' يوجد فيها، كم شبح بـ 'أنت'، لـ'هي' تتشأ عن 'هو' و'أنت' و'أنا' على شكل أوهام وخيالات، كما تتشأ عن 'هم' و'هن' اللذين يعتبران جميع أشكال 'هو؟ إن هذه الـ'نحن' في غاية الخداع.

إلا أنني أستطيع الحديث عن 'أنتم'. فعندما أكون أمام عدة أشخاص، سواء لمسايرتهم أو معاتبتهم أو أغضب أمامهم أو أحبهم أو أحتقرهم، فأنا في موقع قوة، وأحس بنفسي أقوى من أي لحظة أخرى. بينما أي معنى تحمله 'نحن'؟ فهي ليست سوى نوع من أنواع التصنع لا دواء له. لذلك أتجنب دائما استخدام هذه الـ'نحن'، فهي تكلف وخداع، ولا تنفك تمضي في غرورها. وإذا اضطررت لاستخدامها يوما ما، ستكون تعبيرا عن جبن وعقم لا حدود لهما.

هذا نظام أعددته لنفسي، أو بالأحرى منطق يعتمد على علاقة السبب بالنتيجة، وقد حاول الناس دوما تكوين نظام ومنطق وعلاقات السبب بالنتيجة ليثبتوا وجودهم في هذا العالم المشوش. لماذا لا أخترع نظاما لنفسي؟ وبذلك أجد ملجأ بينهم، وأقيم معهم، وأشعر براحة الضمير.

لكن حظي البائس جعلني أوقظ الـ'أنت' التي تجلب النحس، في الحقيقة، ليست

'أنت' بؤسا، بل بؤسك أنت هو بكامله أنا، لأني السبب فيه ومصدره الوحيد هو حبي لذاتي. إن هذه الـ 'أنا الشيطانية لا تحب غير ذاتها حبا قاتلا.

لا أدري إذا كان الله والشيطان موجودين أصلا، فأنت من أطلق إسميهما، فأنت تجسد سعادتي وشقائي معا، وعندما تختفي، سينعدم الله والشيطان معا.

لن أتخلص من نفسي إلا عندما أتخلص من 'أنت'. لكن إذا عدت وناديتك في يوم من الأيام، لن أتمكن أبدا من الابتعاد عنها. وكنت أسأل نفسي ماهي النتيجة إذا تبادلنا الأمكنة. أي، أن أصير أنا ظلك، وتصير أنت جسدي الواقعي، إنها لعبة مسلية. فلو كنت مكاني، تصغي إلي بانتباه، سأصير تجسيدا لرغبتك، وهذا أيضا أمر مفرح. وتنتج عنه فلسفة بكاملها ونستأنف هذه الحكاية من أولها.

في نهاية المطاف، إن الفلسفة هي أيضا إحدى ألعاب الفكر. وتوجد في حدود لا تطالها الرياضيات والعلوم الدقيقة، فهي تقدم بنيانا وإطارات منتقاة من جميع الأصناف، وعندما يكتمل البنيان، تتوقف اللعبة.

الفرق بين الرواية والفلسفة هو أن الرواية من نتاج الإحساس، تغوص في مزيج من الرغبات، رُكِّبت إشاراتها بشكل اعتباطي، وعندما يتحلل هذا النظام ويتحول إلى خلايا، تظهر الحياة. فنرى فيها الحمل والولادة، وهذا يفوق في أهميته ألعاب الفكر، لكنها مثل الحياة لا تدرك أي غاية.

انتصف النهار وزادت درجة الحرارة على أربعين درجة. ذهبت على دراجة عادية استأجرتها إلى المدينة القديمة في "جيانغ لينغ".

كانت الطريق معبدة حديثا، ويرتخي القطران تحت أشعة الصيف المحرقة. ويندفع الهواء الساخن من بوابة مدينة "جينغ زهو" Jingzhou القديمة، وهي مدينة بنيت في عهد مملكة المحاربين. وكانت هناك امرأة عجوز تضطجع على أريكة من الخيزران أمامها طاولة للشاي، غير آبهة بشيء، تركت قميصها مفتوحا، وهو قميص قصير من الكتان، صار باليا من كثرة غسله، ويبدو منه نهدان مجعدان مثل كيسين من الجلد. كانت مسترخية وعيناها مغمضتان، ناولتني زجاجة كازوز ساخنة أيضا ولم تكلف نفسها التحقق من النقود التي دفعتها لها، وعند الباب، كان كلبها يرقد في الظل، اللعاب يملأ شفتيه لاهثا ولسانه يتدلى.

خارج المدينة تمتد مساحات صغيرة من الأرض مزروعة بالرز لما تُحصد بعد، تبدو سنابلها ناضجة بلون أصفر فاقع. وفي حقول الرز المحصودة، يلمع اللون الأخضر، وهو لون نبتات الرز الحديثة. لا يوجد أحد على الطريق، لا يوجد أحد في حقول الرز. مازال الناس في بيوتهم الرطبة ولا توجد أي سيارة.

كنت أسير وسط طرق الحافلات، وكان الهواء الساخن يهب مثل اللهب، وأغرق العرق ظهري، فخلعت قميصي وغطيت به رأسي خشية حرارة الشمس، وعندما أزيد السرعة، كان قميصي يخفق في الهواء ويتسرب بعض الهواء الرطب إلى أذني.

في الحقول تفتحت زهرات القطن الكبيرة، حمراء وصفراء، وكانت نبتات السمسم تتدلى مثل الشرائط الطويلة من زهرات بيضاء. ويخيم صمت غريب تحت أشعة الشمس الساطعة، والغريب في الأمر أنني لم أسمع أصوات زيز الحصاد أو الضفادع.

بسبب السير على الدراجة، تبلل سروالي القصير والتصق بفخذي. وفضلت خلعه كي يسهل السير على الدراجة. وخطر ببالي الفلاحين أيام شبابي عندما كانوا يسيرون عراة فوق دراجاتهم إلى النواعير، وكان الأمر عادياً جداً، كانت سواعدهم سمراء يتكئون بها على ساعد الدراجة. وعندما كانت تمر إحدى النساء، كانوا يمطرونها بالأغاني الفاحشة، لكنهم ما كانوا يسيئون النية. فكانت المرأة تضحك وتعض على شفتيها، وهذا كان ينسي المغنين بعضا من تعبهم، وهكذا نشأ هذا النوع

من الأغاني. وتعد هذه المنطقة موطن هذه الأغاني الموزونة التي نسميها 'صنجات وطبول لقلع الأعشاب'.

أما الآن، ما عادت تستخدم النواعير، وصاروا يسقون الأرض بمضخات كهربائية. وتلاشى ذلك المشهد.

كنت أعلم أنه لم يبق أي من معالم عاصمة بلاد الـ'شو' الأثرية، وأن رحلتي إليها دون جدوى، لكن، ما كان يفصلني عنها غير عشرين كيلومترا ذهابا وإيابا، وخشيت الندم على عدم الاستمتاع بها وتأملها قبل مغادرة 'جيانغ لينغ'. وصلت بعد الظهر، وأزعجت قيلولة زوجين يحرسان الموقع الأثري. لقد حصلا على شهادتيهما الجامعيتين قبل سنة، وتم تعيينهما حراساً هنا لحماية الأنقاض التي تغوص في أعماق الأرض، وما كانا يدريان متى ستكتشف، كانا متزوجان حديثا، ما كانا يعانيان من الوحدة وكان استقبالهما لي حارا. سكبت لي الزوجة مرتين كوبين من الشاي البارد والمر وضعت فيه نباتات طبية تساعد في تخفيف وطأة الحرارة المرتفعة. أما الزوج، وهو شاب، رافقني إلى أحد الحقول حيث ترتفع بعض التلال عن الأرض، ودلني على حقول الرز التي جرى حصادها، وعلى مكان آخر يرتفع قرب هضبة مزروعة بالقطن والسمسم.

- أوضح لي الشاب أن مدينة جينان أهملت بعد تدمير بلاد الـ'شو' من قبل بلاد الـ'كين'، ولا نجد فيها أي أثر من الفترة اللاحقة لملكة المحاربين، بينما تم اكتشاف أحد القبور داخل المدينة. يبدو أن المدينة تعود إلى أواسط عهد مملكة المحاربين، ورد في الوثائق التاريخية أن المدينة نقلت إلى 'يينغ Ying' أي إلى 'جينان'، قبل عهد الملك 'هواي' في 'شو'. وإذا حسبنا التاريخ من عهده، يكون قد مضى عليها عاصمة أكثر من أربعمائة سنة. وتختلف آراء المؤرخين حول هذا الموضوع، لأن بعضهم يعتقد أن مدينة 'يينغ' لا توجد في هذا المكان. لكن إذا استندنا إلى المعطيات الأثرية، يتبين لنا أن الفلاحين يكتشفون غالباً في أثناء فلاحتهم قطعا من الفخار والبرونز تعود إلى عهد ممالك المحاربين، ولو تمت أعمال التنقيب، لاكتشفت كميات كبيرة من تلك الآثار.

ثم تابع كلامه وهو يشير إلى مكان بعيد:

- انقض قائد الجيش 'بوكي Boqi' على مدينة 'يينغ'، وتم تحويل مجرى النهر فغرقت المدينة. فقد كانت تنفتح من ثلاث جهات على الماء: نهر 'زهو Zhu' كان يجري من الباب الجنوبي حتى الباب الشمالي باتجاه الشرق، وفي هذه الناحية توجد ردوم ترابية حيث نقف الآن، وكانت هناك بحيرة تتصل بنهر 'يانغ زي'. في تلك

الفترة، كان النهر يمر بالقرب من 'جينغ زهو Jingzhou'، بينما يجري حاليا على بعد كيلوين من الأمتار باتجاه الأسفل. وأمامنا هناك في جبل 'جي Ji' توجد قبور الطبقة الأرستقراطية في بلاد الـ'شو'، وباتجاه الغرب في تلال 'بالينغ Baling'، توجد قبور الملوك، وقد سرقت جميع تلك القبور.

وهناك ترتفع بعض التلال الوادعة، يسميها البعض جبالا في الوثائق التاريخية، وهذا لايقلل من روعتها.

- أشار بإصبعه إلى إحدى حقول الأرز، هذا هو المكان الوحيد الذي يطل على المكان كله.

- كان القصر موجودا في الجهة الجنوبية، الشرقية، وفي الشمال توجد المشاغل، كما وجدت في الجهة الجنوبية-الغربية بقايا مسبكة. كان حقل المياه الجوفية مرتفعا جدا مما أثر في الإبقاء على الآثار.

كنت أهز رأسي وأنا أصغي لشرحه وتكونت لدي فكرة تقريبية لأطراف المدينة. ولولا حرارة الشمس في وضح النهار وخروج الأشباح تحت جنح الظلام لدبت الحياة في هذا المكان.

عندما بلغنا أسفل الهضبة، أعلمني أننا غادرنا عاصمة المدينة. والبحيرة التي كانت آنذاك، تحولت اليوم إلى مستنقع صغير تغطيه أوراق النيلوفر وتخرج منها زهرات وردية متينة. كان كويوان 'Qu Yuan' موظفا كبيرا في قصر الملك، وعندما طرد منه مر بتلك الهضبة ولابد أنه قطف بعض تلك الزهرات ليزين بها حزامه. وقبل أن تتحول تلك البحيرة إلى مستنقع صغير، كانت حافتها عامرة بمختلف أنواع النباتات العطرية. كان كو يوان' يصنع منها تاجا له. وعلى أطراف تلك البحيرة وتلك المستنقعات لابد من أغنيات ظهرت مازالت تتردد حتى أيامنا. ولولا طرده من القصر، لما صار كويوان' من كبار الشعراء.

وبعد ذلك التاريخ، لو لم يطرد 'تانغ إكسوان زونغ Tang Xuanzang' 'لي باي Li Bai' من القصر، لما صار من عباقرة الشعر وما وجدت أسطورة موته سكرانا في قاربه وهو يحاول الإمساك بالقمر في الماء. يقال : إنه غرق في 'كايشيجي Caishiji' عند المجرى السفلي لنهر 'يانغ زي'. أما الآن فقد تراجعت مياه النهر حتى مسافة بعيدة عن هذا المكان وتحول إلى طبقة رملية ملوثة جدا. وحتى مدينة 'جينغ زهو Jingzhou' القديمة، والموجودة حاليا فوق مجرى النهر. كان هناك سد بارتفاع عشرة أمتار يحميها، ولولا هذا السد لصارت المدينة منذ زمن طويل قصرا تحت المياه ترتفع فيه التتينات.

عدت بعد ذلك إلى 'هونان Hunan' واجتزت نهر 'ميليو Miluo' حيث تعجل 'كو يوان' في إنهاء حياته، ولم أذهب للبحث عن آثاره على شاطئ بحيرة 'دونغ تينغ Dongting' لأن عددا كبيرا من علماء البيئة أعلموني بأنه لم يبق من تلك المنطقة سوى ثلثها حالياً، وقد ذكر في المصورات وجود ثمانمائة لي. ولسوء الحظ، يتوقع العلماء أن يؤدي الجفاف والترسب خلال عشرين سنة إلى زوال أوسع بقعة مياه عذبة في الصين.

وفي قرية 'لينغ لينغ Lingling' حملتني أمي وأنا طفل صغير وهربت بي خوفا من الطائرات اليابانية، ولا أدري إذا مازالت الكلاب الصغيرة تغرق في نهرها. وحتى الآن، ما تزال أمام عيني صورة ذلك الكلب الميت، مبلل الجلد وملقى على رمال جرف النهر. وأمي أيضا، ماتت غرقا. وفي تلك الفترة تطوعت لصالح حملة الإصلاح الفكري. وذات صباح، بعد انتهاء جولتها، راحت تغتسل عند حافة النهر، وهناك غرقت. لم تبلغ الأربعين من عمرها آنئذ. وقد قرأت مذكراتها في عمر سبع عشرة سنة. وقد كتبت فيها، هي ورفاقها الذين شاركوا في حركة الخلاص الوطني، قصائد تفوح بحمية الشباب. وطبعا، لم يكن هذا الشعر بمستوى براعة أشعار 'كويوا'.

أيضا، أخوها الثاني مات غرقا، ولا أدري إذا كان غرقه بدافع البطولة الطفولية أو بسبب الحماس الوطني، لكن، في اليوم نفسه الذي نجح في الانتساب إلى كلية الطيران، ولأنه كان شديد الحماسة، دعا مجموعة من رفاقه للاستحمام في نهر 'غان Gan'. فقفز في التيار العنيف من أعلى جسر بعيد في النهر، بينما كان رفاقه منشغلين بتقاسم النقود التي وجدوها في بنطاله. وعندما أدركوا وقوع الحادث، تفرقوا فورا. لقد سعى إلى موته في اليوم الذي بلغ فيه سن الخامسة عشرة. وقد فاضت دموع جدي ولم تهدأ.

أما ابنها الأكبر، أي خالي، لم يكن شخصا وطنيا، بل صب جل اهتمامه على أناقته، لكنه ما كان يرتاد حلبات صراع الديكة أو مسابقات الكلاب، كان يفضل كل ماهو 'مودرن' –في تلك الفترة يعد 'مودرن' كل ماهو أجنبي– وهذه الكلمة تترجم اليوم بمعنى 'متحضر'. كان لباسه على الطريقة الغربية ويضع ربطة عنق، كلها 'مودرن' جدا، على الرغم من أن السراويل العريضة لم تكن دارجة آنئذ. أما تسليته المفضلة فهي التصوير، وهي أعلى درجات الـ'مودرن'.

ما كانت مهنته في مجال التحقيقات الصحفية، لكنه ما كان يفتأ يلتقط صورا ويظهرها بنفسه، وخصوصا صور صرصار الليل. وقد نجت إحدى الصور التي

التقطها لمعركة لصرصار الليل من الحريق ومازالت موجودة حتى الآن، ربما نسوا إحراقها. لقد مات في ريعان شبابه أيضا بسبب حمى تيفيه. قالت أمي إنه شارف على الشفاء، لولا أنه التهم بشراهة زبدية من الرز المسخن مع البيض فقضت عليه. كان يريد أن يبقى 'مودرن'، لكنه ما كان يفهم شيئا عن الطب الحديث.

توفيت جدتي، والدة أمي، بعد أمي، لقد فقدت أبناءها في سن مبكرة، وقضت في أحد المراكز الصحية. لم أكن من سلالة 'الشو'، وعلى الرغم من قيظ الصيف، ذهبت للاستجمام في عاصمتهم القديمة. كان هناك شيء يشدني للبحث عن الأماكن التي عاشت فيها جدتي، فقد كانت تأخذني إلى سوق المعبد وتشتري لي لعبة البلبل. وقد أعلمتني إحدى عماتي بوفاتها، وعمتي أيضا ماتت قبل أوانها. لماذا مات كل أقربائي تقريبا؟ أستغرب ذلك، فهل أنا التي شاخت أو أن هذا العالم قد صار قديما جدا.

أذكر الآن أن جدتي كانت تبدو أنها تنتمي إلى عالم آخر. كانت تؤمن بقوى الغيب وزيادة على ذلك، كانت تخشى جميع أشكال النار وكل ما كانت تتمناه هو أن تزيد في عملها الصالح كي تجزى عليه بعد وفاتها. لقد فقدت زوجها وهي ما تزال شابة، وامتلكت أموالا وهبها لها جدي، لكنها كانت محاطة بمجموعة من الزعران الذين جعلوا من أنفسهم آلهة وشياطين، كانوا يحومون حولها مثل الذباب، وجميعهم يسعون لدفعها إلى تبديد إرثها. فقد أدخلوا في رأسها أن تلقي بأموالها ليلا في إحدى الآبار، حيث وضعوا فيها شبكة حديدية وهكذا استطاعوا الحصول على النقود التي ألقتها. وقد تفاخروا بفعلتهم هذه وهم ثملون. وانتهى بها الأمر إلى بيع جميع أملاكها ولم تحتفظ بغير سند ملكية لأراضي بقيت مرهونة لفترة طويلة، ثم ذهبت لتعيش مع ابنتها، عندما سمعت أمي بالإصلاح الزراعي، أسرعت جدتي وأفرغت جميع الصناديق ووجدت ورقة مدعوكة ومصفرة فأحرقتها في المدفأة.

كانت طباع جدتي سيئة جدا، عندما تتحدث إلى الناس تبدو كأنها تتشاجر معهم وما كانت على وفاق مع أمي. وأعلنت عن رغبتها أكثر من مرة أنها إذا أرادت العودة إلى مسقط رأسها، كانت تأمل مني، أنا حفيدها، أن أكبر وأنجح الأول في امتحاناتي وأعود في سيارتي وأعتني بها. لكنها لم تضع في حسبانها أن حفيدها ليس من النوع المؤهل ليكون ذا منصب هام في العاصمة وأنه، فيما بعد، سيتم إرساله إلى الريف ليعتني بالأرض ويخضع للتأهيل الصحي. جاءت وفاتها في هذه الفترة، في إحدى دور العجزة. أثناء سنوات الاضطرابات، انقطعت أخبارها عنا، ذهب أخي الثاني يبحث عنها بحجة 'نشر أفكار الثورة'، وهكذا يستطيع الاستفادة من السفر مجانا في المواصلات. سأل عنها في عدد من دور العجزة ولم يفلح في العثور عليها. وعندما سألوه أخيرا: هل تبحث عن مأوى العجزة أم عن دار

المتقاعدين؟' فأجاب:'ما الفرق؟'. فأجابوه بمنتهى الصراحة: 'إن المسنين الذين يعيشون في دور المتقاعدين هم أشخاص لا مشاكل سياسية في حياتهم، وماضيهم واضح تماما، ولا نضع في مأوى العجزة غير المسنين ذوي المشاكل والذين لهم ماض غير واضح'. إذاً، كان عليه الاتصال بمأوى العجزة. وهنا سألوه بنبرة رصينة جدا:'ماهي قرابتك بها؟' ولماذا تسأل عن أخبارها؟'. في هذه الفترة، كان قد أنهى دراسته ويبحث عن عمل، وكان يخشى أن تسحب منه هويته، فأغلق السماعة بسرعة. تتالت السنون، وصارت المدارس مراكز للتدريب العسكري، ووضعت الدوائر والمصانع تحت رقابة الجيش : تعلم الناس كيف يقومون بنوبات الحراسة. بعد فترة النقاهة، عادت عمتي إلى المدينة. وأرسلت لي رسالة تعلمني بوفاة جدتي منذ عامين، كما قيل لها.

ثم استعلمت عن وجود ذلك المأوى. على مسافة عشرة كيلومترات في ضواحي المدينة، وفي مكان يسمى 'قرية أزهار الدراق'، وصلت خلال ساعة على دراجتي تحت أشعة الشمس المحرقة، وجدت بناء عليه لوحة تدل على أنه مأوى للعجزة، وهو موجود بجانب مصنع للخشب لا تنبت فيه أشجار الدراقن. داخل البناء توجد أبنية ناقصة من طابق واحد، ولم أر فيها أي عجوز. هل لزموا غرفهم خشية الحرارة؟.

وصلت أمام مكتب بابه مفتوح على مصراعيه، فيه موظف بلباس العمل، يضع قدميه على الطاولة ويجلس على كرسي دوار كان يقرأ باهتمام آخر الأخبار. سألته إذا كان هذا المبنى مأوى للعجزة. فوضع الصحيفة جانبا، وقال :

- وهذا أيضا تبدل، حاليا لا يوجد مأوى للعجزة، وصارت تسميتها دور العناية بالمسنين.

لم أسأله ما إذا كانت 'دور المتقاعدين' موجودة، رجوته فقط أن يبحث في السجلات إذا ورد فيها اسم جدتي المتوفاة. لم يثر أي موضوع ولم يسألني عن أوراقي، بل تناول سجل الوفيات وتصفحه سنة بعد سنة. توقف عند إحدى الصفحات وسألني عن اسم المتوفاة.

- هل هي امرأة؟
- أجل !

فرفع السجل أمام ناظري كي أتحقق بنفسي من الاسم، فكان اسم جدتي فعلا، وكان العمر المسجل قريب جدا إلى عمرها.

- تنهد قائلا: لقد مضى عشر سنوات على وفاتها
- أجبت: بلى، ثم أضفت: هل كنت تعمل هنا دائما؟

أجاب بإشارة من رأسه. فسألته إذا كان يتذكر المتوفاة

- دعني أفكر. أسند رأسه على مسند الكرسي. هل هي عجوز، قصيرة ونحيلة؟

أبديت وجهة نظري. لكنني تذكرت صور العائلة القديمة، لقد كانت تبدو فيها في صحة جيدة. لقد كانت صورا قديمة جدا بالتأكيد، لأنني في ذلك الوقت كنت ما أزال ألعب في البلبل. وبعد ذلك التاريخ، لم تلتقط صورا. ربما تغير شكل جسمها بعد عشرات السنين، ولا يبقى ثابتا غير هيكل الجسم. ما كانت جدتي طويلة القامة. وبالتالي لن تكن طويلة جدا.

- كانت دائمة التذمر، أليس كذلك.؟

نادرا ما نجد عجائز لا يتذمّرن، لكن المهم في الأمر هو تطابق الاسم.

- هل قالوا لك إن لديها حفيدين؟
- وهل أنت واحد منهما؟
- أجل.
- قال وهو يهز رأسه: يبدو أنها حدثتني عنكما !
- هل كانت تقول إنه سيحضر أحد للسؤال عنها؟
- أجل، تماما.
- لكن، في تلك الفترة كنت لا أزال في الريف، وأردف قائلا:
- أثناء الثورة الفكرية، وأضاف:
- أوه، لقد كانت وفاتها طبيعية

لم أسأله ماذا يعني بوفاة غير طبيعية. فقط سألته عن مكان قبرها.

- لقد حرق جثمانها. فنحن نقوم دائما بحرق جثمان المتوفى، ليس فقط العجائز، بل الجميع.
- عدد الناس كبير جدا في المدن. ولا نجد مكانا لدفنهم.

قاطعته في الكلام وسألته:

- هل احتفظتم برمادها؟
- لقد تخلصنا منه. فهنا نتخلص من رماد العجائز عندما لاتسأل عائلتهم عنهم.
- هل توجد حفرة مشتركة؟
- هم... وفكر بطريقة الإجابة

إن اللوم يقع علي، أنا حفيدها، فلم أتذكر أهلي، وهو ليس مذنبا.

ولا يسعني سوى تقديم الشكر له .. خرجت من المأوى وامتطيت دراجتي وأنا أفكر بالحفرة المشتركة، قد لا يكون لها أي قيمة أثرية، أما أنا، فإنني أعتقد أنني أكرمت ذكرى جدتي المتوفاة، التي اشترت لي يوما لعبة البلبل.

أنت لا تكف عن البحث عن طفولتك، تحول الأمر عندك إلى مرض. هل يجب أن تجد في جميع الأماكن التي تعيش فيها بيتك والساحة والشارع الذي يداعب ذكرياتك.

أنت تتذكر مسكنك في أحد طوابق بناء منفرد تمتد أمامه أرض تعج بالأنقاض. وتجهل إن كانت تلك الأنقاض بقايا حريق أو بقايا قصف، بين الجدران المهدمة تنبت الذرة البيضاء، وأحيانا تندس أسراب الصرصار تحت القرميد المتكسر، أحد أنواعها ذو لون أسمر يصدر صوتا متميزا في صريره عندما يحرك جناحية السوداوين اللامعين. النوع الآخر ذو لون أصفر أكبر حجما، يحب الشجار، له أجنحة متميزة. لقد أمضيت ساعات رائعة عند ذلك المدرج المغطى بحصى الأنقاض.

تتذكر أنك سكنت أيضا داخل باحة عميقة لها باب كبير أسود وسميك، كنت تمشي على أصابع قدميك كي تبلغ مطرقة الباب. عندما ينفتح ذلك الباب الثقيل، كنت تحاذي الجدار الفاصل حيث يوجد زوج من أحصنة ذات قرن منحوتة من الحجر، كان القرن لامعا ولطالما داعبه الأطفال بلمساتهم عندما يمرون بجانبه. خلف الجدار الفاصل، تظهر باحة داخلية رطبة اكتست إحدى زواياها بالطحالب. في هذه الزاوية كانت تسكب المياه الوسخة وكان المكان لزجا. حينها كنت تربي زوجا من الأرانب، أحدهما مات بسبب عضة من ابن عرس في قفصه الحديدي، والآخر اختفى بعد فترة قصيرة. بعد أيام قليلة، وجدته في الباحة الخلفية وأنت تلعب، كان وسخا فقد غرق في سطل البول، لقد تأملته لفترة طويلة، ومنذ ذلك اليوم تذكر أنك هجرت اللعب في تلك الباحة.

مازلت تذكر أنك سكنت في باحة بابها على شكل دائري يشبه القمر، كانت فيها بعض نبتات الأقحوان، صفراء بلون ذهبي ونبتات عرف الديك بلون خمري. ربما بسبب تلك الأزهار كانت أشعة الشمس تبدو أكثر سطوعا في الباحة. وفي الداخل توجد بوابة صغيرة تؤدي إلى درج من الحجر كانت تجري في أسفله مياه البحيرة. في ليلة منتصف الخريف، كان الأشخاص الكبار يفتحون هذه البوابة ويضعون طاولة عليها أنواع الكاتو والبطيخ والفواكه. كانوا يتأملون البدر في مياه البحيرة ويقضمون بذور البطيخ ويشربون الشاي. في البعيد كانت المياه الداكنة تتصل بالسماء حيث

يلمع الكوكب المستدير. كان هناك قمر آخر يلمع في المياه كانت أبعاده متماوجة، ذات مساء، أتيت وحدك إلى هذا المكان وسحبت عارضة البوابة. سحرتك مياه البحيرة، الداكنة والهادئة. كانت في غاية الروعة، أثرت في أعماقك، لا يستطيع احتمالها طفل مثلك، فهربت، وبعد هذه المرة، كلما مررت بجانب تلك البوابة، كنت تحرص على عدم ملامسة عارضة البوابة.

تذكر أيضا أنك سكنت في منزل آخر، له حديقة مزهرة، وكل ما تذكره فيه هو عندما كنت تلعب الدحل في غرفة مرصوفة بمربعات مزخرفة موجودة في القبو، كانت أمك تنهاك عن اللعب في الحديقة. في تلك الفترة كنت تكابد المرض وتقضي معظم أوقاتك متمددا. لم يكن باستطاعتك سوى دحرجة الدحل من مختلف الألوان داخل غرفتك. وعندما تغيب أمك كنت تنهض من سريرك وتنظر خارجا، تتسلق إلى النافذة، فترى القوارب بألوانها المختلفة وهي تطقطق بتأثير الهواء على الرصيف.

لقد عدت إلى هذه الأماكن القديمة، لكنك لا تجد شيئا فيها. فقد غطت الأنقاض الساحة، زال كل شيء، البناء الصغير والباب الأسود الكبير والثقيل بمطرقته الحديدية، والشارع الذي كان يمر أمامه، حتى الباحة بجدارها الفاصل زالت. ربما حل محلها طريق أسود تسير عليه شاحنات ذات زمامير حادة، محملة بالبضائع يتصاعد الغبار معها وأعواد البوظة الملقاة من نوافذها المخلعة، حملت على أسقفها الحقائب وحزم البضائع محشوة بكل أنواع المنتوجات المحلية مثل الألبسة النسيجية والمواد الاستهلاكية وبضائع متنوعة. كانت الأرض مغطاة ببذور البطيخ وقشور قصب السكر يبصقها الركاب من النوافذ. لقد زالت الطحالب والباب الذي يشبه البدر في استدارته، والأقحوان الأصفر الذهبي وعرف الديك الخمري، زالت الوحدة والعمق المخيف، وبقي فقط سطر من الأبنية البدائية بأسقف قرميدية حمراء على طول ممر ضيق، ويوجد أمام كل باب فيه من الأبنية البدائية بأسقف قرميدية حمراء على طول ممر ضيق، ويجد أمام كل باب فيه مدفأة تعمل على الفحم. عند حافة النهر، تصمت طقطقة القوارب. لم يعد يوجد غير المخازن والمخازن والمخازن ثم مستودع، فمخازن، فمستودع، فمخازن، فأكياس إسمنت بورق مقوى، وأكياس أسمدة بلاستيكية سميكة، وصراخ أو أغنيات تصم الآذان تلفظها مكبرات الصوت نقلا عن المذياع.

وهكذا تشردت، من مدينة إلى أخرى، من منطقة إلى أخرى، من مقاطعة إلى مقاطعة، من محافظة إلى محافظة، إلى مقاطعة أخرى في منطقة أخرى، وهكذا

دواليك، وإلى ما لا نهاية.

وذات يوم، فوجئت بوجود بيت، بابه مفتوح على مصراعيه، في إحدى الشوارع الصغيرة التي أهملها التنظيم أو لم يدخلها في برنامجه أو أنه ما أراد إدخالها به أو أنه يستحيل إدراجها فيه. توقفت عند عتبة الباب وأخذت تتأمل الفناء الداخلي حيث يجفف الغسيل على قضبان الخيزران. أحسست أن مجرد دخولك إليه سيعيدك إلى طفولتك ويحيي ذكرياتك الغامضة.

كما أنك أدركت أن تلك الأماكن التي مررت عليها ستساعدك فعلا في العثور على آثار طفولتك: المستنقع تغطيه طحالب عدسية، منازل القرية الصغيرة، النوافذ المطلة على الطريق، الجسر الحجري تمر تحته القوارب المسطحة، الدرجات المؤدية إلى الباب الخلفي في المنازل الموجودة على حافة النهر، والبئر الصدىء المهمل ، كل ذلك يمتزج بذكريات طفولتك ويثير فيك حنينا خالدا، حتى لو لم يكن هو المكان الذي عشت فيه.

إن هذه البيوتات القديمة ذات الآجر الأخضر عند حافة النهر، مثلا، وتلك الطاولات الصغيرة المربعة التي وضعت أمام البيوت لتناول الشاي والتمتع برطوبة الهواء، تحرك في داخلك الحنين إلى الوطن. وعلى سبيل المثال أيضا، قبر الشاعر 'تانغ TANG'، 'لوغيمينغ LU GUIMENG'، ربما يكون كومة تراب فوق قبره تتضمن آثاره الشخصية، هذا القبر موجود في باحة خلف مدرسة قديمة يغطيها اللبلاب والعنب البري، وهذا لم تسمع به في حياتك. إلى جانبها تمتد حقول الأرز وتنمو شجرة قديمة. الشمس تميل إلى الغروب وحزنك يكبر. لا داعي للحديث عن تلك الباحات وبرج سلالة 'يي Yi'، تلك الباحات مغلقة ومهجورة ومعزولة، لا تراها حتى في أحلامك، وتلك الأبنية الخشبية القائمة على أوتاد في ضيعة 'مياو miao' تراها من بعيد على سفح جبل يذكرك أيضا بشيء ما. ربما يجول في خاطرك ما إذا كانت لك حياة سابقة مازلت تحتفظ ببعض بقاياها، أو قد يكون ذلك نهاية حياة مستقبلية.

إن هذه الذكريات تشبه الكحول، فهي تخضع لعملية التقطير وتسكرك برائحتها.

في النهاية، ماهي ذكريات الطفولة؟ كيف نؤكد وجودها؟ أولى بنا أن نحتفظ بها في داخلنا، فماذا يفيدنا أن نتحقق منها؟

فجأة، تدرك أن فترة شبابك التي تحاول عبثا البحث عن آثارها لم تكن

بالضرورة في مكان معين. أليس الأمر كذلك بالنسبة لما يسمى بمسقط الرأس؟ إن ما يثير فيك الحنين إلى الوطن هو تلك الغيوم الزرقاء العائمة فوق السقوف القرميدية في الضيعة الصغيرة، وقرقعة النار التي تشدو في أفران الخشب، والحشرات الشفافة الصفراء ذات الأقدام الطويلة والرفيعة، ومواقد النار في بيوت الجبال أو الجرار المعلقة على الجدران وقد أغلقت بالتراب. هذا هو مسقط رأسك الذي تراه في أحلامك.

على الرغم من أنك تعيش في المدينة وكبرت فيها وقضيت كل حياتك تقريبا فيها، لا تتمكن دائما من اعتبار المدينة مسقط رأسك. ربما لأن المدن عملاقة، بينما مجرد زاوية أو غرفة أو لحظة قد توقظ فيك ذكرى ما. وفي هذه الذكريات فقط تجد مأمنا لك دون جراح. في نهاية الأمر، إنك لا تساوي بالنسبة لهذا العالم الفسيح أكثر من قطرة ماء في بحر، ضعيفة وصغيرة.

يجب أن تعلم أن ما تبحث عنه في هذه الأرض هو نادر الوجود، لقد بالغت في طموحك. لأنك في النهاية لن تحصل سوى على ذكريات غامضة لا تميز فيها، مثل أحلامك. فالذكريات لا تستخدم الكلمات أبدا. وإذا أردت الحديث عنها، لا يبقى منها غير جمل مرصوفة، وبعض الأجزاء تمر عبر غربال اللغة.

وصلت إلى مدينة صاخبة، تغمرها الأضواء. عدت إلى الطرق المعبدة السوداء والسيارات المتصلة ببعضها، وأضواء إشارات المرور، وعدد لا يحصى من الدراجات تجري مثل سيل جارف، والقمصان القصيرة، وشعارات المحلات المضاءة، والإعلانات التي تعرض الحسناوات.

كنت أبحث عن فندق ملائم قريب من المحطة كي أستحم وآكل وأريح جسمي وأنام حتى أستريح من تعب عشرة أيام أو أكثر. جبت عدة شوارع، ثم رضخت لما هو موجود: جميع الغرف المنفردة كانت مشغولة، وكأن الناس قد أثروا بعد تجارة رابحة. وبما أنني كنت عازماً على المصاريف كي لا أنام في ذلك المساء في مهجع تفوح منه رائحة التعرق أو في سرير إضافي وضع في الممرات سأضطر لمغادرته عند بزوغ الفجر، فضلت السهر في بهو الفندق بانتظار أحد النزلاء الذين سيسافرون ليلا ويتركون غرفهم. وأنا في حيرتي هذه، تذكرت أني أحمل رقم هاتف لصديق أحد أصدقائي القدامى في بكين. فقد أوصاني ألا أتردد في زيارته إذا وصلت إلى هذه المدينة. حاولت الاتصال ورفعت سماعة الهاتف، ورد صوت بنبرة غير مهذبة يطلب مني الانتظار. على السماعة سمعت ضجة غريبة وانتظرت وقتا طويلا، ثم أغلق الهاتف. لطالما كنت أخشى الاتصالات الهاتفية، لأنني، أولا، لا أملك هاتفا شخصيا، وثانيا، أعلم أن بعض الناس من طبقة معينة يطلبون الرد بعدم وجودهم ويغلقون السماعة فورا عندما لا يريدون التحدث مع متصل غريب. معظم أصدقائي لا يمتلكون هواتف شخصية، ربما يكون هذا الصديق لصديقي موظفا كبيرا. لست من الشخصيات الكبيرة، فأنا لا أكره المجتمع إلى هذا الحد، لكنني أرى الهاتف وسيلة لاتسمح بنقل الأحاسيس ولا يجب استخدامه إلا بمثابة آخر وسيلة نلجأ إليها. السماعة تصر دائما. ولو أغلقت السماعة، يجب علي الانتظار في بهو الفندق، وبذلك أتابع الاستماع، على الأقل هذا يسليني قليلا.

أخيرا، رد علي صوت لطيف، سألني عن اسمي وفورا صاح يسألني عن مكان وجودي، ليحضر فورا لاصطحابي! هذا لطف من صديق صديقي، فهو لم يرني قط، لكنه يتصرف وكأنه يعرفني منذ زمن بعيد. تخليت عن فكرة النزول بالفندق وأخذت حقائبي وذهبت بعد أن سألته عن الباص الذي يوصلني إلى بيته.

ترددت في طرق الباب قليلا، فتح لي صاحب البيت وأخذ حقائبي، لم يصافحني

كما تقتضي الأصول، بل وضع يده على كتفي ودعاني للدخول.

يبدو المنزل مريحا، فيه غرفتان تطلان على صالون المدخل، فرشها أنيق، فيها أرائك جلدية وطاولة شاي عليها صينية وكؤوس، توجد تحف خزفية قديمة وخزانة من الطراز الغربي. علقت على الجدران صحون خزفية مزينة، طليت الأرضية بلون أسمر أحمر شديد اللمعان بحيث لم أجرؤ على وضع قدمي. تأملت حذائي المتسخ، ثم نظرت إلى نفسي في المرآة، شعري أشعث، ووجهي أسود بسبب الوسخ. لم أذهب إلى الحلاق منذ شهور، لم أعرف نفسي، اعتراني خجل فظيع. قلت له:

- لقد كنت في الجبال، وتبدو علي هيئة أهل البرية.

أجاب صاحب البيت: لولا هذه المناسبة، لما تسنى لنا أن نتشرف بلقائك. صافحتني زوجته وذهبت فورا لتحضير الشاي. أما حفيدتهم التي تبلغ حوالي عشر سنوات من العمر ألقت علي التحية وهي تستند إلى الباب وتضحك وهي تتأملني.

أخبرني صاحب البيت أن صديقه في بكين بعث إليه رسالة يخبره فيها عن رحلتي الطويلة وأنه ينتظر وصولي منذ وقت طويل. وأخذ يحدثني عن آخر الأخبار الفنية والأدبية والسياسية: فلان ارتقى، وفلان سقط، وفلان ألقى خطابا، وآخر أكد على المبادئ الأساسية، وقد ورد اسمي في أحد المقالات، حيث كتب فيه أنه على الرغم من بعض الأعمال السيئة لك لا يجب أن ننهال على المؤلف بضربات العصا. أوضحت له أن هذه المقالات لاتهمني أبدا، وأن ما أحتاجه هو أن أعيش، وعلى سبيل المثال، ما أحتاجه الآن هو حمام ساخن. انفجرت زوجته ضاحكة وأسرعت لتسخين الماء.

بعد الحمام، أوصلني صاحب البيت إلى غرفة ابنته، وهي مكتبة أيضا. وطلب مني أن أرتاح قليلا وسيناديني عند إعداد الطعام. كانت زوجته منهمكة في المطبخ.

استلقيت على سرير ابنته، كان سريرا نظيفا جدا، وأرحت رأسي على وسادة مطرزة برسمة هرة، لقد كنت محظوظاً عندما اتصلت بهم. فالهاتف قد يفيد أحيانا، سألته إذا كان موظفا كبيرا حتى سمحوا له بخط هاتف، أجاب أن هناك هاتفاً عمومياً في الطابق الأرضي. جاء أحد الموظفين يسأل عنه. فهناك بعض أصدقائه الشباب يرغبون حتما في مقابلتي. في الصيف ينام الناس هنا في وقت متأخر. بعضهم يسكن في الأبنية المجاورة، وبعضهم يمكن الاتصال بهم بالهاتف عندما أرغب في لقائهم، وافقت فورا. سمعت صوت باب ينفتح ووقع أقدام تصعد الدرج وأصوات في غرفة الجلوس. إنهم يتحدثون عنك، عن أعمالك، عن معاناتك، ربما تكون في نظرهم فارس الحقوق المهضومة، فأنت تعارض التفاوت الاجتماعي،

وتقول أنك لا تستطيع مواجهة المجتمع، تطرح فكرة أن التمييز بين ماهو معقول وماهو غير معقول لا يقتصر فقط على كبار الموظفين، فكلما أمعنا النظر في هذا العالم وفي البشرية نفسها، نراها غريبة، ما كنت تعتقد بوجود أصدقاء هكذا، يهتمون بك، ويشعرونك أنه يوجد في الحياة سبب لجعلها جديرة بأن تعاش، فهم يتناقشون اليوم كيف سيذهبون إذا لاصطحاب فتياتهم إلى الرقص، لم لا؟ فأنت من قلت ذلك. إنهن فتيات لعوبات، فتانات كامنات، طالبات جديدات في الجامعة، يقررن وهن يتشاجرن الذهاب لالتقاط الفطر في غابة الصنوبر، إنها فكرة ممتازة بالتأكيد، ألا تخشى التسمم بها؟ ألا تستطيع تذوقها أولا؟ فعندما تتذوقها أنت أولا، سيأكل منها جميع الناس، من قال عنك إنك بطل؟ فالأبطال يضحون بأنفسهم في سبيل الفتيات أما هم، هم لن يتنازلوا أبدا، فأنت تقول إن الموت في سبيل فتاة هو المثل الأعلى، وهن يقلن إنهن لسن بهذه الدرجة من القساوة، إنهن لسن مثل 'فوزيتان' الجديدة 'Wu Zetian'، وهي 'جيانغ كينغ'، ولسن مثل الامبراطورة 'سي إكسي 'Ci Xi'.(١٢)

إنهن غير آبهات بمصير هؤلاء العجائز الساحرات، سواء كن أمواتاً أم أحياء، هن يردن الاحتفاظ بك كي تشعل النار لشواء الفطر، وهن يتحدثن، يبحثن عن حوض، يلتقطن الحطب، وأنت تستلقي على بطنك لتنفخ على الأوراق وأعواد الصنوبر الجافة، وتحمر عيناك من الدخان، ويتصاعد اللهب، فيصرخون جميعهم ويرقصون حول النار، أحدهم يعزف على الغيتار، وأنت تتدحرج فوق العشب، وجميعهم يصفقون لك ويهتفون لك. أحد الفتية يعترض فتاة ويطلب منها أن تستدير، فتجيبه إنها تريد أن ترقص أي رقصة كانت، الجميع يستطيع الرقص، وما نريد رؤيته هو الإبداع في الرقص، تقول إنها ترتدي تنورة، لايهم، ما أثر ذلك؟ فنحن لانريد رؤية التنورة، بل روعة الجسد في أدائه. أحاط بها الشباب ولم يتركوها بحالها، وصفها أحدهم بأنها أحرزت بطولة ! أخذت الفتيات يدغدغنها ويدحرجنها على العشب ولم يتركنها تلتقط أنفاسها، تقول إنك تعلمت السحر في الجبال وإنك قادر على موت الأحياء وإحياء الأموات، بينما يقولون إنك تتفاخر بقدرتك، وإذا لم تصدقوني، هل يحب أحدكم أن يجرب؟ فيشيرون إليها، تغلق الفتاة الممددة على العشب عينيها وتتظاهر بالموت، تقطع غصن صفصاف وتهزه، وتدور بياض عينيك، تخرج من بين أسنانك بعض التمائم، تدور حولها لطرد الشياطين من الجهات

---

(١٢) عاشت الإمبراطورة فوزيتان بين ٦٢٤ و ٧٠٥ م. أساءت السلطة في عام ٦٨٤. تسلمت 'سي أكسي' السلطة من ١٨٦١ حتى ١٩٠٨، 'جيانغ كينغ' كانت آخر زوجة عند ماوتسي تونغ Mao Zedong.

الأربع، يتحولق الناس مقرفصين، ويشبكون أيديهم ويصلون، تفارقها الفتيات فيصرخن عليها كي تنهض وتفتح عينيها وترى جميع الرجال الذين يتغزلون بها ! تطلق صيحة قوية وتدخل في عراك وجذعك عار، تشد لسانك، ترقصي وأنت تعوي، ويبدأ الجميع بالدوران مثل الشياطين حولها ويرفعونها قربانا للآلهة ! قربانا للآلهة! ألقوها في النهر هدية لجنية الماء! هنا تفقد صبرها وتصرخ "النجدة"!

صرخة تصم الأذان. "النجدة"! تقول إنها سترقص، سترقص كما تريدون، لكن ارحموها ولا تلقوها في النهر، وكي يبرهن الشباب على ذلك. وسعوا الحلقة حولها وأيديهم مرفوعة، دون حراك، حتى تنهك وتموت رعبا حتى الجنون! تعترض الفتيات على ذلك ويمنعهم من ذلك، فيتدحرج الجميع على العشب ويضحكون حتى تتفتق خاصراتهم، هيا، هيا، احكِ لنا، عن ماذا أحكي؟ حدثنا عما رأيته خلال رحلتك، قلت : إنك ذاهب للبحث عن الرجل البري، حسنا، هل رأيته حقا؟ قلت : إنك شاهدت حيوان الباندا، ما الغريب في ذلك؟ فهي موجودة بكثرة في حدائق الحيوانات، قلت: إن الشخص الذي رأيته كان يدخل تحت الخيمة بحثا عن الطعام، إنه أدخل رأسه تحت أغطيتك، هذا كذب، هذا كذب ! قلت : إنك حقا أردت الذهاب إلى "شينونجيا Shennongjia" لأن جميع الناس قالوا إن الرجل البري يعيش فيها، كنت تريد أسر واحد منهم لتعليمه الكلام دون أن ترى فيه طفلا، قلت إنك أنت بنفسك لا تستطيع اعتبار نفسك طفلاً، كنت تريد فقط العودة إلى طفولتك، وإنك تبحث عن أي أثر لها، بينما هن يقلن أيضا إن الطفولة أفضل، لدينا ذكريات جميلة عنها، لكن ليس أنا، ارتفع أحد الأصوات قائلا: لم يكن لطفولتي أي معنى، أفضل أن أعيش الحاضر وأرى النجوم فوق رأسي أو أناقش أعمالك، ارتفع صوت أنثى قائلا: هذه المرأة، لقد نشرت جميع كتاباتك، والحقيقة أن ما لم ينشر لم تكتبه بعد، أنت لست صادقاً، وتقول إنك صادق جدا، لذلك لا تريد ذلك إطلاقا، أنت لا تعرف طعم السعادة أبدا. صوت آخر يتنهد! للا للا للا للا، انتباه، سأغني ! أنت الوحيدة الجميلة هنا، أيضا أنت الوحيدة العدائية إلى هذا الحد، أنتما تتصارعان ومن تربح ستكون الأجمل، لكنهن لايردن أن تكون أنت الحكم، تقول إن الجميع يريد محاكمتك، من جعلك بهذه الشهرة؟ اعترفت إنك قلما فكرت بها وما خطر لك أنك ستواجه بسببها هذه الصعوبات. ضحك الجميع، قال أحدهم : ما رأيكم أن نعبر النهر؟ نمسك بأيادي بعضنا وندخل المغارة ! صرخ الشخص الموجود في المقدمة صرخة غريبة، لقد اصطدم بشيء، لكننا كنا نصطدم بمؤخرة الشخص

وتقول أنك لا تستطيع مواجهة المجتمع، تطرح فكرة أن التمييز بين ماهو معقول وماهو غير معقول لا يقتصر فقط على كبار الموظفين، فكلما أمعنا النظر في هذا العالم وفي البشرية نفسها، نراها غريبة، ما كنت تعتقد بوجود أصدقاء هكذا، يهتمون بك، ويشعرونك أنه يوجد في الحياة سبب لجعلها جديرة بأن تعاش، فهم يتناقشون اليوم كيف سيذهبون إذا لاصطحاب فتياتهم إلى الرقص، لم لا؟ فأنت من قلت ذلك. إنهن فتيات لعوبات، فنانات كامنات، طالبات جديدات في الجامعة، يقررن وهن يتشاجرن الذهاب لالتقاط الفطر في غابة الصنوبر، إنها فكرة ممتازة بالتأكيد، ألا تخشى التسمم بها؟ ألا تستطيع تذوقها أولا؟ فعندما تتذوقها أنت أولا، سيأكل منها جميع الناس، من قال عنك إنك بطل؟ فالأبطال يضحون بأنفسهم في سبيل الفتياة أما هم، هم لن يتنازلوا أبدا، فأنت تقول إن الموت في سبيل فتاة هو المثل الأعلى، وهن يقلن إنهن لسن بهذه الدرجة من القساوة، إنهن لسن مثل 'فوزيتان' الجديدة 'Wu Zetian'، وهي 'جيانغ كينغ'، ولسن مثل الامبراطورة 'سي إكسي' 'Ci Xi'.[١٢]

إنهن غير آبهات بمصير هؤلاء العجائز الساحرات، سواء كن أمواتاً أم أحياء، هن يردن الاحتفاظ بك كي تشعل النار لشواء الفطر، وهن يتحدثن، يبحثن عن حوض، يلتقطن الحطب، وأنت تستلقي على بطنك لتنفخ على الأوراق وأعواد الصنوبر الجافة، وتحمر عيناك من الدخان، ويتصاعد اللهب، فيصرخون جميعهم ويرقصون حول النار، أحدهم يعزف على الغيتار، وأنت تتدحرج فوق العشب، وجميعهم يصفقون لك ويهتفون لك. أحد الفتية يعترض فتاة ويطلب منها أن تستدير، فتجيبه إنها تريد أن ترقص أي رقصة كانت، الجميع يستطيع الرقص، وما نريد رؤيته هو الإبداع في الرقص، تقول إنها ترتدي تنورة، لايهم، ما أثر ذلك؟ فنحن لانريد رؤية التنورة، بل روعة الجسد في أدائه. أحاط بها الشباب ولم يتركوها بحالها. وصفها أحدهم بأنها أحرزت بطولة ! أخذت الفتيات يدغدغنها ويدحرجنها على العشب ولم يتركنها تلتقط أنفاسها، تقول إنك تعلمت السحر في الجبال وإنك قادر على موت الأحياء وإحياء الأموات، بينما يقولون إنك تتفاخر بقدرتك، وإذا لم تصدقوني، هل يحب أحدكم أن يجرب؟ فيشيرون إليها، تغلق الفتاة الممددة على العشب عينيها وتتظاهر بالموت، تقطع غصن صفصاف وتهزه، وتدور

---

(١٢) عاشت الإمبراطورة فوزيتان بين ٦٢٤ و ٧٠٥ م. أساءت السلطة في عام ٦٨٤. تسلمت 'سي أكسي' السلطة من ١٨٦١ حتى ١٩٠٨، 'جيانغ كينغ' كانت آخر زوجة عند ماوتسي تونغ Mao Zedong.

بياض عينيك، تخرج من بين أسنانك بعض التمائم، تدور حولها لطرد الشياطين من الجهات الأربع، يتحولق الناس مقرفصين، ويشبكون أيديهم ويصلون، تفارقها الفتيات فيصرخن عليها كي تنهض وتفتح عينيها وترى جميع الرجال الذين يتغزلون بها ! تطلق صيحة قوية وتدخل في عراك وجذعك عار، تشد لسانك، ترقصي وأنت تعوي، ويبدأ الجميع بالدوران مثل الشياطين حولها ويرفعونها قربانا للآلهة ! قربانا للآلهة! ألقوها في النهر هدية لجنية الماء! هنا تفقد صبرها وتصرخ "النجدة"!

صرخة تصم الأذان. "النجدة"! تقول إنها سترقص، سترقص كما تريدون، لكن ارحموها ولا تلقوها في النهر، وكي يبرهن الشباب على ذلك. وسعوا الحلقة حولها وأيديهم مرفوعة، دون حراك، حتى تنهك وتموت رعبا حتى الجنون! تعترض الفتيات على ذلك ويمنعهم من ذلك، فيتدحرج الجميع على العشب ويضحكون حتى تتفتق خاصراتهم، هيا، هيا، احكِ لنا، عن ماذا أحكي؟ حدثنا عما رأيته خلال رحلتك، قلت : إنك ذاهب للبحث عن الرجل البري، حسنا، هل رأيته حقا؟ قلت : إنك شاهدت حيوان الباندا، ما الغريب في ذلك؟ فهي موجودة بكثرة في حدائق الحيوانات، قلت: إن الشخص الذي رأيته كان يدخل تحت الخيمة بحثا عن الطعام، إنه أدخل رأسه تحت أغطيتك، هذا كذب، هذا كذب ! قلت : إنك حقا أردت الذهاب إلى "شينونجيا Shennongjia" لأن جميع الناس قالوا إن الرجل البري يعيش فيها، كنت تريد أسر واحد منهم لتعليمه الكلام دون أن ترى فيه طفلا، قلت إنك أنت بنفسك لا تستطيع اعتبار نفسك طفلاً، كنت تريد فقط العودة إلى طفولتك، وإنك تبحث عن أي أثر لها، بينما هن يقلن أيضا إن الطفولة أفضل، لدينا ذكريات جميلة عنها، لكن ليس أنا، ارتفع أحد الأصوات قائلا: لم يكن لطفولتي أي معنى، أفضل أن أعيش الحاضر وأرى النجوم فوق رأسي أو أناقش أعمالك، ارتفع صوت أنثى قائلا: هذه المرأة، لقد نشرت جميع كتاباتك، والحقيقة أن ما لم ينشر لم تكتبه بعد، أنت لست صادقاً، وتقول إنك صادق جدا، لذلك لا تريد ذلك إطلاقا، أنت لا تعرف طعم السعادة أبدا. صوت آخر يتنهد! للا للا للا للا، انتباه، سأغني ! أنت الوحيدة الجميلة هنا، أيضا أنت الوحيدة العدائية إلى هذا الحد، أنتما تتصارعان ومن تربح ستكون الأجمل، لكنهن لايردن أن تكون أنت الحكم، تقول إن الجميع يريد محاكمتك، من جعلك بهذه الشهرة؟ اعترفت إنك قلما فكرت بها وما خطر لك أنك ستواجه بسببها هذه الصعوبات. ضحك الجميع، قال أحدهم : ما رأيكم أن نعبر النهر؟ نمسك بأيادي بعضنا وندخل المغارة ! صرخ الشخص الموجود

في المقدمة صرخة غريبة، لقد اصطدم بشيء، لكننا كنا نصطدم بمؤخرة الشخص الذي أمامنا، وأفضل شيء نقوم به هو العناق داخل هذه المغارة ! لا أحد يرى أحدا، ولن نعرف من نعانق، ليست اللعبة مغرية، هيا نسبح ونقفز في الماء، بشرط ألا نؤذي بعضنا! من يبدأ؟

من يعرف يبدأ ! ما رأيكم لو نغني جميعنا؟ هيا نغني أغنية 'النخيل'، لا، دائما هذه الأغنية؟. لنعلب لعبة تمرير التين من يمرر من؟ أنت الوحيد الذي تحب بلدك، الوحيد الذي تزعج الآخرين، الوحيد الذي يضايقني، لا تتشاجرن، مفهوم؟ أصدقائي الأجلاء... سأغرق نفسي ! من هو المزعج مثلي؟ سألتقط الفطور في مياه النهر السوداء.. ماذا؟ ماذا؟ لايوجد شيء، لاشيء نلتقطه، لن نلتقط غير الحزن، لنلعب بالورق، هل توافقون؟ لا، هل تحتاج إلى تفكير كثير؟ حسنا، لنقترع على السلحفاة السوداء، من حصل عليها؟ أنا سحبت الملك! إنني حقا محظوظ، صاحب الحظ لايتعب ولا يشقى، إنه القدر، أليس كذلك! هل تؤمن بالقدر؟ القدر يسخر من الرجال، فليذهب إلى الشيطان! لاتذكر الشيطان، ينتابني الخوف عند الحديث عن الشياطين ليلا، لقد سرت في نهر عميق، ألم تذهب إلى 'فينغ دو Fengdu' مدينة الشياطين؟ حدثنا عنها، هل هي جميلة؟ وضعوا عليها حاليا حكمتين متوازيتين للقضاء على الخرافات، 'ما تؤمن به موجود، وما لا تؤمن به غير موجود، ما هاتان الحكمتان؟ ألا يحق لغير الحكم المتوازية أن تكون حكما حقيقية؟ ألا توجد حكم حرة؟ إذا أردت تكسير كل شيء، هل بإمكانك كسر الحقيقة؟ لاتتعاظم حتى ترعب الناس، ألست إنسانا دون إله، لايخشى شيئا؟ قلت : إنك تخاف، مم تخاف؟ خفت من الوحدة، أنت ولد طيب، وأنت بطل! بطل أم لا، أن تخاف الحسناوات، ما الذي يرعبك فيهن؟ أنت تخشى سحرهن، ماذا أسمع! بخ، يا مواطني الأعزاء! ماذا تفعل؟ هل ننقذ الوطن؟ إنك لن تنجو بغير نفسك، أيها الفردي الفاسد يرشح من جسدك عرق بارد من شدة خوفك، أنت تريد، أنت تريد، تريد، تريد العودة إليهم، لكنك لن تجد أحدا...

تريد أن تقرأ لها كفها. يدها الصغيرة ناعمة، وجميلة جدا، وموفورة الأنوثة. فتحت كف يدها، وداعبته، قلت إنها تتصف باللين، وإنها فتاة ناعمة جدا.. هزت رأسها، وأيدت قولك قلت إن يدها يد شخص ودود وحساس، فانفجرت ضاحكة بعذوبة. قلت: في الظاهر، هي ناعمة ولطيفة، ولكنها في أعماقها متقلبة المزاج ودائمة التوتر. قطبت حاجبيها. هي قلقة ومتوترة لأنها تبحث عن الحب بشغف، ولكنها تجد صعوبة في العثور على رجل تستطيع أن تمنحه جسدها وروحها بأمان. إنها مرهفة الإحساس، ونادرا ما تكون راضية، هذا ما يقوله هذا الكف. مطت شفتيها، وبدت غريبة المظهر. لم تحب إلا مرة واحدة....

كم مرة؟ طلبت منك أن تتكهن. قلت إنها خلقت للحب، وإنها وقعت فيه، في سن مبكرة. ضحكت.

حذرتها بقولك إن الأمير الساحر لا يوجد في الحياة، وإنها، ستصاب بخيبات أمل متوالية. تحاشت نظرك. قلت إنها ستخدع دائماً، وستخدع في كل مرة... طلبت منك الاستمرار. قلت إن خطوط كفها مشوشة جدا، وإنها تشير دائما إلى عدة أشخاص في وقت واحد.

اعترضت على هذا ونفته. منعتها من الاعتراض، وقلت إنها عندما تحب رجلا، تفكر في رجل آخر في الوقت نفسه، وترتبط بحبيب جديد قلّ أن تقطع علاقتها بالحبيب الأول. قالت: إنك تبالغ.

قلت إنها تكون واعية أحيانا، وغير واعية أحيانا أخرى، أنت لا تحاكمها، ولكنك تفصح فقط عما بدا لك من خلال خطوط كفها. هل هناك ما يجب إخفاؤه؟ نظرت إلى عينها. قالت بثقة، وبعد وقت من التردد، إنه يمكن قول كل شيء.

قلت إنها لا تعرف التركيز في الحب. لمست عظم كفها وقلت إنك لا تقرأ فقط الخطوط، ولكنك تراقب أيضاً الشكل. قلت إنه يكفي لأي رجل أن يضم مثل هذه اليد الصغيرة لكي يستطيع جذبها.

حاول إذن ! أرادت سحب يدها، ولكنك تمسكت بها. إنها محكومة بالألم، تتحدث عن يدها. لماذا؟

عليها أن تسأل نفسها. قالت إن ما تريده حقاً هو أن تكرس نفسها لحب رجل. اعترفت بأنها تريد هذا، ولكن المشكلة أنها لا تصل إليه. لماذا؟ قلت إن عليها أن

تستفسر عن هذا يدها. ويدها تعود إليها، ولا تستطيع أنت أن تجيب عنها.

إنك ماكر حقا. قلت إنك لست أنت الماكر، بل يدها الناعمة والصغيرة جدا، والتي لا يمكن قراءتها بسهولة. تنهدت، ورجتك الاستمرار. قلت إنك إذا تابعت، فإنك تخشى أن تغضب. ولكن لا.

قلت إنها بدأت تغضب. ولكنها أكدت لك أن هذا غير صحيح. قلت حينها إنها بسبب هذا لا تعرف ماذا تحب. لم تفهم، وقالت إنها لا تفهم عمّاذا تتحدث. طلبت منها أن تفكر قليلاً. قالت إنها تفكر، ولكنها مازالت لا تفهم. آه جيد، هذا يعني أنها هي نفسها لا تعرف ماذا تحب.

حب رجل، رجل رائع إلى حد كبير! ما الذي تعنيه كلمة رائع؟ إنها تقصد رجلا يميل قلبها له من أول نظرة، رجلا تستطيع أن تمنحه حبها مباشرة، رجلا ترحل معه إلى كل مكان، حتى آخر العالم. قلت إن هذه عاطفة رومانسية عابرة... .

هذه هي العاطفة التي نبحث عنها ! ونتخلى عنها منذ أن نستعيد أنفاسنا. قالت إنها ستسير في هذه العاطفة إلى النهاية.

ومع ذلك، عندما تبرد العاطفة فإنك سترين الأشياء بصورة مختلفة: قالت إنها إذا أحبت، فإن عاطفتها لا تخف.

هذا يعني، في هذه الحالة، أنك حتى الآن لم تقعي في الحب. حدقت في عينيها، لم تستطع إزاحة نظرها، وقالت إنها لا تعرف، إنها لا تعرف، في النهاية، إذا كانت تحب أم لا، لأنها تحب نفسها جدا. حذّرتكَ: يجب ألا تكون سيئا إلى هذا الحد. قلت إن هذا كله يعود إلى أنها جميلة جدا، وإنها حريصة دائما على الانطباع الذي تعطيه إلى الآخرين. استمر في الحديث ! إنها ساخطة قليلاً، قلت إنها لا تعرف، في الواقع، أن هذا النوع من الاستعداد الطبيعي.

قطبت جبينها. ما الذي تريد قوله؟ أردت فقط أن تقول إن هذه الاستعدادات الطبيعية واضحة، وإن مأساتها تكمن في أنها جذابة، وإن كل الناس يقعون في حبها. أجابت برأسها لا ، وقالت إنه لايمكن فعل شيء معك. قلت إنها هي التي أرادت أن تقرأ لها كفها، وإنها أرادت أن تصارحها بالحقيقة. اعترضت بهدوء: ولكن ما تقوله فيه مبالغة قليلاً. لايمكن أن تكون الحقيقة مضحكة إلى هذه الحد، ومن الممتع سماعها، إنها قاسية قليلاً، وإلا كيف ننظر بجدية إلى قدرها الخاص؟ سألتها إذا كانت تريد أن تتابع في حديثك.

أكمل بسرعة ! قلت إن عليها أن تباعد أصابعها، حركت أصابعها وأنت تفسر أن هذا من أجل رؤية ما إذا كانت تسيطر تماماً على مصيرها، أو أن مصيرها هو الذي يسيطر عليها.

قل لي إذن، من يسيطر على من؟ طلبت منها أن تضم كفها من جديد، أمسكته بقوة، ورفعته وأنت تطلب من الناس جميعا أن ينظروا ! انفجر الجميع بالضحك، وسحبت يدها.

قلت إن ما تتحدث عنه يتعلق بك وليس بها، لسوء الحظ.

وانفجرت هي بالضحك بدورها. سألت إذا كان هناك من يرغب في أن تقرأ له كفه. سكتت الفتيات. في هذه اللحظة، امتد كف بأصابع طويلة نحوك، وطلب منك صوت خجول ناعم: انظر إليه قلت إنك تقرأ الأكف، وليس الوجوه. صححت: اقرأ لي حظي ! إنها يد ممتلئة بالقوة، لمستها. قل لي فقط إذا كنت سأقوم ببعض المشاريع. قلت إن هذه اليد تحمل كثيرا من التصميم.

قل لي فقط إذا كنت سأنجح في المشاريع. لايمكنك أن تقول إلا أن هذه اليد مقدامة، وهذا لا يعني أن مشاريعها ستنجح. ردت: ما فائدة المشروع، إذا لم ينجح؟ القول إنك ستقومين بمشاريع يمكن أن يكون أيضا طريقة للتشجيع. ما الذي تريد قوله؟

قلت إنه ليس لديك طموح. تنهدت، وتراخت أصابعها. اعترفت بأنها غير طموحة. قالت إنها فتاة عنيدة، ولكن ينقصها الطموح، ولا ترغب في السيطرة على الآخرين، نعم، هذا هو، عضت شفتيها. إن العمل لا ينفصل غالبا عن الطموح، إذا قلنا عن إنسان إن لديه طموحا، فهذا يعني أن لديه مشروعا، الطموح هو أساس المشروع، ووجوده هو من أجل التميز عن الآخرين. قالت: هذا صحيح، وهي لا تريد أن تتميز عن الآخرين.

قلت إنها تريد فقط إثبات ذاتها، وهي ليست جميلة، ولكن قلبها طيب. إن نجاح مشروع لا يمكنه أن يصنع اقتصادا مزاحما، وبما أنها كثيرة الظرف فإنها لاتستطيع التغلب على أعدائها، أو الحصول على النجاح الكبير لأنها لطيفة جدا.

قالت بصوت منخفض إنها تعرف هذا. قلت إن إدارة مشروع دون أن ينجح بالضرورة، هي أيضا نوع من السعادة. لكنها قالت إنها لا تستطيع أن تقدر إذا كانت تلك السعادة. أكدت من جديد أن مشروعا غير ناجح لا يؤدي إلى غياب السعادة.

أي نوع من السعادة هذه، إذن؟ تريد الحديث عن السعادة العاطفية. أطلقت تنهيدة صغيرة. قلت إن رجلا يحبها سرا، وعليها أن تفكر فيه بهدوء. فتحت عينين كبيرتين، يبدو عليها الحذر الشديد إلى حد أن الحضور انفجر ضاحكا. تضايقت، ثم ضحكت هي أيضا، وغطت وجهها بيديها. إنها أمسية سعيدة حقا، الفتيات يحطن بك، ويتنافسن في مد أيديهن لكي تقرأ لهن مستقبلهن. قلت إنك لست راويا

لمغامرات جميلة، ولكنك مجرد ساحر. صرخت الفتيات: ساحر هذا أمر مرعب ! مرعب ! لا، إنني أحب السحرة، إنني أعشقهم ! حضنتك فتاة شابة بين يديها ومدت يدها السمينة: انظر قليلاً، هل سأكسب نقودا أم لا ؟ فتحت اليد الأخرى: لا أهتم بالحب والعمل، كل ما اريده رجلا غنيا. سخرت منها فتاة أخرى وقالت لها عليك أن تبحثي عن عجوز. ردت عليها الفتاة ذات اليدين الممتلئين:

لماذا بالضرورة عجوز؟ عندما سيموت، سترثين كل أمواله، عندها ستلتقين بحبيبك إن سخريتها لاذعة حقا. ردت الفتاة ذات اليدين الممتلئتين: وإذا لم يمت سيكون الأمر فظيعا، أليس كذلك؟ لا تكوني سيئة إلى هذه الدرجة قلت إن هذه اليد الممتلئة تثير الشهية. صفق الحضور جميعا، وصفرن وصرخ برافو. أمرت أن أقرأ لها كفها، دون مقاطعة أحد ! لقد كنت جادا عندما قلت إن يديها تثيران الشهية، وكنت تريد القول إن هاتين اليدين تجذبان الرجال، وكان من الصعب عليها أن تختار، لا تعرف من هو الأفضل. سألت وهي تمط شفتيها: إن حب الرجال جميل، ماذا عن حب المال؟ انفجر الضحك من جديد نبهتها باهتمام شديد بقولك: إن من يبحث عن الحب من دون أن يمتلك المال لن يجد الحب، ومن يبحث عن المال ولا يمتلكه، سيجد الحب، هذا هو القدر. صرخت فتاة: هذا القدر جيد. رفعت الفتاة ذات اليدين الممتلئتين أنفها قليلاً: كيف أستطيع أن أهتم بجمالي من دون المال؟ وإذا لم أهتم بجمالي، لن ينظر إلي أحد، أليس كذلك؟ قالت الفتيات الأخريات بصوت مرتفع: هذا صحيح! وأنت ! أي جشع، أنت لا تفكر إلا بامتلاك الفتيات اللواتي يحطن بك. قالت فتاة من ورائك:

وأنت، هل أحببت من قبل؟ استدرت نحو هذا الحضور السعيد، وقلت إنك تحب كل الأيدي، وتريدها جميعا، ارتفعت الأيدي في الهواء، وعلا الصراخ، والاعتراض، لا، لا، أنت لا تحب إلا نفسك.

عندما تركت بلدة فانغ Fang في الشمال، دخلت بلدة شينونغجيا Shennongjia. إن هذا المكان هو المكان الأكثر كلاما عن الرجل المتوحش. ووفق حوليات بلدية يونيانغ Yungang [١٣]، إن 'عواء حيوانات الببر في وضح النهار، وصراخ السعادين الدائم' دليل على أن عزلة المكان في هذه الغابات التي تمتد على مسافة ثمانمئة لي من الشمال إلى الجنوب جئت لأبحث إذا كانت الغابة الطبيعية ما تزال موجودة وليس من أجل البحث عن الرجل المتوحش. وليست مهمة الاستطلاع هي التي تشدني هذه المرة، حتى وإن لم يغادرني هذا الاحساس بصورة كاملة. هذا الإحساس يرهقني، ويمنعني من العيش بصورة طبيعية. في الواقع، عندما نزلت من الهضاب العالية للمجرى الأعلى لنهر يانغزي Yangzi، لم أعد أستطيع مغادرة هذه المنطقة. إن عدم امتلاك هدف، هو هدف بحد ذاته، وعملية البحث، هي موضوع أيضا، مهما كان موضوع البحث. والحياة في الأصل، ليس لها هدف، يكفي التقدم، هذا كل شيء. هطل المطر بغزارة، طيلة الليل، واستمر خفيفا في الصباح.

لا يوجد على جانبي الطريق أي غابة تستحق الذكر، هناك فقط نباتات العليق وأشجار الكيوي. يسيل في الأنهر والسواقي ماء يميل لونه إلى الصفار. وصلت في الساعة الحادية عشرة صباحا إلى مركز المنطقة، واصطحبوني إلى مركز الاستقبال في الإدارة الحراجية للبحث عن سيارة تستطيع نقلي إلى الغابة. وجدت اجتماعا لكوادر من مستويات وظيفية ثلاثة مختلفة. لم أعرف المستويات الوظيفية لهؤلاء، ولكنهم كانوا يعملون جميعا في استغلال الخشب. وفي وقت الغداء دعاني رئيس القسم المكلف بالاستقبال للانضمام إليهم، عندما عرف أنني كاتب من بكين، وأجلسني إلى جانب السائق الذي سينقلني بعد الظهر.

دعاني إلى الشرب سرح بلطف وبشاشة أنه لا يمكننا أن نشرب دون أن يكون إلى جانبنا على الطاولة كاتب. وتسيل طاسات طافحة بكحول الرز الحامي في الحلق، وتحمر الوجوه. لم أكن أستطيع تخييب أمالهم، وشربت معهم. في نهاية الغداء، أصبت بالدوار ولم يعد باستطاعة السائق أن يقود. عاود المشاركون في الاجتماع أعمالهم بعد الظهر، ولكن السائق فتح لي غرفة الاستقبال التي يأخذ فيها

---

(١٣) تقع بلدية يونيانغ تحت جبال مينغ Ming ، في شمال غربي هوبي Hubi حاليا.

كل شخص سريرا لينام حتى المساء. وعند العشاء تناول الجميع ما بقي من الطعام والكحول. سكرت من جديد، وأمضيت الليل في مركز الاستقبال.

جاء السائق ليخبرني أن السيول غطت الطرقات، ولا يعرف إذا كان باستطاعتنا السفر في اليوم التالي وهو سعيد باغتنام الفرصة من أجل الاستراحة. جاء رئيس القسم، مساء، للتحدث معي. أراد أن يعرف إذا كنا نأكل في العاصمة. وماهي الأطباق التي تقدم أولا؟ وماهي الأطباق التي تقدم بعد ذلك؟.

قال لي أنه التقى شخصا زار القصر الإمبراطوري في بكين، وروى له أنه يذبح مئة كانار من أجل إعداد طبق واحد للامبراطورة سيكسي Cixi. فهل هذا صحيح؟ وهل يمكننا زيارة المكان الذي يقطن فيه الرئيس ماو؟ وهل رأيت بيجامته المرقعة التي ظهرت على التلفزيون؟ أفدت من هذا لكي أسأله عن الحكايات التي تروى هنا.

روى لي أنه قبل التحرير، لم تكن المنطقة مأهولة كثيرا: كان هناك عائلة حطابين في نانه Nanhe، وعائلة أخرى في دوه Douhe. كان الخشب ينقل عبر النهر. لم تكن كمية الأخشاب المبيعة إلى الخارج تتجاوز المئة والخمسين مترا مكعبا في السنة. لا يوجد من هنا إلى شينونغجيا إلا ثلاث قرى صغيرة. قلما كانت الغابة تتعرض للأضرار قبل عام ١٩٦٠، بعد ذلك فتح طريق عريض، وتغيرت الأمور. يجب حاليا أن نقدم خمسين ألف متر مكعب من الخشب في السنة، تطور الإنتاج، وجاء الناس زرافات ووحدانا. كان السمك قديما يظهر في التجمعات المائية في الجبل، بعد الأمطار الأولى في فصل الربيع، وكان الناس يحجزون المجرى بالخيزران، ويملؤون سلالا كبيرة منه. لم يعد باستطاعة أحد اليوم حتى أن يأكل سمكا، سألته عن تاريخ المنطقة. ترك نعليه، وجلس على السرير: - إذا أردنا الحديث عن التاريخ، علينا العودة إلى الوراء! وجد علماء الآثار في مكان قريب من هنا، أسنان إنسان بدائي (القرد الإنسان).

لاحظ أنني لا أهتم كثيرا بالقرود القديمة، فبدأ يحدثني عن الإنسان المتوحش.

- إذا قابلته، يستطيع أن يأخذك من كتفيك، ويهزك، ويدير لك رأسك، ثم يرحل وهو يطلق ضحكة مجلجلة.

اعتقدت أنه ربما يكون قد قرأ هذا في الكتب القديمة

- هل رأيت الرجل المتوحش؟ — من الأفضل ألا يراه الإنسان. إنه أطول من الإنسان بحوالي مترين، ومكسو بوبر أحمر مع شعر طويل.

عندما نتحدث عنه لا نخاف، ولكن عندما نراه حقيقة، فإنه مرعب. ومع ذلك، فهو لا يؤذي أحدا. إذا لم نجرحه، يمكنه أن يطلق صرخات حادة، وعندما يرى

امرأة بصورة خاصة، فإنه يبتسم ابتسامة عريضة. هذا كله سمعه. وحتى لو تحدث لآلاف السنين، لن يقدم جديدا. فضلت أن أقاطعه: - هل رآه أحد العمال أو المستخدمين هنا؟

- بالتأكيد. ذات يوم عندما كان رئيس اللجنة الثورية لبلدة سونغبي في سيارة جيب مع أشخاص آخرين، أوقفه رجل متوحش سد عليهم الطريق. أخذتهم الدهشة، ثم تركهم ورحل وهو يتمايل.

لقد كانوا جميعا من كوادر منطقتنا، ونعرفهم جيدا. إذا كان الأمر يتعلق باللجنة الثورية، فمعنى هذا أن الأمر حصل من زمن بعيد. هل رآه أحدهم منذ وقت قريب؟ كثر هم من يأتون للبحث عن الرجل المتوحش، ويصل عددهم إلى المئات سنويا، ويأتون من أكاديمية العلوم في بكين، وأساتذة من جامعة شنغهاي، وموجهون سياسيون في الجيش، وجاء، في السنة الماضية، اثنان من هونغ كونغ، تاجر وإطفائي حريق، ولم يسمح لهما بالدخول.

- هل رأى أحدهم الرجل المتوحش؟

- بالتأكيد! الشخص الذي حدثتك عنه منذ قليل، الموجه السياسي لفريق البحث عن الرجل المتوحش، كان عسكريا، وكان معه في سيارته حارسان شخصيان. وحدث ذلك في الليل عندما كان المطر يهطل. وصل فيضان الماء إلى الطريق، وهبط ضباب كثيف. والتقوا وجها لوجه مع الرجل المتوحش.

- ألم يمسكوا به؟ – لم يكن ضوء مصابيح السيارة يضيء أكثر من مترين أو ثلاثة. وقبل أن يتاح لهم الوقت لأخذ بنادقهم، والنزول من السيارة، استطاع الهرب. هزيت رأسي، وشعرت بخيبة الأمل. – انشئت حديثا وحدة بحوث خاصة حول الرجل المتوحش، ويرأسها شخصيا الرئيس القديم لقسم الدعاية في مجلس الحزب. لديهم صور آثار أقدام، وشعر ووبر. – قلت: رايت هذا في معرض نظم، دون شك، من قبل هذه الوحدة البحثية. ورأيت أيضاً صوراً مكبرة لآثار الأقدام. إضافة إلى أنهم أصدروا كتابا من الوثائق يقدم معلومات عن الرجل المتوحش في الكتب القديمة، كما يقدم تقارير أجنبية عن Yeti وصوراً عن آثار خطوات ضخمة. كما يقدم أيضاً تقارير عن شهادات عيانية.

- أردت أن أظهر له أنني أشاركه الرأي.

- رأيت أيضاً صورة قدم لرجل متوحش. مال نحوي وهو يسألني: كيف كانت؟ كانت كقدم دب الباندا، هزيلة.

- قال وهو يهز رأسه: هذا غير صحيح، الباندا هو الباندا، وقدم الرجل المتوحش أكبر من قدم الباندا وهي تقريباً مثل قدم الإنسان العادي لماذا حدثتك أولا عن أسنان القرود قديما؟ الرجل المتوحش، حسب رأيي، هو قرد إنساني لم يتطور

إلى درجة الإنسان ! ما رأيك في هذا؟

- قلت بعد تثاؤب طويل يعود، دون شك، إلى كحول الرز: ليس أكيدا. استرخى، وتثاءب بدوره، وكان تعبا من قضاء يوم في الاجتماعات والدعوات.

في اليوم التالي، استأنفوا اجتماعاتهم. وأنا مجبر على الاستراحة يوما إضافيا، لأن الطريق لم تفتح بحسب رأي السائق. عدت لرؤية رئيس القسم:

- لا أريد إزعاجكم في اجتماعكم، ولكن ألا يوجد كادر يعرف التاريخ المحلي؟

أحببت أن أثرثر معه، دلني على رئيس قديم للمنطقة في زمن غوميندانغ، وحرر من معسكرات العمل: - إن هذا العجوز يعرف كل شيء. إنه مثقف حقيقة. إن الفريق الذي شكل حديثا لكتابة حوليات المنطقة يستشيره غالبا في مراجعة موادهم الأولية. بعد البحث عنه من منزل إلى منزل. وجدته، أخيراً، في زقاق رطب وموحل. إنه عجوز نحيل ذو نظرة ثاقبة. دعاني إلى الجلوس في الغرفة الرئيسية في منزله. قدم لي، وهو يسعل، الشاي وبذور البطيخ. من الواضح أنه قلق، لم يعرف سبب زيارتي. شرحت له أنني أريد كتابة رواية تاريخية لا علاقة لها أبداً بالحقبة الحالية. جئت خصيصا لرؤيته من أجل أن يقدم لي النصيحة. ارتاح، وتوقف عن السعال، وتحرك، وأشعل لفافة تبغ، والظهر مستقيم مثل حرف I، واستند إلى ظهر مقعد من الخشب. وبدأ بثقة؟ - تحت حكم زهو الغربي Zhou، يشكل هذا المكان جزءا من منطقة بينغ Peng، وفي عصر الربيع والخريف، ألحق بمنطقة شيو Chu، وتحت حكم الممالك المقاتلة، أصبحت مكاناً استراتيجيا، تصارعت عليها سلطتا كين وشو.

ومنذ أن استعرت الحرب، وقع الناس ضحايا كالحشرات. صحيح أن هذا مضى منذ وقت طويل، ولكن المنطقة بقيت مهجورة من السكان بعد أن تجاوزوا الممرات. ولم يبق من ثلاثة آلاف شخص إلا عشرة بالمئة. وأخيرا لم تتوقف العصابات عن غزو المنطقة منذ ثورة العمائم الحمر تحت حكم اليوانيين Yuan. لا أعرف إذا كان يعتبر أصحاب العمائم الحمر عصابات من قطاع الطرق.

- إن سلطة لي زيشينغ Lizicheng في نهاية حكم المانغيين لم تنتبه إلا في العام ألفين من عصر كانغكسي Kangxi. في السنة الأولى من حكم جياكينغ Jiaqing، سيطرت طائفة لوتوس البيضاء Lotus على هذا المكان كله. ثم جاء الجيش التيبينغي، وخلال عصر الجمهورية، ازداد عدد عصابات الماندارين، وقطاع الطرق والعصابات؟ ضحك دون أن يجيب.

- منذ أن عاد السلام، ازداد القادمون الجدد إلى المنطقة، وارتفع عدد السكان. يحكى في كتب التاريخ أن الملك بينغ من زهو، استقبل هنا مطربين فولكلوريين، وهذا يظهر أن هذه الأغنيات الفولكلورية ازدهرت منذ سبعمئة سنة قبل عصرنا. - قل: هذا قديم جدا. هل يمكنك أن تحدثني عن الأحداث التي

عشتها أنت بنفسك؟ مثلاً ماهي أنواع الفوضى التي سببتها هذه العصابات في عصر الجمهورية؟

- يمكنني أن آخذ مثالا بالنسبة إلى عصابات الماندارين. تمردت وحدة تتألف من ألفي رجل تقريبا. اغتصبوا مئات النساء، وأخذوا معهم أكثر من مئتي رهينة من كبار السن والأطفال، من أجل مبادلتهم ببنادق، وذخائر، وقطن، ومصابيح. تسلم هذه الطلبات في الوقت المحدد، وكان الشخص يكلف ما بين ألف إلى ألفين يوان من الفضة، تدفع كاملة. حدد شخص ليحمل النقود إلى مكان متفق عليه. وفي حالة التأخير حتى وإن كان لنصف يوم، يعدم الأطفال الرهائن. وأحيانا لا يستلم من يدفع الفدية إلا أذنا مقطوعة مقابل المبلغ المدفوع. أما بالنسبة إلى قطاع الطرق الذين لم ينتظموا في عصابات، فكانوا يكتفون بسرقة النقود والأغراض، ويقتلون من يحاول مقاومتهم. — هل عرفتم فترات سلام وازدهار؟

سلام وازدهار؟ ... هز رأسه، وفكر قليلاً. نعم عرفنا هذه الفترات في هذا الوقت، ذهبت إلى رئيس المنطقة من أجل معرض المعبد، في اليوم الثالث من الشهر الثالث: كان يوجد تسع منصات للمسرح إضافة إلى جسور خشبية محفورة ومدهونة، وكان يتوالى عليها نحو عشر فرق ليلا نهارا.

أصبحت مدارس المركز الإداري، بعد ثورة عام ١٩١١، وفي السنة الخامسة من الجمهورية، مختلطة، وكان ينظم فيها لقاءات رياضية كبيرة، وكانت الرياضيات من الفتيات يركضن بالسراويل القصيرة. وتغيرت العادات أيضاً بعد السنة السادسة والعشرين للجمهورية، وفي كل عام، من اليوم الأول إلى اليوم السادس عشر من الشهر، توضع علىمفارق الطرق عشرات طاولات اللعب. وفي ليلة واحدة، خسر مالك عقارات كبير ثمانمئة معبد مخصصة للآلهة المحلية. تخيل ما يمثله هذا من حقول وغابات! وكان يوجد أكثر من عشرين مكاناً للدعارة. لم يكن هناك لافتات، ولكنها كانت جيدة. وكان الرجال يأتون إليها ليلا نهارا، ويقطعون مسافة مئات (الليات). ثم حدث صراع بين ثلاثة زعماء حرب هم تشيانغ كي-شيك، Tchiang Kai-chek، وفينغ يوكسيانغ Feng Yuxiang، ويان كسيشان Yan xishan، ثم جاءت حرب المقاومة التي دمر خلالها اليابانيون كل شيء. وأخيرا جاء حكم الجماعات السرية الذي استمر قويا إلى أن استعادت الحكومة الشعبية سيطرتها على الأمور. كان عدد أتباع العصابة السوداء، في ذلك الوقت، نحو أربعمئة شخص من أصل ثمانمة شخص وهم سكان المركز الإداري للمنطقة. ووصلت سلطة هذه العصابة حتى إلى الطبقات العليا، ووزراء حكومة المنطقة، كما سيطرت أيضاً على الفقراء في المستوى الأدنى. لقد مارست كل التجاوزات القانونية من اختطاف النساء، والسرقة إلى بيع الأرامل. وكان على السارقين أيضاً أن يسجدوا أمام العجوز الخامس. وكانوا في الأعراس ووفيات الأغنياء يضعون على الباب مئات

المتسولين الذين يرسلهم الزعيم، العجوز الخامس. وإذا لم يقدم لهم شيء، فإنه لا يمكن إزاحتهم عن أماكنهم حتى بالبنادق.

كان عمر أفراد العصابة السوداء لا يتجاوز العشرين عاما، في حين أن أفراد العصابة الحمراء يتجاوزون هذا العمر قليلا، وبصورة عامة كانوا هم من يسيطر على العصابات الأخرى. – ماهي إشارات التعارف بين أفراد الجماعات السرية عند التعارف؟ بدأت أهتم بالموضوع.

- كان أفراد العصابة السوداء يتنادون فيما بينهم بكلمة لي أنا، أما في الخارج فيستخدمون كلمة بان Pan. وعندما يلتقون يتخاطبون (أخي)، ويتكلمون وهم يضعون إشارة في اليد: 'الفم قريب من بان Pan، والأصابع قريبة من الثلاثة.' صنع دائرة بإبهامه، وسبابته، وفتح الأصابع الثلاثة الأخرى.

- هذه هي إشارة تعارفهم. وكانوا يسمون بعضهم بعضاً بالتناوب: العجوز الخامس، العجوز السابع، وبالنسبة إلى النساء، الأخت الرابعة، والأخت السابعة. أما أولئك الذين لم يكونوا من السن نفسه فيتنادون بأب وابن، وأستاذ وأساتذة. يتنادى أفراد العصابة الحمراء بالسيد، وأفراد العصابة السوداء بالأخ الكبير. وفي محلات الشاي، كان يكفيهم الجلوس، ووضع قبعتهم على الطاولة مقلوبة لكي يقدم لهم الشاي والتبغ مباشرة.

سألته بحذر: هل كنت أنت نفسك عضوا في هذه العصابة؟ رشف رشفة من الشاي وهو يضحك بهدوء. – كان من المستحيل في ذلك الوقت أن يصبح الإنسان رئيسا للمنطقة من دون علاقات. ثم اضاف وهو يحرك رأسه:

- هذا كله يعود إلى زمن مضى.

- هل تعتقد أن الحراسة، خلال الثورة الثقافية كانت تشبه هذا قليلا؟ رد بحزم، هذا يحدث بين رفاق ثوريين، لا يمكن المقارنة. شعرنا بالبرد. فنهض على أربع ليقدم لي الشاي وبذور البطيخ من جديد.

- لم أعامل بسوء من قبل الحكومة. لو لم أوضع في السجن، أنا المجرم، كان علي أن أسلم نفسي للحركات الشعبية، وكان يمكن أن أعدم.

- إن فترات السلام الكامل نادرة. وهذه هي الحال اليوم! قال لي بحذر شديد: إننا نعيش مرحلة يسود فيها السلام في الوطن، والناس مطمئنون، أليس كذلك؟

- عندنا ما نأكله ونشربه من الكحول.

- ما المطلوب أكثر من هذا؟

- هذا صحيح. إنني سعيد طالما أنا أستطيع القراءة. قال وهو ينظر إلى الفناء: لا نعرف سعادتنا إلا عندما نرى الناس يتدخلون في شؤون الآخرين. عاد المطر الخفيف والناعم إلى السقوط .

عندما خلقت نوغوا Nugua الإنسان، خلقت شقاءه. تحولت أحشاء نوغوا إلى إنسان، الذي ولد في دم امرأة، ولن يتطهر منه أبدا.

يجب عدم تدنيس الأرواح، ويجب عدم البحث عن الأسباب والنتائج، ويجب عدم البحث عن المعنى، كل شيء عماء. لا يصرخ الإنسان إلا عندما لا يفهم والذي صرخ لم يفهم شيئاً. الإنسان كائن صعب، خلق عذاباته بيديه. إن 'أنا' بدلا من 'أنت' ليست إلا انعكاسا في المرآة، الصورة المقلوبة لزهور في الماء، إذا لم تدخل إلى المرآة، فلن تستطيع أن تصطاد شيئا، ولن ترثي إلا نفسك الضائعة تماماً. من الأفضل لك أن تستمر في حب صورة كل الكائنات البشرية، وأن تغرق نفسك في محيط الرغبات، إن الحاجات الروحية المزعومة ليست إلا نوعاً من الإثارة المصطنعة، لديك منجم مستغل بصورة كاملة الحكمة هي أيضاً نوع من الترف. نوع من الإنفاق الكمالي. لديك رغبة في عرض الوقائع بمساعدة لغة تتجاوز علاقات السبب بالنتيجة والمنطق. لقد روينا كثيراً من الحماقات، وليس هناك ما يمنعك من رواية حماقات أخرى. إنك تخترع من كل شيء، وتلعب باللغة كطفل يلعب بالمكعبات. ولكن لا يمكننا أن نبني بالمكعبات إلا أشكالا ثابتة، مما لاشك فيه أن البنى كلها موجودة في المكعبات، ومن المستحيل عمل شيء جديد مهما كانت الطريقة التي نركبها فيها. اللغة مثل كرة العجين التي تمر منها الجمل. ومنذ أن تتخلى عن الجمل، فإنك تدخل في ورطة لا تستطيع الخروج منها. الإنسان وحيد في الهموم والقلق. إذا وقعت في هذه الورطة عليك الخروج لوحدك منها، دون منقذ يهتم بهذه الترهات.

إنك تتعمق في هذه اللغة ساحبا معك أفكارك الكبيرة.

تريد أن تصل إلى دليل يساعدك على الخروج منها، ولكنك كلما تعمقت أكثر، كلما انهكت أكثر، لقد قيدك خيط اللغة الموجه، مثل دودة الحرير التي تنسج خيطها، أنت تصنع شبكة حولك، تدخلك في ظلمات عميقة جدا. إن الضوء الضعيف المنبعث في قلبك بدأ ينطفئ بالتدريج، ولا يوجد في عمق الشبكة إلا العماء.

عندما تضيع الصور، يضيع الفضاء أيضاً. وعندما يختفي الصوت، تختفي اللغة أيضاً. إننا نتهامس دون ضجيج، ولم نعد نعرف، في النهاية، ما نحكيه، فمازال

يوجد في مركز الوعي قليل من الرغبة، ولكن هذه البقية من الرغبة إذا انتهت، فإننا نصل إلى النيرفانا. كيف نجد أخيراً لغة نقية وواضحة، وموسيقية، وغير قابلة للقسمة، وأكثر سموا من النغم، وتتجاوز الحدود الثابتة لفقه اللغة والنحو، ودون تمييز بين الفاعل والمفعول به، وتتحرر من الأشخاص، وتتخلص من المنطق، ودائمة التطور، ولا تعتمد على الصور ولا على الاستعارات، ولا على تداعيات الأفكار والرموز؟

لغة تستطيع أن تعبر تماماً عن آلام الحياة، والخوف من الموت، والهموم، والسعادة، والوحدة والراحة، والحيرة والانتظار، والتردد والتصميم، والضعف والشجاعة، والغيرة وعذابات الضمير، والهدوء، والتبرم، والثقة بالنفس، والكرم والعوز، والحلم والحقد، والرحمة واليأس، واللامبالاة والسلام، والبذاءة والشر، والنبل والوحشية، والشراسة والطيبة، والحماس وفتور الهمة، وبرودة الأعصاب، والصدق وقلة الحياء، والعبث والجشع، والاحتقار والاحترام، والازدراء والشك، والتواضع والغرور، والعناد والغضب، والأسى والخزي، والشك والدهشة، والاشمئزاز والجدب واليقظة الكبرى، وعدم الفهم الدائم، وعدم الفهم الأبدي والرحيل بسبب هذا كله؟

استلقيت على سرير مغطى بغطاء جديد ناصع البياض. على الجدار، ورقة ملونة بالأصفر الباهت، مع زخرفات من الزهور بارزة، وعلى النوافذ ستائر بيضاء موشاة برسوم زخرفية، وعلى الأرض سجادة حمراء غامقة، وفي الصدر يوجد كنبتان كبيرتان محميتان بأغطية كبيرة. الغرفة مزودة بصالة حمام مع مغسلة. لو لم أكن أمسك بيدي مجموعة منسوخة من الأناشيد الفلاحية (الطبول والصنوج من أجل غرق الأرض)، فإنني كنت سأجد صعوبة في التحقق من أنني موجود في المنطقة الحراجية في شينونغجيا. بني هذا البيت الطابقي الجديد اللامع من أجل فريق بحث أمريكي، ولكنه لم يستطع القدوم لسبب مجهول، فحول المنزل إلى مركز استقبال للقادة الذين يأتون بجولات تفتيشية. وبفضل اهتمام رئيس القسم، وجدت عناية خاصة في المنطقة الحراجية. كانت أجور الإقامة منخفضة، وكان يقدم لي مع كل وجبة البيرة، مع أنني أفضل كحول الأرز. شجعني الترفيه والنظافة على البقاء عدة أيام أخرى في المنطقة. وإذا فكرنا جيدا في الأمر، فإنه لا شيء يجبرني على معاودة السفر على عجل. سمعت نوعاً من الخشخشة. اعتقدت أولا أنها صادرة عن حشرة، ولكنني عندما فتشت الغرفة لاحظت أنه لا يوجد أي مكان يمكن أن تختبئ فيه، لأن السقف والنوافذ بيضاء كالحليب. استمرت الخشخشة، كأنها معلقة في الهواء. وعندما أنصت جيدا، انتابني الإحساس بأن الأمر يتعلق بصوت نسائي يدور حولي، ويختفي عندما أضع كتابي.

تناولت الكتاب ثانية، وسمعت من جديد هذا الصوت بأذني. اعتقدت أنني أسمع طنينا، فنهضت مباشرة وفتحت النافذة. تمتد أمام المبنى ساحة من الحصيات الصغيرة، المغمورة بالشمس. الوقت ظهرا، وليس هناك أي أثر إنساني، ربما ينبعث الصوت من داخلي. من الصعب تتبع هذا الإيقاع لكلمات غامضة، ولكنه مع ذلك يبدو لي مألوفاً، ويشبه قليلاً أناشيد مآتم فلاحي المناطق الجبلية. قررت الخروج لإلقاء نظرة. تجري في مقابل المبنى، ساقية قوية، مياهها زرقاء صافية تشرق عليها الشمس. وفي الجوار القمم الجبلية المكسوة بغطاء نباتي غزير، وإن لم تكن مكسوة بالغابات. وفي أسفل المنحدر، يتجه طريق ترابي نحو قرية صغيرة موجودة على بعد لي واحد أو ليين.

وإلى اليسار، وفي أسفل القمم الخضراء توجد المدرسة. ليس هناك أي تلميذ

في الملعب الرياضي، ربما يكونون جميعا في الصفوف. على كل حال، لا يستطيع معلمو هذه القرية الجبلية أن يعلموا طلابهم الأناشيد الجنائزية. يضاف إلى ذلك أن هدوءا تاما يخيم هنا.

لا يسمع إلا صوت الريح في الجبل، وصرير مياه الساقية. على ضفتها يوجد مشغل، ولكنني لا أرى أحدا في الخارج. خف الغناء بشكل غير ملحوظ. عدت إلى غرفتي وجلست على المقعد بالقرب من النافذة، لكي أنسخ وثائقي حول الأغنيات الفولكلورية، ولكنني في هذه اللحظة سمعت الصوت من جديد وكأنه يُعبِّر الآن، بعد الألم، عن شقاء ساكن لا يقاوم، ويمتد بهدوء. بدأت أجد هذا غريبا حقا، وأرغب في امتلاك قلب خالٍ من الشقاء: هل هناك فعلا شخص يغني أم أنني أنا الذي أهذي؟ عندما رفعت رأسي، عاد الصوت من الخلف، أدرت رأسي فبقي معلقا في الهواء، متميزا كخيط العذراء. مع ذلك إن خيط شبكة العنكبوت الذي يطير في الهواء له شكل، ولكن هذا الخيط ليس له شكل، ولا يمكن الإمساك به. جلست على مرفق كنبة محاولا تتبعه. اكتشفت أخيراً أنه يأتي من كوة الباب. صعدت إلى كرسي لفتح زجاج النافذة النظيف كحلية جديدة:

تطل النافذة على الرواق. أخرجت الكرسي من الغرفة، ولكنني مازلت عاجزا عن الوصول إلى مصدر الصوت. يمتد أمام الرواق فناء صغير مغطى بالإسمنت، ومعرض للشمس، نصبت فيه سلكا من الحديد لتجفيف الملابس التي غسلتها في الصباح نفسه. من الواضح أنها لا تعرف الغناء. وعلى مسافة أبعد يوجد جدار السور تحت الجبل، وفي الخلف، المنحدر الذي تحيط به ارض واسعة بور، وغيضات من العليق. لا يوجد أي طريق. خرجت من الرواق، وتقدمت تحت الشمس. أصبح الصوت أكثر وضوحا، كما لو أنه يأتي من الضوء الباهر، من فوق السقوف. طرفت عيناي نحو السماء، إنه صوت معدني، حاد وواضح. اهتز بصري، ولكن بعد أن تحولت الشمس التي أعمت بصري إلى انعكاس أزرق- أسود، لاحظت، بفضل حماية يدي، خيالات ضخمة تتحرك على جرف أجرد، على سفح الجبل. ينبعث الصوت المعدني من هنا. عرفت أخيراً أنهم قاطعوا أحجار. يبدو أن أحدهم يلبس مايو أحمر في حين أن الجذع العاري للآخرين لا يظهر بصورة واضحة على الجرف الكستنائي الأصفر الذي فتح بالمتفجرات. ينتشر الغناء مع أشعة الشمس حسب اتجاه الريح، الذي يشتد أحيانا، ويخف أحيانا أخرى.

خطر في بالي أنني أستطيع استخدام العدسة المكبرة الموجودة في آلة تصويري لكي أقربهم. من الواضح أن الرجل ذا السروال الأحمر يستخدم مطرقة، والصوت

الذي يشبه أناشيد الريفيين الجنائزية، يجيب على ضجيج المثقب، والرجل الذي يمسك المثقب، عاري الساعدين، ليبدو أنه يرد عليه. ربما يكونون قد لاحظوا انعكاس الشمس على آلة التصوير، لأن الغناء توقف. أوقف قالعوا الأحجار عملهم، ونظروا باتجاهي. صمت الصوت، وساد هدوء مقلق تقريبا. مع ذلك فأنا سعيد. هذا يثبت أخيراً أنني أسمع جيدا، وأن أذني طبيعية. عدت إلى غرفتي، وانتابتني رغبة في كتابة شيء عن هذا، ولكن ماذا؟ لماذا لا يكون غناء قالعي الأحجار؟ ولكنني لم أستطع كتابة أي كلمة. قلت لا شيء يمنعني من الذهاب للشرب والثرثرة معهم مساء. هذا سيسليني قليلاً. عندها وضعت قلمي ونزلت إلى البلدة. اشتريت من دكان صغير زجاجة كحول، وفستقا. التقيت مصادفة في الطريق الصديق الذي أعارني الوثائق. قال لي إنه جمع أيضاً من الجبل، مجموعة من الكتب المخطوطة عن الأغاني الفولكلورية. لم أكن أنتظر أفضل من هذا، فدعوته لنتحدث معاً. أعطاني موعدا بعد العشاء لأنه الآن مشغول. انتظرته مساء حتى الساعة الثامنة عشرة. إنني النزيل الوحيد في مركز الاستقبال، والصمت ممل. ندمت حقيقة لأنني لم أذهب للثرثرة مع قالعي الأحجار، وفجأة قرع على زجاج النافذة. تعرفت على صوت صديقي وفتحت النافذة. وشرح لي أن حراس المبنى أغلقوا الباب الرئيسي خففت من حمله و. أنزلت عنه المصباح والحقيبة الورقية ودخل عبر النافذة، وهذا ما أسعدني. فتحت مباشرة زجاجة الكحول وسكب كل منا نصف كأس منها. لم أعد قادرا على تذكر مواصفاته الجسدية. يبدو أنه كان قصيرا ونحيلا، ورشيق القوام مرهفاً. وكان يبدو خجولا قليلاً، ولكنه كان يبدي من خلال طريقته في الكلام، حماساً لم تحطمه الحياة بعد. لا أهمية لشكله، ولكن ما أسعدني هو أنه أظهر لي ما يختزنه في أعماقه. فتح حقيبته الورقية. إذا استثنينا بعض الدفاتر الصغيرة المسجل عليها بعض الملاحظات، فإن الباقي كان يتألف من مجموعات مخطوطة لأغان فولكلورية مازالت تُغنى في الوقت الحاضر. قلبتها مجموعة مجموعة. عندما رأى درجة سعادتي، أعلن لي بحماس: - يمكنك أن تنسخ ما تحب نسخه.

تزايدت الأغاني الفولكلورية، في هذه الجبال، منذ زمن بعيد. إذا وجدنا أستاذ غناء مسنا، فإنه يستطيع أن يغني أياما مع لياليها بصورة متواصلة. سألته عندئذ عن أغاني قالعي الحجارة.

- سألته، عندئذ،عن أغاني كاسري الحجارة.
- أوه، إن لأصواتهم جرس قاطني الأماكن المرتفعة لقد جاؤوا من بادونغ بعد

أن قطعت أشجار جبالهم جميعاً، فغادروا بلادهم وقدموا إلى هنا لكسر الحجارة.

- هل لديهم أشكال وكلمات خاصة بهم؟

- هناك تشابه إلى حد ما في السمات، أما بالنسبة إلى الكلمات فإنهم يرتجلونها. إنهم يغنون ما يخطر في بالهم، ويكون هذا بذيئا في أغلب الأحيان.

- هل هناك كثير من الشتائم في أغانيهم؟

- شرح لي وهو يضحك: يبقى هؤلاء العمال لفترة طويلة بعيدين عن بيوتهم ونسائهم، ويكشفون لبعضهم مكنونات نفوسهم وهم يحطمون الأحجار. — لقد استمعت إلى ألحانهم. فكيف تبدو حزينة ومؤثرة جدا؟ — هكذا هو الأمر. إذا لم تفهم الكلمات، فإننا نعتقد أن الأمر يتعلق بأغنية حزينة محبب سماعها، ولكن الكلمات، في الحقيقة، لا تحمل أي فائدة. انظر مثلاً هذه الكلمات.

أخرج دفترا صغيرا من حقيبته وقدمه لي مفتوحا. بعد أخبار الظلمات (غناء تمهيدي) يمكن أن نقرأ:

في يوم مؤات انفصلت السماء عن الأرض.

العائلة المحترمة ومجموع الأصدقاء دعونا للغناء والرقص. عند وصولنا إلى ساحة الغناء، بدأنا بداية اللحن. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ذهب، خشب، ماء، معدن، وتراب. أغنيتي صعبة الغناء. وقبل أن نفتح الفم، بدأنا التعرق. الظلمة حالكة، الرجال هادئون، والقمر يضيء، والنجوم نادرة. نستعد للبدء بأغنيتنا. إذا كانت طويلة، سيطول الليل. وإذا كانت قصيرة ستكتمل قبل بزوغ النهار. إذا غنينا أغنية لا قصيرة ولا طويلة. لن نؤخر المغنين الآخرين.

اجتمعت في البداية السماء والأرض والماء. وثانيا الشمس والقمر، والنجوم. وثالثا انفتحت الأراضي في الاتجاهات الخمسة. ورابعا أرسلت الأم الصاعقة بروقها. وخامسا، فصلت بانغو السماء عن الأرض. وسادت، ظهر الملوك الثلاثة، والأباطرة الخمسة، والأجيال المتتابعة من الأباطرة والأمراء والإقطاعيين. وسابعا ظهرت الأسود السود، والأفيال البيضاء، والتنين الأصفر، وطائر الفينيق. وثامنا الكلب الشرير حارس الأبواب. وتاسعا، شياطين الجبال، والغابات والمياه. وعاشرا الببر، والفهد، والذئب، وابن آوى، تنحى جانبا، وابتعد، واسمح لنا نحن المغنين، أن ندخل إلى ساحة الغناء!

- رائع! أين وجدت هذه الكلمات؟ —سجلتها منذ سنتين من أستاذ غناء كهل، عندما كنت مدرسا في الجبل. — إن هذه اللغة رائعة حقا، تدخل الكلمات مباشرة إلى القلب، من دون القيد العروضي للأغاني الفولكلورية المزعومة ذات الخمس أو الست تفعيلات.

- معك حق، إنها أغنيات شعبية حقيقية. زال خجله تماماً بتأثير الكحول. — إنها لم تتشوه من قبل المثقفين! إنها أغنيات تخرج من الروح. هل تفهم هذا؟ إنك أنقذت بثقافة! إن سلالة هان نفسها، وليس فقط الأقليات العرقية، مازالت تمتلك

ثقافة شعبية حقيقية، لم تتعرض للفساد الأخلاقي الكونفو شيوسي ! لقد وصلت إلى قمة الإثارة. مازال معك حق، ولكن اهدأ، واقرأ التتمة ! ترك بحماسة هذا التواضع الاصطناعي لصغار الموظفين. أخذ الدفتر الصغير ثانية، وبدأ بإنشاد القصائد مقلداً أستاذ الغناء وهو على رأس عمله:

هنا أسلم على الأيدي المضمومة

من أي بلد أنت أيها المغني؟

أين مسكنك؟

لماذا جئت؟

هذا هو جوابي:

من يانغزهو Yangzhou، أنا مغن

وجئت من ليوزهو Liuzhou. إنني أقوم بزيارة أصدقائي المغنين هذا هو سبب مجيئي. إنني أطلب عفوكم.

ماذا تحمل على كتفك؟ ماذا تضع في سلتك؟ إن حملك ثقيل، وظهرك محدودب، وقوامك محني. أظهر لنا من فضلك يا أستاذ الغناء. أحمل على كتفي مجموعة أغنيات. وأمسك بيدي كتابا غريبا هل قرأتم جميعا المجموعة والكتاب؟ جئت قصداً هنا لكي أستفسر. انتابني إحساس أنني ارى رجلا آخر، وأسمع صوتاً آخر، وأسمع الصنوج والطبول. مع ذلك، لا يسمع في الخارج إلا صفير الريح، وخرير الساقية إنني أحمل من الأغاني ثلاثمئة وستين محلا، فأيها تختار؟ وعندي من الأغنيات ستة وثلاثون ألف مجلد، فأي لفافة تريد؟

أريد أن أقول لأستاذ الغناء إنني معلم. اللفافة الأولى فيها الكتب الأصلية. والمجلد الأول فيه النصوص الأصلية. فهمت مباشرة.

أستاذ الغناء من الوطن. يستطيع أن يعرف الأحداث في الأصل.

يمكنه أن يعرف الجغرافيا، وعلم فلك الذرية. جئت هنا لأطلب في أي سنة، وفي أي شهر ظهرت الأغنيات؟

وفي أي شهر، وأي يوم ولدت الأغنيات؟

انتابني إحساس أنني أسمع صوتاً يائسا وجامدا لكهل في الظلام، على إيقاع ضربات الطبول التي تقدمها الريح. فوكسي Fuxi صنعت العود، ونوغوا اخترعت الأرغن الفموي ولدت اللغة بفضل يين Yin . ولد الصوت بفضل يانغ.

إن اتحاد يين ويانغ خلق الإنسان. وعندما ولد الإنسان، ظهر الصوت. وعندما ولد الصوت ظهرت الأغنيات. وعندما أصبحت كثيرة، جمعنا منها مجموعات. في ذلك الوقت، كان كونفوشيوس ينقح الكتب.

ضاعت في صحراء. طار المجلد الأول بالريح إلى السماء. عندها ولد الحب بين بوفيه Bouvier، وتيسيراند Tisserande . وسقط المجلد الثاني بفعل الريح في البحر، ولكي يطهر روحه انتشله الصياد العجوز وغناه. وسقط المجلد الثالث بفعل الريح في المعابد، فغناه الرهبان البوذيون، والرهبان الطاويون.

وسقط المجلد الرابع في شوارع قرية، فغنى الفتيان والفتيات حبهم. سقط المجلد الخامس في حقول الرز. وبدأ الفلاحون بغناء أغنيات الجبال. والمجلد السادس هو هذا "أخبار الظلمات"، ولكي يغني لأرواح الأموات، أخذه أستاذ الغناء.

- ألا يوجد في أخبار الظلمات إلا الغناء التمهيدي؟ طرحت عليه السؤال، وقد توقفت عن التجول في الغرفة. شرح لي أن هذا العمل هو ديوان أغنيات جنائزية تغني عند الدفن في الجبال، في الزمن الماضي. وتغني لمدة ثلاثة ايام وثلاث ليال متواصلة في الساحة، أمام صالة الدفن، قبل أن يدفن الديوان في التراب. ولكن لا يمكن أن نغنيها باستخفاف في مناسبات أخرى. وإذا غنيت، يصبح ممنوعاً أن نغني غيرها. وهو لم يسجل منها إلا قسما صغيرا، ولم يكن يتخيل أن أستاذ الغناء العجوز سيمرض ويموت.

- لماذا لم تسجلها كلها في ذلك الوقت؟ كان العجوز مريضاً جداً. وكان مستلقيا على سرير صغير تحت أغطيته. شرح لي هذا كما لو أنه ارتكب خطيئة. استعاد تواضعه.

- هل هناك من هو قادر على غناء هذه الأغنيات في الجبال؟

- هناك من يعرف بدايتها، ولكننا لا نجد من يغنيها كاملة.

إنه يعرف أيضاً أستاذا عجوزاً يمتلك صندوقا معدنيا زاخراً بدواوين الأغنيات، ومن بينها ديوان (أخبار الظلمات). كان يعد هذا الديوان، في زمن جرد الكتب القديمة، نموذجا وحيدا في موضوع الردة الرجعية. دفن العجوز الصندوق وعندما استخرجه بعد اشهر عديدة، كانت العفونة قد أصابت الكتب. وضعها في الفناء ليجففها، فأفشى به أحدهم. جاءه رجل بوليس ليجبره على تسليم الكتب إلى الموظفين، وبعد ذلك بقليل توفي.

- أين تمجد الأرواح؟ أين نجد الأغنيات التي نسمعها باهتمام شديد؟ جلس بهدوء وخشوع وسجد نحو الأرض. إننا لا نمجد ما يجب أن يمجد؟ إننا لا نمجد إلا الأشياء الغريبة! أي أمة دون روح ! أمة أضاعت روحها ! أخذني الغضب. فهمت أن علي الشرب كثيراً، وأنا أرى الرأس الذي يظهره أمامي هيئتي المأسوية.

- توقفت سيارة الجيب في الصباح أمام المبنى. جاء من يخبرني أن مدراء المنطقة الحراجية وكوادرها دعوا إلى اجتماع من أجلي لكي يخبروني بأعمالهم، وهذا ما سبب لي الإحراج في مركز المنطقة الإداري، تلفظت ببعض الكلمات، تحت تأثير الكحول، جعلتهم يعتقدون أنني جئت من العاصمة في مهمة تفتيشية. مما لا شك فيه أنهم تخيلوا أنني أستطيع نقل شكاواهم إلى رؤسائهم. صفت السيارة على

الباب، وأصبح من المستحيل التهرب.

- وصل الكوادر إلى صالة الاجتماع منذ وقت طويل، ويضع كل منهم كأسا من الشاي أمامه. قدموا لي الماء الساخن بعد أن جلست مباشرة. إن هذا مشابه للموقف الذي كنت فيه عندما رافقت وفدا من الكتاب. ينظم اتحاد الكتاب بين وقت وآخر زيارات إلى المصانع، والمعسكرات، والحقول، والمناجم، ومراكز البحوث حول الصناعة اليدوية الشعبية، والمتاحف التذكارية للثورة، بذريعة مساعدة الكتاب على التعرف على الحياة. وكان يوجد في هذه المناسبات، دائما رؤساء للكتّاب، أو كتّاب رؤساء على الكتّاب الآخرين، يلقون الخطابات تكريما للمناسبة. كان الكتاب الصغار مثلي، والذين يأتون لإكمال العدد، يستطيعون دائما أن يجدوا مكاناً بعيدا عن الأعين، وينتظروا في أحد الأركان وهم يشربون الشاي، ولكن دون التلفظ بكلمة. ولكن الاجتماع اليوم منظم من أجلي، وعلي أن أفكر حتما بما سأقوله.

- قدّم كادر أولا نظرة تاريخية عن المنطقة الحراجية، وتاريخ إنشائها. شرح أن إنكليزيا اسمه ويلسون جاء عام ١٩٠٧ ليجمع عينات. كانت المنطقة في ذلك الوقت مغلقة، ولم يستطع أن يصل إلا إلى أطرافها. كانت الغابة هنا قبل عام ١٩٦٠ بكرا، ولم يكن يرى ضوء الشمس، ولا يسمع إلا خرير الجداول. في الثلاثينات حذرت حكومة غو ميندانغ من قطع أشجارها. ولكن في غياب الطرقات، لم يكن أحد يستطيع الوصول إليها.

قدمت عام ١٩٦٠ خريطة من قبل فرق المسح الجغرافي الجوي التابعة لوزارة الغابات. وكان يوجد ٣٢٥٠ كم٢ من الغابات الجبلية. بدأ الاستغلال عام ١٩٦٢ من الشمال والجنوب، وفي عام ١٩٦٦، فتح خط اتصال. وفي عام ١٩٧٠ أنشئت وحدة إدارية تضم حالياً أكثر من خمسين ألف فلاح، ونحو عشرة آلاف من الموظفين والعمال في الحراجة وعائلاتهم. تأخذ الدولة حالياً أكثر من تسعمئة ألف متر مكعب من الخشب.

أطلق العلماء عام ١٩٧٦دعوة لحماية شينونغجيا. وقدمت عام ١٩٨٠ فكرة تأسيس محمية طبيعية قررت الحكومة المحلية عام ١٩٨٢ تحديد محمية على مساحة مليون ومئتي الف مو Mus. وفي عام ١٩٨٣ طرد فريق إنشاء المحمية المجموعة الحراجية من المنطقة المحمية، وخصص أربعة أبواب للدخول من كل جهة من جهاتها. ثم أنشأ الفريق مجموعات حماية تراقب بشدة السيارات والناس. أحصي في السنة الأخيرة ثلاثمئة إلى أربعمئة شخص اقتلعوا جذور الأشجار، وقشور الياسمين لاستخدامها في المجال الصيدلاني الصيني، وقطعوا الأخشاب أو

صادوا سرا. وفوق هذا جاء بعضهم ليخيم من أجل البحث عن الرجل المتوحش. وفي مجال البحث العلمي أعاد فريق صغير زراعة بعض الهكتارات بأشجار التونغ tong. نجحت إعادة إنتاج Emmenopterys Hemriyi، وهي إعادة إنتاج لا جنسية. وتزرع أيضاً بعض النباتات الطبية البرية مثل درة الرأس، وطاسة ماء الشواطئ، وساق الفرشاة، والزهرة ذات السبع أوراق، والعشب منقذ الحياة (هل هذه هي أسماؤها العلمية؟).

يوجد أيضاً فريق يبحث في الحيوانات البرية، بما في ذلك الإنسان المتوحش. وقد دون معلومات حول القرد ذي الأنف المرتفع، والنمر والدب الأبيض، والسنَّور الزّباد، والوعل، والخروف الأسود، والأرويّة[14]، وطير التدرج المذهب، والسمندل الضخم، وكذلك حول حيوانات غير معروفة مثل الدببة والخنازير، والذئاب برأس حمار والتي تأكل الخنازير الصغيرة، حسب ما يزعم الفلاحون.

بدأت الحيوانات تعود بعد عام ١٩٨٠، في السنة الماضية اصطيد ذئب رمادي وقرد بأنف مرفوع، وسمع صراخ قرد آخر، وشوهد ملك القرود وهو يقطع الطريق على الذئب الرمادي. وفي شهر آذار، تم الإمساك بقرد صغير على شجرة، مات بسبب رفضه تناول الغذاء. والتمير طائر يتغذى على رحيق الأضاليا. جسمه أحمر، وذيله مثل نبات الحلبية، ومنقاره حاد.

' مشكلة: لا ينظر جميع الناس إلى حماية الطبيعة بالطريقة نفسها. بعض العمال منزعج لأنهم لا يستطيعون الحصول على مكافأة. إذا كانت كمية الخشب المسلّمة أقل، فإنهم يتهمون بالتقصير من أعلى المستويات. لا تريد المؤسسات المالية أن تقدم لنا معونة مالية. ويوجد خارج المحمية الطبيعية أربعة آلاف فلاح يسببون مشكلة. يبلغ عدد الموظفين والعمال في المحمية الطبيعية عشرين فردا. إنهم يعيشون في ملاجئ متواضعة، وهم غير مطمئنين. لم يخصصوا بأي سكن. والمشكلة الأساسية أنه لم يرصد لهم أي مبلغ، وقد أطلقنا نداءات عديدة.' بدأ الموظفون الكبار يتناوبون على الكلام، كما لو أنني أستطيع التدخل لأحصل لهم على النقود. فضلت التوقف عن تسجيل الملاحظات. أنا لست مسؤولا كاتبا، أو كاتبا مسؤولا أيها الزملاء يستطيع التحدث بثقة ويعطي الملاحظات في المكان ويأخذ بعين الاعتبار مجموع المشكلة، ثم يطلق سلسلة من الوعود الكاذبة، ويقول مثلاً إنني أستطيع التكلم مع هذا الوزير أو ذاك بشأن هذه المسألة، وأنقلها إلى هذه الجهة

---

١٤ الأروية: جنس حيوانات عاشبة مجترة لبونة من قسم الضأنيات وفصيلة الغنميات (م)

الإدارية أو تلك، سأطلق نداءا كبيرا وسأنبه الرأي العام لتعبئة الشعب كله لكي يحمي البيئة الطبيعية لأمتنا.

ولكنني لا أستطيع أن أحمي نفسي، فما الذي أستطيع فعله؟ كل ما أستطيع فعله؟ كل ما أستيطع قوله هو إن حماية البيئة الطبيعية أمر مهم جدا، وهذا يتعلق بأطفالنا الصغار وبالأجيال المستقبلية، وأن يانغزي Yangzi أصبح مثل هوانغ هي Huanghe، لقد تجمعت الرمال فيه، بالإضافة إلى أننا نرى بناء سد كبير على ثلاثة شعاب ! ولكنني بالتأكيد لا أستطيع قول هذا، وأفضل طرح أسئلة عن الرجل المتوحش.

– قلت إن الناس تتحدث عن هذا الرجل المتوحش في البلد كله... واندفعوا إلى الموضوع.

– وكيف نظمت أكاديمية العلوم في بكين بحوثا عديدة. كان البحث الأول عام ١٩٦٧، ثم عام ١٩٧٧، وعام ١٩٨٠. وفي كل مرة كان فريق يأتي للبحث. وكانت حملة عام ١٩٧٧ هي الأكثر أهمية: تألف فريق البحث من مئة وعشرة رجال معظمهم من العسكريين، دون حساب الموظفين والعمال الذين أرسلناهم نحن. وحضر مع الفريق كذلك أحد الموجهين السياسيين لفرقة عسكرية استأنفوا خطاباتهم. أي نوع من اللغة علي أن أجدها لكي أتحدث معهم بقلب مفتوح؟ ولكي أطلب منهم كيف يقضون حياتهم هنا. من المؤكد أنهم سيتحدثون أيضاً عن الإمدادات المادية، وعن ثمن المواد كثيرة الاستخدام، وعن رواتبهم، في حين أن إمكاناتي المادية ضعيفة جدا. علاوة على ذلك، هل هذا المكان مناسب حقا للثرثرة؟ ولا أستطيع أن أقول لهم أيضاً إن العالم الذي نعيش فيه أصبح صعب الفهم، وإن الأفعال الإنسانية أصبحت مع الزمن غريبة، وإن الناس لا تعرف حتى ماذا يريدون، هذا كله وأنا راغب في العثور على الرجل المتوحش. ولكن عماذا نتحدث إذا لم نتحدث عن الرجل المتوحش؟ قالوا إن أحد الأساتذة رآه العام الماضي. وكان في الفصل نفسه، في شهر حزيران أو تموز، ولم يجرؤ على الحديث عنه. ولم يصرح بهذا إلا لأقرب صديق له، وطلب منه ألا يفشي شيئاً. هذا صحيح، منذ فترة قريبة أصدر أحد الكتاب (الحكاية الحزينة للرجل المتوحش في شينونغ) في مجلة هونان Hunan. وصلت المجلة إلى هنا. وقرأها الجميع. ومن هنا بدأت حركة البحث عن الرجل المتوحش والتي امتدت إلى هونان، وجيانغكسي، وزهيجيانغ، وفوجيان، وسيشوان، وغويزهو، وأنهوي... (ولم ينقص إلا شنغهاي!) تحدث الجميع عن هذا في كل مكان ! أسر في غوانغسكي حقيقة رجل متوحش صغير– وتسمى هذه

المخلوقات هناك شياطين الجبل- ولكن الفلاحين يعتقدون أنهم يجلبون الشقاء، ولذلك أطلقوا سراحه. (أي خسارة!) ثم هناك من أكل من لحم الرجل المتوحش. هذا لا أهمية له، بالإضافة إلى أن أفراد فريق البحث قد قاموا من قبل بالتحقيقات، وعندهم وثائق مكتوبة أكدوا أن نحو عشرين شخصاً، وكلهم عمال من محميتنا، وبينهم زهانغ رينغوان، ووانغ ليا نغكان أكلوا في مطعم مزرعة يانغريوان عام ١٩٧١، فخذ رجل متوحش وقدمه! يصل طول أخمص القدم إلى نحو أربعين سنتمترا، وكان سماكة الأذن الضخمة خمسة سنتمترات بطول عشرة، وسماكة القدم عشرون سنتمترا، وتزن خمسة عشر كيلوغراما، وهذه كلها وثائق موثقة. كل واحد منهم أكل طبقا كبيرا ممتلئا. إن فلاحا من بانشوي هو الذي قتله ببندقيته، وباع منه ساقا إلى مطعم يانغريوان. تلقى زينغ كيانغو صفعة من رجل متوحش بشعر أشهب، وطوله أكثر من مترين، وذلك في عام ١٩٧٥ على الطريق الذي يقود من كياو شانغ Qiaoshang إلى بلدة يوزي Yusai . بقي لفترة طويلة مرميا على الأرض، ولم يعد يتكلم خلال ثلاثة أو أربعة ايام بعد عودته إلى منزله. هذه هي التقارير التي جمعوها، بالاعتماد على شهادات شفهية، معتمدين على المنهج الإحصائي للتحليل المقارن. ألم يشاهد زهاو كويديان رجلا متوحشا يأكل توتاً في وضح النهار؟ في أي سنة؟ ١٩٧٧ أو ١٩٧٨؟ كان ذلك قبل أيام قليلة من وصول فريق البحث الثاني من أكاديمية العلوم. من المؤكد أننا غير مجبرين على تصديق هذا كله. إضافة إلى أن يفرق البحث وجهتي نظر مختلفتين عند فرقهم البحثية.ولكن إذا سمعنا ما يقوله الفلاحون، فإن الرجل المتوحش منحرف كثيراً. يقولون إنه يلحق النساء، ويتلاعب بالفتيات الصغيرات، ويقوم ببعض الحماقات، أو أنه يستطيع التكلم، وأن صوته يتغير بحسب حالته إذا كان سعيدا أو غاضبا.
سألت: هل هناك من بين الحاضرين من رأى الرجل المتوحش بأم عينه؟

ضحك الجميع وهم ينظرون إلي. لا أعرف إذا كان هذا يعني أنهم شاهدوه أم لا.

بعد ذلك اصطحبني موظف إلى المنطقة المركزية في المحمية الطبيعية التي استغلت. قمتها جرداء تماماً. بدءا من عام ١٩٧١، ولمدة سنتين متتاليتين، قطعت أشجار الغابات من قبل وحدة عسكرية مؤللة. كان يقال إن الخشب مخصص للدفاع الوطني. ولم نكن نستطيع أن نرى مرجا بهذا الجمال إلا على ارتفاع ألفين وتسعمائة متر. أمواج من العشب الأخضر الطري تتماوج تحت الضباب والمطر. وفي الوسط، تنتصب غيضات مستديرة من الخيزران السهمي. بقيت واقفا زمناً

طويلا تحت البرد، أتأمل هذه القطعة من الطبيعة البكر.

قال زهوا نغزي بوضوح منذ أكثر من ألفي عام إن الخشب المفيد يموت تحت الفأس، في حين أن الخشب غير المفيد يشهد نموا سريعا. والإنسان اليوم أكثر جشعا من السابق.

إن نظرية التطور عند هوكسلي يمكن أن توضع موضع شك. مع ذلك رأيت أيضاً في الجبل ديسما (ابن دب) في مخبأ خشبي لإحدى العائلات. ربط حبل حول عنقه، ويشبه كلبا صغيرا أصفر. لم يتوقف عن تسلق كومة الخشب وهو يطلق صوته، وكان لا يزال غير قادر على الدفاع عن نفسه بالعض. قال لي رب البيت أنه أمسك به في الجبل. لم أسأله إذا كان قد قتل والديه. وجدت هذا الديسم رائعا. عندما رأى أنني مفتون به، اقترح علي أن أشتريه بعشرين يوانا. لا أخطط لأتعلم حركات السيرك، وكيف أستطيع أن أواصل رحلتي معه؟ إنني أفضل أن أحتفظ بحريتي.

شاهدت أيضاً على باب أحد البيوت جلد فهد يجفف يستفاد منه كمفروشة، وبدأت الديدان بقضمه. حيوانات الببر اختفت، حتماً، منذ أكثر من عشر سنوات. وشاهدت كذلك نموذجا من قرد ذي الأنف المرتفع، فهو دون شك، الذي أسر على شجرة، ومات بسبب رفضه تناول الطعام، هذا كل ما يستطيع فعله حيوان بري يفقد حريته، ويرفض الترويض، ولكنه يحتاج إلى كثير من الإرادة، والناس يمتلكون منها الكثير.

رأيت أمام مدخل إدارة هذه المحمية الطبيعية شعارا جديدا يعلن: 'لنحيي بحرارة تأسيس لجنة حركة الأشخاص المسنين!' اعتقدت أن حركة سياسية جديدة ستنشأ، وسألت بسرعة الموظف عمن ألصق هذا الشعار. شرح لي أن أمر تعليقه جاء من الأعلى، ولكن هذا لا يعنيهم. وحدهم الكوادر الثورية المتقدمة في السن والذين وصلوا إلى الستين، يستطيعون أن يستلموا مساعدة من مئة يوان من أجل نشاطات رياضية، ولكن الكادر الأكبر سنا هنا ليس له أكثر من خمسين سنة، ولا يستلم أفراده إلا بطاقة تكريمية كجائزة ترضيه. بعد ذلك قابلت صحفيا شابا روى لي أن المسؤول عن هذه اللجنة للمسنين كان هو نفسه سكرتير لجنة الحزب القديم في المنطقة. ومن أجل الاحتفال بتأسيس اللجنة، فرض على الحكومة المحلية مبلغ مليون يوان. كان هذا الصحفي الشاب يريد أن يكتب تقريرا ويرسله مباشرة إلى هيئة التفتيش في اللجنة المركزية للحزب. وسألني إذا كنت أمتلك وسيلة لإيصاله إلى هدفه. تفهمت غضبه، ولكنني نصحته أن يرسله بالبريد، وكانت هذه الوسيلة

أفضل من تسليمه لي.

أخيراً رأيت هنا أيضاً فتاة رقيقة. كان على أنفها نمش، وتلبس قميصا من القطن بأكمام قصيرة، وقبة مجوفة، ونوعا من التي -شيرت المختلف عن الملابس التي يلبسها سكان الجبال. من الواضح أنها من قرية زيغوي Zigui موطن كويوان Qu Yuan، وتقع في الجنوب على ضفة يانغزي. حاصلة على الشهادة الثانوية، وقد جاءت إلى ابن عمها هنا معتقدة أنها ستجد عملا في المحمية الطبيعية. لقد شرحت أن بلدية منطقتها كانت قد أخطرت أن أعمال إنشاء السد الكبير للخوانق الثلاثة ستبدأ قريباً، وأن المركز الإداري سيغرق. ملأ الجميع بطاقات تسجيل لإخلاء السكان الذين استعدوا للعثور على أنماط حياة جديدة. وصلتُ، بعد ذلك، إلى ييشانغ، مع مجرى نهر كسيانغ، نحو الجنوب، حيث ولدت أجمل النساء. مررت بالقرب من منزل وانغ شلوجون الجميلة والقديمة، ذي السقوف المائلة من الآجر الأسود، بجانب الهضبة وعلى ضفة النهر. أخبرني أحد المؤلفين الهواة من ييشانغ Yichang، أن مدينته ستكون هي المركز الإداري لمنطقة الخوانق الثلاثة، وأن المرشح لرئاسة اتحاد الكتاب المستقبلي للخوانق الثلاثة قد اختير: وكان هذا المرشح شاعرا حائزا على جائزة، وكنت قد سمعت عنه مؤخراً، حتى وإن كنت لم أعجب به كثيراً.

تركت منذ وقت طويل نظم الشعر، ولم أعد أكتب القصائد. تساءلت إذا كنا مازلنا في عصر الشعر. إن كل ما يجب أن يُغنى أو يُبتكر، كان قد غني وابتكر من قبل، والباقي ألف وطبع بحروف ثقيلة من الرصاص، ويسمى هذا الدال. ووفق صور الناس المتوحشين التي رايتها، والتي شكلت بالاعتماد على الاستنتاجات العلمية المستخلصة من الوصوفات الشفهية المأخوذة من شهود عيانيين، ونشرتها جمعية البحث عن الرجل. المتوحش، فإن هذا الرجل. بكتفين المتهدلتين، وقامته المحنية، وساقاه المقيدتين، وشعره الطويل مع بسمته الدائمة، هذا هو الدال. والمشهد الغريب الذي رأيته في ليلتي الأخيرة في ميدان (أسماك من خشب) في شينونغجيان، في منطقة المحمية الطبيعية في الغابة البكر، ألا يمكن أن يعد قصيدة؟ القمر ينير الميدان الخالي، وفي ظل الجبل الضخم، ينتصب قضيبان طويلان من الخيزران. علق عليهما مصباحان بتروليان يرسلان ضوءا أبيض، ووضعت ستارة بينهما، ويخيم فريق سيرك في المكان، ويرافقه برق حاد مدوٍ، وطبل كبير بصوت حزين، أكلته الرطوبة. يحتشد هنا أكثر من مئتي شخص من كبارِ السن والأطفال الذين جاؤوا من هذه القرية الجبلية الصغيرة، وكذلك الكوادر والعمال في

المحمية الطبيعية بصحبة عائلاتهم، بما في ذلك أيضاً الفتاة الهيفاء ذات النمش، القادمة من قرية كو يوان، وهي تلبس مايو مجوفا والذي يسمى تي-شيرت وفق اللفظ الإنكليزي. ويصطفون على شكل قوس دائري على ثلاثة صفوف. يجلس المشاهدون في الوسط على مقاعد جلبوها من بيوتهم، وخلفهم يقف مشاهدون آخرون، أما البعيدون في الخلف فإنهم يمدون رؤوسهم كي يحاولوا أن يروا من بين الرؤوس الأمامية.

يتألف البرنامج من مشهد كيغونغ Qigong المخصص لكسر قطع قرميد. وتتكسر قطعة، ثم قطعتان، فثلاث إلى قسمين، بضربة واحدة من مقبض اليد. ورجل آخر يشد حزامه، ويبلع كرتين من الحديد، ثم يخرجهما مع سيل من اللعاب. تسلقت فتاة ضخمة ساريتين من الخيزران علقت عليهما صنارتين مهذبتين. بصقت نارا. همست النساء الحاضرات "هذه خدعة، هذه خدعة"، وتبعهم الأطفال. صرخ رئيس الفرقة:

- جيد، إليكم عرض حقيقي ! تناول رمحا وطلب من الرجل الذي بلع كرتي الحديد أن يسند رأس الرمح إلى صدره، ثم إلى حنجرته، حتى ينحني الرمح ويأخذ شكل قوس. تنتفخ عروق زرقاء على جبهة هذا القوي البنية الأصلع. انطلقت الأيدي بالتصفيق، سُرَّ الجمهور أخيراً.

بدأ الجو، في المكان، بالاسترخاء، وصدى البوق يجاوب في الجبل، وأصبح الطبل أقل حزنا، واستعاد الناس نشاطهم. ظهر القمر من بين الغيوم، وبدا ضوء المصابيح البترولية أكثر بريقا. حملت المرأة الضخمة والقوية سطل ماء على رأسها، وأمسكت في كل يد بقضيب من الخيزران ، وبدأت بتدوير الصحون، ثم أدارت جسدها المستدير وشكرت الحضور وهي تقفز على أخمص قدميها، مثلما يفعل الراقصون على التلفزيون. صفق الحضور. مدير الفريق متحدث بارع، وأصبحت نوادره تزداد بالتدريج في حين كانت العروض تقل بالتدريج، ازدادت حرارة المكان، وعم الحبور الحضور.

العرض الأخير كان عرض الحركات البهلوانية. فقفزت فتاة شابة تلبس ملابس حمراء، و كانت تقدم حتى الآن أغراض الألعاب، فوق طاولة مربعة عليها ثلاث كراس تشكل هرما. انفصلت فوق ظل الجبال، جسد أحمر مضطرم مضاء بنور المصابيح الأبيض. وفي السموات، أظلم قرص القمر في وقت مبكر قليلا، صار برتقالياً.

أخذت أولا شكل طائر التدرج الواقف، وهي تضم بهدوء ساقها بين يديها وترفع

رأسها إلى الأعلى. صفق الحضور. ثم باعدت تماماً ساقيها بشكل أفقي وجلست على كرسي، دون أن تحركه. حياها الجميع. وأخيراً، باعدت أيضاً الساقين، انحنت إلى الخلف، مبرزة عظم عانتها.

حبس الجميع أنفاسهم. عاد راسها للظهور مرة ثانية ببطء من بين فخذيها، كأنها شيطان. ضمت الفتاة رأسها بين ساقيها، وتدلت خصلة شعر طويلة. حملقت بعينين واسعتين مستديرتين، وسوداويتين، كما لو أنها تنظر إلى عالم مجهول. ثم أخذت بين يديها الاثنتين وجهها الطفولي الصغير. قيل إنها عنكبوت حمراء بشكل بشري، تمعن النظر في الحشد.

أوقف الحضور الذي كان يستعد للتصفيق حركته، استندت إلى اليدين، ورفعت ساقيها ثم بدأت الدوران على يد واحدة، ارتسمت من خلال لباسها الأحمر بوضوح حلمتا نهديها. سمعت شهقات المتفرجين، وفاحت رائحة العرق. أراد أحد الأطفال التكلم فصفعته المرأة التي تحمله على ذراعيها لكي يسكت. عضت الفتاة بالثوب الأحمر على أسنانها، ارتفع بطنها وانخفض بهدوء، وبدأ وجهها يلمع من التعرق. استمرت في ثني جسدها حتى ضاع شكله الإنساني، على ضوء قمر كامل، وتحت ظل هذه الجبال العميق. وما بقي يعبر عن عذابها فقط شفتاها الناعمتان وعيناها السوداوان البراقتان. ويؤكد هذا العذاب الرغبة المتوحشة للرجال. في هذه الليلة هاج الناس بشدة كما لو أن دم ديك يسيل في عروقهم. وعلى الرغم من تأخر الوقت، فإن البيوت جميعها بقيت مضاءة، وفي الداخل تتجاوب طويلا الأصوات وضجيج الأغراض التي يصطدم بها الناس. وكان من المستحيل علي أن أخلد إلى النوم، وقادتني قدماي إلى الساحة الخالية الآن. أنزلت المصابيح البترولية، ولايتسرب إلا ضوء القمر الصافي كالماء. لم أقتنع أنه في ظل هذه الجبال المهيب والعميق، يمكن أن يقدم مثل هذا العرض، الذي يتغير فيه الشكل الإنساني إلى هذه الدرجة، تساءلت إذا لم يكن هذا قردا.

-٦٠-

- لا تفكر في شيء عندما ترقص. تعرفت عليها منذ وقت قريب، وهذه أول مرة ترقص معها. وتقول لك هذا.

- سألتك ما الذي حدث؟

- الرقص هو الرقص، لا تتعمد أخذ هذا المظهر الخطير. انفجرت ضاحكا- قليلاً من الجدية، ضمني. نعم. انفجرت من الضحك. لماذا تضحكين؟ -بالتأكيد نعم.

- تضمها. أحسست بصدرها الطري، واستنشقت رائحة عطر لطيفة فاحت من بشرتها المكشوفة عند الكتفين. الضوء خافت في الغرفة، وضعت مظلة مطر سوداء أمام المصباح الموضوع في زاوية. ذاب وجه الشريكين اللذين يهما بالرقص في العتمة. وتصدح موسيقى عذبة من جهاز تسجيل قديم. – قالت بصوت منخفض: هكذا، هذا جيد.

ارتفع نفسك فوق صدغيها وشعرها الناعم الذي داعب خديك.

- إنك مثيرة جدا. – ما الذي يعنيه هذا؟

- إنني أحبك، حتى وإن لم يكن هذا هو الحب الكبير. الوضع هكذا أفضل الحب الكبير معقد جدا. – تقولين إنك تحسين الإحساس نفسه.

- قالت وهي تضحك بخجل قليلاً : إننا نحن الاثنان من النوع نفسه.

- لقد خلق أحدنا للآخر. – لن أخاطر بالزواج منك. ولماذا تريدين؟

- ومع ذلك سأتزوج. – متى؟ –ربما في السنة القادمة.

- هذا مبكر جدا. وحتى السنة القادمة، لن يكون الزواج منك.

- إنني أعرف أنه من غير المفيد أن نحدد. والمشكلة هي ممن.

- من رجل، على كل حال.

- أي رجل؟ ليس بالضرورة. ولكن على كل حال، يجب علي أن أمر بهذه التجربة. وبعد ذلك تطلقين؟ ربما. وفي هذا الوقت، ستكون عندي فرصة لمراقصتك من جديد

- ولكن لن أتزوج منك. ولماذا يجب فعل ذلك حتما؟

- أنت تحس جيدا بالأشياء. إنها تبدو جادة. شكرتها.

تظهر من خلال النافذة آلاف الأضواء المتلألئة: مصابيح الشقق على شكل

مكعبات وأنوار السيارات التي تسير مشكلة قافلة متواصلة.

رسم زوجان من الراقصين دائرة في الغرفة الصغيرة، وصدماك في الظهر.

توقفت لكي تمسك بشريكتك. – ألا تعتقد أنني سأهنئك لأنك ترقص جيدا. أفادت من هذا لكي تعود إلى الهجوم.

- إنني لا ارقص لكي أظهر نفسي. – لماذا إذن؟ لكي تتقرب من النساء؟

-هناك وسائل أخرى للتقرب أكثر. – أنت لست حليما. – لأنك لا تتركيني أبدا.

– حاضر، لن أتكلم أبدا. اندست في حضنك، وأغمضت عينيك.

إن الرقص معها متعة حقيقية، رأيتها ثانية في ليلة خريفية كانت تصفر فيها ريح شمالية غربية باردة جدا. واجهت الريح على عجلة هوائية. وعلى الطريق تموت أوراق الأشجار، وتتطاير الأوراق الوسخة. جاءتك فجأة رغبتك للذهاب ورؤية أحد أصدقائك وهو رسام، ويمكنك الانتظار عنده حتى تخف الريح. دخلت في زقاق مضاء بمصباح أصفر خفيف، ورأيت خيالا منعزلا، الرأس داخل بين الكتفين، أحسست فجأة بالحزن قليلاً. ينبعث ضوء خفيف من نافذة مسكنه.

تقرع الباب. رد عليك صوت ضعيف. فتح وقال لك بأن تأخذ حذرك وأنت تمشي في الظلام. كانت الغرفة منارة بشمعة موضوعة داخل جوزة هند مقسومة. ليس سيئا. أعجبت بعذوبة المكان. ما الذي تفعله؟ رد عليك، لا شيء. الحرارة مرتفعة في الغرفة. وهو يلبس كنزة صوف فضفاضة، والشعر منكوش. في الشتاء يوضع موقد مزود بمدخنة.

- هل أنت مريض؟

- لا، لاحظت حركة جانب الشمعة. أصدرت نوابض الكنبة القديمة صريرا، واكتشفت عندها وجود امرأة. قلت لكي تعتذر؛ ألديك ضيفة.

- الأمر عادي. أجلس. وأشار لي أن أجلس على الكنبة. هنا عرفتها أخيراً. مدت لك يدها بهدوء، وهذه اليد ضعيفة وناعمة. وشعرها الطويل مسترسل أمام عينيك. نفخت على خصلة شعر لكي تبعدها.

- قلتُ مُمازحاً: – إذا كنت أتذكر جيدا، لم يكن شعرك طويلا إلى هذا الحد سابقاً.

أحيانا اربطه، وأحيانا أخرى أتركه مسترسلا. الأمر أنك لم تلحظ ذلك. ضحكت وهي تمط شفتيها. سأل صديقك الرسام: أتعرفان بعضكما بعضاً. – رقصنا معاً عند أحد الأصدقاء. – قالت بصوت ساخر قليلاً: أهكذا، إنك تتذكر ذلك. – إذا رقصنا مع شخص هل يمكننا نسيانه؟ سيطفئ النار. اللهب الأحمر

الداكن ينعكس على السقف.

- ماذا تشرب؟ قلت إنك عابر، وإنك ستمكث دقيقة وترحل بعدها.

- قال: لا شيء خاص أفعله. – قالت أيضاً: لا يهم. ثم صمتا.

استمرا في الحديث، أنا جئت فقط لاستعادة الدفء، لقد كنت متجمدا من البرد. سأرحل من هنا عندما تهدأ الريح قليلاً. قالت: لا، إنك جئت في الوقت المناسب، ثم صمتت. من الأفضل القول إنني وقعت كشعرة في الحساء. من الأفضل لك أن تنهض، ولكن صديقك أمسكك من الكتف قبل أن تتحرك. نستطيع تغيير الحديث لأنك هنا. لقد انتهينا من قول ما نريد قوله.

تكلما، تكلما، إنني أستمع إليكما. استلقت على الكنبة. ولم أر إلا محيط وجهها الأبيض. إن أنفها وفمها جميلان جداً. لم تتوقع قط أنها بعد هذا الزمن الطويل ستجد عنوانك. فتحتَ الباب وسألتُ: -كيف عرفتِ أنني أقطن هنا؟

- ألا تدعونني إلى الدخول؟ بالعكس، ادخلي، ادخلي.

أدخلتها وسألتها إذا كانت قد حصلت على عنوانك من صديقك الرسام.

لقد كنت تراها دائما في الظلمة، ولم تكن واثقا من أنك ستتعرف إليها. ربما يكون هو، وربما يكون شخصاً آخر. عنوانك سري؟

قلت إنك لم تكن تعتقد أنها ستأتي لرؤيتك، وستكون سعيدا لذلك.

- نسيت أنك أنت الذي دعوتني. – هذا ممكن. – والعنوان حصلت عليه منك، أنسيت هذا كله؟

قلت: هذا مؤكد وأنا سعيد لوجودك هنا.

- عندما يأتي إلينا نموذج حي فكيف لا نسعد بذلك؟

- أأنت نموذج؟ لِمَ تُخفِ دهشتك. كنت أقوم بذلك، بل كنت نموذجا عاريا.

قلت إنك تأسف لأنك لست رساما، ولكن ماذا تفعل بالصورة كهاو.

- سألت: هل يبقى من يأتي إلى هنا واقفا دائما؟ رتبت الغرفة بسرعة

- هنا، كأنك في بيتك، افعلي ما تشائين. وأنت تنظر إلى الغرفة أدركت مباشرة أن سيد المكان لا يخضع لاي قانون. جلست على زاوية مكتبك، وألقت نظرة دائرية. يبدو أن المكان بحاجة إلى امرأة.

- إذا شئت، ولكن بشرط ألا تصبح سيدة سيد هذا المكان، لأن ملكية هذه الغرفة ليست له. كلما التقيتها، تتجادل معها، لا تريد أبدا أن تبدو خاضعا لها. – قالت وهي تأخذ الشاي الذي أعددته لها، شكرا. ثم أضافت وهي تبتسم: كن جديا قليلاً. صمدت. وليس أمامك إلا الرد. نعم. موافق. ملأتَ بدورك كأسك، وجلست

على الكنبة مقابل المكتب. هنا، شعرت بالراحة أكثر، واستدرت نحوها.

- يمكننا المناقشة، والحديث قليلاً. هل أنتِ نموذج حقاً؟ طرحت السؤال بطريقة غير مؤذية. – ليس الآن. لقد كنت في الماضي نموذجا لرسام قديما: إن ما تقوله صحيح. عليك تجنب الموضوع. هل أنت حقا نموذج؟

- إنني أتحدث عن مهنتك، عندك عمل أليس كذلك؟ سألت وهي تضحك هل هذا السؤال مهم جدا؟ إنها ماكرة، وتريد دائما أن تصمد أمامك.

- ليس بالضرورة، ولكنني أطرح السؤال لكي أعرف عما ذا أتحدث معك، ولكي يمكننا الحديث عن أشياء تهمنا أنا وأنت. – قالت وهي تهز رأسها: أنا طبيبة. وقبل أن تأخذ الوقت لتستوعب ما قالته سألت: أأستطيع التدخين؟ – بالتأكيد، وأنا أدخن أيضاً. ناولتها مباشرة لفافات التبغ، والمنفضة. أشعلت سيكارة، وسحبت منها نفسا طويلا.

- قلت وأنا أحاول فهم سبب قدومها : هذا غير واضح.

- لهذا قلت إن مهنتي غير مهمة كثيراً. هل تعتقد أنني أقول الحقيقة عندما قلت إنني كنت نموذجا؟ أخرجت دخان السيكارة بهدوء، وهي ترفع رأسها. وعندما تقولين إنك طبيبة، فهل تقولين الحقيقة. ولكنك لم تلفظ هذه الجملة. سألتك: أنت تعتقد أن النساء النموذج كلهن نساء لعويات. – ليس بالضرورة. النموذج هو أيضاً مهنة جادة جدا. أظهرت جسدها، إنني أتحدث عن النماذج العارية، ليس في هذا ما يسيء. كل ماهو طبيعي جميل، إن عرض الجمال الطبيعي، كرم وسخاء، وليس خفة. بالإضافة إلى أن الجسد البشري أجمل من أي لوحة فنية. الفن، إلى جانب الطبيعة شاحب وفقير. وحدهم المجانين يرون الفن أسمى من الطبيعة. إنك تتكلم باقتناع كامل. سألتك: ولماذا تمتهن الفن؟ قلت إنك لم تصل إلى الفن، وما تقوم به هو الكتابة والكتابة فقط، كتابة ما ترغب في قوله، هكذا يأتيك.

- ولكن الكتابة فن أيضاً. هل تعتقد يقينا أن الكتابة ليست إلا تقنية.

- يكفي امتلاك التقنية، مثلا، التقنية الجراحية، حتى وإن كنت طبيبة عامة أو جرَّاحة، هذا لا أهمية له، التقنية تكفي. كل الناس يمكنهم الكتابة، بالطريقة نفسها التي يستطيع فيها كل الناس تعلم الجراحة.

قهقهت بالضحك. وبعد ذلك تقولين إنك لا تظنين أن الفن مقدس، الفن طريقة طرق من الحياة، للناس طرقهم المختلفة في الحياة، الفن لا يستطيع أن يغير كل شيء. – قالت : إنك مثقف حقا. قلت: وأنت كذلك لست غبية. – مع ذلك هناك أغبياء. – من؟ الرسامون، لا يعرفون النظر إلا عبر عيونهم الخاصة. – للرسامين

طريقتهم الخاصة في الإدراك، إنهم يفضلون النظر، بالمقارنة مع الكتاب. - هل يساعد النظر في فهم القيمة الداخلية للفرد؟ - بالظاهر لا، ولكن المشكلة هي في معرفة ما يسمى قيمة. هذا يعتمد على الناس، لكل طريقته الخاصة في رؤية الأشياء. إن قيمة مختلفة لا أهمية لها إلا عند الناس الذين يمتلكون منظومة قيم واحدة. لا أريد أن أثني على جمالك، لا أعرف إذا كان جمالك داخليا أيضاً، ولكن ما أستطيع قوله، هو أن الحديث معك ممتع جدا. ألا يبحث الرجل دائما عما هو ممتع في الحياة؟ الحمقى هم وحدهم الذين لا يبحثون عما هو مفرح.

- أنا أيضاً سعيدة معك.

وهي تتحدث امسكت بشكل آلي مفتاحا كان على الطاولة، ولعبت به. إنك تحس أنها ليست سعيدة تماماً. عندها بدأت تحدثها عن هذا المفتاح.

- سألتِ : عن أي مفتاح؟ - هذا المفتاح الذي بيدك.

مابه؟ قلت إنك أضعته. - إنه هو، أليس كذلك؟ وأظهرت المفتاح الذي كان في يدها. قلت إنك تعتقد أنك أضعته، ولكنه في الواقع، في يدها. وضعت المفتاح على الطاولة ونهضت فجأة وهي تقول : علي أن أرحل. - هل لديك شيء مستعجل؟ قالت: نعم عندي عمل. ثم أضافت: أنا متزوجة. - مبروك. وقعت في حيرة قليلاً.

سأعود . من أجل أن أسليك. - متى ستعودين؟

- عندما سأكون سعيدة. لن أعود وأنا حزينة لكي أتجنب أن أنقل لك حزني، ولكن في المقابل يجب ألا أكون سعيدة جدا....

- كما تريدين، فهمت. قلت أيضاً إنك تريد أن تكون متيقنا من أنها ستعود. سأعود لأتحدث معك عن المفتاح الذي أضعته وبحركة من رأسها، أرخت شعرها على كتفيها، ضحكت بخبث، وهبطت بسرعة على الأدراج.

أراني صديق صفي القديم الذي لم أشاهده منذ أكثر من عشر سنوات الصورة التي أخرجها من درج. ويشاهد برفقة شخص لم نستطع أن نحدد عمره أو جنسه. قال إنها امرأة. إنهما في بستان خضراوات، أمام معبد قديم منهار. سألتني إذا كنت أعرف رواية (المرأة- فارسة النهر). إنني أتذكرها بوضوح: وهي رواية فروسية من مجلدات عديدة، كان أحد الأصدقاء قد أخفاها في بيته، وجلبها معه إلى المدرسة الابتدائية عندما كنت طالبا في الثانوي. كانت هذه الروايات ممنوعة بصورة قاطعة. وهناك كتب قديمة أخرى مثل الفرسان الثلاثة عشر، والسيوف السبعة، وأخبار فرسان جبال إيمي Emei، والأخوات الثلاث عشرة، وكان بإمكاننا أن نصطحبها إلى بيوتنا إذا كنا أصدقاء لأصحابها، وإلا علينا أن نلقي عليها نظرة

سريعة في الصف، ويكون الكتاب محصورا في درج المكتب. إنني أتذكر أيضاً أنني كنت أملك، وأنا صغير، سلسلة من الرسوم المصورة المأخوذة من رواية (المرأة فارسة النهر). لسوء الحظ أضعت بعضها وأنا ألعب بالكلل الزجاجية الصغيرة، وحزنت عليها. إنني أتذكر أيضاً أن هذا الكتاب، أو (الأخوات الثلاث عشرة) أو (المرأة الفارسة) كان له تأثير في إيقاظ الدافع الجنسي عندي، الذي كنت أجهل عنه كل شيء في ذلك الوقت.

وكانت هذه السلسلة من الرسوم المصورة قد جاءت من بائع كتب قديمة عجوز. تظهر في إحدى الصور زهرة دراق تحملها ريح قوية، وتحتها كتب أنه في ليلة عاصفة كئيبة، وصلت إلى هذا المكان أو ذلك.

وكان المعنى المضمر هو أن " المرأة الفارسة" كانت قد أسرت من قبل أحد الأوغاد الذي كان يتقن أيضاً الفنون المادية. في الصفحة التالية، ترفع ·المرأة الفارسة) يديها عالياً لتحية السيد وولين Wulin، وتدربت على تنفيذ العرض السحري للسيوف الطائرة، ثم لم تفكر إلا بإشباع رغبتها في الانتقام، فعثرت على عدوها وشقت رأسه برأس سيفها. ولكن الرحمة أخذتها به فجأة بطريقة غير مفهومة، فاكتفت بقطع يده وتركته حيا. — سألني صديق صفي القديم: هل تظن أنه مازالت هناك نساء فارسات؟ — يوجد واحدة منهن في هذه الصورة.

لم أفهم إذا كان يريد التندر. كان صديقي في الصورة مع قامته الجبارة ونظارته، ولباسه الرسمي كجيولوجي، وهيئته البسيطة والجدية، يذكرني دائما بفأر المكتبة المسماة بيير في الحرب والسلام لتولستوي. عندما قرأت هذه الرواية، كان صديقي نحيلا، ولكن وجهه كان مستديرا، يوحي بالبراءة مع نظارة معلقة دائما على طرف أنفه، ويشبه قليلاً صور بيير في مجموعة لأعمال تولستوي، التي رسم صورها رسام روسي. في الصورة، (المرأة الفارسة) تلبس كفلاحة سترة واسعة بحاشيتين متوازيتين، مع حذاء عسكري من الكاوشوك، يتجاوز من الأسفل بنطالها، وتظهر عينان صغيرتان على وجه مخنث، والشعر مقصوص إلى مستوى الأذنين على طريقة النساء الموظفات في الريف، وهي الإشارة الوحيدة التي تدل على جنسها، المرأة الفارسة لا تشبه أبدا النساء اللواتي يتقاتلن معي بتلاحم جسدي في روايات الفروسية، والصور المطبوعة، والرسوم المصورة، مع اللحن الحربي الذي يمنحها إياها حجمها المحصور ضمن حزام واسع.

- لا تقلل من قيمتها، إنها قوية جدا في الألحان الحربية، إنها تقتل شخصاً بالسهولة نفسها التي تقتلع فيها عشبة. إنه يتحدث بجد.

كان القطار متأخرا قليلاً على الطريق القادم من شرق زهو زهو Zhou Zhou. توقف في محطة صغيرة لكي يسمح بمرور قطار آخر، دون شك. ذكرني اسم المحطة مباشرة بصديقي في الصف الذي يشتغل هنا، ضمن فريق بحث جيولوجي، والذي لم أسمع عنه أي خبر منذ أكثر من عشر سنين. مع ذلك أوصل لي رئيس تحرير مجلة، في العام الماضي، مخطوطة نص كان قد أرسله، واسم المكان المذكور على المغلف هو نفسه الذي قرأته على الرصيف.

لا أحمل عنوانه معي، ولكنني أظن أنه في مثل هذه المنطقة الصغيرة، يجب ألا يكون هناك عدة فرق بحث جيولوجي. لن أجد صعوبة في السؤال. عند ذلك نزلت مباشرة من القطار. لقد كان صديق طفولة متميزا. الأشياء الجيدة قليلة في هذا العالم الأرضي. هل هناك سعادة أكبر من سعادة زيارة صديق جيد بصورة مفاجئة؟ بدلت القطار في زهو زهو، وأنا قادم من شانغشا changsha. في الأصل، لم أكن أفكر في التوقف هنا، لأنه ليس لي أقارب أو أصدقاء ولا يوجد فولكلور أو آثار أبحث عنها، وتجولت طيلة النهار في المدينة وعلى ضفاف كسيانغ.

تأكدت لاحقا فقط أنني لم أقم إلا بالبحث عن إشباع بعض الرغبات، وهي كلها دون فائدة. سافرت من بكين وأنا أحمل أغراضي، مثل لاجئ، من أجل الوصول إلى المنطقة الجبلية التي هربت منها عندما كنت طفلا، والأماكن التي ذهبت إليها لأعيد تأهيلي ضمن مدرسة كوادر السابع من أيار، قبل اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة سنة. في ذلك الوقت كانت العلاقة بين رفاق المنظمة الواحدة متوترة جداً، وهي التي كانت مضطربة بفعل الحركات السياسية. كان الجميع يطلق شعارات، ويدافع حتى الموت عن حزبه الخاص، ويخشى دائما من الهزيمة أمام أعدائه. لم يكن أحد يتخيل أن توجيها رئاسيا جديدا سيأمر بأن يأتي ممثلو الجيش ليقيموا في المنظمات الثقافية مثل الجميع، وأن على الجميع مهما كان معتقده أن ينتقل إلى الريف. إنني لاجئ منذ ولادتي. قالت أمي إنها ولدت تحت القصف. صانوا زجاج نوافذ صالة الولادة في المشفى بلفافات من الورق، لكي لا تتكسر وتتبعثر تحت قصف القنابل. ومن حسن الحظ أنها نجت من القنابل، وجئت إلى العالم صحيحا معافى. مع ذلك، لم أكن أعرف البكاء. أطلقت صرختي الأولى فقط بعد أن صفعني الدكتور المولد على مؤخرتي.

هذا هو، دون شك، ما هيأني للهروب طيلة حياتي. تعودت على هذا، وتعلمت كيف أجد قليلاً من المتعة في الفضاءات الخالية في هذه الفترات من الفوضى.

وعندما كان الجميع جالسا على الرصيف ينتظر وهو بالقرب من أغراضه

أوكلت أمر أغراضي إلى شخص آخر، وتجولت في شوارع المدينة ككلب شارد. وحتى أنني وجدت عدوا عنيدا لحز بي في أحد المطاعم المتواضعة. في ذلك الوقت، كان لحم الخنزير مقننا، وكل شخص يتلقى بطاقة برطل من اللحم شهريا.

اعتقدت أنه هو أيضاً يريد لحما. من المؤكد أننا نجد، في هذا المطعم المتواضع طبقا من لحم الكلب بالفلفل، والجميع طلب من هذا الطبق. اشتركنا في المصير، وجلسنا على الطاولة نفسها، من دون أي كلمة، تنافسنا في طلب الكحول. شربنا وأكلنا معاً من لحم كلب، كما لو أن صراع الطبقات الرهيب لم يعد موجودا. ولكن أيا منا لم يتطرق إلى الموضوعات السياسية.

في الواقع، كان هناك على هذه الطاولة أشياء كثيرة يمكننا الحديث عنها، مثل الطريق القديم، وورق الرز، ورائحة القش الذي يمكن أن نشتريه من هنا، والأقمشة المحلية المصنوعة يدويا والتي يمكن الحصول عليها من دون بطاقات قطن، والشاي المبيع دون بطاقات أيضا، وأخيرا الفستق المفقود تماماً في بكين. واشتريت أنا وهو منه، وآخرجناه معاً من حقيبتينا لكي نأكله مع الكحول. وهذه التذكارات البسيطة التي لا معنى لها هي التي دفعتني إلى التوقف هنا طيلة نهار كامل، عندما بدلت قطار شانغا إلى زهو زهو. في هذه الحالة، لست معذورا إن لم أذهب لرؤية صديق طفولتي الجيد، لماذا لا أمنحه هذه السعادة غير المنتظرة؟

أخذت سريرا صغيرا في فندق بالقرب من المحطة الصغيرة، ووضعت عليه حقيبتي. إذا حدث ولم أجد صديقي، يمكنني أن آخذ قسطا يسيرا من الراحة في الفندق بانتظار أول قطار في الصباح. تناولت في محل ليلي صغير صحنا من حساء الرز مع الفاصولياء، بدد تعبي قليلاً. سأسأل أحد الموظفين الذي يستلم النقود، والمستلقي على كنبة أمام الاستقبال، لكي أعرف إذا كان يوجد هنا فريق بحث جيولوجي. نهض مباشرة وقال لي: نعم، على بعد لين من هنا، ثم أردف، لا. على بعد ثلاث ليات lis، وفي الأكثر خمس ليات. في نهاية هذا الشارع، وعندما تنتهي أعمدة الإنارة، ندخل في زقاق، ونتجاوز حقول الرز، ثم نقطع جسرا على نهر صغير. يوجد في الجهة المقابلة، غير بعيد من هنا، بعض البيوت الطابقية ذات نموذج حديث، ومعزولة تماماً، وتؤوي فريق البحث الجيولوجي. عند مخرج القرية، السماء مرصعة بعدد كبير من النجوم التي تنير ليل الصيف. مع ذلك يتجاوب نقيق الضفادع. سرت في مستنقعات مائية، ولكنني لم أعرها اهتمامي، ولم أفكر إلا بالعثور على صديقي. وعند منتصف الليل تقريبا، قرعت أخيراً على بابه في الظلام.

– أنت إذن! صرخ وأصيب بالجنون من السعادة.

إنه ضخم جدا، وقامته طويلة. يلبس سروالا قصيرا، وجذعه عار، وجه لي ضربات خفيفة من مروحته المصنوعة من الخيزران، والتي يمسكها بيده، مما أدى إلى تحريك الهواء قليلاً. إن من عادة الأصدقاء عند لقائهم أن يتضاربوا على الكتف. كنت، في ذلك الوقت، الأصغر في الصف، وكان زملائي ينادونني بالشيطان الصغير. من الواضح أنني اليوم شيطان عجوز. – من أين خرجت؟ – من تحت الأرض! أنا أيضاً مجنون من السعادة. قال لزوجته: قدمي الكحول، لا قدمي بذر البطيخ. إن الجو حار. إنها امرأة بدينة كلها لطافة. يجب أن تكون من هنا. اكتفت بالضحك، دون أن تقول كلمة واحدة. من الواضح أنه لم يفقد لطافته القديمة على الرغم من إنشائه عائلة.

سألني إذا كنت استلمت المخطوطة التي أرسلها لي، وشرح لي أنه قرأ الأعمال التي نشرتها في السنوات الأخيرة.

وعندما اعتقد أن الأمر يتعلق بي، أرسل مخطوطه إلى تحرير مجلة كانت قد نشرت إحدى مقالاتي، طالبا أن ترسل لي. شرح لي أنه كتب هذا الشيء لأن نفسه نازعته إلى ذلك، لم يعد يستطيع أن يصمت. إن هذا نوع من بالون الاختبار. ماذا أستطيع أن أقول له؟

تحكي روايته قصة طفل ريفي كان جده أحد ملاكي الأراضي الكبار. في المدرسة وكان زملاؤه ينظرون إليه شذرا ، وكان يسمع من أستاذ الصف، كل يوم، أنه يجب التخلص من أعداء الطبقة. اعتقد، في النهاية، أن مشكلاته كلها تأتي من هذا العجوز المريض الذي لايموت، فوضع في شرابه زهرة برية سامة، تلك التي يجب التخلص منها عندما نقطع العشب للخنازير. وعند الصباح، وفي الساعة التي تنقل فيها مكبرات الصوت (الشرق أحمر) لدعوة الفلاحين إلى العمل، وجد الصبي الصغير جده ميتا، وممددا على الأرض، وفمه ممتلئ بدم أسود. إنه يصف الحالة الروحية لهذا الطفل الذي نظر إلى العالم غير المفهوم بعيون ريفي صغير.

أعطيت هذه المخطوطة لناشر أعرفه. أعاده لي من دون استخدام الصيغ المتعارف عليها عادة بين الأوساط الأدبية عندما نعيد مخطوطة. لم تكن النبرة رسمية في نوعها: الحبكة غير مشغولة جيدا، والتصور العام للعمل لم يرق إلى المطلوب، السمات غير واضحة جيدا، أو أن العمل ليس جديدا، لقد قال لي فقط إن الرواية مكتوبة بشكل جيد، ولكن المؤلف ذهب بعيدا، وإن السلطات لن تسمح له بنشرها قط. لم أستطع إلا أن أقول له إن المؤلف يعمل في الريف كباحث

جيولوجي، وإنه كان متعوداً على طرقات الجبل، وإنه لا يستطيع أن يعرف حدودا لايمكن تجاوزها، ومفروضة على العالم الأدبي. رويت له هذا كله بصراحة.

– ما هي هذه الحدود؟ سألني وهو يخفي ملامحه وراء نظارته. إنه يشبه دائما فأر المكتبة المسماة بيير. ألم تؤكد الصحف، حديثا، على حرية الإبداع وضرورة أن يصف الأدب الحقيقة؟

– قال لي: بسبب هذه الحقيقة الرديئة، تحديدا، واجهت بعض المتاعب، وأنا هنا. انفجر ضاحكا: – وهذا سيء أيضاً بالنسبة إلى قصته 'المرأة فارسة النهر'. أخذ الصورة ووضعها في درج.

- تعرفت عليها عندما سكنت في هذا المعبد المهدم من أجل عملي البحثي. شرحت لي اهتماماتها طيلة نهار كامل. وملأت منها دفترا كاملا. إنها تجربتها.

- أخرج من أحد الأدراج دفترا مده نحوي. فيه ما يكفي لكتابة كتاب، يكون عنوانه الذي فكرت فيه من قبل: ملاحظات من معبد مهدم.

- هذا ليس عنوان رواية فروسية.

- بالتأكيد لا. إذا كان هذا يهمك خذه، وألق عليه نظرة. يمكنه أن يكون مادة أولية لرواية.

- ثم وضع الدفتر في الدرج وقال لزوجته: أحضري الكحول.

- قلت: لا تحدثني من جديد عن كتابة رواية. لا أستطيع حالياً نشر نصوصي القديمة. وعندما يرى اسمي على المخطوطات تعاد مباشرة.

- من الأفضل لك، أنت أيضا، أن تهتم بحكمة باختصاصك الجيولوجي بدلا من كتابة أي شيء، قاطعته زوجته عندما أحضرت الحكول

- ماذا تعمل حاليا؟ ارو لي ! إنه يبدي لي اهتماما شديدا بي.

- إنني أتسكع هنا وهناك لكي أهرب من الرقابة. لقد سافرت منذ شهور عديدة. عندما تهدأ العاصفة سأحاول العودة. وإذا ساء الوضع أكثر سأبحث عن مكان لكي آخذ مفتاح الحقول. على كل حال، لن أترك نفسي أساق إلى حقل إعادة التأهيل بالعمل، كخروف عاقل، أو كاليمينيين العجائز في الخمسينيات. وانفجرنا من الضحك. قال لي:

- سأروي لك قصة غريبة، موافق؟ كنت عضوا في مجموعة صغيرة أمرتها السلطات بأن تبحث عن مناجم الذهب. من كان يعتقد أننا سنمسك إنسانا متوحشا في قلب الجبل؟ – أنت تمزح. أرأيته بأم عينيك؟ لم أشاهده فقط، بل أسرناه ! كنا مجموعة نبحث عن أقصر الطرق في الجبل لكي نعود إلى المعسكر ليلا. أحرقت

غابة تحت القمة وزرعت بالذرة الصفراء. شاهدنا في الحقل الأصفر شيئاً يتحرك، حيوانا بريا، دون شك. ومن أجل سلامتنا كنا نحمل أسلحة عندما نريد الذهاب إلى مثل هذه المناطق. اعتقدنا مباشرة أنه كان دبا أو خنزيرا بريا. لم نجد ذهبا، ولكن الحظ، مع ذلك، ابتسم لنا، لأننا سنحصل على اللحم. حاصر بعضهم المكان الذي رأينا فيه الحركة، ولكن الحيوان سمعنا، لأنه تسلل باتجاه الغابة. كان الوقت نحو الثالثة بعد الظهر. مالت الشمس إلى الغروب، ولكن الوادي كان مضاءً بصورة كاملة عندما بدأ الشيء في الحركة، ظهر رأسه من بين عيدان الذرة الصفراء، وهنا اكتشفنا الرجل المتوحش مع شعر مسترسل على الكتفين ! شاهده جميع الفتيان كانوا في قمة الإثارة، ويصرخون بصوت مرتفع: 'الرجل المتوحش، الرجل المتوحش!' 'لا تتركوه يرحل !'، صرخ أحدهم وهو يسحب. إنهم يشتغلون السنة كلها في الجبال وقلما تأتيهم الفرصة للسحب. إنهم ينفسون عن انفعالاتهم المكبوتة. أخذتهم الحماسة، فيركضون، ويصرخون، ويلقمون سلاحهم. أخيراً أجبروه على الخروج. كان عاريا كالدودة، استسلم وهو يرفع يديه، ولكنه تعثر فوقع. طوله على الأرض. لم يكن يحمل إلا نظارتين معلقتين وراء الرأس بخيط. العدسات مستديرة وعتيقة كأنها عدسة زال لمعانها.

- قلت : هذه نكتة؟ — قالت زوجته من غرفتها: كل شيء صحيح. إنها مازالت يقظة. إذا كان علي أن أروي نكتا لشخص، فلن يكون أنت. إنك روائي الآن. — قلت وأنا أتوجه إلى زوجته: الروائي الحقيقي هو. لديه مواهب فطرية للحكي. لم يكن أحد في صفنا قديما. يتغلب عليه في هذا المجال. وعندما كان يبدأ ، كنا نستمع إليه بإعجاب شديد.

- خسارة أن روايته خنقت في مهدها قبل أن ترى النور. لا أستطيع منع نفسي من الشفقة عليه قليلاً.

- قالت زوجته من غرفتها: إنه هكذا. إنه لا يتحدث بهذه الطريقة إلا لأنك هنا، في الحالة العادية، لا يتلفظ بأي كلمة.

- قال لزوجته: اسمعي إذن ! رشف رشفة من الكحول لكي يستعيد نشاطه. اقترب فريقنا الصغير، ونزع نظارته، ودفعه بأعقاب البنادق. سألوه بنبرة قاسية:

' إذا كنت إنسانا، لماذا تهرب؟' لم يتوقف عن الصراخ وهو يرتجف. ضربه أحد الفتيان على الرأس، وهدده: 'إذا استمريت في لعب الشياطين سنطلق عليك النار!' في هذه اللحظة انفجر النحيب وهو يقول إنه هرب من معسكر إعادة التأهيل، وإنه لا يجرؤ على العودة إليه. سئل أي جرم ارتكب. قال إنه يحييني. 'صرخ زملائي:

أعيد تأهيل اليمينيين منذ وقت طويل، ألم تعد؟' شرح أن عائلته لم تجرؤ على الاحتفاظ به، فلجأ إلى هذه الجبال سئل: 'أين عائلتك؟' 'في شنغهاي'. صرخ زملائي 'أي ابن قذر لعائلتك ! لماذا لم يحتفظوا بك؟' قال إنهم خافوا من العقاب. صرخ الجميع: 'ماهي هذه الحكايات عن العقاب؟ تلقى اليمينيون جميعهم تعويضات والآن يبخر الجميع لكي يجدوا عنصرا يمينيا في عائلتهم!' سألوه أيضاً: 'ألم يتأثر عقلك؟' قال: لا، ولكنه لا يرى جيدا. عندها انفجر الجميع بالضحك.

زوجته في الغرفة المجاورة انفجرت ضاحكة أيضاً. قلت وأنا لا أستطيع أن أمنع نفسي من الضحك: لا يوجد غيرك يروي هذا النوع من القصص. لم اشعر بهذه السعادة منذ وقت طويل.

- لقد صنف كعنصر يميني عام ١٩٥٧، وأرسل عام ١٩٥٨ إلى مزرعة إعادة تأهيل بالعمل. وفي عام ١٩٦٠، حل الجوع، ولم يكن هناك ما يؤكل. غطي جسده بالوزمات، وأصبح على بعد خطوتين من الموت، فهرب ليعود إلى شنغهاي. اختبأ لمدة شهرين عند أهله الذين صمموا على إعادته إلى المعسكر لأن كميات الحبوب لم تكن تكفي في ذلك الوقت. كيف استطاعوا إخفاءه لوقت طويل عندهم؟

لقد رحل إذن مغامرا إلى هذه الجبال العالية التي عاش فيها منذ أكثر من عشرين عاماً. أجاب عن السؤال كيف استطاع الاستمرار في الحياة: بأن عائلة من الجبليين استقبلته في السنة الأولى. ساعدهم على قطع الأخشاب وبعض الأعمال الزراعية. بعد ذلك سمع في اللجنة الشعبية الأبعد قليلاً أنهم سيأتون للاستفسار عن أمره، فلجأ إلى مكان أبعد. استمر في الحياة بفضل هذه العائلة التي ساعدته سرا فجلبت له أعواد الكبريت، وقليلا من الملح والزيت. كيف أصبح يمينيا؟

فشرح أنه قام في الجامعة ببحوث حول الكتابات المقدسة على دروع السلحفاة. في ذلك الوقت كان متحمسا، فتلفظ ببعض الكلمات غير المعقولة خلال محادثة حول الوضع الحالي. ((انهض، اتبعنا، اذهب وخذ بحوثك عن الكتابات المقدسة))' ولكنه رفض بعناد، قائلا إن عليه أن يحصد حقل الذرة الصفراء الذي يشكل مخزونه من الحبوب للسنة، وإنه يخشى أن تأتي الخنازير البرية وتأكل كل شيء إذا رحل. فصرخ الجميع: 'اتركهم إذن يتغوطون بهدوء' أراد الذهاب ليحضر ملابسه. (ولكن أين هم؟) 'في مغارة، في أسفل الجرف الصخري' عندما لا يكون الطقس باردا، لا يلبسها. أعطاه أحدهم سترة لكي يلفها حول جسده. ثم أخذوه إلى المعسكر. – هذا انتهى؟ – قال نعم. ولكنني تخيلت نهاية أخرى، ربما غير صحيحة.
– قلها لنرى. وفي يوم من الأيام، وبعد أن أكل وشرب بقدر ما يريد ويشتهي، استيقظ بعد نوم عميق، وفجأة، انفجر بالنحيب بصوت مرتفع. من المستحيل فهم

ما به. سئل. فلم يستطع أن يلفظ إلا جملة واحدة وسط نحيبه الشديد: "لو كنت أعلم أنه يوجد في العالم ناس طيبون إلى هذا الحد، لما عانيت من الظلم في هذه السنوات الأخيرة من أجل لا شيء!"

عندي رغبة في الضحك، ولكنني امتنعت عن ذلك. ينبعث من نظاريته بصيص سخرية لاذعة. – قلت بعد لحظة من التفكير: هذه الخاتمة غامضة. –وأضفت ذلك متعمدا، وضع نظارتيه على الطاولة اكتشفت أن السخرية والمكر اللذين ظننت أني قرأتهما في نظره ليسا إلا حزنا. إنه رجل آخر مع نظارتيه، بهيئته السعيدة والبسيطة لم أشاهده قط من قبل في هذا الجانب. سألني: هل تريد أن تستلقي قليلا؟

– لست مستعجلا، ولا أشعر بالنعاس حاليا. وعبر النافذة بدأنا نرى ضوء الصباح الأول. خفت حرارة الصيف في الخارج، وهبت نسمة لطيفة.

– قال يمكننا التحدث ونحن مستلقون. وضع لي سريرا من الخيزران، ووضع لنفسه كرسيا طويلا. ثم أطفأ الضوء وتمدد.

– يجب أن تعرف أنهم فتشوا عني في ذلك الوقت، خلال الحركة، والفريق الذي أسر الرجل المتوحش هو الذي أوقفني. لقد أخطأتني رصاصاتهم، واخترقت رصاصة جلدة الرأس، لقد أخطؤوني، كنت مخطوفا. ما عدا ذلك، إنهم رجال شجعان.

- هذا هو الشيء الجيد في قصتك عن الرجل المتوحش. إنها طريفة، في حين أن الناس متوحشون بشدة. يجب ألا تقول كل شيء.

- إنها، بالنسبة إليك، رواية، وهي بالنسبة إلي حياة. في الواقع لم أستطع قط كتابة رواية.

- عند الحديث عن القمل، يريد الجميع الإمساك به، ولكن عندما نخشى أن نكون نحن أنفسنا قملة، ماذا نفعل؟

- إلا إذا سقط الجميع في ذلك.
- إننا نخشى أن نؤخذ، هذا هو.
- ولكنك أنت تحديدا، لا تريد أن تتدخل في هذا، أليس كذلك؟
- لقد أخذت أخيرا.
- من أجل هذا سنستمر في السير على الطرقات؟
- ومع ذلك، فهذا أفضل الآن، أليس كذلك؟ وإلا هل كنت أجرؤ على المجيء للشرب معك؟ إنني مسافر منذ وقت طويل مثل الرجل المتوحش.
- وأنا أيضا لن أحتفظ بك في بيتي، أو لنسافر كلانا كرجلين متوحشين؟

وجلس وهو يضحك على الكرسي الطويل.

- قال بدوره بعد لحظة تفكير: من الأفضل ترك هذه النهاية.

-٦٢-

تقول أنت إنه أضاع المفتاح.

تقول هي إنها تفهم.

تقول أنت إنه بالتأكيد رأى هذا المفتاح على الطاولة، غير أنه اختفى بمجرد التفاتة جانبا.

تقول هي نعم هذا ما حصل.

تقول أنت إنه مفتاح عادي بمفرده، وليس معلقا بحمالة المفاتيح. بالأصل هناك واحدة على شكل كلب صغير مجعد، بكيني، من البلاستيك الأحمر، قدمتها له صديقة عادية وليست عشيقة.

تقول هي هذا واضح.

تقول أنت بعدها انكسر الكلب الصغير، شيء مضحك، لقد دق عنقه، ولم يبق منه سوى رأس صغير أحمر. وجد ذلك فظا، ففصله عن المفتاح. قالت بالتأكيد.

تقول إنه فكر بوضع المفتاح على قاعدة مصباح المكتب قرب بعض المسامير التي بقيت في مكانها لكن المفتاح اختفى. أزاح الكتب والرسائل عن المنضدة باحثا عن جواب افتراضي. كلها هنا مجمعة قرب المصباح الذي غطي مفتاحه بمغلف، غير أن المفتاح الذي يبحث عنه بقي مختفيا.

قالت: غالبا ما تكون الأمور هكذا، كان يريد الخروج للذهاب إلى موعد، لكنه لا يستطيع ترك الباب مفتوحا، وإذا أغلقه لن يستطيع الدخول إليه ثانية دون مفتاح. عليه أن يجده، بين الكتب والأوراق والرسائل والقطع النقدية التي تغطي الطاولة. يجب أن يرى المفتاح بسهولة.

هذا صحيح.

لكنه لم يجده قط. نزل تحت الطاولة على أربع، واستعان بمكنسة في سحب ما تراكم تحتها من عملات قديمة وتذكرة باص. عندما يسقط مفتاح على الأرض فإنه يحدث صوتاً. هناك بعض الكتب المرمية على الأرض. لكن لا وجود للمفتاح. لا نستطيع الخلط بين مفتاح وكتاب.

بالطبع

لقد تبخر ببساطة تماماً.

وفي الأدراج؟

بحث وفتش أيضاً. يتذكر أنه فتح الأدراج، كانت لديه عادة وضع المفتاح على اليمين، إنها عادة قديمة. كان الدرج زاخراً بكل أنواع الوثائق: الرسائل والمخطوطات ولوحات الدراجات والتقارير الطبية المجانية وبطاقات تموين الغاز، وكذلك بعض الميداليات أيضاً وعلبة قلم وسكين منغولية وسيف صغير مصنوع من المينا المقطعة وغيرها من القطع عديمة القيمة، لكنها تحمل ذكريات معينة.

الكل لديه مثلها وهي قيِّمة في عيون أصحابها.

ليست كل الذكريات قيمة بالتأكيد.

هذا صحيح

أحيانا يكون نسيان هذه الذكريات رحمة وخلاصاً، فمثلا زر لن نستخدمه أبدا، الثوب الذي خيط عليه هذا الزر باللون البلوري الأزرق الداكن قد أصبح منذ وقت طويل مكنسة مهدبة لكن الزر لم يرم.

جيد، وبعد؟

سحب جميع الأدراج ثم أعاد إليها محتوياتها.

لايمكن أن يكون فيها.

كان يعرف، لكنه أعاد كل شيء

بالطبع. وجيوبه هل فتشها؟

فتشها جميعا. الجيوب الأمامية وجيوب السروال الخلفية التي تحسسها خمس أو ست مرات على الأقل، وكذلك جيوب سترته الملقاة على السرير، كما فتش جميع جيوب ثيابه التي أخرجها، لكنه لم يبحث في جيوب ثيابه الموضوعة في الحقيبة.

ثم...

ثم نشر على الأرض كل ماهو على الطاولة، ونظم قليلاً المجلات الموضوعة على الرف فوق السرير، وفتح خزانة الكتب، وهز الأغطية والمفرش، ونظر تحت السرير، آه! نعم في الأحذية ايضا، فقد سقطت قطعة من خمس فان في حذاء ولم يكتشفها إلا عندما خرج وضايقته في المشي.

غير أن حذاءه ليس في قدميه.

بلى، لكن بما أن كتب المكتب تغطي الأرض لم يجد مكاناً ليسير عليه، ولا يستطيع أن يدوس على الكتب بحذائه، لذلك خلع نعليه وجلس القرفصاء.

المسكين!

هذا المفتاح المفرد من دون حمالة مفاتيح ضاع في الغرفة. إنه لا يستطيع الخروج وأخذ يتأمل الغرفة بعجز في جميع الاتجاهات. قبل عشر دقائق كانت

حياته منظمة، ولايمكنه القول إن غرفته كانت مرتبة ونظيفة تماما، فهي لم تكن كذلك أبدا، لكنها بجميع الأحوال كان مريحة للنظر. كانت لديه طريقته للعيش، فهو يعرف أين يضع أشياءه، ويرى أن غرفته مريحة جدا. باختصار، له عاداته التي تمنحه الاحساس بالراحة.

هو كذلك.

لكن الأمر مختلف الآن، فكل شيء مبعثر، كل شيء مبعثر!

يجب استبعاد النرفزة والتفكير بهدوء.

تقول إن دمه بارد مثل الحبر، لا يجد مكاناً ينام فيه، ولا مقعدا يجلس عليه، و لا موضعا يقف فوقه. لقد أصبحت حياته مزبلة حقيقية. ليس باستطاعته سوى أن يلجس القرفصاء على الكتب المكومة. وكيف لا ينرفز المرء؟ لايمكنه توجيه اللوم لأحد إلا لنفسه، فهذه ليست خطيئة الآخرين، وهو الذي أضاع مفتاح بابه، وعمل هذه الفوضى، ولا سبيل للخروج منها ومن هذه الورطة. لن يستطيع مغادرة البيت رغم التزاماته!

نعم.

إنه لا يريد رؤية هذا الموقف، ويرغب في مغادرة هذه الغرفة.

ولديه موعد، أليس كذلك؟

موعد أو لا، عليه أن يخرج. لا يمكنه الانتظار ساعة دون فعل شيء. والأدهى من ذلك أنه لا يتذكر جيدا مكان الموعد، ولا مع من حدده.

مع صديقة دون شك، قالت بصوت منخفض.

ربما نعم، ربما لا. يقول إنه لا يتذكر أبدا، لكن عليه الخروج، فهو لا يستطيع احتمال البقاء في هذا المستودع.

إذاً، ترك الباب مفتوحا؟

كان مضطرا للخروج دون إغلاقه بالمفتاح. وفي أسفل الدرج، وفي الشارع حيث المارة الذين يزرعون الشارع ذهابا وإيابا كالعادة وأرتال السيارات التي تمر بلا توقف، لم يجد سببا لسرعة الناس والسيارات. بدأ بالسير على الرصيف. بالطبع لا أحد يعرف أنه أضاع مفتاحه، وأنه ترك بابه مفتوحا، وأنه لن يخطر ببال أحد الذهاب إلى بيته وسرقة أشيائه. أصدقاؤه المقربون فقط يستطيعون الذهاب إليه لكن عندما لا يجدون موطئاً لقدم سيجلسون على أكوام الكتب وينتظرونه وهم يقلبونها. ثم سيغادرون، ومن غير المفيد التفكير بهم. مع ذلك كان مشغولا بأمر

غرفته رغم معرفته بعدم وجود شيء يستحق السرقة باستثناء بعض الكتب والثياب أو الأحذية العادية، لكن نعله المفضل في قدميه. وكان لديه أيضاً مجموعة من المخطوطات أتعبته قبل أن ينهيها. وبانشغاله هذا أحس بالسعادة وتوقف عن التفكير بهذا المفتاح اللعين المفقود وبباب غرفته. تجول بصورة عشوائية في الشوارع. كان معتادا على السير بسرعة وهو مشغول باستمرار بنفسه أو بفلان من الناس أو بعمل ما. أما الآن فلا يكترث لأحد ولم يشعر قبلا بهذه الأريحية. أبطأ الخطوة، وهذا عمل يصعب فعله في الأوقات العادية، قدم الساق اليسرى أولا، ولم يتعجل في رفع اليمنى، ليس من السهل عمل ذلك. إنه لا يعرف السير بهدوء، ولا يعرف التنزه. في النزهة يدوس على النباتات بأقدامه بكامل امتدادها.

إنه يحس بشعور غريب خلال هذه المشية، ويبدو أن المارة لاحظوا ذلك، لأنهم اكتشفوا أشياء غير طبيعية فيه. انتبه خفية إلى الناس الذين يمرون أمامه، ولاحظ أن عيونهم الثاقبة لا تلتفت إلا إلى بعضها، كان أحيانا يلقي بنظراته على واجهات المحلات التجارية ليرى إذا كانت الأسعار مغرية. ثم أدرك أنه الوحيد في الشارع الذي ينظر إلى الآخرين، وأن أحدا لا ينظر إليه. واكتشف أنه الوحيد أيضاً الذي يمشي وأقدامه مسطحة، طامسا تربة النباتات التي تقع تحت قدميه. الآخرون يمشون على كعوبهم، ويؤذون، بطريقة غير مباشرة وبمرور الأيام والسنين، أعصابهم الدماغية. إنهم يخلقون لأنفسهم مشكلاتهم وقلقهم، أليس كذلك؟

نعم.

وكلما جدَّ في السير في الشارع الذي يعج بالحركة والضجيج، ازداد إحساسه بالوحدة. كان يتأرجح كالذي يسير في نومه ويتكلم. لم يتوقف هدير السيارات، وتحت أضواء المصابيح المتعددة الألوان التي تحجبها جموع المارة على الرصيف كان يعرف أنه لن يتمكن أبدا من تخفيف سيره بإرادته. إذا كنت قد امتلكت المشهد، وتأملته عبر نافذة بناء ما وعلى امتداد أرصفة الطريق، فإنك ستفكر بالغطاء الفليني الذي أوصلته الزوبعة رغما عنه إلى المجرى المائي بعد هطول المطر، واستقر بين أوراق ميتة وأعقاب سكائر وأوراق الأسكيمو المجلدة وصحون البلاستيك المستعملة في محلات الوجبات السريعة وكل أنواع أغلفة السكاكر.

رأيته.

ماذا رايت؟

هذا الغطاء الطافي في وسط التجمع البشري.

حسنا، هذا هو.

هذا أنت إذن

لم أكن أنا، كانت حالة قائمة

أفهم، تابع الحديث.

الحديث عن ماذا؟

عن هذا الغطاء.

غطاء ضائع؟

من أضاعه؟

ضاع من تلقاء نفسه. هربت منه ذكرياته. أعمل ذهنه بكل قوته محاولا تذكر أية علاقات له مع من؟ ولماذا هو في هذا الشارع الذي يعرفه جيدا وبالتأكيد، ويعرف هذا المخزن الكبير المروع الرمادي الذي لا يتوقف عن التوسع والتضخم وكأنه يضاعف في حجمه. في مقابله يقع محل صغير للشاي على الطريقة التقليدية بقي محافظا على شكله ولم يجدد. وبعيداً عنه محل أحذية يقابله محل ورقيات ومصرف توفير، وكان قد دخل هذه الأمكنة سابقاً. كان لديه ما يفعله في هذا المصرف من إيداع نقود أو سحبها، لكن مضى وقت طويل على ذلك. ويبدو له أنه كان مع امرأة انفصلت عنه، وهو لا يفكر فيها مطلقا ولا يريد التفكير فيها.

ومع ذلك فقد أحبها.

يبدو له أنه أحبها، وهذا ضبابي أيضاً. في كل الأحوال يعتقد بوجود علاقة سابقة له مع امرأة.

مع امرأة واحدة.

يظن ذلك. نعم. في حياته الماضية جرت أحداث جميلة مضى عليها زمن طويل ولم يبق منها سوى أصداء انطباعات مثل عرض تصويري خافت الإنارة لا يُظهر إلا الحواف مهما كان الزمن الذي بقيت فيه الصورة داخل جهاز العرض.

مع ذلك كان لابد من وجود فتاة تحركه وتترك له بعض التفصيلات في الذاكرة.

لم يتذكر سوى شفتيها المرسومتين جيدا والمطليتين بالأحمر الفاقع عندما قالتا لا. وحين قالت الفتاة لا كان على جسدها أن يطيعها

وماذا بعد؟

أرادت أن يطفئ المصباح، فهي تخاف الضوء...

لم تقل ذلك.

قالته

حسنا، لن نهتم بمعرفة ما قالته. ثم هل وجد مفتاحه؟

تذكر فجأة أنه غير مضطر للذهاب إلى هذا الموعد. فهناك يذهب الناس للثرثرة في هذا الموضوع أو ذاك، وللحديث عن أشخاص يعرفونهم، عن أحدهم مطلّق وآخر سعيد مع أخرى، وعن كتاب أو مسرحية أو فيلم ظهر مؤخرا. وفي وقت لاحق ستظهر له هذه الكتب الجديدة أو الأفلام أو المسرحيات تافهة أيضاً. كما أنهم يتحدثون عن الخطوط العريضة التي يطلقها هذا الخطاب التجديدي أو ذاك الذي يكتشف في الحقيقة أنه مكرر مرات لا تحصى. التعابير المبتذلة نفسها. عندما يذهب إلى هذا المكان فكي يخرج من طوق الوحدة فقط، لكنه سيعود إلى غرفته مضطريا.

هل كان باب غرفته مفتوحا؟

نعم، دفع الباب وتوقف أمام الكتب والمجلات التي تغطي أرض الغرفة. رأى مفتاحه من دون الحمالة على حافة الرف قرب النافذة مغطى بمغلف رسالة وصلته موضوعة على قاعدة مصباح المكتب. قفز على أكوام الكتب وضاع في الغرفة.

كنت أنوي صعود جبال لونغو لزيارة هذه الجنة الطاوية. لكن عندما تجاوز القطار غويكسي ترددت في النزول. فممر العربة مختنق بالركاب، وللوصول إلى المخرج لابد من الانزلاق بين المسافرين، وكان لا بد للمرء من أن يتصبب عرقاً لدقائق عدة. كنت محظوظا في الحصول على مكان قرب نافذة في منتصف العربة وعلى الطاولة الصغيرة كأس من الشاي الثقيل. ترددت ثانية عندما بدأ القطار بالتحرك ومغادراً المحطة.

بدأ اهتزاز القطار يأخذ إيقاعه المتكرر، وانعكس ذلك على أغطية كاسات الشاي الموضوعة على طاولات المقاعد. هبت على وجهي ريح باردة. إنني نعس لكنني لا أستطيع النوم. القطارات التي تجوب هذه البلاد كثيرة وعامرة بالركاب ليلا ونهارا. في أصغر المحطات نسرع لصعود القطار وللهبوط منه. الناس مستعجلون دون أن يعرفوا لماذا. لا أستطيع منع نفسي من تحويل بيت شعري لـ لي باي يقول:

"السفر أكثر صعوبة من الصعود إلى السموات"[15] الأجانب المزودون بالعملات الصعبة، والمسؤولون المزعومون الذين يتنقلون على حساب الدولة وفي عربات الدرجة الأولى، وحدهم يتذوقون -ولو قليلاً- متعة السفر. أما أنا فأحسب كم من الزمن يمكنني أن أمضي في رحلتي مع هذا الكم القليل من النقود المتبقية معي. منذ زمن بعيد لم أعد قادرا على التوفير، وأعيش على الدين. مدير كريم لدار نشر أعطاني سلفة. من عدة مئات من الياونات عن حقي في نشر كتاب لا أعرف إن كان سينشر يوما ما، وحتى أنني لا أعرف إذا كنت سأكتبه. لكنني صرفت نصف المبلغ حتى الآن. وهذا المبلغ هو في الحقيقة هدية لأن أحدا لا يعرف ما سيكون عليه الغد. باختصار، أتجنب قدر المستطاع النزول في فندق وأبحث عن أماكن تقدم المبيت مجانا، أو بأرخص سعر ممكن. مع ذلك فقد ضيعت فرصة الذهاب إلى غويكسي حيث عرضت علي فتاة النزول عند عائلتها

---

(١٥) لي باي (٧٠١-٧٦٢) كتب قصيدة مشهورة بعنوان "صعب طريق شو" يقول بيتها الثاني: "طريق شو أصعب من الصعود إلى السماء اللازوردية"، ويشير إلى درجة صعوبة السفر في ضواحي سيشوان (الإسم القديم لشو) بسبب خصوصياتها الجغرافية. (ترجمة تشانغ فو-خوي، مختارات من الشعر الصيني الكلاسيكي-غاليمار، ١٩٦٢)

التقيتها بينما كنت أنتظر القارب على رصيف الميناء. مع ضفيرتيها الصغيرتين وخديها القرمزيين ومرحها وعينيها اللتين تشعان بالحيوية ظهر فضولها العفوي تجاه هذا العالم الضبابي. حينما سألتها عن وجهتها، أجابت إنها تقصد هوانغ شي. وماهو الشيء المهم الذي يمكن أن يزار في هذه المدينة المغطاة بالغبار الرمادي، والغارقة تحت سحب من الدخان الأسود المنبعث من مصانع الفولاذ؟ إنها ذاهبة لزيارة عمتها. وأنت إلى أين تذهب ؟ أوضحت لها بأنني لا أقصد هدفا محددا هنا أو هناك. حدقت في بكامل اتساع عينيها وسألتني عن مهنتي قلت لها: 'مُضارب تجاري'. حبست ضحكتها، إنها لا تصدقني. سألتها ثانية:

- هل يبدو علي أنني نصاب؟

هزت برأسها نافية.

- أبدا
- بماذا يوحي لك مظهري؟
- لا أعرف، لكن ليس بالنصاب على أي حال
- حسنا، في هذه الحالة أقول لك إنني متشرد
- المتشردون ليسوا بالضرورة سيئين

كان لديها شيء من الجزم في صوتها. وافقتها رأيها:

– المتشردون هم على العموم أناس طيبون. وغالبا ما يكون الناس العاديون نصابين.

لم تتمالك نفسها من الضحك وكأن أحدا دغدغها. إنها حقا فتاة مرحة.

أخبرتني أنها هي أيضاً تحب السفر، لكن أبويها لا يريدان ذلك، وسمحا لها فقط بزيارة عمتها، وأخبراها بأنها حين تحصل على شهادتها عليها أن تعمل مباشرة، وهذه هي آخر عطلة صيف لديها وعليها أن تستغلها. تعاطفت معها. أطلقت تنهيدة:

- في الحقيقة أرغب في الذهاب إلى بكين، ولكن لسوء الحظ لا أعرف أحدا هناك، وأهلي لا يريدون أن أذهب وحدي. هل أنت من بكين؟

- لا يعني تحدثي باللهجة البكينية *أنني من بكين، مع أنني أعيش فيها*. الحياة فيها خانقة.

- آه، لماذا؟ كانت مشدوهة،

- الناس كثيرون هناك ويعيشون بازدحام، وفي أقل لحظة سهو ستجد من يدوس على حذائك، تقطب وجهها. سألتها أيضاً:

- أين تسكنين؟
- في غيوكسي
- أهناك توجد جبال لونغهو؟
- إنه في الحقيقة جبل قاحل، وقد هدم المعبد فيه منذ زمن طويل.

أخبرتها أنني أريد بالضبط زيارة هذا الجبل، وأنه كلما كانت الأماكن قاحلة ازدادت لدي الرغبة في الذهاب إليها.

-لتتمكن من الاحتيال على الناس؟ سألت بخبث.

لم يكن أمامي سوى الرد عليها ضاحكا:

- أريد أن أصبح راهبا طاويا.
- لن تجد أحدا يستقبلك. رهبان الزمن الماضي إما رحلوا أو أنهم ماتوا، فلا تستطيع النزول عندهم. رغم ذلك فالمشهد رائع هناك. وعلى بعد عشرين ليا فقط من مركز المنطقة يمكننا الذهاب سيرا على الأقدام، وقد ذهبت سابقاً مع أصدقائي. وإذاأردت زيارة المكان حقا يمكنك أن تبيت عندنا، فأهلي مضيافون.

كانت تتحدث بجدية.

- لكنك ستذهبين إلى هوانغ شي أولا، وأهلك لا يعرفونني.
- سأعود خلال عشرة أيام. ألا تريد متابعة التجوال؟

وبينما نحن نتحدث وصل القارب.

عبر نافذة القطار بدأت أرى من بعيد، خلف الأفق، ظهور جبال رمادية. وخلفها يجب أن تقع جبال لونغهو. هذه الجبال البادية هي دون شك الجروف الصخرية الخالدة. في طريق رحلتي التقيت أحد مدراء المتاحف وأراني صور هذه الجروف. في كهوف محفورة تحت الأرض بجانب الجرف وفوق النهر اكتشفت مجموعة من التوابيت المعلقة. كانت هناك مقبرة البلد القديم لـ يو التي تعود إلى حقبة ممالك المقاتلين. ووجد المنقبون طبلا مسطحا مطليا بالأسود، ومزهرا من خشب بثلاثة عشر وترا تبينها الثقوب الموجودة في ساعده الذي يصل إلى حوالي المترين. لكن حتى لو ذهبت إلى جبال لونغهو، فإنني لن أسمع أصوات قرع طبول الصيادين ولا النغمات الواضحة والقوية للمزهر.

ابتعدت الجروف الخالدة شيئاً فشيئا إلى أن اختفت تماماً وعند نزولنا من القارب وقبل افتراقنا تبادلنا الأسماء والعناوين.

أشرب كأسا من الشاي، إنني أشعر بأسف مرير، هل ستأتي لزيارتي يوما ما. ليس أكيدا. لقد منحني هذا اللقاء العابر فرحة أكيدة. إنني غير قادر على مراودة

صبية بريئة بهذا الشكل، وفي الحقيقة إنني عاجز عن حب امرأة حبا حقيقيا. الحب ثقيل جدا، وأنا أريد العيش بحرية وسعادة ودون تحمل مسؤوليات. الزواج وإزعاجاته وقيوده التي تعقبه منهكة، وأصبحت أكثر فأكثر بعيدا عنه، ولا يستطيع أحد ما أن يثيرني تجاهه. إنني متقدم في العمر، وليست لدي رغبة إلا ببعض الأشياء التي يثيرها الفضول، ومن دون البحث فيها عن نتائج منظورة ذات أهمية. أفضل التنقل من هنا إلى هناك دون ترك أي أثر. في هذا العالم الواسع هناك عدد كبير من الناس والاتجاهات، وأنا لا أنتمي إى مكان ولا أملك عشا صغيرا أعيش فيه بهدوء وأقابل الجيران نفسهم باستمرار وأقول لهم صباح الخير، مساء الخير، وأستغرق في تفاصيل الحياة اليومية الصغيرة. قبل أن أجد نفسي قرفا، هكذا أنا لا يمكنني إعطاء السعادة للآخرين.

قابلت أيضاً راهبة طاوية صغيرة، لها وجه رصين جميل مع صفرة رقيقة، وقوام منتصب يغطيه فستان عريض ويظهر طراوة ظاهرة، وصفاء نقيا. أنزلتني في غرفة استقبال ضمن جناح المعبد الذي سمح المسؤول القديم عنه بتغيير ألوانه الأصلية وعوارضه الخشبية. كانت الغرفة نظيفة تماما، وتصاعدت من أغطية السرير روائح الغسيل الطيبة والطرية. هكذا مكثت في معبد شانغ كينغ.

في كل صباح تحمل الراهبة إلي الماء الساخن للحمام، وتقدم لي كأسا من الشاي الأخضر وهي تدردش معي. كان صوتها لطيفاً مثل الشاي الطازج، تتحدث وتضحك برشاقة وطبيعية. بعد حصولها على دبلوم الثانوية رشحت للدخول إلى بيت الراهبات، لكنني لم أجرؤ على سؤالها لماذا تركت عائلتها.

يضم هذا الدير الطاوي حوالي عشرة رهبان شبان وشابات، اختيروا جميعا من مستوى الحلقة الثانية في التعليم الثانوي على الأقل. المسؤول عنهم رجل كبير بالعمر بلغ الثمانين سنة، صوته واضح وخطواته واثقة. ناضل بقوة خلال سنوات عديدة للتفاوض مع الحكومة المحلية والمنظمات بمختلف المستويات، وجمع حوله بعض الرهبان الكبار بالسن الموزعين بين الجبال طالبا الحصول على ترميم معبد جبال كينغ شينغ. الجميع، شيوخا وشبابا، تحدثوا معي بكامل الحرية، وكما قالت الراهبة: "الكل يحبك هنا" ، إنها تقول "الكل" ولا تقول "أنا".

قالت لي إن باستطاعتي البقاء هنا الوقت الذي أشاء، كما قالت إن زهانغ داكيان[١٦] قد عاش في هذا المكان زمنا طويلا. رأيت له تمثالا يمثل لاوزي في

---

(١٦) رسام مشهور معاصر.

المعبد أهداه للامبراطور جون ونصبه قرب معبد شانغ كينغ. ثم علمت أن فان شانغ شينغ – جين و دو تانغ غيوانغ – تانغ[١٧] قد عاشا هنا مترهبين وألفا أعمالهما.

إنني لست ناسكا، ومازلت أرغب في الطعام على مائدة الناس. لا أستطيع القول إنني بقيت فقط لأنني أحببت الطبيعي وجاذبية هذه المرأة، سأقول ببساطة: أحببت الهدوء في هذا الدير.

عندما أخرج من غرفتي أدخل في صالة من طراز قديم فيها طاولات من خشب النانمو[١٨] وكنبات ذات مساند وطاولات للشاي. تتدلى على الجدران لوحات مكتوبة بخط اليد، وعلى رؤوس الأعمدة كتابات أفقية هي حفريات قديمة حفظت عبر الزمان. أشارت إلي بأنني يمكن أن أقرأ وأكتب هنا وعندما أتعب أستطيع التنزه في الساحة الصغيرة المربعة خلف المعبد. هناك تتطاول شجرة سرو عتيقة بين الأعشاب الخضراء الداكنة، وبين حصى قاع المستنقع تنمو أشنة خضراء شاحبة. في الصباح والمساء وعبر مشابك النوافذ كنت أسمع ضحكات الراهبات وثرثراتهن. هنا لم يكن الجو الرسمي الخانق وفق تعليمات المنع التي يفرضها الرهبان البوذيون سائدا، بل يطغى جو من الصفاء ورائحة البخور.

أحببت أيضاً الهدوء والأبهة اللذين يهيمنا على الباحة الداخلية للمعبد ساعة الغسق حين يغادر المتنزهون المكان. آنذاك أجلس وحيدا على صخرة العتبة في وسط الباب الكبير للمعبد. لأتأمل فسيفساء الديك الكبير من البورسلان الممتد أمام عيني. في صالة العبادة هناك جمل متوازية تزين الأعمدة المركزية الأربعة، تقول عبارات على الجانب الخارجي من الطريق يولد واحد، ومن الواحد اثنان، ومن الاثنان ثلاثة، والثلاثة تولد عشرة آلاف، 'يتبع الإنسان طرائق الأرض، والأرض تتبع سبل السماء، والسماء تلك طرائق الاستقامة، والاستقامة لها دروبها الخاصة بها'.

هذه هي الجملة التي قالها لي النباتي العجوز عندما كنت في الغابة العذراء.

أما العبارات في الداخل فتقول:

'نظر دون رؤية، إصغاء دون سماع، ستلاقي الهدوء والصفاء. هذه هي السماوات الثلاث سماء الأرض، السماء العليا والسماء اللانهائية'.

'البقاء وقوفا، والعثور على المفتاح سيجعلك ترى كل شيء واضحا وتكتشف القوانين الثلاثة: القانون السماوي، القانون الأرضي، القانون الإنساني'.

---

(١٧) شاعران طاويان قديمان مشهوران.

(١٨) شجرة يستخدم خشبها في المصنوعات الخشبية والنجارة.

شرح لي العجوز الكبير معنى هذه الجمل:

- داو هو أصل عشرة آلاف كائن، وهو القانون الذي يحكم الآلاف العشرة. يتوافق الذاتي والموضوعي ويتكاملان ويتواجدان في واحد. الأصل الكائن في غير الكائن وغير الكائن في الكائن، وإذا اتحد الاثنان سيكون ذلك قبلياً أي السماء والإنسان متحدان، وستصل رؤية الإنسان ورؤية العالم إلى التوحد. ينظر الطاويون إلى النقاء كمبدأ جوهري، وإلى التسامح كجوهر، وإلى الطبيعة كاستخدام، وإلى امتداد العمر كحقيقة كأن يتطلب هذا الامتداد غياب الأنا. هذه هي الخطوط العريضة للمبادئ الطاوية.

- حينما كان يحدثني التف حولنا الشباب والصبايا، إحدى الراهبات وضعت يدها على كتف شاب. الأذهان مشدودة والبراءة تسود الجميع. لم أتساءل إذا كنت قادرا على الوصول إلى حالة إلغاء الأنا والهدوء وغياب الرغبة.

- في أحد المساءات وبعد العشاء اجتمع الشباب والكبار، الأولاد والبنات في ساحة المعبد محاولين جعل ضفدعة من السيراميك، أكبر من حجم كلب، تصدر صوتاً عن طريق النفخ من الداخل، بعضهم استطاع وبعضهم فشل. كان الجو السائد مرحا لبعض الوقت ثم تفرق الجميع للقيام بالتزاماتهم المسائية. بقيت وحيدا جالسا على عتبة الباب أنظر إلى سقف المعبد الخالي من التزيينات الضخمة والمخيفة للتنينات والأفاعي والسلاحف أو الأسماك.

- تبرز الأسقف المعقوفة ذات الخطوط الواضحة باتجاه السماء. في الخلف تسمق الأشجار في الغابة وتتمايل بهدوء مع الريح مساء. وفي لحظة ساد سكون تام. ومع ذلك كان لدينا إحساس بسماع هسيس واضح لا نعرف من اين يأتي، يمتد بأريحية ويختفي بلطف. بدا همس ماء النبع الذي يمر تحت الجسر الحجري إلى باب المعبد، ووشوشة ريح المساء، في غضون لحظة، يسيلان من أعماق قلبي.

-٦٤-

عندما عادت كان شعرها مقصوصا، وقد لاحظت ذلك هذه المرة.

- لماذا قصصت شعرك؟
- لأنقطع عن الماضي.
- وهل نجحت؟
- يجب فعل ذلك بجميع الأحوال، وأنا أتصرف وكأنني قد تخلصت منه.

تضحك.

- ما الذي يضحكك؟ وأضافت بصوت هادئ: إنني نادمة قليلاً، أتتذكر شعري الجميل؟
- وهذا الشكل جميل أيضاً، إنك أكثر حرية هكذا ولا تحتاجين للنفخ كي تبعدي الشعر عن الأهداب. إنه وضع مزعج.

هي التي ضحكت هذه المرة.

- كفّ عن الحديث عن شعري ودعنا نتحدث في شيء آخر، موافق؟
- في ماذا؟
- مفاتيحك. ألم تضعها؟
- وجدتها، ويمكنني القول أيضاً إنها كان ضائعة، وإنه من غير المجدي البحث عنها.
- عندما ننتهي من أمر يعني أننا نسيناه.
- تتحدثين عن شعرك، وأنا عن مفاتيحي.
- إنني أتكلم عن ذكرياتي، أنت وأنا من نوع واحد.

تعض شفتيها.

- لكن ينقصنا دائما شيء صغير لنلتقي ثانية.
- ماهو هذاا لشيء الصغير؟
- لا أجرؤ على القول إنه متعلق بك، لكنني أؤكد أننا نتلاقى دائما.
- غير أنني حضرت إلى هنا هذه المرة، أليس كذلك؟
- ربما ستغادر حالا.
- وربما سأبقى.
- سيكون ذلك جيدا بالطبع.

رغم ذلك تشعر بالحرج.

- إنك لا تعرف سوى الكلام من دون فعل.
- فعل ماذا؟
- الحب بالتأكيد ! أعرف حاجتك.
- للحب؟
- إلى امرأة. أنت بحاجة إلى امرأة. قالت ذلك بصراحة.
- حسنا، وأنت؟ تثبت نظراتك فيها.
- الأمر نفسه، أحتاج إلى رجل.
- ولمع في نظرتها شيء من التحدي.
- رجل واحد، أخشى ألا يكفيك واحد.

تتردد قليلاً.

- حسنا، لنقل إني بحاجة إلى رجال.

إنها أكثر صراحة منك.

- هذا أكثر دقة.

أنت مرتاح

- عندما يجتمع رجل وامرأة معاً...
- يغيب العالم تماماً
- وتبقى اللذة فقط.

تردد جملتك.

- أتفق معك. هذا كلام يأتي من أعماق القلب. حسنا، والآن رجل وامرأة معاً...
- إذن تعال. قالت. اسحب الستارة.
- تفضلين الظلمة؟
- يمكننا أن ننسى أنفسنا
- ألم تنسى كل شيء سابقا؟ هل مازلت تخافين من ذاتك؟
- إنك تثير اشمئزازي. تفكر بالأمر ولا تجرؤ على فعله. دعني أساعدك.

وقفتْ أمامك ومسدت شعرك، تدفن راسك في صدرها وتهمس:

- سأنزل الستارة.
- لا داعي.

تحركت بنشاط، وأخفضت رأسها لتفتح سحاب بنطالها الجينز. يثيرك اللحم

الأبيض الدقيق والمضغوط بحواف المايوه. تلصق وجهك وتقبل عانتها الطويلة. تضغط على يدك:

- لا تكن متسرعا

- تتدبرين أمورك وحيدة؟

- نعم، أليس هذا أكثر إثارة؟

تخلع بلوزتها عبر رأسها.

تقف أمامك على ثيابها المبعثرة عارية. شعر عانتها أسود مثل شعرها ويلمع بإشراقة حيوية. لم يبق عليه سوى نزع حمالة صدرها الريان. مدت يديها إلى ظهرها وتوجهت إليه بصوت فيه نغمة لوم، وهي تقطب حاجبيها:

- حتى هذه لاتعرف كيف تنزعها.

كنت مضطربا، فأنت لم تفهم بسرعة.

- كن لطيفاً ولو قليلاً!

تنهض حالا وتقف وراءها، ثم تحل حمالة الصدر.

- حسنا، جاء دورك الآن.

تطلق تنهيدة ارتياح، ثم تأتي للجلوس على كنبة أمامك دون أن تنزع نظرها عنك.

موجة من الضحك على الشفاه.

- شيطانه!

ترمي ثيابك التي تخلعها بعصبية.

- لا، بل غانية جميلة، صححت.

كانت عارية تماما، تبدو عليها ملامح التصميم والثبات، وتنتظر أن تقترب منها. وأخيرا، تغمض عينيها وتدعك تقبل كل أنحاء جسمها. تريد أن تهمس بشيء ما.

- لا، لا تقل شيئاً.

تشدك بقوة، ومن دون ضجة، تذوب فيها.

نصف ساعة أو ربما ساعة بعد ذلك تنهض من السرير، وتطلب:

- أعندك قهوة؟

- على الرف.

تملأ كأسا كبيرا وتضع فيه ملعقة للتحريك. تجلس على حافة السرير وتحتسي جرعة وهي تنظر إليك.

- أليس لذيذا؟ قالت.

ليس لديك ما تقوله. تشرب وهي مبتهجة، وكأن شيئاً لم يحدث.

- أي امرأة غريبة أنت. كنت تتأمل هالة ثدييها الممتلئتين.
- ليس لدي شيء غريب، كل شيء فيّ طبيعي. أنت محتاج لحب امرأة.
- لا تحدثيني عن المرأة والحب. هل أنت كذلك مع الجميع؟
- يكفي أن أحب شخصا، وأن تكون لدي رغبة فيه.

أغضبتك لهجة صوتها الحيادية، كنت راغباً في إيلامها، لكنك تكتفي بالقول:

- أي عاهرة!
- ليس هذا ما تريده؟ الأمر أكثر صعوبة بالنسبة إليك منه بالنسبة إلى امرأة. إذا كانت لا تهتم فلماذا تتردد في الاستمتاع بالحالة؟ هل لديك شيء آخر لتقوله؟

تضع كأسها، وتدير نهديها نحوك، ثم تقول بصوت حنون:

- يا طفلي الكبير المسكين ألا تريد المعاودة؟
- لم لا؟

تتقدم باتجاهها.

- على أي حال يجب أن تكون راضيا. قالت.

تريد أن ترد بإشارة رأسك بدل الإجابة، لكن تجتاحك رغبة جميلة بالنوم.

- ماذا ستقول لي؟ قالت لي في أذني.
- أقول ماذا؟
- أي شيء
- أتحدث عن المفاتيح؟
- إذا كان لديك شيء آخر تقوله عنها.
- يمكننا أن نقول عن هذه المفاتيح...
- أسمعك.
- ضاعت. هذا كل ما في الأمر.
- لقد قلت ذلك سابقاً.
- وأخيرا نزل إلى الشارع.
- الشارع، كيف كان؟
- كان مكتظا بالناس المسرعين.
- تابع!
- كان مدهوشا نوعاً ما.

- لماذا؟
- لم يفهم سر انشغال الناس إلى هذه الدرجة
- يحبون إظهار هيئة الانشغال.
- هل هذا ضروري؟
- إذا لم يظهروا اهتمامهم بشيء لا يستطيعون إبعاد القلق عنهم.
- صحيح. فلديهم جميعا تعبير غريب على الوجه، وكأن الهموم تسيطر عليهم.
- وكثير من الرزانة أيضاً.
- يدخلون المخازن بجدية، ويخرجون منها كذلك. يشترون خفا بجدية، ويدفعون النقود بجدية، ويشترون البوظة بجدية أيضاً...
- ويمصونها بجدية...
- لا تتكلمي عن البوظة.
- أنت الذي بدأ.
- لا تقاطعيني، أين وصلت؟
- يخرجون النقود ويفاصلون في الأسعار بجدية. وماذا يفعلون أيضاً بجدية؟ هل هناك أشياء أخرى جدية أيضاً؟
- يتبولون في مواجهة المبولة.
- ثم؟
- تقفل المخازن جميعها.
- يعود الناس إلى بيوتهم على عجل.
- لكنه غير مستعجل للذهاب إلى أي مكان. يبدو أن لديه مكاناً يذهب إليه وهو ما نسميه عادة بالنزل. وللحصول عليه دخل في صراع مع المسؤولين عن السكن.
- على كل حال عنده غرفة.
- لكنه لم يجد مفاتيحه.
- ألم يبق الباب مفتوحا؟
- السؤال هو: هل من الضروري أن يعود إلى غرفته.
- ألا يستطيع قضاء الليلة حيث يشاء؟
- مثل متشرد؟ مثل هبة ريح تمضي حيث تريد في ليل هذه المدينة؟
- سيصعد إلى قطار لا يعرف وجهته، ويذهب معه!

- لم يفكر أبدا بالانسياق وراء متعته البعيدة دائما.
- تبحث عن امرأة، أي امرأة وتحبها بولع!
- من دون أمل حتى الإنهاك.
- حتى الموت. هذا هو الأمر المفيد.
- هكذا، وصلت ريح المساء في كل الاتجاهات. يقف في مكان خال يسمع صوتاً حزينا وكئيبا، لا يستطيع التمييز، هل هو جلبة الريح أم ضجيج قلبه. فجأة أحس أنه فقد الإحساس بالمسؤولية وشعر بأنه مستسلم. وأخيرا أصبح حرا، وحريته لا تتبع إلا من ذاته. يمكنه استرجاع كل شيء من البداية مثل طفل حديث الولادة عاريا تماماً سقط في حوض الحمام على جنبيه وأخذ بالبكاء بصورة طبيعية كي يسمع الناس صوته الخاص. يريد البكاء بكامل قدرته لكنه يكتشف أنه لا يملك سوى جسمه ولا يستطيع الصراخ وراح يتأمل جسده الذي لا يعرف أين يذهب، وعليه وهو واقف في مكان فارغ أن يصدر إشارة كأن يضرب على صدره أو أن يقول نكتة، غير أنه يعرف أنه في تلك اللحظة يكفي أن يرتطم به أحد كي يموت من الخوف.
- مثل السائر في نومه، غادرته روحه.
- فهم أخيراً أن عذابه نابع من جسمه.
- هل تريد إيقاظه؟
- يخاف ألا يحتمل، عندما كان صغيرا سمع أنه إذا سكبنا الماء على رأس السائر وهو نائم فيمكن أن يموت. يتردد في مدّ يده، يبقي يده مرفوعة، تتردد أيضاً، ولا تجرؤ على تعرية الكتف.
- لماذا لا توقظه بهدوء؟
- أنت خلفه تتابع جسمه، إنه يريد الذهاب إلى مكان ما.
- هل سيعود إلى بيته؟ إلى غرفته؟
- لست متأكدا من ذلك، تكتفي بالسير وراءه. تعبر شارعا وتدخل في زقاق، ثم تخرج منه، وتعود ثانية إلى شارع، وإلى زقاق وتخرج منهما.
- لقد عاد إلى الشارع نفسه!
- سيشرق النهار بعد قليل.
- حسنا، مرة ثانية.

إنني تعب منذ زمن طويل من هذه الصراعات الحمقاء التي تمزق هذا العالم الأرضي. أجد نفسي في كل نقاش، وجدال، ومحاورة، على خط الرمي مباشرة، إنني محكوم عليه، ومدان، وموبخ.

وبانتظار المحاكمة، آمل عبثاً أن يأتي عبقري كبير يكون قادراً على قلب مجرى الأمور، ويتدخل بحماسة وكرم لكي يخرجني من هذا الوضع السيء. ولكنه عندما يظهر، سيدير سترته، وأو سيدير نظره بصورة كاملة. يتمنى الناس أن يصبحوا معلمي، وقائدي، ومحاكمي، وطبيبي، ومرشدي، وحكمي، وأخي الأكبر، ومن أعترف أمامه بأخطائي، وناقدي، ومدير وعيي، ورئيسي، إنهم لا يهتمون أبداً إذا كنت بحاجة إليهم حقيقة، إنهم جميعا يريدون أن يصبحوا منقذي، وساعدي الأيمن (أولئك الذين يوجهون لي اللكمات، وليس أولئك الذين يقاتلون من أجلي)، ووالدي وأمي الجديدين، لأن والدي وأمي ماتا، أو حتى، يريدون أن يحلوا تماماً محل وطني في حين أنني لا أعرف ماهو، ولا أعرف إذا كان عندي وطن. في المقابل، إن أصدقائي، والمدافعين عني، وكل أولئك الذين يقفون إلي صفي يوجدون في وضعي نفسه، هذا هو قدري.

إضافة إلى أنني لا أستطيع أن أقوم بدور البطل المأساوي الذي فشل في مواجهة مصيره، وعلى الرغم من أنني أحترم أولئك الذين لا يخافون من مواجهته مثل كسينغتيان Xingtian، البطل الأسطوري، الذي أمسك برأسه المقطوع واستمر في القتال. مع ذلك، لا يمكنني إلا النظر إليهم من بعيد وإرسال تعازي الصامتة. وأنا أيضاً غير قادر على أن أحيا حياة ناسك. لم أعرف لماذا تركت بسرعة معبد شانغكينغ، هل كان ذلك بسبب عدم قدرتي على تحمل السكون وانعدام الحركة في القداس؟ أم كان ذلك يعود إلى نفاذ صبري من قراءة الألواح المحفورة لآلاف المجلدات من القانون الطاوي في طبعة مينغ Ming، والتي لحسن الحظ، لم تحرق بفضل تدخل بعض الرهبان كبار السن؟

أم أنه لأنني كنت كسولا في الاستفسار عن حياة هؤلاء العجائز الذين عرفوا ألف صعوبة. هل كنت أيضاً خائفا من سبر الأسرار الداخلية للراهبات الشابات؟ هل كان هذا لكي لا أفسد تماماً إمكانياتي العقلية الخاصة؟ إنني، أخيراً، مجرد عاشق للجمال. على طريق التثبت، وعلى ارتفاع أكثر من أربعة آلاف متر، أخذت

قليلاً من الدفء والراحة عند فريق من مُعبِّدي الطرق. كانوا يعيشون في منزل حجري، وكان الدخان في الداخل يملأ المكان تماماً. ولا يوجد في الجوار إلا الجبال البيضاء العالية المكسوة بالثلج والجليد. جاءت على الطريق حافلة نزل منها فريق نشيط جدا، بعضهم يحمل حقيبته على ظهره، وبعضهم الآخر يحمل مطرقة صغيرة من الحديد وآخرون يحملون مصنفات ممتلئة بالعينات: إنهم طلاب في مهمة بحثية تدريبية.

أطلّوا برؤوسهم من نافذة الغرفة المظلمة والعامرة بالدخان، ولكن لم يدخل إلا فتاة شابة تحمل مظلة مطرية صغيرة حمراء. وفي الخارج يندف الثلج. طلبت مني ماء، معتقدة، دون شك، بأنني عامل طرق. غرفت لها من القدر المسود من الدخان والمعلق فوق الموقد. صرخت. لقد حرقت فمها وهي تشرب. اعتذرت. سألتني وهي تقترب من النيران:

- ألست من هنا، أنت؟ كان وجهها المحاط بمنديل نسائي محمرا من البرد. منذ أن جئت إلى هذه الجبال، لم أر قط فتاة جميلة مثلها. اردت أن أمازحها قليلاً.

- أتظنين أن الجبليين لا يعرفون الاعتذار؟ ازداد احمرارها. سألتك: هل أنت أيضاً في دورة تدريبية؟ لم أستطع أن أقول لها إنه كان يمكن أن أكون أستاذها.

- جئت لآخذ الصور

- هل أنت مصور؟

- إذا أردت

- لا جئنا لجمع العينات.

وأضافت إن المشهد هنا رائع حقاً.

- هذا صحيح.

وفي نهاية الأمر أنا عاشق للجمال. ومن غير الممكن ألا أتأثر برؤية فتاة جميلة مثلها.

- هل يمكنني أن آخذ لك صورة؟

ردت مباشرة وهي تدير مظلتها الحمراء الصغيرة: مع مظلتي المفتوحة؟

ولكن فيلم التصوير عندي بالأسود والأبيض. لم أشرح لها أنني، في الواقع، أمتلك فيلم تصوير مهنيا.

- لا أهمية لهذا، مصوروا الفن الحقيقيون يستخدمون دائما أفلام التصوير السوداء والبيضاء. يبدو عليها أنها تعرف هذا خرجت معي. تتطاير قطع ثلج صغيرة في الهواء. احتمت من الريح بمظلتها الحمراء. لم يذب ثلج هذا السفح

تماماً على الرغم من أننا في شهر أيار. وتنبت في المساحات التي بقيت زهور صغيرة أرجوانية من إكليل الملك، وتنبت في بعض المناطق باقات من زهور الودنة orpins الحمراء، وعلى الجروف الصخرية الجرداء، تنتشر نباتات الأرطماسية armoise، سيقانها الخضراء كثيرة الزغب حيث تتفتح زهور صفراء جميلة. أمرتها بقولي: قفي هنا. في الخلف، أصبحت الجبال المكسوة بالثلج والتي كانت تسطع في الصباح، مجرد ظلال ضمن الزمرة التي تشكلها قطع الثلج الصغيرة.

- هكذا جيد؟

مالت برأسها، وأخذت وضعاً. ازدادت شدة الريح، فلم تستطع أن تمسك بمظلتها جيدا. كان وضعها وهي تحاول مقاومة الريح أفضل. تسيل أمامنا ساقية تجمدت بفعل الجليد. وعلى الضفة يتفتح عدد كبير من أزهار زر الذهب في منظر ساحر. صرخت وأنا أشير إلى الساقية:

- لنذهب هناك! ركضت وهي تصارع الريح في مظلتها. عيرت العدسة. تتحول قطع الثلج عندما تلامس نفسها إلى بخار ماء. تلمع على منديلها وشعراتها قطرات الماء. أشرت إليها. صرخت في الريح:

- هل انتهيت؟

هناك قطرات صغيرة من الماء تلمع على حاجبيها. كانت رائعة هنا.

من سوء الحظ، انتهى فيلم التصوير. سألت وكلها أمل: هل يمكنك أن ترسل لي هذه الصور.

- نعم إذا تركت عنوانك لي.

حشرت نفسها في الحافلة، وناولتني من النافذة صفحة مزقتها من دفترها، سجلت عليها اسمها، ورقم شارعها في شينغدو. أبلغتني أنها سترحب بي، ولوحت بيدها. ذهبت إلى هذا الشارع بعد ذلك، عندما توقفت في شينغدو. تذكرت الرقم، ولكنني لم أتوقف.

ولم أرسل لها بعد ذلك صورها. عندما أخرجت جميع أفلامي، لم أسحب إلا قليلاً من الصور، وهي التي يمكن أن تكون مفيدة لي. لا أعرف إذا كنت سأكبرها في يوم من الأيام، ولا أعرف إذا كانت هذه الفتاة ستبدو على الورق دائما مثيرة. صورت على قمة هوانغانغ Hunnggang، وهي القمة الرئيسية في جبال ووي، على حدود أماكن الرعي، شجرة أرز رائعة وجيدة ضمن غابة صنوبريات. ينقسم الجذع في منتصفه إلى فرعين أفقيين تقريباً، كصقر ضخم يفرد جناحيه استعداداً للطيران. في منتصف الجناحين، يوجد فرع يذكر برأس عصفور منحنٍ، يثبت نظره

نحو الأسفل.

الطبيعة غريبة. إنها تستطيع أن تلد الجمال بمقدار ما تلد القبح. في جنوب منطقة الحماية الطبيعية في جبال ووي هذه، رأيت شجرة ضخمة وقديمة، ومجوفة بصورة كاملة. حيث تستطيع أن تعيش فيها الثعابين البرية الكبيرة. يرتفع على جذع يميل لونه إلى الأسود المعدني، بعض الأغصان المائلة التي تهتز فوقها بعض الأوراق الخضراء الصغيرة. وعند مغيب الشمس، عندما يلف الظلام الوادي، تنتصب هذه الشجرة وسط غابة من الخيزران الأخضر. تنتشر فروعها المكسورة المائلة إلى السواد والتالفة، في الاتجاهات كلها مثل شياطين الشؤم. أظهرت هذه الصورة، وكنت كلما نظرت إليها، تدخلني في كآبة شديدة، ولم أكن أستطيع النظر إليها لفترة طويلة. تأكدت من أنها حركت في داخلي الجوانب الأكثر إظلاماً في روحي، وهذه الجوانب هي التي ترعبني أنا نفسي. على كل حال، لا أستطيع التراجع أمام الجمال أو أمام البشاعة. مما لاشك فيه أنني رأيت، في جبال وودانغ Wudang، الزعيم الكهل الطاوي الأخير لسلالة (**الواحد الحقيقي** un veritable)، ويمثل شكلا من تجسيد البشاعة. سألت عن موضوعه في المكان المسمى (المعسكر القديم). تعيش راهبة طاوية عجوز في بيت خرب وراء جدار يحمي نصباً تذكارية تمجد أحد الأباطرة المينغين، ودمرتها الحروب.. استفسرت منها عن عصر الازدهار الذي كان فيه هذا المعبد مزدهراً، ثم بدأنا الحديث عن العقيدة الطاوية.

أخبرتني أنه لم يبق إلا زعيم واحد من سلالة (**الواحد الحقيقي**)، وعمره أكثر من ثمانين سنة، ولا يغادر الجبال أبداً. يمكث السنة كلها في المعبد ذي السقف المذهب، ولا يستطيع أي شخص أن يحركه.

استقليت، في الصباح الباكر، أول قطار باتجاه نانيا Nanya، وصعدت عبر طريق محاذ للجبال نحو السقف المذهب، الذي وصلت إليه عند الظهيرة تقريباً. كان الجو، في القمة، ملبداً وبارداً، ولم يكن يوجد أي منتزه. تجولت في الممرات الخالية. كانت المنافذ مغلقة باستثناء باب ثقيل كان مشقوقاً قليلاً. استخدمت قوتي كلها لكي أستطيع دفعه. نهض رجل عجوز وشكله مخيف، وسألني فجأة:

- ماذا تفعل هنا؟

فأجبته بلطف شديد:

- سامحني، هل أنت سيد الأمكنة؟

- هنا لا يوجد سيد.

- إنني أعرف أن هذه الصومعة لما تستَعدْ نشاطاتها بعد. ولكن هل أنت الراهب الأعلى رتبة لهذه الأمكنة؟

- هنا لا يوجد راهب أعلى!

- في هذه الحالة، اعذرني، هل أنت راهب طاوي؟ ما الذي يعنيه إذا كنت راهباً؟ قطب حاجبيه الكثيفتين.

- اعذرني، هل أنت من سلالة (**الواحد الحقيقي**)، أليس كذلك؟ لقد سمعت أنه لا يوجد إلا هنا، في هذا المعبد، ولم يبق إلا واحد...

- إنني لا أهتم بالسلالات.

ومن دون أن يتركني أنهي كلامي دفعني خارجاً وأغلق الباب. أسرعت في الشرح أنني صحفي. لقد قررت الحكومة حالياً أنه يجب تطبيق سياسة جديدة نحو الشؤون الدينية، فهل أستطيع أن أساعدكم في التعريف بوضعكم؟

- إنني لا أهتم بالصحفيين! وأغلق الباب. لاحظت بعد ذلك أن امرأة عجوزاً وشابة كانتا جالستين بالقرب من المنزل، وربما تكونان من عائلته. أعرف أن الرهبان الطاويين من سلالة (**الواحد الحقيقي**) يستطيعون الزواج وإنجاب الأطفال، وحتى ممارسة فن غرفة النوم. لا أستطيع أن أمنع نفسي من الشك فيه بالسوء. يجب أن يكون مولعاً بفنون القتال مع عينيه الكبيرتين المحملقتين تحت حاجبيه الكثيفين وصوته المتهدج الحاد.

- يجب ألا نندهش إذا لم يجرؤ أحد على الاحتكاك به منذ وقت طويل. مما لا شك فيه أنني لن أحصل على شيء جديد إذا قرعت مرة ثانية على بابه.

وعبر طريق محمي بسلسلة تحاذي الجرف الصخري، صعدت أعلى من المعبد إلى السقف المذهب المبني من النحاس الأصفر بصورة كاملة.

بدأت الريح تصفر، ويرافقها مطر خفيف. عندما نزلت مرة ثانية، كانت امرأة ناضجة بيدين عريضتين، وقدمين كبيرتين، تسجد أمام المعبد المغلق، وهي تضم يديها. ملابسها تشبه ملابس فلاحة، ولكن وضعها يكشف طبيعتها كامرأة متعودة على التشرد. ابتعدت، وأظهرت إعجابي بالمنظر الطبيعي، وأنا أستند إلى الدرابزين الحديدي بين العواميد. الريح الشديدة تحني أشجار الصنوبر الصغيرة المتعلقة بين شقوق الصخور. تلامس بعض السحب الطريق، وتكشف في بعض المناطق بحر الغابة السوداء التي تمتد في الوادي. عدت لكي ألقي نظرة. وقفت ورائي مباعدة بين ساقيها، ومغلقة عينيها دون أن تنطق بأي كلمة. لهؤلاء الناس عالمهم الخاص،

عالم مغلق أمامي، لا أستطيع الدخول إليه أبداً. ولهم طريقتهم الخاصة في الوجود والدفاع، بعيداً عن المجتمع. وأنا لا أستطيع إلا العودة للعيش ضمن ما يعتبره الناس الحياة الطبيعية، شئت أم أبيت، وليس عندي طريق آخر، ومما لا شك فيه أن مأساتي كانت تكمن هنا. نزلت من الطريق ثانية إلى أن وجدت ساحة فيها مطعم مازال مفتوحا. لا وجود لأي زبون في الداخل، وكان بعض الخدم يلبسون سترة بيض يجلسون لوحدهم لتناول الطعام. لم أدخل.. إلى جانب الجبل، كان جرس معبد ضخم من البرونز مرمياً على الأرض، ويصل ارتفاعه ارتفاع رجل. ضربته بيدي، فلم يصدر عنه أي صوت.

يجب أن يكون ثمة معبد في المكان، ولكن حالياً لا يظهر على مد النظر إلا العشب الكثيف الذي يتمايل مع الريح. انحدرت على الطريق إلى أن رأيت طريقاً مرصوفاً بالأحجار كثير التعرج يقود إلى أسفل الجبل. من المستحيل تخفيف السرعة. وبسبب اندفاعي وصلت خلال عشر دقائق إلى واد سحيق وهادئ. تخفي الأشجار المنتصبة على جانبي الطريق الحجري السماء. اختفى صوت الريح، وأحسست بالرذاذ، القادم دون شك من الغيوم التي تغطي قمم الجبال على وجهي. أصبحت الغابة بالتدريج كثيفة. لا أعرف إذا كانت هي التي رأيتها داخل الضباب من المعبد ذي السقف المذهب، ولم أعد أذكر أيضاً إذا كنت قد سلكت هذا الطريق عند صعودي. عندما رأيت وأنا أنظر إلى الخلف القمم الحجرية تصير سيئة شيئاً فشيئاً، ولا يقارن مع طريق الذهاب، المرصوف بصورة أفضل.

لاحظت أنني أسير باتجاه معاكس للجبل، فتابعت النزول على إيقاع خطواتي. مما لا شك فيه أن الإنسان عندما تأتي ساعته يترك روحه تنزل نحو الجحيم دون السيطرة على مسيرتها. ترددت أولاً في البداية، وعدت إلى نفسي للحظة، ولكنني بعد ذلك توقفت عن التفكير لأن أنّ مشهد الجحيم استهواني. على جانبي الطريق، ترتفع القمم المستديرة من الدعائم الحجرية الجرداء، بدت أعماق الوادي أكثر رطوبة، وتميل الدعائم في كل الاتجاهات، وتشبه الصخور التي أصابها الحت رؤوس صلعاء موضوعة على صفي العواميد. كنت أخشى أن يرميني الراهب الطاوي العجوز بتعويذة لكي أضل طريقي. وذلك بسبب عدم نقاء قلبي. انتابني الرعب فجأة، وجعلني أفقد صوابي. أخذتني تلافيف الضباب في شباكها. الآن، يشبه الطريق والعواميد الحجرية الرطبة الجثث. لم تعد قدماي تطيعان عقلي وتقوداني بصورة إجبارية نحو ظلمات الموت. سال العرق على طول ظهري. يجب أن أسيطر على نفسي حتماً، وأن أترك بسرعة هذا الجبل. ومن دون أن أهتم بالأدغال

التي تغطي الغابة، استغليت مفرق الطريق لكي أسرع وأقفز على جذع شجرة لكي أخفف من سرعتي.

احترقت يداي ووجهي، ويبدو لي أن الدم يسيل على وجنتي. رفعت رأسي، فرأيت عيناً مستديرة على غصن تنظر إليَّ بثبات. نظرت حولي، فرأيت الأغصان، في كل الاتجاهات، تفتح عيوناً كبيرة لتراقبني ببرودة.

عليَّ أن أعود إلى هدوئي، فهي في النهاية غابة من الأشجار الصمغية. ترك الجبليون الذين جمعوا الصمغ بعض الأثلام على جذوع الشجر. إنهم يشتغلون ضمن هذه الحالة، فيخلفون هذا المشهد الجهنمي.

يمكنني القول أيضاً إن الأمر يتعلق بوهم يعود إلى خوفي الداخلي، روحي السوداء تراقبني، وهذه العيون الكثيرة، في الواقع إنني أنا الذي أراقب ذاتي. كان عندي دائماً الإحساس بأني مراقب، وهذا ما أعاق حركاتي باستمرار. في الحقيقة، إن الأمر يتعلق، فقط، بالخوف الذي ينتابني من نفسي، عدت إلى الطريق. عاد الرذاذ. أصبح الطريق الحجري أكثر صلابة. لم أعد أنظر إلى أي شيء، ونزلت مغمض العينين.

- ٦٦ -

بعد أن تبدد الخوف الأول من الموت، وتبدد قلقك، وهدأت ثورتك، بقيت ضمن حالة من الذهول. تجولت، وأنت تائه في الغابة البكر، تحت أشجار ميتة دون أوراق، وآيلة إلى السقوط في كل لحظة. درت طويلاً حول هذه الشوكة الثلاثية الغريبة التي يبدو أنها تلفت نظرك نحو السماء المكفهرة، ولم تجرؤ على الابتعاد عن نقطة العلام الوحيدة هذه، وهي آخر إشارة تتذكرها. ولكنك لا تريد البقاء معلقاً بهذه الشوكة الثلاثية كسمكة خارج الماء:

إن التخلي عن آخر ارتباطات تربطك في العالم أفضل من إصرارك على تجميع ذكرياتك. يمكن أن تضل أكثر، ولكنك تريد الاحتفاظ بفرصتك الأخيرة في البقاء على قيد الحياة. هذا يمكن فهمه تماماً. وصلت، في طرف الغابة، إلى حافة واد، ووجدت نفسك مرة أخرى أمام اختبار جديد: فإما أن تعود أدراجك إلى عمق الغابة، أو أنك ستسقط في الوادي.

يمتد على سفح الوادي مرعى مرصع ببقع داكنة يرسمها ظل الأشجار. تنتصب هنا وهناك الصخور الجرداء شديدة الانحدار. لم تعرف لماذا شعرت بانجذاب نحو مجرى الماء الذي ينبعث من عمق الوادي، فتوقفت عن التفكير وهبطت المنحدر بخطوات كبيرة أولاً، ثم جرياً.

إنك في طريقك إلى التخلي عن هذا العالم الزاخر بالهموم والمتاعب. إن ذكرياتك الموغلة في القدم تكبلك دائماً، حتى وإن كان هذا العالم مازال يحتفظ بقليل من الحرارة. أطلقت صرخة حادة، ووثبت نحو المجرى الجهنمي لنهر النسيان Oubli تصرخ، وتركض، وتنبعث زمجرة من سعادة بهيمية من رئتيك. عندما قدمت إلى العالم، أطلقت صرخة كبيرة، دون أي عائق، ولكنك حوصرت بعد ذلك بكل أشكال القوانين، والأعراف، ومبادئ الثقافة والتربية. وجدت السعادة أخيراً في الصراخ بحرية. ولكن الغريب أنك لم تسمع صوتك. صرخت، ولهثت، وأتعبت نفسك، وأنت تركض بذراعين متباعدتين، دون أن تسمع أي صوت. إنك تميز دائماً المصدر العميق دون أن تعرف من أين يأتي الصوت ولا إلى أين يذهب. ينتابك إحساس بأنك تطير في الهواء، وأنك تغيب في الضباب، ولم يعد لك وزن، وشعرت بزهد لم تشعر به في حياتك من قبل قط. مع ذلك، يبقى في داخلك خوف غامض، دون سبب واضح، وربما يعود هذا إلى الكآبة. ينتابك إحساس بأنك تحلق، وتتقسم

إلى قسمين، وتفقد شكلك الإنساني لكي تذوب في الطبيعة، تشعر بصفاء مطلق وأنت تحلق وسط هذا الوادي العميق، وتبعد عن طريقك الأغصان باستمرار، فتعود إلى وضعها السابق وراءك، إن النزول من الجبل مباشرة عمل متعب. تحتاج للاستراحة والهدوء. توقفت، وأنت منهك من التعب، لكي تستعيد أنفاسك. سمعت خرير الماء في النهر. إنك قريب منه، لأنك تسمع جريان مائه الصافي. تتطاير منه قطرات تلمع كالزئبق. صمت النهر، لم تعد تسمع إلا صوت الأشجار الصغيرة التي يدحرجها. لم تسمع قط من قبل وبمثل هذا الوضوح صوت جريان الماء. وكلما أنصتّ إليه أكثر، تبينت انعكاسات الماء أكثر، والتي تلمع في الظل. إنك تشعر وكأنك تسير على الماء، لأنك بدأت تدوس على أعشاب مائية. تعمقت وسط نهر النسيان، طوقتك الأعشاب، مثل تطويق هموم الحياة اليومية. عندها، تخلصت تماماً من يأسك، وتقدمت بحذر على طرف الماء. دست على حصيات وحصرتها بين أصابع قدميك. وهذا كأنك تسير في الحلم وسط النهر الأسود في الجحيم، ولمع ضوء أزرق داكن في المكان الذي تنبعث منه قطرات الماء. دهشت، ولكن دهشتك تخفي سعادة غامضة. بعد ذلك وصل تنفس ثقيل إلى مسامعك. اعتقدت أن هذا الضجيج يأتي من النهر، ولكنك اكتشفت، شيئاً فشيئاً، وجود مجموعة من النساء يغرقن. إنهن يبكين، ويصرخن، ويقترين منك واحدة بعد أخرى، شعرهن منكوش، ووجوههن شاحبة وممتقعة. وفي الثقوب، بين جذور الشجر الغارقة في المياه، تتردد الأصوات الجنائزية للأمواج.

يطفو جسد فتاة منتحرة فوق الماء، بشعرها المشعث. يجري النهر وسط غابة سوداء تشكل شاشة لايمكن اختراقها من السماء والشمس، مرت النساء الغارقات بقربك وهن يتنهدن، ولم تفكر قط في مساعدتهن، ولم ترغب، حتى، في إنقاذ نفسك. إنك تتجول في مملكة الأموات، لم تعد حياتك ملكك، استمريت في التنفس فقط بسبب لحظة خوف، وحياتك معلقة بين قبل هذا الخوف وبعده. إذا انزلقت، أو إذا تدحرجت الحصيات التي تمسكها بأصابع قدمك، وإذا لم تكن خطوتك ثابتة في الماء، فإنك ستغرق في النهر الجهنمي، مثل هذه الجثث التي تطفو بحسب اتجاه التيار. غاب الاحساس، فلا تعير أهمية لهذا، تقدم، هذا كل شيء.

لا يبقى إلا مجرى النهر الهادئ، والماء الأسود مثل الموت، وأوراق الأغصان التي تلامس سطح الماء، والتيار الذي يجري في مقاطع طويلة مثل جلود ذئاب ميتة، وسط نهر النسيان، أنت لا تختلف كثيراً عن الذئب، لقد سببت كثيراً من المصائب، سيحكم عليك الذئاب الآخرون بالموت، دون سبب. الناس متساوون في نهر النسيان،

إن نهاية الناس والذئاب هي دائماً الموت. أثار هذا الاكتشاف نوعاً من السعادة في داخلك، وهذه السعادة تمنحك رغبة في الصراخ، ولكن حنجرتك لا ترسل أي صوت، الصوت الوحيد الذي تسمعه هو صوت ضربات الماء السقوية على جذوع الأشجار.

من أين جاءت هذه الثقوب؟ المياه لا حدود لها، وهي ليست عميقة، ولكنها تمتد إلى ما لا نهاية. إن بحر الآلام دون حدود أيضاً، وأنت تطفو وسط بحر لا متناه. تبينت خيال كائنات بشرية تنشد أغاني جنائزية، وهي أغان حزينة حقاً، ويبدو أنها ملونة بشيء من الظرف، الحياة بهيجة، وكذلك الموت، في الواقع، إنها ذكرياتك فقط بين الصور. التي تأتيك من أعماق ذاكرتك، هل هناك صورة واحدة لمجموعة ترتل تراتيل الصلوات؟ إذا استمعت عن قرب، تبدو هذه الأغاني وكأنها تخرج من تحت الطحلب، وهذا الطحلب كثيف وأملس يغوص تحت قدميك. رفعته لكي تنظر تحته. فهربت ديدان تنهش الجثث المنتفخة. وأنت أيضاً، سينهش جسدك طال الزمن أو قصر. وهذا الأمر لا يجعلك سعيداً.

تجولت مع صديقين، لمدة ثلاثة أيام في بلد الماء هذا. على الرغم من حالتي النفسية، مشيت عشرات (الليات lis)، استقليت سيارات عابرة، وركبت الزورق. ولم يكن وصولي إلى هذه المدينة إلا محض مصادفة.

صديقي الجديد محام. إنه يعرف جيداً الأوساط الرسمية، وشروط الحياة، وأخلاق هذه المنطقة. كان برفقة صديقته وهي فتاة شابة ذات لكنة عذبة في لغة سوزهو suzhou. لايمكن أن أجد دليلاً أفضل منهما. إن متشرداً مثلي كان، من وجهة نظرهما مثقفاً مشهوراً. إنهما يعتقدان أن مرافقتي كانت تسلية جميلة. لكل منهما التزاماته العائلية، ولكن صديقي كان يتندر بترداد: كان الرجل في الأصل حراً مثل الطائر فلماذا لانبحث عن المتعة قليلاً؟. وهو لا يعمل محامياً إلا منذ سنتين. عندما أخذت هذه المهنة مداها، بعد أن أهملت تماماً، نجح في امتحان الدخول إلى المحاماة، واستقال من عمله، تحدوه رغبة واحدة: وهي أن يؤسس مكتباً خاصاً به. كان يحب أن يشرح أن هذه المهنة كانت من مهنة الكتّاب، فهي مهنة حرة تسمح بالدفاع عمّن نريد الدفاع عنه، مع احتفاظه بخصوصيته. من سوء الحظ أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً من أجلي ولكنه قال إنه في يوم من الأيام، عندما يتحسن النظام القضائي عليّ حتماً أن آتي لرؤيته إذا كان عندي مشكلة مع القضاء.

قلت له إنه لا علاقة لي مع العدالة لأنه ليس عندي مشكلة مالية أولاً، وثانياً لم المس شعرة من جسد أي إنسان، وثالثاً، لم أذم أي شخص قط، ورابعاً لم أسرق، ولم أنصب، وخامساً، لم أتاجر بالمخدرات قط، وسادساً وأخيراً، لم أغتصب في حياتي أي امرأة. وأنا، من جهتي لست ملاحقاً قضائياً، ولكن إذا وجهوا لي تهمة قضائية، فإنه ستتم إدانتي بالتأكيد. حرك يده: هو يعرف هذا، وقال ما قاله هكذا لمجرد القول، وهو يعبر.

- قالت صديقته: يجب عدم إطلاق الوعود في الفراغ. نظر إليهما وهو يرمش عينيه، ثم استدار نحوي:

- ألا تجد أنها جميلة حقاً؟

قالت لي لا تصدقه إنه يقول هذا عن جميع صديقاته...

- وهل كذبت إذا قلت إنك جميلة؟

أظهرت أنها ترفع يدها لتضربه. دعواني للعشاء في مطعم يطل على الشارع.

انتهيا من العشاء الساعة العاشرة مساء. دخل أربعة شبان، طلب أحدهم زجاجة كبيرة من الكحول الأبيض، وأطباقاً ملأت الطاولة. يبدو أنه يريد الشرب حتى منتصف الليل. في الشارع، تضيء أضواء المطاعم الصغيرة والمحلات التي مازالت تفتح أبوابها. لقد استعادت القرية نشاطها القديم. إن الأكثر أهمية بالنسبة إلينا، في نهاية هذا النهار، هو أن نجد فندقاً نظيفاً لنغتسل، ونشرب إبريقاً من الشاي لتبديد التعب، ونستريح، ونتحادث أيضاً، ونحن جالسون على كنبة، أو مستلقون على سرير.

تجولنا في اليوم الأول في قرية قديمة مازالت تحتفظ ببعض بيوت سلالة المينغيين، قد أعجبنا بمنصة مسرح قديم، واكتشفنا معبداً أثرياً قمنا بتصوير قوسه، وحَلّلْنا بعض رموز النصب القديمة، وزرنا بعض العجائز جليلي القدر. دخلنا أيضاً إلى معبد بني حديثاً أو رمِّمته القرى التي اشتركت في التكاليف، وقد سحبوا بطاقاتنا الشخصية عند دخولنا. نمنا في المساء في بيت جديد على أطراف إحدى القرى. وكان صاحبه جندياً مسرحاً من الخدمة، دعانا إلى بيته. بقي معنا بعد الوجبة وقصَّ علينا أفعاله البطولية عند قمع جيش من العصابات، وقصّ كذلك قصص قطاع الطرق الذين كانوا يعيشون في المنطقة. وعندما لاحظ آثار التعب علينا أخيرا، أجلسنا على لوح خشبي خشن وضع عليه قش الرز، وزودنا ببعض الأغطية، وأشار إلينا بالانتباه إذا أشعلنا المصباح البترولي. ليس هناك خطر من إشعاله لأننا أنزلناه إلى الأرض. استمر رفيقاي بالحديث بعض الوقت في الظلام، ولكنني غرقت في النوم بسرعة. وصلنا في الليلة التالية إلى قرية طرقنا فيها على باب نزل. كان يحرسه عجوز، ولم يكن فيه أي نزيل. كانت أبواب الغرف مفتوحة واختار كل واحد منا غرفة. جاء صديقي بعد ذلك إلى غرفتي للتحدث معي، ثم أعلنت صديقته أنها هي بدورها تخاف لوحدها. انسلّت تحت أغطية السرير الخالي، واستمعت إلينا ونحن نتحدث.

كان صديقي يعرف سلسلة من القصص الرائعة المختلفة عن قصص العسكري المتقاعد. سمح له عمله كمحامي بقراءة كل أنواع المحفوظات، والشهادات، والملاحظات. وكان له كذلك اتصالات مباشرة مع بعض المجرمين، ووصفهم بطريقة دقيقة، خاصة أولئك الذين اتهموا بجرائم جنسية. كانت صديقته تندس بين الأغطية كقطة تسأل باستمرار: "أهذا صحيح؟

- هذا صحيح بالتأكيد! أنا نفسي حققت مع بعض المتهمين. عندما قامت منذ سنتين حملة ضد المتشردين المتهمين ببعض الجرائم، تم إيقاف ثمانمئة منهم

في منطقة واحدة. وكان معظمهم من العشاق المطرودين الذين لم يرتكبوا جرماً كبيراً. كان عدد المحكومين بالإعدام قليلاً. مع ذلك أُعدم عشرات منهم رمياً بالرصاص بأمر جاء من الأعلى، وهذا ما سبب بعض الإزعاج لعدد من كوادر الأمن الجماهيري الأكثر وعياً من غيرهم. سألته: هل دافعت عنهم؟

- ما الذي يمكن أن يفيد هذا؟

كان العمل ضد الجريمة رهان الحكومة السياسية، وكان من المستحيل إيقاف هذا، جلس على السرير، ولفافة تبغ بين شفتيه.

أشارت إليه صديقته وقالت: قص علينا قصة الشباب الذين كانوا يرقصون عراة.

- كان يوجد في ضاحية مخزن حبوب مهجور، بسبب توزيع الأراضي على الفلاحين الذين كانوا يخزنون الحبوب في بيوتهم.

وفي كل يوم سبت، عندما يحل الظلام، كان يأتي إليه مجموعة من فتيان القرية لكي يرقصوا، وبرفقتهم جهاز تسجيل وفتاة على مقعد عجلاتهم الهوائية، أو ذات المحركات. كان الباب محروساً، ويُمنع دخول فلاحي المنطقة. ولايمكن أن نرى شيئاً من النوافذ بسبب ارتفاعها. تسلق أحد القرويين الفضوليين فوق السلم، لكنه لم يستطع أن يرى شيئاً بسبب الظلمة. ولم يسمع إلا الموسيقى. ومع ذلك أخبر الشرطة الذين قاموا بالمداهمة وأوقفوا أكثر من مئة شاب، لا يتجاوز عمر أكثرهم العشرين عاماً، وهم أولاد كوادر محلية، وعمال، وتجار وبائعون شباب، وبينهم من لا عمل له. وكان بينهم أيضاً بعض التلاميذ المراهقين. أدين بعضهم، وحكم على قسم منهم بالأعمال الشاقة، وأعدم القسم الآخر رمياً بالرصاص.

- هل كانوا يرقصون عراة حقيقة؟

- كان بعضهم يرقص، ولكن غالبيتهم كانوا يقومون ببعض المداعبات. من المؤكد أن بينهم من كان يقوم بفعل الحب. أعلنت فتاة لا يتجاوز عمرها العشرين عاماً أن أكثر من مئتي رجل ضاجعوها، ولهذا السبب فقدت عقلها.

سألت مرة آخري: كيف استطاعت التأكد من العدد؟

- شرحت أنها أصيبت بالخبل تماماً، ولم تكن تفكر إلا بتعدادهم. رأيتها، وتحادثت معها.

- سألت صديقي بدوري: وأنت ألم تسألها ما الذي أوصلها إلى هذا الوضع؟.

- قالت إن الدافع الأول كان في البداية هو الفضول. ولم يكن لديها أي

تجربة جنسية قبل الذهاب إلى هذه الحفلة، ولكن بعد أن فتح الباب كان من المستحيل إعادة إغلاقه، وهذه هي كلماتها الخاصة.

- قالت وهي تندس بين الأغطية: هذا صحيح بالتأكيد.

- سألت: كيف كانت؟

- لاتظن أنك تراها: كانت طبيعية جداً وجسدها عادي، ليس هناك أي تعبير خاص، ولا شيء مثير فيها، رأسها محلوق، ومن المستحيل رؤية شكلها تماماً بلباس السجن، ولكنها كانت قصيرة، ووجهها مستدير. صحيح أنها كانت تتكلم من دون أي ارتباك، وتجيب على كل الأسئلة دون حرج.

- قالت بصوت منخفض: هذا صحيح. بعد ذلك أعدمت. صمتنا بعض الوقت قبل أن أسأله أيضاً: لأي سبب وماهو الجرم؟ يبدو أنه كان قد طرح السؤال على نفسه سابقاً. ربما يكون الجرم الحض على الدعارة، لأنها لم تكن تذهب لوحدها، بل كانت تأخذ معها فتيات أخريات من المؤكد أن الأخريات تعرضن للمصير نفسه.

- قلت: إن السؤال هو إذا كانت هي نفسها حاولت الإغراء، أو شجعت على الاغتصاب؟ لم يكن هناك اغتصاب بالمعنى الدقيق للكلمة. لقد قرأت الاعترافات. إن التشجيع على الدعارة مسألة صعبة الإثبات.

- أضافت: في هذه الحالات ليس من السهل أخذ الأمور بعين الاعتبار.

- والدافع إذن؟ ماذا كان هدفها من تشجيع الفتيات اللواتي اصطحبتهن؟ ربما أراد بعض الفتيان أن تقوم بهذا، أو أن بعضهم أعطاها نقوداً للقيام بذلك. سألتها عن هذا. وصرحت بأنها لم تفعله إلا مع فتيان تعرفهم، وبأنها أكلت وشربت معهم، ولم يعطها أحد نقوداً، وأن لديها عملاً، وأنها مثقفة وتعمل في صيدلية أو مستوصف حيث تهتم بالأدوية وصرخت:

- هذا لا علاقة له أبداً بالثقافة. ولم تكن داعرة، ولكنها كانت ببساطة مريضة عقلياً.

- سألت: أي نوع من المرض؟ أي سؤال من قبل كاتب! أحست بأنها انحدرت، وأرادت أن تشاركها الفتيات الأخريات انحطاطها.

- مازلت لا أفهم. فردت: في الواقع، لقد فهمت جيداً. كل الناس تعرف الرغبة الجنسية، ولكن لأنها كانت تعيسة جداً بسبب حبها لرجل لم يبادلها الحب، أرادت أن تنتقم. وانتقمت في البداية من جسدها..

- سأل المحامي وهو يستدير نحو صديقته: ما رأيك في هذا؟

- إذا كان عليّ أن أنحطّ، فسأقتلك أولاً!

- فرد: أنتِ قاسية في هذا؟

- قلت: يوجد في أعماق الناس كلهم جزء من الوحشية. أضاف المحامي، المشكلة هي في معرفة ما إذا كنا نستحق عقوبة الإعدام أم لا. إنني أعتقد من حيث المبدأ أن تجار المخدرات ومرتكبي جرم الحريق يستحقون عقوبة الموت لأنهم يفسدون حياة الآخرين. انتصبت وقالت: والاغتصاب، أليس جريمة؟

- لم أقل هذا، ولكنني أظن أن الحض على الانحراف لم يثبت، لأن هذا النوع من الانحراف يتعلق دائماً بشخصين. والحض على اغتصاب الفتيات، ألا يشكل هذا جريمة؟

- يجب أن نرى ما المقصود بفتاة شابة: هذا يعتمد على ما إذا كان عمرها أقل من ثمانية عشر عاماً.

هل هذا بسبب أن الرغبة الجنسية غير موجودة في سن أقل من ثمانية عشر عاماً؟

- يضع القانون دائماً حدوداً.

- إنني لا أهتم بالقانون.

- ولكن القانون يهتم بك.

- فيماذا يخصني؟ لم أرتكب جرماً، إنكم أنتم الرجال من يرتكب دائماً الجرائم.

انفجرنا من الضحك. توجهتُ إليه وسألته:

- لماذا تضحك؟

قال وهو يستدير نحوها:

- أنتِ أسوأ من القانون، إنك تراقبيني حتى الضحكة؟

تمددت ونظرت إليه دون أن تهتم بظهور ملابسها الداخلية التي لا تلبس غيرها:

- قل لي بصدق: هل ذهبت لرؤية الداعرات؟ قل ذلك بصراحة لي!

- لا. حدثه عن قصة حساء المعكرونة! وليحكم عليها.

- لماذا، ما بها؟ فهي ليست إلا طاسة من حساء المعكرونة.

- صرخت، من يعرف؟ من الطبيعي أن تزداد رغبتي في سماع القصة.

- ماهي هذه القصة؟ لا تهتم الداعرات فقط بالنقود، إنهن يمتلكن إحساساً أيضاً.

قاطعته بقولها:

- قلت إنك دعوتها لتأخذ صحناً من حساء المعكرونة، نعم أو لا؟

- صحيح ولكننا لم ننم مع بعضنا.

مطت شفتيها.

روى أن الوقت كان ليلاً، وكان يهطل مطر خفيف في شارع مهجور. رأى امرأة تقف تحت عامود إنارة، وحاول أن يلفت انتباهها. لم يظن أنها ستذهب معه. وصلا إلى محل يقدم الحساء، تغطيه مظلات كبيرة واقية من المطر ومصنوعة من قماش مطلي بالقار.

قالت بأنها تريد الدخول إليه، ولم يستطع أن يشتري إلا صحناً واحداً لأنه لم يكن لديه النقود الكافية. لم يضاجعها، ولكنه كان يعرف جيداً أنها كانت تذهب معه أينما يريد. لقد جلسا فقط على قنوات من الإسمنت على طرف الشارع، وتحدثا معاً، وتعانقا. رمقتني بنظرة:

- هل كانت شابة وجميلة؟
- كان عمرها نحو عشرين عاماً، وأنفها معقوف إلى الأعلى.
- وهل كنت عاقلاً إلى هذا الحد؟
- كنت أخشى ألاّ تكون نظيفة، وتنقل لي الأمراض.

ردت بصوت مرتفع وهي تعود إلى التمدد:

- هذا أنتم الرجال!

شرح أنه كان يشفق عليها حقيقة، كان لباسها متواضعاً، ورطباً، وكان الجو بارداً تحت المطر.

قلت:

- أهكذا، أريد أن أصدق هذا. عند الناس جانب خير وجانب شر. وإلا فلن يكونوا بشراً دون هذا.

قال:

- هذا فوق القوانين. ولكن إذا كان القانون يعد الرغبة الجنسية جريمة، معنى ذلك أن الناس كلهم مجرمون في هذه الحالة.

تنهدت بهدوء. عند خروجنا من المطعم، سرنا حتى وصلنا إلى جسر حجري ولم نجد فندقاً. كان مصباح صغير يضيء في نهاية الجسر، على ضفة النهر، وما أن اعتادت عيوننا الظلمة، حتى اكتشفنا زورقاً صغيراً، مع غرفة فيه مغطاة بقماش أسود، راسياً على طرف الرصيف. قطعت امرأتان الجسر، ومرتا بالقرب منا.

همست صديقة المحامي في أذني وهي تشد يدي، انظر، إنهما تقومان بهذا العمل! استدرت لأني لم أنتبه إليهما. ولكنني لم أر إلا قفا العنق حيث يلمع شريط

من البلاستيك الملون، والجانب. كانتا قصيرتين وبدينتين. نظر إليهما صديقي وهما تبتعدان بهدوء، جنباً إلى جنب.

- كانتا تجذبان الملاحين بصورة خاصة.
- هل أنت متيقن من هذا؟
- لقد كنت مندهشاً من استطاعتهما ممارسة هذا الفعل بصورة مكشوفة.

وكنت أعتقد أنهن موجودات فقط إلى جانب المحطة ومداخل المدن الهامة. قالت صديقته إنه يعرف هذا النوع من النساء من النظرة الأولى. النساء بعيدات النظر بالفطرة. لهن لغتهن الرمزية الخاصة، والتي تسمح لهن بالسيطرة على الأسواق في القرى المحيطة، وتابعت شرحها لي قائلة، وفي المساء يكسبن قليلاً من النقود.

- لقد لاحظتا أنني معكما، ولكن لو كنتما لوحدكما، فمن المؤكد أنهما كانتا ستتكلمان معكما. هناك إذن مكان لممارسة نشاطهما، وهما لا تذهبان فقط إلى القرى؟ يمكن أن يكون لهما قارب في مكان قريب، ولكنهما تستطيعان أيضاً الذهاب إلى الفندق مع الزبائن.

- هل يمارس هذا النوع من الأفعال في الفنادق بصورة مكشوفة،
- هناك من يتواطأ مع النساء في هذا، ولا تراهم أبداً في طريقك؟

عند ذلك فكرت ثانية بهذه المرأة التي أرادت الذهاب إلى بكين لكي تقدم شكوى، وادّعت أنها لا تملك نقوداً لشراء تذكرة السفر. فأعطيتها يواناً واحداً، ولكن ربما تكون داعرة.

- ألا تقوم ببحث اجتماعي؟ لقد رأينا اليوم كل شيء. لا يمكنني إلاّ أن أشعر بالذنب، وأنا أشرح أنني غير مؤهل للقيام بأي بحث، وأنني مجرد كلب شارد يتنقل شمالاً ويميناً. فضحكا من قلبيهما.

- اتبعاني، سنمضي وقتاً سعيداً! كان لديه فكرة جديدة. صرخ باتجاه النهر؟
- هيه! ألا يوجد أحد؟ وقفز من حرف الرصيف إلى الزورق ذي الغرفة المغطاة بقماش أسود. عندها صدر صوت أجش قائلاً:
- ماذا تريدون؟
- هل تستطيع الخروج ليلاً بهذا القارب؟
- لنذهب إلى أين؟
- تمتم باسم مكان. فسأل الرجل الذي خرج من الغرفة: كم تدفع؟
- كم تريد؟ وبدأت المساومة.
- أريد عشرين يواناً.

- لا، عشرة.
- ثمانية عشر.
- عشرة.
- إذن خمسة عشر.
- لا عشرة.
- لن أذهب من أجل عشرة يوانات.
- وعاد الرجل إلى الغرفة عندها سمعنا همس امرأة.
- نظرنا إلى بعضنا، وأشرنا برأسنا لا، من المستحيل أن نمنع أنفسنا من الضحك.
- صدر صوت آخر قائلا، هناك قوارب عديدة أبعد قليلاً، أتذهبون فقط إلى رصيف كسياو دانغ يانغ Xiaodangyang؟

أشار إلينا صديقي أن نصمت، وأجاب بصوت قوي:

- لن أذهب إلا بعشرة يوانات! كان يبدو سعيداً. اصعدوا إلى القارب أمامكم، سأجلب قاربي. إن صديقي يعرف تماماً الأسعار. وضع سترة على كتفيه، وظهر خيال رجل يحمل محجناً لجذب المراكب.
- ما رأيك في هذا؟ إننا وفرنا كلفة الفندق. إن هذا هو ما يسمى حقاً: 'التسكع في قارب على ضوء القمر'! من المؤسف أنه لا يوجد ضوء قمر. على كل حال، ليس هنا مجال للامتناع عن الكحول. رجونا الملاح أن ينتظرنا لقوت قصير، وركضنا لنشتري من شارع صغير زجاجة داكو Daquن وكيسين من الفول المسلوق، وشمعتين. قفزنا إلى القارب ونحن سعداء. كان الملاح عجوزاً نحيلاً. أبعد غطاء الغرفة، فذهبنا بسرعة للجلوس على مقدمة القارب ونحن نلبس السراويل القصيرة. أراد صديقي أن يشعل الشمعتين بولاعته. فدمدم العجوز، لا تشعلوا النار على القارب.
- ولماذا؟ إنني أتخيل أن هناك بعض المحظورات هنا. قد تتسبب في إشعال القماش. فسأله المحامي:
- لماذا تريد أن نشعل النار في غطائك القماشي؟ حركت الريح لهب ولاعته مرات عديدة. أبعد الغطاء قليلاً.
- سنعوض عليك إذا وصلت النار إلى القماش. اندست صديقته بيني وبينه. لقد شعرنا لوقت قصير أننا نعيش. أطفئ هذا! ترك العجوز محجنه ودخل تحت الغطاء.

- قلت: من الأفضل ألا نشعل الشمع، فنحن مرتاحون في هذه الليلة المظلمة. عندها فتح المحامي الزجاجة، وابعد قدميه ووضع الفول المسلوق على حصيرة تغطي المقدمة. كانت وجوهنا متقابلة، وأرجلنا يستند بعضها إلى بعض. تداولنا زجاجة الكحول. كانت تستند إليه، وتمد أحياناً يدها لتمسك الزجاجة وتشرب منها جرعة. عند منعطفات المجرى، لم نكن نسمع إلا صوت الأمواج والمحجن الذي يصطدم بالماء.

- لقد خسر الرجل الأول الذي طلبنا منه مرافقتنا منذ قليل صفقة.

كان يمكن أن يقبل لو دفعنا له خمسة يوانات إضافية. وهذا ليس بالشيء الكثير.

- فقط ثمن صحن من حساء المعكرونة الساخن! لقد أصبحنا مملين،

إن هذه القرية الريفية كانت، منذ القديم، مكاناً للمتعة. فمن يستطيع أن يمنع ذلك؟ إن الفتيان والفتيات كلهم متقلبون جداً هنا، ومشكوك في تصرفاتهم ولكن لا يمكن التخلص منهم جميعاً! قال في الظلام:

- هكذا تسير الأمور. انفرجت السماء الملبدة بالغيوم لبعض الوقت وسمحت بمرور ضوء النجوم، ثم تلبدت من جديد. يسمع في مؤخرة القارب القرقرة التي يسببها المجداف الخلفي في الماء، وصوت الأمواج العذب التي تصطدم بالقارب. تنبعث ريح باردة ترطب الجو، وتتسرب من الغطاء الذي أبعد. نصبنا ستارة ضد الريح مصنوعة من حقائب بلاستيكية. أنهكنا التعب، وتجمعنا ثلاثتنا وسط غرفة الزورق الضيقة. انكمشنا أنا والمحامي على الطرفين، وهي حصرت نفسها بيننا. النساء هن هكذا، بحاجة دائماً إلى الحرارة. تأملت، في الظلام، حقول الرز الممتدة وراء السد، وفيما وراءها تمتد المستنقعات المغطاة بغيضات القصب. بعد مئات الدورات والانعطافات، وصلنا إلى طريق مائي تتجاوز غيضات القصب المتلاصقة، يمكن أن نقتل، أو نغرق دون ترك أي اثر. في الواقع، كنا ثلاثة ضد واحد، وحتى وإن كان بيننا امرأة، ولا يوجد مقابلنا إلا عجوز، فإننا لا نستطيع أن ننام آمنين.

استدارت المرأة، ولمست ظهرها بكعب قدمي. أسندت مؤخرتها إلى فخذي، ولكن لم ينتبه أحد إلى ذلك. إن شهر أكتوبر، في هذه المناطق المائية، هو فصل الحصاد، ونرى في كل مكان النهود التي تهتز، والنظرة المخضلّة التي تبرق. جسدها مثير، ويغري بالاقتراب منه، ومداعبته. اندست في حضن صديقي، ومن المؤكد أنها تشعر بدفئ جسدي. مدت يدها لتضعها على فخذي، كما لو أنها تريد إسعادي قليلاً، من باب الطيش أو من باب اللطف. في هذا الوقت سمعنا زعيقاً، وهو دون شك، شكوى

عميقة تأتي من مؤخرة الزورق. أردنا أولاً الاحتجاج، ولكننا لم نستطع منع أنفسنا من الاستماع. تردد صوت شكوى حاد في الليل، انتقل مع الريح على سطح الماء، غنى العجوز، غنى بهدوء، واستغرق بصورة كاملة في غنائه، ونغّم صوته الذي كان يخرج من أعماق صدره! إنها شكوى مستمرة لحقبة طويلة، انطلقت فجأة. كانت الكلمات في البداية غير واضحة، ثم بدأنا بالتدريج نفهمها ولكن ليس بصورة كاملة، بسبب اللهجة التي يستخدمها والملونة بنبرة فلاحية قوية. مثل:

'أنت ايتها الأخت الصغيرة ذات السبع عشرة عاماً، والفتاة ذات الثمانية عشر عاماً.. تتبعت مصير أخيك... في كل مكان... في كل مكان... ليس مماثلاً.... الخادمة الصغيرة.... مع الضوء...'

وعندما ضاع الخيط، لم نعد نفهم شيئاً.

سألتهما وأنا ألمس أياديهما: أتسمعان؟ ما الذي يغنيه؟ تحرك جسديهما، لم يناما.

طوى المحامي رجليه، وجلس وصرخ على الملاح: هيه، أيها العجوز، ما الذي تغنيه؟

طار طائر مرعوب فوق الغرفة وهو ينعب. أزحت غطاء القماش، الزورق يقترب من الضفة. وتمر في أعماق السد مساحات تميل إلى السواد، ربما تكون فاصوليا الصوجا. توقف العجوز عن الغناء، تحركت ريح رطبة، ذهبت بالنعاس من عينيّ. توجهت إليه باحترام:

- أيها الرجل العجوز، إن ما تغنيه هو أغنية شعبية، أليس كذلك؟

لم يرد وانشغل بقيادة الزورق الذي انطلق بسرعة.. استرح، واشرب معنا. بعد ذلك غننا شيئاً. اقترب المحامي منه. حافظ الرجل العجوز على صمته واستمر في إدارة دفة القيادة.

- لا تستعجل، تعال واشرب كأساً واستعد نشاطك، سأعطيك قطعتين زيادة إذا أنشدتنا شيئاً، موافق؟ لم تلق كلمات المحامي أي استجابة مثل حجر يسقط في الماء. استمر القارب في السير فوق الماء. وحده يبدد ضجيج الدوامات التي يشكلها المحجن والموجات الصغيرة التي تضرب بهدوء حواف الزورق.

- همست صديقة المحامي ، لننم. تمددنا ونحن خائبون قليلاً. بدت الغرفة أكثر ضيقاً مع أجسادنا الثلاثة المستلقية بعضها إلى جانب بعض. أمسكت بيدي بدافع الرغبة أو بدافع الحنان، وبقيت الأمور عند هذا الحد، لا يريد أحد إفساد هذا الشعور الغريب هذه الليلة.

لا يوجد أي صوت بين المحامي وبينها. عندما أحسست بنعومة جسدها وحرارته، حاولت كبت الرغبة التي اجتاحتني، ولكن رغبتي تصاعدت، واستعاد الليل غموضه الساحر. عاد الغناء الحزين بعد ذلك بقليل، وكان غناء روح تائهة في الليل متألمة، ومنهكة، وتبحث عن الارتواء. لمع رماد متوهج لبعض الوقت في الليل. لم يبق إلا حرارة الجسد، ونعومة الاحتكاكات، تشابكت أصابعي بأصابعها، لكن أياً منا لم يصدر صوتاً، ولم يجرؤ أحد على تعكير الصمت، وحافظ كل منا على تنفسه والاستماع إلى صفير العاصفة التي تتدفع في عروقه. تردد صوت العجوز المتعب مع بعض الإنقطاعات إنه يغني نهدي امرأة معطرين، ساقاها أكثر إثارة من ساقي امرأة أخرى، ولكن لا يمكن فهم بيت شعري بصورة كاملة، وإنما تلتقط بعض المقاطع، إنه يغني بطريقة غامضة، ولايمكن إدراك البداية ولا النهاية، تتالت الأبيات ولم يكرر أي بيت من البداية إلى النهاية، ولكنها تتشابه كلها تقريباً، الزهور والمدّقات تخضب الوجوه، لا تفعله، جذور، جذور اللوتس، تنورة من الكتان تطير في الهواء، قامة ممشوقة، الطعم المر لشجر الكاكي، ليس مراً قط ولكنه حامض، بين الأمواج آلاف العيون، وفي السماء اليعاسيب، لا، لا، لايمكننا الركون إلى هذا... من الواضح أنه يغوص في عمق ذاكرته لكي يجد الأحاسيس التي تمنح لفته قوة تعبيرها، وليس للغته معنى واضح، إنه لا ينقل إلا أحاسيس بديهية، إنه يؤكد الرغبة، ويستمر في غنائه كالشكوى، كالتنهيدة.

توقف بعد فترة، وانسحبت اليد التي كانت تمسك بيدي.

لا أحد يتحرك. سعل العجوز، فاهتز القارب قليلاً. جلست لكي أنظر من خلال الغطاء القماشي. أبيضّ سطح الماء، إن القارب يقطع قرية صغيرة. تتلاصق الأبنية على الضفة، وتحت ضوء أعمدة الإثارة تبدو أبواب مقفلة بعناية، والنوافذ مظلمة.

وفي الخلف لم يتوقف العجوز عن السعال، تمايل القارب بشدة، وسمعناه وهو يتبول في الماء.

وأنت استمريت في تسلق الجبال. وكلما اقتربت من القمة، وأنت منهك، تعتقد أنها ستكون المرة الأخيرة. وصلت إلى الهدف وعندما هدأت إثارتك قليلاً، بقيت غير راضٍ. وازداد عدم رضاك، مع زوال تعبك، نظرت إلى سلسلة الجبال التي تتعرج على امتداد النظر، وعاودتك الرغبة من جديد في هبوط الجبال. إن الجبال التي تسلقتها من قبل لم تقدم لك أي فائدة، ولكنك بقيت مقتنعاً بأن وراءها تختفي بعض الغرائب، ولم تلق إلا الريح الوحيدة. تعودت مع مرور الأيام على وحدتك، وأصبح تسلق الجبال نوعاً من المرض المزمن. إنك تعلم تماماً أنك لن تجد شيئاً، ولكن عدم تبصرك هو الذي يدفعك، ولم تتوقف عن التسلق. من المؤكد أنك تحتاج ضمن هذا السياق إلى بعض ما يعزيك، وتعلل نفسك بأوهامك، وخلقت أساطيرك الخاصة. رويت أنك رأيت تحت أحد المنحدرات كهفاً مغلقاً بصورة كاملة بصخور كثيفة. اعتقدت أنها بيت شي العجوز Vieux shi، وهو قديس تتحدث عنه أساطير سكان الجبال من سلالة كيانغ qiang.

رويت أنه كان يجلس على سرير خشبي أصابه التسوس وتحول إلى قطع صغيرة عندما لمسته. كانت قطعه المتبقية رطبة بسبب جو الكهف المغلق. تسيل أمام المدخل ساقية، وتغطي الطحالب كل الأماكن التي تسير عليها.

كان جسده يستند إلى جدار، ووجهه ذو محجرين غائرين، وجاف كقطعة خشب يابسة، وكان متجهاً نحوي. كانت بندقيته معلقة على غصن شجرة يخترق ثقباً في الجدار، فوق راسه. وكان يكفيه أن يمد يده لكي يأخذ سلاحه الذي لا يحمل أي اثر للصدأ. وكان مازال مغطى بآثار سوداء من شحم الدببة. سألك العجوز : ما الذي تفعله هنا؟

- جئت لأراك.

حاولت الظهور بمظهر المهذب، على الرغم من الخوف الذي ينتابك. ليس فيه ما يوحي بأنه عجوز مزاجي. خدعك كلها غير مفيدة. إنك تعرف تماماً أنه يمكن أن يقتلك ببندقيته إذا غضب، عليك أنت أن تحاول إخافته.

لم تجرؤ حتى على رفع عينيك، في مواجهة محجريه الغائرين، وذلك بسبب الخوف من أن يتخيل أنك تنظر إلى بندقيته.

- ما العمل؟

لا تستطيع أن تقول لماذا جئت. همهم بصوت يبدو وكأنه يخرج من كهف، منذ وقت طويل لم يأت شخص لرؤيتي.

إن الممر الذي يوصل إلى هنا خُرِّب تماماً، أليس كذلك؟ شرحت له أنك صعدت من عمق الوادي حيث يجري نهر مينغ. نسيتموني جميعاً؟

قلت بحماس لا، إن سكان الجبال يعرفونك أيها العجوز شـي. إنهم يتحدثون عنك في السهرة، ولكنهم لا يجرؤون على المجيء لرؤيتك.

أردت ن تقول له إن الفضول هو الذي دفعك إلى المجيء بعد أن استمعت إليهم وهم يتحدثون عنه، ولكن ليس من السهل أن نشرح هذا له.

الآن وقد وجدت دليلاً هنا على صحة أسطورة، ورأيته، عليك أن تفيد من هذا الدليل. هل نحن بعيدون هنا عن جبال كونلون Kunlun؟

لماذا استفسرت منه عن موضوع جبال كونلون؟ إنها جبال الأسلاف التي تعيش فيها الملكة الأم للغرب. إنها معروضة على قرميد مدهون وجد في قبور هان على شكل شخص براس حيوان الببر، والجسد بشري، وذيل نمر. وقطع القرميد عند سلالة هان حقيقية.

–ها، إذا تقدمت مباشرة، ستصل إلى جبال كونلون. قال هذا كما لو أنه يدل على حمامات أو صالة سينما. تسلحت بالشجاعة لتسأل أيضاً:

- ولكن إذا ذهبت مباشرة، فهل هذا بعيد؟
- مباشرة...

ألقيت نظرة سريعة على محجريه الغائرين، وأنت تنتظر أن يكمل فتح فمه الخالي من الأسنان مرتين، ثم أطبق ثانية. من المستحيل معرفة فيما إذا كان قد قال شيئاً، أو أنه كان يستعد لقول شيء.

أردت الهروب ماراً بالقرب منه، ولكنك خشيت من أن يغضب، ففضلت طمأنته، وإبداء التواضع الكامل، كما لو أنك تستمع إلى تعليماته. ولكنه لم يخبرك شيئاً وهو، دون شك، غير مؤهل لتزويدك بما تريده. شعرت أن عضلات وجهك تقلصت بشدة ضمن هذا السكون أرخيت زاويتي فمك، وأبديت سعادتك. ولكنك مازلت لا ترى أي ردة فعل من قبله. عندها حركت قدماً لكي تغير مركز توازنك، وتقدمت ببطء. اقتربت من محجريه الغائرتين، بقي البؤبؤان ثابتين، كما لو أنهما مستعاران، وربما يكون (مومياء). مما لا شك فيه أن الجثث التي احتفظ بها سالمة تماماً في مقابر سلالة شو في جيانغلينغ أو في ماوانغدوي، كانت في وضع مثل وضعه.

تقدمت خطوة خطوة دون أن تجرؤ على لمسه، لأنك تخشى أن توقعه بأقل

حركة. مديت يدك لأخذ بندقية الصيد المغطاة بآثار شحم الدبية، والمعلقة خلفه. ولكن عندما لمست أخمص البندقية، تحولت إلى قطع صغيرة متناثرة. رجعت إلى الخلف بسرعة، ولم تعد تهتم بمعرفة فيما إذا كنت ستذهب إلى **الملكة الأم للغرب**. قصف فوق راسك صوت الرعد، أظهرت السماء غضبها! إن الجنود والقادة السماويين يضربون بمطارق من عظم حيوانات متوحشة على الطبل الكبير المصنوع من جلد الجاموس القادم من بحر الشرق.. يطير في الكهف تسعة آلاف وتسعمئة وتسعة وتسعون خفاشاً أبيض وهم يصدرون صوتاً قوياً يصم الآذان، يوقظ روح الجبل. انهار جرف صخري ضخم من القمم، محدثاً انهياراً ضخماً كجيش من الخيالة يترك وراءه سحابة من الغبار. أه، أه! ظهرت في السماء، فجأة، تسع شموس! بدأ الرجال مع أضلاعهم الخمسة، والنساء مع سبعة عشر من أعصابهن، بالضرب على آلات النقر، والعزف على آلات وترية، والغناء الدائم، والصراخ، والزعيق، والنواح. عند ذلك تركتك روحك، ولم تعد ترى إلا العفاريت الكثيرة، بفم فاغر. تتوجه نحو السماء، مثل حشد من الرجال القصار مقطوعي الرأس، يرفعون أياديهم نحو السماء، ويصرخون بيأس شديد: أعد لي رأسي! أعد لي رأسي! أعد لي رأسي! أعد لنا رؤوسنا! أعد لنا رؤوسنا! أعد لنا رؤوسنا! رؤوسنا أعدها لنا! رؤوسنا أعدها لنا! رؤوسنا أعدها لنا! أعد لنا رؤوسنا! أعد لنا رؤوسنا! لنا أعد رؤوسنا! الرؤوس أعدها لنا! الرؤوس أعدها لنا! تعال لتعيد لنا رؤوسنا!.. أعيد الرأس لي...

ايقظني صوت قرع الجرس المتكرر والضرب على الطبل من نومي. لم أعد أذكر أين أنا. استطعت أخيراً ضمن الظلمة الشاملة، التعرف على نافذة مع عوارض متصالبة دقيقة جداً. حاولت أن أفتح جفنيّ الثقيلين لكي أتأكد إذا كنت أحلم أم لا. لاحظت أخيراً ضوء ساعتي المشع. الساعة الثالثة، عرفت أن صلاة الصباح بدأت، وأنني موجود في معبد. نهضت دفعة واحدة. عندما وصلت إلى الفناء صمتَ الطبل. ومازال جرس المعبد يرسل قرعاته الواضحة. السماء داكنة وراء الأشجار، ويأتي الطنين من غرفة **الكنز الثمين** المخفية وراء جدران عالية. وبحذر وتلمس بلفت باب البناء الذي يؤدي إلى قاعة الطعام، ولكنه كان مغلقاً. توجهت إلى الجهة الأخرى من البناء، ولكن يديّ لم تُميزا إلا جداراً من القرميد. إنني سجين، ومحصور داخل هذا الرواق المغلق بجدران عالية. ناديت مرات عديدة عبثاً. عزمت في العشية على الإقامة في نزل غوكينغGuoqing، نظر إليّ الرهبان الذين يشعلون البخور ويوزعون القرابين، كما لو أنهم يشكّون بإيماني. بقيت بعناد حتى إغلاق الأبواب. أخيراً شاوروا الراهب الكبير، وأجلسوني في هذا الممر الجانبي في آخر المعبد. لا أريد البقاء محصوراً، أريد التحقق، من دون أن أخالف العقيدة البوذية، مما إذا كنا مازلنا نحافظ على عقيدة مذهب تيانتي[١٩]Tiantai في هذا المعبد منذ أكثر من ألفي سنة. عدت إلى الرواق، فرأيت نقطة ضوء تنبعث من ثقب في زاوية. اكتشفت، وأنا أبحث، باباً صغيراً فتحته دون أذن. من الملاحظ أن هذا المعبد هو معبد بوذي، ولا يوجد أي مكان محرماً. هناك وراء الجدار المواجه غرفة صغيرة للصلاة مضاءة ببعض الشموع وخيمت عليها تلافيف دخان البخور، تظهر أمام المذبح قطعة من الحرير المقصّب البنفسجي والموشاة بكتابة بحروف كبيرة: 'فجأة، مجمر البخور حار' يقال إنها نبوءة. ولكي أثبت حسن نواياي، وأنني لم أحضر لكشف أسرار الرهبان، وضعت نفسي باستمرار تحت ضوء الشمعدان. علق على الجدران الأربعة خطوط قديمة: لم أكن أعتقد من قبل قط. أن معبداً يمكنه أن يضم مثل هذه الغرفة النظيفة جداً، وربما تكون هذه الغرفة هي التي يعيش فيها باستمرار سيد دهارما العظيم. إنني متردد قليلاً في الدخول إليها، تتملكني رغبة

(١٩) أسس هذا المذهب في القرن السادس من عصرنا في زهيجيانغ Zhejiang على جبل تيانتي، والمذهب الذي يحمل الإسم نفسه هو أحد المذاهب البوذية الهامة في الصين.

شديدة في التأكد من أنهم مازالوا يحتفظون فيها بمخطوطات الرهبان البوذيين الشهيرين من التانغيين وهما هان شان، وشي دو[٢٠]. وضعت الشمعدان وتركت الغرفة وتوجهت نحو الجرس.

ها أنذا في رواق آخر، محاط بصومعات تشتعل فيها الشموع أيضاً، هي، دون شك غرف الرهبان البوذيين. فجأة، مرّ خلفي راهب يرتدي ثوباً أسود. فوجئت أولاً، ولكنني فهمت بعد ذلك أنه يدلني على الطريق. قطعت أروقة عديدة خلفه. وفجأة اختفى. بدأت أبحث عن مكان أفضل إضاءة، وأنا مرتبك. استعديت لتجاوز عتبة باب عندما اكتشفت وأنا أرفع رأسي حارس بوذا، بعلو أربعة أو خمسة أمتار، ويرفع نحوي مطرقة من الألماس، وعيناه تقدحان شرراً. تجمدت من الخوف. ابتعدت بسرعة، واستمريت في السير تلمساً ضمن الممر. وصلت مصادفة عبر باب مستدير يتسرب منه ضوء خفيف، إلى الرواق الكبير أمام غرفة **(الكنز الثمين)**. يحرس تنين أزرق كل زاوية من سقفه الذي يرتفع عليه برجان نحو السماء، وفي مركز الغرفة تلمع مرآة مستديرة. وفي حلكة الليل التي تسبق الفجر، وسط أشجار السرو القديمة، كان لهذا الظهور من السحر. وعلى الشرفة العالية، وراء مجمر بخور ضخم من البرونز تشتعل ألف شمعة، ويحرك صوت الجرس الدافئ والرخيم الهواء. يدفع راهب بوذي يرتدي ثوباً أسود طويلاً، أسطوانة ضخمة من الخشب مربوطة، والتي ستضرب الجرس الضخم من دون أن تحركه من مكانه قيد أنملة: يخرج الصوت من الأرض تحت الجرس، ويصعد إلى العوارض وحتى الدعامات قبل أن يدور بسرعة خارج المعبد. إنني مأخوذ تماماً. أشعل بعض الرهبان صفين من الشموع الموضوعة أمام لوهان[٢١] Luohan الثمانية عشر، ثم وضعوا عيداناً من البخور في المجامر.

وتمازجت خيالاتهم في كتلة تميل إلى اللون الأسود المتجانس التي تنتقل كظل لتصل أمام أغطية أرضية مزخرفة بزخرفات مختلفة، ويتموضع على كل منها راهب من الرهبان. قُرع الطبل بعد ذلك مرتين، بقرعتين تقلبان الأحشاء. يقع الطبل إلى شمال المعبد، على عامود أعلى من الرجل، ويتجاوز بارتفاع

---

(٢٠) هان شان Han Shan هو لقب أحد النساك البوذيين الذي عاش منعزلاً على جبل تيانتي في بداية القرن السادس، وشي دو هو راهب بوذي وصديق حميم لهان شان.

(٢١) تلاميذ لبوذا

رأس طول الراهب الذي يقرعه، ويجثم على جزء من الشرفة. إنه الوحيد الذي لا يرتدي ثوباً أسود، ولكنه يرتدي سترة، وسروالاً، وينتعل حذاء من القنّب.

رفع ساعده فوق رأسه.. تا... تا... . بينغ ! بينغ!

ثم استأنف تا.. تا.. عندما اختفى صوت الجرس، استأنف الطبل قرعه بشدة، وزلزل الأرض تحت الأقدام. كنّا، في البداية، نميّز كل ضربة، ولكن الإيقاع تسارع، إلى درجة أن القرعات أصبحت تشكل قرعة واحدة ضخمة تُرعش القلب في الصدر، وتثير الدم في العروق. ضاعفت الضربات من سرعتها، وعلينا حبس الأنفاس، ثم صعد إيقاع حزين متميز أكثر حدة، يتناغم مع الضربات السابقة! إنه راهب بوذي عجوز، هزيل الجسد، وهو الذي يضرب على الطبل. لا يستخدم مطرقة. لا يتحرك فيه سوى قذاله الذي يلمع بين كتفيه العاريتين، وقبضتيه، وكوعيه، وزنديه، وساقيه، وحتى قدميه، وذلك من أجل الضرب، واللمس، والضرب برفق على الطبل، كما لو أنه حيوان الوزغة يلتصق بجسده كله على جلد الآلة. وسط هذه الجلبة الصاخبة يرتفع فجأة صوت الجرس بشكل منظم إلى درجة نعتقد فيها أننا مخطئون في التقدير، كخيط غير مرئي وسط الريح الباردة، كصرير صرّار الليل في ليلة خريفية.

مرّ بسرعة كبيرة، وهو يثير الشفقة تقريباً، ولكن يمكن تمييزه ضمن هذه الضجة، وهو واضح إلى درجة لا يمكن الشك فيها بوجوده. ثم الحركة الساحرة لأسماك من الخشب بأصوات مستمرة، حزينة، ووحيدة، وواضحة، وحادة، والمختلطة بعد ذلك بصوت الأحجار الصائتة القوي. يذوب كل شيء بعد ذلك بصوت سمفوني واحد ساحر . اريد أن أعرف من أين تأتي قرعات الجرس. اكتشفت أخيراً رجلاً عجوزاً وقوراً، يقف وهو يرتدي ثوباً بالياً، يمسك بيده اليسرى جرساً صغيراً، وقضيباً معدنياً دقيقاً في يده اليمنى. ولم يكد يلمس الجرس بقضيبه حتى ارتفع الصوت، واختلط بتلافيف دخان البخور. طوّق الجميع بموسيقاه، كما تطوق شبكة صياد السمك، ولا أحد يستطيع الإفلات منه. زالت الإثارة والخوف اللذان كانا قد انتاباني. يمكن أن نقرأ على الألواح المعلقة في القاعة الكبيرة للمعبد: 'وطن السكينة

و كائنات إنسانية على راحتها'. تتدلى ستائر من السقف. نفقد عند الجلوس بينها أي إحساس بالعبثية، ونشعر بنوع من النشوة المترافقة باللامبالاة، إن هموم هذا العالم الفاني تزول في رمشة عين، ويبدو فجأة أن الزمن توقف. لا أعرف متى

صمت الجرس. لا يزال الرجل الوقور يهز جرسه الصغير، في حين أن شفتيه المزمومتين تتمتمان ببعض الصلوات الغامضة، فترتجف وجنتيه النحيلتين، وحاجبيه المقطبين.

يردد الرهبان البوذيون من كل الأطوال، أناشيدهم الدينية على إيقاع ضربات الجرس الصغير.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة... تسعة وتسعون راهباً بوذياً يسيرون خلف الرجل العجوز الوقور، ويدورون وهم يرددون صلواتهم حول بوذا في وسط المعبد.

اختلطت بهم وأنا أذكر اسم بوذا أميثابا. سمعت أيضاً صوتاً آخر واضحاً: إنه صوت يرتفع فوق الحشد ويرن عندما تنتهي الجملة، مازال هناك حماس لم ينطفئ بعد، وروح تتعذب باستمرار.

ماذا يقال أمام منظر الثلج هذا للرسام غونغ كسيان[٢٢] Gong Xian؛ تسقط قطع الثلج الصغيرة بهدوء كامل، إنه صمت داخل اللاصمت.

هذا حلم، هناك جسر خشبي على النهر، وبيت متواضع معزول بالقرب من الماء، وأنت تميز آثار رجل، ومع ذلك يسيطر شعور من العزلة العميقة.

إنه حلم لا يتبدل، على حدود الحلم، ظلمة غير محسوسة، يكاد المرء يدركها. حبر. إن من يستخدم دائماً ريشة ويضغط عليها كثيراً، فإنه يدفع بإبداعه إلى مسافة أبعد. إنه يبدع في استخدام الحبر والريشة. إن سحر رسوماته يأتي من أن كل تفصيل يظهر بوضوح أمام النظر. إنه رسام حقيقي، وليس فقط رساماً مثقفاً. إن الأناقة البسيطة للذي من المناسب أن يسمى (رسم المثقفين)، لا تتعلق غالباً إلا بالمعنى وليس بالشكل، إنني لا أتحمل كل هذا التكلف في الأسلوب. إنك تتحدث عن رسامين متكلفين في أسلوبهم، ففقدوا طبيعتهم، وتلاعبوا بالرسم في الريشة والحبر.

يمكن تقليد هذه التقنية، ولكن الروح تأتي من الحياة، إنها في الجبال، والأنهار، والعشب، والأشجار. يأتي جمال مناظر غونغ كسيان من هذه الطبيعة غير القابلة للتحديد، والمحاكاة، والتي تشع من لوحاته.

يمكن أن نقلّد زهينغ بانكياو[٢٣] Zheng Banqiao، ولكن لا يمكن تقليد غونغ كسيان، ولابادا[٢٤] أيضاً. يمكن تقليد طيوره ذات العيون الواسعة المحملقة من الغضب، ولكن لا يمكن محاكاة الإحساس بالوحدة العميقة الذي ينبعث من طيور الكانار وزهور اللوتس عنده. إن الأفضل عند بادا هو المناظر الطبيعية.

تعبر أعماله عن هذا التقزز من العالم والأخلاق وهي أعمال غير هامة كثيراً.

إذا كنا نتميز بالحقد على العالم وأخلاقه، فإننا نخاطر بالابتذال، نواجه القماءة بالقماءة، ومن الأفضل أن يكون الابتذال مباشراً. ولهذا أهمل زهينغ بانكياو من قبل معاصريه. إن ماكان يبدو لا مبالاة عنده أصبح مجرد زخرفة للفشل. كثيراً ما

---

(٢٢) رسام عاش بين عامي ١٦٦٠–١٧٠٠.

(٢٣) زهينغ بانكياو أوزهينغ كسي عاش بين عامي ١٦٩٣–١٧٦٥.

(٢٤) بادا شانرين Badashanren (١٦٢٥–١٧٠٥)، عُرف بغرابته وتفرده، ودقة قياساته الصغيرة للأزهار، والحشرات، والصخور والأسماك.

أسيء استخدام صفات الخيزران التي وقعت في الابتذال الخالص، وهذه مجرد طريقة لتنظيم العلاقات الاجتماعية عند بعض المثقفين. إن ما لا أستطيع تحمله أبداً هي 'الحماقة غير المعهودة' المزعومة.

نصبح حمقى فقط عندما نفكر بالكائن، وفي أي شيء هو صعب؟ وهذه، في الواقع، طريقة لإظهار الذكاء ونحن نرتكب الحماقة. لقد كان عبقرية بائسة، في حين أن بادا كان مجنوناً. أظهر في البداية الجنون ثم أصبح مجنوناً حقاً. جاء نجاحه الفني من أنه لا يتلاعب بالجنون أو أنه لم يدرك جنون العالم إلا لأنه اختبره بعين أجنبية. أو أن هذا العالم الذي لا يستطيع تحمل التوازن العقلي، فقد الروح، ثم غاص في التوازن العقلي للعالم.. وأصبح كسووي[٢٥] Xu Wei في آخر أيامه مجنوناً أيضاً، وقتل زوجته. أو أن زوجته قتلته. يبدو قاسياً قول هذا، ولكنه لم يكن أمامه إلا الجنون عندما لم يستطع تحمل أخلاق زمنه.

في المقابل إن غونغ كسيان هو الذي لم يُصَب بالجنون، وتجاوز أخلاق زمنه من دون أن يبحث عن معارضتها، وعرف كيف يحمي طبيعته الخاصة. لم يرد قط مواجهة الحماقة عبر ما يسمى الذكاء، لقد عزل نفسه بعيداً، وغاص في حلم واعٍ. وهذه طريقة أيضاً للحماية الذاتية. كان يعلم أنه لا يستطيع مواجهة هذا العالم المجنون. ولم يكن الأمر يتعلق كذلك بالمواجهة، وهو لم يهتم قط بمواجهته، وعرف كيف يحافظ على شخصيته كاملة.

لم يكن ناسكاً، ولم يتوجه إلى الدين، لم يكن بوذياً ولا طاوياً. وعاش على بستانه وعلى الدروس التي كان يعطيها، لم يبحث قط عن الكسب المادي من رسمه، ولم يحسد أحداً، إن رسمه ينتمي بكامله إلى المجال الذي لا يمكن وصفه. رسمه ليس بحاجة إلى تقديم، لأن جوهر رسمه يعكس أحاسيسه العميقة. هل نستطيع أنت وأنا أن نفهمه؟ ولكنه هو وصل إلى ذلك من قبل مع هذا المنظر للثلج.

هل يمكن التأكيد أن هذا الرسم هو له؟

هل هذا مهم حقيقة؟ إذا كنت تعتقد أنه له فهو له.

وإذا كان غير ذلك؟ عندها يكون الرسم ليس له. بعبارات أخرى، أنت وأنا نعتقد بأننا رأيناه. الرسم، إذن، له.

---

(٢٥) كسو وي رسام ذو ريشة طليقة وحميمية، عاش بين عامي ١٥٢٩-١٥٩٣.

عندما تركت جبال تيانتي، ذهبت إلى شاوكسينغ Shaoscing، المشهورة بكحولها المعتقة، والشخصيات المشهورة التي ولدت فيها: ومنهم رجال سياسة، وأدباء، ورسامون كبار، وحتى بطلة ثورية. حولت بيوتهم اليوم إلى متاحف تكريمية. ورُمم معبد الأرض المعبدة حيث الشخصية الأكثر نذالة ابتكرها قلم لوكسون Lu Xun. فُرض على آه كيو[٢٦] Ah Q، أن يجد ملجأ في الليل. دُهن بألوان زاهية، وقُلّد ميدالية تحمل إهداءً كتبه خطاط معاصر مشهور. مما لا شك فيه أن آه ك لم يكن يتخيل أنه سيصل إلى هذه الشهرة بعد موته، وهو الذي قطع رأسه مثل قاطع طريق. عرفت إلى أي حد يجب على الفتيان الصغار في هذه البلدة أن يعيشوا حياة مضطربة، خاصة البطلة الثورية كيوجين[٢٧]، التي ناضلت من أجل مجد أمتها.

كانت صورة لها معلقة في بيته القديم: إنها امرأة موهوبة تنتمي إلى عائلة كبيرة، وهي دمثة الأخلاق وجميلة، حاجباها دقيقان، نظرها حاد، وجهها مشرق متميز. مع ذلك قُطع رأسها في وضح النهار بعد أن طافوا بها في المدينة وهي مقيدة. أنقذ الكاتب الكبير لوكسون حياته واختبأ ثم فرّ. من حسن الحظ أنه استطاع الالتجاء أخيراً إلى أرض أجنبية، وإلا لما توفّاه المرض بل كان سيتعرض للاغتيال قطعاً. لا يوجد أي مكان آمن في هذا البلد. كتب لوكسون: 'أضحي بدمي من أجل كسوانيوان'.

حفظتُ هذه الجملة عن ظهر قلب عندما كنت طالباً، ولكنني حالياً لا أستطيع أن أمنع نفسي من الشك بصحة رأيه. كسوانيوان هو اسم الأمبراطور الأصفر الذي كان بحسب الأسطورة أول أمبراطور لهذا البلد، ولهذا الوطن، ولهذه الأمة. لماذا يجب أن يضحي بدمه من أجل مجد أسلافه؟

هل التضحية بالدم عمل عظيم حقاً؟ لا نملك إلا رأساً واحداً، فلماذا يجب قطعه من أجل كسوانيوان هذا؟ إن حكمة كسووي أكثر عمقاً وهي:

'في هذا العالم، كل جسد مزيف، وعلى الإنسان أن ينمذجه، إن الوجه الحقيقي أنا الذي أصنعه'. ولكن لماذا على الإنسان أن ينمذج هذا الجسد المزيف؟ مزيف أو

(٢٦) آه ك هو الشخصية الرئيسية في قصة لوكسون، قصة آه ك الحقيقية، والتي كتبها عام ١٩٢١. وهو يرمز إلى روح الاستسلام التي يرفضها لوسكون عند مواطنيه.

(٢٧) وُلدت كيوجين عام ١٨٧٥، وأُعدمت عام ١٩٠٧ بسبب نشاطاتها الثورية.

غير مزيف، ألا يمكننا تجنب تحميله مسؤولية نمذجته؟ إضافة إلى ذلك، لا أهمية إذا كان هذا الوجه الحقيقي حقيقياً أم لا، المشكلة هي في خلقه أو عدم خلقه. في عمق الزقاق الصغير بقي كل شيء على حاله كما كان قديما: 'مكتبته مغطاة بنبات اللبلاب' والفناء الذي نبتت فيه بعض نباتات اللبلاب القديمة، والمكتب ذو النوافذ المضيئة، وطاولة الشاي في حالتها الجيدة.

إن مكاناً بهذا الهدوء يجب أن يحمي لوكسون من الجنون. مما لا شك فيه إن العالم لم يخلق للناس، ولكن على الناس، مع ذلك، أن يعيشوا فيه. إذا أردنا العيش والاحتفاظ بالوجه الحقيقي الذي كان لنا عند الولادة، وإذا لم نرد أن نقتل أو نصبح مجنونين، فإنه ليس أمامنا إلا الهرب.

لن أبقى لمدة أطول هنا، سأرحل بسرعة. يوجد خارج المدينة قبر يو الكبير، في جبال غويجي، وهو أول ملك لسلالة تمتلك نسباً متسلسلاً منذ القرن الواحد والعشرين قبل الميلاد. وهنا وحّد الامبراطورية، وجمع الأمراء الإقطاعيين، وكافأ كل واحد منهم بحسب مقدراته. تجاوزت الجسر الحجري الصغير فوق نهر روي Ruoye، في أسفل هضبة مغطاة بالصنوبر، كانت سنابل القمح تيبس، في المكان أمام آثار قبر يو الكبير. جمع الحصاد المتأخر. أدخلتني شمس الخريف الدافئة بحالة من الاسترخاء الممتع. انتابني إحساس بالوحدة بعد أن تجاوزت الباب، ضمن هذاالرواق الساكن، تخيلت كيف كان أحفاد إنسان هيمودو Hemudu هنا من التراب المحروق، صفر أحفاد إنسان ليا نغزهو[٢٨] Liangzhu على فخارهم إشارات مقعرة، وزخرفات هندسية، استعرض يو الكبير أسلاف بايو[٢٩] Baiyue، بجسدهم الموشوم وشعرهم المقصوص، مع طواطمهم من الطيور. وصل السيد فانغفينغ متأخراً إلى الاحتفال وهو يرتدي لباساً من القنب يتطاير حوله، مربوط بحزام من الجلد، أمر يو الكبير حراسه بقطع رأسه مباشرة.

جاء سيماكيان[٣٠] Sima Qian شخصياً إلى هنا قبل ألفي عام ليبحث، وليكتب أعماله الضخمة (مذكرات تاريخية). وعُوقب هو أيضاً من قبل الامبراطور، فإذا كان قد استطاع أن يحافظ على رأسه، فإنه لم يستطع، في المقابل، الحفاظ على أعضائه الجنسية. يوجد على سقف المبنى الرئيسي وبين أسدين لازورديين، مرآة مستديرة تعكس أشعة الشمس الساطعة. ينتصب في القاعة المظلمة للمعبد

---

(٢٨) هيمودو وليانغزهو وهما تمثالان يعودان إلى العصر الحجري الحديث.

(٢٩) شعب قديم استوطن الصين.

(٣٠) مؤرخ صيني كبير (١٤٥-٨٦ ق.م)

تمثالاً حديثاً ليو الكبير، الذي يظهر قليلاً من الحنان المصطنع. في المقابل، إن المعاول التسعة الموضوعة خلفه أكثر دلالة، وهي رموز إلى السلام القائم بين المناطق التسع.

يقال في (حوليات شو): 'إن يو يعود إلى منطقة غرانغرو في جبال وين Wen، وإنه في شينيو'. جئتُ بالتحديد من هذه المنطقة، ويقطنها حالياً كيانغيو ونشون. وهي أيضاً موطن دبة الباندا. ويقال إن يو ولد من بطن أحد الدببة مثلما يؤكد كتاب (كلاسيك الجبال والبحار). ويقال دائما إنه هيمن على المياه لأنه جرف النهر الأصفر. إنني أشك بواقعية هذه الحادثة، وأعتقد أنه انطلق من المجرى الأعلى لنهر مين Min (والذي كان يشكل، في الأصلن المجرى الرئيسي لنهر يانغزي مثلما يوكد كتاب Shuijingzhu)[٣١]، وسار بجانب نهر يانغزي، وعبر الخوانق الثلاثة، وهاجم في الشمال جبال جيشي، وفي الجنوب منطقة غونغونغ، وفي الشرق جبال يونيو، وخاض معارك طاحنة على طول طريقه، حتى وصل إلى شواطئ بحر المشرق. وفي منطقة كينغكسيو، التي كان شعارها في ذلك الوقت ثعلباً بتسعة أذناب، وفي أسفل الجبال اللازوردية التي أصبحت فيما بعد جبال غويجي، التقى جمالاً سحرياً. عندما بدأت المعركة بينهما، اتخذ شكل دب. خافت الشابة العذراء وأرادت الهرب، ولكن الرجل القديس، يو الكبير، الذي أخذته الحماسة والانفعال صعد فوقها وهو يصرخ: 'اكشفي نفسك!' وهكذا بدأت سلالة أحفاد الأمبراطور. كان يو في نظر زوجته دباً، واصبح على لسان الناس قديساً، وبقلم المؤرخين امبراطوراً، وأصبح عند الروائيين مجرد رجل كان أول من قتل كائنات إنسانية أخرى لكي يشبع رغبته. أما بالنسبة إلى أسطورة الطوفان الذي يقال إنه تغلب عليه، لا شيء يمنع، مثلما أشار أحد الأجانب، من الاعتقاد بأن الأمر يتعلق بذكرى مبهمة للسائل الجنيني. اختفت كل قطعة أثرية حقيقية من القبر. والشيء الوحيد الباقي هو نصب كبير يقابل المعبد الرئيسي، وتغطيه بعض الكتابات على شكل شجرة السليب* ولم يستطع أي مختص حتى الآن فك رموزها. نظرت إليها بدقة، وفكرت بعمق، وفجأة جاء الإلهام، اكتشفت أنه يمكن تفسيرها بالطريقة التالية: التاريخ لغز، أو كذبة ليس إلا، أو أيضاً أن التاريخ ليس إلا هراء، أو أن التاريخ نبوءة، أو أن التاريخ فاكهة حامضة، ويمكن أن نقرأ أيضاً: التاريخ صلب كالحديد، أو أن التاريخ ليس إلا كتلة

---

(٣١) كتاب في الجغرافيا يقود تاريخه إلى عهد وي في الشمال (٣٨٦-٥٣٤).

* شجرة قطعت فروعها لكي تنبت لها أغصان عديدة بدلا من الفروع.

من العجين، أو أن التاريخ ليس إلا كفناً.

وإذا تقدمنا أكثر: يجب أن يكون التاريخ دواء متعرقا. وأبعد من ذلك؟ التاريخ كالروح التي تضرب حائطاً. وبالطريقة نفسها: التاريخ تحف قديمة.

بل إن التاريخ هو تحقق العقل.

و كذلك: التاريخ ينتج عن التجربة، والتاريخ يأتي من الأدلة. والتاريخ مثل مجموعة من حبات اللؤلؤ المتناثرة.

وكذلك أيضاً: التاريخ مربوط بسلسلة من الأسباب أو: التاريخ مجاز.

أو: التاريخ في الواقع حالة عقلية.

وأخيرا التاريخ هو التاريخ.

والتاريخ ليس شيئاً من هذا كله.

وكلذلك: يعود التاريخ إلى مجرد نفس.

آه التاريخ، آه التاريخ، آه التاريخ، التاريخ.

وهل يمكن، في نهاية المطاف أن نحلله كما نريد، هذا هو الاكتشاف الكبير.

هذه ليست رواية ! سأل: ماذا إذن؟ يجب أن تتضمن الرواية قصة كاملة. قال إنه روى أيضاً قصصاً، ولكنه روى بعضها إلى النهاية، وبعضها الآخر لم يصل إلى نهايتها. لا يعرف المؤلف كيف يبني حبكته، إذا لم تحترم القوانين... آه جيد، قل لي كيف نبنيها من فضلك.

- يجب أولا وضع مقدمة، ثم تطور الحكبة، وأخيرا خاتمة.

- إن هذه هي المعارف الأساسية من أجل كتابة رواية. سأل إذا كان يوجد طريقة للكتابة خارج القواعد الأساسية. تحكى بعض القصص عبر البدء بالبداية، وبعضها الآخر عبر النهاية، ولبعضها بداية دون نهاية، ولبعضها الآخر نهاية فقط أو جزء من المستحيل قصه إلى النهاية، ويمكن أن يروى قسم من القصص، ولكن هذا الأمر ليس ضرورياً دائماً، لأنه لا شيء يفيد في الرواية، ومع ذلك، كلها قصص.

يجب أن تمتلك قصصك شخصية رئيسية مهما كانت الطريقة التي ترويها فيها أليس كذلك؟

على كل حال، يجب أن يكون في الرواية الواحدة شخصيات رئيسية عديدة، أما عندكم؟

سأل: أليست الضمائر (أنا، أنت، هي، هو) شخصيات في كتابي.

- ولكنها ليست إلا ضمائر شخصية. إن استخدام مقاربات مختلفة في الوصف لا تعفي من تقديم صورة عن الشخصيات نفسها. إن كتابك لا يتضمن أي صورة واضحة حتى وإن اعتبرت هذه الضمائر الشخصية شخصيات. لايمكننا الحديث عن وصوفات كذلك. قال إنه لا يرسم صورا. هذا صحيح، الرواية ليست رسماً، إنها فن اللغة. ولكن هل تعتقد أن ثرثرة الشخصيات فيما بينها يمكن أن تحل محل تجذيرها بقوة في الرواية.

قال إنه لا يريد أيضاً تثبيت أي صفة لأي شخص كان، وهو نفسه لا يعرف إن كان يمتلك صفة معينة. ماهي الرواية التي تكتبها؟ أنت لم تفهم حتى ماهي الرواية. عندها رجاه باحترام أن يعطيه تعريفاً للرواية. ويرسم الناقد في النهاية تعبير الازدراء ويصفر بين أسنانه:

- أيضاً حدا ثوي يحاول، عبثاً تقليد الغرب. قال إنها رواية شرقية غالباً.

- مازال الشرق يعد طرائقك دون غيرها غرابة: تصرفاتك أقل غرابة: مثل جمع حكايات رحلة، وجمع أجزاء قصص وملاحظات، وخلط النظرية بالمحاولة، بهذا الشكل لا نبتكر حكايات خرافية قلما تشبه الحكايات الخرافية، لا ننسخ بعض الأغنيات والرومانسيات الشعبية إضافة إلى قصص أشباح، تبتدع من هنا وهناك والتي لا علاقة لها بالأساطير، وذلك من أجل جمع كل شيء وتسميته في النهاية 'رواية'.

قال إن البحوث المحلية ذات الموضوع الواحد للممالك المحاربة، ودعوات الناس، والأحداث العظيمة لسلالتي هان، من وي Wei، وجان Jin، ولسلالات الشمال والجنوب ، والحكايات الغريبة للتانغيين، والحكايات باللغة المحكية للسونغين واليوانيين، والروايات المتسلسلة والدراسات عند المينغيين والكنغيين، هذا كله ينتمي إلى الجنس الروائي، لأنه يقوم منذ العهد القديم، وعلى فضاء جغرافي واسع، لغة الشوارع، وهمهمات الأزقة، ويخلط كل ماهو رائع، من دون أن يضع له أي شخص معياراً.

- أنت تنتمي، علاوة على ذلك، إلى مدرسة البحث حول الجذور؟ أسرعَ ليشرح أن هذه العناوين أنت الذي ألصقتها. إنه يكتب الرواية لكي لا يعاني من الوحدة، ولمتعته الخاصة. لم يكن يعتقد أنه سيدخل الأوساط الأدبية، ولكنه حالياً يريد الهرب من هذه الأوساط. ولم يكن يأمل أن يكسب عيشه من كتابة هذا النوع من الكتب: كانت الرواية، بالنسبة إليه، نوعاً من الكماليات البعيدة عن أي نوع من البحث عن وسيلة للعيش.

- إنه عدمي! قال إنه لا يؤمن، في الواقع، بأي قيمة، وإنه إذا كان قد ترك نفسه يسقط في العدم، فذلك ليس من باب العدمية، إضافة إلى أن العدم ليس تماماً مثل الفراغ، إنه مثل (أنت) في كتابك، الذي هو انعكاس لصورة (أنا) ، وضمير (هو) هو الذي يشكل الستارة الخلفية التي يتطور أمامها هذا (الأنت)، خيال الخيال حتى وإن لم يكن له مظهر، فهو ليس إلا ضميراً شخصياً أيضاً. الناقد ينفض أكمامه ويمضي.

بقي حائراً، ولا يفهم إذا كان الشيء الأكثر أهمية في الرواية هو حكاية قصة أو هو طريقة روايتها؟ أو موقف المؤلف من السرد؟ أو إذا لم يكن الموقف، بل تحديد الموقف؟ أو إذا لم يكن تحديد الموقف، وكان نقطة انطلاق تحديد الموقف؟ أو إذا لم يكن نقطة الانطلاق هذه، وكان أنا نقطة الانطلاق؟ أو إذا لم يكن أنا، وكان تصور الأنا؟ أو إذا لم يكن تصور الأنا، وكانت سيرورة التصور؟ أو إذا لم تكن هذه

السيرورة، وكان الفعل نفسه؟ أو إذا لم تكن هذه الإمكانية، وكان اختيار هذه الإمكانية؟ أو إذا لم يكن هذا الاختيار ، وكانت ضرورة الاختيار أو عدم الاختيار؟ أو إذا كانت الأهمية لا تكمن في هذه الضرورة، فهل تكمن في اللغة؟ وإذا لم تكن الأهمية في اللغة نفسها، فهل هي في متذوق اللغة؟ ومع ذلك، فهو ينتشي باستخدام اللغة لكي يحكي عن المرأة والرجل، والحب، والعاطفة والجنس، والحياة والموت، والروح والسعادة وعذاب الجسد الإنساني في لحمه، والإنسان في علاقاته السياسية، وهروب الإنسان أمام السياسة والواقع الذي لايمكن الهروب منه، والخيال فوق الواقعي، وأيهما هو الأكثر صحة، ونفي نفي الهدف المفيد الذي ليس هو نظير الضرورة، ولا منطقية المنطق، والابتعاد عن التفكير العقلي، وتجاوز الجدال حول المضمون والشكل، والشكل الذي له معنى، والمضمون الذي ليس له معنى، وماهو المعنى وتعريف المعنى، والإله الذي يريد كل الناس أن يكونوا مكانه، وعبادة الأوثان الإلحادية، والرغبة في أن نُعتبر فلاسفة، وحب الذاب، والبرودة والجنون الذي يقود إلى الذهان الهذياني، والقدرات الخارقة، والتأمل ذروة التفكير الذي لا يصل إلى الذروة ولكن إلى المبدأ الحيوي للجسد الذي نغذيه بالقانون الذي لا يمكننا قوله، والذي لا يمكننا قوله يجب ألا يقال، ومع ذلك قيل في العالم، والموضة والثورة ضد الموضة السوقية التي هي قتل الطفل الذي لا يمكن تعليمه بالضرب، ولايمكن تربيته أولاً من خلال ملء معدته بالحبر، وذاك القريب من الحبر هو أسود، وما السوء في الأسود، والناس الطيبين والناس الشريرين، والذين ليسوا طيبين ولا شريرين، أو أيضاً أولئك الناس الأسوأ من الذئاب، والناس الأسوأ من الجحيم الذي يوجد في قلوبهم نفسها وهذا المقدس نفسه يبحث عن القلق دون توقف، والنير فانا، أو بصورة أدق كل شيء انتهى، والذي انتهي من قبل من، ومن يكون أو لا يكون، أو ليس هو عدم القول نفسه، والثرثرة غير المفيدة في حديث الوظائف مثل الحرب بين الرجال والنساء، ولا أحد سيربح، واللعب بالشطرنج عبر تقديم قطعة وإرجاعها ليس إلا لعباً للسيطرة على أحاسيس الكائنات الإنسانية التي يجب أن تأكل وتموت من الجوع، وهذا أمر صغير، أما أن تكون غير وفي فهذا أمر عظيم، ولكن من المستحيل الحكم على الحقيقة التي لا نستطيع معرفتها، وحدها العصا أصلب من التجارب للإستناد إليها، وأولئك الذين عليهم السقوط سيسقطون، وفي الأسفل الرواية الثورية للأدب الخرافي، والثورة الروائية، وثورة الرواية. يمكن قراءة هذا الفصل أو يمكننا عدم قراءته، ولكن من الأفضل قراءته لأنه كتب.

عندما وصلت إلى مدينة صغيرة على شاطئ بحر الصين، أصرت امرأة عازبة متقدمة في السن أن أتناول الطعام في بيتها. جاءت إلى الشباب الذين أسكن معهم من أجل دعوتي، وقالت إنها اشترت صباحاً قبل ذهابها إلى العمل، فواكه البحر، والسرطان، وسكاكين، وثعبان البحر سميناً. يجب أن تتذوقوا أنتم الذين تأتون من مسافات بعيدة المنتجات الطازجة هنا! ومن المستحيل شراؤها حتى في المدن الكبيرة. لقد أبدت اهتماماً شديداً بي. لا يمكنني بسهولة التهرب من الدعوة، ولهذا اقترحت على مضيفي أن يرافقني. وهو يعرف جيداً هذه المرأة ورفض:

- لقد دعتك أنت لوحدك. إنها تضيق ذرعاً من وحدتها، وعندها شيء ستقوله لك. من الواضح أنهم اتفقوا على ذلك. ولا يمكنني إلا أن أتبعها. قالت لي وهي تدفع دراجتها: هناك مسافة بعيدة للوصول. أصعد فوق حاملة الأمتعة سأقودك.

- في هذا الشارع المزدحم بالناس، خفت من أن أبدو عاجزاً. أو إذا شئت، سأقود أنا، وسترشدينني على الطريق. جلست على حاملة الأمتعة. لم يتوقف المقود عن الاهتزاز، واستخدمت الجرس باستمرار لكي أتسلل بين الحشود. يجب أن أكون سعيداً لدعوتي وحيداً مع امرأة، ولكنها تجاوزت أجمل العمر: وجه شاحب، وجنتان بارزتان، وليس فيها أي أناقة أنثوية عندما صعدت إلى دراجتها الهوائية أو عندما دفعتها. دست على الدواسة، وأنا متعب تماماً، وبدأت أبحث عن شيء أقوله. شرحت لي أنها تعمل محاسبة في مصنع. إنها امرأة تدير رصيداً مالياً، هذا لايدهشني. لم يكن لي علاقات كثيرة مع هذا النوع من النساء، ولكنني أعرف أنهن لطيفات جداً، ومن المستحيل سلبهن أي قرش زيادة. وهذه عادة مكتسبة بفضل المهنة، وهي ليست صفة ملازمة للمرأة. إنها تعيش في رواق قديم مع عائلات عديدة أخرى. وأسندت دراجتها العتيقة إلى جدار تحت النوافذ. يغلق قفل كبير الباب. وفي الداخل غرفة صغيرة مع سرير كبير يشغل نصف المكان، وطاولة في إحدى الزوايا، وضع عليها الكحول والأطباق من قبل. أما الأرض فعليها قرميد عليه صندوقان خشبيان، على أحدهما أدوات تجميل نسائية مرتبة ضمن علبة من الزجاج. وعند رأس السرير بعض المجلات القديمة المكدسة. أسرعت في الاعتذار عندما رأتني أتفحص المكان: اعذرني على هذه الفوضى غير المعقولة.

- لا يوجد في الحياة إلا الفوضى.

- إنني أنظم أموري حسب استطاعتي، وقلما أعلق أهمية على هذا النوع من الأشياء. أضاءت المصباح، وأجلستني أمام الطاولة. ذهبت لتسخين الطعام، ثم عادت وجلست مقابلي، وبعد أن قدمت لي الكحول وضعت مرفقيها على الطاولة وقالت:

- لا أحب الرجال. هززت رأسي. لا أتحدث عنك، إنني أتحدث عن الرجال بصورة عامة، ولكنك أنت كاتب. لم أعرف إذا كان علي تأييدها.

- أنا مطلقة منذ وقت طويل، وأعيش وحيدة.

- ليس سهلاً. في الواقع، إنني أتحدث عن الحياة، وهي نفسها بالنسبة إلى الجميع. كان لي قديماً صديقة، وكنا منسجمتين منذ المدرسة الابتدائية.

قلت بيني وبين نفسي ربما تكون سحاقية.

- لقد ماتت الآن.

بقيت صامتاً.

- دعوتك لكي أقص عليك قصتها.

لقد كانت جميلة جدا. إذا رأيت صورتها، ستحبها بالتأكيد. كل الناس وقعوا في حبها. لم يكن جمالها جمالا عادياً، وجهها مستدير، فمها صغير كرزي، حاجباها كأوراق الصفصاف، عيناها حادتان لوزيتا الشكل. ويشبه جسدها جسد الجميلات الكلاسيكيات اللواتي وصفن في الروايات القديمة. لماذا أروي لك هذا؟ لأنني لم أستطع قط أن أنظر إلى أي صورة من صورها. لم أحتط للأمر، وبعد وفاتها، جاءت أمها وأخذت جميع الصور، اشرب إذن! وشربت هي أيضاً. ندرك من النظرة الأولى أنها متعودة على الشراب. لا يوجد على جدران غرفتها أي صورة أو منظر، ولا حتى هذه الأزهار، أو هذه الحيوانات التي تولع بها النساء عادة، مما لا شك فيه أنها تعاقب نفسها، وتبذر نقودها على الكحول.

- أريد أن تكتب رواية عن حياتها، إنني أستطيع أن أقول لك كل شيء عنها، عندك موهبة ورواية...

قلت وأنا أضحك:

- إنها ملفقة من عناصر مختلفة.

- لا أريد أن تلفق حتى وإن استخدمت اسمها الحقيقي. لا أملك نقوداً كثيرة لكي أدفع للكاتب وحقوق المؤلف. وربما كنت سأقوم بذلك لو كنت أملك نقوداً. إن ما أطلبه منك هو خدمة، أريدك أن تكتب عنها. انتصبت قليلاً لكي أشكرها على

استقبالها لي:

- ولكن هذا...

- لا أريد شراءك، إذا كنت تجد أن هذه الشابة ضحية الظلم، وإذا كنت تشفق عليها، اكتب هذا الكتاب. من المؤسف أنك لم تستطع رؤية صورتها. تشع الكآبة من عينيها. إن هذه الشابة المتوفاة بقيت في ذاتها مسؤولية كبيرة. أنا غير جميلة منذ طفولتي. لهذا أميل كثيراً إلى الفتيات الجميلات، وأرغب بشدة في صداقتهن. لم أكن في المدرسة نفسها، ولكنني كنت ألتقيتها كل الأيام، قبل الدوام وبعده، على طريق المدرسة. لم يكن قوامها يثير الرجال فقط، ولكنه كان يؤثر في النساء أيضاً.

- أردت الاتصال معها. كان تسير وحيدة، وفي يوم من الأيام، رصدت مرورها، وأمسكت بها وقلت لها إنني راغبة جدا في الكلام معها، وأرجو ألا تجدي هذا غريبا. قالت لي إنها موافقة، ومن ثم رافقتها.

- بعد ذلك كنت أنتظرها يوميا بالقرب من بيتها للذهاب إلى المدرسة، وتعرفت عليها.

- لا تزعجني ، اخدم نفسك!

إن طبق الثعبان البحري والحساء لذيذان. تذوقت الحساء، واستمعت إليها وهي تروي لي كيف دخلت ضمن عائلة صديقتها، وكيف عاملتها أمها كابنتها. ولم تكن غالباً تعود إلى بيتها. بل تنام في سرير صديقتها.

- ألا تعتقد أنه كان هناك شيء بيننا. لم أكن أعرف ما الذي يجري بين النساء والرجال إلا بعد إدانتها بالسجن عشر سنوات. اضطربت حياتنا، ولم ترد أن أزورها. عندها تزوجت. لقد حافظت معها على علاقات سامية، بأفضل ما يمكن أن يحدث بين فتاتين. أنت لا تفهم هذا بالضرورة.

- الرجال يحبون النساء كحيوانات، ليس أنت، أنت كاتب، ولكن كُل من طبق سرطان البحر! نزعت قشرة السرطان الطازج، وفاحت رائحة اليود القوية، ووضعته في صحني. إنها أيضاً قصة حرب بين الرجال والنساء، وحرب بين الجسد والروح.

- كان أبوها ضابطاً في الجيش الشعبي. وكانت أمها حاملة بها عندما نزل جيش التحرير نحو الجنوب. تلقت رسالة من زوجها ينصحها فيها بالهروب نحو الميناء، ولكن السفينة الحربية كانت قد رحلت. أيضاً قصة قديمة. لقد فقدت أي اهتمام بهذه الفتاة. ركزت بصورة كاملة على السرطان أمامي. في ليلة من الليالي أخذتني في حضنها وهي تبكي. ابتعدت عنهاوسألتها مابها. قالت إنها تفكر

بوالدها. مع ذلك لم تشاهده قط، أليس كذلك؟

- في ذلك الوقت حرقت والدتها كل الصور التي يرتدي فيها اللباس العسكري، ولكن بقيت في البيت صورة العرس. كان والدها يرتدي طقماً غربياً، أنيقاً جداً، وقد أرتني هذه الصورة. قمت بكل ما أستطيعه لكي أواسيها، كنت أعبدها. بعد ذلك أخذتها في حضني وبكينا معاً.

- هذا يُفهم.

- لو كان كل الناس يفكرون مثلك ما حدثت مشكلة ولكن الناس لم يفهموها، وعدوها مضادة للثورة. قالوا إنها تريد قلب النظام فهربت إلى تايوان.

- لم تكن السياسة في ذلك الوقت كما هي اليوم حيث يُشجع التايوانيون للمجيئ إلى الوطن لزيارة أهلهم. ما الذي أستطيع قوله أيضاً؟

- لقد كانت شابة في المرحلة الثانوية في ذلك الوقت، فكيف أمكنها فهم هذا كله؟ سجلت في مذكراتها الخاصة أنها كانت تفكر بوالدها!

- قلت: إنها مهددة بالحكم عليها إذا وشى بها أحدهم. أردت أن أعرف إذا كان ثمة تحويل لحبها لأبيها نحو الحب المثالي.

- شرحت لي كيف لم تستطع هذه الفتاة الدخول إلى الجامعة بسبب أصلها العائلي، فضمتها فرقة أوبرا بكين إلى صفوفها. وفي يوم من الأيام، وقعت ممثلة أساسية في الفرقة مريضة، فطلب إليها أن تحل محلها، مما أثار غيرة الممثلة التي اكتشفت، مذكراتها في إحدى جولاتها، فقدمت تقريراً إلى رؤسائها. عند العودة إلى المدينة، ذهب رجل أمن لرؤية الأم والطلب إليها أن تحث ابنتها على الاعتراف وتقديم مذكراتها الخاصة.

- خشيت الفتاة من التفتيش، فوضعت دفتر مذكراتها عند عمها.. اعترفت أمها عند التحقيق أن ابنتها لم يكن لها علاقات إلا معها ومع عمها. عندها فتش رجل الأمن وكشف عن مكان المذكرات، جاء البوليس ليأخذها، فخافت واعترفت بكل شيء. عُزلت في البداية ضمن فرقتها، ومُنعت من العودة إلى بيتها، ثم أوقفت رسميا وأودعت السجن كمعادية للثورة تريد قلب النظام، وكتبت مذكرات رجعية خاصة.

- هذا يعني أن الجميع، في الواقع، وشوا بها بما في ذلك والدتها وعمها، أليس كذلك؟

- لم أعد أريد هذا السرطان. امتلأت أصابعي بالحراشف، ولا يوجد منديل لكي أمسحها.

- لقد كتبنا جميعا تقارير موقعة. حتى عمها العجوز كان خائفا ولم يعد يجرؤ على رؤيتي. قالت أمها بصوت عالٍ وقوي إنني أنا التي أفسدت ابنتها، وإنني نقلت إليها فكري الرجعي، وإنها لن تسمحَ لي بزيارتها مرة أخرى.

- كيف ماتت؟

- إنني شغوف في معرفة نهاية هذه القصة.

- اسمعني... يقال إنها أرادت تبرئة نفسها. ولكنني أنا لست قاضيا. وهذه الحادثة عكرت حياتي في ذلك الوقت، ولم أكن، دون شك، أكثر وضوحاً.

أذكر أنني رأيت، عندما كنت صغيرة، أمي وهي تخرج من صندوق جدتي لفافة بعناوين أملاك مرتهنة منذ وقت طويل وأحرقتها في الفرن. عندها أصابني نوع من الاشمئزاز أمام هذا التدمير للأدلة. من حسن الحظ أن أحدا لم يأت لسداد هذا الدين القديم، لأنني لو تعرضت للاستجواب في ذلك الوقت، فلا شيء يمنع من إفشاء سر جدتي التي اشترت لي بلبلا، ووالدتي التي ربتني، كانت الأمور تسير هكذا في ذلك الوقت! لم يعد الغثيان يأتيني فقط من رائحة اليود المنبعثة من سرطان البحر، ولكنه يأتيني من داخلي أيضاً. من المستحيل الاستمرار في الطعام.

اكتفيت بالشرب. وفجأة بدأت تختنق، ثم أخفت وجهها بين يديها وانفجرت بالبكاء. لايمكنني أن أواسيها بيدي الملوثتين بالسرطان. اكتفيت بسؤالها:

- هل يمكنني تنشيف يدي بمنديلك؟ دلتني على الطشت المتلئ بماء بارد وراء الباب على الخزانة. عندما غسلت يديّ، ناولتها المنديل المبلل. توقفت أخيراً عن البكاء. إنني أكره هذا النوع من النساء الطيبات المخيفات، ولا أشعر بأي شفقة عليها. ادعت أنها كانت حمقاء بصورة كاملة في ذلك الوقت، لم تعرف ما فعلته إلا بعد سنة. ذهبت للاستفسار عن مصير الفتاة، وهي تحمل بعض الأطعمة لها، لكن صديقتها التي حكم عليها بعشر سنوات سجن رفضت رؤيتها. قالت لها إنها لم تتزوج، وإنها قررت الانتظار حتى تنهي حكمها وتخرج من السجن وعندها ستعيشان معاً. كان لديها عمل، وتستطيع تأمين معيشتها. قبلت الفتاة هداياها. شرحت لي كم كانت الأيام التي أمضتها معها قبل سجنها جميلة، وأنها كانت الأسعد في حياتها، وكيف تبادلتا المذكرات الخاصة، وتبادلتا الكلمات المؤثرة كأنهما أختان، وتعاهدتا على عدم الزواج أبداً، وعلى البقاء عازبتين معاً إلى نهاية الحياة. من كانت تقوم بدور الزوج، ومن كان تقوم بدور المرأة؟

من المؤكد أنها هي التي كانت تقوم بدور الرجل. لم تتوقفا عن الضحك بصوت عال عندما كانتا في السرير، ويكفي سماع ضحكاتهما للإحساس بالسعادة. وأنا

أفضل عدم التفكير فيها إلا بسوء نية قصوى.

- ولكن كيف حدث أن تزوجتا بعد ذلك؟ قالت: إنها هي التي تغيرت أولا. ذهبت في يوم من الأيام لرؤيتها في السجن، كان وجهها منتفخا قليلاً، وكانت باردة جدا اتجاهي. دهشت من الأمر، فانهلت عليها بالأسئلة. في نهاية الزيارة التي لم تدم إلا عشرين دقيقة، قالت لي أن أتزوج وألا أعود لرؤيتها. أجابت على أسئلتي بأن اعترفت بأنها تقيم علاقة مع شخص. سألتها: من؟ أجابت: إنه مجرم. بعد ذلك لم أرها من جديد. كتبت لها مجموعة من الرسائل، ولكنها لم ترد عليها. وقررت الزواج أخيراً.

أردت أن أقول لها إنها هي المخطئة، وإن حقد والدة الأخرى مسوغ. كانت تستطيع هذه الفتاة، من دونها، أن تعيش حبا طبيعيا، وتتزوج، وتربي أطفالا، وتتجنب الوقوع في هذا الموقف. سألتها: ألديك أطفال؟ فأجابت، لا أريدهم بإرادتي. إنها امرأة سيئة حقاً. انفصلنا بعد سنة من الزواج. وبعد سنة من الخلاف تطلقنا. ومنذ ذلك الوقت أعيش وحيدة، إنني أكره الرجال. كيف ماتت؟ حولت الحديث.

سمعت أنها أرادت الهرب من السجن، فأرداها أحد الحراس.

لم أعد أريد أن أسمع شيئاً عنها. استعجلتها لكي تنهي قصتها. وإذا سخنت هذا الحساء قليلاً؟ نظرت إليّ وهي قلقة. ليس هناك حاجة. إنها جاءت لتدعوني لكي تفتح قلبها. وجبتها أصابتني بالغثيان. شرحت لي أيضاً كيف استطاعت بعد جهود مضنية، أن تجد سجينة قديمة أعلمتها أن الفتاة تبادلت الرسائل مع أحد المحكومين، وبذلك فقدت حق الزيارة والنزهة داخل السجن. وحاولت أيضاً الهرب.

قيل لها إن الفتاة في هذه المرحلة بدأت تفقد عقلها، وكانت تمضي وقتها بالضحك أو البكاء وحيدة. بعد ذلك عثرت على هذا المحكوم.

وعندما وصلت إلى بيته، كان لديه امرأة. لم يرد الإجابة على أسئلتها خوفا من غيرة زوجته، أو بسبب اللامبالاة. فرحلت أخيراً وهي غاضبة.

سألتني وهي تخفض رأسها: أيمكنك أن تكتب هذا كله؟

- سأرى. أرادت أن ترافقني على الدراجة الهوائية، ولكنني رفضت. على الطريق، كان الهواء المنعش الخفيف ينسم قادما من البحر، كما لو أنها ستمطر. عندما عدت إلى غرفتي عند الناس الذين أقطن عندهم، بدأت بالتقيؤ والإسهال طيلة الليل يمكن أن تكون فواكه البحر هذه غير طازجة.

أخبروني أنه خلال الليل سُمعت أصوات أجراس وطبول غريبة قادمة من الجبال المحاذية للبحر. كان هناك رهبان وراهبات طاويّون انخرطوا في طقوسهم السرية. هو أو هي شرحا لي أنهما التقيا بهم وشاهدا اجتماعهم بالصدفة، وتحدثا حولهم. لكن من يصعد هذا الجبل في وضح النهار يستحيل عليه العثور على هذا المعبد الطاوي.

بحسب ذاكرته يقع المعبد في المنحدر القريب من البحر. أما هي فتقول إنه يقع في خاصرة الجبل وقد شُق إليه طريقٍ في جانب المنحدر الوعر.

يقول الاثنان إنه معبد جميل مبنيٌ في مكان وعر لايمكن الوصول إليه إلا عبر هذا الطريق الصغير. إنه مخفي تماماً عن عيون صيادي سمك البحر أو جامعي الأعشاب الطبية الذين يجوبون الجبال. لقد ذهبا إليه ليلاً مسترشدين بصوت الموسيقى وهم يتخبطون في هذا الظلام الدامس. فجأة ظهر لهم ضوء مشعل ينير العتمة. كان باب المعبد مفتوحا، دخلوه فغطتهم أدخنة البخور.

رأى حوالي مئة رجل وامرأة مزيني الوجوه يلبسون ثياباً طاوية، كل منهم يحمل سيفاً في يد ومشعلاً في اليد الأخرى، عيونهم نصف مغمضة، يغنون ويرقصون. يطلقون صيحات ويبكون.

اختلط الرجال والنساء دون أي عائق في حالة من الجنون الهيستيري يضربون الأرض بأقدامهم ووجوههم مرفوعة باتجاه السماء.

قالت إنها لم تر مثل هذا العدد من الناس، وإنه لا يوجد رجال بينهم، كلهن نساء، شابات ومتقدمات في السن، وكلهن متزينات بشكل رائع. خدودهن مغطاة بالأحمر الفاقع، وشفاههن ملونة بلون الدم، وحواجبهن مزينة بآثار الفحم الخشبي، وكان شعرهن مجدولا ومربوطا بشريط أحمر وضعت عليه أزهار الياسمين، وكن يضعن أقراطاً في آذانهن. وهل كن يضعن الأقراط في الأنوف؟ إنها لا تتذكر أبدا. لقد غنين أيضاً ورقصن رافعات أكمامهن ومطلقات صيحات قوية في جو من الهيجان والتوتر.

تسألها إذا كانت تحلم، ترد بأنها كانت مع صديقة لها، ذهبت للتنزه في الغابة، وعند تقاطع الطرق هبط الليل فمنعتهما العتمة من النزول ثانية، سمعتا أصواتاً، توجهتا نحو مصدرها، فوصلتا مصادفة إلى هذا المعبد، كان الباب مفتوحا للجميع.

أما هو فكان في الحالة نفسها غير أنه كان وحيدا، فمن عادته أن يمشي في الليل باتجاه الجبل دون أي خوف، كان يخشى أذى الناس فحسب، أما الرهبان فيقومون بطقوسهم الدينية ولا يؤذون أحدا.

الاثنان يقولان إنهما شاهدا الجمع بأعينهما، ولا يعتقدان أنهما سمعا الكلام فقط، فلديهما مستوى تعليمي عال وروحاهما سليمتان ولا يؤمنان بالأشباح. كيف يمكن أن نعرف ما إذا كان الأمر شيئاً من الهلوسة البسيطة؟

أحدهما لا يعرف الآخر، ومع ذلك حدثاك –منفصلين– عن المنحدر نفسه الذي يحاذي البحر. وأنت رأيتهما للمرة الأولى، لكنك تحس بوجود معرفة قديمة معهما، فقد أسرّا لك فورا من دون نقاش أو سوء ظن أو خلفيات مسبقة، إذ لا توجد أية نية في خداع أي كان. لم يريدا أبداً وضعك في صورة خاطئة، وفجأة حاولا –دون جدوى– إيجاد تفسير، لقد عاشا الحدث بنفسيهما، ويرغبان في البوح بما شاهداه.

قالا بما أنك كنت هنا، وتبحث طول الطريق عن حقائق مدهشة، كان عليك أن تذهب إلى المعبد للقيام بجولة فيه. كانا يرغبان في مرافقتك، لكنهما يخشيان ألا يجدا شيئاً طالما أنهما ذاهبان لهذا الهدف فقط، فهذا النوع من الأمور لا يظهر حينما نبحث عنه. يمكنك تصديقه أو لا، أما هما فقد شاهداه بأم أعينهما تحت أضواء الشموع الحمر، وحينها استراحا من تعبهما. يمكنهما أن يؤكدا الأمر ويقسما عليه إذا كان ذلك سيساعدك على تصديقهما، يقسمان على ذلك حالا، ولكن حتى لو فعلا فلن يتمكنا من جعلك تتحقق من الأشياء التي حدثت. لا يمكنك أن تشك بصدقهما.

وانتهى بك الأمر إلى الذهاب إليه، صعدت إلى قمة الجبل قبل غروب الشمس. جلست تتأمل الكرة الضخمة الحمراء الملتهبة التي بدأ يخبو نورها شيئاً فشيئا، وراحت تسقط في أعماق البحر الرمادي–الأزرق، لتصير أشعتها مماثلة لحيات البحر. ولم يبق منها على السطح سوى قبعة على شكل قوس أحمر نصف دائري وبعض الضوء الذي يطفو على سطح الماء المعتم، ثم ارتعدت قليلاً قبل أن تظلم تماماً وتترك في السماء ضباب المساء.

وبدأت بالهبوط بسرعة، فقد غشيتك العتمة. تناولت جذعاً واستخدمته عصا تتحسس به الأرض وتتلمس الخطى وتضرب به الحجارة في الطريق. بعد ذلك بقليل تلج في واد مظلم لا ترى فيه البحر ولا الطريق.

كنت مضطرا للالتزام بالمنحدر على هذه الدرب التي كستها الأعشاب، وكنت تخشى أن تتعثر وتقع في الوادي. ساقاك تعبتان، ويمكنك الاعتماد على عصاك

للتعرف على طريقك. لا تدري إذا كانت خطوتك اللاحقة ستكون صحيحة أم لا، وستتساءل أليست العتمة التي تزداد كثافة نابعة من داخلك؟ إنك تفقد الثقة حتى بعصاك. تذكرت أنك تحمل قداحة في جيبك، ودون أن تعرف إذا كانت تستطيع أن تهديك إلى طريق غير مهجور فكرت بأنها ستساعدك قليلاً. في هذا الظلام الدامس لم تحدث قداحتك سوى لمعة خاطفة متقطعة.. عليك مداراتها بيدك من الريح. وانتصب أمامك جدار من السواد، وخفت أن توصلك أي خطوة إلى السقوط في الفراغ. وهبت الريح القوية. يجب أن تتقدم خطوة خطوة مثل الأعمى وأن تضرب الأرض أمامك. كان هذا الطريق خطرا حقا.

وصلت أمام كهف أرضي يهرب من شق به ضوء خافت. دفعت الباب وكان موصدا، نظرت من خلال الشق، وعلى ضوء المصباح، عرفت أنه مكان مقدس لثالوث الصفاء' الأعلى الذي يجسد بتماثيل ثلاثة: القديس السماوي لبداية التكوين، القديس السماوي لفضيلة داو والقديس السماوي لثروة العقل.

- ماذا تفعل هنا؟

داهمك فجأة صوت ضخم جعلك تقفز في مكانك، لكنه أدخل إليك شعوراً بالاطمئنان لأنه صوت إنساني.

أوضحت أنك جوال تهت في الظلمة ولا تعرف أين تمضي ليلتك.

ودون أن ينطق بكلمة أرشدك للصعود على درج من الخشب لتصل إلى غرفة مضاءة بمصباح زيت. حينها رأيت أنه يرتدي ثوباً طاويا، وتصل أطراف بنطاله إلى كاحليه. ومن محجري عينيه تشع نظرة ثاقبة. يجب أن يكون من الحكماء الكبار. لم تتجاسر على إخباره بأنك جئت للتجسس على أسرار معبده ولم تكف عن الاعتذار منه لإزعاجه، ورجوته أن يستضيفك الليلة ووعدته بالرحيل مع مطلع الفجر.

أخذ مفتاحاً معلقاً على لوحة جدارية وحمل المصباح وهو متذمر. تبعته بكل هدوء. صعدت السلم، فتح باب الغرفة ثم غادر دون أن يقول كلمة.

عندما أشعلت قداحتك شاهدت سريرا من الخشب ولا شيء غيره. نمت بكامل ما ترتديه، تكورت مثل الكرة ولم تجرؤ على التفكير بشيء. بعدها سمعت في طابق أعلى قرع جرس خفيف مصحوباً بتراتيل غير واضحة تنشدها امرأة. أخذت تصدق وأنت مندهش، هذا الطقس الغامض الذي حدثاك عنه: يجب أن يكون في ذاك الطابق. سيطرت عليك رغبة في مشاهدته، لكنك بقيت ساكنا في مكانك، هاجمك التعب في الظلمة ومازال الصوت يهزك. يبدو أنك ميزت ظلا لفتاة شابة تجلس القرفصاء، شعرها مربوط، وتقوم بقرع الجرس البرونزي الذي يصدر موجات

متعاقبة من الأصوات. ولمعت أمامك ومضة، إنك لن تستطيع منع نفسك من الإيمان بالقضاء والقدر وبراحة النفس من خلال الصلاة...

وفي اليوم التالي استيقظت متأخراً، تسلقت الدرج حتى آخره. كان الباب مفتوحاً على قاعة كبيرة خالية من المذبح والبساط والطاولات والأسلاف ومن الكتابات أيضاً. فقط في وسط الجدار هناك مرآة ضخمة مقابل مدخل الكهف يحميها إطار بسيط من الخشب. وقفت أمام هذه المرآة لكنك لم تر سوى السماء الزرقاء، وبقيت ساكناً أمامها دون أن تنبس ببنت شفة.

أثناء هبوطك سمعت نحيبا، استدرت باتجاه الصوت، رأيت طفلا عاريا تماماً جالسا في وسط الطريق. كان ينشج بهدوء وبصوت مبحوح. يبدو أنه كان يبكي منذ وقت طويل. انحنيت نحوه:

- أأنت وحدك؟
- عندما رآك تصاعد نشيجه، رفعته من ذراعيه النحيلتين ونفضت الغبار عن مؤخرته.
- أين تسكن؟

كلما ألقيت عليه أسئلة زاد بكاؤه وتضاعف. لا توجد أي قرية قريبة.

- أين هم أبواك؟
- أشار برأسه نافيا وجودهما وهو ينظر إليك ووجهه مغطى بالدموع.
- أين تسكن؟
- تابع بكاءه. حاولت تهديده:
- إذا استمريت بالبكاء فلن أهتم بك!

جاء التهديد أكثر فعالية، إ توقف عن البكاء حالا.

- من أين جئت؟

لم يجب

- هل أنت وحدك؟

استمر في النظر إليك بغباء، غضبت قليلاً:

- أتعرف الكلام أم لا؟
- عاود البكاء نهرته:
- لاتبك!
- فتح فمه متظاهرا بالبكاء، غير أنه لم يجرؤ على إصدار صوت.
- إذا عدت إلى البكاء فسأضربك على مؤخرتك!
- تماسك بشكل أو بآخر فأخذته بين يديك.

- أين تريد الذهاب يا صغيري؟ قل لي!

طوق عنقك دون مضايقة.

- ألا تعرف الكلام؟

مسح وجهه بيديه الملوثتين بالتراب، وهو ينظر إليك ببلاهة. لا تعرف ماذا تفعل ربما يكون ا بن أحد فلاحي المنطقة الذين لا يهتمون كثيراً بأطفالهم. إنها حماقة فعلا.

حملته إلى طرف الطريق، لكنك لم تر بيتا على مد النظر، بدأت تتعب، ولن تستطيع حمله إلى أسفل الجبل خاصة وأنه لا يتكلم، عدت لمحادثته.

- انزل وامش، موافق؟

هز رأسه رافضا وظهرت عليه علائم طلب الرحمة.

تابعت قليلاً، غير أنك لم تجد شخصاً في طريقك، ولم تشاهد دخاناً يتصاعد من الوادي الصغير. تساءلت إذا لم يكن هذا قد تُرك عن عمد في هذا الدرب. عليك أن تعيده إلى مكانه حيث وجدته، وسيعود والداه للبحث عنه.

- انزل وامش يا صغيري فذراعاي يؤلمانني.

لطمت مؤخرته لينفذ ما قلته، لكنه كان نائماً. بالتأكيد أمضى وقتاً طويلاً في المكان الذي تُرك فيه، إنه ضحية نذالة الكبار. لقد شتمت والديه بنفسك. لماذا أتيا به إلى الدنيا إذا لم يكونا قادرين على تربيته!

تمعنت في وجهه المغطى بآثار الدموع. إنه ينام بعمق وقد وثق بك تماماً، إنه لم يلق الكثير من الحنان في أيامه العادية. كانت الشمس التي تشق لنفسها نافذة عبر الغيوم تضيء وجهه، غمزت أهدابه واستدار ودفن رأسه في صدرك.

تدفق ينبوع من الدفء من أعماق قلبك. لم تشعر بمثل هذا الحنان منذ وقت طويل. تكتشف أنك تحب الأطفال، وكان عليك أن تتجبهم. كلما نظرت إليه وجدته يشبهك أكثر فأكثر. ألم تمنحه الحياة بحثاً عن لحظة متعة ثم تركته؟ إنك لم تفكر به أبداً، وفي الحقيقة لعنت نفسك قبل قليل حين شتمت والديه!

تملّكك شيء من الخوف، خوف من أن يستيقظ، وخوف من أن يتمكن من الحديث، خوف من أن يفهم. من حسن الحظ أنه صامت، وأنه نائم، وأنه لم يفهم مأساته. عليك أن تتركه نائما على الدرب مستغلاً خلوها من البشر وعدم اكتشاف أمرك، وتهرب بعيداً جداً.

وضعته على الطريق، تحرك قليلاً ثم تكور وخبأ وجهه بيديه. لقد أحس بالتأكيد ببرودة الأرض وسيستيقظ حتماً. أسرعت بالهروب كمجرم. تهيأ لك أنك تسمع صوت بكائه خلفك، لكنك لم تتجاسر على الالتفات إلى الوراء.

عندما مررتُ بشنغهاي شاهدت في محطة القطار طوابير من الناس أمام منافذ قطع التذاكر، فاضطررت إلى شراء بطاقة من أحدهم للذهاب إلى بكين بالقطار السريع. بعد ساعة كنتُ جالساً في القطار وأنا سعيد. هذه المدينة الواسعة التي يتكدس فيها أكثر من عشرة ملايين إنسان لا تهمني أبداً. لكنني كنت أبحث فيها عن عمّ لي مبعد وقد توفي قبل وفاة أبي بزمن طويل، وكلاهما ماتا قبل أن يصلا إلى سن التقاعد.

لقد ماتت السلاحف والأسماك في نهر ووسنغ الذي يخترق المدينة ناشراً روائحه العفنة. لا أدري كيف يستطيع سكان شنغهاي متابعة العيش فيها، وحتى الماء المعالج لونه أصفر وتفوح منه رائحة الكلور، لكن الناس أكثر احتمالاً من الأسماك والقريدس.

مرّة ذهبت إلى مصب نهر زانغ زي، وفيما عدا بواخر الشحن التي لا يصيبها الصدأ والتي تطفو على الموجات الصفراء الكبيرة لا نرى سوى ضفاف طينية غُطيت بالقصب الذي تغطيه الأمواج باستمرار، ويتوضع عليه الطمي بقوة إلى درجة أن بحر الصين بأكمله لن يكون ذات يوم إلا صحراء شاسعة من الرمل.

أتذكر عندما كنت صغيراً أن ماء زانغ زي كان نقياً صافياً في كل الأوقات، وعلى ضفافه يتوضع الباعة من الصباح وحتى المساء يبيعون السمك الكبير مقطعاً إلى قطع صغيرة. خلال هذه الرحلة مررت بمرافئ على طول النهر، لم أر بمثل فخامته في مكان آخر. في هذا الأوان أصبحت عربات بيع السمك نادرة ولم أشاهد منها سوى في وان كزيان. عند مخرج الخوانق الثلاثة، المدينة المحمية بسد يرتفع إلى ثلاثين أو أربعين متراً.

حتى في سلال الخيزران لا يعرض إلا السمك الصغير الذي لا يتجاوز بضعة سنتمترات ولا يستحق أن يقدم إلى القطط. قديماً كنت أحب البقاء على حافة النهر لأشاهد الناس وهم يرمون صنانيرهم من ممرات المشاة، وأتأمل مشهد خروج السمك من الماء ومقاومته الحثيثة للصياد والموت. حالياً هناك أكثر من عشرة آلاف شخص يهتمون بالتخطيط في المكتب الوحيد لتنظيم يانغ زي، وقد استقبلني واحد من رؤساء الأقسام الذي لا أدري إلى أي إدارة يتبع، وبعد أن غادر رؤساؤه أسرّ لي بأن أكثر نحو مئة نوع من السمك النهري الجيد قد اختفت بصورة شبه تامة.

في وان كسيان أيضاً كان القارب رطباً في الليل. جاءني البحار الثاني في القارب ليدردش معي بينما كنت أتأمل أضواء المدينة. روى لي كيف شهد مذبحة أثناء الثورة الثقافية وهو في حجرة القيادة، وكان المقتولون بشراً لا أسماكاً، وربط كل ثلاثة مع بعضهم من معاصمهم بسلك حديدي وكانوا قد دفعوا إلى النهر بواسطة طلقات الرشاشات، وما إن يصاب أحدهم حتى يسحب الآخرين إلى الماء، وقد رآهم يتخبطون مثل الأسماك التي تعلق بالصنارة قبل أن ينساقوا مع السلك إلى النهر كالكلاب الميتة. والغريب أنه كلما قتلنا من البشر ازداد عددهم، وكلما اصطدنا من السمك أصبح نادراً، وكان من الأفضل أن يحصل العكس.

هنا يشترك الناس والأسماك، الرجال الكبار والأسماك الكبيرة يختفون جميعاً، والعالم لم يكن من أجلهم.

أخشى ألا يكون عمي المبعد واحداً من هؤلاء الرجال الكبار الأخيرين. لا أتكلم عن هؤلاء الأشخاص من زاوية الباحث ضمن هذا الحشد عن الاحتفالات والمآدب الرسمية، بل التهاب رئة بسيط انتقل بعد ساعتين فقط من حقنه بإبرة إلى المشرحة، سمعت بمثل هذه الحوادث لكنني لم أكن أعتقد أن عمي مات بهذه الطريقة. آخر مرة التقيته فيها كانت أيام الثورة الثقافية، وكانت أيضاً أول مرة يتحدث فيها مع شاب مثلي في السياسة والأدب. قبلها كان يفضل اللعب معي، وبصوته الجدي والمتعب يغني النشيد الأممي بلغة الاسبيرانتو. كان يعاني من الربو منذ وقت طويل، ويقول إنه خفف منه بتدخينه منتجات بديلة للتبغ خلال الحرب، ففي ساحاتها وعندما يُفقد التبغ وتشتد علينا الرغبة في التدخين كنا مستعدين لتدخين أي شيء مثل ورق الملفوف أو القطن الجاف، إذ من الضروري التأقلم مع كل الحالات.

كانت لديه دائماً القدرة على تسلية الأطفال، في إحدى المرات تشاجرت مع أمي وامتنعت عن الطعام تاركاً حساء الدجاج والرخويات الساخن الذي سكبته لي في صحن. تصارعتْ إرادتان، فرغم صغر سني كنت جدياً مثل بالغ ومتصلب، ومثل وتر قوس مشدود لا أغير رأيي. وفي لحظة غضب أمي وافتضاح أمري يأخذني عمي بيدي ويذهب بي إلى الشارع ليشتري لي البوظة.

كان المطر ينهمر بغزارة حتى أخذ الماء يجري كالسيول. خلع بوطه العسكري وضم طرفي بنطاله وقادني وهو يتخبط في الوحل إلى متجر حيث ظفرت بقطعتين كبيرتين من البوظة، وبعدها لم أتناول أبداً مثل هذه الكمية من البوظة دفعة واحدة. وحينما أعادني إلى المنزل ضحكت أمي كثيراً وهي تراه بحالة يرثى

لها حاملاً حذاءه الجلدي بيده. هنا توقفت الحرب الباردة بيني وبين أمي واستحق هذا العم ضحكة رجل كبير.

مات أبوه من إدمانه على المخدرات وانجرافه نحو التمتع بالنساء، كان رأسمالياً، في أيامه قدموا له آلاف اليوانات للذهاب إلى الولايات المتحدة من أجل الدراسة، ليمنعه من الانخراط في النشاطات السرية للحزب الشيوعي، لكنه رفض كلياً وهرب إلى جيانغ كسي للمشاركة مع الجيش الرابع الجديد في المعركة ضد اليابان.

كان يحب أن يروي كيف اشترى –عندما كان هذا الجيش في منطقة جنوب آن هوي– من أحد الفلاحين فهداً صغيراً ووضعه في قفص صغير أخفاه تحت سريره وما إن يهبط الليل حتى تستيقظ فيه غريزة الحيوان ويبدأ بالزمجرة. عندما غادر الجيش تلك المنطقة لم يستطع اتخاذ قرار بقتله فأودعه لدى شخص ورحل.

في ذلك الزمان كان أبي جليسه الأثير، وكلما جاء لزيارته يحمل معه زجاجة من الكحول النادرة الوجود في السوق. يصرف حارسه الشخصي وسائقه الذي أوصله أما أنا فتكون حصتي علبة كبيرة من سكاكر شنغهاي.

كانا يدردشان في كل مرة حتى الصباح، يتذكران الطفولة والشباب مثلما أفعل الآن حين ألتقي أصدقاء قدامى.

يتحدثان عن البرد الذي كان يسيطر على بيتهم القديم المغطى بنبات اللبلاب، وعن الشقاوات العادية مثل حادثة نزف أنفه وتمزيق عنق سترته عندما كان أبي عائدا من المدرسة، وحدها بائعة عجينة الصويا أوقفته وأدخلته في صالة طحن فول الصويا فوضعت له ورقة رز لتستر أنفه.

ويتحدثان أيضاً عن السكن القديم الذي أضرم فيه جد العائلة المجنون النار وأنقذه أفراد العائلة، وبجانبه كانت تسكن حبيبة انتحرت لأسباب عاطفية، وكانت قد شوهدت قبل يومين خارجة من محل أقمشة حاملة قطعة مزهرة، وظن الجميع أنها تحضر لعرسها، لكن بعد يومين انتحرت بابتلاع إبر وهي ترتدي الثوب المنقوش بالأزهار.

كنت أسمعها وأنا أتدثر بأغطيتي مشدوداً لحديثهما وغير راغب في النوم. كان يدخن سيكارة بعد سيكارة رغم إصابته بالربو. وحين يتناول النقاط المثيرة في حكاياته يرويها وهو يقطع الغرفة بخطوات طويلة. وكان يردد إنه يرغب في الاستقالة من الجيش للتفرغ للكتابة.

آخر مرة زرته فيها بمدينة شنغهاي كان يحمل نوعاً من البخاخ ينثر رذاذه عندما يسعل بشدة، سألته إن أنجز كتابه فأجاب بالنفي لحسن الحظ، وإلا ربما لن يكون

في هذا العالم. وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي لا يعاملني فيها كطفل. حذرني قائلاً: هذا الزمن ليس صالحاً للأدب ولا للسياسة أيضاً. وبرأيه ما إن ندخل في السياسة حتى نجهل أين نضع أقدامنا ونصبح معرضين لخطر قطع الرأس دون سابق إنذار. أوضحت له أنني لا أستطيع متابعة دراستي الجامعية، وليس أمامي سوى أن أكون مراقباً. ردّ عليّ أنه هو نفسه مراقب الآن وأنه قبل الثورة الثقافية، حين نشطت الحركة ضد انتهازيي اليمين في الصحف بينما كان الناس وقتها يموتون من الجوع، طُلب للتحقيق، ومنذ ذاك الزمن وهو يراقب بعيداً عن الحياة العامة وخاضعاً للرقابة. لذلك من غير المدهش أن يقطع أبي كل صلته به، وأعلمه عمي أنه ذاهب في مهمة إلى جزيرة هاينان مع كل تجهيزاته العسكرية، ومن غير الممكن أبداً التخمين بأن كلماته هذه تحمل رسالة سرية.

بعد هذا اللقاء أخذتُ ألاحظ، وخلال عودتي، على طول خط سير القطار بين بكين وشنغهاي وجود مقاتلين مدججين زاعمين "هجوم الآخرين بالكلمة ودفاعهم بالسلاح"، يحملون رمحاً قصيراً باليد وقبعة من أغصان الصفصاف اللينة على الرأس وساعداً أحمر يغطي الذراع، وكانوا مصفوفين بانتظام على رصيف المحطة. وما إن توقف القطار حتى أسرعوا إلى أبواب مقطوراته ليمنعوا أحد المسافرين من الصعود ثانية. تبعوه وطاردوه وأخذ يصرخ طالباً المساعدة، لكن أحداً لم يتحرك من أجله. شاهدت كيف سحبوه خارجاً ويضربونه وهو مقيد. ثم تحرك القطار ولم أعرف بعدها ماذا حدث.

في ذاك الوقت اجتاح الجنون جميع المدن التي عبرناها، وغطت المنشآت البشرية والجدران والمعامل وأبراج خطوط التوتر العالي وخزانات المياه عبارات تقسم على الدفاع عن النفس حتى الموت، والتغيير والمقاومة والتضحية بالدم. في المقصورات وعلى طول طريق السكة الحديدية كانت تبثّ الأغاني والأناشيد الحماسية التي تختلط بضجيج القطارات وصفيرها. وفي محطة مينغ غيوانغ "النور المشع" -والله يعلم وحده كيف بقي هذا الإسم- تتدافع جموع أرتال اللاجئين على جانبي سكة القطار، لم يفتح القطار أبوابه فدخل الناس من النوافذ المفتوحة ليتكدسوا فوق بعضهم بعضاً علماً بأن المقصورات كانت محشورة بالركاب مثل علب السردين، وقد حاولوا إبقاء النوافذ مغلقة بكل قوتهم لأنها ستفصلهم عن اللاجئين الذين تحولوا إلى خصوم. يبدو هذا الزجاج غريباً فهو يشوه الوجوه ويثير فيها الكره والغضب.

انطلق القطار بعنف مثيرا ضجيجاً قوياً تحت وابل من الحجارة وقصف من

الشتائم، وضربات وتحطيم زجاج، إنه حقاً مشهد جحيمي بمقدار ماكان الناس يزعمون أنهم يدافعون عن حقهم الأكيد.

ودائماً في هذه الواقعة وعلى هذا الخط الحديدي نفسه، شاهدت جسما عاريا لفتاة قطعتها عجلات القطار مثل سمكة قطعتها سكين حادة. اهتز القطار وارتج بقوة، سمعنا صوت صرير الحديد والزجاج والتمزق الحاد، فقلنا إنه زلزال كان كل شيء غريباً حينها، فكأن السماء والناس يتواصلون والأرض أصبحت مجنونة لا تكف عن الاهتزاز.

بعد مئة أو مئتي كيلومتراً توقف القطار فجأة، ونزل منه العاملون وموظفو الأمن والمسافرون، فقد تلطخ العشب الذي نما فوق السكة الحديدية بشظايا من اللحم البشري، وفاحت منه رائحة الدم النتنة التي تلوث الهواء، إن رائحة دم الإنسان أقوى من رائحة دم السمك. على الردم المحيط بالسكة الحديدية يضجع جسد ممتلئ لامرأة مقطوع الرأس ومن دون ساقين أو ذراعين، نزف الدم من جسمها الأبيض الناعم أكثر من لوح من الرخام. وما يزال هذا الجسم الرائع يحتفظ بآثار الحياة ويثير الرغبة. تقدم أحد المسافرين المسنين وغطى أسفل الجسد بقطعة قماش. مسح سائق القطار عرقه بقبعته وشرح بيأس كيف ضاعف عدد الصافرات عندما شاهد الفتاة تسير في وسط السكة لكنها لم تبتعد. خفف السرعة غير أنه لا يستطيع استخدام المكابح بسبب الركاب ورآها وهي تدهس. انزاحت قليلاً في آخر لحظة لكن... كانت تريد الانتحار، من المؤكد أنها كانت تبحث عن الموت، ربما هي طالبة تسكن في الريف، أم هي فلاحة؟ لم يكن لديها أطفال أبداً، هذا ماكان الركاب يتبادلونه من أحاديث عن الحادثة، وقالوا أيضاً لم ترد أبداً الموت وإلا لم حاولت الابتعاد في اللحظة الأخيرة؟ هل الموت سهل، يجب أن يكون الإنسان سيئاً حتى يريد الموت، ربما كانت شاردة الذهن. الأمر ليس عبور شارع في وضح النهار، إنه قطار يمرّ فوقها! إذا لم تكن طرشاء فقد أرادت الموت حقاً لأنه أفضل من الحياة. ابتعد قائلٌ هذه الجملة بسرعة.

سأناضل من أجل الحياة، لكنني لن أناضل من أجل أي شيء آخر، أحمي نفسي، ليت لدي شجاعة هذه المرأة، ولم اصل إلى هذا الحد من اليأس، مازلت أحب هذا العالم بشغف. إنني لم أعش بما فيه الكفاية.

بعد جولة طويلة أمضاها وحيداً التقى مسناً يستند على عصا ويلبس ثوباً طويلاً، فسأله:

- من فضلك أيها الشيخ أين يقع جبل الروح؟ رد العجوز:
- من أين أنت قادم؟
- أجاب بأنه قادم من وي يي.
- وي يي؟ الرجل العجوز قليلاً. آه، بجانب النهر.
- يقول إنه جاء من ضفة النهر بالتحديد، فهل أخطأ الطريق؟ يقطب العجوز حاجبيه
- الطريق صحيح لكن الذي يسلكه أخطأ
- معك حق أيها الشيخ
- يسأله إذا كان الجبل بجانب النهر. قال العجوز بنبرة متذمرة:
- إذا قلنا إنه بجانب النهر فهو بجانب النهر، قال إنه قدم من الضفة تلك إلى الضفة هذه
- كلما سرت ابتعدت، قال العجوز بثقة.
- إذاً يجب أن أعود إلى الوراء؟ سأل ثانية.
- يقول في سره إنه لم يفهم شيئاً أبداً.
- ما قلته واضح تماماً، ردّ العجوز بهدوء.
- نعم، صحيح أيها الشيخ، إنه واضح...
- المشكلة أنه هو ذاته لم يتضح له الأمر بعد.
- سأل الشيخ وهو يتأمل مقطباً حاجبيه الكثيفين: ماهو الغامض. قال إنه لم يعرف أبداً كيف يذهب إلى جبل الروح.
- يركز تفكيره وهو مغمض العينين.
- ألم تقل إنه هناك على ضفة النهر؟
- يعيد السؤال.
- لكنني سبق وذهبت إليه هناك...
- نعم، إنه هناك. يقاطعه مستعجلاً.
- وبالنسبة إلى بلدة وي يي؟

- حسناً إنه هناك قرب ضفة النهر
- في وي يي انتقلت من الضفة إلى الأخرى، وعندما تقول هناك على ضفة النهر فإنك تريد القول هنا هذه الضفة!
- ألا تريد الذهاب إلى جبل الروح؟
- بالطبع نعم.
- إذاً هو هناك على حافة النهر.
- أيها الشيخ ما تقوله غيبي، أليس كذلك؟
- يعاود بصوت جدي؟
- ألم تسألني عن الطريق؟
- يقول نعم.
- حسناً سأرشدك
- مستنداً على عصاه أخذ يبتعد خطوة خطوة دون أن يعير محدثه أي انتباه

وبقي وحيدا على هذه الضفة من النهر وهي الضفة الثانية بالنسبة إلى وي يي. المشكلة هي في معرفة جهة وي يي، إنه لا يعرف. تذكر عادة قديمة تعود إلى آلاف السنين وهي تقول:

ارجع، أولا ترجع، ولكن لا تمكث هنا. الريح على ضفة النهر باردة جداً.

بقي الإحساس بهذا الانعكاس غامضاً، فقد تقلص سطح الماء، وتساقطت جميع أوراق الشجر، وتلونت أغصانها بالرمادي والأسود. بدت الشجرة الأقرب مثل الصفصاف، وبعدها بقليل شجرتان قريبتان من الماء هما شجرتا دردار بالتأكيد. في الجهة المقابلة تمتد جذوع رفيعة من الصفصاف تنتهي أغصانها العارية بتشعبات صغيرة. لا نعرف إذا كان سطح الماء مجمداً ففي وقت البرد ربما تغطي طبقة رقيقة من الجليد سطحه، السماء ملبدة بالغيوم وكأنها ستمطر لكنها لا تمطر. لا شيء يخترق الهدوء، ولا تهتز نهايات الأغصان، الريح غائبة، وكل شيء جامد وكأنه ميت، هناك فقط صوت موسيقى ينطلق في الهواء خفيفاً يتعذر سماعه إلا بصعوبة. الأشجار مائلة قليلاً وشجرتا الدردار منحنيتان إلى حد ما، واحدة باتجاه اليسار والأخرى نحو اليمين، وجذع شجرة الصفصاف الكبيرة يمتد نحو اليمين، ثلاثة أغصان منها متساوية الحجم تتجه إلى اليسار لتؤمن توازن الشجرة. فيما عدا ذلك لا شيء يتحرك مثل سطح الماء الميت. يشبه المشهد لوحة جاهزة لم تخضع لأي تعديل أو تغيير، وحتى إرادة التغيير اختفت فلا إزعاج ولا حماس ولا رغبة في الأرض والماء والأشجار والأغصان. وعلى سطح الماء.

توجد آثار كستناء أسود تكاد تكون جزراً صغيرة، وهناك جروف وجزر رملية وحزم صغيرة تطفو على السطح تقطع الرتابة المصطنعة للمشهد. على الحافة تنمو بعض الشجيرات المنخفضة التي لا نلاحظها تماماً من جهة اليمين، تتباعد أغصانها مثل الأصابع الجافة ربما لتشبيه غير مقبول كثيراً لذلك نقول إن أغصانها متباعدة لا تستطيع الانطواء بينما بمقدور الأصابع فعل ذلك، إنها لا تمتلك الجاذبية. بالقرب منها وتحت الصفصاف توجد صخرة، هل هي في هذا المكان ليجلس عليها الناس ويستنشقون الهواء الرطب؟ أم ليضع عليها المارة أقدامهم أثناء عبورهم ليتجنبوا بلل أحذيتهم بالماء؟ من الممكن ألا تكون هذه الأسباب وجيهة، ولعله ليس حجراً، بل من الممكن أن يكون كتلتين ترابيتين أو طريقاً يمر من هنا أو شيئاً قريباً من ذلك يخترق هذا السطح المغطى بالماء. عندما يفيض الماء يغمر كل شيء إلى مستوى الغصن الأول من الصفصافة ويتحول إلى ما يشبه السد حتى نهاية الحواف، لكنه مخروق بفتحات ينزل منها الماء. عند هذا السد يفقد الأمان إذ يطير العصفور هارباً إلى أطراف أغصان الصفصاف، ومن الصعب

اكتشافه إذا لم نلاحق طيرانه ولن نراه إلا حينما يطير، إنه مفعم بالحياة. وبالملاحظة الدقيقة نرى الكثير منه يقفزون على الأرض حول جذع الشجرة ويجثمون. ثم يطيرون إنه أصغر حجما من ذاك المختفي على الشجرة وأقل سواداً أيضا، إنهم عصافير الدوري وهو من صنف الشحرور، إنه لم يطر، والسؤال هو: هل نستطيع تمييزه أم لا وليس وجود شحرور أو أكثر أو عدم وجوده فالأمر هنا واحد.

في الجهة المقابلة هناك عربة مقوسة تتحرك على العشب المصفر يدفعها رجل ويجرها آخر، إنها عربة ذات ذراع وعجلات من الكاوتشوك تصل حمولتها إلى نصف طن وتتحرك ببطء حركة لا تشبه من قريب أو بعيد حركة الدوري، إننا لا نلمح حركتها إلا إذا عرفنا أنها عربة، ولهذا علاقة بنظرتنا إلى ذاك المكان: هل هو طريق، طريق حقيقي حتى ولو غمرته المياه بعد الأمطار أو لم تغمره. ويمكننا أن نتابع النظر على امتداد خط لا ينقطع فوق الشجيرات المنخفضة والأعشاب المصفرة ونرى العربة البعيدة التي دخلت بين أغصان الصفصاف وبدت كعش عصفور لكن عندما يخترق النظر الأغصان يتضح أنها عربة تتحرك قليلاً وهي محملة بثقل كبير. هل تدرك أحجار الآجر أو الأرض والأشجار. في هذا المشهد، والعصافير والعربة معنى أشكالها؟ أي علاقة بين السماء الرمادية والماء وانعكاسه والأشجار والعصافير؟ السماء... الرمادية... امتداد من الماء... الأشجار العارية... اخضرار فيها... روابي الأرض... كل شيء أسود... العربة... العصافير... تندفع بقوة... لا تتحرك... سيل الأمواج... العصافير التي تنقر... الممرات الضيقة... شفافة... جوع الجلد وعطشه... نستطيع كل شيء... المطر... ذيل دجاجة... ريش خفيف... لون الورود... الليلة الظلماء... ليس سيئاً... ريح خفيفة... جيد... مدين لك... في البياض الذي لا شكل له... بعض الأشرطة... ملفوفة... برد... حر... ريح... ميل وأرجحة... لولب... الآن سيمفونية... ضخم... بقة... دون هيكل عظمي... في الهاوية... زر... جناح أسود... يفتح الليل... إنه في كل مكان... مريض... ضوء مشع... حوافز دقيقة... الحرائر السود... دودة... نواة الخلية... التي تدور في السيتوبلازما... العيون ولدت أولاً... يقول إن للأسلوب... القدرة على العيش بذاته... شحمة الأذن... آثار من دون أسماء... لا نعرف متى نزل الثلج ومتى توقف. طبقة بيضاء رقيقة لم يسعفها الوقت في التشكل على الأغصان. وأصبحت الجذوع الثلاثة التي تندفع بعكس الاتجاه، وينشدُّ نحوها الصفصاف، سوداء. شجرتان من الدردار إحداهما تتجه صوب اليسار وأخرى نحو

اليمين، نهايات الأغصان، بياض انعكاس الماء وكأنه الثلج الذي يسقط على سطح ممتد وموحل فيتجلد وجه الماء. قطع الأرض الممتدة في النهر والتي نسميها تجاوزا جزرا أو مقاعد، ليست سوى ظل أسود ومن المستحيل إدراك سبب تشكل هذا الظل الأسود إذا لم نعرف أنها كانت في الأصل سطوحاً من الأرض وإذا لم نعرف لماذا لم يتجمع الثلج عليها. في مكان آخر يبقى الأمر نفسه في مكان آخر فالأعشاب مصفرة، وفي مكان أعلى ما يبدو أنه طريق أصبح غير واضح المعالم. في رأس شجرة صغيرة منتشرة الأغصان نلحظ خطا مقوسا أبيض يتسلق باتجاه الأعلى، يبدو أن العربة تسلقت المنحدر من هذا المكان. في هذا الوقت اختفت العربة على الطريق وظهرت آثار المارة على الثلج بوضوح. وكذلك اختفت الصخرتان اللتان تشبهان الصخرتين الواقعتين أمام الصفصافة، فقد غطى الثلج معالمها، وتميز الطريق الذي نسلكه بعد تساقط الثلج وأصبح واضحا أكثر من العروق تحت الجلد. وهكذا استطاع مشهد عادي لا نعيره اهتمامنا عادة أن يثير فيه إحساساً عميقا. أما أنا فقد فجر في فجأة نوعاً من الرغبة في الدخول إلى هذا المشهد الثلجي لا أن أكون ظلاً، ظلا لا يحمل أي معنى، إنني في طريقي لأتأمل المشهد من النافذة. السماء معتمة والأرض مغطاة بالثلج مما يعكس تضاداً مع الظلام، اختفت الشحارير والعصافير واستقطب الثلج كل فكرة وكل معنى.

قرية ميتة، مغطاة بالثلج، وفي الخلف اكتست المرتفعات الجبلية الصامتة بالثلج. أما الآثار السوداء فهي أغصان الأشجار المقوسة، والباقات السوداء هي -من دون شك- ابر الصنوبر، وتبدو الظلال كصخرات تنبثق من الثلج. يغيب اللون، ولا نعرف هل نحن في الليل أم في النهار. ومن الظلام يتسرب بعض الضوء، ويبدو أن الثلج مستمر في التساقط ويمحو آثار الخطوات.

قرية مصابة بالجذام.

ربما.

لا نباح للكلاب.

لقد ماتت.

ناد.

غير مجدٍ، هناك أناس عاشوا هنا، وهنا جدار مهدوم غطاه الثلج الثقيل الذي دفن نومهم.

هل ماتوا وهم نيام؟

كان ذلك أفضل، لكنني أخشى من أن يكون في الأمر مجزرة، إبادة جماعية، قضى فيها الجميع، قتلوا الكلاب أولا بقطع الخبز الصغيرة المحشوة بالزرينخ.

ألا تنبح الكلاب خلال الاحتضار؟

يضربونها بحمالات مزدوجة على مقدمة الوجه، إنها آلة ممتازة.

لماذا؟

هذه هي الوسيلة الوحيدة لقتلها فوراً.

ألم يقاوم واحد من الكلاب؟

لقد قتلوها داخل البيوت، ولم يستطع أحد منها الهرب.

ولا الأطفال؟

واجهوهم بالفأس.

وحتى النساء لم تترك؟

عندما اغتصبوهن وذبحوهن، وكان الوضع هنا أكثر شناعة...

اخرس

هل أنت خائف؟

أهناك أكثر من عائلة في هذه القرية؟

عائلة من ثلاثة أخوة.

ماتوا أيضاً؟

كانوا إما ضحية الانتقام العائلي أو ضحية الوباء أو أنهم عملوا بالبحث عن الذهب في مجرى النهر.

هل قتلوا من قبل أشخاص مجهولين؟

منعوهم من البحث عن الذهب ضمن حدودهم.

أين هو مجرى هذا النهر؟

تحت أقدامنا.

وكيف لم نره؟

إننا لا نرى سوى البخار الذي يتصاعد من الجحيم. إنه انطباع فقط، إنه نهر ميت.

ونحن فوقه؟

نعم، دعني أقودك.

أين؟

إلى الضفة الأخرى من النهر وعلى امتداد الثلج الأبيض النقي وفي طرف الحقل توجد ثلاث شجرات وعندما نتجاوزها نصل أمام الجبل حيث البيوت المهدمة تحت وطأة الثلج، ولم يبق منها إلا جدار واحد، وخلفه يمكننا أن نجمع بقايا القرميد المكسور وقطع كؤوس السيراميك الأسود. لايمكنك أن تحجم عن دفعها بقدمك. أحد عصافير الليل جعلك تقفز من مكانك حين طار بتثاقل من جانبك. لا ترى في السماء شيئاً، ولا ترى سوى الثلج المستمر في التساقط ليصنع سياجا يحجب خلفه حديقة من الخضار. وتعرف، تحت الثلج يوجد زرع من نبات الخردل الذي يقاوم البرد ومن القرع ذي القشرة المجعدة مثل النساء العجائز.

تعرف جيدا هذه الحديقة النباتية، وتعلم أين الممر الذي يقود إلى عتبة الباب العميق. وأنت جالس هنا أكلت بعض الكستناء المشوية. إنك لا تدري هل هذا حلم الصبا أم أنه الصبا الذي تحلم به. أدركت أن ذلك يتطلب جهداً كبيرا، وتنفسك ضعيف في الوقت الحاضر، عليك التنبه، لا تدس على ذيل القطة التي تبرق عيناها في الظلام، تعرف أنها تراك وتتظاهر بأنها لا تراك. يجب أن تجتاز الفناء الداخلي دون أن تنطق بكلمة وهناك عود مرفوع وضعت عليه منسفة مصنوعة من القدد المجدولة هي وأنت تختبئان خلف الباب. في اليد خيط لمراقبة الطيور. الرجال

الكبار يلعبون الورق في المنزل، ويضعون جميعا نظارات مدورة بإطارات من النحاس، عيونهم منتفخة كالأسماك الحمر لكنهم لا يرون شيئاً إذ يعرضون الأوراق ورقة ورقة أمام نظاراتهم. انزلقتما تحت الطاولة، وحولكما سيقان وحافر حصان، وذيل ضخم أشعث تعلم أنه الثعلب، لا يتوقف عن الحركة، وانتهى بالتحول إلى نمرة بالجلد المخطط تجلس على كنبة كبيرة، ويمكنها أن تقفز عليك في أي لحظة. لن تستطيع الإفلات، وتعرف أن الصراع معها شرس، وتنقض عليك!

ما الأمر؟

لا شيء، رأيت في حلمي أنها كانت تثلج في إحدى القرى، وقد أضاء الثلج عتمة السماء. كانت ليلة خيالية. الهواء بارد، ورأسي فارغ، وأحلم دائماً بالثلج والشتاء وبآثار الأقدام على الثلج في الشتاء، وأفكر فيك،

لا تحدثني عن هذا، لا أريد أن أكبر، أفكر بأبي، وحده من أحبني، إنك لا تهتم سوى بالنوم معي، لا يمكنني ممارسة الحب دون حب.

أحبك،

غير صحيح، إنها رغبة عابرة،

ماذا تقولين؟ أحبك!

نعم، السير على الثلج مثل الكلاب يخصك أنت، أنا لا أريد إلا نفسي،

سيأخذك الذئب بين أنيابه ويلتهمك كاملة، وسيحملك الدب إلى مغارته ويتخذك زوجةً له!

إذا كنت تفكر بذلك فهذا يعني أنك مهتم بي، وقلق تجاه مشاعري،

أية مشاعر؟

ضمني، أي أبله، أفكر في الطيران...

ماذا؟

رايت وردة في الليل،

أي وردة؟

وردة الكاميليا

سأقطفها لك،

لا تتلفها، لا داعي لأن تموت من أجلي،

لماذا الموت؟

اطمئن، لا أرغب في موتك من أجلي، إنني وحيدة ولا يوجد صدى لصرخاتي، كل شيء ساكن حولي، ولا ضجيج البتة، والهواء ثقيل. أين هو النهر الذي يفتشون فيه عن الذهب؟

تحت الثلج، تحت قدميك،
غير صحيح،
إنه نهر تحت الأرض، يحدثون فجوة فيه، إنه مائل في الوجهة الأمامية،
هل هناك مجموعة من الأشجار؟
ماذا؟
لا يوجد شيء
إنك سيء.
من قال لك أن تطرحي أسئلة؟ هيه! هيه! وكأن هناك صدى أمامنا، اصطحبني، إذا أردت،
...
رأيتك وإياها على الثلج في الليلة الظلماء، من الصعب تمييزك، كنت تمشي حافياً.
ألا تشعر بالبرد؟
لا أعرف ماهو البرد.
وتسير معها بهذا الشكل في الثلج، وأنتما محاطان بالغابات والأشجار الخضراء.
النجوم غائبة؟
لا.
ألا توجد مصابيح مضيئة؟
لا، لا شيء أنتما وحدكما فقط تسيران معاً على الثلج، إنهاتضع وشاحا، وأنت عاري القدمين، كان لديك إحساس ضعيف بالبرد. إنك لا ترى نفسك، تشعر فقط بأن قدميك عاريتان في الثلج، وكانت بجانبك تمسك بيدك.
شددت على يدها وقدتها.
هل سنسير وقتا طويلا؟
نعم، المكان بعيد، ألستِ خائفة؟
كانت ليلة غريبة، زرقاء-سوداء، مشعة، لا أخاف معك.
تحس بالأمان؟
نعم.
هل ضممتك بين ذراعي؟
نعم، استند إليك وتضمني بهدوء.
هل قبلتك؟
لا.

ألديك رغبة؟

نعم، لكنني لم أعبر عنها بصراحة، كان الأمر حسنا هكذا، ونحن نهبط شاهدت كلباً.

أين؟

أمامي، كان جالساً، عرفت أنه كلب، رأيتك تعطس وتنفخ كمية كبيرة من الرذاذ.

هل أحسست بالحرارة؟

لا، لكنني عرفت أنك تنفخ هواء ساخناً، عطست فقط، لكنك لم تتكلم.

أكانت عيناك مفتوحتين؟

لا، أغمضتهما. غير أنني رأيت كل شيء، لا أستطيع فتح عيني لأنني أعلم أنني سأفقدك إذا فتحتهما، وتابعت هكذا وتابعت ضمي بنعومة. لا أستطيع التنفس، أردت النظر ثانية والإمساك بك. آه لقد انفصلا وتابعا المسير.

دائما في الثلج؟

نعم، هذا مريح، صحيح أنني أشعر بشيء من البرد، لكنني بحاجة إلى متابعة السير هكذا.

هل ترين نفسك كيف تكونين؟

لست بحاجة إلى الرؤية، أريد فقط الاحساس بشيء، من البرد، والشعور بالثلج، وأنك قريب مني. عندها سأكون هادئاً وسأتابع سيري. عزيزي، هل سمعت ندائي لك؟

نعم

قبلني، قبِّل راحة كفي، أين أنت، لا ترحل!

إنني بقربك.

لا، إنني استدعي روحك، أناديك، تعال، لا تتركني.

طفلة غبية، لا أجرؤ على ذلك.

خائفة، خائفة من أن تتركني، لا تتركني، لا أحتمل الوحدة.

ألست بين يدي الآن؟

نعم، أعلم، وأنا مدينة لك بذلك يا حبيبي.

نامي، نامي بهدوء.

لا أحس بالنعاس، ذهني متفتح تماماً وأرى الليل شفافا، والغابة زرقاء، والثلج مكوم، لا نجوم ولا قمر. أرى ذلك كله بوضوح، أي ليلة غريبة، أريد أن أبقى معك دائما في هذه الليلة الثلجية، لا تتركني، لا تتركني، أريد أن أبكي، لا أدري لماذا، لا تتركني، لا تبتعد عني، لا تقبل امرأة أخرى!

قدم إلي صديق.. -وكان الفصل شتاء والثلج يهطل أيضاً- ليحكي لي عن مدة الإصلاح والتأهيل. كان يتأمل مشهد الثلج عبر النافذة مقطبا حاجبيه وكأن الانعكاس شديد على عينيه، ويبدو غارقا في ذكرياته.

في مزرعة الإصلاح والتأهيل توجد -كما روى- علامة وضعها عاملو المساحة، رفع رأسه ونظر من النافذة ليقدر ارتفاع مبنى قريب يصل ارتفاعه على الأقل إلى خمسين أو ستين مترا، على كل حال، العلامة ليست أقل ارتفاعاً من هذا المبنى. مجموعة من الغربان تطير في المنطقة، تقترب وتبتعد وتدور دون توقف وهي تنعق. كان المدير المسؤول عن حراسة المحكومين بالإصلاح جنديا قديما خاض الحرب الكورية ويضع النياشين العسكرية، إنه معوّق حرب فلديه ساق أقصر من الأخرى ويعرج في مشيته. لا أعرف أية صعوبات اعترضته، لكنه لم يرتق إلى أكثر من رتبة نقيب، ولا يكف عن الشتم لأنه أرسل إلى هنا لحراسة هؤلاء المجرمين.

استحلف بلهجة شمال جيانغسو Jiangsu : أستحلفك بفرج أمك، من هذا الأبله الذي يحرمني من النوم؟

يضع معطفاً عسكرياً على كتفيه، يدور حول العلامة

اصعد وانظر! أمرني. كان علي خلع سترتي والتسلق، وفي منتصف الصعود هبت ريح قوية فارتعدت فرائصي، ألقيت نظرة نحو الأسفل فأحسست أن ساقيي المضطربتين ستتخليان عني. كانت سنة المجاعة، ففي القرى المجاورة يموت الناس جوعا، وفي المزرعة كان الوضع أفضل قليلا، إذ جمعنا محصول البطاطا الحلوة والفول السوداني في مستودعات العلف. وقد استقطع النقيب قسما منها ولم يرسله مع بقية المحصول إلى رؤسائه. في العمل حصة كل واحد منا ثابتة وحتى لو كان مصابا بوذمة فإنه لا يعفى من العمل.

لكنني كنت ضعيفا تماماً ولا أستطيع التسلق.

ناديت: أيها النقيب!

قل لي ماذا يوجد في القمة، قال صارخاً:

رفعت رأسي.

ربما هناك حقيبة معلقة. قلت له.

تظهر نجوم أمام عيني.

لا أستطيع التسلق! صرخت.

إذا ليصعد شخص آخر مكانك! وبدأ سلسلة الألفاظ البذيئة، مع أنه ليس سيئا في قرارة نفسه.

هبطت.

ابحث لي عن الحرامي، قال لي.

الحرامي هو أيضاً معاقب بالإصلاح، إنه شيطان صغير عمره بين ثماني عشرة سنة إلى تسع عشرة سنة سرق محفظة راكب في إحدى الحافلات، ولقبوه بالحرامي.

وجدته، نظر إلي من فوق وتردد. غضب النقيب

وكأنني أرسلك إلى الموت؟

أفصح الحرامي عن خوفه من الصعود.

طلب النقيب إعطاءه حبلا، وأضاف بأنه سيحرمه ثلاثة أيام من المخصصات التموينية إذا لم يصعد!

يربط الحرامي نفسه ويتسلق. كنا في الأسفل نتعرق خوفا عليه. عندما وصل إلى ثلثي المسافة ربط حبله بالقضبان المعدنية. وصل إلى القمة. واصلت الغربان نعيقها وهي تدور حوله وهو يبعدها بيده، وطار كيس من القنب حتى سقط في أسفل العلامة. ورأينا جميعا أن الكيس مثقوب من قبل الغربان لكن ما يزال نصفه مليء بالفول السوداني!

بفرج أمك، عاد النقيب مجدداً لهذا الكلام.

اجتماع!

صافرة. اجتماع عام. وبدأ تعنيفاته، ثم سأل من فعل هذا؟

لا أحد يجرؤ على قول كلمة.

لم يطر وحده إلى الأعلى أليس كذلك؟ لقد ظننت أنه جسد ميت!

أحجمنا عن الضحك.

إذا لم يعترف أحد فسيقطع التموين عن الجميع.

الجميع يخشى ذلك. نراقب. وأخيراً فكر كل منا بأن الحرامي وحده القادر على تسلق العلامة. اتجهت الأنظار إليه، خفض رأسه ولم يرفعه أبدا، ثم ركع على ركبتيه واعترف بأنه سرق الكيس وأخفاه في الأعلى، وادعى أنه يخاف الموت جوعاً.

سأله النقيب: هل استخدمت حبلاً.

لا.

إذا ما هذه الخديعة التي فعلتها؟ أعلن النقيب: سيحرم هذا السافل القذر من الغذاء مدة يوم!

الجميع أيد.

ينفجر الحرامي بالبكاء

يبتعد النقيب ببطء.

جاءني صديق آخر قائلاً إن هناك أمرا مهما جدا يريد مناقشته معي.

موافق، ماهو؟

يقول إنه حكاية طويلة.

قلت له اختصر.

قال حتى مع الاختصار يجب البدء من أول الحكاية

إذاً إبدأ، قلت له.

سألني إن كنت أعرف حارسا امبراطوريا عند امبراطور ذكر لي اسم الامبراطور وحقبته، وكذلك اسم رئيسه وتسميته. إنه الحفيد المباشر في الجيل السابع لهذا النبيل. صدقته دون أن أدهش أبدا، فسواء أكان جده مجرما أم وزيراً مهما في البلاط لن يكون لذلك أي تأثير في زماننا.

بلى، لهذا الأمر أهمية قصوى، قال. فمكاتب الآثار والمتاحف والأرشيف واللجنة السياسية الاستشارية للشعب وتجار الآثار كلهم جاؤوا لرؤيته ولا يكفون عن مضايقته.

سألته إن كان يمتلك بعض الآثار الثمينة.

إنك لا تعرف الحقيقة، قال

ألديك أشياء لا تقدر بثمن؟

لا تقدر بثمن أو تقدر، إنه لا يعرف عنها شيئاً، ومن الصعب تقدير ثمنها بالملايين أم بعشرات الملايين أو بعدة مئات من الملايين. فالأمر لا يتوقف عند قطعة أو قطعتين إنها قطع من البرونز الشعائري بالشانغ والحجر الكريم، وسيوف تعود إلى الممالك المقاتلة القديمة نادرة وثمينة، ومخطوطات ولوحات وكتابات تملأ جميعها متحفا، وقد نشر بيانا بكل هذه المقتنيات منذ وقت طويل.

لايعد أقل من اربعة أجزاء مجموعة بالطريقة التقليدية، ويمكن الاطلاع عليه في مكتبة للكتب القديمة. هذه الكنوز التي تجمعت عبر سبعة أجيال، منذ مئتي سنة أي منذ حقبة تونغ زهي، بقيت محفوظة حتى يومنا هذا!

قلت بأنني لا أندهش من بقائها إلى الآن، لكنني بدأت أقلق من أمر حمايتها.

قال: ليس ثمة ما يخشاه من هذا الجانب، ولكنه لم يعد يستطيع العيش بهدوء، لأن عائلته، وهي عائلة كبيرة، وأحفاد أجداده، وأباه، وأعمامه، وكل أقربائه يأتون لرؤيته باستمرار. ولم تكن الخلافات تتوقف فيما بينهم، لقد ضاق صدره حقاً من هذا. هل أرادوا الاقتسام؟ قال إنه ليس هناك شيء للقسمة. إن هذه عشرات

الآلاف من الأغراض الثمينة، من الذهب والفضة، والأحجار الكريمة، والثروة العائلية كلها أحرقت أو سرقت مرات عديدة، إما من قبل التيبنغيين، أو من قبل اليابانيين، أو أسياد الحرب المختلفين. بعد ذلك، أعاد أجداده جمع هذه الأغراض الثمينة، ولكنهم أهدوها إلى الدولة أو أنهم باعوها وقبضوا ثمنها. لأنها كانت قديما تصادر إذا اكتشفت. لم يبق منها شيء الآن ولماذا النزاعات الآن؟ لا أفهم جيدا. قال وهو يظهر عليه التوتر، لهذا السبب يجب رواية القصة من البداية. أنت تعرف السرادق ذا الصندوق الذهبي أو خزانة الأحجار الكريمة؟ يبدو عليه أنه أخذ هذا المثال مصادفة، ولكن من الواضح أن هذا هو الإسم الحقيقي سرادقه الممتلئ بالكنوز. ذكر اسم هذا السرادق في كتب التاريخ، والحوليات المحلية، وسجلات أجداده، وفي كثير من المصادر الأخرى. ويعرفه اليوم جميع أولئك الذين يعملون في مجال تجارة القطع الأثرية، في موطنه الأصلي، في الجنوب. قال: عندما دخل الجيش التيبنيغي إلى المدينة أحرق السرادق الذي كان فارغاً، رُحّل القسم الأكبر من أثاثه على عجل إلى بيوت عائلته. أما بالنسبة إلى الكنوز التي صُنفت في مجلد، فإنه يقال إنهم احتفظوا بها سرا. أسرّ له والده في العام الماضي، قبل وفاته مباشرة، أن هذه الكنوز دفنت في منزل عائلي قديم، ولكنه لا يعرف تماماً مكان دفنها. كشف له فقط أن أجداده تركوا له مجموعة من القصائد المخطوطة باليد، والتي رُسم عليها بحبر اسود مخطط عام لمسكنهم القديم تبدو فيه الشرفات، والأروقة، والحدائق، والهضاب الاصطناعية. في الزاوية العليا مباشرة، كتبت قصيدة من أربعة أبيات تحدد سرا مكان دفن الكنوز. ولكن الديوان الشعري أخذ من قبل الحراس الحمر عندما جاؤوا إلى بيته، ولم يجد له بعد ذلك أي اثر. كان العجوز قادرا على إلقاء هذه الأبيات الأربعة عن ظهر قلب، وحدد له من الذاكرة مخطط المنزل القديم. حفظها بدوره عن ظهر قلب وبدأ في بداية هذا العام، البحث عن الموقع. ولكن الآن، شيدت أبنية إدارية أو سكنية فوق أنقاض المبنى القديم.

سألت: ماذا يعني؟ كل شيء دفن تحت هذه المباني.

قال: لا، إذا كانت الكنوز توجد تحت هذه المباني، كان يمكن العثور عليها عبر

حفر الأساسات، خاصة مع هذه الآلات الحديثة: يجب حفر قنوات عميقة جدا. ذهب يستفسر الشركات المسؤولة عن الأعمال، الذين أكدوا عدم العثور على أي أثر عند البناء. قال لي إنه درس بعمق هذه الأبيات الأربعة، وإنه حلل تضاريس المكان، وإن لديه حظوظا كبيرة في إمكانية تحديد المكان الذي يوجد فيه الكنز، وهو موقع فيه الآن مساحة خضراء بين مبنيين. كيف تفكر في الوصول إليه؟

قال إنه يريد التحادث معي حول هذه المسألة.

سألته إذا كان يفكر بدفع أموال هو بأمس الحاجة إليها. لم ينظر إليّ، ولكنه نظر عبر النافذة إلى الأشجار الصغيرة اليابسة.

ما الذي تقوله؟ إن راتبي وراتب زوجتي لا يكفينا مع أطفالنا إلا للطعام فقط، ولا يمكننا أن نتحمل نفقات أخرى، ولكنني لا استطيع أن أبيع أجدادي بهذا الشكل. من المؤكد أنهم أعطوني مكافأة، ولكنها لا تمثل شيئاً. قلت! إن هذا سيكون موضوع خبر في الصحافة: إن سليلا من الجيل السابع من هذه المنطقة أو تلك قدم هدية للدولة، وتلقى مكافأة معينة.

ضحك بمرارة، وقال إن اقرباءه القريبين والبعيدين سيأتون إليه ليأخذوا حصتهم من هذه المكافأة غصبا عنه. ليس هناك داع لهذا. إنه يعتقد أن الدولة هي التي ستغتني غالباً. أجبت: هل أصبحت الدولة غنية مع كل هذه الكنوز التي ورثتها.

هزّ رأسه، إنه يعتقد أيضاً انه قد يقع مريضا أو يموت بحادث سيارة، عندها لن يعرف أحد بالموضوع انقل هذه الأبيات الأربعة إلى ابنك فكر بذلك، ولكن ما الذي يحدث إذا أساء ابنه التصرف وباع الكنوز؟

ألا يمكن مراقبته؟

ابني مازال صغيرا، يجب تركه يدرس بهدوء يجب ألا يخسر روحه مثلي، في المستقبل، بسبب هذه القصة العبثية. لقد رفض هذه الفكرة بصورة مطلقة.

أو اترك قليلاً من العمل لعلماء الآثار في المستقبل. ماذا أستطيع أن أقول أكثر من هذا؟ فكّر قليلاً، ثم ضرب على ساقه بكف يده وقال: جيد، لنعمل مثلما تقول. لتبق هذه الكنوز مدفونة! نهض وغادر.

جاء صديق آخر لرؤيتي. إنه يشبه موظفا كبيرا يقوم بزيارة إلى الخارج، مع معطفه المصنوع من الصوف الجيد، وحذائيه البراقين المصنوعين من الجلد الاسود. شرح لي بصوت قوي وهو يخلع معطفه، إنه جمع ثروة عبر قيامه بأعمال تجارية! الإنسان اليوم يختلف عما كان عليه البارحة. كان يرتدي، تحت معطفه، طقما مفصلا بصورة جيدة، ويضع حول عنقه ربطة عنق مزينة بأزهار حمراء. وهو بهذا

يشبه مندوبا لشركة مقيمة في الخارج.

قلت له، ألا يخشى من البرد في الخارج ويلبس هكذا. قال إنه لم يعد يستقل الحافلات العامة، وإنه استخدم سيارة تكسي في قدومه، وينزل هذه المرة في فندق بكين! ألا تصدقني؟ لا يوجد في هذه الفنادق الضخمة إلا الأجانب الذين يمتلكون حق دخولها! هزّ حزمة مفاتيح مربوطة إلى كرة من الجلد المنقوش عليها كتابة إنكليزية.

أخبرته أن على النزيل عندما يترك الفندق أن يعيد مفتاحه إلى الاستقبال. قلت بنبرة ساخرة. عندما نتعود على الفقر، نحتفظ بالمفتاح دائما معنا. ثم نظر إلى غرفتي كيف تستطيع العيش في هذه الغرفة الوحيدة؟ تكهن، كم غرفة أستخدمُ في منزلي. قلت إنني لا أستطيع التكهن. ثلاث غرف إضافة إلى غرفة إقامة، وهذا في بكين يساوي شقة مدير منطقة، أو مدير مكتب.

نظرت إلى وجنتيه الحمراوين الحليقتين جيدا. لم يعد يشبه ذلك الرجل الذي عرفته في الريف، والذي كان هزيلا ومهملا. سأل: لماذا ليس عندك جهاز تلفزيون ملون؟ أخبرته أنني لا أتفرج على التلفزيون. ولكن حتى وإن لم تتفرج عليه فهو للزينة. يوجد عندي جهازان، واحد في الصالون، والآخر في غرفة ابنتي. ابنتي وزوجتي تتفرجان على برامج مختلفة. ألا تريد شراء جهاز؟ سأرافقك مباشرة إلى المخزن الكبير لكي أدفع لك ثمن جهاز واحد. هذا صحيح. نظر إلي، ورمش عينيه. هل تخاف أن تحرق النقود أصابعك. يجب تقديم هدايا للموظفين الكبار من أجل القيام بنشاط تجاري. إنهم لا يأكلون إلا من هذا الخبز. لا تريد أن يعطوك مخططا أو تعليمات، أليس كذلك؟ كل الناس يقدمون هدايا. ولكنك أنت صديقي هل تحتاج إلى النقود؟ يمكنك الاعتماد علي حتى عشرة آلاف يوان. ليس هناك مشكلة. حذرته بقولي: لا تخرق القانون.

أخرق القانون؟ إنني أكتفي بتقديم بعض الهدايا. لست أنا من يخترق القانون، يجب إيقاف الرؤساء .

لايمكن إيقاف الرؤساء.

في هذا، أنت تعرف أكثر مني لأنك تسكن في العاصمة، إنك تعرف كل شيء. ولكنني ألفت نظرك إلى أن إيقافي ليس بهذه السهولة، إنني أدفع الضرائب المتوجبة عليّ، وآكل مع مدير المنطقة، أو مدير المكتب التجاري المحلي. لم يعد الوقت مثلما كان عندما كنت معلما في قرية نائية. كان علي صرف رواتب أربعة أشهر من رواتبي على الدعوات التي أقمتها لمسؤولي مديرية التربية، وذلك من أجل الانتقال من

الريف الذي عانيت فيه. أغمض عينيه، وعاد إلى الخلف خطوة، وانحنى لكي يدقق رسماً بالحبر الصيني يمثل منظر ثلج. التقط أنفاسه لحظة، ثم استدار وقال: ألا تعجب بخطي؟ إنك تقدره، ولكن المعرض الذي أريد تنظيمه في المركز الثقافي في المنطقة لم يوافق عليه، في حين أن أي كلمة مهما كان مستواها، يكتبها من هو في موقع كبير، أو معروف، تعرض في المعارض وتكون موضوع دراسة، وهؤلاء يكونون عادة في موقع نائب رئيس معهد علم الخط أو الرئيس الفخري.

سألته إذا كان لا يزال يكتب الخط. هذا لا يؤمن معيشة، مثلما هو الحال معك بالنسبة إلى كتبك. إلا إذا اصبح الإنسان في يوم من الأيام مشهورا، ولاحقه الناس لكي يطلبوا منه خطا جميلا. المجتمع هو الذي يريد هذا، الآن فهمت.

هذا لامعنى له.

ولكن هذا يوترني قاطعته أنت لم تفهم إذن. قاطعته لكي أسأله إذا كان قد أكل. لا تهتم بهذا. سأطلب سيارة بعد لحظة، لكي تأخذك إلى المطعم. أي مطعم تريد. إنني أعلم أن وقتك ثمين. أريد أولا أن أقول لك ما أريد قوله لك: أريدك أن تساعدني.

قلت: أساعدك في أي شيء؟

أريدك أن تساعدني في إدخال ابنتي إلى جامعة جيدة. قلت أنا لست رئيسا لجامعة. بالطبع، ولكن لك علاقات، أليس كذلك؟ جمعت ثروة حالياً، ولكنني في نظر الناس مجرد مضارب يمارس التجارة. لا أريد أن تعيش الحياة التي عشتها. وأرغب في إدخالها إلى جامعة معروفة لكي تعيش في المستقبل في طبقات المجتمع الراقية. ولكي تتزوج من ابن موظف كبير؟ هذا لا أهتم به، هي ستعرف ما الذي يجب أن تفعله.

وإذا لم تستطع الدخول إلى الجامعة؟ لا تقاطعني، تستطيع مساعدتي، نعم أو لا؟ يجب أن أرى نتائجها، لا يمكنني فعل شيء. نعم، نتائجها جيدة. ليس عليها إذن إلا النجاح في الامتحان. أي مغفل! تعتقد أن كل أولاد الموظفين الكبار يخضعون للامتحان وينجحون فيه. لم أبحث في هذا. أنت كاتب. ماذا يعني؟ إنك تمثل وعي المجتمع، عليك مساعدة الشعب والحديث من أجله. دعك من المزاح. أأنت الشعب؟ أم أنا؟ أم نحن. لن أكتب إلا من أجلي.

ما أريده هو أن تقول الحقيقة دائما. هذا مؤكد. هيا يا أخي العجوز، ضع معطفك عليك لنذهب إلى الطعام، أنا جائع.

قرع أحدهم الباب. لا أعرف الرجل الذي فتحه. يحمل حقيبة من الجلد

الأسود. قلت له إنني لن أشتري بيضا، وإنني خارج لآكل.

إنه لايبيع البيض. فتح لي حقيبته لكي يريني ما تحتويه. لا يوجد سلاح داخلها. فهو إذن ليس لصا هاربا. أخرج مخطوطة كبيرة وشرح لي، وهو قلق، أنه جاء لرؤيتي ليطلب مشورتي. كتب رواية ويريد أن ألقي عليها نظرة. أدخلته ودعوته إلى الجلوس. رفض عرضي، ويريد أن يترك المخطوطة وسيمر في يوم آخر. قلت لا حاجة إلى ذلك، من الأفضل قول ما سنقوله مباشرة. فتش بيديه الاثنتين حقيبته، وأخرج علبة تبغ. ناولته أعواد الثقاب، راجيا أن يشعل سيكارته بسرعة، ويقول لي ما يريد قوله. شرح لي وهو يتلعثم أنه كتب قصة حقيقية...

قاطعته لكي أبين له أنني لست صحفيا، ولا أهتم بالحقيقة.

زاد تلعثمه، وقال لي إنه يعرف أن الأدب لا يشبه التحقيق الصحفي. إن ما كتبه هو رواية ترتكز على أحداث وشخصيات واقعية، مع ما يجب من التخييل. إنه يأمل في أن أقول له إذا كانت هذه الرواية صالحة للنشر، ويمكن نشرها. قلت له إنني لست ناشرا. قال إنه يعرف هذا جيدا، وإنه يريد فقط أن أساعده في هذا، وأن أصحح له مخطوطه. إذا قبلت، يمكنني إضافة اسمي، وسيكون نوعاً من المشاركة. سيوضع اسمه، بالتأكيد، بعد اسمي على الغلاف. قلت إنني أخشى أن يصبح الأمر أكثر صعوبة إذا أضفت اسمي. لماذا؟ لأنني أجد صعوبات كبيرة في نشر كتبي الخاصة.

وافق، لكي يبين لي أنه فهم. خشيت ألا يكون فهم كل شيء، فشرحت له أنه من الأفضل أن يجد هو نفسه ناشرا. صمت وهو حائر.

سألته: هل تستطيع أن تأخذ مخطوطك؟ فأجاب وهو يفتح عينيه الواسعتين: أتستطيع أخذها إلى أحد الناشرين؟

من الأفضل أن ترسلها مباشرة إلى دار نشر، هذا يجنبك كثيراً من المشكلات. أظهرت بسمة كبيرة. ضحك هو أيضاً، وأعاد مخطوطه إلى حقيبته، ودمدم ببعض كلمات الشكر.

لا، أنا من يشكره. قرع الباب من جديد، ولكنني لا أرغب في فتحه.

- ٨٠ -

تتقدم باتجاه الجبل الجليدي خطوة خطوة، وأنت تلهث، وتتحدى ألف عائق.

النهر المجمد الزمردي الأخضر معتم وشفاف. تحت الجليد، الأسود والأخضر، تبدو تموجات كثيرة كعروق من الحجر الكريم.

تنزلق على السطح المضيء، البرد يجمد وجنتيك، وقطع الثلج التي تراها أمام عينيك تطغى على ألف نار. والبخار الذي يخرج من فمك يتجمد على حاجبيك، تحيط بك عزلة جليدية فظيعة.

يظهر مجرى النهر بشكل واضح، ويتحرك الجبل الجليدي قليلاً بسرعة يصعب حسابها، ربما بعض الأمتار أو عشرات الأمتار في السنة.

تصعد الجبل الجليدي، إنك تشبه حشرة ستتوقف عن الحركة بعد قليل لأنها ستتجمد بفعل البرد.

إلى الأمام، في الظل الذي لا تستطيع الشمس الوصول إليه ينهض جدار جليدي تعصف به ريح إذا ما هبت بسرعة تزيد عن المئة متر في الثانية فإنها تصقل هذا السور الأملس تماماً.

بين هذه الجدران الكريستالية من الجليد تظل ساكنا غير قادر على التنفس. يقتحم الألم رئتيك، ويتجمد دماغك كله تقريبا، ولا تستطيع التفكير. إنه بياض تام، أليست هذه هي الحالة التي تبحث عنها؟ حالة مشابهة لعالم الجليد هذا تخلق صورا من الغموض وتقوم على ظلال يصعب التعرف إليها فهي لا تدل على شيء ولا معنى لها: إنها حالة العزلة التامة.

تخشى السقوط مع كل خطوة، لكن هذا لا يهم، تستمر في الزحف ويداك وقدماك لا تنفصلان منذ وقت طويل.

على الجليد يخف الثلج تدريجيا، ولا يعلق إلا في الزوايا التي لا تطالها الريح. الثلج صلب، غير أن نعومته على سطح الجليد تستمر بفضل الطبقة الكريستالية القاسية.

عند قدميك في الوادي يدور عقاب، هناك حياة غير حياتك، لا تعرف إذا كان الأمر مجرد انطباع فقط، المهم أن يكون لديك رؤية.

تصعد قاطعا دورات ودورات، لكنك خلالها، وبين الحياة والموت، مازلت تناضل. مازلت حيا طالما أن دما ينبض في عروقك، وحياتك لن تتوقف.

في هذا السكون الرهيب، يخيل إليك أنك تسمع صوتاً كريستاليا قادما من جرس وكأنه طرق على الجليد.

غطى الجبل الجليدي غيوم أرجوانية منذرة بقدوم العاصفة تدل حوافها الممتدة على قوتها.

وأيقظ الصوت الذي أخذ يزداد وضوحا قلبك المخدر، فرأيت امرأة تركب حصانا، ويظهر رأس الحصان وظل المرأة في الأفق المغطى بالثلج. في الخلف تمتد وهدة مظلمة. خيل لك أنك تسمع أغنية تترافق مع أجراس الحصان.

من تشانغ دو جاءت المرأة
على رأسها ضفيرة مثل خيط من الحرير
وعلى أذنيها قرطان من التركواز
وفي يديها أساور فضة تطلق ألف نور
وعلى خصرها زنار متعدد الألوان...

تهيأ لك وأنت تنتقل في جبل الثلج الكبير، أنك رأيت امرأة من التيبيت على حصان يمر بجانب السارية المنتصبة بجانب الطريق الرئيسي التي يصل ارتفاعها إلى خمسة آلاف وستمائة متر. ضحكت وهي تدير وجهها نحوك وتحثك على النزول إلى الوهدة المظلمة. لم تستطع في تلك اللحظة منع نفسك من المسير باتجاهها...

إنها مجرد ذكريات، فصوت الجرس كان في داخلك وكأنه يقرع على جبهتك، والألم الذي يمزق رئتيك لا يحتمل، وقلبك يضرب بجنون، ورأسك سينفجر، وعندما يتجمد الدم في عروقك فسيحدث الانفجار الهادئ. الحياة هشة، لكنها تقاتل بعنف، وهذا هو الاختيار الفطري.

تفتح عينيك، يبهرك الضوء ولا ترى شيئاً. غير أنك تتأكد من أنك تزحف. وما صوت الجرس المزعج إلا ذكرى بعيدة، فكرة غامضة مثل الانفجار المتلألئ للجليد الذي يتطاير في الهواء ويترك آثاره على شبكية عينيك، تحاول أن تتعرف جاهداً ألوان قوس قزح فتتعثر وتدور ثم تعود مكانك، لقد فقدت القدرة على التوازن، ولست سوى قوة عديمة الفائدة، رغبة ضبابية، رفض للاختفاء، ثقب أسود، مدارات جمجمة، نفق عميق، لا شيء، لحن مخالف، انشطار، انفجار!

... صفاء مجهول، كل شيء نقي، عذوبة يصعب تحقيقها، موسيقى هادئة تصبح شفافة. ومنتقاة بعناية. ومرتبة. تسقط لكنك تطير أثناء سقوطك فأنت خفيف والريح هادئة ولا توجد عقبات. مشاعرك عميقة وجسمك يحس بالطراوة، تركز

من أجل الاستماع إلى الموسيقى التي لا شكل لها مع أنها تملأ الأفق. لقد ضعف شريط ذكرياتك لكنه يبقى في نظرك مميزا، إنه رفيع مثل شعرة، ويشبه أيضاً شقا يمتد طرفاه في الظلمة ويفقد شكله ويختفي متحولا إلى شعاع من ضوء صغير جداً قبل أن يتبدد إلى ذرات غبار لا تحصى وتقلقك. ويجتمع الضوء في أطراف الغيوم الممتدة والمميزة تماما، ويخترقها ويتنقل بينها ويتحول إلى سديم كما الضباب، ويتغير ثانية فيتسمر ثم يصبح شمسا مدورة معتمة ترسل وميضاً أزرق، شمس في شمس تميل إلى الأرجوانية، ثم تتفتح، مركزها جامد ويميل لونها نحو الأحمر القاتم وترسل ضوءا أرجوانيا. تغمض عينيك كي تمنع أشعة الضوء من الوصول إليهما لكنك تفشل في منعها. ويفيض قلبك برعشات ورغبات، وعلى حافة العتمة تسمع الموسيقى، ويعلو الصوت الذي يتشكل، ويمتدُ، يخترقك. من المستحيل أن تعرف أين أنت. هذا الصوت الكريستالي القوي يقتحم جسمك من كل الجهات، وموجة قصيرة تختلط به ولا تستطيع تحديد إيقاعها لكنك تدرك ارتفاعها، وهي مربوطة بمجموعة أصوات خليطة تنتشر وتصبح نهرا يغيب ويعود، يظهر ويختفي. الشمس الزرقاء العاتمة تتحول إلى قمر أكثر عتمة. تلتقط أنفاسك وتتوقف عن التفكير، فقدت تنفسك وتصل إلى نهاية حياتك. تزداد الموجات الصوتية قوة شيئاً فشيئا وتغمرك وتدفعك إلى الهيجان، والرعشة الدماغية، وأمام عينيك وفي قلبك وجسمك الذي لا تعرف في أي زاوية يعيش تنعكس الشمس في القمر المظلم، في ضجيج يتصاعد بقوة، يكبر، يكبر، يكبر، يتعاظم، يتعاظم، يتعاظم، ثم ينفجر... يعود الصمت المطلق من جديد وتغوص في ظلمة أشد، وتحس دائما بضربات قلبك، ويتجسد الألم العضوي، ويظهر الخوف أمام موت هذا الجسد وهو على قيد الحياة، هذا الجسد الذي لم تتمكن من مغادرته استعاد ضميره.

في الظلام في إحدى زوايا الغرفة تستمر إشارة الكثافة الصوتية لآلة التسجيل في العمل دون انقطاع.

- ٨١ -

أرى من النافذة على الأرض المغطاة بالثلج ضفدعة صغيرة. إنها تغمز بعين وتحدق بالأخرى، وتراقبني دون أن تتحرك. فهمت أن الأمر يتعلق بإله.

تظهر إلي بهذه الصفة وتراقب إن فهمت ذلك.

تغمز بعينها لتكلمني، وعندما يتكلم الإله إلى الناس لا يريدهم أن يسمعوا صوته.

أنا لا يدهشني ذلك، وكأنه يجب أن يكون الأمر هكذا، وكأن الإله كان دائما ضفدعة بعين مدورة، ذكية ومفتوحة جدا. فكم هو رحيم حين يريد الاهتمام بإنسان مثير للشفقة مثلي!

كان علي أن أفهم اللغة غير المفهومة التي يتحدثها بعينه الأخرى وهو يغمز بالأولى الجفنين من أجل الناس. لكن هذا ليس شأنه.

ويمكنني أن أقدر أيضاً أن الغمز بالجفنين ليس له معنى ما، بل يكون معناه في غياب المعنى.

لا وجود لمعجزة أبدية غير مقنعة، هذا ما قاله لي الإله. طرحت عليه السؤال:

في هذه الحالة هل هناك شيء آخر يبحث عنه؟

كل شيء هادئ في المحيط، والثلج يتساقط بهدوء. إنني مندهش لهذا الهدوء، هدوء الجنة.

لا فرح، فالفرح لا يوجد إلا بالقياس إلى الحزن.

الثلج وحده يتساقط.

في هذه اللحظة لا أعرف أين يكون جسدي، ولا أعرف من أين جاءت هذه القطعة من الأرض إلى الجنة. إنني أتفحص المكان ومحيطه.

لا أدري إذا كنت لا أفهم شيئاً، أظن أنني أفهم كل شيء.

الأمور تسير ورائي وهناك دائما عين غريبة فالأفضل التظاهر بالفهم.

التظاهر بالفهم لكن في الحقيقة لا شيء مفهوم.

في الواقع لا أفهم شيئاً، لا شيء بالتمام والكمال.

هكذا.

صيف ١٩٨٢- أيلول ١٩٨٩ بكين - باريس

"هذه الرواية الشرقية" المكتوبة بلغة موسيقية، تبنت شكلاً معاصراً، مغرق اللحن والنغم، شكلاً متحرراً من كل قيد وقاعدة، ومن سموم اللغة المتخشبة كافة، مع إخلاصها للروايات الصينية التي تختلط بها الحكايات الخيالية وذكريات البوذيين، والأناشيد والقصائد الغنائية القصصية الشعبية، ووقائع سلالات هان Han و وي Wei الحاكمة، وملاحم المينغ Ming والكينغ Qing .

جان لوك دوان ، تلراما.

"هذا الكتاب الآسر، مأثرة فنان مصور وشاعر وفيلسوف، يبهرنا بثرائه، وبالألوف المؤلفة من ألوانه... فكانت كما المشكال لصين خالدة وقاسية أحياناً أخرى، الصين الممزقة بين الدمار والنهوض."

"ديان دو مارجري، الفيجارو."

"رواية عظيمة . بفضل جسارة غاو كسينغجيان وقوة إبداعه، علينا من الآن فصاعداً أن نرد الإعتبار لأدب التسعينات الصيني الذي أصابه النخر."

"ألان بيروب، اللموند"

"ها هو المقدام غاو كيسينغجيان يطلع علينا بواحدة من أكثر الروايات تشويشاً، إنها دليل جوال سماوي، دليل تتبعثر صفحاته كما الطيارات الورقية في مهب الريح عرض البحر. إنه الإفتتان."

"آندره كلافل، الإكسبرس."

غاو كسينغجيان: روائي ومؤلف مسرحي ومخرج ومصور وناقد أدبي، ولد عام ١٩٤٠ . قدم إلى فرنسا لاجئاً سياسياً، ليقيم بـ[illegible]م ١٩٨٨ ، وقد ارتقى بمؤلفاته الوفيرة ليصبح واحداً من أ[illegible] في زماننا.

